



# خاتمة التصوف

## وشرحها

تأليف:

الشيخ: محمد بن المختار بن محمد سعيد

الشهير بـ محمد اليزدالي: (1096 هـ . 1166 هـ)

تحقيق: الراحل بن أحمد سالم اليزدالي

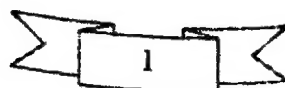
نشر وتحقيق:

الراحل أحمد سالم اليزدالي

محمد سعيد محمد فال الشيباني

الجزء الأول

الطبعة الأولى



## بسم الله الرحمن الرحيم كلمة الناسخ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أما بعد: ففي خضم هذه الحياة المادية العاتية الأمواج ذات الأهوال والمخاض كالبصر الهاخر لابد من هوق للنجاة ومنازل للاهتداء وربابنة مهرة للوصول إلى بر الأمان "وإذا مسكم الضرف في البحر ضل من تدعون إلا إياه" صق الله العظيم.

وفي خوامه اللوق وراء الحطام وانضغال القلب بهوم الدنيا يحتاج المرء إلى استفاقة وإشراقة، يحتاج إلى وقفة تأمل وتكبر وتفكر في خلقه وفي الغاية من وجوده في مصيره وفي مصير الكون حوله في مصير الدنيا ومآلها وسرعة إخبارها وزوالها لابد من لحظات ورد أو وارد للاتصال بالملأ الأعلى لتثبيت النفس وتفريج الكرب والغم والهم لابد للمرء من ساعة يخلو فيها بربه فكرا وفكرا وتكبرا وإلا تكون الحياة بغير معنى ولحن مغزى.

لابد من شيء من العلوة، من التصوف إن شئت ولكن هذا التصوف يجب أن يكون على منهج النبوة لا زيفا ولا انحرافا.

ولعل كتاب خاتمة التصوف للشيخ محمد بن سعيد اليدالي التي جعلها خاتمة لكتابه فرايد الفوايد ثم شرحها شرحا وافيا مستفيضا أبان فيه عن سعة إلهاع وفهم وتمكن من العلوم الشرعية ومعرفة بأهل الطريقة وآدابها لعل هذا الكتاب إذا أصبح في متناول القارئ يعين على التمسك

بغري النجاة ويغري بالتعلق بالله لذلك أشرت أن يكون من بين أولويات  
نشرنا وفي مقدمة منشوراتنا إن شاء الله.

وهو كتاب ممتع ومفيد ولا غرو في ذلك فمؤلفه هو من هو، وترجمته  
في مقدمة الكتاب وهو غني عن الترجمة.

والله أسأل أن يفعلي ووالذي وأشيأني ومن أعانني بهذا الكتاب، ومن  
قراه وانتفع به، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه وأن يثيبني عليه عذراً  
وأجراً يوم لا ينفع مال ولا بنون آمين وصل اللهم على سيدنا محمد وآله  
وصحابتة أجمعين.

محمد سعيد محمد فال الشيباني

الرباط في فاتح رمضان 1432 هـ

الموافق لـ 01 غشت 2011م



# مقدمة التحقيق



بسم الله الرحمن الرحيم وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله  
وصحبه وسلم تسليماً.

خاتمة في التصوف قدمناه توحيد المتكلمين وهو إفراد التوحيد مع عدم العمل  
بمقتضاه وأما توحيد الخواص وهو توحيد العارفين وهو التصوف وهو العمل بمقتضى  
التوحيد حتى لا يلتفت إلى الخلق ويتخلى ظاهراً وباطناً عن الرذائل ويتحلى فيهما  
بالآداب والفضائل.

وتشتمل هذه الخاتمة على:

-مقدمة

-وثلاثة أبواب

\* في الخلق (الباب الأول)

\* وفي الرذائل (الباب الثان).

\* وفي الآداب والفضائل (الباب الثالث)

## مقدمة:

أعلم أن العلم المتعلق بالظاهر كالأعمال يسمى تفقها وهو مقدم وبالباطن  
كالأحوال تصوفا والظاهر تبع للباطن فالمنخل بالأول هالك في الدنيا بحكم العلماء  
وبالثاني في الآخرة بحكم ملك الملوك فلزم جمعهما واعلم أن العلم والعبادة هما سببا  
السعادة فاجتهد في فعلهما وفي تصفيتهما من الآفات وصححهما بالإخلاص والصدق  
وباتباع السنة ولازم منهما ما ثقل على نفسك وما تثبت عليه لو جاءك الموت واحتمل  
مشقتهما زمنا قليلا لتسلم وتتنعم دهرا طويلا وإن اكثارهما مع الآفات غرور وتركهما  
لخوفها أو لعدم الحضور وترك التوبة لخوف العود غرور.

والعلم أفضل من العمل وأسه إلا أن العمل ثمرته وقليله معه خير من كثيره مع  
الجهل والعلم النافع ما كان تعلمه وتعليمه لله تعالى وحده ورياء ومباهاة ومراء ولا تصيدا

للدنيا وتحيل" لصرف القلوب وإلا كان حجة ووبالا على صاحبه وما أفاد الخشية وما أفاد الذل لله والخوف من الله والزهد والأدب والتواضع والافتقار وطهر القلب وفتح النفس ومنع صاحبه من المعاصي وإلا لم يمنع غدا من النار.

وأفضل العلم التوحيد فالتفسير فالحديث ثم أصول الفقه ثم الفرائض فالآلات على حسبها وأفضل العمل ما تعدت فائدته كالعلم ونفع المسلمين وما صفى القلب وهو وإن قل وما شق على النفس كالإلفاق للبحيل والصوم للشره وما قساه وأفضل الذكر القرآن كما أن أقبح المعاصي ما قساه وأفضل الذكر القرآن وحرف تدبر أفضل من حرفين غيره وبالصلاة ثم بالمصحف والجهر حيث لا رياء والتقل أفضل في البيت وبالليل.

وأعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ولو ساعة ليعلموا صالحا فاغتنم بقية عمر ضيع أوله قبل فواتها ولا تغفل عن مراعاة الباطن وضبط الخواص وحفظ الأنفاس لأن كل نفس جوهرة نفيسة يمكن أن تشتري بها كثيرا لا يتناهى نعيمه فاحذر نفس أو في معصية حسرة وحسر أن عظيم واعمز أوقاتك بعد أداء الفرائض بالسواقل والصدقة والصوم ولا سيما في الليل وعلى الأقارب وفي الأيام الفاضلة وبكثرة الأورد وبأنواع الذكر المفردون رب اغفر لي وتب علي وبالفكر وبالعلم النافع والاكتمال بنية الخير وإيصال خير أو سرور إلى مسلم واجعل لك خبيثة ورد وإن قل لينفعل عندا واجتهد في الإخلاص فيه وفي إخفائه عن الناس إذا ما ظهر لهم منه رعا كان قبل السمع في الآخرة.

فرض غيب وأركان العزلة وتجب إن خاف على دبه وفي الغيب إن عجز عن إزالتها وإلا حرمت وإن انتفيا فهل الأفضل الخلطة لاكتساب فوائدها أو العزلة إن فادت فكرة ولم يصبر على أذى الناس ولم يترفع بها ولم يحتج إليه وإلا بدت الخلطة في لأويز إن سلم من آفاتهما ووجبت في البواقي بقدر الضرورة والتوبة وهي ترك ذنب سبق منه اختيارا تعظيما لله من عذابه مع الدم والنية أن لا يعود ورد المطام والجوع والسهر والصمت إلا عن خير والاستقامة على السنة وتجنب البدعة وتقوى الله ظاهرا وباطنا.

## الباب الأول في الخلق

اعلم أن الالتفات الى الخلق حجاب ومن الخلق الهوى والشيطان فاعصمهما والنفس وهي أضر الأعداء فلا تركز اليها ولا ترض عنها وهو أصل كل شر وأقمهما ولو في الطاعة لخدعها القرار واحملها على مكروها فإن المكارم بحسب المكارم وجاهدتها امثالا لتكون كلمته تعالى من الأمر بالإخلاص هي العليا وحاسبها كل لحظة وليخف حسابك غدا ولازمها بذكر الموت وهوله وكن في الحذر منها كمن احتوشته السباع إن غفل ساعة افترسته وعداوتهما لك نعمة لتضطر اليه في دفعهما.

فصل ومنه الدنيا فانفض يد القلب منها زهدا فيها ليزكوا عملك وهو ترك إرادتها بالقلب ولا تفرح بموجودها، ولا تحزن على مفقودها لأن حبها بالطبع ومنه يتفرع كل شر وحرامها طرد وحرمان وعذاب وشبهاتها ظلمة وعتاب وامسك حلالها تفاخرا وتكاثرا وحساب وعقاب وشهوة حبس وحساب واحتياجا وعونو تعطفوا على الناس وتعفوا عنهم ليسلموا منه ويسلم له دينه خير وثوبا على الطاعة والكفاف فيها أفضل من الفقر والغنى والغنى الشاكر أفضل من الفقير الصابر وكن عند أخذ القوت كالمضطر للميتة وفيها كالغريب المسافر المسجون وكدرها كالبلاء والمرض والفقر والمصيبة نعمة لأن من فقدده سكن اليها فتصير جنته فيكره لقاء الله ولأن به الاضطراب والرجوع اليه تعالى كرها لأن أفضل أحوال العبد حالة الذل والاضطرار وهو أن لا يرى لغيائه حولا ولا سببا يعتمد عليه الا مولاه كالغريق والضال وأدناها حالة النظر إلى النفس، والاستناد الى الغير حتى العلم والعمل الحال ولذا كان ذل الذنب والبلاء خير من عز الطاعة والعطاء فيه ضعف النفس وتحقيرها والمنع من المعاصي وتكفيرها والإقبال على الآخرة وتذكيرها بالأجر إن رضي وصفاء الباطن طاعته وهي أفضل من طاعة الظاهر لأنها أشق على النفس. فصل ومنه الناس فارفع همتك عنهم خوفا وطمعا وشكوى فأعرض عنهم إقبالا وإدبارا واقنع بعلمه تعالى فيك وانظر اليهم بعين الشريعة بالأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر وإقامة الحد وشكر احسانهم بعين الحقيقة بالعدل غن عصوا فغنهم  
مجبورون أو إن منعوك أو آدوك فإن المانع الضار هو الله تعالى وعملهم بإعطاء الحقوق  
وكف الأذى عنهم واصبره منهم وبسياسة النصيحة وبالشفقة والرحمة وبالإحسان  
وحسن الخلق ظاهرا مع الانقباض وسلامة الصدر باطنا والرفق وإرادة الخير لهم والأمانة  
وإذايتهم نعمة إذ يردك بها اليه.

فصل ومنه العمل فلا تعتمد عليه ولا تطلب عليه ثوبا لا اعتلاله ولأنه ليس لك  
وصححه بالصدق وقل إذا دخلت جنته ماشاء الله لا قوة إلا بالله.

## منهجية التحقيق

الحمد لله الذي ملأ قلوب أوليائه بمحبته، واختص أرواحهم بشهود عظمته، وهياً أسرارهم لحمل أعباء معرفته، فقلوبهم في روضات جنات معرفته يحبرون، وأرواحهم في رياض ملكوته ينتزهون، وألسنتهم ناطقة بجواهر الكلم ونتائج الفهوم، أفناهم الحق في محبة ذاته، وأبقاهم شهود آثار صفاته. والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله الذي أحبه واصطفاه، أفضل من دعا على بصيرة إلى الله، منبع العلوم والأنوار، ومعدن المعارف والأسرار. ورضي الله عن صحابته الأبرار، وأهل بيته الأطهار، الذين مهدوا الطريق لكل من سلك إلى مولاه، وأكرم وأفصح من دعا لله بعده وأطاع الله. أما بعد: فإن علم التصوف من أجل العلوم قدراً، وأعظمها محلاً وفخراً، وأسناها شمساً وبدراً. فهو لباب الشريعة، ومنهاج الطريقة، ومنه تشرق أنوار الحقيقة.

ومن أهم ما صنف فيه في هذا القطر الشنقيطي (الموريتاني) وأنفسه: كتاب شرح خاتمة التصوف لمؤلفه: محمد بن المختار بن محمد سعيد المعروف بـ: محمد اليدالي؛ لأنه جمع ما لم يجتمع في غيره من الكتب مما سنبيه إن شاء الله، وما سيراه المطالع لهذا الكتاب بحول الله.

هذا وقد عملنا على تحقيق هذا الكتاب تمهيداً لطبعه ونشره، راجين أن يظهر - إن شاء الله - في طبعته الأولى بصورة تكون أقرب إلى الحالة التي تركه بها مؤلفه، ويكون ذلك مما يرضي الله ورسوله.

وقد بذلنا ما في وسعنا من الجهد في سبيل ذلك رغم ضعف الوسائل المعينة على ذلك من كافة النواحي؛ لأن العمل في هذا النوع من الكتب يتطلب تحقيقه طاقماً بشرياً مسلحاً بالخبرة العلمية والفنية والمادية، وهذا ما لم نتمكن من الحصول عليه، وخاصة الجانب العلمي والتقني؛ فقد كانت بضاعة المشرفين على العمل متواضعة، لا تسمح لهم بالتفكير

بالقيام به، فضلا عن مباشرة العمل فيه، إلا أن ما لا يدرك كله لا يترك بعضه. هذا مع عدم وجود البديل، وإلحاح وضعية هذه المؤلفات على إنقاذها من الضياع والإهمال، وتلبية لرغبة الباحثين والدارسين، ورجالات العلم العاملين.

وبناءً على هذا كله وعوامل أخرى صممنا العزم على بذل ما نملكه من الجهود الخاصة، معتمدين على العون من الله والتوفيق لأحسن طريق، وما ذلك على الله بعزيز، وهو المعين القدير وبالإجابة جدير.

وقد اتبعنا في هذا التحقيق المنهجية الآتية:

أولاً: التعريف بالمؤلف من جميع الجوانب: (الجغرافية والاجتماعية والثقافية) بما في ذلك الجانب الصوفي عنده.

ثانياً: لمحة عن خاتمة التصوف وشرحها.

ثالثاً: المراحل التي مر بها عمل التحقيق، ثم وصف النسخ، ثم الصعوبات التي تكمن في عمل التصحيح.

# التعريف بالمؤلف

وستتناول التعريف به من خلال محيطه الجغرافي، والاجتماعي، والثقافي:

## محيطه الجغرافي:

ينتمي الشيخ محمد اليدالي إلى المجموعة الشمشوية، وخاصة منها قبيلة إدوداي التي توطنت منطقة إكيدي<sup>1</sup> وهي مجال جغرافي يوجد ضمن منطقة القبلة، أو ما يعرف حالياً بولاية اترارزة، وبعض المناطق المحاذية لها من الشمال والشرق، وهذه المنطقة يحدها من الغرب المحيط الأطلسي ومن الجنوب النهر السنغالي، بينما نجد لها حدوداً إدارية في الشرق والشمال مع ولايتي لبراكنه وإينشيري، ويحتل إكيدي مجالا واسعا في وسط الجنوب الغربي من ولاية اترارزة<sup>2</sup>.

## محيطه الاجتماعي:

سنتناول هذا المحيط من خلال: اسمه، نسبه، مولده، نشأته.

## اسمه ونسبه:

هو محمد بن المختار بن محمد سعيد بن المختار بن عمر بن علي بن يحيى بن يداج<sup>3</sup>، الذي تنسب إليه قبيلة إدوداي، ويداج (يدال) هذا أحد الرجال الخمسة الذين كونوا حلف تشمش. وتشمش كلمة بربرية معناها: الخمسة أو الخمسة. وهم خمسة رجال تحالفوا وتعاهدوا على عدة أشياء مرجعها إلى التمسك بالكتاب والسنة والعض عليهما بالنواجذ. وقد كتب الله النجاح لهذا الحلف الذي وقع في القرن الثامن الهجري إلى الآن والحمد لله.

<sup>1</sup> إكيدي منطقة تبدأ جنوباً من عاصمة مقاطعة المزرزة وتمتد شمالاً إلى طريق الأمل

<sup>2</sup> محمد اليدالي ووسطه الاجتماعي: (7) النسخة المرقونة.

<sup>3</sup> يداج اسم لجذ قبيلة إدوداي، والنسبة إليه: يدالي قال الناظم:

يداج بالكسر وشد الدال      جد علي والنسب اليدالي  
بلغة البربر معناه جلي      فيدُ للجد وأعصج لعلّي

أما أمه فهي امبيكله بنت سيد المين بن بارك اللّ بن يعقوب نل بن ديمان (أبناء مهنض أمغر).<sup>1</sup>

**مولده:**

ولد رحمه الله سنة 1096هـ ويعرف محليا بعام "إمجيح" شرقي بئر تندكسّم، وهي الآن حاضرة من حواضر مقاطعة واد الناقة تبعد 20 كلم جنوب كلم 70 من طريق الأمل.

### **أشياخه وبداية حياته العلمية:**

إن هذا الجانب من حياته يشوبه غموض شديد إلا أننا يمكن أن نفترض أن بداية حياته العلمية من حفظ القرآن وعلومه، ومبادئ العلوم الأخرى أنه أخذها من محيطه الخاص. والمتداول والمتواتر عند الناس أن علومه وهبته، لكن لا بد أن نذكر من صرح هو أنهم أشياخه في تأليفه وذلك بقوله: قال شيخنا. ورويت عن شيخنا... إلخ.

**أولاً:** ألفغ عبد الله بن أعمر الأهمي أخذ عنه القرآن بالرواية.

**ثانياً:** ألفغ مِينْحَن وهو شيخه الذي يعتز به وقال: إنه لم يذق طعم الوالدية بعد والديه إلا منه، وأطنب في مدحه في رسالة اللفعة.

**ثالثاً:** أحمد بن ألفغ المختار باب.

**رابعاً:** نختار بن المصطفى. ويقال إنه أخذ عنه الشاذلية لأنه من أول من أدخلها منطقة القبلة على أغلب الظن.

**خامساً:** المختار بن ألفغ موسى، الراجح أنه أخذ عنه الفقه.

### **تلامذته:**

لم يذكر من التلاميذ الذين تخرجوا على يديه إلا القليل لأنه ركز في حياته وعلمه على التأليف فهو بطبيعته ينتمي إلى المدرسة القلمية.

<sup>1</sup> مهنض أمغر: أحد رجال تشمشة الخمسة، وجد لإحدى الفصائل الشمشوية ذات الدور الهام في المنطقة.



ويذكر من تلامذته: ابن عمه ألما بن المصطفى بن محمد سعيد الذي كان يدافع عنه ويرد على خصومه وحساده وهو المعروف بـ ألما العربي، وألما الشاعر.

ثم تلميذه الوحيد الذي تخرج على يده في العلم الظاهر والباطن، وتأثر به إلى أبعد حد وهو: والدُ بن خالنا الأبهمي (إداهم).

أما تلاميذه بالمعنى العام فهم: محيطه عموماً ومن احتمى به. وبعد وفاته انتشرت مؤلفاته داخل البلاد وخارجها وظهرت ظهوراً عجيبياً وتأثر الناس بها كثيراً وكثرت تلامذته بواسطتها. فالشيخ محمدفال بن متالي والشيخ أحمدونب وغيرهم كل منهم يصرح أنه أخذ عنه وأنه شيخه مع أنهم متأخرون عن زمنه بكثير.

- آثاره:

لقد كان اليدالي ينتمي للمدرسة القلمية، وكانت وجهة عبقرته في التأليف، وهو ممن فتح الله عليهم في هذا الباب، فهو أبرز من ألف في هذا القطر، وأقدم من بقيت آثاره بعده؛ نظماً ونثراً، فقد تجاوزت سمعته وآثاره ونفوذه العلمي والثقافي حدود محيطه. ويعد من الذين ساهموا في الرفع من سمعة البلاد، وتوسيع دائرة نفوذها العلمي والحضاري، كما ساهم في دعم الحضارة العربية ونفض الغبار عن كثير من جوانبها وتخليصها من كثير من الشوائب العالقة بها، وأبرز الدفائن وأظهر الخفايا. والحقيقة أنه كرّس حياته في خدمة العلم وخدمة الإسلام والمسلمين.

وقد ترك عدداً من المؤلفات لا يستهان به كمّاً وكيفاً، ذكر النابغة الغلاوي أنها تناهز الخمسين، وبين الأيدي منها حالاً عدد يزيد على الثلاثين متفاوتة الأحجام، منها مجلدات كبار ومتوسطة، ونبد وفتاوى، ورسائل ذات أهمية، بالإضافة إلى ديوانه الشعري الذي يبلغ 1600 بيت.

وقد تناولت مؤلفاته جميع الفنون المعروفة في زمنه: من تفسير، وحديث، وتوحيد، وفقه، وأصول، وسيرة نبوية، وأنساب العرب وتاريخها، والعلوم الاجتماعية، والأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلم السلوك (التصوف) والأخلاق، والنحو، واللغة،  
والحساب، وعلم الهيئة... وغيرها.

وقد ضمن هذه المؤلفات من غرائب العلوم وعجائبها، ما يحير الأذهان، وسلك فيها  
مسلكاً موسوعياً، وعزا فيها لغرائب الكتب التي لا تعرف طريقة الحصول عليها آنذاك  
بل وحتى الآن.

ومؤلفاته شاعت وذاعت وانتشرت في جميع القطر الموريتاني، وخارجه، وترجم  
بعضها إلى لغات أجنبية، ومنذ ظهورها إلى الآن وهي مرجع للباحثين والدارسين  
والمؤلفين.

يقول الأستاذ محمذن بن باباه في كتابه: محمد اليدالي ووسطه الاجتماعي:  
"والحقيقة التي لا غبار عليها أنه ما من مؤلف موريتاني يتناول التراث الموريتاني - أي  
نوع من أنواعه - إلا ووجد نفسه مضطراً إلى الرجوع إلى مؤلفات محمد اليدالي، فإذا  
هو يكتب عن حياته، وخوارقه، وآثاره الأدبية والتاريخية والعلمية والصوفية، وتجاربه  
وأخلاقه.. إلخ."

## ومن أشهر مؤلفاته

### أ- التفسير وعلوم القرآن:

1- الذهب الإبريز في تفسير كتاب الله العزيز: أو الدرّ الفريد، في تفسير القرآن

المجيد، وهو أكبر هذه المؤلفات حجماً، يقع في أربعة مجلدات، ويقول متحدثاً

عن منهجه: إنه ركز على كشف مشكلات القرآن ومتشابهاته، كما ركز

على الترجيح بين أقوال المفسرين بطرق الترجيح التي يعتمد عليها أهل الأصول،

كما أنه جمع فيه ما اختلف في التفاسير مع زيادة فوائد كثيرة، فقد عزا فيه

لأكثر من ألف كتاب. ويعد هذا التفسير أقدم تفسير موريتاني. وهو موجود

في زاوية الشيخ محمد اليدالي.

2- مورد الظمان فيما حذف رسماً من القرآن: منظومة تقع في 128 بيتاً.

### بـ التوحيد:

3 - قواعد العقائد: وهو مقدمة في التوحيد مختصرة في حدود عشر صفحات.

4 - فوائد الفوائد في شرح قواعد العقائد: وهو كتاب من أجل الكتب التي

ألفت في علم التوحيد، وأدقها نقلاً، وأعمها نفعاً شرح به عقيدته الآنفة الذكر وهو زيادة على ما اشتمل عليه من العقائد وعلم الكلام مشحون بالفوائد الجلية وفضائل الأعمال، وأقوال المتصوفة.

وقد اختصره ابن ابنه محمد فال بن المختار سعيد بن محمد اليدالي، واختصاره موجود في الزاوية بخط المؤلف.

5- نظم السبعة المطالب في علم الكلام.

### جـ التصوف:

6- خاتمة التصوف: وهي نبذة صغيرة ختم بها العقيدة الآنفة الذكر.

7- شرح خاتمة التصوف وهو الكتاب الذي بين أيدينا.

8- مختصر شرح الخاتمة: في حدود (150) صفحة.

9- إكسير الحسنات: وهو في حدود (200) صفحة.

10- شرح أسماء الله الحسنى: وهو عبارة عن دعوات مختصرة، ثم يتكلم عن معنى

الاسم من الجانب اللغوي والصوفي، ثم عن التعلق والتخلق به، ثم عن خاصيته... إلخ.

### د الحديث:

11- شرح صحيح البخاري (مفقود)

### هـ الفقه:

12- شرح باب التركة من مختصر خليل. مفقود.

13- شرح باب الردة من مختصر الشيخ خليل.

14- رسالة في أن النشوز لا يسقط الشرط.

15- نقلة في ضمان ما أكلته المواشي.

16- فتوى في تسريح الصبيان.

17- رسالة في السماع.

### د السيرة النبوية وأنساب العرب:

18- الحلة السيرة في أنساب العرب وسيرة خير الورى: تقع في 471 صفحة

مخطوط في الزاوية جمع فيه بين السيرة وذكر النسب الشريف، وأنساب العرب العدنانيين والقحطانيين قبل الإسلام وبعده، وهو نادر النوع حقاً.

19- شرح رسائل النبي ﷺ إلى الملوك (وهو موجود في آخر الحلة الآنفه الذكر).

20- "المرى على صلاة ربي" شرح على قصيدته المشهورة في مدح النبي ﷺ «صلاة

ربي».

21- نقلة في أهل بدر. ما زالت في عداد المفقود.

22- الوسيلة الكبرى في صلاح الدين والدنيا والأخرى في الصلاة على النبي ﷺ.

23- الخلق والخلق وخصائص النبي ﷺ.

24- جوامع الكلم.

### ز اللغة والنحو:

25- تأليف في النحو على نمط الآجرومية (مفقود).

26- الصوارم الهندوانية في ردّ شبه الجيم السودانية.

27- تعليق على الفرق بين الجمع واسم الجمع، واسم الجنس وعلم الجنس

28- تقريب المعاني في علم البديع والبيان والمعاني، ما يتعلق منه بعلم المعاني ضائع.

### ح التدايع:

29- شيم الزوايا في التاريخ وعلم الاجتماع (وهو خاص بما يعرف بتشمش من

الزوايا).

30- أمر الولي ناصر الدين، وقد حقق وطبع هذين الكتابين الأستاذ محمد بن بابّاه، بالإضافة إلى رسالة النصيحة، ورسالة اللفعة الآتي ذكرها إن شاء الله تعالى.  
**ط. الأدب والشعر:**

31- ديوان بلغ مجموعه 1600 بيت جمعه وحققه الأستاذ الأمير ولد آكاه، تناول فيه معظم أغراض الشعر ما عدا الهجاء.

هذا إضافة إلى رسائل ومؤلفات صغيرة منها:

32- دعاء ختم القراءان (في مقدمة الذهب).

33- رسالة النصيحة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. طبعت.

34- رسالة اللفعة وهي عبارة عن رسالة بعث بها إلى ابن شيخه ألمين بن أجفغ مينحن في شيء بلغه عنه في شأن موسم، وقد طبعت.

35- مكث الحسنيات في فضائل الأعمال، في حدود (300) صفحة، ويعدّ من اختصارات الخاتمة.

فهذه بعض مؤلفاته، والحقيقة أنه سلك فيها مسلكا موسوعيا، تناول فيه من مختلف الفنون والمعارف ما يحير الذهن، وعزا فيه لكتب لم نجد عنها أي ذكر، فالطريقة التي تحصل بها على الكتب تحير فيها الباحثون والمؤرخون.

## وفاته:

لقد توفي رحمه الله سنة (1166هـ) بعد أن عاش سبعين سنة، ودفن بالموضع المسمى "انتوفكت"، ومعناها بالعربية: ذات الشمس.

يقول العلامة: أحمد بن احمد مؤرخا لميلاده ووفاته:

قَدْ وُلِدَ الْيَدَالِي عَامَ "وَضْش" (1) وَيَعْدَ سَبْعِينَ ضَجِيعَ نَعَشٍ  
مِنْ بَعْدِ مَا أَنْهَى كِتَابَهُ الذَّهَبَ بِوَائِ أَعْوَامٍ إِلَى اللَّهِ ذَهَبَ

(1) حساب هذه اللفظة بالجرم: 1096هـ والواو في البيت الثاني حسابه 6.

ولقد دل عليه قول القائل:  
فما مات من أبقي ثناءً مخلداً.... البيت.  
رحم الله السلف وبارك في الخلف.

# الجانب الصوفي من حياة الشيخ محمد اليدالي

كان من عادة زوايا هذه البلاد ألا ينصرفوا إلى التصوف إلا بعد الفراغ من كل العلوم الظاهرة<sup>1</sup>، فيكون لأحدهم عند ذلك أو عليه عند البعض:

يَصْحَبُ شَيْخًا عَارِفَ الْمَسَالِكِ يَقِيهِ فِي طَرِيقِهِ الْمَهَالِكِ<sup>2</sup>

فما الطريقة الصوفية التي اختار الشيخ محمد اليدالي لنفسه، ومن هم أشياخه فيها؟ وكيف تدرج في مدارجها؟

## أدلة: الطريقة الصوفية لليدالي دسده فيها

تتفق المصادر المتاحة أن الشيخ محمد اليدالي كان من معتنقي الطريقة الشاذلية، التي تنتسب إلى أبي الحسن الشاذلي (593 - 652 هـ)، وهي من أقدم الطرق الصوفية وصولاً إلى موريتانيا، فقد وصلت أول الأمر من خلال تلامذة أبي العباس أحمد بن أحمد الشهير بزروق، المتوفى سنة: 899 هـ.

وللشاذلية فروع كثيرة<sup>3</sup>، لم يشع منها في البيئة الشنقيطية سوى الفرع الناصري، نسبة إلى الشيخ: محمد بن ناصر المتوفى سنة: (1085 هـ)، وولده أحمد بن محمد بن ناصر المتوفى سنة: (1129 هـ).

والمشهور المنتشر في وسط اليدالي الاجتماعي، المتناقل بينهم بالتواتر: أن الشيخ محمد اليدالي أخذ الشاذلية عن ابن عمه نختار بن المصطفى بن محمد سعيد<sup>4</sup>، الذي مر في

<sup>1</sup> - مقدمة تحقيق كتاب كرامات تشمس: ص: 4 مرقون

<sup>2</sup> - بيت من منظومة ابن عاشر. انظر مختصر الدر الثمين والمورد المعين لميابة على منظومة المرشد المعين على الضروري من علوم الدين لابن عاشر: ص: 272.

<sup>3</sup> - تبلغ فروعها في المغرب وحده ثلاثين فرعاً من أهمها: الزروقية الناصرية - الدرقاوية - الجزولية الدرعية - الدباغية المكناسية / أبو الحسن الشاذلي / علي سالم عمار ج2 ص 23

<sup>4</sup> - نختار بن المصطفى بن محمد سعيد ابن عم المؤلف عاش في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، لم تعدد المراجع المتوفرة تاريخ وفاته، لكنه توفي قبل اليدالي. (تحقيق ديوان اليدالي: ص: 108، والشيخ محمد اليدالي ووسطه الاجتماعي: ج3: ص: 84).

طريقه إلى الحج بسيدي أحمد الحبيب السجلماسي المتوفى سنة: 1138 هـ، ومكث معه سنة، وأخذ عنه الطريقة الشاذلية، وأدخلها إلى بلاد الكبله<sup>1</sup>، وقد أخذ سيدي أحمد الحبيب الطريقة عن أحمد بن محمد بن ناصر.

يقابل هذه الرواية نقل عن أبي بن الزايد، يروي عن يحظيه بن عبد الودود<sup>2</sup>، وقد أتاه يتلو ورده، وقال له: إنه أخذ الطريقة الشاذلية عن محمد فال بن متالي<sup>3</sup>، وأنه يفهم من كلام محمد فال بن متالي أن شيخه هو محمد اليدالي، ويفهم من كلام محمد اليدالي أن شيخه ابن ناصر الدرعي.

وهذا إن صح فلعله في العالم الروحاني؛ لأن يحظيه بن عبد الودود المشهور أنه أخذ الشاذلية عن المختار بن ألما، ومحمد فال بن متالي جاءه ولم ينقل أنه أخذ عنه الورد مباشرة، وأعطاه كتابا من كتب النحو، والذي ذكر يحظيه مما جرى بينهما أنه قال: قد كان ما كان مما لست أذكره فظن خيرا ولا تسأل عن الخير ومما يلاحظ: أن ولادة محمد فال بن متالي كانت بعد وفاة محمد اليدالي بقرابة نصف قرن، وأن محمد اليدالي لم يُرو أنه لقي ابن ناصر. وكان اليدالي معجبا بشيخه مختار بن المصطفى متأثرا به، فقد وصفه في مرثيته له بأنه صاحب معارف ربانية، وتقوى وهمة عالية، جامع بين الشريعة والحقيقة، جواد كريم.

<sup>1</sup> - الشيخ محمد اليدالي ووسطه الاجتماعي: ج3: ص: 84، والحياة الثقافية لموريتانيا: ص: 80، والشعر العربي الفصيح في بلاد شنقيط: ص: 49.

<sup>2</sup> - يحظيه بن عبد الودود علم من أبرز علماء موريتانيا في القرن الرابع عشر الهجري، وأكثرهم طلابا، اشتهر بقدرته الفائقة على إلهام العلوم للطلاب وتفرغه للتدريس، تخرج على يديه جمع غفير من العلماء. توفي سنة: 1353 هـ.

<sup>3</sup> - محمد فال بن متالي التدغي عالم من أجل علماء الكيلة في القرن الثالث عشر الهجري، اشتهر بالورع والصلاح، له مؤلفات كثيرة منها: تفسير سماه: صلاح الآخرة والأول - فتح الحق - اختصار شهية السماع للسملالي. توفي سنة: 1288 هـ. ( الوسيط: ص: 343، وتحقيق التكملة: ص: 63.



## ثانياً: أسس تصوف اليدالي

يقوم تصوف اليدالي على أسس أهمها:

1. الخوف من الله ورجاؤه في نفس الوقت، يقول: "لما كان الرجاء والخوف للمؤمن كجناحي الطائر، مهما مال أحدهما سقط، فالخوف هو توقع العقوبة على مجاري الأنفاس، واضطراب القلب عند ذكر المخوف، والخشية أخص منه، إذ هي خوف مقرون بمعرفة، والهيبة خوف مقرون بتعظيم وإجلال، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة، والإجلال تعظيم مقرون بالمحبة، والخوف للعامة، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة للمحبين، فكان بكاؤه على ذنبه، غير قنوط من رحمة ربه".<sup>1</sup>
2. حب رسول الله ﷺ وكثرة مدحه، وقد طغى هذا الجانب على إنتاج اليدالي المعرفي، وبرز في شعره، وأبدع فيه وبرع.<sup>2</sup>
3. تلاوة القرآن: فقد نقل عن اليدالي عنايته الكبيرة بالقرآن الكريم، ولم تقتصر تلك العناية على التفسير الذي بين أيدينا فحسب، بل كان لليدالي ورد ثابت من التلاوة، يحرص عليه في كل أحواله، وكان يختم القرآن في ركعتين كل ليلة<sup>3</sup>، وكان مفتوحاً عليه فيه<sup>4</sup>، حتى جعله همه في الحياة، فقال في قصيدته المثبتة في

مقدمة التفسير:

يَا إِلَهِي يَا مَنْ بِهِ نَسْتَعِينُ	إِنْ هَمِّي كِتَابُكَ الْمُسْتَعِينُ
هَرَّ لِلْخِدْمَةِ الْكِتَابُ الْمُبِينُ	أَنَا مِنْ خَادِمِيهِ وَالْمُسْتَحِقُّ الدُّ
عِشْتُ دَأْبِي وَدَيْدَنُ لِي وَدِينُ	حُبُّهُ فِي قَلْبِي وَخِدْمَتُهُ مَا

<sup>1</sup> - الشيخ محمد اليدالي ووسطه الاجتماعي: ج3: ص: 94.

<sup>2</sup> - راجع للتوسع في هاتين النقطتين كتاب الشيخ محمد اليدالي ووسطه الاجتماعي: ج3: ص: 16.

<sup>3</sup> - النعم الثاقب: ص: 30.

<sup>4</sup> - نفس المرجع والصفحة السابقين.

وأنيسه في الفلوات، قيل: إنه كان إذا سار في الخلاء اشتغل بقراءة القرآن، وكان لا يمر بحجر ولا مدر ولا حشيش إلا قبضها بيده، وسلم عليها لتشهد عليه بذلك<sup>1</sup>. وحث طلاب العلم على تلاوته، وحذروهم من الانشغال عنه بالمسائل العلمية وقت الطلب، وأخذ على معاصريه إهمال تدبره.. فلا حظ أن جل اهتمامهم إنما هو مقاساة حفظه ومعاناته، معرضين عن تدبر معاني آياته، حتى إنك ترى بعض مكلفيهم يستغرق في درسه الأوقات، وهو لم يحصل فرض العين في أمور الديانات، فحرموا بذلك شريف فضله، وجزيل خيره، ولم يعلموا أن حرف تدبر أفضل من حرفي غيره.

4. الذكر: فالذكر عند اليدالي أسرع طرق التزكية نفعا، ولا يحصل مقام الإخلاص الكامل إلا بمداومته، ولا تتمد الأمراض الباطنة إلا به، ولا تنقطع الخواطر الشيطانية، ولا تضعف الخواطر النفسانية إلا به، ومداومته يزول الهم والغم في الدنيا، فإنهما بقدر الغفلة عن الله، فلا يلومن العبد إلا نفسه إذا ترادفت عليه الهموم والغموم، فإن ذلك جزاء بقدر إعراضه عن ربه، فمن أراد دوام السرور فليداوم على الذكر<sup>2</sup>.

وأذكار الصباح والمساء لا تكفي من الذكر عند اليدالي، ويخطئ المريدين الذين يقتصرون عليها بقوله: وقد يقنع بعض المغرورين بمجلس الذكر صباحا ومساء، مع الغفلة عن الله فيما بينهما، وذلك لا ينجع بسالك إلى منازل القوم، وإنما تلحقه بالمغفرة بمن لا ذنب له، لا بمن فعل الطاعة؛ فافهم، والمغفرة لا ترقى فيها، ومراد القوم دوام الترقى مع الأنفاس في المقامات، وذلك بدوام ذكر الله، ثم إنهم لا يرون أنهم قاموا بذرة واحدة من واجب حق الله تعالى<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - نفس المرجع والصفحة السابقين.

<sup>2</sup> - عاتمة التصوف - مخطوط: ص: 251.

<sup>3</sup> - عاتمة التصوف - مخطوط: ص: 251.

وقد اشترط اليدالي للذكر ثلاثة شروط<sup>1</sup>، هي:

أ- خلو الوقت عن واجب أو مندوب.

ب- خلو الذكر عن محرم أو مكروه يقترن به؛ كسماع النساء أو حضورهن، أو من يتقى من الأحداث، أو قصد طعام لا قرية فيه، أو داخلته شبهة ولو قلت، أو فراش محرم؛ كحريز ونحوه، أو ذكر مساوئ الناس، أو الانشغال بالأراجيف، إلى غير ذلك.

ج- التزام أدب الذكر من كونه شرعياً، ومعناه بحيث يكون بما صح واتضح، وذكره على وجه السكينة، وإن مع قيام مرة وقعود أخرى، لامع رقص وصياح ونحوه، فإنه من فعل المجانين كما أشار إليه مالك<sup>2</sup>.

5. الصلاة على النبي ﷺ حتى قيل: إنه كان مفتوحاً عليه فيها، فكان يختم دلائل الخيرات للجزولي سبعين مرة في أسرع وقت<sup>3</sup>، وقد ذكر أن الصلاة على النبي ﷺ من أفضل الذكر؛ لأن ذكره تعالى يستلزم ذكره عليه الصلاة والسلام، إذ هو دليل ذلك الذكر، ومنه عرف، والاعتداد به من جهة الاعتداد به، والأحاديث في فضل الصلاة على النبي ﷺ تحتاج إلى ديوان مستقل، وفي الغفلة عنها رائحة الجفاء<sup>4</sup>. وكان كثير المدح للنبي ﷺ، وكان يعتبره من أفضل الأعمال، ويسعى للاندراج في سلك أهله، إذ يقول: "وقد مدحت النبي ﷺ بقصيدتين ميميتين تبركا بحرفين من اسم النبي ﷺ، رجاء أن أندرج في سلك خدمة جنابه العالي، وأنخرط في عقد

<sup>1</sup> - خاتمة التصوف - مخطوط: ص: 256.

<sup>2</sup> - خاتمة التصوف - مخطوط: ص: 261، وفرائد الفوائد - مخطوط: ص: 74.

<sup>3</sup> - النعم الثاقب: ص: 30.

<sup>4</sup> - خاتمة التصوف - مخطوط: ص: 259.

مدحة كماله الجلي".<sup>1</sup>

6. الورع: يدرك من طالع سيرة اليدالي وقرأ كتبه أنه كان يبحث على الورع والابتعاد عن الشبهات مخافة الوقوع في الحرام، يقول في خاتمة التصوف: "إن حكم الشرع وظاهره أن تأخذ ما لا تتيقن أنه حرام، ولكن حكم الورع ألا تأخذ إلا ما بحث عنه غاية البحث، حتى تتيقن أنه لا شبهة فيه بحال، فالورع مبني على التشديد والاحتياط، كما قيل: الأمر على المتقي أضيق من عقد التسعين".<sup>2</sup>

فإذا توفرت هذه الشروط في الذكر، وحصلت المداومة عليه، أكسبت توازنية تحرق وهج الطباع، وتقوي النفوس؛ لأنها كالماء، فكانت تقوم مقام شيخ التربية. وانتقد اليدالي على بعض أهل زمانه عدم تحري الحلال في كسبهم، وعدد أصول الحلال، وكرر ذكرها في مواضع كثيرة من كتبه<sup>3</sup>، وذكر بأن من الحرام ما يعطى لمن يظن به الدين، وليس كذلك، وهو الأكل بالدين، وشرط حله ألا يكون في باطنك ما لو أطلعت عليه المعطي لامتنع من العطاء، فلا فرق بين ما يأخذه بالتصوف والتقوى ولم يتصف به باطنا، وبين من يدعي الشرف كاذبا، فذلك حرام، وإن أفق الفقيه بالحل بناء على الظاهر<sup>4</sup>.

7. الزهد: الزهد عند اليدالي لازم لأمرين: أحدهما ليزكو العمل، أي تكثر قيمته، ويعظم قدره. والثاني: فراغ الوقت للعبادة، فالرغبة في الدنيا شاغلة للظاهر والباطن.<sup>5</sup>

<sup>1</sup> - المربي علي صلاة ربي: ص: 13. مرقون.

<sup>2</sup> - خاتمة التصوف: مخطوط: ص: 433.

<sup>3</sup> - مبحث الحلال في الذهب الإبريز: ص: 662 من هذا العمل. وخاتمة التصوف - مخطوط: ص: 431

<sup>4</sup> - خاتمة التصوف: مخطوط: ص: 432.

<sup>5</sup> - خاتمة التصوف: مخطوط: ص: 395.

والزهد عند اليدالي قسمان: زهد مقدور للعبد: ويتمثل في ترك طلب المفقود من الدنيا، وتفريق المجموع منها، وترك إرادتها وإختيارها بالقلب. وغير المقدور للعبد: هو برودة الشيء علي قلب الزاهد، فإذا فعل المقدور له أورثه ذلك برودة الدنيا على قلبه.<sup>1</sup> ويصحح اليدالي مفهومهما يكثر الغلط فيه عند بعض أهل التصوف ممن يدفعهم الزهد في الدنيا إلى تضييع الحقوق الواجبة فيقول: "وأما ترك ما يجب أخذه من قوام نفسه، ومن تلزمه نفقته، فمعصية يستحق عليها العقوبة، فالزاهد هو المستصغر للدنيا، الذي انصرف قلبه عنها؛ لصغر قدرها عنده.<sup>2</sup>

وقد تميز تصوف اليدالي بانضباطه بالشرع، وتحريره للحق، وإخضاعه حقائق الطريقة لثوابت وظواهر الشريعة.<sup>3</sup>

وقد بلغ اليدالي في التصوف مبلغ الأئمة المبرزين، فقصده المريدون، وتصدر عليه بعض مشهوري المريين<sup>4</sup>، واعتمدت كتبه مرجعا لأهل التصوف في البلاد، بل من العلماء من قال: إنها تقوم مقام شيخ التربية<sup>5</sup>. وذكر العلامة محمدن قال ولد متالي أن كتاب اليدالي خاتمة التصوف هو فرض العين في التصوف.<sup>6</sup>

ولليدالي في التصوف أقوال تجديدية تخرج عن المعهود عند أهل التصوف، منها اعتباره أن شيخ التعليم تكفي عنه الكتب للبيب الحاذق الذي يعرف موارد العلم، وأن شيخ التربية تكفي عنه الصحبة لدين عاقل ناصح، وأن شيخ الترقية يكفي عنه اللقاء والتبرك.<sup>7</sup>

<sup>1</sup> - خاتمة التصوف: مخطوط: ص 396.

<sup>2</sup> - نفس المصدر والصفحة السابقين

<sup>3</sup> - راجع خاتمة التصوف والذهب الإبريز وفرائد الفوائد وغيرها من كتب المؤلف

<sup>4</sup> - انظر تحقيق كرامات أولياء تشمش: ص: 4 - مرقون.

<sup>5</sup> - النجم الثاقب والشيخ محمد اليدالي ووسطه الاجتماعي: ج 3: ص: 90.

<sup>6</sup> - نظم الأخلاق لمحمدن قال بن متالي - مخطوط.

<sup>7</sup> - فرائد الفوائد - مخطوط: ص: 74.

## لمحة عن كتاب خاتمة التصوف وشرحها

كان الشيخ محمد اليدالي قد ألف نبذة وجيزة في العقائد سماها: "قواعد العقائد" 10 صفحات تقريبا، وشرحها بكتابه المسمى: "فرائد الفوائد"، ثم جعل لها خاتمة في حجمها 10 صفحات تقريبا وسماها: "خاتمة التصوف"، ثم شرح هذه الخاتمة بكتاب لم يضع له اسما معيناً، فصار معروفاً بـ: "شرح خاتمة التصوف" وهو من أكبر مؤلفاته بعد تفسيره الذهب الإبريز يقع في 555 صفحة من الحجم الكبير.

يقول في مقدمته: وبعد: فقد كنا وضعنا عقيدةً في توحيد العامة على طريق المتكلمين، ثم ختمناها بخاتمة في التصوف الذي هو توحيد الخاصة، ليكون السعي في تصفية الباطن وتحليته بالفضائل خاتمة حسنة للموحد تفاؤلاً، أن يُختم لجامعهما وقارئيهما بحسن الخاتمة، وما ذلك على الله بعزيز، فقد رغبت إلى الرب الكريم في ذلك، متوسلاً بفتح الرحمة وعنصر البركة سيدنا ومولانا محمد ﷺ، فجلبنا فيها من التصوف لبابه، وولجنا فيها من الجمع بين الحقيقة والشرعية بابيه، وسلكنا فيها وضوح العبارة، ولم نسلك طريقهم في الرمز والإشارة...

ثم لما رأيت أبناء الزمان إما مخل بالحقيقة متمسك بالجمود على الظواهر، وإما مضيع للشرعية محب لطريقة الأكابر، وضعت عليها شرحاً تكمل به فائدتها على وجه يصل الظاهر بالطريقة، ويجمع بين الشرعية والحقيقة. وليعلم من يدعي منهم منزلة من الخير، أو يتوهم الصلاح في نفسه، أنه عار من ذلك إذا طالع هذا الكتاب بعين الإنصاف؛ إذ هو كالسيف القاطع لعنق من ادّعى الصلاح. وقصدت به أيضاً نفع نفسي ولمن هو مثلي في القصور من أبناء جنسي... إلخ كلامه.

ثم قال بعد هذا: لقد حاولت أمرا عظيما، واستقبلت من الخوض في كلام القوم خطرا جسيما، ربّ سلّم سلّم. فقد أدركتني غيرة عمياء، وشفقة حمقاء، على بعض السالكين سبيل الخير والمحبين له، فإنك ترى بعض متعبيهم إنما اهتموا بمجرد كثرة العمل، من غير مراعاة الآفات والعلل، وأغفلوا مجاهدة النفس، وأوردوا الأمور على العكس، وجعلوا الحقائق والمعاني، وشيدوا بناء السقف من غير إحكام المباني... إلى آخر كلامه في هذا المعنى، وقد أطل فيه فليُنظر في النص.

ثم قال: مع أني لا أبرئ نفسي من هذه العيوب كلها، ولا أجد أحدا أحوج مني للعمل بما في هذا الكتاب، إذ ينبغي للمؤلف أن يكون هو أول قائم بما ألفه... إلخ. ويقول في مضمون الكتاب: هو خلاصة ما لا بد للمرء من مطالعته كل حين، فعليك بتحصيله، فَتَطْلَعْ فيه على جواهر نفيسة، لا توجد مجموعة في غيره كما هي - بحمد الله - حاصلة فيه... إلخ.

والكتاب يشتمل على مقدمة وثلاثة أبواب:

- الباب الأول: في الخلق

- الباب الثاني: في الرذائل

- الباب الثالث: في الآداب والفضائل

وقد أخذ المؤلف مادة هذا الكتاب من مصادر متنوعة ضاربة في القدم؛ منها المأثور من كلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وَحِكْمِ الأُمَمِ الغابرة، والإسرائيليات، وكلام الحكماء، ومنها القرآن الكريم وتفسيره، والأحاديث النبوية وعليها جل اعتماده؛ كشراح البخاري ومسلم وغيرهما من جميع كتب الحديث، والسيرة النبوية، وأئمة المذاهب الفقهية، والكتب المعتمدة في فن التصوف؛ ككتب الغزالي، وزروق، وابن عطاء

الله، والسيوطي، والمناوي مما يصعب حصره. ونقل فيها كلام أكثر من ألف من رجال التصوف.

وكان لخاتمة التصوف وشرحها تأثير كبير في الأوساط العلمية داخل الوطن وخارجه؛ فأقبل عليها الناس بالاستنساخ والتعليم والنظم، وأخذ عنها المؤلفون في مادتها، قل من يؤلف بعده في التصوف إلا وكانت من أهم مراجعه. نذكر منهم على سبيل المثال:

-سيد محمد بن ابوج التيشيتي في كتابه: "الجيش".

-ومحمد مولد بن أحمد فال المتوفى 1323هـ في كتابه: "مطهرة القلوب".

كما نظم نص الخاتمة علماء أجلاء منهم:

العلامة: المختار بن جنك اليدالي المتوفى 1321هـ.

والعلامة: أباه بن محمد الأمين اللمتوني المتوفى 1380هـ ونظمها في ثلاثمائة وثلاثة عشر بيتا كما قال في نهايته.

والولي الشيخ أحمدو بمب السينغالي المتوفى 1340هـ. في "مسالك الجنان".

يقول الشيخ أحمدو بمب فيها بعد أن ذكر البعض من ألف في التصوف:

لَكِنَّمَا كُتِبَتْ لَهُمُ لِلطُّولِ زَهْدٌ فِيهَا جُلُّ هَذَا الْجِيلِ

إلى أن يقول:

فَاخْتَرْتُ ذَا اسْتِعَانَةٍ بِالْوَالِي  
لِجَمْعِهِ جَمِيعَ مَا لِلْسَّلَفِ  
نَظَّمَ الَّذِي ثَرَهُ الْيَدَالِي  
لِكُونِهِ خَاتِمَةَ التَّصَوُّفِ

إلى أن يقول:

ثُمَّ مِنَ الذَّهَبِ قَدْ أَخَذْتُ  
فَوَائِدًا بِهَالِكَةٍ أَتَمَّنْتُ



وعلق عليها الشيخ محمدفال بن متالي وقال إنها: "فرض عين في التصوف" حيث يقول:

كَمَا كَفَتْ خَاتِمَةَ التَّصَوُّفِ      مِنْ فَرَضِ عَيْنِهِ لِمَنْ لَهُ اضْطِئْفِي  
لِجَمْعِهَا الْأَذْوَاءَ وَالْأَذْوِيَّةَ      وَذَاكَ فَرَضُ الْعَيْنِ لِلتَّصَوُّفِيَّةِ

ومن نظمها أيضا العلامة: محمدن الشفيح بن محمد بن المحبوبي المتوفى 1407هـ.

وقد اختصرها مؤلفها بكتابين:

- كتاب إكسير الحسنات في حدود 200 صفحة.

- والثاني لم يكتب له اسما ويعرف بـ: "اختصار الخاتمة". وهما موجودان في الزاوية.  
واليدالي عنده شفقة متينة على مؤلفاته والاعتناء بها وحب استفادة الناس منها.  
ويتجلى ذلك في كثرة دعواته فيها لمن اعتنى بها، ويدعو الله أن يسوق إليها السعداء من خلقه.

يقول فيما يخص الخاتمة: إلهي دعوتك وأنت الكريم، وسألتك أن تجعل هذا الكتاب خالصا لوجهك الكريم، مقبولا بفضلك العليم، قبولا لا يعقبه خزي ولا تبديل، وتجعل ذلك سنة لمن قرأه، أو سمعه، أو عمل به، أو اقتناه، أو سعى في شيء منه، اللهم فاجعله لي حجة، واجعل لي نوره تاما إلى يوم القيامة، واجعله لمن قرأه أو تملكه نورا تاما إلى يوم القيامة، اللهم اجعله لنا دليلا وإماما للحق، وقائدا إليه، ومؤنسا لنا في قبورنا، ومنورا لقلوبنا، وأرنا فضله في الدنيا والآخرة، وأعد علينا بركته في الدنيا والآخرة، برحمتك يا أرحم الراحمين.

# المراحل التي مربها عمل التحقيق

## ثم وصف النسخ

### ثم الصعوبات التي تكمن في عمل التصحيح

لقد كان العمل في إخراج هذا الكتاب محققا مر بالمراحل الآتية:

أولا: حاولنا في البداية أن نحصل على ما أمكن من نسخ الكتاب ووجدنا العديد منها، وبعد النظر فيها وجدنا أن معظمها لا يمكن الاعتماد عليه لعدة عوامل لا داعي لذكرها، فاخترنا منها ثلاثة هي أحسنها:

1. نسخة بخط: محمد حبيب الله بن محمد بن أحمد بن المختار بن أحمد بن الحسين بن اليوسفي، مؤرخة نهايتها بـ: الأحد رابع شوال عام 1357هـ. وهي بخط مغربي جيد إلا أنها صورة يكثر فيها الطمس في التصوير لدرجة تمنع الاستفادة مما في الطمس، وعدد صفحاتها 986 صفحة من الحجم الصغير، وليست خالية من الأخطاء، وفيها خرجات في بعض الأحيان، وتحريف في بعض الكلمات والجمل. ولعل ذلك يرجع إلى الأصل المكتوبة منه؛ لأن كاتبها معدود من العلماء العاملين. وهي صورة لم يتميز النص المشروح عن الشرح. مع ذلك فإنه لا يمكن الاعتماد عليها وحدها.

2. نسخة بخط: الولي العالم سيد بن زبد العابدين بن محمد بن زبن (من حفدة المؤلف) وخطها مغربي جيد ومقروء، وحبرها لم يكن تام السواد، ولا تخلو من طمس في بعض الأحيان بسبب صعوبة في قراءتها مع أن قلمها رقيق جدا، والنص المشروح مكتوب بالحبر الأحمر متميز. ولم يظهر في آخرها تاريخ كتابتها. وكاتبها توفي 1964م. وعدد صفحاتها: 390 صفحة.

3. أما النسخة الثالثة فهي أقدم النسخ يرجع تاريخ كتابتها إلى منتصف القرن 13هـ، ولولا كثرة الأخطاء فيها لاستحقت التقليم وهي لآل محمد عال بن زين العابدين (من حفدة المؤلف) وهي بخط مغربي جيد. وكتب في آخرها:

"انتهى والحمد لله على يد كاتبها لنفسه: محمد بن أحمد بن عطار القيني نسبا  
الديلمي وطنا، عصر الأحد 16 من رجب سنة إحدى وستين بعد المائتين والألف  
(1261) وعدد صفحاتها 420 صفحة.

ونلاحظ في هذه النسخ الثلاث ما يلي:

1. أنها لم تقابل منها واحدة وذلك مما يظهر جليا، ولذلك لم نجعل واحدة منها  
أصلا.

2. كثرة الأخطاء الناشئة عن عدم تمكن الكاتب من قراءة الكلمة فيصور ما ظهر  
أمامه فيتسبب ذلك في غموض المعنى أو فساد.

3. معظم الفروق التي بين النسخ هو نوع من التحريفات الناشئة عن عدم تمكن  
الكاتب من قراءة الكلمة، ولذلك لم نول عناية لتسجيل الفروق بين النسخ، بل  
نكتفي بتثبيت ما ظهر أنه هو الأصح في المتن إلا في بعض الكلمات.

4. أن هذه النسخ يمكن أن تتعاون فيما بينها، لأن ما يكون غامضا في إحداها يكون  
واضحا في الأخرى.

هذا وقد استطعنا بجهود لا تخلو من صعوبات إخراج نسخة جديدة من بين هذه النسخ  
الثلاث، مع الرجوع في بعض الأحيان إلى النسخ الأخرى التي لم نعتمد لتصحيح ما لم  
نتمكن من تصحيحه، أو فهمه من هذه النسخ. وأثناء كتابة هذه النسخة حرص الكاتب  
أن لا يكتب جملة إلا بعد أن ينظرها في النسخ الثلاثة.

ثم بعد نهاية نسخ هذه النسخة الجديدة قوبلت أيضا على النسخ الثلاثة مع الرجوع في  
كل حالة وكل إحالة إلى ما بين أيدينا من المراجع لتصحيح ما أهم علينا. وهذه النسخة  
الجديدة هي التي اعتمدنا في إخراج النسخة النهائية المقدمة للطبع.

وبعد نهاية عملية التصحيح شرعنا في تخريج الأحاديث والآثار، وكانت لا تخلو من  
صعوبات لكثرتها، وكون المؤلف يشير إلى الحديث بجملة منه أو كلمة. ولولا المكتبات  
الالكترونية لما استطعنا تخريج نصف هذه الأحاديث.

ثم تراجع الأعلام الواردة في النص، وهي كذلك لا تخلوا من صعوبة لكثرتها كذلك،  
وكونها لا تذكر غالبا إلا بألقابها، وكثرة ترادف الأسماء فتري علما يطلق على عدة  
أعلام، وغالبا لا تجد ما تميز به ما تريد منهم.

ثم تخريج الآيات الشعرية ونسبتها وتصحيحها... إلخ.

ثم تخريج الإحالات للمصادر المكتوبة منها.

ولا ندعي الإحاطة بكل ذلك لكثرة الأعلام والأحاديث والإحاطة متعذرة، وكثرة  
الإحالات.

ولكثرة استطراد المؤلف لكلام الصوفية واعتماده عليه في الاستشهاد فإننا لم نعتن  
بتخريجه كله لكثرتة وتشعبه وتكريره، وعدم الإشارة إلى مراجعه. وتارة نذكر كلام  
البعض أثناء ترجمته فنقول مثلاً: ومن كلامه كذا وكذا إذا عثرنا عليه.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

الراجل بن أحمد سالم

الأمين العام لزاوية الشيخ محمد البدالي

نواكشوط: 29 | محرم | 1432 هـ

الموافق: 3 | يناير | 2011 م



# النصر محققا

# بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة

ميمون الانتهاء  
ولا تعسر

مبارك الابتداء  
رب يسر

يقول الفقير إلى لطف ربه، الوجل من سوء كسبه: **محمد بن المختار بن محمد سعيد**.  
**اليدالي الديباني** أسعد الله عاقبتهم في الدارين، وبَيَّضَ لهم نواصي الأماني، نحمد الله تعالى على ما دفع من النقم، وأسبغ من النعم مما يفوت العدُّ والتقدير باطنة وظاهرة عائذا بوجهه الأكرم، وجلاله الأعظم من سوء المصير، وخزي الدنيا وعذاب الآخرة، وأشكره على نعمة الإيمان والإسلام، وعلى ما ستر من جميع المعائب والآثام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، شهادة تمحو ما كان مني من تخليط وتفريط وإفراط، وتضيئ لي في ظلمات القبر والحشر والصراط، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد النبي الأمين، وعلى آله وصحبه الأكرمين، صلاة تتكفل لي بالنجاة والسلامة، من أهوال الموت والبرزخ وعرصات القيامة، وتوجب لي الأمن والأمان عند تطاير الصحف ووضع الميزان.

وبعد: فقد كنا وضعنا عقيدةً في توحيد العامة على طريق المتكلمين، ثم ختمناها بخاتمة في التصوف الذي هو توحيد الخاصة، ليكون السعي في تصفية الباطن وتحليته بالفضائل خاتمة حسنة للموحد تفاقولا، أن يُختتم لجامعهما وقارئهما بحسن الخاتمة، وما ذلك على الله بعزيز، فقد رغبت إلى الرب الكريم في ذلك، متوسلا بمفتاح الرحمة، وعنصر البركة، سيدنا ومولانا محمد ﷺ، فجلبنا فيها من التصوف كُبابه، وولجنا فيها من الجمع بين الحقيقة والشريعة بابه، وسلكنا فيها وضوح العبارة، ولم نسلك طريقهم في الرمز والإشارة ولا طريقة التقرير بتصاريف العربية ومباحث الألفاظ؛ لأن ذلك يذهب

روثق هذا الفن ويزيل مقصده، فمن سلك فيه تلك الطريقة في كلامه عليه، أو اعتبرها في كلام القوم وراعاها فقد أبعد في المأخذ. كما قاله سيدي زروق<sup>(1)</sup>.

ثم لما رأيت أبناء الزمان إما مخل بالحقيقة متمسك بالجمود على الظواهر، وإما مضيع للشرعية محب لطريقة الأكابر، وضعت عليها شرحا تكمل به فائدتها على وجه يصل الظاهر بالطريقة، ويجمع بين الشريعة والحقيقة. وليعلم من يدعي منهم منزلة من الخير، أو يتوهم الصلاح في نفسه، أنه عار من ذلك إذا طالع هذا الكتاب بعين الإنصاف؛ إذ هو كالسيف القاطع لعنق من ادّعى الصلاح. وقصدت به أيضا نفع نفسي ولمن هو مثلي في القصور من أبناء جنسي، لأنه جار مجرى تواليف القوم في التصوف، فشأن بين من صفى قلبه وأشرق لبّه، وبين من غلبت عليه ظلمة الطبع والجهالة وداوم النوم والكسل والبطالة، فالواحد من أولئك يقول، وأنا أتقول، وهو أكحل، وأنا أتكحل، وأين من هو جالس متمكن في حضرة الاقتراب ممن هو مُتَطَفِّل واقفٌ بالباب، ولكن يرجو الطفيلي أن لا يضره حين يشم إكرام الربّ لبعض عبيده أن يمد يد الضراعة للدخول معهم.

وقد نُقِلَ من لفظ الشيخ الولي العارف سيدي محمد الشاذلي<sup>(2)</sup> نفعا الله به قال:

(1) زروق: هو أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي، أبو العباس، زروق: فقيه محدث صوفي. من أهل فاس (بالمغرب) تفقه في بلده وقرأ بمصر والمدينة، وغلب عليه التصوف فتجرد وساح، له تصانيف كثيرة يميل فيها إلى الاختصار مع التحرير، وانفرد بمجودة التصنيف في التصوف. من كتبه (شرح مختصر خليل) في فقه المالكية، و (النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية - ط) و (القواعد - ط) في التصوف، و (إعانة المتوجه المسكين، على طريق الفتح والتمكين). ت: 899هـ. انظر: شجرة النور الزكية: (267)، معجم المؤلفين: (155/1)، موسوعة الأعلام: (258/1).

(2) الشاذلي: هو علي بن عبد الله الشاذلي الشريف الحسني المغربي، أبو الحسن: رأس الطائفة الشاذلية، من المتصوفة، وصاحب الأوراد المسماة "حزب الشاذلي - ط". ولد في بلاد "غمارة" بريف المغرب سنة 571هـ، ونشأ في بني زرويل (قرب شفشاون) وتفقّه وتصوف بتونس، وسكن "شاذلة" قرب تونس، فنسب إليها. أخذ عن الشيخين العارفين أبي عبد الله محمد بن حرزهم، وأبي محمد عبد السلام بن مشيش بسنده المشهور عند أهل الطريقة. وطلب "الكيمياء" في ابتداء أمره، ثم تركها، ورحل إلى بلاد المشرق فحج، ثم سكن الاسكندرية. وتوفي بصحراء عذاب في طريقه إلى الحج في شوال سنة 656هـ وقرره هناك معروف متبرك به حتى الآن. انظر: شجرة النور الزكية: (186)، والتاج للزبيدي: (388/7). ومن أراد التوسع في حياته فلينظر كتاب: المفاخر العلية في المآثر الشاذلية لأحمد بن محمد بن عباد وهو مطبوع.



رأيت النبي ﷺ في النوم فقلت له: يا رسول الله ﷺ؛ إني متطفل في علم التصوف. فقال لي ﷺ: اقرأ كلام القوم، فإن المتطفل على هذا العلم هو الولي، وأما العالم به فهو النجم الذي لا يدرك. قاله سيدي عبد الوهاب الشعراني<sup>(1)</sup> في كتاب طبقات الأولياء<sup>(2)</sup>.

اللهم ارحم الطفيلي واغفر دعاويه الكاذبة، وأعنه على نفسه المتمردة الهاربة، والطف به يا رب فإنه حاول أمرا عظيما، واستقبل من الخوض في كلام القوم خطرا جسيما، رب سلم سلم. ولكن اقتحم ذلك نصيحة لأبناء الزمان في تصحيح أعمالهم، وإصلاح علومهم وأحوالهم، فقد أدركتني عليهم غيرة عمياء، وشفقة حمقاء، فإنك ترى بعض متعبيهم إنما اهتموا بمجرد كثرة العمل، من غير مراعاة الآفات والعلل، وأغفلوا بمجاهدة النفس، وأوردوا الأمور على العكس، وجعلوا الحقائق والمعاني، وشيدوا بناء السقف من غير إحكام المباني، فغرههم الكثرة والعدد، وأهملوا الأهم الأوكد وهو إصلاح القلوب والتطهير من العيوب، ولم يعلموا أن الشأن في الصفة لا في الكثرة، وأن الجوهرة الواحدة خير من ألف خرزة، وأنه لا يغني عدد الخرز ولا لب فيها، وأن العمل مع الآفات معلول، وأنه حقيق بالرد وعدم القبول، وترى بعض طلاب العلم إنما صرفوا معظم اجتهادهم، وجل عنايتهم واعتمادهم إلى علم يتوصلون به إلى التشيخ والقضاء، والتقدم على النظراء، والانخراط في سلك من يُقصد في المكاتبات والفتاوي، مما يوقعهم في أهوى المهام وأسوأ المساوي، فحسب أحدهم من العلم أن يقال: فلان عالم، فحاضوا في ذلك في فضول ما لا يعني، وضيعوا العمر النفيس فيما ليس في الآخرة يُغني، تالله لقد أغرق القوم فيما لا يعنيه، بل يُعنتهم مع الساعات ولا يغنيهم، الشيطان

(1) الشعراني: هو عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد بن محمد بن موسى الشعراني، الأنصاري، الشافعي، الشاذلي، المصري (أبو الموهاب، أبو عبد الرحمن) فقيه، أصولي، محدث، صوفي، مشارك في أنواع من العلوم. ولد في قلقشنده بمصر في 27 رمضان، ونشأ بساقية أبي شعرة من قرى المنوفية، وتوفي بالقاهرة سنة 973هـ. من تصانيفه الكثيرة: "الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار والعلوم"، و "الدرر المنثورة في زبد العلوم المشهورة"، و "لواقح الأنوار في طبقات الأخيار"، و "المقدمة النحوية في علم العربية"، و "شرح جمع الجوامع للسبكي" في أصول الفقه. انظر: شذرات الذهب: (372/8)، ومعجم المؤلفين: (218/6).

(2) انظر الطبقات الكبرى المسماة: لواقح الأنوار في طبقات الأخيار للشعراني: (75/2).

يعدمهم ويمنيهم، وأهملوا فرض العين الذي في إهماله هلاك الدارين، وهو ما يعرف به أنواع الفضائل وكيفية اكتسابها، وأنواع الرذائل وكيفية اجتنابها يتعلم أحدهم حلاوة المنطق، وضروب الفصاحة والتَّمَشُّدُقِ، بما لم يبلغه فهما، ولم يحط بحقيقته علما، ويظهر غرائب العلم ودقائقه، ويتكلف العبارات البليغة الرائقة، والله لا يحب المتكلفين، ويورد في المسألة الخلافات، وتكثير الصور والتفريعات، حرصا على استمالة النفوس، لما يرشح لها من الثناء والحظ الخسيس، ويُسمِّنُ قوله بما يهزل به دينه، ليعلو به قدره، وينتشر صيته، ويرتفع ذكره، ويظفر بمراتب من الرياسة، ويتربى حُبُّ الجاه والشرف في قلبه، كلما ازداد طالبا للعلم، فيثول به ذلك إلى الرياء، والتصنع للخلق، فيكون ذلك سببا لهلاكه وطرده، من حيث يراه سبب نجاته وقربه، وإذا مات لحقه الندم حين لا ينفعه، واعتذر إلى من لا يسمعه، وترى بعض من يشار إليهم بالعلم اتخذوه شركا وحبائل، لنيل الرياسة وطلب الحظ العاجل، وتحبلا لتحصيل الأمان، وحرقة يجمعون بها الحطام الفاني، وسُلْمًا يتوصلون بها إلى التنعم بالدنيا واكتسابها، واستجلابا للجاه والشهرة والمترلة عند أربابها، وجعلوه للدنيا تجارة، إلا أنها كافلة بالغبن والخسارة، ووسيلة للفتوى والقضاء، والتقدم على الأقران والتسلط على الأعداء، وغير ذلك من مقاصد السوء، التي تغضب الرحمان، وتضحك الشيطان، فصار يقتدى بهم في التكالب على الحظوظ العاجلة، فعادوا فتنة على الناس نازلة، فيقال: لو كان هذا مذموما منهيًا عنه، لَأَجْتَنَبَهُ العلماء وهربوا منه، فيا لها فتنة تعرضوا لها لو تفكروا، وليتهم كانوا كالعوام إذا ماتوا ماتت معهم ذنوبهم، كما قال الإمام الغزالي<sup>(1)</sup> نفعنا الله به: وتراهم يتغاïرون على العلم تغاير

(1) الغزالي: هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، الملقب بحجة الإسلام زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي، لم يكن للطائفة الشافعية في آخر عصره مثله، متكلم فقيه، أصولي، صوفي، مشارك في أنواع من العلوم. ولد بالطائران إحدى قصبي طوس بخراسان، وطلب الفقه لتحصيل القوت، ثم ارتحل إلى أبي نصر الاسماعيلي بخرجان، ثم إلى امام الحرمين أبي المعالي الجويني بنيسابور، فاشتغل عليه ولازمه ثم جلس للإقراء، وحضر مجلس نظام الملك، فأقبل عليه نظام الملك، فعظمت منزلة الغزالي، وندب للتدريس بنظامية بغداد، ثم أقبل على العبادة والسياسة، فخرج إلى الحجاز فجع، ورجع إلى دمشق فاستوطنها عشر سنين، ثم سار إلى القدس والاسكندرية، ثم عاد إلى وطنه بطوس واشتغل بنفسه وصنف الكتب المفيدة في عدة فنون منها ما هو أشهرها كتاب "الوسيط" و

النساء، فيشق على أحدهم أن يستفيد تلميذه من غيره<sup>(1)</sup>. وإن رُدَّ كلام أحدهم أنف واستنكف واغتاظ، وإن أثني عليه فرح بالثناء وارتاح، وهذا كله غش ونفاق ودوران حول الجاه، ورشح الصفات المهلكة في سر القلب. نسأل الله السلامة والعافية ديناً وأخراً. وربما كان بعضهم منجنيق ضلال ترمي به قواعد الدين، ونار فساد تضرم قلوب المهتدين، هذا مع أني لا أبرئ نفسي من هذه العيوب كلها، ولا أجد أحداً أحوج مني للعمل بما في هذا الكتاب، إذ ينبغي للمؤلف أن يكون هو أول قائم بما ألفه، ويحمل نفسه على مقتضاه، ليكون ذلك داعية إلى الانتفاع به ظاهراً وباطناً، ولكن ليس من شروط المرشد والناصح الامتثال، لأن الإرشاد والامتثال فرضان متميزان، فليس لمن ترك أحدهما أن يترك الآخر، وهذا كله ليس مني تهجيناً لعلم الظاهر ولا تحقيراً، ولا ذماً لأبناء الزمان ولا تغييراً، بل صدر ذلك مني لهم بقصد صحيح إن شاء الله تعالى، ونية صحيحة شفقة عليهم، وذكرى لأولي الألباب، ومحض نصيحة وحضاً لهم في العلم والعمل على الإخلاص، ليكون لهم ذلك يوم القيامة كفيلاً بالخلاص، ولينالوا غداً من المخاوف أمناً، ويفوزوا برضى الرحمان وملك لا يلى ولا يفنى، نسأله سبحانه أن يرزقنا من العلم النافع، والعمل الخالص، ما يوجب لنا ذلك بمنه وكرمه، وأن يلطف بنا وبإخواننا في هذا الزمان الصعب النكد الذي عظمت عوائقه، وكثرت علائقه، وخطرت بوائقه، وتلاطمت أمواجه، وتراكمت أهواله وأهراجة، وانقرضت فيه الأكابر، وشاعت فيه الأباطل والمناكر، وتعطل فيه موسم الأفاضل، وتبدد نظام الفضائل، وارتجحت فيه أبواب المعروف وانسدت، وقويت شوكة الأشرار واشتدت، وكسفت فيه شمس الحق، وتراكمت فيه ظلمة الباطل بين الخلق، وذاع فيه الظلم والطغيان والشر، وسد الأفق في الأقاليم دخان الهوى وانتشر، وزهد أهله في الدرجات الأخروية العليا، ورغبوا في حطام

البيسط " و " الوجيز " و " الخلاصة " في الفقه، ومنها " إحياء علوم الدين " وهو من أنفس الكتب وأجلها، وله في أصول الفقه " المستصفى ". توفي: 505هـ. انظر: وفيات الأعيان: (216/4)، وطبقات السبكي: (101/4).  
(<sup>1</sup>) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي: (63/1).

الدنيا، فلا حرص ولا حزن إلا عليها، ولا فهو ض إلا إليها، يُضَيِّعُ واحد منهم عمره في شهوة ساعة، وما ذلك كله إلا لقرب هجوم أشرط الساعة، إن ضاع دينه لم يتغير، وإن ضاعت ذرة من دنياه تأسف وتكدر، وكان قائل هذه الأبيات شاهد زماننا وإياه عني:

ذَهَبَ الرِّجَالُ الْمُقْتَدَى بِفِعَالِهِمْ وَالْمُنْكَرُونَ لِكُلِّ أَمْرٍ مُنْكَرٍ  
وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ يُزَكِّي بَعْضُهُمْ بَعْضاً لَيْسَتْ مُعَوَّرٌ عَنْ مُعَوَّرٍ  
أَبْنَى إِنْ مِنَ الرُّجَالِ بَهِيمَةً فِي صُورَةِ الرَّجُلِ السَّمِيعِ الْمُبْصِرِ  
فَطِنٌ لِكُلِّ مُصِيبَةٍ فِي مَالِهِ وَإِذَا أَصِيبَ بِدِينِهِ لَمْ يَشْفُرْ<sup>(1)</sup>

ومثل هذا كله وأكبر لا يستغرب في زماننا هذا، وقد وقع بعضه في أزمنة قبله. فقد شكى الإمام المحقق ابن رزق<sup>(2)</sup> زمانه الكثير الخير، وكذلك الشيخ أبو محمد بن أبي جرة<sup>(3)</sup>، ثم بعده أبو عبد الله بن الحاج<sup>(4)</sup>، ثم الشيخ سيدي محمد بن يوسف<sup>(5)</sup> بعده

(1) الأبيات لأبي الأسود الدؤلي. انظر ديوانه: (حرف الراء).

(2) ابن رزق: هو أحمد بن محمد بن رزق أبو جعفر القرطبي، شيخ المالكية، كان من العلماء العاملين، ديناً صالحاً، حليماً، خاشعاً يتوقد ذكاءه. قال أبو الحسن بن مغيث: كان أذكى من رأيت في علم المسائل، وألينهم كلمة، وأكثرهم حرصاً على التعليم، وأنفعهم لطالب فرع، على مشاركة له في علم الحديث، وقال ابن بشكوال: كان مدار طلبة الفقه بقرطبة عليه في المناظرة والتفقه. توفي 477هـ. انظر سمر أعلام النبلاء: (564/18).

(3) ابن أبي جرة: هو عبد الله بن سعد بن سعيد بن أبي جرة الأزدي الأندلسي، أبو محمد: من العلماء بالحديث، مالكي. أصله من الأندلس ووفاته بمصر. من كتبه "جمع النهاية - ط" اختصر به صحيح البخاري، ويعرف بمختصر ابن أبي جرة، و "محة النفوس - ط" في شرح جمع النهاية، و "المراعي الحسان - ط" في الحديث والرؤيا. توفي سنة: 695هـ. انظر: شجرة النور الزكية: (199)، والبدية والنهاية: (346/13).

(4) ابن الحاج: هو محمد بن محمد بن محمد ابن الحاج أبو عبد الله العبدري الفارسي نزيل مصر سمع ببلاده ثم قدم الديار المصرية وحج وسمع الموطأ من الحافظ تقي الدين عبيد الأسعدي وحدث به ولزم الشيخ أبا محمد بن أبي جرة فعادت عليه بركاته وصار ملحوظاً بالمشيخة والجلالة بمصر وجمع كتاباً سماه: "المدخل" كثير الفوائد كشف فيه عن معاييب وبدع يفعلها الناس ويتساهلون فيها وأكثرها مما ينكرون بعضها مما يحتمل ومات في جمادى الأولى سنة 737هـ وقد بلغ الثمانين أو جاوزها وأضر في آخر عمره وأقعد ولشيخنا شمس الدين محمد بن علي بن ضرغام ابن سكر منه إجازة. انظر: شجرة النور الزكية: (118)، والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: (99/2).

(5) هو محمد بن يوسف السنوسي الحسني التلمساني، الإمام المتقن العلامة الصالح الزاهد، أخذ عن والده وعن الزواوي والقاصدي والشريف يوسف بن أحمد وغيرهم، وأخذ عنه جماعة كابن سعد والقاسم الزواوي وابن أبي مدين وغيرهم، ألف كثيراً من الكتب منها: العقائد الكبرى والوسطى والصغرى وشروحها، ومختصر الأبي على مسلم، وشرح للبخاري. (شجرة النور الزكية: 266، كفاية المحتاج ج2 ص: 200، درة المجال: 204).

شكى زمانه الذي هو أواخر القرن التاسع، هذا كله في أزمئتهم الكثيرة الخير الزاهرة  
بوجودهم ووجود أمثالهم، فكيف لو أدركوا زماننا في صدر القرن الثاني عشر، فقد  
تفاقم الخطب بعدهم، ولا سيما والدنيا الآن هي تعالج الزرع، وقد آذنت بالرحيل  
والانتقال، ومفاجآت الأشراف والأهوال.

هَذَا الزَّمان الَّذِي كُنَّا نُحاذِرُهُ فِي قَوْلِ كَعْبٍ وَفِي قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ  
إِنْ دَامَ هَذَا وَلَمْ يُحْدَثْ لَهُ غَيْرٌ لَمْ يُنْكَ مَيِّتٌ وَلَمْ يُفْرَحْ بِمَوْلودٍ<sup>(1)</sup>  
صار اليوم المعروف منكرا، والمنكر معروفا. فإننا لله وإنا إليه راجعون، والله المستعان  
وإليه اللياذ في أن يعيدنا من شرور أنفسنا ومن شر هذا الزمان، وشر أهله إنه منعم  
كريم رؤوف رحيم. ولبعضهم:

لَقَدْ صَارَ تَغْيِيرُ الْمَنَاكِرِ مُنْكَرًا لَدَى عَصْرِنَا عِنْدَ اللَّثَامِ مِنَ الْوَرَى  
إِذَا قُلْتُ هَذَا لَا يَجِلُّ بِشَرْعِنَا يَقُولُونَ ذَا مَا قَالَهُ قَطُّ مَنْ دَرَى  
فَكَمْ مِنْ فَقِيهِ قَدْ رَأَيْنَا وَلَمْ يَقُلْ لَنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا لَمُفْتَرَى  
فتأمل يا أخي هذا الكتاب وطالعه، واعمل بما فيه تجمع لك الحقيقة والشرعية وصالح  
الإيمان، وجميع خير الدنيا والآخرة، فرحم الله عبدا أكثر من مطالعة هذا الكتاب،  
وطالب نفسه بالعمل بما فيه

إلهي دعوتك وأنت الكريم، وسألتك أن تجعل هذا الكتاب خالصا لوجهك الكريم،  
مقبولا بفضلك العميم، قبولا لا يعقبه خزي ولا تبديل، وتجعل ذلك سنة لمن قرأه، أو  
سمعه، أو عمل به، أو اقتناه، أو سعى في شيء منه، اللهم فاجعله لي حجة، واجعل لي  
نورَه تاما إلى يوم القيامة، واجعله لمن قرأه أو تملكه نورا تاما إلى يوم القيامة، اللهم  
اجعله لنا دليلا وإماما للحق، وقائدا إليه، ومؤنسا لنا في قبورنا، ومنورا لقلوبنا، وأرنا

(1) البيتان وجدتهما في الأزهار فيما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار للسيوطي وقال إمامنا أبي هلال.

شكى زمانه الذي هو أواخر القرن التاسع، هذا كله في أزمنتهم الكثيرة الخير الزاهرة  
بوجودهم ووجود أمثالهم، فكيف لو أدركوا زماننا في صدر القرن الثاني عشر، فقد  
تفاقم الخطب بعدهم، ولا سيما والدنيا الآن هي تعالج التزع، وقد آذنت بالرحيل  
والانتقال، ومفاجآت الأشراف والأهوال.

هَذَا الزَّمَانُ الَّذِي كُنَّا نُحَاذِرُهُ فِي قَوْلِ كَعْبٍ وَفِي قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ  
إِنْ دَامَ هَذَا وَلَمْ يُحْدَثْ لَهُ غَيْرٌ لَمْ يُنِكَ مَيِّتٌ وَلَمْ يُفْرَحْ بِمَوْلُودٍ<sup>(1)</sup>  
صار اليوم المعروف منكرا، والمنكر معروفا. فإننا لله وإنا إليه راجعون، والله المستعان  
وإليه اللياذ في أن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن شر هذا الزمان، وشر أهله إنه منعم  
كريم رؤوف رحيم. ولبعضهم:

لَقَدْ صَارَ تَغْيِيرُ الْمَنَائِرِ مُنْكَرًا لَدَى عَصْرِنَا عِنْدَ اللَّثَامِ مِنَ الْوَرَى  
إِذَا قُلْتُ هَذَا لَا يَحِلُّ بِشَرْعِنَا يَقُولُونَ ذَا مَا قَالَهُ قَطُّ مَنْ دَرَى  
فَكَمْ مِنْ فَقِيهٍ قَدْ رَأَيْنَا وَلَمْ يَقُلْ لَنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا لَمُفْتَرَى  
فتأمل يا أخي هذا الكتاب وطالعه، واعمل بما فيه تجمع لك الحقيقة والشرعية وصالح  
الإيمان، وجميع خير الدنيا والآخرة، فرحم الله عبدا أكثر من مطالعة هذا الكتاب،  
وطالب نفسه بالعمل بما فيه

إلهي دعوتك وأنت الكريم، وسألتك أن تجعل هذا الكتاب خالصا لوجهك الكريم،  
مقبولا بفضلك العميم، قبولا لا يعقبه خزي ولا تبديل، وتجعل ذلك سنة لمن قرأه، أو  
سمعه، أو عمل به، أو اقتناه، أو سعى في شيء منه، اللهم فاجعله لي حجة، واجعل لي  
نوراً تاماً إلى يوم القيامة، واجعله لمن قرأه أو تملكه نورا تاماً إلى يوم القيامة، اللهم  
اجعله لنا دليلاً وإماماً للحق، وقائداً إليه، ومؤنساً لنا في قبورنا، ومنوراً لقلوبنا، وأرنا

(1) البيتان وجدتهما في الأزهار فيما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار للسيوطي وقال إنهما لأبي هلال.

فضله في الدنيا والآخرة، وأعد علينا بركته في الدنيا والآخرة، برحمتك يا أرحم  
الراحمين.

فدونك في شرح هذه الخاتمة جملة صالحة فيما لا بد للمرء من مطالعته كل حين لا  
تكاد توجد في غيره فعليك بتحصيله فتطَّلِع فيه على جواهر نفيسة لا توجد بمجموعة في  
غيره، كما هي بحمد الله حاصلة فيه، وكيف لا يكون كذلك وهو مشتمل على الوعظ  
والتذكير، والتنبيه والتبصير، وتخلية القلب من الرذائل، وتخليته بالفضائل، وتصفية  
الأعمال، والتحرز من الالتفات إلى الخلق الذي هو من أعظم الحجب بين العبد وبين  
ربه. وقصدت بهذا نصح من اطلع على هذا الشرح أن يعلم قدر ما أنعم الله تعالى  
عليه به، فإن التحدث بالنعم شكرٌ.

وهذا أو ان الشروع في الشرح وإلى الله تعالى الرغبة في التوفيق إلى أرشد الأمور  
وأجلها وأحدها عاقبة في الدين والدنيا والآخرة، والله المستعان، وعليه التكلان وبه  
التوفيق. فإن صح ما قلته في هذا الكتاب فهو الغرض، وإلا فكم ظننت صحةً بذِي  
مَرَضٍ، بيد أني أقول كما قال ابن عباس<sup>(1)</sup> ﷺ لما سئل إذا مات الرجل في نكاح  
التفويض قبل الدخول وقبل الفرض فبقي شهرا لم يجاب، فقليل له: يا صاحب رسول  
الله ﷺ ما لنا غيرك مجاب في المسألة. فقال: وإذا عزمتم فأجتهد، فإن أصبت فبفضل الله  
ورسوله، وإن أخطأت فمني ومن الشيطان. وصدق الله ورسوله.

(1) ابن عباس: هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن عم رسول الله ﷺ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ودعا  
له رسول الله ﷺ بالفهم في القرآن فكان يسمى البحر والحبر لسعة علمه، ونشأ في بدء عصر النبوة، فلازم رسول الله ﷺ وروى عنه  
الاحاديث الصحيحة. وشهد مع علي الجمل وصفين. وكف بصره في آخر عمره، فسكن الطائف، وتوفي بها. له في الصحيحين وغيرهما  
1660 حديثا. وكان كثيرا ما يجعل أيامه يوما للفقهاء ويوما للتأويل، ويوما للمغازي، ويوما للشعر، ويوما لوقائع العرب. وكان عمر إذا  
عضلت عليه قضية دعا ابن عباس وقال له: أنت لها ولأمثالها، ثم يأخذ بقوله ولا يدعو لذلك أحدا سواه. وكان آية في الحفظ، أنشده  
ابن أبي ربيعة قصيدته التي مطلعها: "أمن آل نعم أنت غاد فمبكر" فحفظها في مرة واحدة، وهي ثمانون بيتا، وكان إذا سمع النوادر  
سد أذنيه بأصابعه، مخافة أن يحفظ أقوالهم. ولحسن بن ثابت شعر في وصفه وذكر فضائله. وينسب إليه كتاب في "تفسير القرآن - ط  
" جمعه بعض أهل العلم من مرويات المفسرين عنه في كل آية فجاء تفسيرها حسنا. وأخباره كثيرة. ت: 68هـ. انظر: الإصابة: رقم  
الترجمة: 4272.

# الكلام على البسملة

ابتدا بالبسملة فقال: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) تبركا بها.  
ومن فضل البسملة: ما ذكر أن الله تعالى أوحى إلى نبي من الأنبياء: «أنه من لقيني وفي صحيفته بسم الله الرحمن الرحيم سبع مائة غفرت ذنوبه ولو كانت عدد التراب».  
والاسم عند البصريين من الأسماء التي حذفت أعجازها لأن أصله سُمُو [بضم أوله وكسره مع سكون الميم<sup>(1)</sup>] لا أوائلها كما عند الكوفيين، فعلى الأول فهو مشتق من السمو وهو العلو. معناه: أنه تعالى لم يزل موصوفاً قبل الخلق وبعدهم وعند وجودهم لا تأثير لهم في أسمائه ولا في صفاته وهو قول أهل السنة. وعلى الثاني: هو مشتق من الوسم، يقول: كان الله تعالى في الأزل بلا اسم ولا صفة؛ فلما خلق الخلق جعلوا له أسماء وصفات وهو قول المعتزلة أي وزعموا أنه يبقى بلا اسم ولا صفة عند فناء الخلق. كما نقله عنهم القرطبي<sup>(2)</sup>، وهو أشد خطأً من قولهم بخلق القرآن؛ لأن القرآن صفة واحدة، والأسماء صفات متعددة. ويحاج عن الكوفيين بأنهم إنما نظروا للفظ اسم بقطع النظر عن مسماه، ولازم المذهب ليس بمذهب، فلا يلزم على كلامهم الجري على مذهب المعتزلة<sup>(3)</sup>. انتهى مما كتبه عبد الباقي<sup>(1)</sup> في شرح خطبة خليل للناصر اللقاني<sup>(2)</sup>.

(1) كما في شرح عبد الباقي على شرح اللقاني لخطبة خليل ص 9. مخطوط.

(2) القرطبي: هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي، أبو عبد الله، القرطبي: من كبار المفسرين. صالح متعبد. من أهل قرطبة. رحل إلى الشرق واستقر بمنية ابن خصيب (في شمالي أسبوط، بمصر) وتوفي فيها. من كتبه "الجامع لأحكام القرآن - ط" "عشرون جزءاً، يعرف بتفسير القرطبي، و"قمع الحرص بالزهد والقناعة" و"الاسم في شرح أسماء الله الحسنى" و"التذكار في أفضل الأذكار - ط" و"التذكرة بأحوال الموتى وأحوال الآخرة - خ". تـ: 671هـ. انظر: الشجرة: (197).

(3) انظر شرح عبد الباقي على شرح اللقاني لخطبة خليل: ص 9. مخطوط. والكلام موجود في شرح عبد الباقي الزرقاني على العرية: (ص 17).



والحكمة في أنه تعالى جعل افتتاح كتابه بحرف الباء واختارها على سائر الحروف ولا سيما على الألف - فإنه أسقط الألف من الاسم وأثبت مكانها الباء وقال: لبسم الله - عشرة معان:

منها: أن للألف ترفعا وتكبيرا وتطاولا، وفي الباء انكسارا وتواضعا وتساقطا. فالألف لما تكبرت وضعها الله تعالى، والباء لما تواضعت رفعها الله تعالى كما ورد: «من تواضع لله رفعه الله<sup>(3)</sup>».

ومنها: أن الباء حرف شفوي تنفتح الشفة به ما لم تنفتح بغيره من الحروف، وكان أول افتتاح فم الذرة الإنسانية في عهد "ألست بربكم" في جواب "بلى"، فلما كانت الباء أول حرف نطق به الإنسان وفتح فمه به، وكان المخصوص بهذه المعاني، اقتضت الحكمة الإلهية اختيارها من سائر الحروف، فاختارها ورفع قدرها وجعلها مفتاح كتابه وأعطاهها رفعة الألف وقامته، وأثبتها مكانها لإظهار تعظيمها وقرئها باسم ذاته.

ومنها: أن معاني الكتب المتزلة مجموعة في القرآن، ومعاني القرآن مجموعة في الفاتحة، ومعاني الفاتحة مجموعة في البسملة، ومعاني البسملة مجموعة في الباء، أي لأن المقصود من العلم وصول العبد إلى الرب، والباء باءُ الإلصاق، فهي تلصق العبد بجانب الرب وذلك كمال المقصود.

---

(1) أبو محمد عبد الباقي يوسف بن أحمد الزرقاني الإمام المحقق مرجع المالكية في عصره، أخذ عن علي الأجهوري - وشهد له بالعلم - والبرهان اللقاني وغيرهم، أخذ عنه جماعة كثيرون، له مؤلفات منها: شرح لمختصر خليل - شرح العزبة - فتاوى في الفقه. توفي سنة: 1099هـ. (شجرة النور الزكية: 304).

(2) اللقاني: هو محمد بن الحسن اللقاني، ناصر الدين، علامة محقق، أخذ عن علامة المعقولات الملا عالي المحمي وغيره، اشتغل بإقراء العلوم على اختلافها نحو من ستين عاما لا يفتر عن ذلك على وجه لم يساوه فيه غيره من تحرير العبارات والنظر فيها، دارت عليه الفتوى بعد موت أخيه بإشارته له بذلك. قال القرائي: آخر من انتهت إليه رئاسة العلم في مصر. وكان كما قال القرائي. ولم يصنف شيئا سوى ما كتب من الطرر على التوضيح فجمعت بعد موته في مجلد فعم نفعها، ونسب له تقييد على شرح المحلي على جمع الجوامع للسبكي، وشرح خطبة خليل. ت 958هـ. انظر: كفاية المحتاج (230/2) رقم الترجمة: (191).

انظر شرح عبد الباقي على شرح اللقاني لخطبة خليل: ص 9. والكلام موجود في شرح عبد الباقي الزرقاني على العزبة: (ص 17).

(3) أخرجه أحمد في مسند رقم: (12043). بلفظ: « مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ دَرَجَةً رَفَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَحْمِلَهُ فِي عِلِّيِّينَ وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللَّهِ دَرَجَةً وَضَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَحْمِلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ ». وابن حجر في فتح الباري رقم: 0621 عن أبي سعيد.

ومنها: أن البسملة متعلقة بمعنى الحمد لله، أي ما في الحمد من معنى الفعل، فإنه تعالى لا يحمد ولا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى، ولا يُتكلَّفُ في القرآن محذوفٌ إلا لضرورة، ولا ضرورة هنا. وأما قولهم: إن المصادر لا تعمل عمل الفعل إلا إذا تقدمت، وأما إذا تأخرت فتضعف عن العمل، فذلك تحكم من جمهور النحويين غير مرضي في التعليل. واختار بعضهم كالرَضِي<sup>(1)</sup> والسعد التفتازاني<sup>(2)</sup> جواز عمله في الظرف المتقدم. ومنها: ما ورد أنه **ﷺ** قال لمعاوية<sup>(3)</sup>: «أَلَتِ الدَّوَاةُ، وَحَرَّفَ الْقَلَمَ، وَانْصَبَ الْبَاءُ، وَفَرَّقَ السِّينَ، وَلَا تَعُورُ الْمِيمَ، وَمُدَّ الرَّحْمَنَ، وَجُودَ الرَّحِيمَ، وَضَعَ قَلَمَكَ عَلَى أَذْنِكَ الْيَسْرَى، فَإِنَّهُ أَذَكَرَ لَكَ»<sup>(4)</sup>.

ومنها: «أن حروف البسملة تسعة عشر عدد الزبانية فمن قالها وقى منهم» كما ورد. ومنها: أن الله تعالى تكرر ذكره في القرآن في ألفي موضع وخمسمائة وستين. ومنها: أن البسملة نزلت أول كل سورة من القرآن قسماً بها أن ما في هذه السورة حق، وقد تقدم الكلام عليها مستوفى في: **شَرْحُ الْعَقِيدَةِ**<sup>(1)</sup>.

(<sup>1</sup>) لعله الرضی الصاغاني: وهو الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر العدوي العمري الصاغاني الحنفي رضي الدين: أعلم أهل عصره في اللغة. وكان فقيها محدثاً. ولد في لاهور (بأهند) ونشأ بغزنة (من بلاد السند) ودخل بغداد، وزحل إلى اليمن، وتوفي ودفن في بغداد، وكان قد أوصى أن يدفن بمكة، فنقل إليها ودفن بها. له تصانيف كثيرة منها (مجمع البحرين - خ) ملجدان في اللغة، و (العباب) معجم في اللغة ألفه لابن العلقمي (وزير المستعصم)، بقيت منه أجزاء، و (الشوارد في اللغات) و (الاضداد - ط). توفي 650هـ. انظر النجوم الزاهرة: (27/6).

(<sup>2</sup>) السعد التفتازاني: هو مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، سعد الدين: من أئمة العربية والبيان والمنطق. ولد بتفتازان (من بلاد خراسان) وأقام بسرخس، وأبعدته تيمورلنك إلى سمرقند، فتوفي فيها، ودفن في سرخس. كانت في لسانه لكمة. من كتبه (تهذيب المنطق - ط) و (المطول - ط) في البلاغة، و (المختصر - ط) اختصر به شرح تلخيص المفتاح، و (مقاصد الطالبين - ط) في الكلام، و (شرح مقاصد الطالبين - ط) و (النعم السوابغ - ط) في شرح الكلم النوابع للزعرشري، و (شرح التصريف العزي - ط) في الصرف، وهو أول ما صنف من الكتب، وكان عمره ست عشرة سنة، وغيرها. توفي: 793هـ. انظر: بغية الوعاة: (390)، وإرشاد الأريب: (159/7).

(<sup>3</sup>) هو معاوية بن (أبي سفيان) صخر ابن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، القرشي الأموي: مؤسس الدولة الأموية في الشام، وأحد دهاة العرب المتميزين الكبار. كان فصيحاً حليماً وقوراً. ولد بمكة، وأسلم يوم فتحها (سنة 8 هـ) وتعلم الكتابة والحساب، فجعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتابه. وأخباره كثيرة جداً لا تسعها الهوامش للمزيد منها انظر الإصابة: (433/3).

(<sup>4</sup>) أخرجه الهندي في كثر العمال رقم: (29566). وأخرجه الديلمي (394/5)، رقم (8533).

# فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

(وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم تَسْلِيمًا) وتقدم الكلام فيه أيضا على الصلاة على النبي ﷺ مستوفى<sup>(1)</sup>.

أتى بالواو في عطف ﷺ على البسملة دروجا على مذهب كثير من النحاة، فإنه في عطفه على البسملة بالواو خلاف، فقيل: بالمنع بناء على أن جملة البسملة خبرية مراعاة لمن منع تعاطف الخبر والإنشاء. وقيل: بالجواز، إما على حذف القول؛ أي وأقول: صلى الله على سيدنا محمد، وحذف القول في كلام العرب كثير، وإما على القول بجواز عطف الإنشاء على الخبر، وإما على أن جملة البسملة أيضا إنشائية، وهو الأرجح فيها، والمختار: إثبات الواو لما ذكره الشيخ أبو عبد الله الخروبي<sup>(2)</sup> عن شيخه أبي عبد الله بن منصور الحلبي<sup>(3)</sup> عن شيخه أبي زيد الثعالبي<sup>(4)</sup> عن شيخه أبي جمعة المقرئ أن النبي ﷺ أمره بذلك في النوم، وهذه المسألة مما يعمل فيها بالرؤيا ونحوها. قاله الشيخ محمد المهدي بن يوسف الفاسي<sup>(5)</sup> في شرح دلائل الخيرات<sup>(1)</sup>. وتقدم في شرح العقيدة

(1) انظر فرائد الفوائد من ص 55 إلى ص 68.

(2) الخروبي: هو محمد بن علي الخروبي الطرابلسي (أو السفاسي) الجزائري المالكي، أبو عبد الله: فقيه الجزائر في عصره. دخل مراكش سنة 959 سفيرا بين سلطان آل عثمان والامير أبي عبد الله الشريف، للمهادنة بينهما. وتوفي بالجزائر. له مؤلفات، منها كتاب في (التفسير) و (الحكم الكبرى - خ) و (شرح كتاب عيوب النفس ومدافعها - خ). توفي 963هـ. انظر: معجم المؤلفين: (11/6).

(3) لعله: محمد بن منصور بن أحمد بن إدريس ابن الحسين بن القاسم بن عيسى العجلي، الحلبي فقيه، مفسر، من تصانيفه: السرائر الحاوية لتحرير الفتاوى، المستطرفات، جوابات مسائل ابن قعرويه، مختصر في المضائق، ومختصر تفسير التبيان. انظر معجم المؤلفين: (51/12).

(4) الثعالبي: هو عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري، أبو زيد: مفسر، من أعيان الجزائر، زار تونس والمشرق. من كتبه (الجواهر الحسان في تفسير القرآن - ط) أربعة مجلدات، و (الأنوار) في المعجزات النبوية، و (روضة الأنوار ونزهة الأخيار) مجموع، و (جامع الامهات في أحكام العبادات) و (الذهب الإبريز في غريب القرآن العزيز) و (الإرشاد في مصالح العباد) و (رياض الصالحين).

توفي 875هـ. انظر:

(5) هو محمد المهدي بن أحمد بن علي بن يوسف بن محمد الفاسي الفهري، أبو عيسى: مؤرخ محدث. مولده بالقصر الكبير (بالمغرب) ووفاته بفاس. كان لا يأكل إلا من عمل يده بالنسخ، ولا ينسخ لمن له ماله شبهة. وخطه حسن متقن. له تأليف، منها: (التعريف

سبب تسميته ﷺ بمحمد (2).

فائدة: وفي جواز التسمية بمحمد - وهو مذهب الأكثر لتسمية كثير من السلف به - ومنعه خلاف، وهو الظاهر من مذهب عمر (3) ﷺ فإنه قال لمن تسمى بمحمد: لا أسمع محمداً يُسب أبداً. وجوازه بعد موته ﷺ لا في حياته. والتسمية بمحمد إنما هي بضم الميم الأولى وفتح الثانية على الموافقة للاشتقاق من الحمد. وأما التسمية بضم الميمين أو فتحهما فلعله من باب التغيير صونا للاسم الشريف أن يُسمّى به غيره. قاله في المعيار عن بعضهم (4).

وقال ابن مرزوق (5) في شرح قول البوصيري (6):

فإن لي ذمّة منه بتسميتي محمداً وهو أوفى الخلق بالذم (7)  
في هذا دليل على الترغيب في التسمية باسمه ﷺ لأنها من الذم التي يُمت بها إليه في رجاء شفاعته ﷺ.

---

مؤلف دلائل الخيرات وزمانه وكلامه وشيوخه - (خ) عندي منه نسخة بالية. و (سمط الجوهر الفاخر - خ) في السيرة النبوية، و (الاماع بعض من لم يذكر في تمتع الاسماع - ط) و (ذيل تمتع الاسماع - خ) وعليهما المدار في معرفة أولياء المغرب، و (مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات - ط). توفي: 1109هـ. انظر: سلوة الأنفاس: (2/316)، والأعلام: (7/112).

(1) انظر: مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات: (ص 14). وفيه: "عن أبي عبد الله محمد بن منصور الحلبي...".  
(2) انظر فرائد الفوائد في شرح قواعد العقائد للمؤلف ص 58.

(3) هو عمر بن الخطاب غني عن التعريف. ومن أراد التوسع في أخباره فليُنظر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر.  
(4) انظر المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب: (11/139).

(5) ابن مرزوق: محمد بن أحمد بن محمد، ابن مرزوق العجيسي التلمساني، أبو عبد الله، المعروف بالحفيد، أو حفيد ابن مرزوق: عالم بالفقه الاصول والحديث والادب. ولد ومات في تلمسان، ورحل إلى الحجاز والشرق. له كتب وشروح كثيرة، منها "المفاتيح المرزوقية لحل الاقفال واستخراج خبايا الخزرجية - خ" و "أنواع الذراري في مكررات البخاري" و "نور اليقين في شرح أولياء الله المتقين" و "تفسير سورة الاخلاص" على طريقة الحكماء، وثلاثة شروح على "الردة". توفي: 842هـ. انظر: نيل الابتهاج: (293).

(6) البوصيري: هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصري، شرف الدين، أبو عبد الله: شاعر، حسن الديباجة، مليح المعاني. نسبته إلى بوصير (من أعمال بني سويف، بمصر) أمه منها. وأصله من المغرب من قلعة حماد من قبيل يعرفون ببني حبنون. ومولده في بمشيم من أعما البهنساوية. ووفاته بالاسكندرية. له (ديوان شعر - ط) وأشهر شعره الردة. توفي: 696هـ. انظر: فوات الوفيات: (2/205).

(7) من قصيدة الردة المشهورة للبوصيري وعدد أبياتها 158 بيتا وهي من بحر البسيط، والبيت المذكور رقم: 144.

## وقد وردت آثار في فضل التسمية بمحمد وأحمد:

منها: ما ذكره القاضي عياض<sup>(1)</sup> عن سريح<sup>(2)</sup> بن يونس أنه قال: «إن لله ملائكة سياحين عبادة كل دار فيها أحمد أو محمد إكراما لمحمد ﷺ». (3)

ومن فضله أيضا: ما رواه أنس<sup>(4)</sup> قال: قال رسول الله ﷺ: «يوقف عبدان بين يدي الله عز وجل فيؤمر بهما إلى الجنة فيقولان: ربنا وبما استأهلنا الجنة ولم نعمل عملا نجازي به الجنة فيقول الله لهما: عبدائي ادخلا الجنة فإني آليت على نفسي أن لا يدخل النار من اسمه محمد ولا أحمد» (5).

وفي الحديث أيضا: «من ولد له مولود فسماه محمدا حبا لي وتبركا باسمي كان هو ومولوده في الجنة» (6) رواه أبو أمامة (7).

وفيه أيضا: «من ولد له ثلاثة أولاد ولم يسم أحدهم محمدا فقد جهل وقد جفائي» (8) رواه ابن عباس ووائله ابن الأسقع (1).

---

(1) القاضي عياض: هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن يحيى السبتي، أبو الفضل: عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته. كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم. ولي قضاء سبتة، ومولده فيها، ثم قضاء غرناطة. وتوفي بمراكش مسموما، قيل: سمه يهودي. من تصانيفه "الشفاء بتعريف حقوق المصطفى - ط" و"الغنية - خ" في ذكر مشيخته، و"ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك - ط". انظر: وفيات الأعيان: (483/3).

(2) هو سريح بن يونس بن إبراهيم بن الحارث المروزي الزاهد العابد صاحب الكرامات، وكانت وفاته في شهر ربيع الأول سنة خمس وثلاثين ومائتين ببغداد (235هـ). انظر: وفيات الأعيان: (67/1).

(3) أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة وهو له أخرجه الطبراني. انظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى لعباس تحقيق سيدي محمد المنوني: (221/1).

(4) هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم النخاري الخزرجي الانصاري، أبو ثمامة، أو أبو حمزة: صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخادمه. روى عنه رجال الحديث 2286 حديثا. مولده بالمدينة وأسلم صبغوا وخدم النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن قبض. ثم رحل إلى دمشق، ومنها إلى البصرة، فمات فيها سنة 93هـ. وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة. انظر الإصابة: (71/1).

(5) أخرجه المناوي في فيض القدير: رقم (7932) (78/5).

(6) أخرجه المناوي في فيض القدير: رقم: (9084) (308/6).

(7) هو صدي بن عجلان بن وهب الباهلي، أبو أمامة: صحابي. كان مع علي في (صفين) وسكن الشام، فتوفي في أرض حمص. وهو آخر من مات من الصحابة بالشام. له في الصحيحين 250 حديثا. توفي 81هـ. انظر الإصابة: (الترجمة 4056).

(8) أخرجه المناوي في فيض القدير: رقم: (9084) (308/6).

وفيه أيضا: «ما ضر أحدكم أن يكون في بيته محمد ومحمدان وثلاثة»<sup>(2)</sup> رواه أبو قدامة العَمَرِي<sup>(3)</sup> ورفعَه إلى النبي ﷺ. ورُوِيَ أيضًا عن مالك<sup>(4)</sup>.

وفيه أيضًا: «ما اجتمع قوم في مشورة معهم رجل اسمه محمد فلم يدخلوه في مشورتهم إلا لم يبارك معهم»<sup>(5)</sup> رواه علي<sup>(6)</sup>.

وفي رواية: «ما من قوم كانت لهم مشورة فحضر معهم من اسمه أحمد أو محمد فأدخلوه في مشورتهم إلا خيّر لهم»<sup>(7)</sup>.

وفي الحديث أيضًا: «تسموهم محمدًا ثم تسبوهم»<sup>(8)</sup> رواه أنس.

وفيه أيضًا: «ما من مائدة وضعت وحضر عليها من اسمه أحمد أو محمد إلا قلّس الله ذلك المنزل في كل يوم مرتين»<sup>(9)</sup>.

وفيه أيضًا: «ما أكل قوم طعامًا من حلال عليه رجل اسمه اسمي إلا يُضاعف الله في طعامهم»<sup>(10)</sup> رواه عائشة<sup>(11)</sup>.

- 
- (1) هو وائلة بن الاسقع بن عبد العزى بن عبد ياليل، الليثي الكتاني: صحابي، من أهل الصفة. قيل: خدم النبي ثلاث سنين. ثم نزل البصرة وكانت له بها دار. وشهد فتح دمشق، وسكن قرية "البلاط" على ثلاثة فراسخ منها. وحضر المغازي في البلاد الشامية. وتحوّل إلى بيت المقدس، فأقام. ويقال: كان مسكنه بيت جبرين. وكف بصره. وعاش 105 سنين، وقيل: 98 وهو آخر الصحابة موتًا في دمشق. له 76 حديثًا. ووفاته بالقدس أو بدمشق. انظر الإصابة: (الترجمة 908).
- (2) أخرجه المناوي في فيض القدير: رقم: (3301) (324/3).
- (3) لعله عبيد الله بن سعيد بن يحيى، أبو قدامة: من حفاظ الحديث، وثقات رجاله. ولد بسرخس وسكن نيسابور. قال ابن حبان: وهو الذي أظهر السنة بسرخس ودعا إليها. روى عنه البخاري ومسلم، توفي 241 هـ. انظر تهذيب التهذيب: (16/7).
- (4) هو مالك بن أنس إمام دار الهجرة وشيخ المذهب المالكي. وهو غني عن التعريف.
- (5) أخرجه السيوطي في الجامع الكبير: (رقم 312) وابن عساكر (431/38). وأورده ابن الجوزي في العلل المتناهية (174/1)، بعد رقم 267.
- (6) هو علي بن أبي طالب غني عن التعريف.
- (7) رواه السيوطي في الجامع الكبير: (رقم 212). عن عبد بن حميد عن أنس. ولفظه: «تسمون أولادكم محمدًا.....».
- (8) أخرجه أبو يعلى في مسنده رقم: (3386).
- (9) لم أجد تخريج هذا الحديث إلا في شرح الشمائل المحمدية للهروي القاري المسمى: (182/2). وقد وجدته في كم غفير من الكتب لكنها ليست من كتب السنن.
- (10) لم أجد تخريجه.
- (11) هي عائشة بنت أبي بكر الصديق أم المؤمنين، وهي غنية عن التعريف.

وفيه أيضا: «ما من أهل بيت منهم من اسمه محمد إلا لم يزالوا في البركة في كل يوم وليلة»<sup>(1)</sup> رواه ابن عباس.

وفيه أيضا: «ما من بيت فيه من اسمه محمد إلا رزقوا ورزق جيرانهم»<sup>(2)</sup> رواه ابن وهب<sup>(3)</sup> في جامعه عن مالك قال: سمعت أهل المدينة يقولون ذلك. وفيه أيضا: «سم ولدك محمدا يكثر خير بيتك»<sup>(4)</sup>.

وفيه أيضا: «لا يدخل الفقر بيتا فيه اسمي»<sup>(5)</sup> رواه أبو هريرة<sup>(6)</sup>.

وفيه أيضا: «ما من بيت فيه من اسمه محمد يخلو من خير»<sup>(7)</sup>.

وفيه أيضا: «ما من أهل بيت فيهم اسم نبي إلا بعث الله إليهم ملكا يقدسهم بالغدو والعشي»<sup>(8)</sup> رواه علي.

وعن جعفر بن محمد<sup>(1)</sup> عن أبيه عن جده مرسلًا قال: «إذا سميت الولد محمدا فعظموه ووقروه وبجلوه ولا تذلولوه ولا تحقروه ولا تجبهوه»<sup>(2)</sup> تعظيما لمحمد ﷺ.

(1) لم أجد تخريج هذا الحديث.

(2) أخرجه في الشفا بلفظ: «ما من بيت فيه اسم محمد إلا غنى ورزقوا ورزق جيرانهم» انظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى: (176/1).

(3) هو عبد الله بن وهب بن مسلم الفهري بالولاء، المصري، أبو محمد: فقيه من الأئمة. من أصحاب الإمام مالك. جمع بين الفقه والحديث والعبادة. له كتب، منها "الجامع - ط" في الحديث، مجلدان، و "الموطأ" في الحديث، كتابان كبير وصغير. وكان حافظا ثقة مجتهدا. عرض عليه القضاء فخبأ نفسه ولزم منزله. مولده ووفاته بمصر سنة 197 هـ. انظر الوفيات: (249/1).

(4) لم أجد تخريجه.

(5) رواه ابن عدي وفي إسناده وضاع. انظر الفوائد المجموعة للشوكاني: (234/1).

(6) هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي، الملقب ب أبي هريرة: صحابي، كان أكثر الصحابة حفظا للحديث ورواية له. نشأ يتيما ضعيفا في الجاهلية، وقدم المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بخير، فأسلم سنة 7 هـ ولزم صحبة النبي، فروى عنه 5374 حديثا، نقلها عن أبي هريرة أكثر من 800 رجل بين صحابي وتابعي. وولي إمرة المدينة مدة. ولما صارت الخلافة إلى عمر استعمله على البحرين، ثم رآه ابن العريكة مشغولا بالعبادة، فعزله. وأراد بعد زمن على العمل فأبى. وكان أكثر مقامه في المدينة وتولي فيها. وكان يفتي، وقد جمع شيخ الإسلام تقي الدين السبكي جزءا سمي (فتاوي أبي هريرة) توفي 59 هـ. انظر الإصابة: (الكنى الترجمة 1179).

(7) لم أجد تخريجه.

(8) رواه الخطيب عن علي وابن عباس وابن عمر مرفوعا وفي إسناده من روى بالكذب وقد أورده ابن الجوزي في الموضوعات. انظر الفوائد المجموعة للشوكاني: (469/1).

وعن الحسن البصري<sup>(3)</sup> موقوفا قال: «إن الله عز وجل ليوقف عبدا بين يديه يوم القيامة اسمه محمد أو أحمد قال فيقول الله تعالى: محمد عبدي أما استحييت مني تعصيتي واسمك اسم حبيبي محمد، فَيَنْكَسُ العبد رأسه ثم يقول: اللهم إني فعلت، فيقول الله: يا جبريل خذ بيد عبدي فأدخله الجنة فلإني أستحيي أن أعذب بالنار من اسمه حبيبي محمد<sup>(4)</sup>».

وفي الأثر: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد من قبل المولى جل جلاله: من كان اسمه محمدا فليدخل الجنة إكراما لنبي الله وحبيه ﷺ»<sup>(5)</sup> روي عن جعفر بن محمد. وفي لفظ آخر: «ينادى يوم القيامة يا محمد فيرفع رأسه كل من اسمه محمد فيقول الله عز وجل: أشهدكم أني قد غفرت لكل من اسمه على اسم محمد نبي».

وفي الحديث: «إذا كان يوم القيامة أخرج الله أهل التوحيد من النار وأول من يخرج من وافق اسمه اسم نبي<sup>(6)</sup>».

وفيه أيضا: «إذا سميت الولد محمدا فأكرموه وأوسعوا له في المجلس ولا تقبحوا له وجهها<sup>(1)</sup>».

(1) لعنه جعفر بن محمد بن بصير، أبو محمد الخلدي: شيخ الصوفية في أيامه ببغداد، وأعلمهم بالحديث. كان حوصا (بيع الخوص، وهو ورق النخل) نسبه إلى (قصر الخلد) ببغداد ولم يكن له وإنما دعاه (الجيد) بالخلدي، فلهذه. جمع 56 حقة. مولده ووفاته بعدد. انظر الشذرات: (378/2).

(2) أخرجه الذهبي (1: 340، رقم 1354).

(3) البصري: هو الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد: تابعي، كان إمام أهل البصرة، وحرر الأمانة في ربه. وهو أحد الصمعة ثمغته، المصحاء الشجعان الساك. ولد بالمدينة، وشب في كنف علي بن أبي طالب، واستكنه الربيع ابن رهاد والي حراسان في عهد معاوية، وسكن البصرة. وعظمت هيبة في القنوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وبهاهم، لا يخاف في الحق لومة. وكان أبوه من أهل ميسان، مولى لبعض الانصار. قال العزالي: كان الحسن البصري أشبه الناس كلاما بكلام الانبياء، وأقرهم هديا من الصحابة. وكان غاية في الفصاحة، تنصب المحكمة من فيه. وله مع الحجاج ابن يوسف مواقف، وقد سمع من أده. وما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه: إني قد انتليت هذا الامر فاطر لي أعواما يمينوني عليه. فأجابه الحسن: أما أبناء الدنيا فلا تربدهم، وأما أبناء الآخرة فلا يربطون. فاستعن بالله. أحباره كثيرة، وله كلمات سائرة وكتاب في (مقائل مكة - ج) بالاهمية. توفي بالبصرة. توفي 110 هـ. انظر: وميرال الاعتدال (1: 245) وحلية الأولياء (2: 131).

(4) أخرجه السيوطي في شرحه لصحيح البخاري: (25/35).

(5) أخرجه عياض في الشفا بتعريف حقوق المصطفى: (1: 176).

(6) أخرجه الترمذي رقم: (2638).



وله أمه «مريم» والدته مولاوه «عليه السلام» اسمه وأدبه فلا، بلغ عام ثلثه فأمسك به إماماً بهاء  
بهاء<sup>(1)</sup> رواه أبو سعيد.

وعن ابن جريج<sup>(2)</sup> يرفعه: «مريم» قال له ذو الرطاح فأجمع أن يسميه محمداً، فله الله  
عزماً وما كان اسم محمد في بيت إلا جعل الله البركة في ذلك البيت<sup>(3)</sup>». وفي الحديث: «رسموا بأسماء الأنبياء<sup>(4)</sup>».

وقد ذكر أنه إذا نودي يوم الفهامة باسمه "يا محمد" فمن سمعه ورفع له رأسه أفصح وسعد.  
وقد رأيت بعض المباركين و دان علماً و دان له جملة أولاد تسميهم "بنات محمد"، وما فرق  
بينهم إلا بالكسبي لما سمع من الخير الذي جاء في هذا الاسم المبارك، ولما سمعني به إنهم،  
ولذلك ما رأيت وإياهم إلا في غير عظيم من غير أن يقصد أحداً أو يخرج عما كان  
مشتغلاً بما يعنيه من دينه. قاله في الروض البائع.

وفي رحلة العبدري: وأفضل الأسماء ما فيه ذكر الله أو اسم من الأنبياء عليهم الصلاة  
والسلام، أو اسم الصحابة.

قال ابن الرصاع<sup>(5)</sup>: معنى هذا روي في بعض الآثار ومشهور الأخبار - وهو وإن لم  
يصح - فالعناية الربانية بمقام سيدنا ومكانته والحض من الله تعالى على احترامه وتوحيده  
وتأييده.

(1) أخرجه الخطيب (91/3). وأخرجه أيضاً: الديلمي (60/1/1).

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم: (8413) بلفظ: «من ولد له ولد فليحسن اسمه وأدبه، فإذا بلغ فليزوجه فإن نفع ولم  
يزوجه فأصاب إثمًا، فإنما إثم على أبيه».

(3) ابن جريج: هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، أبو الوليد وأبو خالد: فقيه الحرم المكي. كان إمام أهل الحجاز في عصره. وهو  
أول من صنف التصانيف في العلم بحكمة. رومي الأصل، من موالى قرطش. مكى المولد والوفاة. توفي: 150 هـ. انظر: تذكرة الحفاظ 1:  
160 وصفة الصفوة 2: 122 وابن حلكان 1: 286.

(4) أخرجه في كتاب فضائل التسمية: (23/1).

(5) أخرجه أبو داود في سننه رقم: (4950) بلفظ: "تسموا بأسماء الأنبياء وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن وأصدقها  
حارث وهام وأقبحها حرب ومرة".

(6) ابن الرصاع: هو محمد بن قاسم أبو عبد الله الأنصاري التلمساني ثم التونسي المغربي المالكي ويعرف بابن الرصاع مهمتين  
والتشديد صنعة لأحد آباءه. ممن أخذ عن أحمد وعمر القلشانيين وابن عقاب وآخرين كأبي القسم الرزلي، وولي الهبة ثم الأنكحة ثم

والآثار في فضل التسمية بمحمد وأحمد كثيرة فينبغي الإكثار منها، ولهذا كان بعض الأفاضل يسمون ولدين فأكثر بِمُحَمَّدَيْنِ فيقع التمييز بينهما بالصغير والكبير ونحوه. وقال أبو عبد الله<sup>(1)</sup>: ولما رأى الشيطان هذه البركة أراد إزالتها عنهم من حيث يعلم أنهم يقبلون منه ليحرمهم هذا الفضل، فأهل المشرق حُب إليهم التسمية بنحو عز الدين، وشمس الدين، وغيرهما؛ لما رأى فيهم من حب الرياسة والفخر، ورأى في أهل المغرب التواضع وترك الفخر فأوقعهم في الألقاب المنهي عنها فقالوا لمحمد: حم، ولأحمد حدوس، وليوسف ييش، إلى غير ذلك، فأعطى لكل إقليم ما يَقْبَلُ، على أن ذلك لا يسلم من الكذب والتزكية المنهي عنها فيجب النهي عن تلك البدعة. قاله في السروض اليانع.

---

الجماعة ثم صرف نفسه في كاتبة صاحبنا أبي عبد الله البرنيسشي واقتصر على إمامة جامع الزيتونة وخطابته متصدياً للإفتاء وإلقاء الفقه وأصول الدين والعربية والمنطق وغيرها وجمع شرحاً في شرح الأسماء النبوية وآخر في الصلاة على النبي ﷺ وأفرد الشواهد القرآنية من المغني لابن هشام ورتبها على السور وتكلم عليهما وشرح حدود ابن عرفة بل بلغني أنه شرع في تفسير وأنه اختصر شرح البحاري لشيخنا وعندي أنه انتقاء لا اختصار وبلغنا أنه في سنة أربع وتسعين على خطه. انظر: الضوء اللامع: (251/4) رقم الترجمة: (793). ومعجم المؤلفين: (137/11).

(<sup>1</sup>) هو ابن الرصاع المذكور عانفا.

## فوائد الصلاة على النبي ﷺ

وفي الصلاة على النبي نحو أربعين فائدة منها: امتثال أمر الله تعالى، وموافقته في الصلاة عليه، وإن اختلفنا، وموافقة الملائكة، وحصول عشر صلوات من الله تعالى على المصلي عليه، ويرفع له عشر درجات، ويكتب له عشر حسنات، ويمحي عنه عشر سيئات، وإجابة دعائه إذا قدمها، وسبب لشفاعته ولكفايته الله ما أهمه، ولقضاء حوائجه، ولصلاة الله والملائكة عليه، ولنجاته من أهوال الآخرة، ولرده عليه السلام للمصلي والمسلم عليه، ولنفي الفقر، ولوقود نوره على الصراط، ولهدايته وحياة قلبه، ولشبيبته قدمه عليه، والجواز عليه، ولكتب الله له بين عينيه براءة من النار، والبركة في ذاته وعمله وعمره، وأسباب مصالحه، ولنيل رحمة الله له، ولتبشيره بالجنة، ولقرب العبد من نبيه ﷺ في الآخرة، وإنها تقوم مقام الصدقة لذي العسرة، وتذكر العبد ما نسيه، وتطيب المجلس الذي تذكر فيه، ولا يكون حسرة على مجتمعيه في الآخرة، وتنفي عن العبد اسم البخل إذا صلى على نبيه عند سماع ذكره ﷺ، وتنجي من الدعاء عليه برغم الأنف، وترميته على طريق الجنة، وتنجي من شر المجلس الذي لا يذكر فيه اسم الله تعالى ورسوله، ويخرج بها من الجفاء، وأنها أداء لأقل القليل من حقه، وشكر الله على نعمته التي أنعم عليه مع أنه عليه الصلاة والسلام يستحق ما لا يحصى ولكنه سبحانه رضي منا باليسير من شكره وأداء حقه، وإنها سبب لرؤيته ﷺ في المنام إذا قال المصلي: اللهم صل على روح محمد في الأرواح، وعلى جسده في الأجساد، وعلى قبره في القبور، اللهم بلغ روح محمد مني تحية وسلاما. وسبب لإلقاء الله الثناء الحسن للمصلي عليه بين السماء والأرض. لأن المصلي طالب من الله أن يثني على رسوله، ويشرفه. والجزاء من جنس العمل، فلا بد أن يحصل للمصلي نوع من ذلك.

**فائدة أخرى:** الصلاة استقلالا خاصة بالأنبياء، كما خص "عز وجل" بالله تعالى، فلا يقال: محمد "جل وعز" وإن كان ﷺ عزيزا جليلا، ولا أبو بكر "الشيخ"، كما يمنع محمد "رحمه الله" لأنه قال: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ» ولم يقل من ترحم عليّ ولا من دعى لي، ولأنه خلاف الأدب وخلاف المأمور به عند ذكره من الصلاة عليه، ولا ورد ما يدل عليه البتة، وقول الأعرابي: "اللهم ارحمني وارحم محمدا" قد يجاب فيه بأن الدعاء فيه بالرحمة على سبيل التبعية لما قبلها. وأما حديث: «اللهم اغفر لي وارحمني»<sup>(1)</sup> فهو على سبيل التواضع والتشريع للأمة، ويجب علينا نحن أن نخضع بما يشير إلى تفخيمه وتعظيمه اللائق بمنصبه الشريف، اللهم إلا أن يكون الدعاء له بالرحمة على سبيل التبعية لذكر الصلاة والسلام كما في التشهد على وجه الإطناب والخطابة لا على وجه الاستقلال والإفراد نحو: محمد "رحمه الله"، وإن كان معنى الصلاة الرحمة، لكنه خاص بهذا اللفظ تعظيما له فلا يعدل إلى غيره، ورُبَّ شيء يجوز تبعا ولا يجوز استقلالا.

**فائدة أخرى:** قال الرصاع<sup>(2)</sup> عن الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام<sup>(3)</sup>: لا يتوهم أحد أن صلاتنا عليه ﷺ شفاعة منا له عند الله تعالى في زيادة رفعتة، وبلوغ أمنيته، فإن مثلنا لا يشفع لعظيم القدر عند ربه، ولكنه تعالى أمرنا بمكافأة من أحسن إلينا وأنعم

(1) أخرجه مسلم (1893/4)، رقم (2444)، والترمذي (525/5)، رقم (3496)، وقال: حسن صحيح.

(2) الرصاع: هو محمد بن قاسم الانصاري، أبو عبد الله، الرصاع: قاضي الجماعة بتونس ولد بتلمسان، ونشأ واستقر بتونس (831) وعاش وتوفي بها. وله فيها عقب إلى الآن. اقتصر في أواخر أيامه على إمامة جامع الزيتونة والخطابة فيه، متصدرا للافتاء وإقراء الفتة والعربية. وعرف بالرصاع لأن أحد جدوده كان نجارا يروص المناير. له كتب، منها: (التسهيل والتقريب والتصحيح لرواية الجامع الصحيح - خ) و (تذكرة الحبين في شرح أسماء سيد المرسلين - خ) توفي: 894هـ. انظر: الأعلام: (26/3).

(3) هو عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، عز الدين الملقب بسلطان العلماء: فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد. ولد ونشأ في دمشق. وزار بغداد سنة 599 هـ، فأقام شهرا. وعاد إلى دمشق، فتولى الخطابة والتدريس بزاوية الغزالي، ثم الخطابة بالجامع الأموي. ولما سلم الصالح إسماعيل ابن العادل قلعة "صفد" للفرائج اختيارا أنكر عليه ابن عبد السلام ولم يدع له في الخطبة، فغضب وحبه. ثم أطلقه فخرج إلى مصر، فولاه صاحبها الصالح نجم الدين أيوب القضاء والخطابة ومكنه من الأمر والنهي. ثم اعتزل ولزم بيته. ولما مرض أرسل إليه الملك الظاهر يقول: إن في أولادك من يصلح لو ظائفك. فقال: لا. وتوفي بالقاهرة. من كتبه: "التفسير الكبير" و "الامام في أدلة الأحكام" وقواعد الشريعة - خ و "الفوائد - خ" و "قواعد الأحكام في إصلاح الأنام - ط" فقه، و "ترغيب أهل الإسلام في سكن الشام" و "بداية السؤل في تفضيل الرسول - ط" و "الفتاوى - خ". توفي: 660هـ. انظر: فوات الوفيات (287/1)، وطبقات السبكي: (80/5).

علينا، بأن نرغب إليه بأن يُصلى عليه لعجزنا عن مكافأته ﷺ لتكون صلاته تعالى مكافأة له منه سبحانه لإحسانه إلينا، إذ لا إحسان أفضل وأوثق من إحسانه، إلا إحسان خالقه المنعم ببعثه رحمة إلى خلقه ﷺ. انتهى بخ.

قال الأبى<sup>(1)</sup>: انظر لو قال: اللهم صل على محمد عدد كذا هل يثاب بعدد تلك الأعداد؟.

وكان الشيخ ابن عرفة<sup>(2)</sup> يقول: يحصل له ثواب أكثر بصلاة من صلى مرة واحدة، لا ثواب من صلى ذلك العدد.

فائدة أخرى: قوله: "صلى الله على سيدنا محمد.. إلخ": لفظه لفظ الخبر ومعناه السدعاء، واختلف في أفضل الكيفيات في الصلاة على النبي ﷺ.

ومن كتاب: "مائل الزهر في الصلاة على سيد البشر" لسيدي أحمد باب التينكي<sup>(3)</sup> في الفصل الثالث في ذكر ما قال إنه أفضل الكيفيات في الصلاة على النبي ﷺ ما نصه:

رابعها: للشيخ محيي الدين بن عبد القادر المسمى بجنيّد اليمن<sup>(1)</sup> وهي عشر صلوات مأثورة، كل منها تستعمل وترتب، من صلى بها عشر مرات صباحا ومساء استوجب

---

(1) محمد بن خلف بن عمر الأبى الوشائي المالكي: عالم بالحديث، من أهل تونس. نسبته إلى (أبه) من قراها. ولي قضاء الجزيرة. من مؤلفاته: (إكمال إكمال المعلم، لفوائد كتاب مسلم - ط) في شرح صحيح مسلم، جمع فيه بين المازري وعياض والقرطبي والنووي، مع زيادات من كلام شيخه ابن عرفة، و (شرح المدونة) وغير ذلك، توفي بتونس 827هـ. انظر البدر الطالع: (2/169).

(2) محمد بن محمد ابن عرفة الورعسي، أبو عبد الله: إمام تونس وعالمها وخطيبها في عصره. مولده ووفاته فيها. تولى إمامة الجامع الأعظم سنة 750 هـ وقدم لخطابته سنة 772 وللفتوى سنة 773. من كتبه (المختصر الكبير - ط) في فقه المالكية، و (المختصر الشامل - خ) في التوحيد، و (مختصر الفرائض - خ) و (المبسوط) في الفقه سبعة مجلدات، قال فيه السخاوي: شديد الفموض، و (الطرق الواضحة في عمل المناصحة - خ) و (الحدود - ط) في التعاريف الفقهية. توفي 803هـ. انظر الضوء اللامع: (9/240).

(3) التينكي: هو أبو العباس أحمد باب التينكي الفقيه العلامة المحقق الفهامة المورخ التقى الفاضل الإمام المؤلف المحقق العالم العامل الثقة الأمين، بيته شهر بالجاء والعلم والصلاح، أخذ عن والده وعمه، وعنه أئمة من أهل جهته ومراكز منهم أبو القاسم أبي نعيم، والشيخ الرجراجي، له ما يزيد على أربعين تأليفا منها شرح على المختصر من الزكاة إلى النكاح. توفي في تينكو في شعبان 1032هـ. انظر شجرة النور الزكية (298).

رَضِيَ اللهُ الأَكْبَرُ والأَمَانُ مِنْ سَخَطِ اللهِ، وتواترت عليه الرحمة والحفظ الإلهي من  
الأسواء، وتسهل عليه الأمور، وحصل له القبول والرزق وهي هذه:  
أولها: "اللهم يا ربُّ محمد وآلِ محمد صل على محمد وعلى آل محمد، واجز محمد في  
ما هو أهله".

الثانية: "اللهم صل على محمد النبي الأُمِّي وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته وأهل بيته  
كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد".

الثالثة: "اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وارحم محمدا وآل محمد، وبارك على  
محمد وعلى آل محمد، كما صليت ورحمت باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في  
العالمين إنك حميد مجيد".

الرابعة: "اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد في الأولين والآخرين وفي الملائكة الأعلی  
إلى يوم الدين".

الخامسة: "اللهم صل على محمد عدد من صلى عليه، وصل على محمد عدد من لم يصل  
عليه، وصل على محمد كما أمرتنا أن نصلي عليه، وصل على محمد كما ينبغي أن يُصلى  
عليه".

السادسة: اللهم صل على روح محمد في الأرواح، وعلى جسده في الأجساد، وعلى  
قبره في القبور، وعلى موقفه في المواقف، وعلى مشهده في المشاهد، وعلى ذكره إذا ذكر  
صلاة منا على نبينا.

السابعة: "اللهم صل على محمد وعلى أهل بيته وسلم".

الثامنة: اللهم صل على محمد الذي ملأت قلبه من جلالك، وعينه من جمالك، فأصبح  
فرحا مسرورا مؤيدا منصورا".

(١) جنيد اليمن: هو أبو الربيع سلمان بن محمد الملقب بجنيد اليمن، كان فقيها عالما دا عبادة وزهادة وجد واجتهاد، وكان مشهورا  
بإجابة الدعاء مقصودا لذلك، كانت له كرامات، وكانت وفاته 664هـ. انظر: طبقات الإخلاص أهل الصدق والإخلاص  
للزبيدي (65).

التاسعة: "اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، صلاة من في السماوات والأرض وسلم عليه وأجر يا رب لطفك في أمري".

العاشرة: "اللهم صل على محمد سيد الأولين والآخرين، وقائد الغر المحجلين، السيد، الكامل، الفاتح، الخاتم، الحبيب، الشفيع، الرؤوف، الرحيم، السابق للخلق نوره، والرحمة للعالمين ظهوره، عدد من مضى من خلقك ومن بقي، ومن سعد منهم ومن شقي، صلاة تستغرق العدة، وتحيط بالحد، صلاة لا غاية لها ولا انتهاء، ولا أمد لها ولا انقضاء، صلاتك التي صليت عليه، صلاة دائمة بدوامك، باقية ببقائك، لا أمد لها ولا انقضاء لذلك، وسلم عليه وعلى آل وأصحابه كذلك، والحمد لله على ذلك".

قال: ومن رُتِبَ هذه العشر الصلوات عشر مرات صباحا ومساء - فتكون الجملة مائة - يحصل بها رضى الله الأكبر والأمان من سخطه، وهي كذلك بلا شك. انتهى.

## ولندكر هنا صلوات فيها فضل كثير تسمى بـ

"كيمياء السعادة لمن أراد الحسنى والزيادة"

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾<sup>(1)</sup>

اللهم صل وسلم وبارك وكرم على سيدنا ومولانا ونبينا وحبينا وشفيعنا وبشيرنا وسراجنا وقرة أعيننا، ووسيلتنا إلى ربنا، أبي القاسم الأمين محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي، وعلى آل وأصحابه وأزواجه وذريته أفضل صلاة وأزكى سلام، وأنغى بركة عدد سور القرآن العظيم، وآياته وكلماته، وحروفه ونقطه، وشكله وهمزه، وحركاته وسكوناته، ومعجمه ومهمله، ومفصله ومجمله، وجزئياته وكلياته، ومنطوقه ومفهومه وإشاراته، ومحكمه ومتشابهه، وخاصه وعامه، وناسخه ومنسوخه، وأمره ونهيه وعبره،

(1) سورة فاطر: (35).

ووعده ووعبده، وقصصه وأمثاله، وعدد ما أحصى، وملأ ما أخصى، وزنة ما أحصى،  
وعدد الأحاديث الواردة النبوية وغير الواردة، ومن رواها والآثار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم على سيدنا ومولانا ونبينا وحبيبنا وشفيعنا وبشيرنا  
وسراجنا وفرقة أعيننا ووسيلتنا إلى ربنا أبي القاسم الأمين محمد عبدك ونبيك ورسولك  
النبي الأمي وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته أفضل صلاة وأزكى سلام وأنمى بركة،  
عدد الدقائق والحقائق، والدرج والساعات، والليالي والأيام، والجُمع والشهور، والسنين  
والأوقات، والأزمان والدهور والأعصار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأنمى بركة... عدد الحركات والسكنات،  
والحسنات والسيئات، وتخلل المنسوجات، ومضغ الأفواه، وريش الأطيبار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأنمى بركة... عدد الأنفاس والخواطر والنقط  
والكلمات وحركاتها وعدد الهواجس والنيات وترادف الأفكار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأنمى بركة... عدد الأشباح والأرواح،  
والأجساد والجواهر، والعقول والعلوم، وعدد ما يقع في رؤيا المنامات، من أول الخلق إلى  
آخرهم، وتعاقب الدلائل والأخبار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأنمى بركة... عدد الملائكة، والخور العين،  
والولدان، والإنس والجن، وخلق البحر، والأنعام والدواب، والوحوش والأطيبار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأنمى بركة... عدد الرؤوس والوجوه، والآذان  
والعيون، والأنوف والشفاه، والأفواه والصدور، والأيدي والأرجل، والأصابع والأظفار.  
اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأنمى بركة... عدد القلوب والأضلاع والبطون  
وما حوت، وعدد العروق والمسام والألسن والأسنان والأبصار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأنمى بركة... عدد الزرع والنبات والأوراق  
والأغصان والأشجار.



اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأئني بركة... عدد الحب والنوى والبذور والزهر، والفواكه والثمار وورق الأشجار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأئني بركة... عدد الرمل والحصى والتراب والكهوف [والزُّلْق<sup>(1)</sup>] والمعادن والأحجار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأئني بركة.... عدد نجوم السماء [ودَوْر<sup>(2)</sup>] الأفلاك وممر السحاب وهبوب الرياح ولع البرق وأصوات الرعد وقطر الأمطار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأئني بركة.... عدد مكاييل الماء ومثاقيل الجبال والأجساد وعدد أمواج البحار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأئني بركة.... عدد ما خلقت وما أنت خالقه، وعدد ما كان وما هو كائن، وعدد ما جرى به قلمك، ونفذ به حكمك، وأحاط به علمك، وما لا تدركه الأفهام والأوهام والأفكار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأئني بركة.... ما صلى عليه المصلون، من أهل السماوات وأهل الأرضين، من أول الدهر إلى آخره، في كل زمان وأوان، ووقت وساعة، وطرفة عين ولحظة ولحظة، وخطرة ونفس، ونسيم وشم، وعدد ما هم مصلون عليه كذلك في المساء والصباح والعشي والإبكار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأئني بركة.... ملء العرش والكرسي والسماوات والأرض وما فيهن وما بينهما ملء الآفاق والأقطار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأئني بركة.... زنة العرش والكرسي والسماوات والأرض وما فيها، وزنة الجبال والقلال، والتلال والرمال، والبحار والأنهار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأئني بركة.... عدد ما في علمك، وزنة ما في علمك، ومداد كلماتك، ومنتهى رحمتك، ومبلغ رضاك، وحتى ترضى وإذا رضيت،

(<sup>1</sup>) الزلق والزلف جمع "زلقة" بالقاف والغاء: الصخرة الملساء. القاموس.

(<sup>2</sup>) في النسخة "ج" "دَوْرَان"، لكن الأصح ما في النسخة "أ" وهو الذي أثبتنا.

وعدد ما ذكرك به خلقك، وعدد ما هم ذاكروك، وعدد ما سبحوك وحمدوك، وكبروك  
ووحدوك، وهللوك واستغفروك، وعدد ما هم مسبحوك وحامدوك، ومكبروك  
وموحدوك، ومهللوك ومستغفروك، على مَمَرِّ الدهور والأعصار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأتمى بركة.... عدد ما خلقت من الطيور  
والبهائم والوحوش والأبصار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأتمى بركة.... عدد الأعداد المجهرة إلى ما لا  
يعدُّ ولا يُحصى، ولا يُحدِّد بكيف ولا مقدار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأتمى بركة.... عدد هذا كله أضعافاً مضاعفة،  
مضروباً في مثله، وأمثال أمثال أمثاله، لا ينقص عددها، ولا ينقطع مددها، حتى تستغرق  
العدَّة، وتحيط بالحد، أبد الآبدين، ودهر الداهرين، ما دامت السماوات والأرض، والعرش  
والكرسي، وما دام ملك الله الواحد القهار.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم إلى قوله: وأتمى بركة.... عدد ذلك ومثل ذلك،  
وأضعاف أضعاف ذلك.

اللهم صل وسلم وبارك وكرم على السيد الكامل، الفاتح الخاتم، حاء الرحمة، وميم  
الملك، ودال الدوام، بحر أنوارك، ومعدن أسرارك، ولسان حجتك، وعروس مملكتك،  
وإمام حضرتك، وخزائن رحمتك، ونبى رحمتك، وطريق شريعتك، وعين أعيان خلقك،  
وصفيك، السابق للخلق نورُه، والرحمة للعالمين ظهوره، المصطفى المحبَّب، المنتقى  
المرتضى، عين العناية، وزين القيامة، وإمام الحضرة، وأمين المملكة، وكثر الخليفة، وشمس  
الشريعة، وكاشف الغمة، وجالي الظلمة، وناصر الملة، ونبى الرحمة، وشفيع الأمة يوم  
القيامة، وآت محمدا الوسيلة، والشرف والفضيلة، والدرجة الرفيعة، واجزه عنا يا رب ما  
هو أهله، واجزه أفضل ما جازيت به نبيا عن قومه، ورسولا عن أمته، وأنزله المنزل  
المقرب منك يوم القيامة، وصل وسلم، وبارك وكرم، يا رب كذلك كله في كل يوم  
وليلة، عليه وعلى إخوانه الأكرمين، من الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليه

وعليهم أجمعين، وعلى آل كل، وصحب كل، وعلى القراة والتابعين، البررة الأخيار، وسبحان الله وبحمده، تسبيحا يليق بحمده وجلاله، والحمد لله حمدا كثيرا، طيبا مباركا فيه، على جميع نعمه وإفضاله، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له، المنفرد في علو كماله، الله أكبر المتعظم في كبريائه وجلاله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، عند كل هم وغم، وكرب وضيق، وحادث يحدث للعبد في جميع أحواله. وأستغفر الله العظيم، الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، وأتوب إليه من كل ذنب أذنبته وأتيت في سواد الليل وضياء النهار، وفي إقبال كل منهما وإدباره، عدد ذلك ومثل ذلك، وأضعاف أضعاف ذلك، ما طلعت شمس، وبزغ بدر، أو هبت ريح، أو سحَّ قطر، أو سجع حمام، أو أقبل ليل، أو أشرق نهار.

## وهنا صلاة تسمى الكنز الأعظم

سمعت من محمد الغزالي؛ أردت أن أجمعها مع هذه فمن حصل له الكنز والكيما، فقد حصل له المقصود، فمن وفقه الله تعالى ويسره لقراءته في كل يوم مرة أو مرتين، حصلت له السعادة، ومن زاد زاده الله خيرا ونعمة. وهي هذه:

اللهم اجعل أفضل صلواتك أبدا وأمنى بركاتك سرمدًا، وأزكى تحياتك فضلا وعددا، وأسنى سلامك أبدا مجددا، على أشرف الخلائق الإنسانية، وجمع الحقائق الإيمانية، وطور التحليات الإحسانية، ومهبط الأسرار الرحمانية، واسطة عقد النبيين، ومقدم جيش المرسلين، وقائد ركب الأنبياء المكرمين، وأفضل الخلائق أجمعين، حامل لواء العز الأعلى، ومالك أزمّة المجد الأسنى، شاهد أسرار الأزل، ومشاهد أنوار السوابق الأول، ترجمان لسان القدم، ومنبع العلم والحلم والحكم، ومظهر سر الوجود الجزئي والكلّي، وإنسان عين الوجود العلوي والسفلي، روح جسد الكونين، وعين حياة الدارين، المتحقق بأعلى رتبة العبودية، والمتخلق بأخلاق المقامات الاصطفائية، الخليل الأعظم، والحبيب الأكرم، ونبيك العظيم، ورسولك الكريم، الهادي إلى الصراط المستقيم، سيدنا ومولانا ونبينا

وحبيبنا وطيبنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم صلى الله عليه وعلى آله  
وأصحابه وأزواجه وذريته، أفضل صلاة وأزكى سلام، وأنمى بركة، عدد معلوماتك،  
ومداد كلماتك، كلما ذكرك وذكره الذاكرون، وكلما غفل عن ذكرك وذكره  
الغافلون، وسلم تسليما كثيرا طيبا مباركا فيه، جزيلا دائما، بدوامك، باقيا ببقائك، كما  
تحب أنت وترضى، ورضي الله تعالى عن الصحابة أجمعين، سبحان ربك رب العزة عما  
يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

اللهم كما شفيت به القلوب المرضى، وجعلت طاعته على العباد فرضا، إملأ بصلواتك  
عليه الأكوان سماء وأرضا، وبلغه أمنيته حتى يرضى، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء  
 والمرسلين والحمد لله رب العالمين.

وعن بعض الصالحين: أنه قرأ هذه الصلاة في ليلة ونام، ورأى كأن قائلا يقول: هذه  
الصلاة لا يحصي ثوابها إلا الله تعالى وقد أتعبتنا. رواه الغزالي وغيره.

## مبحث التصوف

ثم قال: (خاتمة) حسنة ختمنا بها كتابنا في التوحيد، مهمة (في التصوف) عامة النفع لكل أحد من لباب ما يحتاج إليه ويعول كل مؤمن في جميع أمره عليه، لا بد لكل أحد منها لأنها مشتملة على النظر في أحوال القلب، وتطهيره من الأوصاف المذمومة، وتخليته بالأخلاق الحمودة، وتصفية الأعمال، وتصحيح الأحوال، والتخرج من الالتفات إلى الخلق الذي هو أعظم الحجب بين العبد وبين ربه، ولأنها أيضا ليس فيها مُوهمٌ ولا مبهم، بل هي وعظ وتذكير وتنبيه وتبصير، وتخلية وتخليّة، ومسلك توحيدي، لا يسمع أحدا إنكاره، ولا الطعن فيه، ليست من التصوف الذي هو معدن غرور الجهال، ومزلة أقدام الرجال، ليس فيها ما تتحير فيه الأوهام، ولا ما يتحفظ من إلقائه لغير أهله من العوام.

فهذا من التصوف يجوز بذله لكل أحد بل يجب. وأما التصوف الذي يبحث فيه عن تحقيق الأحوال والمقامات وأحكام الأذواق والمنازلات والمعارف الوهية والعلوم الإلهية فاختلف في بذله لغير أهله، فقال الجنيد<sup>(1)</sup>: يبذل لأهله ولغيرهم قائلا: العلم أحمى جانبنا من أن يصل إلى غير أهله. إذ قيل له: كم تنادي على الله بين يدي العامة؟ فقال: لكنني أنادي على العامة بين يدي الله تعالى. اهـ بخ.

زروق: يعني أنه يذكر لهم ما يردهم إليه فتتضح الحجة لقوم، وتقوم على آخرين. والحق اختلاف الحكم باختلاف النسب والأنواع، والتقريب: أن ما كان من الوعظ والتذكير فللخاص والعام، وما كان من البيان والتقرير فللخاصة من المحبين، وما كان من الأحوال

---

(1) الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاري، أبو القاسم: صوفي، من العلماء بالدين. مولده ومنشأه ووفاته ببغداد. أصل أبيه من هارند، وكان يعرف بالقواريري نسبة لعمل القوارير. وعرف الجنيد بالخزاز لانه كان يعمل الخز. قال أحد معاصريه: ما رأيت عينا مثله، الكتب يحضرون مجلسه لالفاظه والشعراء لفصاحته والتكلمون لمعانيه. وهو أول من تكلم في علم التوحيد ببغداد. وقال ابن الأثير في وصفه: إمام الدنيا في زمانه. توفي 297هـ. انظر: وفيات الأعيان: (2/141).

والمنازلات فللمريدين والسالكين، وما كان من الحقائق والمعارف فلأهل المعرفة من  
الواصلين.

وقال الثوري<sup>(1)</sup> وغيره: لا يبذل لغير أهله، لأن من تأهل له يَقْدُرُ حق قدره، ويضعه  
في محله، ومن ليس له بأهل فقد يُضيعه وهو الغالب، أو يكون حاملاً له على ضب نوعه  
وهو النادر. ولهذا كان العارفون يقفون في هذا البحر على ساحل الإشارات. فإن فُتِ  
سر الربوبية كفر. قيل: لا تعطي الحكمة لغير أهلها فتظلمها، ولا تمنعها من أهلها  
فتظلمهم. وقيل: لا تعلق الجواهر في أعناق الخنازير فإن الحكمة خير من الجوهرة. ومن  
لم يدرها فهو شر من الخنزير. والله در القائل:

فَمَا كُلُّ مَا فِي مُضْمَرِ الْقَلْبِ وَالْحَشَى مِنْ السِّرِّ يُعْطَى لِلرَّجَالِ الْأَجَانِبِ  
وَلَكِنِّي مَنْ كَانَ أَهْلًا أَفْذَتْهُ عُلُومًا بِهَا يَسْمُو لِأَعْلَى نَعَرَاتِ

وقال بعضهم: إن هذا العلم مخصوص، لا يصلح إلا للخصوص، والخصوص قليل فـ  
يكونوا ينطقون به إلا عند أهله، ويرون أن ذلك من حقه، وأنه واجب عليهم كما  
وصفهم علي عليه السلام بذلك في قوله: حتى يودعوه أمثالهم، ويزرعوه في قلوب أشكافهم.

وعن بعض شيوخ الصوفية عن أبي عمران وهو المَزِينُ الكبير<sup>(2)</sup> المكي قال: رأيت

النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فسمعتة يقول: «إن لكل شيء حرمة، ومن أعظم الأشياء حرمة

الحكمة، فمن وضعها في غير أهلها طالبه الله بحقها، ومن طالبه الله خصمه يوم القيامة».

وقال بعض العارفين: من كلم الناس بمبلغ علمه ولم يخاطبهم بقدر حدودهم فقد  
بَخَسَهُمْ حَقَّهُمْ، ولم يوف بحق الله فيهم.

(1) الثوري: هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق من بني ثور ابن عبد مناف، اشتهر بالثوري ولقب أمير المؤمنين في حديثه  
وكان من الأئمة المجتهدين، وأجمع الناس على دينه وورعه وزهده وثقته، عرض عليه القضاء فأبى عنه، وكانت له مواقف مشهورة مع  
الأمراء. كان الجليلي عميد أهل التصوف على مذهبه، من مؤلفاته: الجامع الكبير - الجامع الصغير - الفرائض. توفي سنة 161 هـ رتق  
الطبقات الكبرى لابن سعد ج 1 ص: 47، شذرات الذهب ج 1 ص: 250، وفيات الأعيان ج 2 ص: 386

(2) هو علي بن محمد أبو الحسن المزين الكبير بغدادي الأصل، صولي، كان من أروع المشايخ وأحسبهم حالاً، توفي سنة 328 هـ  
انظر طبقات الصوفية: (382).

وقال يحيى بن معاذ<sup>(1)</sup>: إغرف لكل أحد من نهره، واسقه بكأسه، وإلا وقع الإنكار، لتفاوت المعيار، ونحن نقول: كِلْ له بمكيال عقله، وزن له بميزان علمه، حتى تسلم منه، وينتفع بك في أمور الدنيا.

وكان الحسن البصري ومعروف<sup>(2)</sup> والجنيد والسري<sup>(3)</sup> لا يقررون العلم بالله إلا بعد غلق الأبواب خوفا من إفشاء الأسرار بين المحجوبين.

وبالجملة: فلا يجوز لعارف إظهار شيء من الأسرار إلا لمن لو فصّد الشيخ ذراعه فأرّ الدم من ذراع ذلك التلميذ. وأنشدوا:

قَدْ كَانَ لِلَّهِ سِرٌّ لَا أَبُوحُ بِهِ      فَظُنُّ خَيْرًا وَلَا تَسْأَلُ عَنِ الْخَبَرِ

---

(1) هو يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي، أبو زكريا: واعظ، زاهد، لم يكن له نظير في وقته. من أهل الري. أقام يبلغ، ومات في نيسابور. نه كنمات سائرة، منها: - " كيف يكون زاهدا من لا ورع له، تورع عما ليس لك، ثم ازهد فيما لك " - " هان عليك من احتاج إليك " - " تركية الاشرار لك، هجنة بك، وجههم لك عيب عليك " - " الدنيا، من أولها إلى آخرها، لا تساوي غم ساعة ". توفي: 258هـ. انظر: الكامل لابن الأثير: (67/5).

(2) هو معروف بن فيروز الكرخي، أبو محفوظ: أحد أعلام الزهاد والمتصوفين. كان من موالى الإمام علي الرضى بن موسى الكاظم. ولد في كرخ بغداد، ونشأ وتوفي ببغداد. اشتهر بالصلاح وقصده الناس للترك به حتى كان الإمام أحمد ابن حنبل في جملة من يختلف إليه. ولان الجوزي كتاب في (أخباره وآدابه) توفي 200هـ. انظر طبقات الصوفية: (83).

(3) هو السري بن المغلس السقطي، أبو الحسن: من كبار المتصوفة. بغدادى المولد والوفاء. وهو أول من تكلم في بغداد بلسان التوحيد وأحوال الصوفية، وكان إمام البغداديين وشيخهم في وقته. وهو خال الجنيد، وأستاذه. قال الجنيد: ما رأيت أعبد من السري، أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤي مضطجعا إلا في علة الموت. من كلامه: (من عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز). توفي 246هـ. وأخباره كثيرة للمزيد منها انظر طبقات الصوفية: (48).

**الفائدة الأولى:** التصوف علمٌ بأصول يعرف بها صلاح القلب والحواس وأنواع الفضائل وكيفية اكتسابها، وأنواع الرذائل وكيفية اجتنابها. وهو أيضا: تجريد القلب لله، واحتقار ما سواه. واختلف في اشتقاقه على أقوال:

**الأول:** أنه مشتق من الصوف وهو أقرب، لأن الصوفي مع الله تعالى كالصوفة المطروحة لا تدبير لها.

**الثاني:** أنه مشتق من صوفة القفا للينها، فالصوفي لينٌ هينٌ كهي.

وقال أبو عبيدة<sup>(1)</sup>: الصوفية: قبائل اجتمعوا وتشبكوا كما يتشبك الصوف.

**الثالث:** أنه من الصِّفَةِ إذ جملته اتصاف بالمحامد وترك الأوصاف المذمومة.

**الرابع:** أنه من الصفاء، وصُحِّحَ هذا القول حتى قال أبو الفتح البستي<sup>(2)</sup>:

تَخَالَفَ النَّاسُ فِي الصُّوفِيِّ وَاخْتَلَفُوا      جَهْلًا وَظَنُّهُ مُشْتَقًّا مِنَ الصُّوفِ  
وَلَسْتُ أَنْحُلَ هَذَا الْإِسْمَ غَيْرَ فَتَى      صَافِي فَصُوفِي حَتَّى سُمِّيَ الصُّوفِي

وقال غيره:

لَيْسَ التَّصَوُّفُ لُبْسُ الصُّوفِ تَرْقَعُهُ      وَلَا بُكَارُكَ إِنْ غَنَّى الْمُغْتَوَا  
وَلَا تَعَاشَ وَلَا رَقْصَ وَلَا طَرْبَ      وَلَا اخْتِبَاطَ كَأَنَّ قَدْ صِرْتَ مَجْثُونَا  
بَلِ التَّصَوُّفُ أَنْ تَصْفُوَ بِلَا كَدَرٍ      وَتَتَّبَعَ الْحَقَّ وَالْقُرْآنَ وَالِدِينَا  
وَأَنْ تُرَى خَاشِعًا لِلَّهِ مُكْتَئِبًا      عَلَى ذُنُوبِكَ طُولَ الدَّهْرِ مَحْزُونَا

(<sup>1</sup>) أبو عبيدة: هو معمر بن المثنى التيمي بالولاء البصري أبو عبيدة النحوي، من أئمة العلم والأدب والنحو واللغة، وكان إباحيا شعوبيا. قال الجاحظ: لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه. له نحو من 200 مؤلف وفي ترجمته وسع تنظر في المطولات. انظر وفيات الاعيان: (105/2).

(<sup>2</sup>) البستي: هو علي بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز البستي، أبو الفتح: شاعر عصره وكتابه. ولد في بست (قرب سحستان) وإليها نسبته. وكان من كتاب الدولة السامانية في خراسان، وارتفعت مكانته عند الأمير سبكتكين، وخدم ابنه يمين الدولة (السلطان محمود، ابن سبكتكين) ثم أخرجته هذا إلى ما وراء النهر، فمات غريبا في بلدة "أوزجند" ببخارى. له "ديوان شعر - ط". توفي: 400هـ. انظر: (356/1).



الخامس: أنه من الصف الأول.

السادس: أنه من الصفة، والصفة: سقيفة اتخذها ضعفاء الصحابة رضي الله تعالى عنهم في مسجد المدينة. القاموس: أهل الصفة كانوا أضياف الإسلام، وكانوا يبيتون في صفة مسجده ﷺ، وهي موضع مظلل من المسجد<sup>(1)</sup>. أي لأن الصوفي تابع لأهلها فيما أثبت الله لهم من الوصف حيث قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾<sup>(2)</sup>. وهذا هو الأصل الذي يرجع إليه كل قول فيه. قاله سيدي زروق<sup>(3)</sup>. وأهل الصفة فقراء تجردوا للعبادة دون تعلق بحرفة ولا سبب<sup>(4)</sup>.

وفي البخاري<sup>(5)</sup> عن أبي هريرة: أهل الصفة لا يأوون على أهل، ولا على أحد. كان ﷺ إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئا، أو هدية أشركهم فيها. فأقرهم النبي ﷺ على ذلك وكانوا فقراء أول أمرهم حتى كانوا يعرفون بأضياف الله<sup>(6)</sup>. ثم كان منهم الغني والفقير والمتسبب والأمير لكن شكروا عليها حين وجدت، كما صبروا عنها حين فقدت فلم يخرجهم الوجدان عما وصفهم مولاهم به من أنهم ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، كما أنهم لم يمدحوا بالفقدان، بل بإرادة وجه الملك الديان. وذلك غير مقيد بفقر ولا غنى وبحسبه فلا يختص التصوف بفقر ولا غنى إذا كان صاحبه [يريد]<sup>(7)</sup> وجه الله.

(1) انظر القاموس المحيط للفيروزبادي: (400/2).

(2) الكهف 28.

(3) انظر قواعد التصوف ص 11.

(4) انظر القواعد أيضا ص 11.

(5) البخاري: هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله: حبر الإسلام، والحافظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، صاحب (الجامع الصحيح - ط) المعروف بصحيح البخاري، و (التاريخ - ط) أجزاء منه، و (الضعفاء - ط) في رجال الحديث، و (خلق أفعال العباد - ط) و (الأدب المفرد - ط). ولد في بخارى، ونشأ يتيما، وقام برحلة طويلة (سنة 210) في طلب الحديث، فزار خراسان والعراق ومصر والشام، وسمع من نحو ألف شيخ، وجمع نحو ست مئة ألف حديث اختار منها في صحيحه ما وثق برواته. وهو أول من وضع في الإسلام كتابا على هذا النحو. توفي 256 هـ. انظر الوفيات: (455/1).

(6) انظر صحيح البخاري: (319/21) رقم: (6452).

(7) في النسخة "أ" "أصحابه يريدون" وفي النسخة "ج" يريد. وهو الأصح.

وقال القشيري<sup>(1)</sup>: ولا يشهد لاسم الصوفي من حيث العربية قياس ولا اشتقاق. والأظهر فيه أنه كالقلب<sup>(2)</sup>. إذ لا يصح أخذه من الصفاء ولا من لبس الصوف ولا من ملازمة الصفاء. والخانِكَات بالكاف وهي بالعجمية: دار الصوفية. انتهى من حاشية المنير على المنهاج. أي لا يصح أخذه من الصفاء لأن الاشتقاق يرُدُّه. ولو صح معناه. لأن مادة التصوف من صاف، ومادة الصفاء من صفا، ولا من لبس الصوف إذ لبس لبسه شهرة لهم وأكثرهم لا يلبسه.

السابع: أن الصوفي منسوب إلى "صوفة": قوم من العرب. وقيل: صوفة حي من تميم. وهم الصوفان أيضا. وقيل: صوفة كانوا في الجاهلية يخدمون الكعبة ويميزون الحاج.

### الفائدة الثانية: قال سيدي زروق: اختلف في حقيقة التصوف على نحو من ألفي

قول كلها راجعة إلى صدق التوجه إلى الله تعالى، وهو مشروط بكونه مما يرضى من حيث يرضى، ولا يصح مشروط بدون شرطه، وهو أن يكون ما يقوله بلسانه من التوبة والإنابة إلى الله تعالى يقوله بقلبه تصميمًا، ويعمل به بجوارحه فتتفق هذه الثلاثة ولا يكذب بعضها بعضًا ويقع الصدق على هذا، وعلى التصديق بالهداة الدالين على الله تعالى واعتقاد الخير فيهم فإن المكذب لا يفلح أبداً ولا يمكنه الإتيان، وعلى هذا فعبارة كل أحد في التصوف بحسب ما فهم من صدق التوجه واعتبار كل أخذ له على حسب مناله منه علماً أو عملاً أو حالاً أو ذوقاً وغير ذلك. والأقوال كلها إنما هي واقعة على

(1) القشيري: هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك ابن طلحة النيسابوري القشيري، من بني قشير ابن كعب، أبو الفاس، ربي الاسلام: شيخ خراسان في عصره، زهدا وعلمًا بالدين. كانت إقامته بنيسابور وتوفي فيها. وكان السلطان ألب أرسلان يقدمه ويكرمه. من كتبه "التيسير في التفسير - خ" ويقال له "التفسير الكبير" و"لطائف الاشارات - ط" في التفسير أيضا، و"الرسالة القشيرية - ط". توفي 465هـ. انظر الوفيات: (299/1).

(2) انظر الرسالة القشيرية: (279).

تفاصيله ووجوهه، فإذا من له نصيب من صدق التوجه له نصيب من التصوف،  
وتصوف كل أحد صدق توجهه<sup>(1)</sup>.

**الفائدة الثالثة: علم التصوف أشرف العلوم، لأن شرف العلم بشرف متعلقه،**  
ومتعلق علم التصوف أشرف المتعلقات، إذ هو دال بأوله على خشية الله تعالى؛ التي هي  
نتيجة معرفته، ومقدمة اتباع أمره؛ وبأوسطه على معاملته وأحكام عبوديته؛ وبآخره على  
معرفته والانقطاع إليه؛ والتبري مما سواه حتى من وجود العبد وموجوده، ولأن نسبته من  
الدين نسبة الروح من الجسد؛ لأنه مقام الإحسان الذي هو «أن تعبد الله كأنك  
تراه»<sup>(2)</sup>... الحديث. لأن معاني صدق التوجه لهذا الأصل راجعة؛ وعليه دائرة كما دار  
الفقه على الإسلام؛ والأصول على مقام الإيمان. فالتصوف أحد أجزاء الدين الذي علمه  
النبي ﷺ جبريل عليه السلام ليتعلمه الصحابة رضي الله عنهم<sup>(3)</sup>.

**والدليل على فضل التصوف أيضا:** أن الفقيه يعتبر ما يسقط به الحرج؛ والأصولي يعتبر  
ما يصح به المعتقد، والصوفي ينظر فيما يحصل به الكمال في الأول، وفيما يتقوى به  
اليقين في الثاني، وطلب الكمال يستدعي إيثار الإحسان أبدا؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ  
يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾<sup>(4)</sup> فالصوفي يأخذ من كل شيء بأحسنه، وإن المفسر  
وصاحب فقه الحديث كل منهما يعتبر الحكم والمعنى ليس إلا، والصوفي يزيد بطلب  
الإشارة مع إثبات ما أثبتاه. وإلا فهو باطلا خارج عن الشريعة؛ فضلا عن التصوف.  
وإن العلماء ورثوا من النبي ﷺ أقواله، والعباد ورثوا منه أفعاله، والصوفية ورثوا الجميع  
بزيادة الأخلاق الجميلة. فسند العالم: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾<sup>(5)</sup> ومدد العابد من قيامه

<sup>(1)</sup> انظر قواعد التصوف ص (10) القاعدة رقم 7.

<sup>(2)</sup> أخرجه البخاري (27/1 ، رقم 50) ، ومسلم (39/1 ، رقم 9) ، وابن ماجه (25/1 ، رقم 64) . من حديث عمر المشهور.

<sup>(3)</sup> انظر القواعد أيضا: ص (15)، القاعدة رقم: 14.

<sup>(4)</sup> الزمر: 18

<sup>(5)</sup> طه: 114.

الْعَلَمُ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ، وَمَوْقِفُ الصُّوفِيِّ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ<sup>(1)</sup>﴾.

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَانَ خَلْقُهُ الْقُرْآنَ يَرْضَى لِرِضَاهُ وَيَغْضِبُ لِعُضْبِهِ. ﴿خُذِ الْعَفْوَ...<sup>(2)</sup>﴾ الْآيَةُ. وَبِحَسَبِ هَذَا فَالْمُتَعَلِّقُ بِخَلْقِهِ الْعَلَمُ مُتَعَلِّقٌ بِكُلِّ مَا لَهُ مِنْ عِلْمٍ وَعَمَلٍ وَحَالٍ، لِأَنَّهَا تَابِعَةٌ لِلْأَخْلَاقِ.

قَالَ فِي الْمُبَاحِثِ الْأَصْلِيَّةِ:

تَبِعَهُ الْعَالِمُ فِي الْأَقْوَالِ وَالْعَابِدُ النَّاسِكَ فِي الْأَفْعَالِ  
وَفِيهِمَا الصُّوفِيُّ فِي السَّبَاقِ لَكِنَّهُ قَدْ زَادَ بِالْأَخْلَاقِ<sup>(3)</sup>

وَقَالَ الْجَنِيدُ: لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ تَحْتَ أَدَمِ السَّمَاءِ أَشْرَفَ مِنْ هَذَا الْعِلْمِ لَسَعَيْتُ إِلَيْهِ لَكِنَّهُ مُقِيدٌ بِمَا قَيْدُهُ بِهِ حَيْثُ قَالَ: عَلِمْنَا هَذَا مُقِيدٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَمَنْ لَمْ يَسْمَعْ الْحَدِيثَ وَيَجَالِسَ الْعُلَمَاءَ وَيَأْخُذَ أَدَبَهُ عَنِ الْمُتَأَدِّينَ زَلَّتْ بِهِ قَدَمُهُ، أَوْ كَمَا قَالَ. فَحَقٌّ عَلَى كُلِّ مَنْ أَرَادَ التَّمَسُّكَ بِهَذَا الْفَنِّ أَنْ يُلَازِمَ الْعُلَمَاءَ وَيَتَّبِعَ الْفُقَهَاءَ وَيَأْخُذَ بِمَا بَانَ رَشْدُهُ وَيَدْعَ مَا لَمْ يَتَضَحَّ لَهُ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ هَذَا الْعِلْمِ أَخَافُ عَلَيْهِ سُوءَ الْخَاتَمَةِ. وَأَدْنَى النِّصِيبِ مِنْهُ التَّصَدِيقُ بِهِ وَتَسْلِيمُهُ لِأَهْلِهِ، وَأَقْلَى عَقُوبَةٍ مِنْ يَنْكَرُهُ أَنْ لَا يَرْزُقَ مِنْهُ شَيْئًا.

وَقَالَ الشَّاذَلِيُّ: مَنْ لَمْ يَتَغَلَّغْ فِي هَذِهِ الْعُلُومِ - يَعْنِي عُلُومَ الصُّوفِيَّةِ - مَاتَ مُصِيرًا عَلَى الْكِبَائِرِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، وَمَا سِوَى هَذَا الْعِلْمِ قَدْ لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَرَبَّمَا أَضَرَّ بِصَاحِبِهِ مَدَاوِمَتُهُ عَلَيْهِ، وَهَذَا الْفَنُّ لَا بَدَ لِلْمَرْءِ مِنْ مَطَالَعَتِهِ كُلِّ حِينٍ.

(1) القلم: 4.

(2) الأعراف: 199.

(3) انظر الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية لابن البنا السرقسطي: ص (99).

قال ابن عباد<sup>(1)</sup>: وليجعل المريد هجيراً مطالعة كتب التصوف؛ وموالة أهله القليلة بالتألف والتعرف؛ فبذلك يقوى نور إيمانه ويقينه؛ وتنتفي عنه الغرة في عمله بوظائف دينه؛ فلا يقدم على ذلك إلا فرض العين؛ وما يستجِمُّ به خاطره من التعب والأين.

وقال في المواهب القدوسية: مذهب الصوفية مذهب أهل القرآن والحديث؛ وعلومهم مكارم الأخلاق التي بُعث النبي ﷺ لِيَتِمَّهَا، وعامة الخلق مطلوبون بها. وفي الحديث: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»<sup>(2)</sup>.

والدليل أيضاً على فضل التصوف: أنه يورث المعرفة والخشية والمراقبة لله تعالى، وبقدر المعرفة يزداد الخوف منه تعالى، والقرب منه؛ لأن صاحب هذا العلم لما كان يتحدث في ذاته تعالى؛ وإفراده في القلب؛ وقد علم أن المشتغل بمدح الملك وذكر أوصافه الحسنة بحيث يعلم الملك به؛ استوجب بذلك من الملك قرباً ومكانة على الناس، ويتخذونه وزيراً؛ فيسارُّه، ويجلس معه حيث جلس، ولا يفارقه في كل ساعة، ويمتعه بالنظر إليه ويمدّه بنعيمه إلى غير ذلك. وكذلك هذا الفن يزداد به الإنسان [شرفاً]<sup>(3)</sup> وقرباً من الحضرة، ويفنى به عن كل ما سواه تعالى.

وقال بعضهم: مما يدل على فضل علم التصوف أن كل عالم بعلم إذا رآه من لا يعرفه فإنه لا يظهر له عليه أثر علمه إلا العلماء بالله؛ وهم أهل التصوف فإنهم يعرفون بسيماهم وبالسكينة والتواضع والذلة؛ فهي صبغة الله تعالى لأوليائه وليسته للعلماء به ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾<sup>(4)</sup> فمثلهم في ذلك كمثل الصانع إذ كل صانع لو ظهر لمن

(1) ابن عباد: هو محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن إبراهيم بن محمد بن مالك بن إبراهيم بن يحيى بن عباد النفري الحميري الرندي، أبو عبد الله، المعروف بابن عباد متصوف باحث، من أهل " رندة " بالاندلس. تنقل بين فارس وتلمسان ومراكش وسلا وطنجة، واستقر خطيباً للقرويين بفاس، وتوفي بها، له كتب منها " الرسائل الكبرى - ط " في التوحيد والتصوف ومتشابه الآيات، و " غيث المواهب العلية بشرح الحكم والعطايا - ط ". توفي 792 هـ. انظر سلوة الأنفاس: (2/133).

(2) أخرجه الحاكم (2/670 ، رقم 4221) وقال : صحيح على شرط مسلم . والبيهقي (10/192 ، رقم 20572) . وأخرجه أيضاً : الديلمي (2/12 ، رقم 2098) .

(3) في نسخة (ب) " شوقاً " .

(4) سورة البقرة. (الآية 138).

لا يعرفه لم يعرف صناعته، ولم يفرق بينه وبين غيره من أهل سائر الصنائع إلا العالم بالله فإنه يعرف بصنعتة لأنها ظاهرة عليه؛ إذ صارت له لبسة وصفة فكانت سيماها كما قيل: ما ألبس الله عبدا لبسة أحسن من خشوع في سكينته. وهي لبسة الأنبياء؛ وسيما الصديقين والصوفية. قال: ومما يدل ذلك أيضا على أن علم اليقين والتقوى؛ وعلم المعرفة والهدى الذي هو علم التصوف هو المقصود المذكور عند السلف أن الصحابة والتابعين كانوا يشفقون من فقد ذلك؛ ويخافون عدمه ويخبرون عن رفعه وقلته في آخر الزمان، وإنما يعنون بذلك علم القلوب والمشاهدة الذي هو نتيجة التقوى، وعلم المعرفة والسيقين الذي هو مزيد الإيمان؛ والزهد؛ وثمره الهدى. فإذا فقد المتقون؛ وقل الخائفون والزاهدون؛ ذهبت هذه العلوم؛ لأنها قائمة بهم، موجودة عندهم، وهم أربابها، والناطقون بها. وهي طريقتهم وأحوالهم وهم سلاكها والقائمون بها. فلأجل معرفة الصحابة والتابعين بفقد ذلك كانوا ييكون على فقده.

وقال بعض أهل الحديث: قال لي رجل من إخواني من أهل المعرفة: قد وجدت في قلبي غفلة فسِرَ بي إلى مجلس من مجالس الذكر، فحضرنا عند مذكر يتكلم في علوم العامة، وقد اجتمع الخلق عنده، فأخذ في شيء من القصص والإسرائيليات، وفي ذكر الجنة والنار، فنظر إليّ صاحبي وقال: أليس قد زعمت أن هذا يذكر الله ويذكر به؟ فقلت: بلى. هكذا هو عندنا. فقال: ما أسمع إلا ذكر الخلق، فأين ذكر الله؟ ثم توقف ساعة ينتظر ما يرد عليه من علم المعرفة، وما يعرف من شيوخه الصوفية، فقال: ليس إلا القصص، وأخبار من مضى، ثم خرج.

وعن ابن مسعود<sup>(1)</sup> أنه قال لما مات عمر رضي الله عنه: إني لأحسب هذا الرجل قد ذهب بتسعة أعشار العلم، فقليل له: أتقول هذا وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون؟ فقال: لست أعني

(1) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن: صحابي. من أكابرهم، فضلا وعقلا، وقربا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من أهل مكة، ومن السابقين إلى الإسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة. وكان خادما رسول الله الأمين، وصاحب سره، ورفيقة في حله وترحاله وغزواته، يدخل عليه كل وقت ويمشي معه. نظر إليه عمر يوما وقال: وعاء ملئ علما. وولي

العلم الذي تذهبون إليه، وإنما أعني العلم بالله. وكانوا يقولون: علم الظاهر من عالم الملك، وعلم الباطن من عالم الملكوت، يعنون أن ذلك من عالم الدنيا؛ لأنه يحتاج إليه في أمور الدنيا، وهذا من عالم الآخرة لأنه من زادها. فاللسان ظاهر؛ وهو من الملك. وهو خزانة العلم الظاهر، والقلب خزانة الملكوت، وهو باب علم الباطن، فقد صار فضل علم الباطن على الظاهر كفضل الملكوت على الملك، وكفضل القلب على اللسان، وكثيرا ما ينشد الجنيد هذين البيتين:

عِلْمُ التَّصَوُّفِ عِلْمٌ لَيْسَ يَعْرِفُهُ      إِلَّا أَخُو فِطْنَةٍ بِالْحَقِّ مَوْصُوفُ  
وَكَيْفَ يَعْرِفُهُ مَنْ لَيْسَ يَشْهَدُهُ      وَكَيْفَ يَشْهَدُ ضَوْءُ الشَّمْسِ مَكْفُوفُ<sup>(1)</sup>

**الفائدة الرابعة:** علم التصوف وطريقه اليوم قد عفا واندرس. قال في المباحث الأصلية:

يَا سَائِلًا عَنْ سَنَنِ الْفَقِيرِ      سَأَلْتَ مَا عَزَّ عَنِ التَّخْرِيرِ  
إِنَّ الَّذِي سَأَلْتَ عَنْهُ مَائًا      وَصَارَ بَعْدُ أَغْظَمًا رُفَاءًا  
فَطَمَسَتْ أَعْلَامُهُ تَحْقِيقًا      فَلَمْ تَجِدْ بَعْدُ لَهَا طَرِيقًا  
إِلَّا رُسُومًا رُبَّمَا لَمْ تَعْفُ      فَذَلِكَ مَا تَتَّبَعُهُ وَتَقْفُوا<sup>(2)</sup>

وقال سيدي زروق في شرحها: وهذه الرسوم هي ما دل عليه كلام القوم في كتبهم وإشاراتهم من حقيقة وطريقة. وقد ضرب الناس لذلك مثلا، فقالوا: تشاجر الحق والباطل فقتله الباطل، وخاف أن يطلب به فأحرقه، فجاء أهله فلم يجدوا إلا رماده، فعملوا منه حبرا أي مدادا وكتبوا به الكتب، ولهذا قال أبو مدين<sup>(3)</sup>:

بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بيت مال الكوفة. ثم قدم المدينة في خلافة عثمان، فتوفي فيها عن نحو ستين عاما سنة 32هـ. روى من الأحاديث: 848 حديثا. انظر الإصابة: (الترجمة 4955).

(1) روي البيت أيضا: "وكيف يعرف شيئا ليس بشهده". وهو في النسختين: (ب، ج).

(2) انظر الفتوحات الإلهية شرح المباحث الأصلية: (12).

(3) هو شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني أبو مدين، صوفي. سكن بجاية وكثر أتباعه حتى خافه السلطان يعقوب المنصور. توفي بتلمسان سنة 594هـ. انظر للتوسع في ترجمته: تعريف الخلف برجال السلف وشجرة النور الزكية: (164).

لَا زِلْتُ عَنْهُمْ وَأَنْتَى لِي بِرُؤُوسِهِمْ أَسَائِلُ الْكُتُبِ كَيْ أَسْتَفْهِمَ الْخَبَرَ  
وقال الجنيد: علمنا هذا الذي نتكلم فيه قد طوي بساطه منذ عشرين سنة. وإنما نتكلم  
في حواشيه.

وكان يقول: كنت أجالس قوما سنين يَتَحَارَوْنَ<sup>(1)</sup> علوما لا أفهمها، ولا أدري ما هي،  
وما بليت بالإنكار. فقد كنت أقبلها وأحبها من غير أن أعرفها. وكان يقول:  
كنا نتجاري مع إخواننا علوما كثيرة قديما لا تُعرفُ في وقتنا هذا. ولا سألني عنها  
أحد وهذا باب كأنه أغلق وردم.

وقد صنف أبو سعيد ابن الأعرابي<sup>(2)</sup> كتاب "طبقات النساك" ووصف فيه أول من  
تكلم في هذا العلم وأظهره، ومن تكلم فيه بعده من البصريين والشاميين إلى أن  
كان آخِرَهم البغداديون فقال: وآخر متكلم في هذا العلم جنيّد القواريري<sup>(3)</sup>.  
وكانت له بصيرة فيه، وحقيقة منه، وما بقي بعده إلا مَنْ مُجَالَسَتْهُ غَيْظٌ.

وقال بعضهم: بعد ثلاث مائة سنة لا يحل أن يتكلم في علمنا هذا؛ لأنه يحدث قوم  
يتصنعون للخلق، تكون مواجيدهم لباسهم، ومعبودهم بطونهم، وحليتهم  
كلامهم.

وفي رحلة العبدري: أنشد أبو الحسن علي بن عبد الرحيم<sup>(4)</sup> في اندراس أهل  
التصوف:

(1) في النسخة (ج): "يتحاورون".

(2) ابن الأعرابي: هو أحمد بن محمد بن زياد بن بشر بن درهم، أبو سعيد ابن الأعرابي: مؤرخ من علماء الحديث. من أهل البصرة.  
تصوف وصحب الجنيد، انتقل إلى الحجاز فكان شيخ الحرم المكي وتوفي بمكة. له (المعجم) في أسماء شيوخه، و (طبقات النساك) اطلع  
عليه الذهبي واقتبس منه، و (تاريخ البصرة) و (الاختصاص) في ذكر الفقر والغنى، و (الاخلاص ومعاني علم الباطن) و (العمر والشيب)  
و (معاني الزهد وأقوال الناس فيه وصفة الزاهدين - خ) في دار الكتب، و (المواعظ والفوائد - خ) في تذكرة النوادر. توفي 340هـ.  
انظر لسان الميزان: (308/1).

(3) تقدمت ترجمته.

(4) لعله علي بن عبد الرحيم بن يونس الصديقي المصري أبو الحسن فلنكي من العلماء له شعر كثير، عارف بالأدب اختص بصحبة  
الحاكم الفاطمي. من كتبه: التعدي المحكم، وله الزيج الحاكمي يعرف بـ: زيج ابن يونس ط في أربعة مجلدات فأنسى كل زيج قبله.  
وله مؤلفات أخرى. توفي 399هـ. وفيات الأعيان: (375/1).



أَفْلُ التَّصَوُّفِ قَدْ مَضَوْا  
صَارَ التَّصَوُّفُ سُبْحَةً  
مَضَتْ الْعُلُومُ فَلَا عُلُو  
كَذَبَتْكَ نَفْسُكَ لَيْسَ ذَا  
حَتَّى تُكُونَ بِعَيْنٍ مَنْ  
تُخْرِى عَلَىكَ صُرُوفُهُ  
ولأبي الحسن بن عبد الله الخراساني:

أَمْدُعِيًّا فِي النَّاسِ عِلْمَ التَّصَوُّفِ  
مَتَى كُنْتَ مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ أَوْ مَتَى  
أَتَيْتَ بِعِلْمِ الْجَاهِلِ الْمُتَكَلِّفِ  
سَلَكْتَ طَرِيقًا غَيْرَ طُرُقِ التَّعَسُّفِ (1)

**الفائدة الخامسة :** أول من نهج هذا العلم وفق الألسنة به، ونطق بمعانيه، وأظهر أنواره، وكشف قناعه: **الحسن بن يسار البصري** (2). وكان يتكلم فيه بكلام لم نسمعه من أحد من إخوانه. فقليل له : يا أبا سعيد: إنك تتكلم في هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد غيرك؛ فممن أخذت هذا العلم؟ فقال: **من حذيفة اليماني** (3). وقيل لحذيفة اليماني: نراك تتكلم في هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ؛ فممن أخذت هذا العلم؟ قال حذيفة: أخذته من فم رسول الله ﷺ؛ خصني به دون أصحابه، وكان الناس يسألونه عن الخير؛ وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه؛ وعلمت أن الخير لا يسبقني، وأن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير، وكان الناس

(1) من قصيدة اثنان وعشرون بيتا آخرها:

فدبتك دع علم التصوف مسكنا فلست وإن موته بالتصوف  
انظر رحلة العبدري: (249).

(2) تقدمت ترجمته.

(3) هو حذيفة بن اليمان العبسي من كبار ومشاهير الصحابة أسلم هو وأبوه، فأراد شهود بدر فصدما المشركون وشهدا أحدا، فاستشهد أبوه اليمان (كما في البخاري) وشهد الخندق وله ما ذكر حسن وشهد المشاهد بعدها. روى الكثير عن النبي ﷺ وأخبار فضله وما خصه النبي ﷺ به لا تسعها الهوامش. توفي 36 هـ. انظر الإصابة: (317/1).

يقولون: يا رسول الله: ما لمن عمل كذا وكذا؟ فيسألونه عن فضائل الأعمال. وكنت أسأل؛ فأقول: يا رسول الله! ما يفسد كذا وكذا؟ فلما رأيي أسأل عن دقائق الأعمال خصني به.

وقال عمر رضي الله عنه: من لم يعرف الشر كان أجدد أن يقع فيه. ونظم هذا بعضهم فقال:

عَرَفْتُ الشَّرَّ لَا لِلشَّيْءِ \_\_\_\_\_  
وَمَنْ لَمْ يَعْرِفِ الشَّيْءَ \_\_\_\_\_  
رُكِّنَ لِكَيْ يَتَوَقَّعَ \_\_\_\_\_  
رُكِّنَ مِنَ النَّاسِ يَقَعُ فِيهِ (1)

وكان حذيفة قد خُصَّ بعلم المنافقين؛ وعلوم النفاق؛ وبسائر العلوم؛ ودقائق الفهوم؛ وخفايا الفتن. وكان الخلفاء وغيرهم يسألونه عن الفتن العامة والخاصة، ويرجعون إليه في العلم الذي قد خُصَّ به، ويسألونه عن المنافقين، وهل بقي منهم أحد ممن ذكر رسول الله ﷺ؟ فيخبرهم بأعدادهم؛ ولا يخبرهم بأسمائهم. ويستكشفه عمر رضي الله عنه عن نفسه، هل يعلم فيه من النفاق شيئاً؟ فيخبره ببراءته. ثم يسأله عن علامة النفاق وآية المنافق؟ فيخبره بما صلح من ذلك. ويستغفیه عما لا يجوز أن يخبر به، فيعذره في ذلك. وكان عمر رضي الله عنه يرصده فإن رآه صلى على جنازة صلى عليها، وإلا لم يصل عليها. وكان يُسَمَّى صاحب السر، وكان أكابر الصحابة إذا سُئِلُوا عن شيء قالوا: تسألوننا؟ وفيكم صاحب السر — يعنون حذيفة —.

وأول من أظهر هذا الفن بعد حذيفة: **الحسن**؛ وكان من المُذَكِّرِينَ. وكانت محاسنه مجالس ذكر يخلو فيها مع إخوانه وأتباعه من النساك والعباد في بيته، مثل مالك بن دينار (2)، وثابت البناني (3)، ومحمد بن واسع (1)، وأبيوب السخيتاني (2)، وفرقد

(1) البيان لأبي هريرة الحمدي ورواية الديوان: "ومن يعرف السر من خير يقع فيه". طر ديوان أبو هريرة الحمدي.

(2) هو مالك بن دينار المصري، أبو يحيى: من روى الحديث كان ورعاً، يأكل من كسبه، ويكف مصحح لا حرة تولى له الشعر. 131 هـ. طر الوفيات: (1 440).

(3) هو ثابت بن أسيد السامي، أبو محمد المصري، السامي، القاص طر محمد الحارثي، أحد معاصري الخو كان يقول: "إنهم لم يكتفوا أعطيت أحداً الصلاة في فقهه، فأعطي الصلاة في فقهه". ويقال إن هذه الدعوة أنشبت له، وأنه رأى بعد موته يصر في فقهه من بعد العشرين ومائة، عن ياف ومحمد بن سفيان طر طبقات لأول: (1 20).

السنجي<sup>(3)</sup>، وعبد الواحد بن زيد<sup>(4)</sup>، فيقول: هاتوا انشروا النور فيتكلم عليهم في هذا العلم من علوم اليقين، والقدرة وخواطر القلوب، وفساد الأعمال ووساوس الصدور وآفات النفوس؛ فرمما قَنَعَ بعضُ أصحاب الحديث رأسه فاختمى من ورائهم ليسمع من ذلك، فإذا رآه الحسن قال: يا لُكْعُ فأنْتَ ما تصنع هنا؟ إنما خلَّونا مع إخواننا نتذاكر، وكان الحسن من خيار التابعين. قيل: مازال يعي الحكمة أربعين سنة حتى نطق بها، وقد لقي سبعين بدريا؛ ورأي ثلاثمائة صحابي. وولد لستين بقيتا من خلافة عمر رضي الله عنه سنة: ست ونيف وعشرين بالمدينة. وكانت أمه مولاة لأم سلمة رضي الله عنها. ويقال: إنها أرضعته، وكان كلامه يشبه كلام النبي ﷺ. ورأي عليا وعثمان رضي الله عنهما ومن بقي في وقته من العشرة، ورأي من الصحابة من عهد عثمان إلى سنة: نيف وتسعين، وقيل: لمائة.

ومن أكبر من مات من الصحابة بالبصرة: أنس بن مالك<sup>(5)</sup>؛ وبالمدينة: سهل بن سعد الساعدي<sup>(6)</sup>، وباليمن: أبيض بن حمال المازني<sup>(7)</sup>، وبالكوفة: ابن أبي أوفى<sup>(1)</sup>، وبالشام:

(1) هو محمد بن واسع بن جابر الأزدي، أبو بكر: فقيه ورع، من الزهاد. من أهل البصرة. عرض عليه قضاؤها، فأبى. وهو من ثقات أهل الحديث. قال الاصمعي: لما صاف قتيبة بن مسلم الترك وهاله أمرهم، سأل عن محمد ابن واسع، فقيل: هو ذاك في اليمينه ينضض بأصبعه نحو السماء، قال: تلك الاصبع أحب الي من مئة ألف سيف. توفي 123هـ. انظر تهذيب التهذيب: (499/9).

(2) أيوب بن أبي تيممة كيسان السخيتاني البصري، أبو بكر: سيد فقهاء عصره. تابعي، من النساك الزهاد، من حفاظ الحديث. كان ثابتاً ثقة روي عنه نحو 800 حديث. توفي 131هـ. انظر تهذيب التهذيب: (297/1).

(3) هو فرقد السنجي، سكن سمرقند وروى عن أبيه وآخرين، وكان فقيها. توفي ببغداد 352هـ. انظر الطبقات السنية في طبقات الحنفية: (195/1).

(4) هو عبد الواحد بن زيد أبو عبيدة، واعظ البصرة، من الطبقة الرابعة من تابعي أهل البصرة؛ كان من الزهاد وكان يحضر مجالس مالك بن دينار. قال أبو نعيم: صلى عبد الواحد الغداة بوضوء العتمة أربعين سنة. انظر النجوم الزاهرة: (120/1).

(5) هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم النجاري الخزرجي الانصاري، أبو ثمامة أو أبو حمزة: صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخادمه. روى عنه رجال الحديث 2286 حديثاً. مولده بالمدينة وأسلم صغيراً وخدم النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن قبض. ثم رحل إلى دمشق، ومنها إلى البصرة، فمات فيها. وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة. توفي 93هـ. انظر الإصابة: (71/1).

(6) هو سهل بن سعد بن مالك بن خالد الانصاري الخزرجي الساعدي مشهور. توفي 88هـ وقد جاوز المائة. انظر تقريب التهذيب: (198).

(7) هو أبيض بن حمال بالحاء المعجمة بن مرثد المازني، له صحبة وأحاديث يعد في أهل اليمن لم تذكر الإصابة تاريخ وفاته. انظر الإصابة: (17/1).

أبو قرصافة<sup>(2)</sup>، وبخراسان: بريدة الأسلمي<sup>(3)</sup>. ودخلت سنة مائة من التاريخ، وما بقي علي وجه الأرض عين تطرف رأت رسول الله ﷺ في جميع أقطار الأرض. وتوفي الحسن سنة: عشر ومائة. وكان أبو قتادة العدوي<sup>(4)</sup> يقول: عليكم هذا الشيخ؛ فوالله ما رأيت أحدا لم يصحب رسول الله ﷺ أشبه بأصحاب رسول الله ﷺ منه. وكانوا يقولون: إنه ليسبّه بهدي إبراهيم الخليل.

ونذرت امرأة بالبصرة نذرا؛ إن فعل الله كذا بها أن تنسج ثوبا من غزلها، وتكسوه خير أهل البصرة، فرأت تمام نذرها فوفت بما نذرت، ثم سألت: من خير أهل البصرة؟ فقالوا: الحسن. فأتته بالثوب. فقال: يا هذه! ما أنا عنوا به؛ إنما عنوا محمد بن سيرين<sup>(5)</sup>. فأتت محمدا فأخبرته به فردها، وقال: أصاب الناس في الحسن؛ وأخطأ الحسن في، ارجعي به إليه فرجعت.

قال سيدي زروق: علم التصوف المراد للتخلق لا ينبغي أن يهمل، ولا أن يقتصر عليه دون عمل به، وإن قل؛ لأنه مقصده. فإن تعذر عمله فلا يبطل علمه؛ لأن العمل شرط كمال في علم التصوف والفقه؛ لأنهما شقيقان في الدلالة على أحكام الله تعالى وحقوقه، فلهما حكم الأصل الواحد في الكمال والنقص، إذ ليس أحدهما بأولى من الآخر في مدلوله. وقد صح أن العمل شرط كمال العلم فيهما، وفي غيرهما لا شرط صحة فيه إذ

(1) هو علقمة بن الحارث الأسلمي، صحابي شهد الحديبية وعمر بعد النبي ﷺ. مات سنة 87هـ وهو آخر من مات من الصحابة بالكوفة. انظر تقريب التهذيب: (239).

(2) هو جندرة بن خيشنة أبو قرصافة صحابي مشهور بكنيته نزل الشام. انظر تقريب التهذيب: (82).

(3) هو بريدة بن الحصيب بن عبد الله بن الحارث بن الأعرج الأسلمي. أسلم حين مر النبي ﷺ مهاجرا بالغميم بعد أحد. غزى مع رسول الله ﷺ 17 غزوة. توفي 63هـ. انظر الاصابة: (246/1).

(4) هو عجم بن نذير - بضم النون وفتح الذال المعجمة وسكون الباء آخر الحروف وبعدها راء - العدوي البصري من بني عدي بن مناف؛ تابعي. سمع عمر بن الخطاب وعمران بن حصين، وروى عنه محمد بن سيرين وحيد بن هلال ومورق المجلي، وكنيته أبو قتادة. انظر الوافي بالوفيات: (466/3).

(5) هو محمد بن سيرين البصري، الانصاري بالولاء، أبو بكر: إمام وقته في علوم الدين بالبصرة. تابعي. من أشرف الكتاب. مولده ووفاته في البصرة. نشأ بزازا، في أذنه صمم. وتفقه وروى الحديث، واشتهر بالورع وتعبير الرؤيا. واستكبه أنس بن مالك، بفارس. وكان أبوه مولى لأنس. ينسب له كتاب (تعبير الرؤيا - ط). توفي 110هـ. انظر وفيات الاعيان: (453/1).

لا ينتفي بانتفائه، بل قد يكون دونه لأن العلم إمام العمل، فهو سابق في وجوده حكماً وحكمة، بل لو شرط فيه الاتصاف بالعمل لبطل أخذه. كما أنه لو شرط في العلم العمل لبطل أخذه للزوم الدور، كما أنه لو شرط في الأمر والنهي العمل للزم ارتفاعهما بفساد الزمان، وذلك غير سائغ شرعاً، ولا محمود في الجملة، بل قد أثبت الله العلم لمن يخشاه، وما نفاه عمن لم يخشاه.. إلى آخر كلامه<sup>(1)</sup>.

**الفائدة السادسة:** دقائق علوم الصوفية منح إلهية، ومواهب اختصاصية؛ لا تنال بمعتاد الطلب، فمفاتيح الفتح فيها أربعة:  
الأول: إحكام المبادئ لتصحيح المعتقد.

الثاني: العمل بما علم على قدر الاستطاعة من غير إكثار مُجِلٍّ؛ ولا [اقتصار<sup>(2)</sup>] مُجِلٍّ. فإن من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم.

الثالث: الرغبة إلى الله تعالى؛ واللجأ إليه في الفتح على قدر الهمة من غير اعتماد على جهة أو سبب أو إيقاف ذلك على عمل أو كسب.

الرابع: العمل على السنة؛ والتشوف لحقائق الأمور، والتفطن لموارد الأحوال؛ حتى لا تكاد تسقط منه شعرة إلا تفطن لها؛ لجودة قريحته؛ وذكاء فطنته<sup>(3)</sup>.

قال ابن عباد: لا تأخذوا في هذا العلم مع متكبر، ولا صاحب بدعة، ولا مقلد.

وقال الجنيد: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال والمراء والجدال، إنما أخذناه [عن<sup>(4)</sup>] الجوع والسهر وملازمة الأعمال. أو كما قال<sup>(5)</sup>.

(1) انظر قواعد التصوف: (19)، القاعدة رقم: 20.

(2) في النسخة (ج): "إقتار".

(3) انظر قواعد التصوف القاعدة رقم 23 من (20) بتصرف بزيادة في بعض الفقرات.

(4) في النسخة (ج): "من الجوع".

(5) انظر قواعد التصوف القاعدة من (20).

وقال أبو سليمان الداراني<sup>(1)</sup>: إذا اعتادت النفوس ترك الآثام جالست في الملكوت؛ ورجعت إلى صاحبها بطرائف الحكمة من غير أن يودي إليها عالمٌ علماً.

الثامنة: قال سيدي زروق: قد كثر المدعون في [هذا<sup>(2)</sup>] الطريق لغريته والجهل به، وبُعْدِ الأفهام عنه لدقته، وعُسْرِ مُدْرِكِهِ، وكثر الإنكار على أهله لنظافته. وأنكره قوم لما ظهر على أيدي منتسبين له من خلاف حقيقته. [وعابه<sup>(3)</sup>] آخرون لعدم علمهم بحقيقته. وحذر الناصحون من سلوكه لكثرة الغلط فيه حتى قال ابن العربي الحاتمي<sup>(4)</sup>: احذر هذا الطريق، فإن أكثر الخوارج إنما خرجوا منه، وما هو إلا طريق الهلك أو الملك. من حقق علمه وعمله وحاله نال عز الأبد، ومن فارق التحقيق فيه هلك وما نفذ. انتهى<sup>(5)</sup>.

وقال أيضاً: إنما يؤخذ علم كل شيء من أربابه، فلا يعتمد صوفي في الفقه؛ إلا أن يعرف قيامه عليه، ولا فقيه في التصوف إلا أن يُعرف تحقيقه له، ولا محدثٌ فيهما إلا أن يعرف قيامه بهما. فلزم طلب الفقه من قبل الفقهاء لمريد التصوف. وإنما يُرجعُ لأهل الطريقة فيما يختص بصلاح باطنه من ذلك ومن غيره. ولذلك كان الشيخ أبو محمد المرجاني<sup>(6)</sup>

(1) هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي المذحجي، أبو سليمان الداراني: راهب مشهور، من أهل داريا (غزة دمشق) رحل من بغداد، وأقام بها مدة، ثم عاد إلى الشام، وتوفي في بلده. كان من كبار المتصوفين. له أخبار في الزهد. من كلامه: (حير السحابة رفق الحاجة). توفي 215هـ. انظر طبقات الصوفية: (75).

(2) في النسخة (ج): "هذه".

(3) في النسخة (ج): "عافه".

(4) ابن العربي الحاتمي: هو محمد بن علي بن محمد ابن العربي، أبو بكر الحاتمي الطائي الأندلسي، معروف بحكي الدين بن عربي، الملقب بالشيخ الأكبر: فيسوف، من أئمة المتكلمين في كل علم. ولد في مرسية (بالأندلس) وانتقل إلى إشبيلية. وقام برحلة، مر فضاء وبلاد الروم والعراق والحجاز. وأنكر عليه أهل الديار المصرية (شطحات) صدرت عنه، فعزل بعضهم عن إرافة دمه، كما أريق دم الحلاج وأشباهه. وحبس، فسعى في خلاصه علي بن فتح السحائي (من أهل بجاية) فتحا. واستقر في دمشق، فتوفي فيها. وهو، كما يقول الذهبي: قلدوة القائلين بوحدة الوجود. له نحو أربعمئة كتاب ورسالة، منها (الفتوحات المكية - ط) عشر مجلدات، في لتصوف وعنه النفس، و (محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار - ط) في الأدب، مجلدان، و (ديوان شعر - ط) أكثره في التصوف، و (مصوص الحكم - ط) و (مفاتيح الغيب - ط). توفي 638هـ. انظر: كرامات الأولياء: (118/1).

(5) انظر قواعد التصوف: ص (152) القاعدة رقم: 201.

(6) المرجاني: هو عبد الله بن محمد بن عبد الملك، أبو محمد المرجاني: صوفي أصله من تونس. ولد بالألكندرية ومات تونس. له عنه بالتفسير، أملى فيه روسا جمعها ابن السكري من كلامه وسماها "الفتوحات الربانية في المواعيد المرجانية - ح" في التيمورية، و "لمحة الشمس الاسرار في تاريخ محرة المختار - خ". توفي 699هـ. انظر شذرات الذهب: (451/5).

ﷺ يأمر أصحابه بالرجوع للفقهاء في مسائل الفقه؛ وإن كان عارفاً بها. فافهم<sup>(1)</sup>!  
وقال أيضاً: لا حظٌ للعامي فيما سوى الحذر والإشفاق والأخذ بأيسر المسالك وأبينها  
لديه، وذلك بالتزام التقوى في البداية قبل وقوع الذنب والاستدراك بالتوبة مما وقع منه  
مع تدقيق النظر في ذلك دون ما سواه؛ لأن مطالبة الشخص على قدر حاله. فلا يُطالبُ  
عامي بزائد على التقوى، ولا فقيه بزائد على الاستقامة، ويطلب المريد بالصدق بعد  
تحصيل الأولين، والعارف بالورع. فعامي: لا تقوى له فاجرٌ، وفقيه: لا استقامة له  
مقصرٌ، ومريدٌ: لا صدق له متلاعب، وعارفٌ: لا ورع له ناقص. انتهى<sup>(2)</sup>.

ثم قال: (مَا قَدْ مَنَاهُ) في كتابنا: "قواعد التوحيد" (تَوْحِيدُ) عَوَامِ الْخَلْقِ (الْمُتَكَلِّمِينَ وَهُوَ  
إِفْرَادُ التَّوْحِيدِ) ذَاتًا؛ وصفاتٍ؛ وأفعالاً (مَعَ عَدَمِ الْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُ) من أَتْبَاعِ الْهَوَى  
والالتفات إلى الخلق؛ والسخط عليهم؛ والخوف منهم؛ والطمع فيهم؛ والشكوى إليهم؛  
وحب مدحهم؛ وبغض ذمهم. وخص الناس اسمَ التوحيد بهذا النوع. وصاحب هذا  
التوحيد تارة ينتبه فيشهد انفراده تعالى بالأفعال، وتارة يغفل عن مشاهدة التوحيد في  
الوقائع؛ ولو دامت عليه الحال الأولى لكان من العارفين، ولكن يغلب عليه عدم مراعاة  
مقتضى التوحيد، فإن التوحيد أن تشهد انفراده تعالى بالأفعال وتري الخير والشر منه.  
فالعامل بمقتضى ذلك أن لا تلتفت إلى الخلق طمعا وخوفاً وشكوى؛ ولكن صاحب هذا  
التوحيد لم يعمل بذاك .

**وَالْمُتَكَلِّمُونَ:** هم أهل علم الكلام، وعلمُ الكلام خصَّ الناسَ به اسمَ التوحيد، مع أن  
التوحيد حقيقة هو: التصوف؛ لأنه العمل بمقتضى التوحيد، وهو لباب التوحيد، وهو  
التوحيد المحض.

(1) انظر قواعد التصوف: ص(46) القاعدة رقم: 61.

(2) بداية هذا الكلام موجودة في القواعد ص (46) القاعدة رقم: 60. وآخره: "لأن مطالبة الشخص على قدر حاله" إلى نهاية الكلام

محذوف من النسخ الثلاث التي بين أيدينا.

## لمحة عن المعتزلة

والمعتزلة من المتكلمين، وسُمُّوا المعتزلة لأن رئيسهم واصل بن عطاء<sup>(1)</sup> لما أثبت الملة بين المولتين<sup>(2)</sup>، واعتزل عن مجلس الحسن البصري قال الحسن: قد اعتزل عتسا؛ أي "واصل". من الاعتزال وهو: الاجتناب. وقد سَمُّوا أنفسهم أصحاب العدل والتوحيد؛ لإيجامهم ثواب المطيع وعقاب العاصي؛ ولنفيهم الصفات القديمة، ويرون الشر من العبد ووجوب الأصلح للعباد عليه تعالى، وأن القرآن مخلوق، وأن إعجاز القرآن بالصفة، وأنه تعالى لا يري في الآخرة إلى غير ذلك.

ومن أعيانهم وإليه تنسب فرقهم: الجاحظ<sup>(3)</sup>، وأبو الهذيل العلاف<sup>(4)</sup>، وإبراهيم النظام<sup>(5)</sup>، وواصل بن عطاء<sup>(6)</sup>، وأحمد بن حنبل<sup>(7)</sup>، وبشر بن المعتز<sup>(1)</sup>، ومعمّر بن

(1) هو واصل بن عطاء الحرلي، أبو حذيفة، من موالى بني صفية أو بني محروم؛ رئيس المعتزلة ومن أئمة المعتزلة. سُمي أئمة المعتزلة لاعتزاله حنيفة فدرس الحسن البصري ولقد بالندبة، وشأن بالصفة. وكان يمنع بأمره مجتمعا عيدا، فحبب له في حقه، وصرت به مثل في ذلك. وكانت تأليه لرسائل ومبها لثروا، فود فرأها بعد ثلثات فزاد منها غيرها حتى في أيات من القرآن. وكان ممن تابع أحمد بن عبد الله بن حسن في قيامه على "فن الخوار" أنه تصاحب، منها "أصناف مرفعة" و"مدونة بن مدخل" و"معدني القرآن" و"صفت أهل بيته وأهل بيته" نول 131 هـ. بحر الثقات المذهب: (182/1)

(2) قلت المعتزلة: إذ وجد القول والتفقد وحسن الأعمال، ولكن إنك صاحب كبرية أو بعض الكثرة خرج قد من إيمان. وه بعض في التكمير واسمه فاسق، وهو مدونة بن المعتز.

(3) هو عمرو بن بحر بن محبوب النكدي بالولاء، الشيب، أبو عثمان، المشهور بالجاحظ. كثر أئمة الأدب، ورئيس معرفة جامعة من المعتزلة. مولده ووفاته في النصف. فتح في آخر عمره. وكان مشهورا بحنيفة. ومات بالكاتب على صدره فتة محدث من الكتب. فقت عليه. له تصانيف كثيرة، منها "الحيون - ط" أربعة مجلدات، و"البيان والبيان - ط" و"الناج - ط" ويسمى أحاديث بيوت، و"الحجلاء - ط" و"هائس والأصداق - ط" و"النصر بالثغارة - ط" نول 255 هـ. بحر الثقات (1/388)

(4) هو محمد بن محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول البغدادي، مولى عبد الله بن عيسى، أبو عبد الله العلاف من أئمة المعتزلة. وجد في نصره واشتهر بعد الكلام. كان ثامون: أصل أبو الهذيل على الكلام كإبطال لعماء على لاء له مذلات في الاعتزال ومجلس ومطرب. وكان حسن الخلق قوي الخفة، سريع الحاضر. كتب بصره في آخر عمره، ونول بسامرا. له كتب كثيرة، منها كتاب اسمه إيمان. على اسم محمدي أسلم على يده. نول 235 هـ. بحر الثقات: (1/480)

(5) هو إبراهيم بن سيار بن هاشم البصري، أبو إسحاق النظام. من أئمة المعتزلة. سحر في علوم الفلسفة وأصبح على أكثر ما كنه رجائا من طبيعيين وحيين، وورد بأمره خاصة تأليفه فيها مرفة من المعتزلة سميت (النظامية) نسبة إليه. وبين هذه معرفة أعرفها مناقشات صوفية. نول 231 هـ. بحر الثقات المرفرة: (2/234).

(6) تقدمت ترجمته.

(7) هو أحمد بن حنبل رئيس الحنابلة، معترف صانع كتب الخلافة ووصى إلى مذهب النظام ثلاث بدع ذكرها الصمدي في نول بالوفيات فانظره: (2/321).



عباد السلمي<sup>(2)</sup>، وأبو الحسن بن أبي عمرو ابن الخياط<sup>(3)</sup> أستاذ الكعبي<sup>(4)</sup>، وأبو علي الجبائي<sup>(5)</sup> أستاذ الأشعري<sup>(6)</sup> أولا، وابنه: أبو هاشم عبد السلام بن محمد<sup>(7)</sup>، وأبو عيسى الملقب بالمزدار، ويعرف بـ "راهب المعتزلة"، وثمامة بن أشرس<sup>(8)</sup>، وهشام بن عمر الغوطي، والصاحب بن عباد<sup>(9)</sup>، والفراء النحوي<sup>(10)</sup>.

(1) هو بشر بن المعتز الهلالي البغدادي، أبو سهل: فقيه معتزلي مناظر، من أهل الكوفة. قال الشريف المرتضى: (يقال: إن جميع معتزلة بغداد كانوا من مستحبييه). تنسب إليه الطائفة (البشرية) منهم. له مصنفات في (الاعتزال) منها قصيدة في أربعين ألف بيت رد فيها على جميع المخالفين. ومات ببغداد 210هـ. انظر طبقات المعتزلة: (52).

(2) هو معمر بن عباد السلمي: معتزلي من الغلاة. من أهل البصرة. سكن بغداد، وناظر النظام. وكان أعظم القدرة غلوا: انفراد بمسائل، منها أن الإنسان يدبر الجسد وليس بحال فيه. توفي 215هـ. انظر لسان الميزان: (71/6).

(3) هو عبد الرحيم بن محمد بن عثمان، أبو الحسين ابن الخياط: شيخ المعتزلة ببغداد. تنسب إليه فرقة منهم تدعى (الخياطية) ذكره الذهبي: في الطبقة السابعة عشرة، وقال: لا أعرف وفاته. له كتب، منها (الانتصار - ط) في الرد على ابن الراوندي، و (الاستدلال) و (نقض نعت الحكمة). انظر لسان الميزان: (8/4).

(4) هو عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي، من بني كعب، البلخي الخراساني، أبو القاسم: أحد أئمة المعتزلة. كان رأس طائفة منهم تسمى "الكعبية" وله آراء ومقالات في الكلام انفراد بها. وهو من أهل بلخ، أقام ببغداد مدة طويلة، وتوفي ببلخ. له كتب، منها "التفسير". توفي 319هـ. انظر الوفيات: (252/1).

(5) محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي أبو علي: من أئمة المعتزلة. ورئيس علماء الكلام في عصره. وإليه نسبة الطائفة (الجبائية). له مقالات وآراء انفراد بها في المذهب. نسبته إلى جعي (من قرى البصرة) اشتهر في البصرة، ودفن بجعي. له (تفسير). توفي 303هـ. انظر الوفيات: (480/1).

(6) هو علي بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن، من نسل الصحابي موسى الأشعري: مؤسس مذهب الاشاعرة. كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين. ولد في البصرة. وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ثم رجع وجاهر بخلافهم. وتوفي ببغداد. قيل: بلغت مصنفاته ثلاثمائة كتاب، منها "إمامة الصديق" و "الرد على المجسمة" و "مقالات الاسلاميين - ط" جزآن، و "الابانة عن أصول الديانة - ط" و "رسالة في الايمان - خ". توفي 324هـ. انظر الوفيات: (326/1).

(7) هو عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب أبو هاشم، من أبناء أبان مولى عثمان: عالم بالكلام، من كبار المعتزلة. له آراء انفراد بها. وتبعته فرقة سميت "البهشمية" نسبة إلى كنيته "أبي هاشم" وله مصنفات في "الشامل - خ" في الفقه، و "تذكرة العالم" و "العدة" في أصول الفقه. توفي 321هـ. انظر الوفيات: (292/1).

(8) هو ثمامة بن أشرس النميري، أبو معن: من كبار المعتزلة، وأحد الفصحاء البلغاء المقدمين. كان له اتصال بالرشيد، ثم بالمأمون. وكان ذا نواذر وملح. من تلاميذه الجاحظ. وأراد المأمون أن يستوزره فاستغفاه. وعده المقرئ في رؤساء الفرق المالكية، وأتباعه يسمون (الثمامية) نسبة إليه. توفي 213هـ. انظر لسان الميزان: (83/2).

(9) هو إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني: وزير غلب عليه الادب، فكان من نواذر الدهر علما وفضلا وتديبرا وجودة رأي. استوزره مؤيد الدولة ابن بويه الديلمي ثم أخوه فخر الدولة. ولقب بالصاحب لصحبته مؤيد الدولة من صباه، فكان بدعوه بذلك. ولد في الطالقان (من أعمال قزوین) وإليها نسبته، وتوفي بالري ونقل إلى أصبهان فدفن فيها. انظر الوفيات: (75/1).

(10) هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن مروان الديلمي إمام العربية، كان أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائي، أخذ عنه وعليه اعتمد، من مؤلفاته: كتاب الحدود في النحو - علوم القرآن: لم يعمل مثله - المعاني. توفي سنة: 207 هـ عن عمر بلغ 67 سنة.

ومن فضلائهم: أبو الحسين البصري<sup>(١)</sup>، والكعبي، والقاضي عبد الجبار<sup>(٢)</sup>، والرماسي  
النحوي<sup>(٣)</sup>، وأبو علي الفارسي<sup>(٤)</sup>، وأقضى القضاة الماوردي<sup>(٥)</sup> الشافعي. وهذا غريب،  
والزنجشيري<sup>(٦)</sup> صاحب الكشف. هكذا عددهم الصفدي<sup>(١)</sup> كلهم من المعتزلة. وقال  
الزنجشيري ذاما لأهل السنة:

(وفيات الأعيان ج 6 ص: 176، شذرات الذهب ج 2 ص: 19، طبقات المفسرين للسيوطي: 299، طبقات المفسرين للداردي ج 2 ص: 367).

(<sup>١</sup>) هو محمد بن علي الطيب، أبو الحسين، البصري: أحد أئمة المعتزلة. ولد في البصرة وسكن بغداد وتوفي بها. قال الخطيب البغدادي: له تصانيف وشهرة بالذكاء والديانة على بدعته. من كتبه (المعتمد في أصول الفقه - ط) جزآن، و (تصفح الأدلة) و (غرر الأدلة) و (شرح الأصول الخمسة) كلها في الأصول، وكتاب في (الإمامة) و (شرح أسماء الطبيعي - خ). توفي 436هـ. انظر الوفيات: (482/1).

(<sup>٢</sup>) هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمداني الاسدي، أبو الحسين: قاض، أصولي. كان شيخ المعتزلة في عصره. وهم يلقبونه قاضي القضاة، ولا يطلقون هذا اللقب على غيره. ولي القضاء بالري، ومات فيها. له تصانيف كثيرة، منها: (تنزيه القرآن عن المطاعن - ط) و (الامالي) و (المجموع في المحيط بالتكليف - ط) الاول منه، و (شرح الأصول الخمسة - ط) و (المغني في أبواب التوحيد والعدل - ط). انظر لسان الميزان: (386/3).

(<sup>٣</sup>) هو أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرماني النحوي، إمام في العربية معتزلي، ولد سنة: 276 هـ. أخذ عن الزجاج وابن السراج وابن دريد، كان متفنا في علوم كثيرة أخرى كالتقراءات والفقه والكلام، من مؤلفاته: التفسير الكبير أو الجامع في علوم القرآن - الحدود الأكبر والأصغر. توفي سنة: 384 هـ. (طبقات المفسرين للداردي ج 1 ص: 424، طبقات المفسرين للسيوطي: 258، طبقات النحاة للسيوطي ج 2 ص: 174، وفيات الأعيان ج 3 ص: 99).

(<sup>٤</sup>) هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي الأصل، أبو علي: أحد الأئمة في علم العربية. ولد في فسا (من أعمال فارس) ودخل بغداد سنة 307 هـ. وتحوّل في كثير من البلدان. وقدم حلب سنة 341 هـ فأقام مدة عند سيف الدولة. وعاد إلى فارس، فصبح عضد الدولة ابن بويه، وتقدم عنده، فعلمه النحو، وصنف له كتاب (الايضاح - خ) في قواعد العربية. توفي 377 هـ. انظر الوفيات: (131/1).

(<sup>٥</sup>) هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري الشافعي، أخذ عن عدد كثير من الأجلء منهم القاسم الصيمري والحسن الجيلي وابن العز وابن كادش وغيرهم، كان عالما بالحديث والفقه والنحو والأدب والفلسفة والسياسة وعلم الاجتماع، تصدر لتدريس في بغداد والبصرة، وتولى القضاء في بلدان كثيرة حتى لقب أقضى القضاة، من مؤلفاته: النكت والعيون في التفسير - الأحكام السلطانية - أدب الدنيا والدين. توفي سنة: 450 هـ. (وفيات الأعيان ج 3 ص: 282، شذرات الذهب ج 3 ص: 285، طبقات المفسرين للداردي ج 1 ص: 427، طبقات المفسرين للسيوطي: 258).

(<sup>٦</sup>) الزنجشيري: هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزنجشيري، جار الله، أبو القاسم: من أئمة العلم بالدين والتفسير والشعر والأدب. ولد في زنجش (من قرى خوارزم) وسافر إلى مكة فحاور بها زمنا فلحق بجار الله، وتنقل في البلدان، ثم عاد إلى المرحانية (من قرى خوارزم) فتوفى فيها. أشهر كتبه (الكشاف - ط) في تفسير القرآن، و (أساس البلاغة - ط) و (المفصل - ط) ومن كتبه (المقامات - ط) و (الجمال والامكنة والمياه - ط) و (المقدمة - ط) معجم عربي فارسي، مجلدان، و (مقدمة الادب - خ) في اللغة، و (الفائق - ط) في غريب الحديث، و (المستقصى - ط) في الامثال، مجلدان، و (رؤوس المسائل - خ). توفي 538 هـ. انظر وفيات الاعيان: (81/2).

وَجَمَاعَةٌ سَمَوْا هَوَاهُمْ سُنَّةً      لَجَمَاعَةٌ حُمِرَ لَعْمَرِي مُوَكَّفَةً  
قَدْ شَبَّهُوا مَعْبُودَهُمْ وَتَخَوَّفُوا      شُنَعَ الْوَرَى فَتَسَتُّرُوا بِالْبَلْكَفَةِ  
البلكفة: فعلة مقتضبة من "بلا كيف" , فأجابه بعض أهل السنة<sup>(2)</sup> بقوله:

عَجَبًا لِقَوْمٍ ظَالِمِينَ تَلَقَّبُوا      بِالْعَدْلِ مَا فِيهِمْ لَعْمَرِي مَعْرِفَةً  
قَدْ جَاءَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَذَرُونَهُ      تَعْطِيلُ ذَاتِ اللَّهِ مَعَ نَفْسِي الصِّفَةَ  
وأجابه أيضا القاضي أبو حفص<sup>(3)</sup> بقوله :

أَجَعَلْتُمْ الْعُلَمَاءَ حُمِرًا مُوَكَّفَةً      هَذَا لِأَنَّكُمْ أُولُوا تِلْكَ الصِّفَةِ  
أَجْهَلْتُمْ صِرْفَةَ الْإِلَهِ وَفَعَلْتُمْ      وَتَسَبَّيْتُمُوهُ لِغَيْرِهِ بِالزُّخْرُفَةِ  
وَأَرَدْتُمْ تَنْزِيهَهُ فَوَقَعْتُمْ      فِي الشُّرْكِ وَالْإِلْحَادِ وَالْأَمْرِ السُّقَّةِ  
خَالَفْتُمْ سَنَنَ النَّبِيِّ وَصَحْبِهِ      وَتَبِعْتُمْ فِي الزَّيْغِ أَهْلَ الْفَلَسَفَةِ  
وأجابه أيضا أبو زكرياء يحيى بن عصام<sup>(4)</sup>:

قُلْ لِلَّذِي سَمَى الْهُدَاةَ أُولِي التُّهَى      حُمِرًا لِأَنَّ سُلَيْبَ الْهُدَى وَالْمَعْرِفَةِ  
فَقَدَا يُرَجِّحُ الْإِعْتِزَالَ جَهَالَةً      وَيُرْوِقُهُ زُورٌ وَشَاهُ وَزَخْرُفَةٍ  
الْحَقُّ أَبْلَجُ وَأَضْيَحُ لَكِنَّهُ      يَغْشَى عُيُونَ أُولِي الضَّلَالَةِ وَالسَّفَةِ  
اخْسَأْ فَقَوْلُكَ طَائِحٌ كَهَبَاءَةٍ      طَاحَتْ بِهَا هُوجُ الرِّيَّاحِ الْمُعْصِفَةِ  
سَوَّغْتَ ذِمَّ جَمَاعَةٍ سُنِّيَّةٍ      قَدْ أَحْرَزُوا مِنْ كُلِّ فَضْلٍ أَشْرَفَةِ

(1) هو خليل بن أليك بن عبد الله الصفدي، صلاح الدين: أديب، مؤرخ، كثير التصانيف الممتعة. ولد في صفد (بفلسطين) وإليها نسبته. وتعلم في دمشق فعانى صناعة الرسم فمهر بها، ثم ولع بالأدب وتراجم الأعيان. وتولى ديوان الإنشاء في صفد ومصر وحلب، ثم وكالة بيت المال في دمشق، فتوفي فيها. له زهاء مئتي مصنف، منها (الواري بالوفيات - خ) كبير جدا، في التراجم، و (الشعور بالعمور - خ) في تراجم العمور وأخبارهم، و (نكت الحميان - ط) ترجم به فضلاء العميان، و (ألحان السواجع - خ) رسائله لبعض معاصريه، رتب أسماءهم على حروف المعجم، عندي نسخة منه و (التذكرة - خ) مجموع شعر وأدب وتراجم وأخبار، كبير جدا. توفي 764هـ. انظر الدرر الكامنة: (82/2).

(2) هو تاج الدين السبكي.

(3) هو أبو حفص بن عمر كما في رحلة العبدري: (22).

(4) هو يحيى بن عصام أبو زكرياء وصفه في حلة العبدري بأنه رجل متقلل حيي متعفف، له حظ من اللغة ويقرض من الشعر ما لا بأس به. انظر رحلة العبدري: (22).

قَطَفُوا أَزَاهِرَ كُلِّ عِلْمٍ نَافِعٍ وَأَتَوْا بِكُلِّ بَدِيعَةٍ مُسْتَطَرَفَةٍ  
قَوْمٌ هُمْ قَمَعُوا الضَّلَالَ وَحَزَبَهُ بِمَقَاوِلِ حَكَمَاتِ الْمَوَاضِي الْمَرْهَفَةِ  
هُمْ شَيْعَةُ الْحَقِّ الَّذِي مَا بَعْدَهُ إِلَّا مَهَاوِلُ لِلضَّلَالَةِ مُتَلَفَةِ  
أَرَاؤُهُمْ يَجْلِسُوا الْبَصِيرَةَ نُورُهَا وَيُمِيطُ أَذْوَاءَ الْقُلُوبِ الْمُذْنَفَةِ  
أَقْصَرَ فَإِنْ شَقَّاقَهُمْ كُفْرٌ فَلَا تَدَعِ الرَّشَادَ لِعُصْبَةٍ مُتَعَسِّفَةِ  
مَنْ شَذَّ عَنْ سَنَنِ الْجَمَاعَةِ قَدْ غَوَى جَاءَتْ بِذَا الْكُتُبِ الصَّحَاحُ مُعْرِفَةِ  
قال العبدري<sup>(1)</sup> في رحلته: خفف الحمر بالتسكين، والتخفيف في "فُعَل" بضم العين:  
مطرِد إلا فيما يلتبس وهو هنا يلتبس بجمع أحمر فينبغي ألا يخفف؛ ولم يقرأ في السبع:  
﴿كأنهم حمر مستنفرة﴾ إلا بالثقل، ولهذا أنكر المحققون إسكان الباء في قوله ﷺ: «اللهم  
إني أعوذ بك من الخبث والخبائث»<sup>(2)</sup> لأن إسكانها يلتبس بالمفرد؛ أي بالمصدر من خَبَثَ  
خُبْثًا، فيكون المعنى: أعوذ بالله أن أكون خبيثًا، ومن إناث الشياطين فيكون الكلام غير  
متناسب. والحاصل: أن التخفيف مطرِد في فُعَلٍ فيما لا يلتبس؛ كما قرئ في السبع:  
رُسُلَنَا، وَسُبُلَنَا، وَنَذْرٌ، وَالْأَذُنُ بِالْأَذُنِ، وَكَعْنُقٌ. ولا يطرد فيما يلتبس كـ﴿حُمُرٍ  
مُسْتَنْفَرَةٍ﴾ فإن إسكان الميم يلتبس بجمع أحمر، وكحصر: فإن تسكينه يلتبس بالمفرد، فإن  
الحصر احتباس النجوى، ولهذا منع إدغام ما يلتبس إدغامه نحو: وَتَدٍ وَعَتْدٍ وَشَاةٍ زَمَاءٍ،  
وَأُدْغَمُوا فِي نَحْوٍ: مُمَرَّسٌ وَأَمْحَى، لما أمِنُوا اللبس. انتهى بخ<sup>(3)</sup>.

(1) هو محمد بن محمد بن علي بن أحمد، أبو عبد الله الحاحي العبدري: صاحب (الرحلة) المعروفة باسمه. أصله من بلنسية. ونسبته إلى  
بني عبد الدار. كان من سكان بلدة (حاحة) في المغرب، بعد أزموور، توجه منها حاجا سنة 688 هـ، فدخل باجة وتونس والقروان.  
ومر بالإسكندرية في ذهابه وإيابه. وليس في المصادر ذكر لسنة وفاته. وكان العبدري قد بدأ بتقييدها في تلمسان. ورحل من تلمسان في  
ربيع الأول (689) ثم عاد إليها في طريقه بعد الحج، واستقر في بلده، حيث أنجز الرحلة. انظر حذوة الاقباس: (179).

(2) أخرجه أبو داود (2/1، رقم 6)، والنسائي في الكبرى (23/6، رقم 9903)، وابن ماجه (108/1، رقم 296).

(3) انظر رحلة العبدري: (22).

## توحيد الخاصة

فما قدمناه في الكتاب المذكور: هو توحيد العوام والمتكلمين؛ وهو القِشْرُ الظاهرُ من التوحيد،

(وَأَمَّا تَوْحِيدُ الْخَوَاصِّ) والتوحيد المحض وهو لباب التوحيد الذي نحن الآن في معرض الكلام عليه في هذه الخاتمة (وَهُوَ) أَيْضاً (تَوْحِيدُ الْعَارِفِينَ) أي أهل المعرفة، والمعرفة: تمكن حقيقة العلم بالمعروف من القلب حتى لا يمكن الانفكاك عنه بحال.

فائدة: المعرفة واليقين لا يسلبان والله الحمد. لأنه من يَقْنُ الماء في الحوض إذا استقر. وإنما تُسَلَبُ الأحوال والعلم. وقولهم: فلان سُلِبَ أرادوا به سلب الأحوال؛ لأن شأنها الزوال، والعلم ينقص عن درجة اليقين، وصاحب الحال ينقص عن درجة العارف؛ لأن كل ما فيه يُلبَسُ تارةً وَيُخْلَعُ أخرى كالثوب، قاله المناوي<sup>(1)</sup> في شرح الحكم<sup>(2)</sup>.

وقال الخواص<sup>(3)</sup>: أرباب الأحوال كالسفن المشرعة، فما دامت الريح قائمة؛ فالشراع باقٍ والسير دائم، فإذا فقدت الريح وقفوا. وقال: العارف الكامل كراماته باقية معه وتصرفه دائم ولو ترك النوافل والخيرات، وأرباب الأحوال ذوو نقص: متى تركوا قيام الليل وكسلوا عن عبادة بطل تأثيرهم في الكون. وصاحب اليقين لا يخاف زوال شيء.

وقال بعضهم: المرید تغلب أحواله عليه فتبدو أنوارها علي ظاهره، والعارف حاكم علي أحواله فلا يظهر منه إلا وجود البشرية، فلذلك تميل النفوس للمريدين أكثر من العارفين ويظهر التحقيق عليهم أكثر من أهل الكمال .

(1) هو محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين ابن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، زين الدين: من كبار العلماء بالدين والفنون. انزوى للبحث والتصنيف، وكان قليل الطعام كثير السهر، فمرض وضعفت أطرافه، فجعل ولده تاج الدين محمد يستلم منه تأليفه. له نحو ثمانين مصنفًا، منها الكبير والصغير والتمام والناقص. عاش في القاهرة، وتوفي بها. من كتبه (كنوز الحقائق - ط) في الحديث، و (التيسير - ط) في شرح الجامع الصغير، مجلدان، و "شرح الحكم العطائية". توفي 1031هـ. انظر خلاصة الأثر: (412/2).

(2) شرح المناوي على الحكم لم نعثر عليه بعد.

(3) هو إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل أبو إسحاق الخواص صوفي، كان أوجد المشايخ في وقته من أقران الجنيد. ولد في سر من رأى وتوفي في جامع الري. له كتب. توفي 291هـ. انظر طبقات الشعرا: (83/1)، ونفع الطيب: (756/2).

وقال عطاء السلمي<sup>(1)</sup>: مذ عرفت الله فأنا أخاف مقتته، قيل ولم ؟ قال : لأنه يتجاوز عن الجاهل ولا يتجاوز عن العارف، فإن من عَرَفَ وَتَرَكَ خِدْمَتَهُ مَقْتَهُ.

وقال سيدي زروق: ومما يدللك علي أن رؤية العارف تزيد في نور المعرفة وغيرها: قول أنس رضي الله عنه: ما نفضنا التراب من أيدينا في دفن النبي صلى الله عليه وسلم حتى وجدنا النقص في قلوبنا... الحديث.

قال المناوي: أهل الطريق ثلاثة:

عابد: فطريقته كثرة العمل وتجنب الزيف والزلل.

ومريد: فطريقته: تخلص الباطن عن الشوائب. والتفرغ عن الشواغل والشواغب.

وعارف: فطريقته: تخلص القلب لله تعالى وبذل الدارين في طلب رضاه. وهي أعلى الطرق، وتبني على قاعدتين: معرفة العبد بربه وما عليه من الكمال والجلال والجمال. ومعرفته بنفسه وما عليه من قبائح الخلال.

وقال القشيري<sup>(2)</sup> في شرح الأسماء الحسنى: همة العارفين أعظم من المخلوقات كلها، حتى العرش والسمكة التي عليها العالم والملائكة وغيرها. وهمة العارفين هي التي يتلاشى فيها جميع المقدورات فضلا عن المخلوقات.

وفي كتاب طبقات الأولياء لسيدي عبد الوهاب الشعراني: قال الشيخ داوود بن ماخلا<sup>(3)</sup>: ما تنفس عارف في بلدة إلا ثبت إيمان كل عبد فيها<sup>(4)</sup>.

وقال: إنما اضطر العارفون إلى ملابس الخلق والدنيا لإنقاذ من فيها من الغرقى، ولتخلص من فيها من الأسرى وليتحملوا كثيرا من أكدارها عن الضعفاء<sup>(1)</sup>. وقال: ما

(1) هو عطاء السلمي كان رجلا صالحا من كبار رجال التصوف، كثير البكاء والعبادة خوفا، كان يرى نفسه سبب البلاء النازل ولو مات لاستراح الناس. (رسالة القشيري: 374، طبقات الشعراني: ج 1: ص: 47).

(2) تقدمت ترجمته.

(3) هو الشيخ داوود بن عمر بن إبراهيم الأسكندري، كان من الأئمة الراسخين والعلماء العاملين، أخذ عن ابن عطاء الله، وكان عالما بفنون عديدة. له شرح مختصر التلقين، وحمل الزجاجي وغير ذلك في المعاني والبيان. توفي 733هـ. انظر شجرة النور الزكية: (204).

(4) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (195/1).

سكت عارف قط ولو نَفَسًا إلا عقوبة لأهل زمانه، وما أتم قط كلمة إلا وانتفع بها كل من سمعها<sup>(2)</sup>.

وقال: من أعظم ممن الله تعالى على العباد أن يظهر بينهم عارفا وإن لم يعرفوه ولم يروه<sup>(3)</sup>.

وقال: إن الرجل العارف ليكون في سفينة والأولياء حوله مُشاةً على الماء يتلقون عنه يأخذون منه، ولو نزل هو معهم لغرق<sup>(4)</sup>. وقال: العارفون يتكلمون مع الخلق بالحق وهم بالحق مع الحق<sup>(5)</sup>.

وحكي عن الجنيد أنه قال: لي ثلاثون سنة أتكلم مع الله تعالى والناس يظنون أنني أتكلم معهم<sup>(6)</sup>.

وقال: لا بد أن يجلس العارفون في الجنة ويحدثون الناس حديثا فوق هذا من علم الجنة وعملها وآدابها<sup>(7)</sup>.

وقال: إنما كان العبد يدخله الوسواس في الصلاة ولا يدخله إذا سمع كلام عارف وهو بين يديه لأن المصلي يناجي ربه والمستمع للعارف يناجي ربه<sup>(8)</sup>.

وقال: سيرك قدما واحدا على أثر قدم عارف أحسن من مائة ألف فرسخ تسيرها بهواك<sup>(9)</sup>.

---

(1) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (197/1).

(2) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (193/1).

(3) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (199/1).

(4) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (199/1).

(5) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (200/1).

(6) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (200/1).

(7) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (198/1).

(8) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (199/1).

(9) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (198/1).

وقال سيدي علي بن سيدي محمد وفا<sup>(1)</sup> في حديث: «من اغبرت قدماه في سبيل الله أبعد الله وجهه عن النار سبعين عاما<sup>(2)</sup>»: يدخل فيه من مشى مع ولي لوجه الله تعالى، وابتغاء مرضاته فإن الله تعالى يبعد وجهه عن النار حقا [ونال معتقده]<sup>(3)</sup>.

وقال سيدي أبو المواهب محمد الشاذلي<sup>(4)</sup>: من غرض من عارف بالله أو ولي لله ضرب في قلبه ولا يموت حتى يفسد معتقده<sup>(5)</sup>.

وقال علي كرم الله وجهه: ما يسرني أن الله تعالى أماتني طفلا وأدخلني من الجنة الدرجات العلى. فقليل له: ولم؟ قال: لأنه أحياني حتى عرفته.

وقال بعضهم: في الدنيا جنة من دخلها لم يشتق إلى جنة الأخرى، ولا إلى شيء منها، ولم يستوحش. قيل: وما هي؟ قال: معرفة الله عز وجل.

وقال مالك بن دينار<sup>(6)</sup>: خرج الناس من الدنيا ولم يذوقوا أطيب الأشياء فيها. قيل: وما هو؟ قال: المعرفة بالله، ثم قال:

وَضِيَاءٌ وَبَهَجَةٌ وَسُرُورٌ	إِنْ عَرَفَانَ ذِي الْجَلَالِ لِعِزٍّ
وَعَلَيْنِهِمْ مِنَ الْمَحَبَّةِ نُورٌ	وَعَلَى الْعَارِفِينَ أَيْضاً بَهَاءٌ
هُوَ وَاللَّهُ دَفْرُهُ مَسْرُورٌ	فَهَنِيئاً لِمَنْ عَرَفَكَ إِلَهِي
أَنْتَ وَاللَّهُ سُؤْلُهُمْ يَا غُفُورٌ	لَيْسَ لِلْعَارِفِينَ غَيْرَكَ هَمٌّ

(1) هو سيدي محمد وفا رضي الله عنه من أكابر العارفين، وأخير ولد سيدي علي رضي الله عنه أنه هو خاتم الأولياء صاحب الرتبة العلية وكان أميا وله لسان غريب في علوم القوم ومولفاته كثيرة ألفها في صباه وهو ابن سبع سنين أو عشر فضلا عن كونه كهلا وه رموز في منظوماته ومنشوراته مطلسمة لم يفك أحد معناها. وأخباره كثيرة جدا جدا من أراد التوسع فيها فلينظر الطبقات الكبرى للشعراني: (21/2).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه بلفظ: «مَنْ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ» رقم: (907).

(3) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (59/2). وكلمة "ونال معتقده" ليست في الطبقات الكبرى.

(4) تقدمت ترجمته.

(5) هذه الجملة أوردها الشعراني في طبقاته وعزاها للشيخ أبي عبد الله القرشي: (159/1).

(6) تقدمت ترجمته.



وقوله: (وَهُوَ التَّصَوُّفُ) جملة معترضة بين "أَمَّا" وجوابها الذي هو عبارة عن أمر لا يفهمه أكثر المتكلمين، وإن فهموه لم يتصفوا به (وَهُوَ) أفراد التوحيد ذاتًا وصفاتٍ وأفعالاً ثم (الْعَمَلُ) بعد ذلك (بِمُقْتَضَى) ذلك (التَّوْحِيدِ) وهو أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطعه عن الالتفات إلى الوسائط والأسباب. فلا يرى الخير والشر إلا منه تعالى، وأن يعبدته تعالى عبادة يفرده بها (حَتَّى لَا يَلْتَفِتَ) بقلبه (إِلَى الْخَلْقِ) ولا يتوجه بوجه قلبه إلا إلى الله تعالى. ومن الخلق الهوى والشيطان والنفس والدنيا والناس والعمل؛ كما يأتي ذلك مفصلاً إن شاء الله تعالى. ويخرج من هذا التوحيد اتباع الهوى لأنه اتخذه إلهًا.

وفي الحديث: «أَبْغَضَ إِلَهٍ عَبْدٌ فِي الْأَرْضِ غَيْرَ اللَّهِ هُوَ الْهَوَى»<sup>(1)</sup>. وعابد الصنم إنما يعبد هواه، إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه فتبع ذلك الميل، ويخرج منه أيضا السخط على الخلق، والطمع فيهم، والخوف منهم والشكوى إليهم، ومراءاتهم بالعمل، والعجب به، فإن من يرى الكل من الله تعالى كيف يلتفت طمعا وخوفاً وشكوى، أو يسخط عليهم، إذ لا نفع ولا ضرر إلا منه تعالى، والمخلوق لا ينفع نفسه فكيف غيره. وكذا يقال فيمن وحده تعالى بصفاته العلية وعرف انفراده بها. فمن عرف ذلك أوجبت له تلك المعرفة أحوالاً تنشأ عنها ملابسة الفضائل، وتجنب الرذائل، ومثال ذلك من عرف سعة رحمته تعالى ووحدته بها فإن مقتضى ذلك أن تُثْمِرَ له معرفته وتوحيده ذلك سعة الرجاء والكف عن القنوط، ومن عرف شدة النعمة أثمرت معرفته شدة الخوف، وأثمر خوفه الكف عن كل معصية، مع البكاء والورع وحسن الانقياد والإذعان. ومن عرف أن جميع النعم منه تعالى أحبه وأثمرت المحبة آثارها المحمودة المعروفة، وكذا من شهد تفرده تعالى في النفع والضرر لم يعتمد إلا عليه ولم يفوّض أمره إلا إليه، ومن شهد تفرده بالعظمة والجلال هابه وعامله بالتعظيم والانقياد والتذلل، وغير هذا مما يطول تتبعه من التخلي عن كل رذيلة والتخلي بكل فضيلة. وإلى ذلك أشار بقوله: (وَ) حتى (يَتَخَلَّى) بالخلاء المعجمة وهو

(1) أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف. انظر تخريج أحاديث الإحياء الحديث رقم: (88).

سابق على التحلي بالمهملة ولذا قدّمه هنا (ظَاهِرًا وَبَاطِنًا عَنِ الرَّذَائِلِ). قال المناوي:  
أول مهم على المكلف بعد معرفة الباري: السعي في طهارة نفسه من الأخلاق الرديّة،  
فمن لم يطهرها وزعم أنه عالم كذبه الوجدان القائم به، وإنما حَجَبَ الناسَ عن الاشتغال  
بذلك قلةُ الإدراك لدقائق النفوس المزيّنة للباطل لحظها وحبها الراحة، والفرح بالعاجل،  
واستبعاد الأجل، وذلك مكر واستدراج.

قال بعض العلماء العارفين: علامة كمال الطهارة عن الأوصاف الذميمة ثبوت المحل  
عند هجوم المقادير وسكون الجبلّة عند الصدمة الأولى، وبقاء الحقيقة مستغرقة عند  
الصعقة.

فائدة: قال المناوي في شرح الحكم: قالوا: لا يصح زوال ما كان جبلياً في النشأة وإنما  
العبد يوقى العمل بالصفات الرديّة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يوقِ شَحْ نفسه﴾<sup>(1)</sup> ولم  
يقُل: وَمَنْ يَزِلْ شَحْ نفسه. ولهذا عين الشارع للصفات مصارف فقال: «لا حسد إلا  
في اثنتين»<sup>(2)</sup> فحثّ على الحسد الذي هو غبطة أهل الخير؛ لا على تمني زوال النعمة،  
ونهى عن التبخر في المشي وأباحه في الحرب ليقهر به العدو، وقس عليه فإن ما في أصل  
النشأة محالٌ أن يزول إلا بانعدام الذات. انتهى.

وقال سيدي زروق: ما جُبِلَتْ عليه النفوس لا يصح انتفاؤه عنها، بل ضعفه وقوته فيها،  
وتحويله عن مقصد لغيره، كالطمع لتعلق القلب بما عند الله تعالى توكلأً عليه ورجاءً فيه.  
والحرص على الدار الآخرة بدلاً من الدنيا، والبخل فيما حُرِّمَ وَمُنِيعٌ، والكبر على  
مستحقه، ولرفع الهمة عن المخلوقين، حتى تتلاشى في همته جميع المقدورات، فضلاً عن  
المخلوقات، والحسد للغبطة، والغضب لله سبحانه حيث أمر به، والحقّد على من لا نسبة له من  
الله حسب إعراضه، والتعزز على الدنيا وأهلها، والانتصار للحق عند تَعْيِينِهِ... إلى غير ذلك<sup>(3)</sup>.

(1) الحشر (9)

(2) أخرجه البخاري في صحيحه: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلْطَ عَلَى هَلْكَيْهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ،  
فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيَعْلَمُهَا» رقم: (1409). ومسلم في صحيحه: (1930) عن عبد الله بن مسعود.

(3) انظر قواعد الصوفية: (1379 القاعدة رقم (179)).

قال: وفائدة التدقيق في [أحوال<sup>(1)</sup>] النفس وتعرفها وتعرف دقائق الأحوال معرفة المرء بنفسه وتواضعه لربه ورؤية قصوره وتقصيره. وإلا فليس في قوة البشر التبري من كل عيب بإزالته، إذ لو أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء مساويك، ومحو دعاويك، لم تصل إليه أبدا. فافهم<sup>(2)</sup>.

وحتى (يَتَحَلَّى) بالحاء المهملة (فِيهِمَا) في الظاهر والباطن (بِالْآدَابِ) جمع أدب مثل سبب وأسباب (وَالْفَضَائِلِ) الأخلاق المحمودة؛ جمع فضيلة وهي ما يدل الشرع على مزيتها وثواب مكتسبها وما يحصل له بسببها كالرضى والصبر والتوبة والتوكل والقناعة وغير ذلك، كما يأتي إن شاء الله تعالى.

ثم إن المتخلى من الرذائل إلى الفضائل مذموم، إذا كان ذلك بنية اكتساب الفضائل حبا لجمالها وبغضا لنقص الرذائل، إلا إذا كان ذلك لله تعالى.

والأدب: مأخوذ من: أَدَّبْتُهُ أَدْبًا؛ مثل: ضَرَبْتُهُ ضَرْبًا إذا علمته رياضة النفس، ومحاسن الأخلاق، وأَدَّبْتُهُ تأديبا مبالغة وتكثير، ومنه: أدبته تأديبا إذا عاقبته على سيئة لأنه سبب يدعوا إلى حقيقة الأدب. ويقال: إنه مأخوذ من المأدبة وهي الدعوة إلى الطعام؛ سمي بذلك لأنه يدعى إليه.

ويقال: أدب أدبا من باب ضرب أيضا إذا كان صنع صنيعا ودعا الناس إليه فهو آدب وزن فاعل، قال طرفة<sup>(3)</sup>:

لا تَرَى الْآدِبَ فَمِنَا يَنْتَقِرُ<sup>(1)</sup>

.....

(1) في النسخ التي بين أيدينا من القواعد: "عيوب".

(2) انظر قواعد الصوفية: (143) القاعدة رقم: (190).

(3) هو طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد، البكري الوائلي، أبو عمرو: شاعر، جاهلي، من الطبقة الأولى. ولد في بادية البحرين، وتنقل في بقاع نجد. واتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه. ثم أرسله بكتاب إلى المكعب (عامله على البحرين وعمان) يأمره فيه بقتله، لآيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بما، فقتله المكعب، شابا، في (هجر) قيل: ابن عشرين عاما، وقيل: ابن ست وعشرين. أشهر شعره معلنته، ومطلعها: (لخولة أطلال بركة نهمد) وقد شرحها كثير من العلماء. انظر الشعر والشعراء: (49).

والأدب ما يصلح به حال الإنسان فيما بينه وبين الله، وفيما بينه وبين الناس من جار وجليس وضيف وغيرهم.

وقال ابن سيده<sup>(2)</sup>: الأدب الظرف، وحسن التناول. وقال القشيري: حقيقة الأدب: اجتماع خصال الخير<sup>(3)</sup>. وقيل: هو استعمال ما يحمد قولاً وفعلاً. وقال بعضهم: هو صفاء القلب وحضوره. ويقال: حسن معاملة تتولد من الحياء، والهيبه والشفقة. وقيل: هو الأخذ بمكارم الأخلاق. وقيل: هو تعظيم من فوقك، والرفق بمن دونك. ويقال: مجالسة الحق على بساط الصدق، ومطالعة الحقائق بقطع العلائق. وقيل للحسن البصري وقد أكثر الناس في علوم الأدب، فما أنفعها عاجلاً وأوصلها آجلاً؟ فقال: الفقه في الدين، والزهد في الدنيا، والقيام بما لله عليك.

قال العلقمي<sup>(4)</sup>: وتوضيحه وتعليله أنه إذا عَدِمَ الفقه وقع فيما لا ينبغي، وإذا لم يزهد في الدنيا لم يمكنه القيام بما علمه من القليل من الأحكام لشغله بحفظها وتحصيلها وجهات كسبها.

وقال أبو نصر السراج<sup>(1)</sup>: الناس في الأدب على طبقات؛ أما أهل الدنيا فأكثر أدبهم في الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم وأسماء الملوك وأشعار العرب، وأما أهل الدين فأكثر

---

(1) من قصيدة لطرفة بن العبد 76 بيتا مطلعها:  
أَصْحَوْتُ الْيَوْمَ أَمْ شَأْنُكَ هِرٍ وَمِنْ الْحُبِّ جُنُونٌ مُسْتَعِيرٍ  
والبيت بكامله:  
نَحْنُ فِي الْمَشَاةِ نَدْعُو الْجَفَلَى لَا تَرَى الْأَدَبَ فِينَا يَنْتَقِرُ  
وهو البيت رقم 46 من القصيدة. انظر ديوانه (حرف الراء).

(2) هو علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده أبو الحسن، إمام في اللغة وآدابها، وصنف فيها "المختص" 17 جزءاً وهو من ثمن كنوز العربية، والمحكم، والمحيط الأعظم 18 جزءاً، وشرح ما أشكل من شعر المتنبي، والأنيق في شرح حماسة أبي تمام 6 مجلدات وغير ذلك. توفي 458هـ في دانية وكان ضريراً. انظر ابن خلكان: (342/1).

(3) انظر الرسالة القشيرية: (284).

(4) هو محمد بن عبد الرحمن بن علي بن أبي بكر العلقمي، فقيه شافعي عارف بالحديث من بيوتات العلم في القاهرة المدرسين بالأزهر. له الكوكب المنير بشرح الجامع الصغير 3 مجلدات. وملتقى البحرين في الجمع بين كلام الشيخين. توفي 969هـ. انظر شحرات الذهب: (338/8).

أدهم في رياضة النفوس وتأديب الجوارح وحفظ الحدود وترك الشهوات، وأما أهل الخصوص فأكثر أدهم في طهارة القلوب.

وقال بعضهم: الأدب على ثلاثة أقسام:

أدب طبعي: وهو ما جبل عليه الإنسان من الأخلاق السنية والاتصاف بالصفات المرضية من الحلم والكرم والشجاعة وحسن الخلق... إلخ.

وكسبي: وهو ما يكتسبه الإنسان بالحفظ والضبط وهو عبارة عن معرفة أربعة أشياء: النحو واللغة والشعر والخبر، وبعضهم يضيف إلى ذلك معرفة الكتاب والسنة وعلومهما. وصوفي: وهو ضبط الحواس وحفظ الأنفاس.

وقال ابن عطاء الله<sup>(2)</sup>: الأدب الوقوف مع المستحسنات، فقليل له: وما معناه؟ قال: أن تعامل الله بالأدب سرا وإعلانا؛ أي في أعمال قلبك وأعمال جوارحك، فلا تتعاطى شيئا إلا شهدت له الشريعة بحسنه، فإذا كنت كذلك كنت أديبا، وإن كنت أعجميا، ثم أنشدوا:

إِذَا نَطَقْتَ جَاءَتْ بِكُلِّ مَلَاخَةٍ وَإِنْ سَكَتَ جَاءَتْ بِكُلِّ مَلِيحٍ  
ومن لازم الآداب الشرعية حسنت حركته وسكونه وكلامه وسكوته.

قال بعضهم: سمعت من بعض الملوك أنه قال لولده: أينما أحب إليك أنا أو مؤدبك؟ قال: مؤدبي. فأظهر والدّه الغضبَ ثم سأله عن ذلك، فقال: أنت سبب حياتي الفانية، ومؤدبي سبب حياتي الباقية.

وقال الشعراي: ومن أخلاق السلف: حسن أدهم مع الصغير والبعيد والجاهل فضلا عن الكبير والقريب والعالم. وقد قال تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولْ لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لِّعَلَّهِ

(1) هو عبد الله بن علي الطوسي، أبو نصر السراج: زاهد. كان شيخ الصوفية، على طريقة السنة. له كتاب "اللمع - ط" في التصوف. توفي 378 هـ. انظر شذرات الذهب: (91/3).

(2) هو أبو العباس تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم الجذامي الإسكندراني المتكلم على طريقة الشافلي المالكي، صاحب أبي العباس المرسى أخذ عنه وعن التقي السبكي، مفسر فقيه محدث أصولي نحوي، من مؤلفاته: الحكم - لطائف النتن - التنوير في إسقاط التدبير. توفي سنة: 709 هـ. (حسن المحاضرة ج 1 ص: 250، طبقات المفسرين للداودي ج 1 ص: 77، درة البحال: 12).

يتذكر أو يخشى)، مع أن فرعون كان من أفسق الكفار، وأجمعوا على أن علو الدرجات إنما يكون بزيادة الأدب. ومن الأدب: شهود النقص في أنفسهم والكمال في غيرهم. عكس من كان قليل الأدب<sup>(1)</sup>.

وقال ابن القاسم<sup>(2)</sup>: خدمت مالكا عشرين سنة فكانت ثمانية عشرة منها في تعليم العلم وستان منها في تعليم الأدب فليتني جعلت المدة كلها في الأدب. وقيل: من تأدب بآداب الصالحين صلح لبساط المحبة، ومن تأدب بآداب الصادقين صلح لبساط المشاهدة. وقال:

لَجَلَسَةٌ مَعَ أَدِيبٍ فِي مُذَاكِرَةٍ أَنفِي بِهَا الِهْمُّ أَوْ أَسْتَجْلِبُ الطَّرْبَا  
أَشْهَى إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا وَمِلَّتُهَا فِضَّةٌ أَوْ مِلَّتُهَا ذَهَبًا<sup>(3)</sup>  
فائدتان: الأولى: اختلف في الأدب وامثال الأمر أيهما أفضل؟ قال الصوفية: الأدب أفضل لأن الصديق<sup>(4)</sup> تأخر عن الحراب ولم يمثل أمره عليه السلام له بإتمام الصلاة. وقال الفقهاء: امثال الأمر أفضل ويدل على ذلك قول المصلي في التشهد: اللهم صل على محمد من غير أن يقول سيدنا امثالاً لقوله عليه السلام: قولوا اللهم صل على محمد. وقيل للعباس: أنت أكبر أم النبي ﷺ؟ فقال: هو أكبر مني وأنا ولدت قبله<sup>(5)</sup>. ويشهد لسلوك الأدب - والله أعلم - امتناع علي كرم الله وجهه من محو اسمه ﷺ من الصحيفة مع أمره له بذلك.

الثانية: قال الشعراي: ومن الأدب: عدم الكلام في شأن الدنيا أصلا في المسجد.

(1) انظر تنبيه المفترين للشعراي: (81).

(2) هو عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العنقي المصري، تفقه بالإمام مالك ونظرائه. له المدونة 16 جزءا، وهي من أجل كتب المالكية رواها عن الإمام مالك، وأخباره وفضله لا تسعها الجوامش. توفي 191هـ. انظر وفيات الأعيان: (276/1).

(3) البيهقي لعلي بن الجهم المتوفى 249هـ. انظر ديوانه (حرف الباء).

(4) هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه. وهو غني عن التعريف.

(5) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد رقم: (15482).

ورأى عيسى ~~عليه السلام~~ قوما يلعبون في المسجد فلف رداءه وضربهم وأخرجهم منه، وقال: "اتخذتم بيوت الله أسواقا، إنما هي أسواق للآخرة".

وكان خلف بن أيوب<sup>(1)</sup> يوما جالسا في المسجد فأتاه غلامه فسأله عن شيء من حوائج الدنيا فخرج من المسجد فأجابه ثم رجع وقال: كرهت أن أتكلم بكلام الدنيا في المسجد.

قال الشعراني: وبلغني أن هذا الأدب الآن في أكابر أهل اسطنبول؛ لا يكلمون أحدا بكلام لغو ما دام أحدهم في المسجد وينكرون على من يتكلمون فيه كلام الدنيا، فرضي الله تعالى عن أهل الأدب. انتهى.

وقال المناوي: من أصول الأدب التي يقع بتركها الطرد والإبعاد حفظ حرمة المسلمين سيما دائرة الحق من العباد والزهاد ومفتاح إسقاط حرمتهم احتقار ما منحهم مولاهم. وفي كتاب المجالس في الوعظ: وفي الحديث: «يأتي آخر الزمان ناس من أممي يأتون المساجد ويقعدون فيها حلقًا حلقًا ذكرهم الدنيا وحب الدنيا، لا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة لا صلاة لهم ولا صوم لهم ولا زكاة لهم هم من الله مبعذون... إلى أن قال: فتقف عليهم الملائكة فيقولون: اسكتوا يا أعداء الله، اسكتوا يا بغضاء الله، فإذا صلبوا ضربت وجوههم بصلاتهم، وانقلبوا إلى دورهم وقد سخط الله عليهم<sup>(2)</sup>».

وفي الحديث أيضا: يقول الله عز وجل: «إن بيوتي في أرضي المساجد، وإن زواري فيها عمارها، فطوبى لعبد يتطهر في بيته ثم يزورني في بيتي، فحقيق على هذا المزور أن يكرم زائره<sup>(3)</sup>».

<sup>(1)</sup> هو خلف بن أيوب الفقيه أبو سعيد العامري البجلي الحنفي، مفتي أهل بلخ وزاهدهم وعابدهم. أخذ الفقه عن أبي يوسف، وقيل أنه أدرك محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وتفقه عليه. وسمع منه ومن عوف الأعرابي ومعمر وإبراهيم بن أدهم وصحبه مدة. روى عنه حمد بن حنبل وابن معين وأبو كريب وعلي بن سلعة وجماعة. توفي 215 هـ. انظر الوافي بالوفيات: (375/4).

<sup>(2)</sup> أخرجه ابن حبان من حديث ابن مسعود والحاكم من حديث أنس وقال صحيح الإسناد. انظر: تخريج أحاديث الأحياء الحديث نم: (407).

<sup>(3)</sup> أخرجه أبو نعيم من حديث أبي سعيد بسند ضعيف "يقول الله عز وجل يوم القيامة أين جبرائي فتقول الملائكة من هذا الذي ينبغي أن يجاورك فيقول أين قراء القرآن وعمار المساجد" وهو في الشعب نحوه موقوفا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

ويقال أيضا: إن الناس إذا ذكروا أخبار الدنيا وزينتها في المساجد؛ قالت لهم الملائكة: اسكتوا يا بغضاء الله، اسكتوا يا أعداء الله، اسكتوا عليكم لعنة الله.

وقال سعيد بن المسيب<sup>(1)</sup>: من جلس في المسجد فإنما يجالس ربه، فمن حقه ألا يقول إلا خيرا.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: سألت النبي ﷺ سنين عن الكلام في المسجد، فما زانني إلا تشديدا، ولا رأى لي فيه رخصة ثم قال: «يا ابن عباس اقرأ: ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع...﴾ الآية.

ويروى الحديث: «الكلام في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب<sup>(2)</sup>».

وفي الحديث: «إن للمساجد أوتادا جلساؤهم الملائكة إذا جلسوا حفتهم الملائكة من لدن أقدامهم إلى أعناقهم، بأيديهم قراطيس الفضة وأقلام الذهب يكتبون الصلاة على النبي ﷺ ويقولون: أكثروا رحمكم الله. فإذا استفتحوا في الذكر أقبل الله عليهم بوجهه حتى يخوضوا في حديث غيره<sup>(3)</sup>». وإحاطة الملائكة دليل على كثرة الرحمة النازلة والبركة الشاملة، لكن إنما ذلك لمن توفى من الآثام، ومن تلوث المساجد بقدر الغيبة والنميمة والخصومة وإطلاق الريح ورفع الصوت والتأدب بسكينة ووقار وخضوع وحضور قلب مع رب البيت، فمن جلس في المسجد بهذه الصفة حفت به الملائكة وغشيته الرحمة ونزلت عليه السكينة. ومن عمره بغير ذلك بعدت عنه الرحمة وأكلت له الحسنة. ويأتي إن شاء الله بعض فضائل الأدب في بابه.

---

بإسناد صحيح، وأسد ابن حبان في الضعفاء آخر الحديث من حديث سلمان وضعفه. انظر تخريج أحاديث الإحياء الحديث رقم: (408).

(1) هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي، أبو محمد: سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة. جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعيش من التجارة بالزيت، لا يأخذ عطائا. وكان أحفظ الناس لأحكام عمر ابن الخطاب ونخعيته، حتى سمي راوية عمر. توفي بالمدينة 94هـ. انظر الاعلام: (3م102).

(2) انظر المعروف الشاذلي في شرح سنن الترمذي للكشموري: (377/1).

(3) هذا الحديث لم أجده إلا في تفسير الرازي، قال: عن عبد الله بن سلام:..... الحديث. انظر تفسير الرازي: (299/2).



(وَتَشْتَمِلُ هَذِهِ الْخَاتِمَةُ عَلَى مُقَدِّمَةِ) بكسر الدال وفتحها (وَ) على (ثَلَاثَةِ أَبْوَابٍ) الباب الأول: (فِي الْخُلُقِ وَ) الثاني: (فِي الرُّذَائِلِ وَ) الثالث: (فِي الْآدَابِ وَالْفَضَائِلِ) فبدأ بالمقدمة فقال: (مُقَدِّمَةٌ) بكسر الدال — يقال: مقدمة العلم لما يتوقف عليه الشروع في مسأله، كمقدمة الجيش للجماعة المتقدمة منه من قدم اللازم بمعنى تقدم. ومنه: ﴿لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾<sup>(1)</sup>. ويقال أيضا: مقدِّمة الكتاب بالفتح على قلة من "قدم" المتعدي لطائفة من كلامه قدمت أمام المقصود لارتباط له بها. وانتفاع بها فيه كمقدمة الرحل. والفرق بين مقدمة العلم ومقدمة الكتاب مما خفي على كثير من الناس. ثم إن كونها من قَدَم اللازم أرجح؛ لأن فيه دلالة على أنها متقدمة بنفسها لأمر استحققت به التقديم، وأما إن أُخِذَتْ من المتعدي كان فيها دلالة على أن الغير قدمها، فيحتمل أن يكون لأمر استحققت به التقديم وأن يكون لأمر اعتبره في نفسه. فكان الأول أرجح لعدم احتمال.

(1) المحررات: (1).

## العلم قسمان: كُهاهر وباهسن

ثم قال: (اغْلَمْ أَنَّ الْعِلْمَ) قسمان: علم الظاهر وعلم الباطن، وأن العلم (الْمُتَعَلِّقُ بِالظَّاهِرِ كَالْأَعْمَالِ) الظاهرة من صلاة وصوم وزكاة وغيرها، ومنه علم الإيمان وهو العلم الشرعي بما يلزم المكلف من أمر دينه (يُسَمَّى تَفْقُّهًا) والفقهاء هو العلم الباحث عن أفعال المكلفين، وفائدته: تمييز صحيحها من فاسدها، وكاملها من ناقصها (وَهُوَ مُقَدَّمٌ عَلَى التَّصَوُّفِ؛ لَأَنَّ التَّصَوُّفَ إِنَّمَا يَحْصُلُ فِي الْغَالِبِ بَعْدَ مُجَاهَدَاتٍ، وَرِياضَاتٍ، وَلَا تَنْتَجِ تِلْكَ الْمُجَاهَدَاتُ إِلَّا بِمُوَافَقَتِهَا لِعِلْمِ الشَّرِيعَةِ، وَإِلَّا كَانَتْ عِبَثًا وَأَتْعَابًا).

قال بعض الشيوخ: إذا بدأ المرید يكتب الحديث ثم لزم التصوف نفذ. وإذا بدأ بالتصوف ثم كتب الحديث فتر. أي إذا ابتداء بالتعبد والتقوى والحال شغل بذلك عن العلم والسنن فخرج؛ إما شاطحا وإما غالطا لجهله بالأصول والسنن. لأن من بدأ بالفرع قبل الأصل ضاع في حقه الأصل والفرع، وذلك كله؛ لأن من ضيع علم الشريعة أولا ربما خدعه الشيطان بتزيين البدع له، والخروج عن سنن السلف، فيتخذ إليه هويته، فيلتحق بالمبتدعة، ولو سلم من هذا الوجه، فلا يؤمن عليه أن يستولي عليه سلطان الحقيقة، وليس له من الشريعة ما يقابله به. فرما باح بالأسرار وهتكها، ووجد الناس السبيل إلى الطعن عليه وتوجههم بالأذى إليه، فيتكدر عليه صفوه ويمزحله. وسبب هذا كله تفريطه في علم الشريعة.

وقال سيدي زروق: لما كان الفقه لا يصح التصوف بدونه، كان التزامه مع صدق القصد به محصلا له. فمن ثم كان الفقيه الصوفي أتم حالا من الصوفي الذي لا فقه له. قيل: كن فقيها صوفيا، ولا تكن صوفيا فقيها. وكان أيضا نظر الفقيه أعم من نظر الصوفي. ولذلك صح إنكاره عليه لا العكس، ولزم الرجوع من التصوف للفقه لا العكس، باعتبار الحكم لا باعتبار الترك، وكفى أيضا الفقه عن التصوف، ولم يكف

التصوف عن الفقه. ومن ثم حضُّ الأئمة على القيام بالظاهر علماً وعملاً مع السلامة لما سئلوا عن علم الباطن. وقال ﷺ للذي سأله أن يعلمه من غرائب العلم: «ما صنعت في رأس العلم<sup>(1)</sup>». انتهى<sup>(2)</sup>.

وقال المناوي في شرح الحكم: ومن قواعد الصوفية: تقدم المهم في كل شيء، فكل من طلب من علوم القوم حقيقتها قبل علمه بجمل أحكام العبودية منها، أو عدل عن جلّسي الأحكام إلى غامضها فهو مخدوع بهواه، سيما إن لم يُحَكِّم الظواهر الفقهية، ولم يحقق الفرق بين السنة والبدعة، فهي البلية والرزية. ومن ذلك من طالبته نفسه بالتخلي بالمهملة قبل التخلي بالمعجمة، أو ادعى لها ذلك فهو لاشك هالك.

(و) أن العلم المتعلق (بِالْبَاطِنِ) نوعان: علم المعاملة (كَالْأَخْوَالِ) أي أحوال القلب ما يحمد منها كالصبر، والشكر، والخوف، والرجاء، والمحبة، والزهد، والرضى، وغير ذلك، وما يذم منها كالكبر، والرياء، والعجب، والحسد، والحقد، وسخط المقدور. وغير ذلك مما يأتي إن شاء الله تعالى.

والنوع الثاني: علم المكاشفة: وهو نور يظهر في القلب عند تركيته فتظهر به المعاني الجملة، فتحصل به المعرفة بالله تعالى، وكتبه ورسوله، وتنكشف به الأستار عن مغيبات الأسرار. فَافْهَمْ وَسَلِّمْ وَسَلِّمْ، ولا تكن من المنكرين، قهلك مع الهالكين. والغرض هنا النوع الأول الذي هو علم المعاملة ويُسمى: (تَصَوُّفًا) وهو: علم بأصول يعرف بها صلاح القلب والحواس. وموضوعه: أفعال القلب والحواس. وفائدته: إصلاح أحوال الإنسان ظاهراً وباطناً.

(<sup>1</sup>) رواه ابن السني وأبو نعيم في كتاب الرياضة لهما، وابن عبد البر من حديث عبد الله بن المسور، والحديث بكامله: "جاء رجل جاء إلى رسول الله ﷺ فقال علمني من غرائب العلم، فقال له: ما صنعت في رأس العلم؟ فقال: وما رأس العلم؟ فقال ﷺ: هل عرفت الرب تعالى؟ قال: نعم، فما صنعت في حقه؟ قال: ما شاء الله، فقال ﷺ: هل عرفت الموت؟ قال: نعم، قال: فما أعددت له؟ قال: ما شاء الله، قال ﷺ: اذهب فأحكم ما هناك ثم تعال نعلمك من غرائب العلم".

(<sup>2</sup>) انظر قواعد الصوفية: (22) القاعدة رقم: (26). بتصرف بسيط.

وقيل: هو تجريد القلب لله تعالى واحتقار ما سواه، وقيل غير ذلك. وقد مرَّ أن فيه نحواً من ألفي قول كلها راجعة لصدق التوجه.

تتميم: يصح أخذ الفقه والتصوف دون الأشياء، ولكن أخذه منهم أتم.  
قال سيدي زروق: أخذ العلم والعمل عن المشايخ أتم من أخذه دونهم، بل ﴿هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم<sup>(1)</sup>﴾، ﴿واتبع سبيل من أناب إلي<sup>(2)</sup>﴾. فلزمت المشيخة، سيما والصحابة أخذوا عنه ﷺ، وقد أخذ عن جبريل، وأتبع إشارته في أن يكون: نبياً عبداً، لا نبياً ملكاً. وأخذ التابعون عن الصحابة، فكان لكل أتباع يختصون به كابن سيرين<sup>(3)</sup>، وابن المسيب، والأعرج<sup>(4)</sup> وأبي هريرة، وطاووس<sup>(5)</sup>، وهب<sup>(6)</sup>، ومجاهد<sup>(7)</sup> وغيرهم عن ابن عباس إلى غير ذلك. فأما العلم والعمل فأخذهما جلي فيما

(<sup>1</sup>) العنكبوت: (49).

(<sup>2</sup>) لقمان: (15).

(<sup>3</sup>) ابن سيرين: هو محمد بن سيرين البصري الأنصاري بالولاء. إمام وقته في علوم الدين بالبصرة، تابعي تفقه وروى الحديث واشتهر بالورع وتعبير الرؤيا. توفي 110هـ. انظر تهذيب التهذيب: (214/9) ووفيات الأعيان: (453/1).

(<sup>4</sup>) الأعرج: هو عبد الرحمن بن هرمز، أبو داود، من موالى بني هشام، عرف بالأعرج: حافظ، قارئ، من أهل المدينة. أدرك أبا هريرة وأخذ عنه. وهو أول من برز في القرآن والسنة. وكان خبيراً بأنساب العرب، وافر العلم، ثقة. رابط بشعر الاسكندرية مدة، ومات بها. وفي اسم أبيه خلاف. توفي 117هـ. انظر طبقات القراء: (381/1).

(<sup>5</sup>) طاووس: هو طاووس بن كيسان الخولاني الحمدي، بالولاء، أبو عبد الرحمن: من أكابر التابعين، تفقها في الدين ورواية للحديث، وتقصفا في العيش، وجرأة على وعظ الخلفاء والملوك. أصله من الفرس، ومولده ومنشأه في اليمن. توفي حاجاً بالمرزلفة أو بمخ، وكان هشام بن عبد الملك حاجاً تلك السنة، فصى عليه. وكان يأبى القرب من الملوك والأمراء، قال ابن عيينة: متجنبو السلطان ثلاثة: أبو ذر، وطاووس، والثوري. توفي 106هـ. انظر وفيات الأعيان: (233/1).

(<sup>6</sup>) هب: هو هب بن منبه الابدالي الصنعاني الدماري، أبو عبد الله: مؤرخ، كثير الاخبار عن الكتب القديمة، عالم بأساطير الاولين. يعد في التابعين. أصله من أبناء الفرس الذين بعث بهم كسرى إلى اليمن. وأمه من حمير. ولد ومات بصنعاء وولاه عمر بن عبد العزيز قضاءها. من كتبه "ذكر الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم" رآه ابن خلكان في مجلد واحد، وقال: هو من الكتب المفيدة. وله "قصص الانبياء - خ" و "قصص الاخبار". توفي 114هـ. انظر وفيات الأعيان: (180/2)، والأعلام: (126/8).

(<sup>7</sup>) مجاهد: هو مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي، مولى بني مخزوم: تابعي، مفسر من أهل مكة. قال الذهبي: شيخ القراء والمفسرين. أخذ التفسير عن ابن عباس، قرأه عليه ثلاث مرات، يقف عند كل آية يسأله: فيم نزلت وكيف كانت؟ وتنفل في الاسفار، واستقر في الكوفة. وكان لا يسمع بأعجوبة إلا ذهب فنظر إليها: ذهب إلى "بئر برهوت" بمحضرموت، وذهب إلى "بابل" يبحث عن هاروت وماروت. ويقال: إنه مات وهو ساجد. توفي 104هـ. انظر صفوة الصفوة: (117/2).

ذكر، وكما ذكروا. وأما الإفادة بالهمة والحال فقد أشار إليها أنس بقوله: "ما نفطنا التراب عن أيدينا من دفنه عليه الصلاة والسلام حتى أنكرنا قلوبنا"، فإن رؤية شخصه الكريم، كان نافعاً لهم في قلوبهم، والعلماء ورثة الأنبياء حالاً ومقالاتاً وإن لم يدانوا المترلة، وهو الأصل في طلب القرب من أهل الله في الجملة. إذ من تَحَقَّقَ بحالة لم يَخُلْ حاضروه منها، فلذلك أُمِرَ بصحبة الصالحين، ونُهِى عن صحبة الفاسقين<sup>(1)</sup>.

وقال أيضاً: وقد تشاجر فقراء الأندلس من المتأخرين، في الاكتفاء بالكتب عن المشايخ ثم كتبوا للبلاد، فكلُّ أجاب على حسب فتحه. وجملة الأجوبة دائرة على ثلاثة:

أولها: النظر للمشايع؛ فشيخ التعليم تكفي عنه الكتب للبيب الحاذق الذي يعرف موارد العلم. وشيخ التربية تكفي عنه الصحبة لِذَيْنِ عاقل ناصح. وشيخ الترقية تكفي عنه اللقاء والتبرك. وأخذ كل ذلك من وجه واحد أتم.

الثاني: النظر لحال الطالب؛ فالبليد لا بد له من شيخ يُرَبِّيه، والبيب تكفي الكتب في تربيته، لكنه لا يسلم من رعونة نفسه، وإن وصل لابتلاء العبد برؤية نفسه.

الثالث: النظر للمجاهدات؛ فالتقوى لا تحتاج إلى شيخ لبيانها وعمومها. والاستقامة تحتاج إلى شيخ في تمييز الأصلح منها، وقد يكتفي دونه اللبيب بالكتب. ومجاهدة الكشف والترقية لا بد فيها من شيخ يُرْجَعُ إليه في فتوحها، كرجوعه عليه السلام للعرض على ورقة بن نوفل لعلمه بأخبار النبوة ومبادئ ظهورها، حين فاجأه الحق. وهذه الطريقة قريبة من الأولى والسنة معهما، والله أعلم<sup>(2)</sup>.

تتميم آخر: كثيراً ما سلكتنا في هذه الخاتمة العطفَ على معمولي عامل واحد للجمع على جوازه، والعطف على معمولي أو معمولات عاملين مختلفين دروجاً على مذهب الأخفش كما في هذا المحل وغيره.

(1) انظر قواعد التصوف: (49) القاعدة رقم: (65).

(2) انظر قواعد التصوف ص (52)، القاعدة رقم: (64).

وتلخيص المسألة باختصار: أنهم أجمعوا على جواز العطف على معمولي عامل واحد نحو: إن زيدا ذاهب وعمرا جالس. وعلى معمولات عامل واحد نحو: أعلم زيد بكرا عمرا جالسا. وأبو بكر خالدا سعيدا منطلقا. وعلى منع العطف على معمولات أكثر من عاملين نحو: إن زيدا ضارب أبوه لعمرو وأخاك غلامه بكر، ويمتنع أيضا عند غير الأخفش العطف على معمولي عاملين مختلفين إن لم يكن أحدهما جارًا نحو: كان أكلا طعامك عمرو وتمرك بكر، أو كان جارًا وتأخر عن المرفوع والمنصوب نحو: زيد في الدار وعمرو الحجرة. أو الحجرة عمرو ودخل زيد إلى عمرو وبكر خالد، وإن زيدا في الدار وعمرا الحجرة للفصل بين نائب الجار وهو العاطف وبين المجرور. أو تقدم الجار ولكن لم يلل المخفوض العاطف نحو: في الدار زيد والحجرة عمرو للفصل أيضا. وأما إن تقدم الجار وولى المخفوض العاطف سواء اتصل به نحو: في الدار زيد والحجرة عمرو أو انفصل بـ "لا" نحو: ما كلُّ سوداء تمر ولا بيضاء شحمة. فالحق جوازه؛ لأنه كذا سمع ولأن فيه تعادل المتعاطفات ومنعه سيبويه وحقته: أن العاطف حرف ضعيف لا ينوب عن عاملين أي لأن العاطف نائب عن العامل وعامل واحد لا يعمل جرا ونصبا. وحجة المجوز ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبْتَلِيهِ مِنَ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ<sup>(1)</sup> على قراءة الأخوين بنصب آية الثانية والثالثة. وحقته أيضا قوله:

هَوْنٌ عَلَيْكَ فَإِنَّ الْأُمُورَ رَكَفٌ الْآلِهَ مَقَادِيرُهَا  
فَلَيْسَ بِأَتَيْكَ مِنْهُنَّ وَلَا قَاصِرٌ عَنْكَ مَأْمُورُهَا<sup>(2)</sup>

ثم قال: (وَالظَّاهِرُ) صلاحه وفساده (تَبَعٌ لـ) صلاح (الْبَاطِنِ) وفساده، فإذا صلح المتبوع صلح التابع لأن الباطن أصل والظاهر فرع. لأن القلب ملك والجوارح جنوده.

(1) الجاثية: (4).

(2) البيتان للأعور الشني. انظر ديوانه.

وشأن الرعية طاعة الملك في الأمر والنهي. ولا شك أن الرعية تصلح بصلاح الملك وتفسد بفساده، فالقلب خزانة كل جوهر للعبد نفيس، كالعقل والمعرفة التي هي سبب السعادة، والبصيرة والنية الخالصة وأنواع العلوم والحكم وسائر الأخلاق الشريفة. والقلب هو العالم بالله والعامل له، والساعي إليه، والمتقرب إليه، والمكاشف بما عند الله، والجوارح أتباع وخدم يستخدمها ويستعملها استعمال المالك للعبيد والراعي للرعية. والقلب أيضا: إنما هو المخاطب والمعائب والمطالب والمعاقب، وهو الذي يسعد بالقرب من الله تعالى ويفلح إذا زكاه، وهو الذي يشقى إذا دَسَّاهُ وَدَسَّاهُ، وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى، وإنما الذي ينتشر على الجوارح من العبادة أنوارُه، وهو العاصي المتمرد على الله، وإنما الذي يظهر على الجوارح من الفواحش آثارُه. وبإظلامه واستنارته تظهر محاسنُ الظاهر ومساويه، إذ كل إناء يرشح بما فيه، وهو مبدأ الحركات البدنية والإرادات النفسانية، فإذا صدرت عنه إرادة صالحة بسلامته من الأمراض الباطنة، أو إرادة فاسدة بعدم سلامته منها كالحسد وغيره؛ تحرك البدن بتلك الحركة، فهو كالملك والجسد وأعضاؤه كالرعية.

وفي الحديث: «لا يستقيم إيمان عبدٍ حتى يستقيم قلبه<sup>(1)</sup>» رواه أحمد (2).

وإذا كان القلب هكذا فاصرف عنايتك إلى إصلاح قلبك تصلح الأعضاء الظاهرة. ولهذا كان إصلاح القلب أشدَّ على أهل الاجتهاد والاهتمام بأمره.

(1) رواه أحمد في مسنده بلفظ: «لا يستقيم إيمان عبدٍ حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم لسانه ولا يدخل رجل الجنة لا يأمن جاره بوائقه» وهو رقم: (13071).

(2) هو أحمد محمد بن حنبل، أبو عبد الله، الشيباني الوائلي: إمام المذهب الحنبلي، وأحد الائمة الاربعة. أصله من مرو، وكان أبوه والي سرخس. وولد ببغداد. فنشأ منكبا على طلب العلم، وسافر في سبيله أسفارا كبيرة إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والفرج والمغرب والجزائر والعراقين وفارس وخراسان والجلال والاطراف. وصنف (المسند - ط) ستة مجلدات، يحتوي على ثلاثين ألف حديث. وله كتب في (التاريخ) و (الناسخ والمنسوخ) و (الرد على الزنادقة فيما ادعت به من متشابه القرآن - ط) و (التفسير) و (فضائل الصحابة) و (المناسك) و (الزهد - خ). وفي أيامه دعا المأمون إلى القول بخلق القرآن ومات قبل أن يناظر ابن حنبل، وتولى المعتصم فسجن ابن حنبل ثمانية وعشرين شهرا لامتناعه عن القول بخلق القرآن، وأطلق سنة 220 هـ ولم يصبه شر في زمن الواثق بالله - بعد المعتصم - ولما توفي الواثق وولي أخوه المتوكل ابن المعتصم أكرم الإمام ابن حنبل وقدمه، ومكث مدة لا يولي أحدا إلا بمشورته، وتوفي الإمام وهو على تقدمه عند المتوكل سنة 241 هـ. انظر صفوة الصفوة: (2/190).

قال أبو يزيد<sup>(1)</sup>: عاجلت قلبي عشرا ونفسي عشرا ولساني عشرا؛ فكان قلبي أصعب الثلاثة.

فائدة: قال المناوي في الدرر الجوهريّة: أولياء الصوفية إنما يعملون على جلاء القلب وتطهيره وتصقيله فقط بخلاف العلماء يعملون في اكتساب العلوم واجتلاها إلى القلب. وقد ذكر أن أهل الصين وأهل الروم تباهوا بين يدي بعض الملوك بحسن صناعة النقش والصور، فأمر الملك بصفيحة ينقش أهل الصين منها جانبا، وأهل الروم منها جانبا ويرخى بينهما حجاب يمنع اطلاع كل فريق على الآخر، ففعل ذلك. فجمع أهل الروم من كل صنيع غريب عجيب ما لا يحصى بحصر، ودخل أهل الصين من غير صنيع وهم يجلون جانبهم ويصقلونه. فلما فرغ أهل الروم ادعى أهل الصين أنهم فرغوا فعجب الملك من قولهم وأنهم كيف فرغوا من النقش بغير صنيع، فقليل: كيف فرغتم من غير صنيع؟ قالوا: ما عليكم ارفعوا الحجاب. فرفعوه فإذا جانبهم قد تألأت فيه عجائب الصنعة الرومية مع زيادة إشراق وبريق ولمعان يكاد يخطف الأبصار، إذ كان جانبهم كالمرآت المجلوة لكثرة التصقيل، فازداد حسن جانبهم بمزيد الصفاء. فكذلك عناية الأولياء بتطهير القلب وجلاته وتزكيتة حيث يتألأ فيه [حلية<sup>(2)</sup>] الحق بنهاية الإشراق. وعناية العلماء والحكماء باكتساب نقش العلوم وتحصيل نقشها في القلب وشتان ما بينهما. انتهى.

تنبيه: فكما أن إصلاح الظاهر تبع لإصلاح الباطن، كذلك أيضا لطهارة الظاهر تأثير في إشراق نور القلب؛ لأن العلاقة ثابتة بين عالم الشهادة وعالم الملكوت. وكما يفيض من معارف القلب آثار على الجوارح فكذلك قد يفيض من طهارة الظاهر أثر على الباطن، وإليه الإشارة بأن الضوء على الضوء نور على نور. وقد عرف بالتجربة أنه إذا غلب اللون والصورة على قلب المحامع والحامل عند تحرك الحمل مال الولد وصورته إلى ذلك

(1) أبو يزيد: هو طيفور بن سروشان كان هو وإخوته إادم وعلي زهادا عبادا أرباب أحوال، وهم من أهل بسطام. ومن كلامه: عملت في المجاهدة 30 سنة فما وجدت شيئا أشد علي من العلم ومتابعت. وقال: عرفت الله بالله، وعرفت ما دون الله بنور الله عز وجل. وكلامه مبسوط في كتب التصوف. توفي 261هـ. انظر طبقات السلمي: (65).

(2) في النسعة "ب" "حلية" وهي التي أثبتنا في النص. وفي الأخرى "حلية" بالجيم.



اللون وتلك الصورة. ونظيره فيضان النور بواسطة المرآت المحاذية للشمس على بعض الأجسام المحاذية للمرآت. وإلى قريب من هذا يرجع يقين الشفاعة. قاله في الإحياء<sup>(1)</sup>.  
(فَالْمُخِلِّ بِالْأَوَّلِ) الذي هو الأعمال الظاهرة المعرض عنها التارك لها (هَالِكٌ فِي الدُّنْيَا بِحُكْمِ الْعُلَمَاءِ) فقهاء الدنيا بسيف سلاطين الدنيا (وَالْمُخِلِّ بِالثَّانِي) الذي هو النظر في أحوال القلب والتفقد لها المعرض عنها هالك (فِي الْآخِرَةِ بِحُكْمِ) علماء الآخرة بسطوة (مَلِكِ الْمُلُوكِ) جل جلاله، فإذا تعذر هذا فاصرف عنايتك إلى تفقد أحوال قلبك كل لحظة ومجاهدة نفسك في كل نفس. وليكن اهتمامك بعلم التصوف أشد من اهتمامك بعلم الفقه. هذا بعد تحصيلك قدر الكفاية من الفقه.

قال ابن عباد<sup>(2)</sup>: وعلى كل واحد من العالم والمتعلم أن يشتغل بما هو أهم مما هو مأمور به ومستول عنه من مراقبة ربه وإصلاح نفسه وقلبه، فله في ذلك شغل شاغل عما يفرق همه وينسيه ذكر ربه.

قال ابن وهب<sup>(3)</sup>: ذكر طلب العلم عند مالك فقال: إن طلبه لَحَسَنٌ إذا صحت فيه النية، ولكن انظر إلى ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي، ومن حين تمسي إلى حين تصبح، فلا تؤثرن عليه شيئا.

وكان الثوري يقول لأهل العلم الظاهر: طلب هذا ليس من زاد الآخرة. وكان يقول: ليس طلب الحديث من عُدَّة الموت لكنه علة يتشاغل بها الرجال. وكان يقول: لولا أن للشيطان فيه نصيبا ما ازدحمتم عليه — أي العلم —.

قال الغزالي في الإحياء: لو سئل فقيه زماننا عن معنى من هذه المعاني حتى عن الإخلاص مثلا أو عن التوكل أو عن وجه الاحتراز عن الرياء لتوقف فيه مع أنه فرض عينه الذي في إهماله هلاكه في الآخرة. ولو سأله عن اللعان والظهار والسبق والرمي لسرد عليك

(1) هذا الكلام لم أجد في إحياء علوم الدين.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) تقدمت ترجمته.

مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها، وإن احتيج لم يخل البلد عمن يقوم بها ويكفيه مؤنة التعب فيها، فلا يزال يتعب فيها ليلاً ونهاراً، وفي حفظه ودرسه يغفل عما هو مهم في نفسه في الدين، وإذا روجع فيه قال: اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض الكفاية ويلبس على نفسه وعلى غيره في تعلمه، والفطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر في فرض الكفاية لقدم عليه فرض العين، بل قدم عليه كثيراً من فروض الكفايات فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ثم لا نرى أحداً يشتغل به ويتهاثرون على علم الفقه لا سيما الخلافات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة وإهمال ما لا قائم به هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تولي الأوقاف والوصايا وحياسة مال الأيتام، وتقلد القضاء ومناصب الحكومة، والتقدم به على الأقران، والتسلط به على الأعداء، هيئات هيئات قد اندرس علم الدين بتليبس العلماء السوء، فالله تعالى المستعان، وإليه الملاذ في أن يعيذنا من هذا الغرور الذي يُسخط الرحمن ويُضحك الشيطان<sup>(1)</sup>.

وقد كان الفقهاء الذين هم زعماء الفقه وقادة الخلق؛ كالأئمة الأربعة والثوري وغيرهم؛ كل واحد منهم عالم بعلوم الآخرة وعابدٌ وزاهدٌ وفقيةٌ في مصالح الخلق في الدنيا، ومريد بفقهه وجه الله تعالى. فهذه خمس خصال اتبعهم فقهاء العصر فيها على خصلة واحدة وهي: التشمير والمبالغة في تفاريع الفقه. شمروا لها وأدعوا بها مشاهدة أولئك الأئمة. وهيئات فلا يقاس الأئمة بالحدادين. وظلموهم بانتحال مذاهبهم فإنهم من أشد خصمائهم يوم القيامة. فإنهم ما قصدوا بالعلم إلا وجه الله الكريم فإنهم ما كانوا متجردين لعلم الفقه بل كانوا مشغولين بعلم القلوب. أيها الولد أي منفعة تحصل من تحصيل علم الكلام والخلاف والطب والنجوم ودواوين الشعر والعروض والنحو

(1) انظر الإحياء: (22/1).

والصرف وديوان المتنبي والحماسة وأمثالها غير تضييع العمر بحق جلال ذي الجلال. أيها الولد العلم الذي لا يمنعك عن المعصية لا يمنعك غدا من النار. ومع هذا فلا ينبغي له أن ينظر بعين الحقارة إلى سائر العلوم أعني علوم الفتاوى وعلم النحو واللغة وعلم القراءة ومخارج الحروف وعلم التفسير وعلم أصول الفقه والعلم بالرجال وأساميهم وأسامي الصحابة، والعلم بالعدالة في الرواية وغير ذلك. فهذه كلها من فروض الكفاية.

ولا تفهم من غلونا في الثناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم فملتكفلون بالعلوم كملتكفلين بالثغور، والمرابطين بها، والغزاة المجاهدين في سبيل الله. فمنهم المقاتل، ومنهم الرّذء، ومنهم ساقى الماء، ومنهم الذي يحفظ دوائهم ويتعهدهم، ولا ينفك أحد منهم عن أجر إذا كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم، فذلك العلماء قال الله تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾<sup>(1)</sup>، وقال تعالى: ﴿هم درجات عند الله﴾<sup>(2)</sup>، وكذلك من يجتهد في العلوم. والفضيلة نسبية، واستحقاقنا للصيافة عند قياسهم بالملوك لا يدل على حقارتهم إذا قيسوا بالكناسين فلا تظن أن ما نزل عن الرتبة القصوى ساقط القدر؛ بل الرتبة العليا للأنبياء، ثم الأولياء، ثم العلماء الراسخين في العلم، ثم للصالحين على تفاوت درجاتهم. وبالجمللة: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ ومن قصد الله تعالى بالعلم -أي علم كان- نفعه ورفع له محالة. اهـ كلام الغزالي باختصار<sup>(3)</sup>.

وقال زروق: ويتعين قصد الأفضل بالفروع الفقهية، وإلا كانت وبالاً على صاحبها. ولإسراع، المفاصد للقصد فيها: مَنَعَ المشايخُ اشتغال المرید بها. وحذروا من الإكثار منها لأنها تشعب الذهن وتشغله، لكن ذو الحقيقة لا تزيده إلا كمالاته، فلزم الاعتناء بها مع تصحيح النية، والتأدب في المقايضة وإعطاء كل ذي حق حقه.

(1) المجادلة (11)

(2) آل عمران (163).

(3) انظر إحياء علوم الدين: (23/1).

وقال السنوسي<sup>(1)</sup>: إياك أن تستغرق أوقاتك بالتدريس لأن ذلك يقسي القلب.

وقال الملاي<sup>(2)</sup>: وليس للفقير حاجة إلا قدر ما يعرفه كافة الناس وهو أمر قريب بين.

وقال الغزالي: لا شك أنك سمعت من الصوفية أنهم يقولون: "العلم حجاب" لهذا الطريق فلا تنكر ذلك فإنه حق. فإن المحسوسات وكل علم حصل من طريق المحسوسات إذا اشتغلت به واستغرقت فيه كان حجاباً من هذا الوجه. ومثل القلب في ذلك حوض الماء الصافي من قعر الحوض فتريد أن تخرج الماء الذي في الحوض كله، والطين الأسود الذي من أثر الماء الخارج تخرجه أيضاً، وتسد طريق الأنهار كلها حتى لا يأتي إليها شيء من الماء الخارج ويحفر قعر الحوض حتى يظهر الماء الصافي في باطن الحوض، فما دام الحوض مشغولاً بالماء الذي حصل فيه من خارج فلا يمكن أن يظهر من باطنه ماء. كذلك هذا العلم لا يحصل من باطن القلب ولا يظهر حتى يخلو من جميع ما حصل فيه من خارج باطنه. انتهى<sup>(3)</sup>.

قال المناوي: العلم النافع ما يورث الخشية والتواضع دون الكبر والأمن. أما ما وراء ذلك كعلم الطب، والحساب، واللغة، والنحو، والشعر، وفصل الخصومات، وطرق المجادلات، فإذا تجرد الإنسان لها حتى امتلأ بها امتلاً بها كبراً ونفاقاً. فهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوماً، بل العلم معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة... إلخ. انتهى.

---

(1) هو محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي الحسني، من جهة الام، أبو عبد الله: عالم تلمسان في عصره، وصالحها. له تصانيف كثيرة، منها (شرح صحيح البخاري) لم يكمله، و (شرح مقدمات الجبر والمقابلة لابن الهيثم) و (شرح جمل الخونجي) في المنطق، و (تفسير سورة ص وما بعدها من السور) و (عقيدة أهل التوحيد - ط) ويسمى العقيدة الكبرى، و (أم الراهين - ط) ويسمى العقيدة الصغرى، و (شرح كلمتي الشهادة - خ). توفي 895هـ. انظر تعريف الخلف: (176/1).

(2) هو محمد بن إبراهيم بن عمر بن علي، أبو عبد الله الملاي: فاضل نسبته إلى بني ملال بالمغرب. كان من تلاميذ محمد ابن يوسف السنوسي التلمساني (المتوفى سنة 895) وصنف في مناقبه "المواهب القدوسية في المناقب السنوسية - خ" بالرباط، وله "شرح صغرى السنوسي - خ"، توفي 898هـ، انظر الاعلام: (801/5).

(3) لم أجد هذا الكلام في الإحياء، ولعله موجود في بعض كتبه الكثيرة.

وذكروا فقيها عند بعض علماء عصره وأثنوا وبالغوا فقال: دعونا من ذكر أهل الطرد، فقالوا: كيف وهو من علماء الإسلام؟ قال: ليس له من العلم إلا الاسم؛ هل رأيتم مُجِبًّا يثقل عليه تكرار اسم محبوبه ويضيق صدره إذا أُمرَ بذلك؟ قالوا: لا، فهؤلاء أشق ما على أحدهم أن يقال له: اترك درسك في النحو واللغة أو الصرف، أو المسائل التي لا تقع إلا نادرا ولا يعرف لها دليل واضح من السنة، ويقال له: تذكر الله ساعة وقد قال تعالى: "أنا جليس من ذكرني". وكل من لم يقدر على مجالسته مع ربه فهو مطرود عن حضرته، فقالوا: يا سيدي اشتغالهم بالعلم خير في الجملة؟ قال: صحيح، لكن كلامنا في أهل حضرة الله لا في أهل حضرة أحكامه. وفرق بين من مشهوده أحكام الحق وبين من مشهوده صفاته وأسمائه واضح. فإن أحدهم يموت وهو مع أصحاب الأحكام من الخلق لا يشهد الحق إلا عند موته، بخلاف من يشتغل باسم الذات فلا يزال يذكر حتى يجتمع بصاحب الاسم إذ الاسم لا يفارق المسمى.

وقد طلب الإمام الرازي<sup>(1)</sup> الطريق، فقال له النجم الطبري<sup>(2)</sup>: لا تطيق مفارقة أصنامك الذين هم علومك، فقال: لا بد، فأدخله الخلوة وسَلَبَهُ كُلَّ ما مَعَهُ من العلوم، فصاح في الخلوة بأعلى صوته: لا أطيق هذا، فأعجبه وقال: أعجبي صدقك وعدم نفاقك لكن صرت من معارفنا فاعلم ذلك وأنت أعلم بنيتك والسلام.

(1) هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازي: الامام المفسر. أوجد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الاوائل. وهو قرشي النسب. أصله من طبرستان، ومولده في الري وإليها نسبته، ويقال له (ابن خطيب الري) رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان، وتوفي في هراة. أقبل الناس على كتبه في حياته يتدارسوها. وكان يحسن الفارسية. من تصانيفه (مفاتيح الغيب - ط) ثماني مجلدات في تفسير القرآن الكريم، و (لوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى والصفات - ط) و (معالم أصول الدين - ط) و (عصل أفكار المتقدمين والتأخرين من العلماء والحكماء والتكلمين) وغيرها. توفي 606 هـ. انظر وفيات الأعيان: (474/1).

(2) هو محمد بن محمد بن أحمد بن الرضى إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الولوي أبو عبد الله بن أبي اليمن الطبري المكي وأمه ثم كلثوم ابنة الجمال محمد بن أحمد ابن إبراهيم بن الروهان الطبري. سمع من أبيه وعمه وابن صديق وغيرهم وناب في الإمامة عن أبيه حيناً. انظر الضوء الملامع: (260/4).

## الفقه والتصوف متلازمان

ولما كان الفقه والتصوف متلازمين لأنه لا تصوف إلا بتفقه، إذ لا تعرف الأحكام الظاهرة إلا به. ولا فقه إلا بتصوف إذ لا عبرة بفقه وعمل لا يصحبه صدق التوجه ولا هما إلا بإيمان، إذ لا يصحان دونه، أشار إلى ذلك بقوله: (فَلَزِمَ جَمْعُهُمَا) لتلازمهما في الحكم. ولذا قيل: من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق. وبحسب هذا فلا وجود للتصوف دون أخويه من الفقه والأصول، ولا عبرة بوجودهما دونه، إذ حقيقتهما إنما تظهر فيه، وحقيقته إنما تظهر فيهما. كما قاله زروق<sup>(1)</sup>.

فمن عامل الحق بالحقيقة والخلق بالشرعية فهو صوفي، ومن عاملهما بالشرعية فهو سني، ومن عاملهما بالحقيقة فهو زنديق. كما قاله ابن الجلاء<sup>(2)</sup>.

فالصوفي أحص من السني لا أنه مُعَايِرٌ له، فوصف السني تَبَرُّاً من البدعة، ووصف الصوفي نسبة إلى الكمال؛ لأن السنة شرط فيه علماً وعملاً وإلا كان زندقة.

زروق: ومثال الزنديق: الجبري الذي يريد إبطال الحكمة والأحكام. ومثال السني: ما وقع في حديث الثلاثة الذين أَسَدَّ عليهم الغار، فسأل الله كل واحد بأفضل أعماله كما صح، وعضدته ظواهر الأدلة ترغيباً وترهيباً. ومثال الصوفي: ما في حديث الرجل الذي استلف من رجل ألف دينار فقال: أبغني شاهداً. فقال: كفى بالله شهيداً، فقال: أبلغني كفيلاً، فقال: كفى بالله كفيلاً. فَرَضِي. ثم لما حضر الأجل، خرج يلتمس مركباً فلم يجده، فنقر خشبة، وجعل فيها الألف دينار، ورقة تقتضي الحكاية، وبذلها للذي رضي به وهو الله سبحانه فوصلت. ثم جاءه بألف أخرى وفاءً بحق الشريعة<sup>(3)</sup>. انتهى<sup>(4)</sup>.

(1) انظر قواعد التصوف ص(8). القاعدة رقم: (4).

(2) هو أحمد بن يحيى أبو عبد الله ابن الجلاء، أحد مشايخ الصوفية الكبار صاحب أباه وذا النون وجماعة كباراً؛ استوفى ابن عساكر ترجمته. توفي سنة ست وثلاثمائة. انظر الوافي بالوفيات: (104/3). وكلامه ينظر في زروق: (27 القاعدة 32).

(3) أخرجه البعاري في صحيحه رقم: (2291). ونقله زروق بالمعنى.

(4) انظر قواعد التصوف ص(28). القاعدة رقم: (33).

فلا بد من الجمع بين الحقيقة والشرعية، ولا يستغنى بإحدهما عن الأخرى بل هما شيء واحد على التحقيق.

قال القشيري: كل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فأمرها غير مقبول، وكل حقيقة غير مقيدة بالشرعية فأمرها غير محمول<sup>(1)</sup>.

وقال سيدي زروق: كل باطن تجرد عن الشريعة باطل، وجيده من الحقيقة عاطل.

وقال سيدي أبو بكر الدقاق<sup>(2)</sup>: هتف بي هاتف: كل حقيقة لا تتبّع الشريعة كفرًا.

وقال ابن عباد: كل باطن من العلم يخالف ظاهرًا من الحكم فهو مردود، والجمع بين الحقيقة والشرعية يجري في الأمور التكليفية وفي الثواب والعقاب وفي الأسباب مثلاً.

أما الأولى فمتى كلف العبد بحكم شرعي فإنه مطلوب بفعله وذلك هو الشريعة، ومطلوب بنسبة التأثير فيه إلى الله تعالى وذلك هو الحقيقة. فإن أهمل واعتلّ بأنه لا قدرة له فقد ضيع الشريعة، وإن ادّعى لنفسه حولا في ذلك أو قوة فقد ضيع الحقيقة، وإن أقام بالامتنال وتبرأ من الحول والقوة فقد جمع بينهما. وأما الثواب والعقاب فإن الله تعالى تفضل بالإثابة مثلاً على الأعمال، فمن لم يعتبر ذلك وأسقطه رأساً فقد ضيع الشريعة؛ لأنها جاءت به، ومن أوجبه على الله - تعالى عن ذلك علواً كبيراً - فقد ضيع الحقيقة. وأما الأسباب مثلاً فمن لم يجعل لها اعتباراً أصلاً، وأبطلها رأساً فقد ضيع الشريعة؛ لأن الشرع أذن فيها. ومن نسب إليها أثراً فيما يقع من المنافع عندها فقد ضيع الحقيقة؛ لأن التأثير كله لله تعالى. قاله سيدي الحسن اليوسي<sup>(3)</sup>.

تنبيه: ما قدمناه من تقلب الفقه على التصوف إنما هو قدر الكفاية منه، وأما بعد تحصيل قدر الكفاية من الفقه وهو فرض العين الذي لا بد منه فليكن الاهتمام بعلم التصوف

(1) انظر الرسالة القشيرية: (82).

(2) هو أبو بكر نصر بن أحمد الدقاق الكبير رضي الله عنه، كان من أقران الجنيد ومن كبار مشايخ مصر. انظر طبقات الشمراني: (89/1) ولم يذكر تاريخ وفاته.

(3) هو الحسن بن مسعود بن محمد أبو علي اليوسي، فقيه مالكي أديب ينعت بغزالي مذهبه، تعلم بالزاوية الدلائية، تنقل في الأمصار المغربية والأندلسية وأخذ عن علمائها، وسيرته لا تسعها الهوامش. انظر شجرة النور الزكية: (328).

أشد من الاهتمام بعلم الفقه حتى يصلح قلبه لتكون أفعاله بعد ذلك صالحة مقبولة لأن إصلاح الظاهر تبع لإصلاح الباطن، فلا منافاة بين تقدم الفقه وبين كون الظاهر تبعاً للباطن، والله أعلم. فافهم!

## العلم والعبادة هما سببا السعادة

(وَأَعْلَمَ) أيضا (أَنَّ الْعِلْمَ وَالْعِبَادَةَ) قال سيدي زروق: العبادة: إقامة ما طلب شرعا من الأعمال الخارجة عن العادة والداخلية؛ سواء كان رخصة أو عزيمة، إذ أمر الله فيهما واحد. فليس الوضوء بأولى من التيمم في محله، ولا الصوم بأولى من الإفطار في محله، ولا الإكمال بأولى من القصر في موضعه. وعليه يتزل حديث: «إن الله يحب أن تؤتى رخصته كما يكره أن تترك عزائمه<sup>(1)</sup>». لا على الرخصة المختلف في حكمها، إذ الورع مطلوب في كل مشكوك الحكم، بخلاف المحقق، فإن تركه تنقطع، وعلى هذا الأخير يتزل كلام القوم في ذم الرخص، والتأويلات. اهـ<sup>(2)</sup>. (هُمَا سَبَبَا السَّعَادَةِ) وإذا كانا بهذه المترلة من الخير فلا تشتغل عنهما بما يفارقه قبل الموت، فكل شيء يفارقه بالموت إلا العلم والعمل به، فإن الموت لا يهدم محل العلم أصلا.

قال الإمام السبكي<sup>(3)</sup>: مجامع السعادة سبعة أشياء: الدين والعقل والعلم والأدب وحسن السمات والتودد للناس ورفع الكلفة عنهم.

(1) أخرجه الطبراني في الكبير (153/8 ، رقم 7661) . وأخرجه أيضا : في الأوسط (155/5 ، رقم 4927) . قال الميمني (163/3) : فيه عبد الله بن يزيد ضعفه أحمد وغيره.

(2) انظر قواعد التصوف ص(69). القاعدة رقم 90.

(3) هو أبو الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي الأنصاري الخزرجي شيخ الإسلام في عصره الحافظ المفسر الأصولي، النحوي اللغوي المقرئ، البياني الجدلي المجتهد، ولد بسبك سنة: 683هـ، وقدم القاهرة وأخذ العلم عن مشاهير علمائها كالتقي الصائغ والعلم العراقي وشرف الدين الدمياطي وأبي حيان، وصحب في التصوف ابن عطاء الله وأجاز له الرشيد بن أبي القاسم وغيره، وخرج به خلق كثير منهم: الأسنوي وأبو البقاء وابن النقيب، من مؤلفاته: تفسير القرآن- الابتهاج في شرح المنهاج- كتب مشهورة في النحو. توفي سنة: 756هـ (طبقات المفسرين للداودي ج 1 ص: 416، طبقات المفسرين للسيوطي: 257، شذرات الذهب ج 6 ص: 180).



قال المناوي: الدنيا باطن الآخرة، فإذا أقيم العبد فيها في مقام خير أو شر علم منه مقامه في الآخرة كما يدل له حديث: «أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة» فلا تحصد في الآخرة إلا ما تزرعه هنا ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾<sup>(1)</sup>.

وفي الحديث: «من أحب — وفي رواية: من أراد، وفي أخرى: من سره — أن يعلم منزلته عند الله فليُنظر ما لله عنده<sup>(2)</sup>». انتهى.

وقال الغزالي: ارتباط سعادة الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الأسباب كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية، وارتباط حصول فقه النفس الذي به تستحق المناصب العلية في الدنيا بترك الكسل، والمواظبة على تفقيه النفس. إلى أن قال: فطلب السعادة بالطاعات كطلب العلم بالجد والتكرار، وطلب المال بالتجارة وركوب البحار، وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الأعمال، كطلب الكنوز في المواضع الخربة، وطلب العلوم من تعليم الملائكة. وليت من اجتهد تعلم، وليت من أئجر استغنى، وليت من صام وصلى غفر له، فالتاس كلهم محرومون إلا العاملون، والعالمون كلهم محرومون إلا العاملون، والعالمون كلهم محرومون إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم. وكما أن من خرب بيته وضع ماله وترك نفسه وعياله جياعا يزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كثرًا يجده تحت الأرض في بيته الخرب، يعدُّ عند ذوى البصائر من الحمقى والمغرورين، وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله. فكذلك من ينتظر المغفرة والسعادة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة ومصر على الذنوب من غير سلوك طريق المغفرة والسعادة معدود عند أرباب القلوب من المعتوهين<sup>(3)</sup>.

(1) النجم: (39).

(2) أخرجه عبد بن حميد (ص 333 ، رقم 1107) ، والحكيم (2/126) ، والحاكم (1/671 رقم 1820) وقال : صحيح الإسناد.

(3) انظر إحياء علوم الدين للغزالي ومعه تخريج الحافظ: (5/353).

## الاجتهاد في أعمال العبادة وروايات بعض الصالحين في ذلك

فإذا كان العلم والعمل بهذه الميزة من الخير من كونهما سبباً في السعادة، والسعادة هي المطلوبة لذاتها رزقنا الله إياها بمنه (فَاجْتَهِدْ) في الإكثار (فِي فِعْلِهِمَا) أي العلم والعمل. قالوا: من ظن أنه بغير بذل الجهد في الطاعات يبلغ شيئاً من الدرجات، فقد رام المحال. وقالوا: لا تخرق للعبد العادات، إلا إن زاد على الناس في الطاعات، في العبادات.

فقد كان داود الطائي<sup>(1)</sup> يواصل العبادة ليلاً ونهاراً حتى أنه لم يبق له وقت يأكل فيه ولا يشرب، وكان يأكل السويق والفيت دون الخبز، ويقول: بين مضغ اللقمة وبلعها قراءة خمسين آية. وقال له رجل: إن في سقف بيتك جذعاً مكسوراً، فقال: يا ابن أخي إن لي في البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف.

وقد بلغ صفوان بن سليم<sup>(2)</sup> من الاجتهاد ما لو قيل له: إن القيامة تقوم غداً ما وجد مستزاداً.

وكانت رابعة العدوية<sup>(3)</sup> إذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها ثم تقبل على صلاحها إلى الفجر ثم تقول: اللهم اغفر لي سوء أدبي في صلاتي. وقيل: إن عامر بن عبد قيس<sup>(1)</sup> كان يقول: والله لأجتهدن، فإن نجوت فبرحمة الله، وإن هلك فبعد جهد.

(1) هو داود بن نصير الطائي، أبو سليمان: من أئمة المتصوفين. كان في أيام المهدي العباسي. أصله من خراسان، ومولده بالكوفة. رحل إلى بغداد، فأخذ عن أبي حنيفة وغيره، وعاد إلى الكوفة، فاعتزل الناس، ولزم العبادة إلى أن مات فيها. قال أحد معاصريه: لو كان داود في الأمم الماضية لقص الله تعالى شيئاً من خبره. وله أخبار مع أمراء عصره وعلمائه. انظر وفيات الأعيان: (177/1).

(2) صفوان بن سليم، أبو الحارث، ويقال أبو عبد الله، المدني الفقيه، مولى حميد بن عبد الرحمن بن عوف؛ روى عن ابن عمر وجابر وأنس وعبد الله بن جعفر وأبي أمامة بن سهل بن حنيف وابن المسيب وسالم وعروة وسليمان وغيرهم، وروى عنه ابن المنكدر وزيد بن أسلم وموسى بن عقبة ومالك والثوري وابن عيينة وغيرهم. وكان ثقة كثير الحديث، توفي سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

(3) هي رابعة بنت إسماعيل العدوية، أم الخير، مولاة آل عتيك، البصرية: صالحة مشهورة، من أهل البصرة، ومولدها بها. لها أخبار في العبادة والنسك، ولها شعر: من كلامها: (اكتموا حسناتكم كما تكتُمون سيئاتكم) توفيت بالقدس، قال ابن خلكان: (وقبرها بزار، وهو بظاهر القدس من شرقه، على رأس جبل يسمى الطور) وقال: (وفاتها سنة 135 كما في شذور العقود لابن الجوزي، وقال غيره سنة 185). انظر وفيات الأعيان: (182/1).

وكان مسروق<sup>(2)</sup> يصلي حتى انتفخت قدماه .

وكان أبو مسلم الخولاني<sup>(3)</sup> قد علق سوطا في مسجد بيته يخوف به نفسه، وكان يقول لنفسه: قومي فوالله لأزجفن بك زحفا حتى يكون الكل منك لأمني فإذا دخلته الفترة تناول سوطه وضرب به ساقيه ويقول لنفسه: أنت أحق بالضرب من دابتي. وكان يقول: أئظن أصحاب محمد أنهم فازوا به دوننا، فوالله لتراحمهم عليه في القيامة حتى يعلموا أنهم خلفوا وراءهم رجالا. قال الملاي: اللهم ارض عنه ما كان أحسنه.

وكان ضيفم<sup>(4)</sup> قد تعبد قائما حتى أقعد، ومُقعدًا حتى استلقى، ومستلقيا حتى أفحم، ومات وهو ساجد. وكان يقول في دعائه: اللهم إني أحب لقاءك فأحجب لقائي. وانصرف يوما سليمان بن القاسم<sup>(5)</sup> من صلاة العيد إلى المسجد وأحرم فيه فلما سجد فيه قال: يا رب إن الناس غدوا على زينتهم ولذاتهم، وجئت أنا إليك أسألك فكأك رقبتي من النار. فلم يزل ساجدا إلى الظهر.

ووعظ بعضهم يوما فقال: يا معشر الشيوخ الزرع إذا طاب ما يُصنع به؟ فقالوا: يُحصد. فقال: يا معشر الشباب كم من زرع لم يبلغ، وأدركته الآفة.

---

(1) هو عامر بن عبد قيس بن قيس ويقال عامر بن عبد قيس بن ناشب بن أسامة بن حذيفة بن معاوية التميمي البصري أبو عبد الله أو أبو عمرو البصري الزاهد المشهور. يقال أدرك الجاهلية حكاة أبو موسى في الذيل. وروى البخاري في تاريخه من طريق أبي كعب قال كان الحسن وابن سيرين يكرهان أن يقولوا عامر بن عبد قيس ويقولان عامر بن عبد الله. انظر الإصابة: (356/2).

(2) هو مسروق بن الاعدع بن مالك الهمداني الوداعي، أبو عائشة: تابعي ثقة، من أهل اليمن. قدم المدينة في أيام أبي بكر. وسكن الكوفة. وشهد حروب علي. وكان أعلم بالفتيا من شريح، وشريح أبصر منه بالقضاء. انظر الإصابة: الترجمة (8408).

(3) هو عبد الله بن ثوب (بضم ففتح) الخولاني: تابعي، فقيه عابد زاهد، نعمة الذهبي برحمة الشام. أصله من اليمن. أدرك الجاهلية، وأسلم قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره، فقدم المدينة في خلافة أبي بكر، وهاجر إلى الشام، وفي أكثر المصادر: وفاته بدمشق، وقره بداريا. وكان يقال: أبو مسلم حكيم هذه الأمة. انظر فوات الوفيات: (209/1).

(4) هو ضيفم بن مالك الزاهد العابد، أبو بكر الراصي البصري؛ اخذ عن التابعين، وتوفي سنة إحدى وثمانين ومائة للهجرة، وروى عنه ابنه أبو غسان مالك وسائر بن حاتم وأبو أيوب مولى ضيفم بن مالك؛ قال عبد الرحمن بن مهدي: ما رأيت عينا مثل ضيفم. انظر الفواتي بالوفيات: (262/5).

(5) له سليمان التيمي صلى الغداة بوضوء العتمة أربعين سنة، وكان يمشي حافيا وله هبة على السوق وغوهم ويدخل على الأمراء بأمرهم وينهاهم رضي الله عنه. انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (37/1).

وقيل لمسروق: متى يؤخذ الرجل بعلمه؟ فقال: إذا أتت عليه أربعون سنة، قال الله تعالى: ﴿أَو لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُتَذَكَّر فِيهِ مِنْ تَذَكَّرٍ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ وهو الشيب عن بعض المفسرين. فينبغي لمن بلغ هذه المدة أن يشمر في طاعة الله.

وزار الربيع أويس القرني<sup>(1)</sup> فوجده يصلي فقال في نفسه: لا أقطع عليه أتركه حتى يفرغ من صلاته. فبقي ينتظر حتى أذن للظهر، فصلى الظهر وبقي يتنفل حتى أذن للعصر، فصلى العصر ثم قعد يذكر حتى أذن للمغرب، فصلى المغرب ثم بقي يتنفل حتى أذن للعشاء، فصلى العشاء وبقي يتنفل حتى طلع الفجر فصلى الصبح ثم قعد يذكر حتى كان وقت الضحى الأول، فقام يصلي ثم قعد يذكر. والزائر في ذلك كله يقول في نفسه: لا أقطع عليه حتى يفرغ. فلما قعد يذكر الله وهو ينتظر الضحى الأعلى نعس وهو قاعد، ثم مسح النوم عن عينيه فقال: أعوذ بالله من عين لا تشبع من النوم. فقال الزائر في نفسه: لا يحل لي الكلام مع مثل هذا وتركه وانصرف.

وكان منصور بن عمار<sup>(2)</sup> جارية لها ابنة صغيرة تصعد بها كل ليلة بعد العتمة إلى سطح لها وتزها سحرا، وكانت تنظر إلى منصور وهو قائم يصلي. فلما مات وصعدت المرأة وابنتها قالت: يا أماه ما فعل ذلك الجذع الذي كان على سطح منصور؟ قالت: يا بُنَيَّةُ ما كان جذعا إنما هو المنصور.

وقال عامر بن عبد قيس<sup>(3)</sup>: الدنيا أربعة أجزاء: المال والنساء فهذان لا حاجة لي بهما، والطعام والنوم وأيم الله لأصبرن عنهما ولأجعلن الهمَّ هما واحدا.

(1) هو أويس بن عامر بن جزء بن مالك القرني، من بني قرن بن رومان بن ناجية ابن مراد: أحد النساك العباد المقدمين، من سادات التابعين. أصله من اليمن، يسكن القفار والرمال، وأدرك حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره، فوفد على عمر بن الخطاب ثم سكن الكوفة. وشهد وقعة صفين مع علي، ويرجع الكثيرون أنه قتل فيها توفى 37هـ. انظر طبقات ابن سعد: (111/6).

(2) هو منصور بن عمار الواعظ من أهل مرو، كان من أحسن الواعظين كبير الشأن في الورع والزهد، وكان يقول: سبحان من جعل قلوب العارفين أوعية للذكر وقلوب أهل الدنيا أوعية للطمع وقلوب الفقراء أوعية للقناعة. انظر طبقات الشعرائي: (83/1).

(3) تقدمت ترجمته.

وكان كهمس بن الحسن<sup>(1)</sup> يصلي كل يوم ألف ركعة فلما ضعف اقتصر على نصف ذلك ثم يكي ويقول: ذهب نصف عملي.

وقال ثابت البناني<sup>(2)</sup>: أدركت أقواما كان أحدهم يصلي حتى لا يأتي فراشه إلا حبا.

وقال ابن هلال<sup>(3)</sup>: والله لا يشهد علي ليل بنوم، ولا نهار بأكل أبدا.

وقال جعفر بن محمد<sup>(4)</sup>: كان عتبة الغلام يصيح كل ليلة ثلاث صيحات؛ إذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه مفكرا إلى ثلث الليل فيصيح صيحة، ثم يضع رأسه كذلك إلى ثلثيه فيصيح أخرى، ثم يضع رأسه كذلك إلى السحر فيصيح أخرى. قال بعض الصالحين: والله ما صاح إلا خوفا من النار.

وكانت رابعة<sup>(5)</sup> تصلي في اليوم واللييلة ألف ركعة وتقول: ما أريد بها ثوابا ولكن ليُسَرَّ رسول الله ﷺ ويقول للأنبياء: انظروا إلى امرأة من أمتي هذا عملها في اليوم واللييلة.

وكان كرز بن وبرة<sup>(6)</sup> يختم القرآن في كل ليلة ثلاث مرات ويجاهد نفسه في العبادة غاية فيقال له: هلا رفقت؟ فقال: عمر الدنيا سبعة آلاف سنة ويوم القيامة خمسون ألف سنة، فكيف يعجز أحدكم أن يعمل سُبْعَ يوم حتى يامن ذلك اليوم. يعني أنك لو عشت

(1) هو كهمس بن الحسن التيمي الحنفي البصري العابد، أحد الثقات الأعلام. قال أحمد بن حنبل: ثقة وزيادة. وكان يصلي في اليوم واللييلة ألف ركعة بارأ بأمه. قال يحيى بن كثير البصري: اشترى كهمس دقيقا بدرهم فأكل منه، فلما طال عليه كاله فإذا هو كما وضعه. توفي سنة تسع وأربعين ومائة، وروى له الجماعة. انظر الوافي بالوفيات: (288/7).

(2) هو ثابت البناني بن أسلم أبو محمد البصري. روى عن أنس وعبد الله بن الزبير وأبي هريرة الأسلمي وعمر بن أبي سلمة وغيرهم. وعنه حماد بن زيد وحماد بن سلمة وحديد الطويل وشعبة وكان محدثا من الثقات المأمونين صحيح الحديث. قال أبو حاتم: أثبت أصحاب أنس الزهري ثم ثابت ثم قتادة وكان يقص. مات سنة سبع وعشرين ومائة عن ست وثمانين. انظر الوافي بالوفيات: (8/1).

(3) هو إبراهيم بن هلال بن علي، أبو إسحاق الصنهاجي نسبا الفلالي السحلماسي: فقيه من علماء المالكية. كان مفتي سحلماسة في المغرب الأقصى وعالمها. ووفاته بها. له كتب منها (التوازل - ط) جزآن، رتبته علي بن أحمد الجزولي، و (الدر الثمر على أجوبة أبي الحسن الصغير - ط) و (الأجوبة - ط) فقه، و (شرح البخاري) أربعة أسفار، و (شرح مختصر خليل) انظر الاعلام: (78/1).

(4) تقدمت ترجمته.

(5) هي رابعة العدوية تقدمت ترجمتها.

(6) هو كرز بن وبرة الحارثي، أبو عبد الله: تابعي، من أهل الكوفة، يضرب به المثل في التعمد. دخل جرحان غازيا مع يزيد بن المهلب سنة 98 هـ. ثم سكنها وتوفي بها. انظر الاعلام: (221/5).

عمر الدنيا سبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم كان مقداره خمسين ألف سنة كان ربك  
كثيرا، وكيف وعمرك قصير والآخرة لا غاية لها.  
وقال بعضهم: ما تأسفي على البقاء في الدنيا، ولكن تأسفي على ليلة نمتها ويوم أفطرتني  
وساعة غفلت فيها عن ذكر الله.

وقال الجنيد: لولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا.

وقال بعض الصالحين: لي أربعون سنة ما غمني إلا طلوع الفجر.  
وقيل ليزيد بن هارون<sup>(1)</sup>: كم تصلي بالليل؟ فقال: أو أنام منه شيئا؟ إذا لا أنام الله لي  
عينا أبدا.

وروي عن مطرف بن عبد الله بن الشخير<sup>(2)</sup> أنه قال: لا يراني الله أكلا نهارا ولا نائما  
بالليل أبدا. قيل له: من يطيق هذا؟ قال: لأني جعلت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى  
النهار.

وقيل لعبد الله بن عامر<sup>(3)</sup>: كيف صبرك على سهر الليل وظمأ الهواجر؟ قال: هين لأني  
صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار.

---

(1) هو يزيد بن هارون الواسطي قال أحمد بن سنان: ما رأيت عالما قط أحسن صلاة منه، يقوم كأنه أسطوانة. وكان إذا صلى العشاء  
لا يزال قائما يصلي حتى الغداة نيفا وأربعين سنة، ذهبت إحدى عينيه بالبكاء وعمشت الأخرى. توفي 286هـ. انظر طبقات  
الشعراني: (1/649).

(2) هو مطرف بن عبد الله بن الشخير الحرشي العامري، أبو عبد الله: زاهد من كبار التابعين. له كلمات في الحكمة مأثورة، وأخبار.  
ثقة في ما رواه من الحديث. ولد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم. ثم كانت إقامته ووفاته في البصرة. توفي 87هـ. انظر حلية  
الأولياء: (2/198).

(3) هو عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة الأموي، أبو عبد الرحمن: أمير، فاتح. ولد بمكة. وولي البصرة في أيام عثمان (سنة 29 هـ)  
فوجه جيشا إلى سجستان فافتتحها صلحا، وافتتح الداور، وبلاها من دار البجرد وهاجم مرو الروذ فافتتحها، وبلغ سرخس فانقادت له،  
وفتح أبر شهر عنزة، وطوس وطخارستان ونيسابور وأبيورد وبلغ والطالقان والفارياب. وافتتحت له رساتيق هراة وآمل وبست وكابل.  
كان شجاعا سحيا وصولا لقومه، رحيمًا، عجا للعرمان، اشترى كثيرا من دور البصرة وهدمها فجعلها شارعًا. وهو أول من اتخذ  
المياض يعرف (في المحازر) وأجرى إليها العين، وسقى الناس الماء. توفي 625هـ. انظر الاعلام: (4/94).

وقال محمد بن عبد العزيز: جلسنا إلى أحمد بن رزين من الغدوة إلى العصر فما التفت بمئة ولا يسرة، ف قيل له في ذلك. فقال: إن الله خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمته تعالى. فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة.

وكان ثابت البناني يصلي كل يوم ثلاثمائة ركعة وصام ستين سنة، وكان يقول في دعائه: اللهم إن كنت قد أعطيت أحدا الصلاة في قبره فأعطني ذلك. وذكر بعض أصحابه أنه قال: رأيته في منامي وهو قائم يصلي في قبره.

وروي عن علي بن عبد الله<sup>(1)</sup> أنه يسجد في كل يوم ألف سجدة، وكانوا يسمونه: السجاد.

وقال أويس القرني: والله لأعبدن الله تعالى بعبادة الملائكة نهاره يقطعه صائما وليله يقطعه ساجدا. وكان يقول: هذه ليلة الركوع فيحيي الليلة كلها في ركعة، ويقول: هذه ليلة السجود فيحييها كلها في سجدة.

وقالت امرأة حسان: كان حسان إذا أوى إلى فراشه جعل يخادعني كما تخادع المرأة الصبي. فإذا نمت شد نفسه وقام إلى الصلاة فأقول: يا عبد الله أرفق بنفسك. فيقول: اسكتي ويحك، والله لأرقدن رقدة لا أقوم منها زمنا طويلا.

وكان الربيع بن خثيم<sup>(2)</sup> لا ينام الليل ويكي ليلا ونهارا لا يفتر من البكاء. وكان السري يدافع البكاء أول الليل، فإذا نام الناس أخذ في البكاء إلى الصباح. وكان بشر<sup>(1)</sup> لا ينام الليل ويقول: أخاف أن يأتيني أمره وأنا نائم.

(1) هو علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، أبو محمد: جد الخلفاء العباسيين. من أعيان التابعين. كان كثير العبادة والصلاة فلقب عليه لقب "السجاد" وكان من أجل الناس وأوسمهم، عظيم الهبة، جليل القدر. قيل للوليد بن عبد الملك: إنه يقول بأن الخلافة تنصب إلى أبنائه، فأمر به فضرب بالسياط وأهين. واعتقله هشام بن عبد الملك، في البلقاء فمات معتقلا 118هـ. انظر الوفيات: (323/1).

(2) هو الربيع بن خثيم بضم المعجمة وفتح المثناة، بن عائد بن عبد الله الثوري، أبو يزيد الكوفي. ثقة، عابد، محضرم، قال له ابن مسعود: لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك. توفي سنة 61، أو 63هـ. انظر: تقريب التهذيب ص 146.

وقالت أم سليمان لسليمان ~~عليه السلام~~: يا بني لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تدع الرجل فقيراً يوم القيامة، يا بني من يرد الله به خيراً لا ينام بالليل، لأن من نام ليله ندم نهاره. وأنشدوا:

يَا أَيُّهَا الْغَافِلُ جِدَّ الرَّحِيلِ وَأَنْتَ فِي لَهْوٍ وَزَادَ قَلِيلُ  
لَوْ كُنْتَ تَذَرِي مَا تُلَاقِي غَدًا لَذُبْتَ مِنْ فَرْطِ الْبُكَاءِ وَالْعَوِيلِ  
فَأَخْلَصِ التَّوْبَةَ تُحْظَى بِهَا فَمَا بَقِيَ مِنَ الْعُمْرِ إِلَّا الْقَلِيلُ  
وَلَا تَنْمَ إِنْ كُنْتَ ذَا غِبْطَةٍ فَإِنْ قُدَّامَكَ نَوْمٌ طَوِيلُ  
تنبيه: هذا كله من الإكثار من العمل وبذل غاية الجهد فيه إنما هو للأقوياء.

قال القرافي<sup>(2)</sup>: يكره الإكثار من العبادة على وجه يؤدي إلى الانقطاع لحديث: «إن الله لا يملُ حتى تملوا»<sup>(3)</sup>، وحديث: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ولا تُبَعْضُ لنفسك عبادة الله»<sup>(4)</sup>، وحديث: «إن هذا الدين واصل وإن الحق ثقیل وإن الإنسان ضعيف، فليأخذ أحدكم من العمل ما يطيق، فإن العبد إذا كلف نفسه فوق طاقته خيف عليه أن يترك ذلك كله، وإذا أخذ بالتخفيف والرفق دام على عمله»<sup>(5)</sup>.  
قال ابن أبي الحواري<sup>(6)</sup>: قال لي أبو سليمان الداراني<sup>(1)</sup>: لا أعرف قيام الليل كله، ولكن أقوم أوله وآخره. انتهى.

<sup>(1)</sup> هو بشر بن الحارث بن علي بن عبد الرحمن المروزي، أبو نصر، المعروف بالحائي: من كبار الصالحين. له في الزهد والورع أخبار، وهو من ثقات رجال الحديث، من أهل (مرو) سكن بغداد وتوفي بها. قال المأمون: لم يبق في هذه الكورة أحد يستحي منه غير هذا الشيخ بشر بن الحارث. توفي 227هـ. انظر الوفيات: (90/1).

<sup>(2)</sup> هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الصنهاجي، مصري المولد والمنشأ والوفاة، الإمام الحافظ، أخذ عن ابن الحاجب والعز بن عبد السلام والفاكهاني والمقدسي أبوبكر، وتخرج به جمع من الفضلاء، من مؤلفاته: الذخيرة في فروع المالكية- الفروق- الإحكام في الفرق بين الفتاوى والأحكام. توفي سنة: 684هـ (شجرة النور الزكية: 188، الدياج: 128، درة البحال: 11).

<sup>(3)</sup> أخرجه البخاري في صحيحه بلفظ: «مَنْ، عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ، فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا» رقم (43).

<sup>(4)</sup> أخرجه أحمد في مسنده رقم: (13074).

<sup>(5)</sup> أخرجه أبو نعيم في الحلية: (20/9).

<sup>(6)</sup> هو أبو الحسن أحمد بن أبي الحواريي الدمشقي، صاحب الداراني وسفيان بن عيينة وكان زاهداً من بيت علم وزهد وورع. توفي 230هـ. انظر طبقات الصوفية: (98). وطبقات الشمراني: (82/1).



فينبغي إذا للعبد أن يغتنم الإكثار من العبادة قبل أن تفوته لكن لا على وجه التشديد. قال زروق: التشديد في العبادة منهي<sup>(1)</sup> عنه، كالترأخي عنها. والتوسط: أخذ بالطرفين، فهو أحسن الأمور. وفي الحديث: «أما أنا فأقوم وأنام، وأصوم وأفطر<sup>(2)</sup>». وكان يقوم من الليل نصفه، وثلثه، إلى ثلثيه، وهو الوسط، باعتبار من يأتي على كله، أو لا يقوم منه إلا اليسير. وكذلك رد عبد الله بن عمر للوسط بصيام نصف الدهر وقيام نصف الليل، وختم القرآن في سبع، إلى غير ذلك، فلزم التوسط في كل مكتسب، لأنه أرفق بالنفس وأبقى للعبادة. انتهى بخ<sup>(3)</sup>.

قال ابن عربي<sup>(4)</sup>: لا بد لكل داخل في الطريق من فترة، فإما أن يعقبها رجوع إلى العبادة والاجتهاد وهم أهل العناية الإلهية، وإما أن تصحبه الفترة فلا يفلح أبدا.

## تصفية العمل من آفات والإخلاص فيه

(و) اجتهد أيضا بعد اجتهداك في إكثارهما (في تصفيتهما) من حين ابتدئتهما إلى انتهائهما (من الآفات) المبطللة لهما؛ كالرياء. وبعد تمامهما من السمعة والعجب. وأما إن ابتدأ العمل لغير الله فسد اتفاقا، وإن ابتدأه الله وأحب بقلبه في أثائه أن يحمد عليه. ولم يدفع ذلك بقلبه، فما بعد ذلك يطل اتفاقا، وكذا ما قبله على المشهور. وقيل: يصح. وأما إن أبي ذلك بقلبه ودفعه فلا يطل اتفاقا، لأن مجرد ميل الإنسان إلى أن يُطْلَعَ على عمله ميل طبعي لا يضر. ولو بطل بذلك لكان فيه تكليف ما لا يطاق. وإنما عليه أن يدفعه بقلبه. (وَصَحَّحَهُمَا بِالْإِخْلَاصِ) وهو أفراد المعبود بالعبادة (وَالصِّدْقِ) وهو الإخلاص والغيبة عنه.

(<sup>1</sup>) نقلت ترجمته.

(<sup>2</sup>) أخرجه النسائي في سننه رقم: (2390).

(<sup>3</sup>) انظر قواعد الصوفية: (42) القاعدة: (95).

(<sup>4</sup>) نقلت ترجمته.

قال الزناتي<sup>(1)</sup>: ليس شيء أعز من الإخلاص، فإن كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفوس وتميل إليه القلوب قل أو كثر. والإنسان منغمس في حظوظه وشهواته فلا ينفك عمله من حظوظ أو أغراض عاجلة. ولذلك قيل: من سلم له في عمره خطوة واحدة خالصة لله تعالى فقد نجا. وما ذلك إلا لغزة الإخلاص؛ وهو تخلص العمل عن الشوائب كلها حتى يتجرد فيه قصد التقرب، فلا يكون فيه باعث سواه، وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستغرق الهم للآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار.

قال المناوي في شرح الحكم: خطاب الله تعالى عام في جميع العباد إلا من استثناه الشرع. فالمؤمن يؤمر بالإخلاص الخالي من طلب العوض، والنبى يؤمر بإخلاص يدق عن عقولنا ذوقه لأن النبوة مبدؤها من بعد منتهى الولاية، فلا ذوق لولي في إخلاص نبي، وإن تكلم فيه بحسب الإرث فهو كمن يتكلم على خيال نجوم السماء في البحر. وأقل إخلاصهم ألا يشهدوا في الوجود أمرا لغير الله تعالى ويستصحبونه دائما، وهذا يكاد ألا يكون مقدورا للبشر. انتهى.

وقال بعضهم: الإخلاص قليل من العقاقير التي لا توضع على شيء إلا عاد طيبا بعد ما كان خبيثا، لكن الإخلاص قليل يكاد أن يكون مفقودا بل يخشى عليه أن يكون معدوما.

وقيل: أقل ما أنزل الله من السماء إلى الأرض الإخلاص، وهو سر من أسرار الله تعالى استودعه قلب من سبقت له خصوصية وعناية. فالصدق أصل والإخلاص فرعه. فعلى قدر صدق العبد يكون إخلاصه، فكل عمل لم يمازجه الإخلاص فهو مردود على عامله، بل النار أولى به كما قيل: إن الله تعالى يجمع الأعمال يوم القيامة صافيتها وكدرها وخالصها، فيقول الله تعالى: خذوا ما كان لنا وألقوا سائر ما سوى ذلك في النار، فما

(1) هو أبو عبد الله محمد بن عطية الزناتي الإمام الصوفي الكبير. أخذ عن عدة شيوخ منهم محمد الماللي والقصار وفي الطريق الصوفي علي بن محمد الحارثي وأخذ عنه كثير من الأجلة. توفي 1015 هـ. انظر شجرة النور الزكية: (307).

لقي أحد صعوبة في طلب ضالة أصعب مما لقي العاملون في طلب الإخلاص، ولو كان الإخلاص رجلا ما عرفه أحد إلا صنف قليل من العابدين.

قيل: المخلص: قرع باب الخصوصية، وأقدامه ترقى مدارج العناية، وقدره مرفوع عند الله، وإن رآته الأبصار خفي. فما أكرم الله تعالى عبدا في الدنيا بالإخلاص حتى جعل له جاها في الآخرة. جعلنا الله وإياكم ممن جعل له جاها في الآخرة، وجعل الإخلاص في قلبه وقذف بنور اليقين في صدره وثبته عند السؤال في قبره وبعثه آمنا في حشره. آمين يا رب العالمين.

## تصحيح العمل باتباع السنة

(و) صححهما أيضا (بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ) وهي ما عليه النبي ﷺ والصحابة والسلف الصالح بعدهم لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾<sup>(1)</sup>. ولحديث: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين»<sup>(2)</sup>. وفي الحديث: «التمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجر مائة شهيد»<sup>(3)</sup>.

وقال مالك: كل بناء بُنيَ على أساس معوج لم يستقر بناؤه. ابن رشد<sup>(4)</sup>: فمن قاس على أصل فاسد لم يقدّر قياسه، ومن عمل على غير سنة لم ينفعه عمله. ومن نظر إلى اعتقاد غير صحيح لم ينفعه نظره. فثبت بذلك أن العمل يجب أن يكون معروضا على السنة فما وافقها فهو المطلوب وما خالفها لم يُلتفت إليه، وكان معصية أو قريبا منها غير مقبول. وإن اعتقد قربته وصحت نيته.

وقال سيدي زروق: الأجر على قدر الاتِّباع، لا على قدر المشقة لفضل الإيمان والمعرفة والذكر والتلاوة على ما هو أشق منها بكثير من الحركات الجسمانية. وقوله عليه الصلاة والسلام: «أجرك على قدر نصبك»<sup>(5)</sup> إخبار خاص في خاص لا يلزم عمومه. سيما وما خير في أمرين إلا اختار أيسرهما مع قوله: «أنا أعلمكم بالله وأتقاكم لله

(1) الحشر (7).

(2) أخرجه أحمد 126/4 (17275). وأبو داود (4607).

(3) أخرجه أبو نعيم في "الحلية" (8 / 200) من طريق الطبراني وهذا في "الأوسط" (2 / 31 / 5746).

(4) هو محمد بن أحمد ابن رشد، أبو الوليد: قاضي الجماعة بقرطبة. من أعيان المالكية. وهو جد ابن رشد الفيلسوف. له تأليف، منها "المقدمات الممهدات - ط" في الأحكام الشرعية، و "البيان والتحصيل - خ" فقه، و "مختصر شرح معاني الآثار للطحاوي - خ" و "الفتاوي - خ" و "اختصار المبسوط" و "المسائل - خ" مجموعة من فتاويه، في معهد المخطوطات. مولده ووفاته بقرطبة. توفي 520هـ. انظر قضاة الأندلس: (98).

(5) هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وله شاهد صحيح. انظر المستدرک على الصحيحين للحاكم: رقم (1687).

أنا<sup>(1)</sup>». وكذا جاء: «خير دينكم أيسره<sup>(2)</sup>» إلى غير ذلك، انتهى<sup>(3)</sup>.

وقال الصديق عليه السلام: لست تاركا شيئا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملته، إني أخشى إن تركت شيئا من أمره أن أزيغ.

وقال رجل لابن عمر<sup>(4)</sup>: إنا نجد صلاة الخوف وصلاة السفر في القرآن ولا نجد صلاة الاستسقاء؟ فقال ابن عمر: يا ابن أخي إن الله بعث إلينا محمدا ولا نعلم شيئا فإننا نفعل كما رأيناه يفعل.

وقال أبي بن كعب<sup>(5)</sup>: عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ما على وجه الأرض من عبد على السبيل والسنة ذكر الله ففاضت عيناه من خشية ربه فيعذبه الله أبدا، وما على الأرض من عبد على السبيل والسنة ذكر الله في نفسه فاقشعر جلده من خشية الله إلا كان مثله كمثل شجرة قد يبس ورقها فهي كذلك إذا أصابتها ريح شديدة فتحات عنها ورقها إلا حط الله عنه خطاياهم كما تحات عن الشجرة ورقها، فإن اقتصادا في سبيل الله وسنته خير من اجتهاد في خلاف سبيل الله وسنة<sup>(6)</sup>.

وصلى عمر رضي الله عنه بذى الحليفة ركعتين فقال: أصنع كما رأيت رسول الله ﷺ يصنع.

(1) أخرجه أحمد (122/6). رقم: (24364).

(2) أخرجه ابن عبد البر من حديث أنس بسند ضعيف والشرط الأول عند أحمد من حديث محسن بن الأدرع بإسناد جيد والشرط الثاني عند الطبراني من حديث ابن عمر بسند ضعيف. انظر تخريج أحاديث الإحياء: (رقم 16).

(3) انظر القواعد: (70) القاعدة: 92.

(4) عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي، أبو عبد الرحمن: صحابي، من أعز بيوتات قريش في الجاهلية. كان جريئا جهوري. نشأ في الإسلام، وهاجر إلى المدينة مع أبيه، وشهد فتح مكة. ومولده ووفاته فيها. أفتى الناس في الإسلام ستين سنة. ولما قتل عثمان عرض عليه نفر أن يبايعوه بالخلافة فأبى. وغزا إفريقية مرتين: الأولى مع ابن أبي سرح، والثانية مع معاوية بن حديج سنة 34 هـ وكف بصره في آخر حياته. وهو آخر من توفي بمكة من الصحابة. له في كتب الحديث 2630 حديثا. توفي 73 هـ. انظر الإصابة: (الترجمة 4825).

(5) هو أبي بن كعب بن قيس بن عبيد، من بني النجار، من الخزرج، أبو المنذر: صحابي أنصاري. كان قبل الإسلام حورا من أحبار اليهود، مطلعا على الكتب القديمة، يكتب ويقرأ - على قلة العارفين بالكتابة في عصره - ولما أسلم كان من كتاب الوحي. وشهد بدرًا واحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يفتي على عهده. وشهد مع عمر بن الخطاب وقعة الجابية، وكتب كتاب الصلح لاهل بيت المقدس. وأمره عثمان بجمع القرآن، فاشترك في جمعه. وله في الصحيحين وغيرها 164 حديثا. وفي الحديث: أقرأ أمي أبي بن كعب. توفي 21 هـ. انظر الإصابة: (19/1).

(6) انظر تفسير الثعالبي: (32/2).

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز<sup>(1)</sup> إليه بحال بلده وكثرة لصوصه، هل يأخذهم بالظنة — أي التهمة — أو يحملهم على البينة وما جرت عليه السنة؟ فكتب إليه عمر: خذهم بالبينة وما جرت عليه السنة فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله.

وقال عمر — ونظر إلى الحجر الأسود —: إنك حجر لا تنفع ولا تضر، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك ثم قبله<sup>(2)</sup>.

وروى ابن عمر يدير ناقته في مكان فسئل؟ فقال: لا أدري إلا أني رأيت رسول الله ﷺ فعله ففعلته.

وقال أبو عثمان الخيري<sup>(3)</sup>: من أَمَرَ السنةَ على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة<sup>(4)</sup>.

قال ابن أبي جرة<sup>(5)</sup>: من علامة سعادة الشخص أن يكون معتنيا بمعرفة السنة في جميع تصرفاته، والذي يكون كذلك هو دائم في عبادة ربه في كل حركاته وسكناته. وهذا هو طريق أهل الفضل، حتى حكى عن بعضهم أنه لم يأكل البطيخ سنين لما لم يبلغه كيفية السنة في أكله. وقد اتفق أهل الظاهر والباطن على أن كل حقيقة غير مؤيدة بالسنة فهي باطلة.

(1) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو حفص: الخليفة الصالح، والملك العادل، وربما قيل له خامس الخلفاء الراشدين تشبيها له بهم. وهو من ملوك الدولة مروانية الأموية بالشام. ولد ونشأ بالمدينة، وولي إمارتها للوليد. ثم استوزره سليمان ابن عبد الملك بالشام. وولي الخلافة بم عهد من سليمان سنة 99 هـ فبويج في مسجد دمشق. وأخباره كثيرة جدا لا تسعها الهوامش. توفي 101 هـ. انظر فوات الوفيات: (105/2).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه رقم: (1597).

(3) هو أحمد بن حمدان بن علي، أبو جعفر الخيري: حافظ، من أهل نيسابور، نسبته إلى الحيرة (محلة بنيسابور). له (صحيح) في الحديث، على شرط مسلم. وكان زاهدا قدوة، يكتابه الجنيد. انظر شذرات الذهب: (261/2).

(4) انظر الكشف والبيان للثعلبي: (393/4). وفيه: سمعت أبا عثمان سعيد بن إسماعيل الجيزي يقول:.... إلخ.

(5) تقدمت ترجمته.

## ميزان صحة العمل

ولما كان العلم والعمل معرضين للصحة والاعتلال ولصحتهما واعتلالهما ميزانان يعرفان بهما أشار للأول بقوله: (وَلَا زِمَ مِنْهُمَا) أي من العلم والعمل إذا التبس عليك أمران منهما وكانت نفسك غير مطمئنة. (مَا ثَقُلَ عَلَى نَفْسِكَ) من جهة الطبع لا من جهة الحقيقة أو المعنى. وعلامة ما من الطبع العجلة، والأمن وعمى العاقبة، فإذا توجهت لشيء لا تعرف له مادة في الأحكام ترجح تركه على فعله، فإن كان مع أمن لا خوف ومع عجلة لا تأن ومع عمى العاقبة لا بصيرتها؛ فخففت على النفس من هواها، فاتبع ما يثقل عليها إذ لا يثقل عليها إلا ما كان خيرا، وما مالت إليه منهما وخف عليها فاتركه لاعتلاله، كما يأتي إن شاء الله تعالى. لأن الغالب على النفس في حال الصحة كره الحق.

زروق: وذلك لا يكون إلا في المتساوين كمندوبين أو واجبين أو مباحين أو مكروهين لا أرجحية لأحدهما عن الآخر بنص الشارع، ولا ما يرجع إليه. فمثال الواجبين: أمر الوالدين بمتناقضين على السواء، بحيث يعلم غضب كل واحد عند مخالفة أمره وتضرره في نفسه. ومثال المندوبين: كصلاة النافلة أو حضور الجنازة، ولذلك اختلف العلماء فيهما. كذا مثل لهما سيدي زروق.

ومثل لهما المناوي بحضور جنازتين متساويتين. ومثال المباحين: كرد هدية من لا يستغبر بردها تعفا أو قبولها موافقة لغير وارد ولا عارض حكمي. ومثال المكروهين: الأخذ بأسباب الخمول فرارا من المثلة في قلوب الخلق، أو ترك ذلك مع حبها دون تحمل على تحقيقها. وعند ترجيح الشرع للضرائر يرجح الأخف مفسدة؛ فإن استويا فللعلماء فيه خلاف مذكور في كتب الفقه. انتهى.

وقال أيضا في قواعد الصوفية: المقصود موافقة الحق وإن كان موافقا للهوى، حتى قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: "إذا وافق الحق الهوى، فذلك الشهد بالزبد". وقد أغرق قوم

في مخالفة النفس، حتى خالفوا الحق في طي ذلك. ومنه استتذاهم في الواجب والضروري الذي لا يمكن انفكاكه، وتركهم جملة من السنن، لإلفها مع ترك ما ألفوا منها. وهذا وإن كان مؤثراً في النفس، فهو مثيّر للباطل وسائر بصاحبه لعكس القصد، نسأل الله العافية<sup>(1)</sup>.

تنبيه: ما تقدم في غير النفس المطمئنة كما قيدنا وهي التي غالباً تصرفها بالهوى والشهوة وجري العادة. وأما المطمئنة التي ارتاضت حتى صار الحق إلهاً لها فلا تقبل غيره، فإنه لا يثقل عليها العمل ولا يكون ذلك دليلاً على اعتلاله، بل حلاوة الطاعة لصاحبها دليل على وجود قبول عمله. كما في الحكم.

قال المناوي: هذه الحلاوة من أهل الله من يجدها في البداية والنهاية، وهم أهل العناية، ومنهم من لا يجدها إلا بعد مرارة المجاهدة والمكابدة. قال الحسن: تفقدوا الحلاوة في ثلاث: فإن وجدتموها فابشروا وامضوا لقصدكم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق: عند تلاوة القرآن وعند الذكر وفي السجود. وزاد غيره: وبالأسحار<sup>(2)</sup>. قال أبو مدين: من ذاق حلاوة المناجات زال عنه النوم، واحذر أن يكون سهرك للالتذاذ بها فتحرم من المشاهدة. انتهى.

ثم أشار إلى الميزان الثاني بقوله: وإذا التبس عليك أمر من علم أو عمل لا تدري هل يرضي الله فعله أو تركه؟ أو حالة أنت بها لا تدري هل قمت فيها بحق أو قمت فيها بهوى؟. فقد نزل الموت بك على ما أنت فيه من علوم وأفعال وأحوال. (و) لازم منها (ما) أي كل علم وعمل وحال (تَثَبُّتُ عَلَيْهِ) ويسرك أن تكون مشغولاً به إذ ذاك (لَوْ جَاءَكَ الْمَوْتُ) أي عند تقدير نزول الموت بك فلازم ذلك واشتغل به إذ ما كنت فيه قائماً بحق لم يهزمه الموت إذ هو حق والموت حق والحق لا يهزمه الحق. والذي يقرأ العلم لله هو الذي إذا قلت له غدا تموت لا يضع الكتاب بين يديه.

(<sup>1</sup>) انظر قواعد التصوف ص(70). القاعدة رقم: 91.

(<sup>2</sup>) انظر تفسير حقي: (176/2).



ابن عباد: لأن العبد في هذه الحالة لا يصدر منه إلا العمل الخالص من الشوائب وممازجة حظ النفس واتباع الهوى. وهذا معنى قصر الأمل، وهذا لا يقدر لنفسه وقتا ثانيا يكون فيه حيا. وأما كل علم وعمل وحالة هزمها الموت فهي باطل، إذ الموت حق والحق يهزم الباطل ويدمغه لقوله تعالى: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه<sup>(1)</sup>..﴾ الآية. ﴿قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب﴾<sup>(2)</sup>، ﴿قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد﴾<sup>(3)</sup>، ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾<sup>(4)</sup>، فليتحقق العبد بهذا، وهو أن لا يقدر لنفسه وقتا ثانيا يكون فيه حيا ليخلص عمله من الآفات، لأن توقع الموت في كل نفس يهزم عنه جميع ذلك. ومن غفل عن هذه لا يسلم من الآفات. فإذا بعيد من الإخلاص من يأخذ في علم تعلما أو تعليما غير متعين عليه الأخذ فيه لا يجتني ثمرته إلا في ثاني حال ويكون في حالته الراهنة متمكنا من إيقاع طاعة تزيد مصلحتها على مصلحة ما أخذ فيه من العلم يفوز بثوابها لأن في ذلك قوة نفسه ووفارة حظه. وآية ذلك أنه قد يعرض له في حال أخذه فيه غرض دنيوي فيقدمه على ما كان آخذا فيه من غير مبالاة بما يفوته من ذلك.

تنبيه: هذان الميزانان إنما هما في أمرين متساويين التبسا عليك. وأما الأمر الواحد فإن تحققت وجوبه فافعله فإنه خير ولا يأتي عنه إلا الخير. أو تحققت تحريمه فاتركه فإنه شر ولا يأتي عنه إلا الشر. فهذان النوعان ما تعلم فيهما كثير. فإذا اشتغلت بإصلاحهما ونصحت فيهما كثر قولك قولا وفعلا، وملأت بلادك إحسانا وعدلا. وأما إن شككت في حكمه وخفت من إثمه فعليك بالاحتياط الصارف عن الشبهات. فإن الجنة حفت بالمكاره. فاقطع الشك باليقين واحتط لدينك أكثر مما تحتاط لدنياك. مثال ذلك: إذا شككت في وجوبه وإباحته فافعله، أو في تحريمه وإباحته فاتركه. أو في وجوبه

(1) الأنبياء: (18).

(2) سبأ: (48).

(3) سبأ: (49).

(4) الإسراء: (81).

فاتركه أيضا لأن الحرام من باب المفسد، والواجب من باب المصالح. ودرء المفسد مقدم على جلب المصالح. فعليك بهذه القاعدة فإنها نافعة لكل من ليس بعالم، ولم يجد عالما تقيا حاضرا. ثم قال: (وَاحْتَمِلْ مَشَقَّتَهُمَا) أي العلم والعمل واصبر عليهما صبر المريض على مرارة الدواء انتظارا للشفاء. وتأمل كيف تتحمل المشقة والذل في الدنيا شهرا أو سنة رجاء أن تستريح بها عشرين سنة. فكيف لا تتحمل ذلك. وذو الحزم لا يثقل عليه أن يُجَوِّعَ نفسه لوليمة العرس لعلمه بأن اللذة على قدر الجوع. وأنشد أبو عمر بن عبد البر (1):

إذا المرء أحمى نفسه كل شهوةٍ لصِحَّةِ أيامٍ تبيدُ وتنفدُ  
فما بآله لا يحتمي عن حرامها لصِحَّةِ ما يبقى له ويخلدُ  
قال الثعالبي (2): ولو قال: من حلالها لكان أبداع، إذ تركه للحرام من باب أخرى.  
(زَمَنًا قَلِيلًا) وهو أمد الحياة الذي هو كاللحظة بالنسبة إلى أمد الآخرة.  
ولأبي الوليد الباجي (3):

(1) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد المرحي القرطبي المالكي، أبو عمر: من كبار حفاظ الحديث، مؤرخ، أديب، مجتهد. يقال له حافظ المغرب. ولد بقرطبة. ورحل رحلات طويلة في غربي الأندلس وشرقيها. وولي قضاء لشبونة وشتترين. وتوفي بشاطبة. من كتبه "الدرر في اختصار المغازي والسير - ط" و "العقل والعقلاء" و "الاستيعاب - ط" مجلدان، في تراجم الصحابة، و "جامع بيان العلم وفضله - ط" و "المدخل" في القراءات، و "محة المجالس وأنس المجالس - خ" في المحاضرات، أربعة أجزاء، طبعت قطعة منه، واختصره ابن ليون وسماه "بغية الموائس من محة المجالس - خ" إلى غيرها. توفي 463هـ. انظر الوفيات: (348/2).

(2) هو عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري، أبو زيد: مفسر، من أعيان الجزائر، زار تونس والمشرق. من كتبه (الجواهر الحسان في تفسير القرآن - ط) أربعة مجلدات، و (الانوار في المعجزات النبوية، و (روضة الانوار ونزهة الاخيار) مجموع، و (جامع الامهات في أحكام العبادات) و (الذهب الابريز في غريب القرآن العزيز) و (الارشاد في مصالح العباد) و (رياض الصالحين). توفي 875هـ. انظر الاعلام: (331/3).

(3) هو سليمان بن خلف بن سعد التحيبي القرطبي، أبو الوليد الباجي: فقيه مالكي كبير، من رجال الحديث. أصله من بطلوس ومولده في باجة بالأندلس. رحل إلى الحجاز سنة 426 هـ، فمكث ثلاثة أعوام. وأقام ببغداد ثلاثة أعوام، وبالموصل عاما، وفي دمشق وحلب مدة. وعاد إلى الأندلس، فولي القضاء في بعض أقاليمها. وتوفي بالرية من كتبه (السراج في علم الحاج) و (إحكام الفصول، في أحكام الاصول - خ) منه نسخة في مجلد ضخيم، في خزنة القرويين بقباس، و (التسديد إلى معرفة التوحيد) و (اختلاف الموطآت) و (شرح فصول الاحكام، وبيان ما مضى به العمل من الفقهاء والحكام - خ) و (الحدود) و (الاشارة - خ) رسالة في أصول الفقه، و (فرق الفقهاء) و (المنتقى - ط) كبير، في شرح موطأ مالك و (شرح المدونة) و (التعديل والتحريج لمن روى عنه البخاري في الصحيح). توفي 474هـ. انظر الديباج: (120).

إِذَا كُنْتُ أَعْلَمُ عِلْمًا يَقِينًا بِأَنْ جَمِيعَ حَيَاتِي كَسَاعَةٌ  
فَلِمَ لَا أَكُونُ ضَئِينًا بِهَا وَأَجْعَلُهَا فِي صَلَاحٍ وَطَاعَةٍ  
(لِتَسْلَمَ) مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (وَتَتَنَعَّمَ) بِالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ (دَهْرًا طَوِيلًا) وَهُوَ أَمَدُ الْآخِرَةِ الَّذِي  
لَا مُنْتَهَى لَهُ، فَكَيْفَ يَفْتَرُّ رَأْيُ الْعَاقِلِ فِي الصَّبْرِ عَنِ الشَّهَوَاتِ مِائَةَ سَنَةٍ مِثْلًا لِأَجْلِ سَعَادَةٍ  
تَبْقَى أَبَدَ الْآبَادِ وَلَا نِسْبَةَ لِمُدَّةِ الْعُمُرِ إِلَى أَبَدِ الْآبَادِ، إِذْ لَوْ قَدَرْنَا الدُّنْيَا مَمْلُوءَةً بِالنُّذُرَةِ،  
وَقَدَرْنَا طَائِرًا يَلْتَقِطُ فِي كُلِّ أَلْفِ سَنَةٍ حَبَّةً وَاحِدَةً مِنْهَا لَفَنِيَتِ الذَّرَّةُ وَلَمْ يَنْقُصْ أَبَدُ  
الْآبَادِ. (وَإِكْثَارُهُمَا) أَيِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ (مَعَ الْآفَاتِ) الْمُبْطِلَةِ لِهَمَا كَالرِّيَاءِ وَالسَّمْعَةِ  
وَالْعَجَبِ وَغَيْرِهَا (غُرُورٌ) مِنَ الشَّيْطَانِ، أَيِ لَا يَغْتَرُّ بِكَثْرَةِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ مَعَ الْآفَاتِ فَإِنَّمَا  
لَا تَنْفَعُكَ، بَلْ تَكُونُ مَعَاصِي وَكِبَائِرَ، وَكُلُّ عَمَلٍ لَا إِخْلَاصَ فِيهِ مُرَدُّودٌ عَلَى صَاحِبِهِ  
مُضْرُوبٌ بِهِ وَجْهَهُ. وَهَذَا يَتَبَيَّنُ لَكَ غُرُورُ أَكْثَرِ الْخَلْقِ فِي عُلُومِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ إِلَّا مَنْ  
رَحِمَ اللَّهُ تَعَالَى. وَلِهَذَا نَشَاهِدُ أَكْثَرَ النَّاسِ عِنْدَ نَزُولِ الْمَوْتِ بِهِمْ يَنْدَمُونَ عَلَى مَا أَسْلَفُوهُ  
مِنْ عَمَلٍ وَيُودُونَ أَنْ لَوْ أُتْسِيَ لَهُمْ فِي الْأَجْلِ. فَأَهْلُ الْبَصَائِرِ ااهْتَمَوْا بِرِعَايَةِ مَفْسَدَاتِ  
الْعَمَلِ وَالتَّحْفِظِ مِنْهَا، وَلَمْ تَغْنِهِمْ كَثْرَتُهُ بِالظَّاهِرِ. وَقَالُوا: الشَّأْنُ فِي الصَّفْوَةِ لَا فِي الْكَثْرَةِ.  
وَقَالُوا: جَوْهَرَةٌ وَاحِدَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ خِرْزَةِ. وَغَيْرُهُمْ جَهِلُوا الْمَعَانِي، وَأَغْفَلُوا مَا فِي  
الْقُلُوبِ مِنَ الْعِيُوبِ وَاشْتَغَلُوا بِإِتْعَابِ النَّفْسِ، وَالْإِمْسَاكِ عَنِ الْأَكْلِ، فَغَرَّهُمُ الْعَدَدُ  
وَالْكَثْرَةُ، وَلَمْ يَنْظُرُوا مَا فِيهَا. وَمَا يُغْنِي عَدَدُ الْجَوْزِ وَلَا لَبُّ فِيهَا. وَلَا يَنْفَعُ رَفْعُ السُّقْفِ  
وَلَمْ تُحْكَمْ مَبَانِيهَا، وَمَا يَعْقِلُ هَذِهِ الْحَقَائِقَ إِلَّا الْعَالِمُونَ.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ مَنْ كَانَتْ هِمَّتُهُ كَثْرَةُ الْأَعْمَالِ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ مَكَائِدَ النَّفْسِ وَيَتَطَهَّرَ مِنْهَا،  
كَانَ فَسَادُهُ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ صَلَاحِهِ. (وَتَرَكُّهُمَا) أَيِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ (لِخَوْفِهَا) أَيِ الْآفَاتِ  
غُرُورٌ وَمَكِيدَةٌ رَوَّجَهَا الشَّيْطَانُ بِلَعْنَتِهِ عَلَى الْمَغْرُورِينَ. وَخَيْلٌ لَهُمْ أَهْلُ الْبَصَائِرِ وَأَهْلُ  
التَّفْطَنِ لِلْخَفَايَا وَالسَّرَائِرِ، فَأَيُّ خَيْرٍ فِي عَمَلٍ بِلَا إِخْلَاصٍ. وَإِنْ خَطَرَ الْعِلْمُ عَظِيمٌ. فَتَرْكُهُ  
أَوَّلَى وَلَا تَتْرَكُهُمَا لَهَا. فَإِنَّ الْغَفْلَةَ فِي الْعَمَلِ خَيْرٌ مِنَ الْغَفْلَةِ عَنْهُ.

قال في الإحياء: وإياك أن تلمح في الطاعات مجرد الآفات فتفتّر رغبتك عن العبادات فإن ذلك مكيدة روجها الشيطان<sup>(1)</sup>.

قال القرافي: فإن قيل: إذا كان الغالب على الناس اليوم الرياء والمباهات وغيرهما، فالمعلم لهم معين لهم على هذه المعاصي، والإعانة على المعصية معصية، فيحرم التعليم حينئذ على الإطلاق نظرا للغالب على الناس؟

فالجواب: اضطربت فتاوى العلماء في هذا؛ فمنهم من حرم التعليم إلا فيمن غلب على الظن سلامته من هذه المعاصي. ومنهم من قال: لو اعتبرنا هذا أدى إلى حسم مادة العلم، وانقطاع الشرع، وفساد النظام، وإطفاء نور الحق، وإضلال الخلق، حتى تنطبق الأرض بالكفر، ومعلوم أن هذه المفاصد أعظم من الرياء الذي قد يقع في العلم وقد لا يقع. والعلم قرينة محققة. وأيضا؛ إن قطعنا بوقوعه في الجملة لكننا لا نعلم حال كل أحد على انفراده، فالله تعالى متولي السرائر. انتهى.

وقال الشعراي: كان سيدي علي الخواص يقول: ما من حامل علم إلا وهو يعمل به ولو في حق نفسه إذا ارتكب المعاصي، لأنه يتوب ويندم إذا وقع فيها. فلو لا علمه ما اهتدى لكون ذلك ذنبا، ولا كان تاب منه. فقد عمل هذا بعلمه من هذه الحيثية وإن كان من ارتكب المعاصي لم يعمل بعلمه على مصطلح القوم فافهم. فالعلم نافع لصاحبه على كل حال. ولم يزل علم كل إنسان أكثر من عمله في كل عصر. انتهى.

وفي الحديث: «اطلعت ليلة المعراج على النار فرأيت أكثر أهلها الفقراء. قيل: يا رسول الله من المال؟ قال: لا من العلم<sup>(2)</sup>».

(أو) تركهما (لِعَدَمِ الْحُضُورِ) غرور أيضا، ولكن لا شك أن الأفضل أن تستعمل مع فضلية الذكر فضلية التفهم؛ بأن تحضر قلبك مع كل ذكر من قراءة، أو تحليل، أو تحميد، أو تضرع، وكذلك ينبغي لمن يخاطب ربه في صلاة أو في غيرها أن يياشر المعنى بقلبه،

(1) انظر الإحياء ومعه تخريج الحافظ: (361/5).

(2) أخرجه المناوي في فيض القدير: (2/433 رقم 2226).

كما يياشر اللفظ بلسانه، ويحرك قلبه بفهم الذكر، كما يحرك لسانه باللفظ. وإلا كان المغبون الخائب من أكثر الحظ، وأوفر الفضل. فإذا قال: لا إله إلا الله فليؤد المعنى بقلبه نافيا متبرئا عن كل ما قاله الملحدون في الربوبية من تشريك أو ند أو صاحبة أو ولد. وإذا قال: سبحان الله فليؤد المعنى بقلبه نافيا متبرئا عن كل ما قال الملحدون وكفر به الكافرون كما قال تعالى: ﴿سبحان الله عما يصفون﴾<sup>(1)</sup>. وإذا قال: الحمد لله فليعتقد بقلبه أن الحمد لله خالصا وحده، وأن النعم كلها مبتدأة منه ليس للعبد فيها سبب.

وفي الحكم: لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه<sup>(2)</sup>. أي لأنه بساط للحضور فيه بالترار، ولأن وجوده معين على صورته، فهو مهيأ لتيسير أمثاله، إذ يألف الحسن، فإذا آن وقت الحضور وجدت النفس مهيئة له قبل. ومن ثم حصل الفتح في أقرب مدة لذوي البدايات المخدمة كابن أدهم ومن في معناه، إذ لم يكن في الخدمة كبير كلفة لا عتياد النفس به في محل آخر، فلم يحتاجوا لغير تحويل النية. ولذا قيل: وجود العمل مع الرياء خير من فقد خوفه، ولأن الترك بالكلية غفلة بالكل، والحضور بالجراحة حضور بوجه ما، ولأن فيه اشتغال الجراحة عما لا يعني بما صورته تعني. وفيه تزيين الجراحة بالطاعة التي لا خلف لها منها، إن تركتها في حالة من الأحوال، والتعرض لنفحات الله، إذ الذي من بالأول هو المئان بغيره، ولا يخيب عليه عمل عامل.

قيل لبعضهم: ما لنا نذكر باللسان والقلب غافل؟ فقال: اشكروا الله على ما وفق من شكر اللسان، ولو أجرى مكانه الغيبة ماذا كنت تصنع. والله أكرم من أن يحضر العبد بلسانه ثم لا يمن عليه بحضور قلبه.

وأیضا: إنما يثبت الأعمال والأحوال في القلوب وجود الذكر في القلوب واللسان والجوارح، فإن فاتك واحد فلا يفوتك اثنان، وإن فاتك اثنان فلا يفوتك الثالث، بل اذكر مولاك على كل حال. قاله زروق. انتهى بخ.

(1) الصفات: (159).

(2) انظر شرح الحكم للشرنوبی: (55/1).

(و) كذا (تُرِكَ التَّوْبَةُ لِخَوْفِ الْعُودِ) إلى الذنب وعدم الثبوت عليها (غُرُورٌ) من الشيطان وجهل، إذ لا يُتْرَك واجبٌ على الفور خوف أن يقع ما يقطعه، فلا يَمْتَنَعُكَ ذلك من التوبة، فإنك من التوبة مابدأ بين إحدى الحسينين: لأنك إن تمت توبتك فذلك وإلا قد غفرت ذنوبك السالفة وليس عليك إلا الحادث. ثم عد إلى التوبة مبادرا، وقل لنفسك: لعلي أموت قبل أن أعود إلى الذنب هذه المرة. وكذا ثانيا وثالثا ورابعا، وكلما اتخذت الذنب والعود إلى الذنب حرفةً، فاتخذت التوبة والعود إليها حرفةً، ولا تكن في التوبة أعجز منك في الذنب.

وفي الحديث: «خياركم كل مُفْتَنٍ تَوَابٍ<sup>(1)</sup>» أي كثير الابتلاء بالذنب كثير التوبة منه. وفيه أيضا: «لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الْفَيْتَةُ بَعْدَ الْفَيْتَةِ<sup>(2)</sup>» أي الحين بعد الحين. فلا يَمْنَعُكَ من التوبة عظم ذنوبك وكثرتها وخوف العود إليها، بل بادر إلى التوبة لينقلك تعالى من نقص إلى كمال ومن قبيح إلى حسن، كما فعل بخلائق كانوا مثلك، فأنقذهم، وخصهم بعنايته، وأصلح أعمالهم، وأحوالهم، وبذل سيئاتهم حسنات، ورفعهم إلى أعلى الدرجات؛ كابن أدهم<sup>(3)</sup> وعياض<sup>(4)</sup> وابن دينار<sup>(5)</sup> وبشر<sup>(6)</sup> وذو النون<sup>(7)</sup> والشبلي<sup>(1)</sup> وابن المبارك<sup>(2)</sup> نفعنا الله بهم.

(1) أخرجه البيهقي في الشعب بسند ضعيف. انظر تخريج أحاديث الأحياء: (16/4).

(2) أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة. انظر تخريج أحاديث الأحياء: (3622).

(3) هو إبراهيم بن أدهم بن منصور، التميمي البليخي أبو إسحاق؛ زاهد مشهور. أخذ عن كثير من علماء الاقطار الثلاثة. وكان يلبس في الشتاء فروا لا قميص تحته ولا يتعمم في الصيف ولا يحتذي، يصوم في السفر والاقامة، وينطق بالعربية الفصحى لا يلحن. وكان إذا حضر مجلس سفيان الثوري وهو يعظ أوجز سفيان في كلامه مخافة أن يزل. توفي 161 هـ. انظر حلية الأولياء: (367/3).

(4) تقدمت ترجمته.

(5) تقدمت ترجمته.

(6) تقدمت ترجمته.

(7) هو ثوبان بن إبراهيم الاحمسي المصري، أبو الفياض، أو أبو الفيض؛ أحد الزهاد العباد المشهورين. من أهل مصر. نوبى الأصل من الموالي. كانت له فصاحة وحكمة وشعر. وهو أول من تكلم بمصر في (ترتيب الاحوال ومقامات أهل الولاية) فأنكر عليه عبد الله بن عبد الحكم. واتهمه المتوكل العباسي بالزندقة، فاستحضره إليه وسمع كلامه. ثم أطلقه، فعاد إلى مصر. وتوفي بمجيزها. توفي 245 هـ. انظر وفيات الأعيان: (101/1).

## العلم أفضل من العمل

ثم قال: (وَالْعِلْمُ) تعلما وتعلّما (أَفْضَلُ مِنْ) سائر (الْعَمَلِ) ولذا كان أولى منه بالتقديم. فإن قلت قد ورد أنه ﷺ سأل سائل: أي الأعمال أفضل؟ فقال: «الجهاد». وسأله آخر فقال: «بر الوالدين». وسأله آخر فقال: «الصلاة في أول وقتها»<sup>(3)</sup>. فالجواب: أنه ﷺ فهم من كل أحد أنه يسأل أي أعماله هو أفضل؟ فأجابه على ما فهم منه من قصده.

أما فضلية العلم فقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(4)</sup>، ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾<sup>(5)</sup>. وفي الحديث: «أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام: إني عليم أحب كل عليم»<sup>(6)</sup>. وقيل: ما أمر الله تعالى رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾<sup>(7)</sup>، وقوله ﷺ: «اللهم أنفعني بما علمتني وعلمي ما ينفعني»<sup>(8)</sup>.

(1) هو دلف بن جحدر الشبلي: ناسك. كان في مبدأ أمره واليا في دنباوند (من نواحي رستاق الري) وولي الحجابة للموفق العباسي، وكان أبوه حاجب الحجاب، ثم ترك الولاية وعكف على العبادة، فاشتهر بالصلاح. له شعر جيد، سلك به مسالك المتصوفة. أصله من خراسان، ونسبته إلى قرية (شيلة) من قرى ما وراء النهر، ومولده بسر من رأى، ووفاته ببغداد 334هـ. انظر الرفيات: (180/1).

(2) هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء، التميمي، المروزي أبو عبد الرحمن: الحافظ، شيخ الاسلام، المجاهد التاجر، صاحب التصانيف والرحلات. أفنى عمره في الاسفار، حاجا ومجاهدا وتاجرا. وجمع الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسعاه. كان من سكان خراسان، ومات بهيت (على الفرات) منصرفا من غزو الروم. له كتاب في "الجهاد" وهو أول من صنف فيه، و "الرقائق - خ" في مجلد. توفي 181هـ. انظر الحلية: (162/8).

(3) أخرجه عبد الرزاق (582/1 ، رقم 2217) ، وابن أبي شيبة (280/1 ، رقم 3219) ، وأبو داود (115/1).

(4) الزمر: (9).

(5) المجادلة: (11).

(6) رواه الغزالي في الإحياء (7/1).

(7) طه: (114).

(8) أخرجه الطبراني في الأوسط (208/2 ، رقم 1748).

## مبحث في فضل العلم

ومن فضل العلم: أنه وسيلة إلى السعادة في الآخرة، وإلى العز في الدنيا، فإن أغبياء الترك وحمقاء الأكراد وأجلاف العرب يوقرون مشائخهم لاختصاصهم بمزيد علم. والبهيمة توقر الآدمي بشعورها بتمييزه عليها. وأما تضعيف عذاب العالم العاصي فلأنما كان لتشبهه بالمعاند واقتداء الجاهل به.

وفي الحديث: «تعلموا العلم فإن تعلمه لله حسنة، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على الدين، والمبصر على السراء والضراء، والوزير عند الأخلاء، والقرين عند الغرباء، ومنار سبيل الجنة، يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير سادة قادة هداة يهتدى بهم أدلة في الخير تقتص آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة في خلتهم وبأجنتها تمسحهم، وفي صلاتها تستغفر لهم، كل رطب ويابس يستغفر لهم، حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، والسماء ونجومها، والأرض وخزائنها، لأن العلم حياة القلب من العمى، ونور الأبصار ومصاييحها في الظلمة، وقوة الأبدان من الضعف، وبالعلم يبلغ العبد منازل الأبرار والدرجات العلى. والتفكر في العلم يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به يطاع الله وبه يعبد، وبه يتوحد، وبه يتورع، وبه توصل الأرحام، وهو إمام العمل، والعمل تابع له، يُلْهِمُهُ السعداء، ويُحَرِّمُهُ الأشقياء.<sup>(1)</sup>». رواه ابن عبد البر.

قوله: "يحرمه الأشقياء": قال الغزالي: معناه أن إحدى شقوته ألا يتعلم العلم، ثم يشقى ويتعب في العبادة على خبطٍ فما يكون له من ذلك إلا العناء والتعب والعياذ بالله تعالى من ذلك.

(1) أخرجه الديلمى (41/2)، رقم (2237)



وقد جمع الشافعي<sup>(1)</sup> نبذة في فضل العلم وقد قال: ما يتقرب العبد إلى ربه بشيء أفضل من طلب العلم.

وقال: ما أفلح في العلم إلا من طلبه في القلة، ولقد كنت أطلب القرطاس فيعسر علي، ولا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذلة النفس وضيق العيش وخدمة العلم وتواضع النفس أفلح.

وقال: من لا يحب العلم لا خير فيه، فلا تكن بينك وبينه صداقة ولا معرفة.

وقال: رتبة العلماء التوفيق للعمل، وحليتهم حسن الخلق، وجمالهم كرم النفس.

وقال: زينة العالم الورع والحلم.

وقال: من طلب العلم فليدقق ليلاً يضيع دقيق العلم.

وقال: من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم. انتهى.

ولولا العلم ما عُرف الله عز وجل، ولا ما فَرَضَ على عباده، فلا عَمَلَ أَجَلَ مِنْهُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَسَمَّى بِهِ، والعلماء ورثة الأنبياء.

وفي الحديث: «أفضل العبادة الفقه، وأفضل الدين الورع<sup>(2)</sup>» رواه الطبراني<sup>(3)</sup> في معاجيمه الثلاثة.

وفيه: «لَبَابٌ يَتَعَلَّمُهُ الرَّجُلُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَلْفِ رَكْعَةٍ تَطَوُّعًا<sup>(4)</sup>» رواه الطبراني والبخاري<sup>(1)</sup> عن أبي ذر<sup>(2)</sup> وأبي هريرة.

(1) هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان ابن شافع الهاشمي القرشي الملقب، أبو عبد الله: أحد الائمة الاربعة عند أهل السنة. وإليه نسبة الشافعية كافة. ولد في غزة (بفلسطين) وحمل منها إلى مكة وهو ابن ستين. وزار بغداد مرتين. وقصد مصر سنة 199 فتوفي بها، وقبره معروف في القاهرة. قال المبرد: كان الشافعي أشعر الناس وأدهم وأعرفهم بالفقه والقراءات. وقال الإمام ابن حنبل: ما أحد ممن بيده محبرة أو ورق إلا وللشافعي في رقبته منة. وأخباره كثيرة. توفي 204هـ. انظر الوفيات: (447/1).

(2) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير رقم: (10807).

(3) هو سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم: من كبار المحدثين. أصله من طبرية الشام، وإليها نسبته. ولد بعكا، ورحل إلى الحجاز واليمن ومصر والعراق وفارس والجزيرة، له ثلاثة (معاجم) في الحديث، منها (المعجم الصغير - ط) رتب فيه أسماء للشافيع على الحروف. وله كتب في (التفسير) و (الاولال) و (دلائل النبوة) وغير ذلك. توفي 360هـ انظر الوفيات: (215/1).

(4) أخرجه الديلمي (278/1 ، رقم 1084).

وروي أيضا: «إذا جاء الموت لطالب العلم وهو على هذه الحالة مات وهو شهيد<sup>(3)</sup>».

وفي الحديث أيضا: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين<sup>(4)</sup>» رواه الشيخان.

وفيه: «العلماء ورثة الأنبياء<sup>(5)</sup>» ومعلوم أنه لا رتبة فوق رتبة النبوة، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة.

وفيه: «يستغفر للعالم ما في السماوات وما في الأرض<sup>(6)</sup>» وأي منصب يزيد على منصب من يشتغل الملائكة وما في السماوات وما في الأرض بالاستغفار له، فهو مشغول بنفسه وهم مشغولون بالاستغفار له.

وفيه: «خصلتان لا تكونان في منافق: حسن السمات والفق في الدين<sup>(7)</sup>».

وفيه أيضا: «أفضل الناس المؤمن العالم الذي إن احتيج إليه نفع، وإن استغني عنه أغني نفسه<sup>(8)</sup>».

وفيه: «الإيمان عريان ولباسه التقوى، وزينته الحياء وثمرته العلم<sup>(9)</sup>».

وفيه: «يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء فأعلى حال الشهيد دمه، وأدنى وصف العالم خبره، فساوي بينهما<sup>(10)</sup>».

(1) هو أحمد بن عمرو بن عبد الخالق أبو بكر البزار: حافظ من العلماء بالحديث. من أهل البصرة. حدث في آخر عمره بأصبهان وبغداد والشام، وتوفي في الرملة. له مسندان أحدهما كبير سماه (البحر الزاخر) والثاني صغير. توفي 292هـ. انظر الشذرات: (209/2).

(2) هو جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد، من بني غفار، من كنانة بن خزيمة، أبو ذر: صحابي، من كبارهم. قدم الاسلام، يقال أسلم بعد أربعة وكان خامسا. يضرب به المثل في الصدق. وهو أول من جيا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحية الاسلام. توفي 32هـ. انظر صفوة الصفوة: (238/1).

(3) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (84/1)، رقم (138).

(4) أخرجه ابن ماجه (80/1)، رقم (221)، والطبراني (385/19)، رقم (904)، والبيهقي في شعب الإيمان (400/6)، رقم (8661).

(5) أخرجه أحمد (196/5)، رقم (21763)، وأبو داود (317/3)، رقم (3641)، والترمذي (48/5)، رقم (2682) وقال: لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة وليس هو عندى بمختص. ثم أورد له إسنادًا وقال هذا أصح. وابن ماجه (81/1)، رقم (223)، وابن حبان (289/1)، رقم (88)، والبيهقي في شعب الإيمان (262/2)، رقم (1696).

(6) أخرجه ابن ماجه: (239).

(7) أخرجه في مسند الشهاب: (318) عن عبد الله بن سلام.

(8) أخرجه ابن عساكر (303/45).

(9) أخرجه الديلمي (112/1)، رقم (380).

(10) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (31/1).

وفيه: « طالب العلم تكفل الله برزقه<sup>(1)</sup> ».

وفيه: « يبعث العالم والعابد فيقال للمعابد: ادخل الجنة، ويقال للعالم: اتَّجِدْ حتى تشفع في نفسك<sup>(2)</sup> ».

وفيه: « لَمَوْتُ قَبِيلَةٍ أَيْسَرُ مِنْ مَوْتِ عَامٍ<sup>(3)</sup> ».

وفيه: « من تفقه في دين الله كفاه الله تعالى ما أهمه ورزقه من حيث لا يحتسب<sup>(4)</sup> ».

وفيه: « إذا أتى عليَّ يومٌ لا أزداد فيه علماً يقربني إلى الله تعالى فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم<sup>(5)</sup> ».

وفيه: « فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم<sup>(6)</sup> ».

وفيه: « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب<sup>(7)</sup> ».

وفيه: « فضل العالم على العابد كفضلي على أمي<sup>(8)</sup> ».

وفيه: « آخر درجة الأنبياء في الجنة أول درجة العلماء ليس بينها وبينها ستر<sup>(9)</sup> ».

وفيه: « إن يوماً على علم خير من صلاة على جهل، فإن العامل بغير علم يفسد أكثر مما يصنع<sup>(10)</sup> ».

وفيه: « نظرة إلى العالم أحب إلي من عبادة سنة، صيامها وقيامها<sup>(11)</sup> ».

---

(1) أخرجه الخطيب (3/181) وقال: غريب. وابن عساكر (41/232). وأخرجه أيضاً: فقهاؤنا (1/244، رقم 391).

(2) أخرجه ابن عدي (2/412)، ترجمة حبيب بن أبي حبيب، وفيه: « ولفظي في شعب الإمام (2/268، رقم 1717). وأخرجه أيضاً: الفقيه (5/465، رقم 8773).

(3) أخرجه الطبراني كما في مجمع فروقه (1/202) قال الفقيه: فيه غلط من ثمن ولم أر من ذكره وكذلك بإسناد ابن صاخر. وفيه: « ولفظي في شعب الإمام (2/263، رقم 1699). وأخرجه أيضاً: فروع (3/462).

(4) أخرجه فروع (3/261).

(5) أخرجه الطبراني في الأوسط (6/367، رقم 6636) قال الفقيه (1/136): فيه غلط من عبد الله، قال أبو حاتم: كذب. وفيه: « ولفظي في شعب الإمام (8/188).

(6) أخرجه الفهرستي (5/50، رقم 2685) وقال: غريب. والطبراني (8/233، رقم 7911).

(7) أخرجه المعاد كما في غية الباحث (1/184، رقم 39)، وابن حبان في الضعفاء (1/340).

(8) أخرجه الخطيب (5/106)، وفيه: « ولفظي في فضل المتابعة (1/78، رقم 80).

(9) لم أجد في غريب.

(10) أخرجه أبو نعيم في الحلية (4/385). وأخرجه أيضاً: الفقيه (4/247، رقم 6732).

وفيه: « ألا أدلكم على أشرف أهل الجنة؟ قالوا: بلي يا رسول الله. قال: هم علماء أمي<sup>(2)</sup> ».

وفيه عن أبي ذر: «حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة وشهود ألف جنازة وعيادة ألف مريض. قيل: يا رسول الله ومن قراءة القرآن؟ قال: وهل ينفع القرآن إلا بالعلم؟<sup>(3)</sup>»

وقال بعض السلف: حضور مجلس ذكر يكفر عشرة مجالس من مجالس الباطل.

وأما عطاء فقال: مجلس ذكر يكفر سبعين مجلسا من مجالس اللهو.

وفيه: « لا تحقروا عالما آتاه الله علما، فإن الله تعالى لم يحقره إذ آتاه العلم<sup>(4)</sup> ».

وفيه: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء<sup>(5)</sup>». فأعظم بمرتبة هي تلو النبوة وفوق الشهادة مع ما ورد في فضل الشهادة؛ لأن العالم إمام أمة، فله مثل أجور أمته، والشهيد عمله لنفسه.

وفيه: « ما عبد الله بشيء أفضل من فقهه في دين الله، وفقهه واحد أشد على الشيطان من ألف شهيد، ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه<sup>(6)</sup> ».

وفيه: « بين العالم والعابد سبعون درجة ما بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة<sup>(7)</sup> ».

---

(1) لم أجد تخريجه.

(2) لم أجد تخريجه.

(3) قال الحافظ العراقي في تخريج "الإحياء" 1 / 16 : ذكره ابن الجوزي في الموضوعات من حديث عمر و لم أجد من طريق أبي ذر.

(4) أخرجه في الإحياء (35/1) بلفظ: "إن من العلم كهية المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى فإذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الإغترار بالله تعالى ، فلا تحقروا عالما آتاه الله تعالى علما منه فإن الله عز و جل لم يحقره إذا آتاه إياه " .

(5) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: (1707) عن عثمان مرفوعا.

(6) أخرجه الطبراني في الأوسط (6/194 ، رقم 6166).

(7) أخرجه الديلمي (3/128 ، رقم 4345).

وفيه: « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة. وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضي بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء... الحديث. <sup>(1)</sup> » رواه ابن حبان <sup>(2)</sup> في صحيحه، وأبو داود <sup>(3)</sup> والترمذي <sup>(4)</sup>.

وينبغي للملوك ومن دونهم أن يتواضعوا لطلبة العلم اتباعاً للملائكة وخاصة مملكته. ومعنى: "تضع أجنحتها لطالب العلم" قيل: تكفها توقيراً له. وقيل: تكفها لتجلس إليه فتسمع منه. وقيل: لتبسطها له بالدعاء. وقال العلقمي <sup>(5)</sup>: وذكر الخطابي <sup>(6)</sup> في معنى وضع أجنحة الملائكة ثلاثة أقوال: أحدها: بسط الأجنحة.

الثاني: المراد به التواضع للطالب، أي تعظيماً لحقه.

<sup>(1)</sup> أخرجه أحمد (196/5 ، رقم 21763) ، وأبو داود (317/3 ، رقم 3641) ، والترمذي (48/5 ، رقم 2682).

<sup>(2)</sup> هو محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد التميمي، أبو حاتم البستي، ويقال له ابن حبان: مؤرخ، علامة، جغرافي، محدث. ولد في بستان (من بلاد سجستان) وتنقل في الاقطار، فرحل إلى خراسان والشام ومصر والعراق والجزيرة. وتولى قضاء سمرقند مدة، ثم عاد إلى نيسابور، ومنها إلى بلده، حيث توفي في عشر الثمانين من عمره. وهو أحد الكثيرين من التصنيف. توفي 354هـ. انظر الشذرات: (16/3).

<sup>(3)</sup> هو سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني، أبو داود: إمام أهل الحديث في زمانه. أصله من سجستان. رحل رحلة كبيرة وتوفي بالبصرة. له (السنن ط -) جزآن، وهو أحد الكتب الستة، جمع فيه 4800 حديث انتخبها من 500 , 000 حديث. وله (المراسيل - ط) صغير، في الحديث، و (كتاب الزهد - خ) ، و (البعث - خ) رسالة، و (تسمية الاخوة - خ) رسالة. وللطوسي كتاب (أخبار أبي داود). توفي 275هـ. انظر الوفيات: (214/1).

<sup>(4)</sup> هو محمد بن عيسى بن سوية بن موسى السلمي البوغي الترمذي، أبو عيسى: من أئمة علماء الحديث وحفاظه، من أهل ترمذ (على نهر جيحون) تلمذ للبخاري، وشاركه في بعض شيوخه. وقام برحلة إلى خراسان والعراق والحجاز وعمى في آخر عمره. وكان يضرب به المثل في الحفظ. من تصانيفه (الجامع الكبير - ط) باسم (صحيح الترمذي) في الحديث، مجلدان، و (الشمائل النبوية - ط) و (التاريخ) و (العلل) في الحديث. توفي 279هـ. انظر أنساب السمعاني: (95).

<sup>(5)</sup> نقلت ترجمته.

<sup>(6)</sup> له أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي؛ أبو سليمان الخطابي كان فقيهاً أديباً محدثاً له التصانيف البديعة منها "غريب الحديث" و "معالم السنن في شرح سنن أبي داود" و "أعلام السنن في شرح البخاري" وكتاب "الشعاع" <sup>(2)</sup> وكتاب "شأن الدعاء" وكتاب "إصلاح غلط المحدثين" وغير ذلك. انظر وفيات الأعيان: (214/2).

الثالث: التزول عند مجالس العلم وترك الطيران كحديث: «ما من قوم يذكرون الله تعالى إلا حفت بهم الملائكة»<sup>(1)</sup>، انتهى.

ولا مانع من اجتماعهما. قوله: بسط الأجنحة: أي لتكون وطاء له إذا مشى كما في النهاية. وقيل: معناه المعونة وتيسير السعي في طلب العلم.

وروى الحافظ عبد الله الرهاوي<sup>(2)</sup> بسنده إلى الطبراني قال: سمعت زكرياء بن يحيى السماجي قال: كنت أمشي في بعض أزقة البصرة إلى دار المحدثين، فأسرعنا المشي وكان معنا رجل ماجن متهم في دينه فقال: ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها كالمستهزئ، فما زال من موضعه حتى جفت رجلاه وسقط. قال الرهاوي: إسناد هذه الحكاية كالأخذ باليد، وك رأي العين؛ لأن رواها أعلام وراويها إمام. انتهى. قاله العلقمي.

وفي الحديث: «ولغدوة في طلب العلم أحب إليّ من مائة غزوة، ولا يخرج أحد في طلب العلم إلا وملك يشره بالجنة»<sup>(3)</sup>.

وقال علي كرم الله وجهه: العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد في سبيل الله، وإذا مات العالم ثلم في الدين ثلثة لا يسدها إلا خلف منه. وقال أيضا:

ما الفضلُ إلا لِأهلِ العِلْمِ إِنَّهُمْ عَلَى الْهُدَى لِمَنِ اسْتَهْدَى أَدِلَّاءُ  
وَقَدَرُ كُلِّ امْرِئٍ مَا كَانَ يُحْسِنُهُ وَالْجَاهِلُونَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْدَاءُ  
فَقَزِ بِعِلْمٍ وَلَا تَطْلُبْ بِهِ بَدَلًا فَالنَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ الْعِلْمِ أَحْيَاءُ

(1) أخرجه أحمد (92/3، رقم 11893).

(2) هو عبد القادر بن عبد الله الفهمي، بالولاء، الرهاوي ثم الحراني، أبو محمد: رحال، عالم بالتراجم، من حفاظ الحديث. ولد بالرها، وتوفي بخران. كان من موالى بني فهم الرانين، وأعتقوه صغيرا فنسب إليهم. طاف بلاد العراق وفارس والشام ومصر، في طلب الحديث. وكان يمشي في رحلاته على قدميه، وكتبه محمولة مع الناس، وربما كان طعامه من عندهم، لفقره. من مصنفاته "كتاب الأربعين المتبانية الاسناد والبلاد" بمجلدان في الحديث، و "المادح والمدوح" يتضمن ترجمة شيخ الاسلام الانصاري وذكر من مدحه وتراجم مادحية ومادحي مادحية، ومصنف في "الفرائض والحساب". توفي 612هـ، انظر الاعلام: (40/4).

(3) لم أحد نثره.

وقال أبو الأسود<sup>(1)</sup>: ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: خير سليمان بن داود بين العلم والمال والملك فاختار العلم، فأعطاه الله العلم والمال والملك معه.

وقال بعض الحكماء: أي شيء أدرك من فاته العلم، وأي شيء فات من أدرك العلم.

وقال ابن مسعود: عليكم بالعلم قبل أن يرفع، ورفعته أن تهلك رواه. فوالذي نفسي بيده ليود رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم، وإن أحدا لم يولد عالما، وإن العلم بالتعلم.

وقال ابن عباس: تذاكرُ العلم بعض ليلة أحب إلي من إحياؤها. وكذا عن أبي هريرة وأحمد بن حنبل.

وفي العبدري: نقل ابن يونس<sup>(2)</sup> عن أحمد بن حنبل أن رجلا قال له: هذا العلم فميت العمل؟ قال أحمد: ألسنا في العمل؟.

وقال الشافعي: طلب العلم أفضل من النافلة.

وروي أن ابن وهب<sup>(3)</sup> ترك الجلوس للناس للعلم، واشتغل بالعبادة، فأخبره إنسان أنه رأى في النوم النبي صلى الله عليه وسلم في مسجد عظيم نحو المسجد الحرام ومعه أبو بكر وعمر وأنت معهم وفي المسجد قناديل نورها أحسن، فانطفأ مصباح منها فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن توقده فأوقدته. ثم آخر كذلك. ثم أقمنا مليا، فهمت المصابيح كلها أن تنطفىء، فقال أبو بكر: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم - أما ترى هذه القناديل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذه عمل عبد

(1) هو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي الكناني: واضح علم النحو. كان معلودا من الفقهاء والأعيان والأمراء والشعراء والفرسان والحاضري الجواب، من التابعين. رسم له علي بن أبي طالب شيئا من أصول النحو، فكتب فيه أبو الأسود. ر. مكن البصرة في خلافة عمر، وولي إمارتها في أيام علي. انظر الإصابة: (الترجمة: 4322).

(2) هو عبد الرحيم (تاج الدين) بن محمد (رضي الدين) بن محمد (عماد الدين) أبو القاسم ابن يونس: قاض من فقهاء الشافعية. ولد وتعلم بالموصل. ودخل بغداد، بعد استيلاء التتار عليها (في رمضان 670) وولي قضاء الجانب الغربي منها إلى أن توفي. صنف كتاب (التعجيز في اختصار الوجيز - خ). انظر الشذرات: (332/5).

(3) تقدمت ترجمته.

الله بن وهب يريد أن يطفئه. ثم قال ابن وهب: وعظت برؤياك هذه؛ ظننت أن العبادة أفضل من نشر العلم، ثم ترك كثيرا من عمله ورجع إلى الناس يقرؤون عليه. وقال الزهري<sup>(1)</sup>: العالم إذا لم يُخَلَّ بواجب ولم يقصر في فرض أفضل من العابد. وسئل عز الدين<sup>(2)</sup>: أقرأ القرآن أفضل أم النظر؟ قال: معرفة الأحكام الشرعية أفضل لعموم الحاجة إليها في الفتاوى، والأقضية، والولاية العامة والخاصة، ومصلحة القرآن مقصورة على القارئ، وما عمت مصلحته ومست الضرورة، والحاجة إليه أفضل مما كانت مصلحته مقصورة على فاعله.

وقال الشافعي: من شرف العلم أن كل ما نسب إليه ولو في شيء حقير فرح، ومن دفع عنه حزن.

وقال بعض السلف: إذا أراد الله بالناس خيرا جعل العلم في ملوكهم، والمملك في علمائهم.

ولفضيلة العلم خص الله به الأذكياء ومنح المال الفاضل وغير الفاضل، مع أن العلم يحرسك وأنت تحرس المال.

وقال ابن ليون<sup>(3)</sup>: طالب العلم معان، وربما ترك العلم متطيرا لما يرى من تضايق أهله فيعامل بالتلطف.

قال علي كرم الله وجهه: كن عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا، ولا تكن خامسا فتهلك. وقد أسنده خالد الحذاء عن النبي ﷺ. والخامس هو المتطير بالعلم.

---

(1) هارون بن عبد الله بن محمد، أبو يحيى الزهري ثم العوفي، من ذرية عبد الرحمن بن عوف: فقيه مالكي من القضاة. له شعر. من أهل مكة. نزل بغداد. وولاه المأمون قضاء مصر (سنة 217 هـ) ولما وقعت الهبة بخلق القرآن ألزمه الخليفة أن لا يقبل شهادة من لا يقر بذلك، ففعل، ثم صار يتسامح، فصرف (سنة 232) قال البزار في طبقات الفقهاء: كان أعلم من صنف الكتب في مختلف قول مالك. وأورد المرزباني آياتا رقيقة من شعره. انظر شجرة النور الزكية: (57).

(2) تقدمت ترجمته.

(3) هو سعد بن أحمد بن إبراهيم بن ليون التحفي، أبو عثمان: من علماء الاندلس، وأدبائها المقدمين. ولد بالمرية ونشأ بها ولم يخرج منها. وتوفي فيها شهيدا بالطاعون. له أكثر من مئة مصنف، منها في (الهندسة) و (الفلاحة) ومنها كتاب (كمال الحافظ) في المواعظ، و (أنداء الدم) في الحكم، و (لمح السحر من روح الشعر - خ). توفي 750 هـ. انظر نفح الطيب: (289/3).



وفي الحديث: «إذا استرذل الله عبدا حطرَ عليه العلم<sup>(1)</sup>».

قيل: أصل العلم الرغبة، وثمرته السعادة، وأصل الزهد الرهبة وثمرته العبادة.

وفي الحديث: «من قرء عالما فقد قرء ربه<sup>(2)</sup>».

وعن علي عليه السلام: كفى بالعلم شرفا أن يدعيه من لا يحسنه ويفرح إذا نسب إليه، وكفى بالجهل ذما أنه يتبرأ منه من هو فيه.

وكان الشيخ أبو حفص عمر بن هارون<sup>(3)</sup> يقول لأهل الدرس: تهنيكم عبادة القلوب والألسن والأيدي والأعين. يعني العلم. وهذا كلام من أيد بالتوفيق وأمد بالتحقيق. قاله العبدري في رحلته<sup>(4)</sup>.

وفي حديث ابن عباس: «تدارس العلم ساعة من الليل خير من إحياؤها<sup>(5)</sup>».

وقال الأحنف<sup>(6)</sup>: كل عز لم يؤكد بعلم فألى ذل مصيره.

وقال الزبير بن أبي بكر: كتَبَ إلي أبي في العراق: "عليك بالعلم، فإنك إن افتقرت كان لك مالا، وإن استغنيت كان لك جمالا".

وقال لقمان لابنه: "يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركتيك، فإن الله يحبي القلوب بنور الحكمة كما يحبي الأرض بوابل المطر".

وقال الزهري: العلم ذكْرٌ ولا يحبه إلا ذكْران الرجال.

(1) عزاه الحافظ في الإصابة (316/1)، ترجمة 708 بشير بن نهاس: لعبدان وأبي موسى، وقال: إسناده ضعيف جداً.

(2) لم أجد تخرجه.

(3) هو عمر بن هارون بن يزيد بن جابر، الثقفى بالولاء. البلخي: عالم بالقراءات، واسع الرواية للحديث. كان شيخ "بلخ" ومقرئها ومعدنها. وتوفي بها. انظر تهذيب التهذيب: (501/5).

(4) انظر رحلة العبدري: (7).

(5) تقدم تخرجه.

(6) هو الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المري السعدي المنقري التميمي، أبو بحر: سيد عميم، وأحد العظماء الدهاء الفصحاء الشعمان الفائقين. يضرب له المثل في الحلم. ولد في البصرة وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم. ولم يره. ووفد على عمر، حين آلت الخلافة إليه، في المدينة، فاستبقاه عمر، فمكث عاما، وأذن له فعاد إلى البصرة. وأخباره كثيرة جدا. انظر الوفيات: (230/1).

## مبحث فضل تعليم العلم

وأما فضلية تعليم العلم: فقد وردت فيه آيات وأحاديث. قال تعالى: ﴿ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾<sup>(1)</sup> وهو التعليم والإرشاد، ﴿وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبییننه للناس ولا تكتمونه﴾<sup>(2)</sup>، ﴿وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾<sup>(3)</sup>، ﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا﴾<sup>(4)</sup>، ﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾<sup>(5)</sup>، ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾<sup>(6)</sup>.

وقال عليه السلام: لما بعث معاذاً<sup>(7)</sup> إلى اليمن: «لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها»<sup>(8)</sup>.

وقال: «من تعلم بابا من العلم ليعلم الناس أعطي ثواب سبعين نبيا صديقا»<sup>(9)</sup>.

وقال عيسى عليه السلام: "من عِلِمَ وَعَمَلَ وَعَلَّمَ فَذَلِكَ يَدْعَى فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَظِيماً"

وقال عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى للعابدين المجاهدين: ادخلوا الجنة. فيقول: العلماء بفضل علمنا تعبدوا وجاهدوا. فيقول تعالى: أنتم عندي كبعض ملائكتي

(1) التوبة (122).

(2) آل عمران: (187).

(3) البقرة (176).

(4) فصلت (33).

(5) النحل (125).

(6) البقرة (129).

(7) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الانصاري الخزرجي، أبو عبد الرحمن: صحابي جليل، كان أعلم الأمة بالحلال والحرام. وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم. أسلم وهو فتى، وأخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين جعفر بن أبي طالب. وشهد العقبة مع الانصار السبعين. وشهد بدرًا وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثه رسول الله، بعد غزوة تبوك، قاضيا ومرشدا لاهل اليمن. توفي 18 هـ. انظر الاصابة: (الترجمة 8039).

(8) أخرجه أحمد (333/5 ، رقم 22872) ، والبخاري (1096/3 ، رقم 2847) ، ومسلم (1872/4 ، رقم 2406) . وأخرجه أيضا : ابن حبان (377/15 ، رقم 6932)

(9) أخرجه الديلمي (523/3 ، رقم 5633)

اشفعوا تشفعوا، ثم يدخلون الجنة<sup>(1)</sup>». وهذا إنما يكون بالعلم المتعدى بالتعليم لا اللازم الذي لا يتعدى.

وقال: «نعم الهدية ونعم العطية كلمة حق تسمعها فتنتطوي عليها ثم تحملها إلى أخ لك مسلم تعلمه إياها تعدل عبادة سنة<sup>(2)</sup>».

وقال: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه أو معلم أو متعلم<sup>(3)</sup>».

وقال: «إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في حجرها، وحتى الحوت في قعر البحر يصلون على معلم الناس الخير<sup>(4)</sup>».

وقال: «ما أفاد المسلم أخاه فائدة أفضل من حديث حسن بلغه فبلغه<sup>(5)</sup>».

وقال: «لكلمة من الخير يسمعها المؤمن فيعمل بها ويعلمها خير له من عبادة ألف سنة<sup>(6)</sup>».

وخرج رسول الله ﷺ ذات يوم فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله ويرغبون إليه، والثاني يعلمون الناس. فقال: «أما هؤلاء؟ يسألون الله إن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء؟ فيعلمون الناس وإنما بعثت معلما. ثم عدل إليهم وجلس معهم<sup>(7)</sup>».

وقال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية وولد صالح يدعو له بالخير وعلم ينتفع به من بعده<sup>(8)</sup>».

وقال: «الدال على الخير كفاعله<sup>(9)</sup>».

(1) أخرجه في جامع الاحاديث القدسية: (1034).

(2) أخرجه الديلمي (262/4 ، رقم 6773).

(3) أخرجه الترمذی (561/4 رقم 2322) وقال : حسن غريب . وأخرجه أيضا : ابن ماجه (1377/2 رقم 4112).

(4) أخرجه الخطيب (106/8) ، وأورده ابن الجوزی فی العلل المتناهية (78/1 ، رقم 80)

(5) أورده الذهبي في إحياء علوم الدين (10/1) قال العراقي: أخرجه ابن عبد البر من رواية محمد بن المنكدر مرسلًا نحوه.

(6) أخرجه ابن المبارك في الزهد (487/1 ، رقم 1386) عن زيد بن أسلم مرسلًا.

(7) أخرجه ابن ماجه (83/1 ، رقم 229).

(8) أخرجه أحمد (372/2 ، رقم 8831) ، والبخاري في الأدب المفرد (28/1 ، رقم 38) ، ومسلم (1255/3 ، رقم 1631).

(9) أخرجه أحمد (357/5 ، رقم 23077).

وقال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفق منه سرا وجهرا<sup>(1)</sup>».

وقال ﷺ: «رحمة الله تعالى على خلفائي. قيل: ومن خلفاؤك؟ قال: الذين يحبون سنتي ويعلمونها عباد الله<sup>(2)</sup>».

وقال عمر: إن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال قنامة. فإذا سمع العلم خاف واسترجع ذنوبه وانصرف من منزله وليس عليه ذنب. فلا تفارقوا مجالس العلماء فإن الله تعالى لم يخلق على الأرض تربة أكرم من مجالس العلماء.

وعن ثعلبة بن الحكم<sup>(3)</sup> قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله للعلماء: إذا قعد أحدهم على كرسيه لفصل عبادته: إني لم أجعل علمي وحلمي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان فيكم ولا أبالي<sup>(4)</sup>».

قال المناوي: انظر إلى قوله: "علمي وحلمي فيكم" فيتضح لك بإضافته إليه أنه ليس المراد به علم أكثر أهل الزمان والمجرد عن العمل به والإخلاص. قاله السيوطي<sup>(5)</sup>.  
وقال وهب بن منبه<sup>(6)</sup>: مجلس يُتَنَازَع فيه العلم أحب إلي من كثرة الصلاة؛ لعل أحدا يسمع الكلمة فينتفع بها السنة أو ما بقي من عمره.

(1) أخرجه أحمد (8/2 ، رقم 4550) ، والبغاري (2737/6 ، رقم 7091) ، ومسلم (558/1 ، رقم 815) .  
(2) أخرجه ابن عساکر (61/51) .

(3) هو ثعلبة بن الحكم اللثمي الصحابي: نزل البصرة ثم تحول إلى الكوفة. روى عنه سماك بن حرب. انظر الوافي بالوفيات: (491/3) .  
(4) أخرجه الطبراني (84/2 ، رقم 1381) قال الهيثمي (126/1) : رجاله موثقون .  
(5) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ابن سابق الدين الحضري السيوطي، جلال الدين: إمام حافظ مؤرخ أديب. له نحو 600

مصنف، منها الكتاب الكبير، والرسالة الصغيرة. نشأ في القاهرة بتميم (مات والده وعمره خمس سنوات) ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس، وخلا بنفسه في روضة المقياس، على النيل، معزولاً عن أصحابه جميعاً، كأنه لا يعرف أحدا منهم، فألف أكثر كتبه. وكان الاغنياء والامراء يزورونه ويعرضون عليه الاموال والهدايا فيودعها. وطلبه السلطان مرارا فلم يحضر إليه، وأرسل إليه هدايا فردها. وبقي على ذلك إلى أن توفي 911هـ. ألف 600 كتاب. والكلام عنه كثير. للمزيد انظر الشذرات: (51/8) .  
(6) تقدمت ترجمته.

وسئل عبد الله بن المبارك<sup>(1)</sup>: مَنْ الناس؟ قال: العلماء. قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهاد. قيل: فمن السفلة؟ قال: من يأكل بدينه. وفي رواية: الذين يُقْلَنَسُونَ وَيُطَيَّلَسُونَ ويطلبون الشهادات.

(و) العلم أيضا (أُسُّه) أي أصل العمل، فلا يصح عمل بدونه (إِلَّا أَنْ الْعَمَلُ ثَمَرْتُهُ) فلا ينفع علم بلا عمل، فإن العلم بمثالة الشجرة والعمل بمثالة ثمرتها. فالشرف للشجرة إذ هي الأصل لكن الانتفاع بثمرتها. فإذا لا بد للعبد أن يكون له من كلا الأمرين حظ ونصيب. ولهذا قال أبو الحسن: اطلبوا هذا العلم طلبا لا يضر بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبا لا يضر بالعلم.

وفي الحديث: «العلم إمام العمل والعمل تابعه<sup>(2)</sup>». ومثل من قطع الأوقات في طلب العلم وترك العمل كمن قعد هذه المدة يتطهر ويجدد الطهارة فلم يصل صلاة واحدة. مقصود العلم العمل كما أن المقصود بالطهارة وجود الصلاة.

قال بعضهم: كان الرجل يشتغل بالعلم، فإذا بلغ أربعين سنة طوى بساط العلم واشتغل بالعبادة خلاف ما نحن عليه اليوم من استغراق الزمان بالوسائل والإعراض عن المقاصد. فالقوم قرءوا العلم ليعلموا به ما يلزمهم من معرفة ربهم والقيام بعبوديته والتأدب في خدمته، فإذا حصلت لهم هذه الوسيلة رجعوا إلى المقصود بها. ونحن جعلنا العلم حرفة نجتمع بها الحطام والمحترف لا يدع حرفته.

وقال بعضهم: العلم رفيع والمقصود به وصول إلى ما هو أرفع منه. فالعلم شبه مصباح في يدك. ودخلت بيتا مظلمًا تلتمس جوهرا ولا تعرفه إلا بمصباحك فصار الجواهر أرفع من المصباح، وصار المصباح أرفع شيء يطلب به الجواهر.

وبالجملة: فيقدم على العبادات البدنية أمران: العلم والرفق بالمسلمين لأن كلا منهما عمل في نفسه وعبادة تفضل سائر العبادات بتعدي فائدته وانتشار جدواه فكانا مقدمين.

(1) تقدمت ترجمته.

(2) أخرجه في روح البيان: (256/2).

(و) بسبب كون العلم أصلاً للعمل صار (قَلِيلُهُ) أي العمل (مَعَهُ) أي مع العلم (خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِهِ) أي العمل (مَعَ الْجَهْلِ) لأن من عمل بلا علم فسادته أكثر من صلاحه كما تقدم ذكره في الكلام على فضل العلم آنفاً راجعه.

## العلم النافع ما كان لله وحده

ولما كان العلم أفضل الأعمال ولكن هو أعظمها خطراً، ولذلك كان فيه النافع وغير النافع أراد أن يبينهما فبدأ بالنافع فقال:

### 1- العلم النافع ما كان لله (وَالْعِلْمُ النَّافِعُ مَا كَانَ تَعْلَمُهُ وَتُعَلِّمُهُ اللَّهُ تَعَالَى وَخِدَّةُ)

بأن يصحح نيته فيه ويحررها. وتصحيحها: أن يكون غرضه فيه طلب مرضاة الله، واستعماله فيما ينفع عنده وإيثاره الخروج من ظلمة الجهل إلى نور العلم.

قال المناوي: حكى الغزالي أنه لما دخل طريق القوم قال: وجدنا علوم الفقهاء حُجَبًا فليتنا لم نضيع أعمارنا فيها. فقال له عارف: لأي شيء تجعلها حجباً؟ فلو نظرت فيها وفي كل ما في الوجود وجدته دليلاً على الله، رافعاً للحجب عنك. فعمل على ذلك فعرف وجوه دلالتها، فرجع يقول: العلم النافع نور يكشف عن العبد الحجب. وإنما كان حجاباً على من لم يخلص لله في تعلمه وتعليمه.

ولما دخل الجيلائي<sup>(1)</sup> الطريق بعد السياحة ترك تدريس العلم الظاهر، ووقعت النفرة بينه وبين أهله، فلما كمل وشهد وجه دلالة العلوم كلها على الله درس الفقه والأصول والنحو وغيرها حتى مات.

(1) عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسيني، أبو محمد، محيي الدين الجيلائي، أو الكيلاني، أو الجيلي: مؤسس الطريقة القادرية. من كبار الزهاد والمتصوفين. ولد في جيلان وانتقل إلى بغداد شاباً، سنة 488 هـ، فاتصل بشيوخ العلم والتصوف، وبرع في أساليب الوعظ، وتفقه، وسمع الحديث، وقرأ الأدب، واشتهر. وكان يأكل من عمل يده. وتصدر للتدريس والافتاء في بغداد سنة 528 هـ. وتوفي بها. له كتب، منها "الفنية لطالب طريق الحق" - ط " و "الفتح الرباني" - ط " و "فتوح الغيب" - ط " و "بالمفوضات الربانية" - ط ". انظر طبقات الشعراي: (108/1).

وكان الشيخ غانم يُسَلِّكُ جماعته كلهم من طريق علم النحو حتى يوصلهم إلى حضرة الله تعالى. هكذا، هكذا وإلا فلا، لا.

ثم إن صحح النية ينبغي له أن يقدم المسألة لله تعالى أن يوفقه ويعينه عليه. قاله الخطيب<sup>(1)</sup>.

فهذه هي النية الصحيحة. ولا تغتر بقول الجنيد: طلبنا العلم لغير الله فأبي أن يكون إلا لله؛ لأن قائله سلمه لله من تلك الفتنة، فلا يقاس عليه، كمن به مرض أعياء الأطباء فطعن نفسه ليقتلها فصادف موضع الداء فخرج الداء فبرئ.

قال زروق: قيل معناه: امتنع أن يكون حصوله إلا لله. وقيل: بل طلبه لغير الله لا يصيره لغيره لأنه لا يمكن أن يكون لغيره، حتى أن الشيطان يحض العبد على طلب العلم لتقوم عليه الحجة ويقع في ذنوب كثيرة، فبمخالطة الطلبة والعلماء خرج بيان الحلال والحرام الذي يصرفه عن تحليل الحرام وتحريم الحلال، فعند ذلك يود الشيطان أن يرده عن العلم لما يرى من مصلحته، فعند ذلك يجيبه بقوله: "طلبنا العلم لغير الله... إلخ" تأمله فإنه مليح. انتهى.

وفي الحكم: العلم النافع هو الذي ييسط في الصدر شعاعه، ويكشف عن القلب قناعه<sup>(2)</sup>.

وعن ابن مسعود: من تعلم بابا من العلم ليعلمه الناس ابتغاء وجه الله أعطاه الله أجر سبعين نبيا.

(1) هو أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، أبو بكر، المعروف بالخطيب: أحد الحفاظ المؤرخين المقدمين. مولده في (غزوة) بصيغة التصغير - منتصف الطريق بين الكوفة ومكة، ومنشأه ووفاته ببغداد. رحل إلى مكة وسمع بالبصرة والدينور والكوفة وغيرها، وعاد إلى بغداد فقربه رئيس الرؤساء ابن مسلمة (وزير القائم العباسي) وعرف قدره. ثم حدثت شؤون خرج على أثرها مستترا إلى الشام فأقام مدة في دمشق وصور وطرابلس وحلب، سنة 462 هـ. ولما مرض مرضه الأخير وقف كعبه وقرأ جميع ماله في وجوه البر وعلى أهل العلم والحديث. وكان فصيح اللهجة عارفاً بالأدب، يقول الشعر، ولوعاً بالمطالعة والتأليف، ذكر ياقوت أسماء 56 كتاباً من مصنفاته، من أفضلها (تاريخ بغداد - ط) أربعة عشر مجلداً. توفي 463 هـ. انظر النجوم الزاهرة: (87/5).

(2) انظر شرح الحكم للأزهري: (151).

وقال يزيد بن ميسرة<sup>(1)</sup>: من أراد بعلمه وجه الله؛ أقبل الله بوجهه وبوجوه العباد إليه.

ومن أراد بعلمه غير وجه الله؛ صرف الله عنه وجهه ووجوه العباد.

وقال الشافعي: ليس العلم ما حُفِظَ، بل العلم ما نفع.

فائدة: ومن التعليم النافع: التصنيف. وذكر القاضي تاج الدين السبكي<sup>(2)</sup> أن

التصنيف في ذلك أقوى لطول بقائه على ممر الزمان.

وفي الحديث: «إذا مات الإنسان انقطع إلا من ثلاث<sup>(3)</sup>...» فذكر علما ينتفع به. قالوا:

هو التعليم والتصنيف.

وعن ابن عرفة<sup>(4)</sup>: إنما يدخل فيه التصنيف إذا اشتمل على فوائد زائدة على ما في

الكتب السابقة، وإن لم يكن فيه إلا نقل ما في الكتب فهو تخسير للقاعد. وكذا يقول في

حضور مجلس التدريس إن لم يكن فيه زيادة من الشيخ؛ فلا فائدة في حضورها؛ بل

الأولى لمن عرف الاصطلاح وقدر على فهم ما في الكتب أن ينقطع بنفسه ويلزم النظر.

ونظم ذلك في أبيات فقال:

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي مَجْلِسِ الدَّرْسِ نُكْتَةٌ بِتَقْرِيرٍ إِضْحَاحٍ لِمُشْكِلِ صُورَةٍ

وَعَزَوْ غَرِيبُ النَّقْلِ أَوْ حَلَّ مُقْفَلٍ أَوْ إِشْكَالٍ أَبْدَتْهُ نَتِيجَةُ فِكْرَةٍ

فَدَغَّ سَعْيُهُ وَانْظُرْ لِنَفْسِكَ وَاجْتَهِدْ وَلَا تَتْرُكْ فَالتَّرْكُ أَقْبَحُ خَلَةٍ<sup>(5)</sup>

فأجابه تلميذه الأبي<sup>(6)</sup> بقوله:

يَمِينًا بِمَنْ أَوْلَاكَ أَرْفَعَ رُتْبَةً وَزَانَ بِكَ الدُّنْيَا بِأَحْسَنِ زِينَةٍ

(1) هو يزيد بن ميسرة كان رضي الله عنه يقول: إذا بلغك عن الرجل القول فأنكره فخذ بقوله، ودع ما بلغك، وكان يقول: كنا نضحك، ونلعب ونمزح فلما بلغنا المحل الذي يقتدي بنا فما بقي إلا الإمساك عن ذلك، وكان يقول: إذا تكلم الفقيه بالإعراب ذهب الخشوع من قلبه. للمزيد من أخباره انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (42/1).

(2) تقدمت ترجمته.

(3) تقدم تخريجه.

(4) تقدمت ترجمته.

(5) في النسخة: "ج": وإياك تركا فهو أقبح خلة.

(6) تقدمت ترجمته.



لَمَجْلِسُكَ الْعَالِي كَفِيلٌ بِكُلِّهَا عَلَى حُسْنِ مَا عَنْهُ الْمَجَالِسُ وَلَسْتُ  
فَأَبْقَاكَ مَنْ رَقَاكَ لِلنَّاسِ رَحْمَةً وَلِلدِّينِ سَيِّفًا قَاطِعًا كُلَّ بِدْعَةٍ  
ثُمَّ قَالَ الْأَبِيُّ: وَإِنِّي بَارٌّ فِي قِسْمِي.

(و) مَا كَانَ تَعْلَمُهُ وَتُعَلِّمُهُ (رِيَاءً) لِلنَّاسِ (و) لَا (مُبَاهَاةً) أَي مَفَاخِرَةً بِالْعِلْمِ وَادْعَاءَ  
الْعِظَمِ بِهِ (و) لَا (مِرَاءً) أَي جِدَالًا. وَالْمِرَاءُ بِكَسْرِ الْمِيمِ: طَعْنُكَ فِي كَلَامِ الْغَيْرِ لِإِظْهَارِ  
خَلَلٍ فِيهِ لِغَيْرِ غَرَضٍ سِوَى تَحْقِيرِ قَائِلِهِ وَإِظْهَارِ مَزِيَّتِكَ عَلَيْهِ. قَالَ الْغَزَالِيُّ. وَالْجِدَالُ فِي  
الْأَصْلِ: الْمَخَاصِمَةُ بِمَا يَشْغُلُ عَنْ ظُهُورِ الْحَقِّ وَوُضُوحِ الصَّوَابِ. ثُمَّ اسْتَعْمَلَ عَلَى لِسَانِ  
حَمَلَةِ الشَّرْعِ فِي مَقَابِلَةِ الْأَدْلَةِ لظُهُورِ أَرْجَحِيَّتِهَا.

وَإِنَّمَا تُنْهَى عَنِ الْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ لِحَدِيثٍ: «لَا تَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لَتَبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لَتَمَارُوا بِهِ  
السُّفَهَاءَ وَلَتَصْرِفُوا وَجُوهَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ فِي النَّارِ<sup>(1)</sup>». وَلِحَدِيثٍ: «لَا  
يُجَادِلُ إِلَّا مَنَافِقٌ أَوْ مَرْتَابٌ<sup>(2)</sup>». وَلِحَدِيثٍ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْغِضُ الْبَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ  
بِلِسَانِهِ كَمَا يَتَخَلَّلُ الْبَقْرَةُ بِلِسَانِهَا<sup>(3)</sup>».

وَقَالَ الْخَضِرُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا بَنَ عِمْرَانَ تَعْلَمُ الْعِلْمَ لِتَعْمَلَ بِهِ وَلَا تَتَعْلَمُهُ لِتَتَحَدَّثَ بِهِ،  
فَيَكُونُ عَلَيْكَ بَوَارُهُ وَلِغَيْرِكَ نَوْرُهُ.

وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا: «مَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُحَقِّقٌ بَيْنِي لَهُ بَيْتٌ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ  
وَهُوَ مُبْطِلٌ بَيْنِي لَهُ بَيْتٌ فِي رِبْضِ الْجَنَّةِ<sup>(4)</sup>».

وَإِنَّمَا فَضِّلَ الْأَوَّلُ مَعَ أَنَّ الثَّانِيَّ أَفْرَضُ وَأَوْجِبُ، وَهُوَ تَرَكَ الْكُذْبَ وَالْمِرَاءَ مُبْطِلًا؛ لِأَنَّ  
الْمُسْلِمِينَ يَتْرَكُونَهُمَا. وَأَمَّا الْمِرَاءُ وَالْعَبْدُ مُحَقِّقٌ صَادِقٌ، فَمَنْ تَرَكَهُ زَهْدًا فِي التَّظَاهَرِ وَرَغْبَةً فِي  
الصَّمْتِ وَالسَّلَامَةِ فَهُوَ مِنَ الْمُوقِنِينَ وَخُصُوصِ الْمُقَرَّبِينَ.

(1) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ (93/1 ، رَقْم 254).

(2) لَمْ أَحَدُ تَفْرِيغِهِ.

(3) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (165/2 ، رَقْم 6543) ، وَأَبُو دَاوُدَ (301/4 ، رَقْم 5005) ، وَالتِّرْمِذِيُّ (141/5 ، رَقْم 2853).

(4) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ (269/1 ، رَقْم 878) .

وفي الحديث: «ما استكمل أحد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء والجدال وإن كان محققاً<sup>(1)</sup>».

وقال مالك: إن هذا الجدال ليس من الدين في شيء. وقال الغزالي: أكثر ما يوجد المراء في علماء زماننا فلا تجالسهم وفرّ منهم فرارك من الأسد.

وقال الشافعي: المراء في العلم يقسي القلب ويورث الضغائن. وقال بعضهم: ربما كان علمك سبباً لهلاكك من أجل غيرتك عليه وجدلك، فإن العالم إذا فسد قلبه لم يجب أن يذكر أحد بالعلم سواه. والمماري بالعلم هو القاصد دفع ما يرد عليه من صحيح أو فاسد.

قال الجيلاني: أولى الناس بالمقت عالم فقيه فاجر كثير الجدال، لا يرى غير زعمه ودعاوي وهمه. وقيل: شر العلوم ما طلب للمراء، وأرذل العلماء من يطرق باب الأمراء. قيل: المماري لا شفيع له وإن كان محققاً صادقاً.

فائدة: يقال أول من دوّن الجدال: أبو علي الطبري<sup>(2)</sup>.

وقال عز الدين بن عبد السلام في اختصاره للمقاصد: لا يجوز الجدال والمناظرة إلا لإظهار الحق ونصرتة ليعرف ويعمل به، فمن جادل لذلك فقد جاز، وقيل: مندوب، وقيل: واجب. ومن جادل لغرض آخر فقد عصي وخاب. ولا خير في من يتحيل لنصرة مذهبه مع ضعفه وبعد أدلته من الصواب<sup>(3)</sup>.

وللمذاكرة الجائزة آداب منها: تجنب الاضطراب ما عدى اللسان من الجوارح، والاعتدال في رفع الصوت وخفضه، وحسن الإصغاء إلى كلام صاحبه، وأن يجعل الكلام مناوبة لا مناهبة، والثبات على الدعوى إن كان مجيباً، والإصرار على السؤال إن كان

(1) أخرجه أبو يعلى كما في مجمع الزوائد (92/1)

(2) هو الحسن (أو الحسين) بن القاسم الطبري، أبو علي: فقيه شافعي بحات، أصله من طبرستان. سكن بغداد وتوفي بها. قال ابن كثر: أحد الأئمة المهررين في الخلاف وأول من صنف فيه. له (المحرر) في النظر، وهو أول كتاب صنف في الخلاف المجرى، و (الإيضاح) و (العدة) عشرة أجزاء كلاهما في فقه الشافعية. توفي 350هـ. انظر وفيات الأعيان: (130/1).

(3) انظر الفوائد في اختصار المقاصد لعز الدين بن عبد السلام: (42).

سائلا، والاحتراز عن التعنت، والتعصب، والمبالغة، والرياء، والمباهاة، والضحك،  
واللجاج وترك قبول الحق. فإذا وقعت على هذا المقصد أفادت خمس خصال: إيضاح  
الحجة، وإبطال الشبهة، ورد المخطئ إلى الصواب، والضال إلى الرشاد، والزائف إلى صحة  
الاعتقاد مع الذهاب إلى التعليم وطلب التحقيق.

والحاصل: أن الجدال كما قاله النووي<sup>(1)</sup>: قد يكون محمودا. وإن كان في مدافعة الحق  
بغير علم كان مذموما. قال: وعلى هذا التفصيل تتول النصوص الواردة في إباحته وذمه.  
والله تعالى أعلم.

(و) العلم النافع ما تقدم (لَا) ما كان (تَصِيدًا لِلدُّنْيَا) لحديث أنس: «ويل لأمتي من  
علماء السوء يتخذون العلم تجارة يبيعونها لا أربح الله تجارتهم<sup>(2)</sup>». ولحديث أبي هريرة:  
«من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد  
عرف الجنة يوم القيامة<sup>(3)</sup>». ولحديث أبي الدرداء<sup>(4)</sup>: «أوحى الله إلى بعض الأنبياء: قل  
للذين يتفقهون لغير الله ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ويلبسون  
للناس مسوك الكباش إياي يخدعون وبني يستهزئون لأتِيحَنَ لهم فتنة تذر الحليم منهم  
حيران<sup>(5)</sup>». ولحديث: «من ازداد في العلم رشدًا - أي بيانا - فلم يزد في الدنيا زهدا

(1) هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني، النووي، الشافعي، أبو زكريا، محيي الدين: علامة بالغة والحديث. مولده  
ووفاته في نوا (من قرى حوران، بسورية) وبها نسبته تعلم في دمشق، وأقام بها زمنا طويلا. من كتبه "تهذيب الاسماء واللغات - ط"  
و "منهاج الطالبين - ط" و "الدقائق - ط" و "تصحيح التنبيه - ط" في فقه الشافعية. توفي 676هـ. انظر طبقات الشافعية:  
(65/5).

(2) أخرجه الديلمي (398/4، رقم 7154).

(3) أخرجه الترمذي (33/5، رقم 2655) وقال: حسن غريب. وأخرجه أيضا: النسائي في الكبرى (457/3، رقم 5910).

(4) هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الانصاري الخزرجي، أبو الدرداء: صحابي، من الحكماء الفرسان القضاة. كان قبل البعثة تاجرا  
في المدينة، ثم انقطع للعبادة. ولما ظهر الإسلام اشتهر بالشجاعة والنسك. وفي الحديث "عويمر حكيم أمتي" و "نعم الفارس عويمر".  
وولاه معاوية قضاء دمشق بأمر عمر بن الخطاب، وهو أول قاض لها. وهو أحد الذين جمعوا القرآن، حفظا، على عهد النبي صلى الله  
عليه وسلم بلا خلاف. وروى عنه أهل الحديث 179 حديثا. توفي 32هـ. انظر الإصابة: (الترجمة 6119).

(5) أخرجه ابن النجار في ذيل تاريخ بغداد (37/2).

لم يزد من الله إلا بعداً<sup>(1)</sup>».

وقال الأوزاعي<sup>(2)</sup>: شكت النواويس-وفي رواية: المقابر- إلى الله تعالى ما تجد من نسن ريح جيف الكفار، فأوحى الله إليها بطون علماء السوء أنتن مما أنتن فيه. لأن العالم إذا جعل بطنه مجمعا للطعام وحوضا تنصب فيه أودية الحرام لم تكن الجيفة أنتن من بطنه.

وقال الغزالي: علماء السوء: هم الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمترلة عند أهلها. وعلماء الآخرة: هم الذين لا يطلبون الدنيا بعلمهم، فإن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا، وخستها، وكدورتها، وانصرامها، وعظم الآخرة، ودوامها، وصفاء نعيمها، وجلالة ملكها. ويعلم أنهما متضادتان ويعلم أنهما كالضرتين مهما أرضيت أحدهما أسخطت الأخرى. وأنهما ككفتي ميزان مهما رجحت إحدهما خفت الأخرى، وأنهما كالشرق والمغرب مهما قربت من أحدهما بعدت من الآخر، وأنهما كقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ فبقدر ما تصب من الممتلئ في الآخر حتى يمتلئ يفرغ الآخر. فإن من لا يعلم حقارة الدنيا فهو كافر مسلوب الإيمان، ومن لا يعلم مضادة الدنيا للآخرة فهو جاهل بشرائع الأنبياء كلهم؛ بل هو كافر بالقرآن كله، فكيف يعد من جملة العلماء؟ ومن علم هذا كله ولم يؤثر الآخرة على الدنيا فهو أسير الشيطان قد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته فكيف يعد من العلماء. انتهى بخ<sup>(3)</sup>.

وفي الأخبار: يا داوود إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا أثر شهوته على محبتي أن أحرمه لذيد مناجاتي؛ يا داوود لا تسأل عني علما قد أسكره حب الدنيا.

قال الحسن: عقوبة العالم موت القلوب، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة. وقال عمر: إذا رأيتم العالم محبا للدنيا فاقموا على دينكم، فإن كل محب يخوض فيما أحب، وأنشد:

(1) أخرجه السيوطي في جامع الاحاديث رقم: (45654).

(2) هو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعي، من قبيلة الأوزاع، أبو عمرو: إمام الديار الشامية في الفقه والزهد، وأحد الكتاب المرسلين. ولد في بعلبك، ونشأ في البقاع، وسكن بيروت وتوفي بها. وعرض عليه القضاء فامتنع. توفي 157هـ - انظر لوفيات: (275/1).

(3) انظر إحياء علوم الدين للغزالي ومعه تزيين الحافظ: (116/1).

وَرَاعِي الشَّاةَ يَحْمِي الذُّيْبَ عَنْهَا فَكَيْفَ إِذَا الذُّنَابُ لَهَا رُعَاةٌ<sup>(1)</sup>  
وقال:

يَا مَعْشَرَ الْقُرَاءِ يَا مِلْحَ الْبَلَدِ مَا يَصْلِحُ الْمِلْحَ إِذَا الْمِلْحُ فَسَدَ<sup>(2)</sup>  
وقال بعض السلف: العلماء يحشرون في زمرة الأنبياء، والقضاة يحشرون في زمرة  
السلاطين. وفي معنى القضاة: كل فقيه قصده طلب الدنيا بعلمه.

وسأل عبد الله بن سلام<sup>(3)</sup> كعب الأحبار<sup>(4)</sup>: ما يذهب بالعلم من قلوب العلماء بعد  
أن حفظوه وعقلوه؟ قال: يذهبه الطمع وشره النفس، وطلب الحوائج إلى الناس.  
وقال أعرابي لأهل البصرة: من سيدكم؟ قالوا: الحسن. قال: لم سادكم؟ قالوا: احتاج  
الناس إلى علمه واستغنى هو عن دنياهم.

وقال الشافعي: لا عيب بالعلماء أقبح من رغبتهم فيما زهدهم الله فيه، ومن زهدهم  
فيما رغبتهم الله فيه.

قيل: طلاب العلم ثلاثة: واحد يطلبه للعمل به، وآخر يطلبه ليعرف الاختلاف فيتورع  
ويأخذ بالاحتياط فهذا هو العلم النافع، وآخر يطلبه ليعرف التأويل فيتناول الحرام  
فيجعله حلالا، ويسأل عن الشيء فيقال له حرام فيقول: كيف أصنع حتى يجوز لي  
فيسأل العلماء فيخبرونه بالاختلاف والشبهة، فهذا يكون هلاك الخلق على يديه والجهل  
خير منه.

(1) لم أحد قائله.

(2) البيت لم أحد قائله، ووجدته في المحاضرات في الأدب واللغة لليوسي قال: والمراد بالقراء: الفقهاء وهم يصلح ما فسد كما يصلح  
الطعام بالملح، فإذا فسدوا تعذر الصلاح.

(3) هو عبد الله بن سلام بن الحارث أبو يوسف: صحابي، أسلم عند قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، وكان اسمه "الحصين"  
فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله. وفيه الآية: "شهد شاهد من بني إسرائيل" والآية "ومن عنده علم الكتاب" وشهد  
مع عمر فتح بيت المقدس والجابية. ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية، اتخذ سيفاً من خشب، واعتزلها. وأقام بالمدينة إلى أن مات. له  
25 حديثاً. توفي 43هـ. انظر الإصابة: (الترجمة 4725).

(4) هو كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري، أبو إسحاق: تابعي. كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، وأسلم في زمن أبي  
بكر، وقدم المدينة في دولة عمر، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيراً من أخبار الأمم الغابرة، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة.  
وخرج إلى الشام، فسكن حمص، وتوفي فيها، عن مئة وأربع سنين. توفي 32هـ. انظر الإصابة: (الترجمة 4798).

وعن علي عليه السلام: ما قطع ظهري في الإسلام إلا رجلاً: عالم فاجر يزهد الناس في علمه لما يرون من فجوره، ومبتدع ناسك يرغب الناس في بدعته لما يرون من نسكه.

وعن الحسن: أنه أعطاه يوماً رجل خراساني خمسة آلاف درهم، وأثواباً من رقيق خَزْ خراسان، فقال له الحسن: ضم إليك نفقتك وكسوتك فلا حاجة لنا بذلك فإن من جلس مثل مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقي الله تعالى يوم يلقاه ولا خلاق له.

وروي: العلماء أمناء الرسل، ما لم يدخلوا في الدنيا، فإذا دخلوا في الدنيا، فاحذروهم على دينكم.

وقال حاتم الأصم<sup>(1)</sup>: لا يجلس في المجمع إلا جامع، أي جامع للدنيا أو للعلوم التي يعجز عن العمل بها، والعارفون رأوا: من أثر دنياه على آخرته غير عالم. ورأوا: من انتصر لنفسه أو غضب لها غير حكيم.

وقال الفضيل: إني لأرحم ثلاثة: عزيز قوم ذل، وغنيا افتقر، وعالماً تلعب به الدنيا. وأنشد:

عَجِبْتُ لِمُبْتَاعِ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى وَمَنْ يَشْتَرِي دُنْيَاهُ بِالَّذِينَ أُعْجِبُ  
وَأُعْجِبُ مِنْ هَٰذَيْنِ مَنْ بَاعَ دِينَهُ بِدُنْيَا سِوَاهُ فَهُوَ مِنْ ذَيْنِ أَخْيَبُ

وقال وهب بن منبه لعطاء الخراساني<sup>(2)</sup>: كان العلماء قبلنا قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم، وكانوا لا يلتفتون إلى دنيا غيرهم، وكان أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم رغبة في علمهم، فأصبح أهل العلم فينا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في دنياهم، وأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم.

(1) هو حاتم بن عنوان، أبو عبد الرحمن، المعروف بالأصم: زاهد، اشتهر بالورع والتقشف. له كلام مدون في الزهد والحكم. من أهل بلخ. زار بغداد واجتمع بأحمد بن حنبل. وشهد بعض معارك الفتوح. وكان يقال: حاتم الأصم لقمان هذه الأمة. توفي 237هـ. انظر تاريخ بغداد: (241/8).

(2) هو عطاء بن مسلم بن ميسرة الخراساني، نزيل بيت المقدس: مفسر. كان يغزو، ويكثر من التهجد في الليل. من تصنيفه "الخصر - خ" أوراق منه، و "الناسخ والمنسوخ - خ" جزء منه، كلاهما في الظاهرية. توفي 135هـ. انظر الشذرات: (192/2).

وقال ذو النون المصري: كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضا للعالم وتركا لها، فاليوم يزداد الرجل بعلمه للعالم حبا ولها طلبا. كان الرجل ينفق ماله على علمه ويكسب الرجل اليوم بعلمه مالا، وكان يرى على طالب العلم زيادة في باطنه وظاهره، فاليوم يرى على كثير من أهل العلم فساد في الظاهر والباطن. وأنشد ابن المبارك (1):

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ وَأَجْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا  
وَبَاعُوا التُّفُوسَ وَلَمْ يَرْبَحُوا وَلَمْ تَغْلُ فِي الْبَيْعِ أَثْمَانُهَا  
لَقَدْ رَتَعَ الْقَوْمُ فِي جِيفَةٍ يَبِينُ لِذِي اللَّبِّ إِنْتَانُهَا

وقال بعضهم: رأيت سفيان الثوري حزينا فسألته عن ذلك فقال وهو برّم (2) ما ضرنا إلا أنا صرنا متجرا لأبناء الدنيا، قلت: وكيف ذلك؟ قال: يلزمنا أحدهم حتى إذا عُرف بنا وحمل عنا جعل عاملا أو حاجبا أو قهرمانا أو جابيا، فيقول: حدثنا سفيان الثوري.

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: مثلُ علماء السوء مثل صخرة وقعت في فم نهر لا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء ليخلص إلى الزرع.

وكذلك علماء الدنيا قعدوا على طريق الآخرة، فلا هم نفذوا ولا تركوا العباد يصلُّون ويسلكون إلى الله تعالى. ومثلهم أيضا مثل قناة الحِشِّ: ظاهرها حصٌّ وباطنها نمن. وكمثل القبور المشيدة: ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى. ومثل من تعلم العلم لاكتساب الدنيا وتحصيل الرفعة فيها: كمثل من رفع العذرة بملقعة من الياقوت فما أشرف الوسيلة وما أحسن المتوسل إليه. فالعلم آلة حسنة كالسيف مثلا: حسن في نفسه أو في استعماله في الجهاد ونحوه. وإنما يعرض له الذم من جهة استعماله في مذموم؛ كقطع الطريق وإخافة السبيل على المسلمين. فكما لا يذم السيف في نفسه ولا في استعماله في الجهاد ونحوه؛ فكذلك العلم لا يذم في نفسه ولا في استعماله في مرضات الله تعالى وفي ما يقربه إليه.

(1) تقدمت ترجمته.

(2) البرم: السئامة.

وقال وهب بن منبه: مثل من تعلم العلم ولا يعمل به: كمثل امرأة زنت سرا فجاءها المخاض فافتضحت. وكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله يوم القيامة على رؤوس الأشهاد.

وقال الفضيل: لو صحت النية في العلم لم يكن شيء أفضل منه، ولكنهم تعلموه لغير العمل به، وجعلوه شبكة يصطادون به الدنيا.

وقال سفيان الثوري: إِنَّمَا يُتَعَلَّمُ الْعِلْمُ لِيُتَقَى بِهِ اللَّهُ، وَإِنَّمَا فَضُلُ الْعِلْمِ عَلَى غَيْرِهِ لِيُتَقَى بِهِ اللَّهُ، فَإِنْ اخْتَلَّ هَذَا الْمَقْصِدُ فَسَدَتْ نِيَّةُ طَالِبِهِ بِأَنْ يَسْتَشْعِرَ بِهِ التَّوَصُّلَ إِلَى مِثْلِ دُنْيَوِيٍّ مِنْ مَالٍ أَوْ جَاهٍ فَقَدْ بَطُلَ أَجْرُهُ وَحَبِطَ عَمَلُهُ وَخَسِرَ خَسْرَانًا مَبِينًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ كَانَ يَرِيدَ حَرْثَ الدُّنْيَا نُوتَهِ مِنْهَا﴾<sup>(1)</sup>.

وقال الفضيل: كان العلماء ربيع الناس إذا نظر إليهم المريض لم يسره أن يكون صحيحا، وإذا نظر إليهم الفقير لم يود أن يكون غنيا، وقد صاروا اليوم فتنة على الناس؛ قال هذا في زمانه الصالح فكيف لو أدرك زماننا هذا. فإننا لله وإنا إليه راجعون. وفي الحديث: «همة السفهاء الرواية، وهمة العلماء الدراية»<sup>(2)</sup>.

وقال ابن مسعود: كونوا للعلم رعاة ولا تكونوا للعلم رواة، فقد يعي من لا يدري، ويروي من لا يرعوي.

وقال الفضيل بن عياض: العلم طبيب الدين ودواؤه، والدنيا داء الدين، فإذا كان الطبيب يجر الداء لنفسه فمتى يبرئ غيره.

وقال الغزالي: الدنيا دار مرض، والعلماء أطباء، والسلطين قوام دار المرضى، ولكن الداء العضال فقد الطبيب، فإن الأطباء هم العلماء، وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضا شديدا عجزوا عن علاجه، وصارت لهم سلوة في عموم المرضى حتى لا يظهر نقصانهم فاضطروا إلى إغواء الخلق والإشارة إليهم بما يزيدهم مرضا؛ لأن الداء المهلك هو حب

(<sup>1</sup>) الثوري (20).

(<sup>2</sup>) رواه الخطيب في " اقتضاء العلم العمل " ( 1/5 ) ، و ابن عساكر ( 2/78/19 ) .



الدنيا. وقد غلب هذا الداء على الأطباء فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استنكافا لهم من أن يقال لهم: فما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم، فبهذا السبب عم الداء وعظم الوباء وانقطع الدواء وهلك الخلق لفقد الأطباء، بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء، فليتهم إذ لم يصلحوا لم يفسدوا، وليتهم سكتوا وما نطقوا. فإنهم إذا تكلموا لم يهمهم في مواعظهم إلا ما يرغب العوام ويستميل قلوبهم ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء وتغليب أسباب الرجاء وذكر دلائل الرحمة لأن ذلك ألد في الأسماع، وأخف على الطباع، فينصرف الخلق عن مجلس الوعظ وقد استفادوا مزيد جرأة على المعاصي ومزيد ثقة بفضل الله. ومهما كان الطبيب جاهلا أو خائنا أهلك بالدواء حيث يضعه في غير محله... إلى أن قال: فلم يحصل للعلماء اليوم من ثمرة العلم إلا أنهم يقتدى بهم في الحرص على الدنيا والتكالب عليها. فيقال: لو كان هذا مذموما لكان العلماء أولى باجتنابه منا فليتهم كانوا كالعوام إذا ماتوا ماتت معهم ذنوبهم، فما أعظم الفتنة التي تعرضوا لها لو تفكروا. انتهى<sup>(1)</sup>.

وقيل: العالم هو الذي يدعوا الناس إلى مثل حاله حتى يكونوا مثله، فإذا نظروا إليه زهدوا في الدنيا وشهواتها لزهده فيها.

وقال سهل<sup>(2)</sup>: العلم يهتف بالعمل فإن أجابه قرء وإلا ارتحل.

وقال ابن عيينة<sup>(3)</sup>: إذا رأيتم طالب العلم كلما ازداد علما رغب في الدنيا وشهواتها فلا تعلموه فإنكم تعينوه على دخول النار.

(1) انظر إحياء علوم الدين للغزالي: (365/5).

(2) هو سهل بن عبد الله بن يونس التستري، أبو محمد: أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والتكلمين في علوم الاخلاص والرياضيات وعيوب الافعال. له كتاب في (تفسير القرآن - ط) مختصر، وكتاب (رفائق المحبين) وغير ذلك. توفي (283). انظر طبقات الصوفية: (206).

(3) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الملاي الكوفي، أبو محمد: محدث الحرم المكي. من الموالى. ولد بالكوفة، وسكن مكة وتوفي بها. كان حافظا ثقة، واسع العلم كبير القدر، قال الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز. وكان أعور. وحج سبعين سنة. له (الجامع في الحديث، وكتاب في (التفسير). توفي 198هـ. انظر الوفيات: (210/1).

وقال يحيى بن معاذ<sup>(1)</sup>: إذا طلب العالم الدنيا ذهب بهاؤه. وإياك يا أخي أن تقنع من العلم بالقشور. ومن الرق المنشور بالدوائر والعشور، أولئك قوم غفلوا عن الرحلة الثانية، وشغلوا بالدنيا الدنية عن القطوف الدانية، فهم في منازل الشر رافلون، وفي مهابط الغي سافلون، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون.

(و) العلم النافع ما تقدم ذكره لا ما كان (كحَيْلًا) لاستمالة النفوس إليه ليعلموا قدره وينتشر ذكره وصيته، ويظفر بمراتب من الرياسة وتحبلا (لِصَرْفِ الْقُلُوبِ) إليه طلبا للمثلة عند الخلق والشرف، واستجلابا للدخول على الأمراء وتوصلا للحيل التي بها يظهر جاهه عند الخلق ككثرة الكلام بالعلم.

وفي الحديث: «من تعلم صرف الكلام<sup>(2)</sup> ليسبي به قلوب الرجال والنساء لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا<sup>(3)</sup>».

وقال الإمام أحمد: علماء الكلام زنادقة. يعني بعلماء الكلام الذين يتعلمون حلاوة المنطق وضروب الفصاحة ليمشددوا بها ويتفاصحوا بحضرة أبناء الدنيا، ليستميلوا قلوبهم بذلك ويمدحهم، ويعلو قدرهم، وينشر ذكرهم، ويرتفع صيتهم، ويظفروا بمراتب من الرياسة. وإنما كانوا زنادقة لأن ظواهرهم تخالف بواطنهم؛ لأن الظاهر منهم يقتضي تعظيم قدر العلم والإفصاح عن دقائقه وتقريب ما أشكل منه بالعبارات البليغة الرائقة. وأما الباطن منهم: فإنما ذلك كله حبالات وشرك نصبوه لنيل الرياسة وجيفة الدنيا وكثير منهم يتمشدد ويتفاصح بما لم يحيط علما بحقيقته. وذلك كله غش ونفاق لا شك فيه.

وقال الثوري: إذا رأيت العالم كثير الأصدقاء فاعلم أنه مخلط، وإذا رأيت الرجل محببا إلى إخوانه محمودا في جيرانه فاعلم أنه مرء.

(1) تقدمت ترجمته.

(2) صرف الكلام: أن يزداد فيه ويحسن.

(3) أخرجه أبو داود (4/302، رقم 5006)، والبيهقي في شعب الإيمان (4/252، رقم 4974).

ودخل الثوري على الفضيل بن عياض فقال له: عظمي، فقال الفضيل: ما ذا أعظكم معاشر العلماء كنتم سراجا يستضاء بكم في البلاد فصرتم ظلمة، وكنتم نجوماً يهتدى بكم في ظلمات الجهل فصرتم حيرة، يأتي أحدكم إلى هؤلاء الولاة؛ فيجلس على فرشهم ويأكل من طعامهم ويقبل هديتهم، ثم يدخل بعد ذلك المسجد فيجلس فيه فيقول: حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ. والله ما هكذا يطلب العلم. فبكى سفيان وخرج.

وقال الفضيل: إذا رأيتم العالم ينشرح لذكره بالصلاح عند الأمراء وأبناء الدنيا فاعلموا أنه مرء.

وقال كعب الأحبار: سيأتي على الناس زمان يتعلم جهالهم العلم ثم يتغايرون به على القرب من الأمراء كما يتغايرون النساء على الرجال، فذلك حظهم من علمهم.

وقال صالح المري<sup>(1)</sup>: من ادعى الإخلاص في العلم فليعرض على نفسه إذا وصفه الناس بالجهل والرياء، فإن انشرح صدره لذلك فهو صادق، وإلا فهو مرء.

وقال الفضيل: من علامة المرائين بعلمهم أن يكون علمهم كالجبال وعملهم به كالذر.

وقال: لو أن حامل العلم عمل به لتجرع مرارته ولم يفرح به لأنه كلما ازداد علماً ازداد تكاليف فلا ينبغي للعالم أن يفرح بعلمه إلا بعد مجاوزة الصراط.

وكان منصور بن المعتمر<sup>(2)</sup> يقول لعلماء زمانه: لستم بعلماء وإنما أنتم متلذذون بالعلم يسمع أحدكم المسألة ويحكىها للناس. ولو أنكم عملتم بعلمكم لتجرعتم المرات والغصص ولحثكم علمكم على التورع حتى لا يجد أحدكم رغيفا يأكله

(1) هو صالح المري الزاهد واعظ البصرة روى عن الحسن وجماعة وحديثه ضعيف. قال عفان كان شديد الخوف من الله إذا قص كانه

تكلّى. للمزيد من أخباره انظر طبقات الشعراء: (43/1).

(2) هو منصور بن المعتمر بن عبد الله السلمي، أبو عتاب: من أعلام رجال الحديث. من أهل الكوفة. لم يكن فيها أحفظ للحديث منه. وكان ثقة ثباتاً. توفي 132 هـ. انظر الحلية: (40/5).

ويختبر العبد نفسه في قصده بالعلم بأن ينظر فيما يجري على لسانه من العلم والحكمة فإن كانت نفسه لا تميل إلى خردلة من جَاهٍ وَشَرَفٍ وَجَرٍّ مَنفَعَةٍ من السامعين له فليفسخ عقدة الصمت عن لسانه وينطق بالعلم والحكمة لينتفع بها قلوب الخلق، بعدما يكون هو أكثرهم انتفاعا بالعلم وأكثرهم خشوعا. وإن عدم هذا خيفَ عليه أن يكون من الثلاثة الذين ورد أنهم «أول من تسعر بهم النار يوم القيامة»<sup>(1)</sup>. فمن طلب بالعلم والحكمة لقمة أو رفعة أو منزلة فقد تعرض للسقوط من عين الله. فالأعمى لا يصلح أن يكون دليلا، والطبيب لا يصلح أن يكون عيلا. فالعبد إذا كان بالعلم موصوفا، وكان قلبه إلى الحظ العاجل مصروفا، فقلبه من حب الدنيا معلول، وباب الأسرار عنه مقفول. فكل من مال بالكلام بالعلم إلى وزن خردلة من جَاهٍ أو رفعة أو طلب ذرة من حطام الدنيا فلفظه بالعلم تعرض منه لمقت الله عز وجل وسخطه، فحب الجاه والشرف إذا تفاش لا يشفي منه العبد إلا العناية والخصوصية. فالعبد إذا تكلم بالعلم أشرف الجبار جل جلاله على قلبه فإن رأى سره خالصا لوجهه رفع قدره عند ملائكته. فإن أهل السماء ينظرون إلى صالحى أهل الأرض كما نرى نحن النجوم في السماء وإن رأى سبحانه في قلب عبده إذا تكلم بالعلم ميلا إلى حب جَاهٍ أو شرف أو منزلة عند الخلق أسقطه من عينه، وأزال لذة المناجاة من قلبه، فمثل هذا المحروم في جلسائه الشاخصين إليه؛ شبه قوم شخصوا بأبصارهم إلى بكر زافة إلى بعلمها تعظيما لها، وهي مفتضة بفجور، وعلقت بجنين، فعما قليل تفتضح ويخرج تعظيمها من القلوب إذا حلت بها شواهد الامتحان، ولا يفسد الكلام بالعلم إلا بميل إلى طمع أو جَاهٍ أو شرف أو غير ذلك من مقاصد السوء، فحب الجاه والشرف والمنزلة عند الناس مخ الدنيا ولبابها، فمن تلذذ قلبه بذوق ذرة من ذلك فهو جبار لا عبد، والجبروت لا تصح للعبيد. وما مقت الله عز وجل من الجبابة بعبيد.

(1) أخرجه الترمذى (591/4، رقم 2382) وقال : حسن غريب . والحاكم (579/1).

وفي كتاب الفرق بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة: حدثونا عن مندل بن علي<sup>(1)</sup> عن أبي نعيم الشامي<sup>(2)</sup> عن محمد بن زياد<sup>(3)</sup> عن معاذ بن جبل<sup>(4)</sup> قال: من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع، ومن العلماء من يخزن علمه فلا يحب أن يوجد عند غيره، فذلك في الدرك الأول من النار؛ ومن العلماء من يكون في عمله بمنزلة السلطان، فإن رد عليه شيء من علمه أو تهوون بشيء من حقه غضب، فذلك في الدرك الثاني من النار؛ ومن العلماء من يجعل حديثه وغرائب علمه لأهل الشرف واليسار ولا يرى أهل الحاجة له أهلاً، فذلك في الدرك الثالث من النار؛ ومن العلماء من يستفزه الزهو والعجب فإن وعظ عنف، وإن وعظ أنف، فذلك في الدرك الرابع من النار؛ ومن العلماء من ينصب نفسه للفتيا فيفتي بالخطأ، والله يبغض المتكلفين، فذلك في الدرك الخامس من النار؛ ومن العلماء من يتكلم بكلام اليهود والنصارى ليعزز به علمه، فذلك في الدرك السادس من النار؛ ومن العلماء من يتخذ علمه مروءة ونبلاً وذكرًا بين الناس، فذلك في الدرك السابع من النار.

وفي الحديث: «لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وفي كنفه ما لم يمالئ قراؤها أمراءها، وما لم يذك صلحاؤها فجارها، وما لم يمالئ خيارها أشرارها؛ فإذا هم فعلوا ذلك رفع الله عنهم يده، ثم سلط عليهم جبابرهم فساموهم سوء العذاب، ثم ضربهم بالفاقة والفقر وملاؤ قلوبهم رعباً<sup>(5)</sup>».

(1) هو مندل (ويقال: اسمه عمرو، ومندل لقبه) ابن علي العري، أبو عبد الله: من رجال الحديث. من أهل الكوفة. توفي 167هـ. انظر الأعلام: (292/7).

(2) له عبد الملك بن محمد بن عدي، أبو نعيم الجرجاني الاسترأبادي، نزيل جرجان: فقيه: حافظ للحديث. له تصانيف، منها كتاب "الضعفاء" في رجال الحديث، عشرة أجزاء. توفي 323هـ. انظر تذكرة الحفاظ: (35/3).

(3) محمد بن زياد علم على عدة علماء من علماء الحديث ولا نعرف أيهم المقصود.

(4) تقدمت ترجمته.

(5) أخرجه ابن المبارك في الزهد: (821).

ولمّا ترك بشر الحافي<sup>(1)</sup> الجلوس لإملاء الحديث قالوا له: ما تقول لربك يوم القيامة؟ فقال: أقول يا رب قد أمرتني فيه بالإخلاص ولم أجد عند نفسي إخلاصاً. وكان يقول: لو أن عبداً علم العلم كله وعبد الله حتى صار كهذه السارية أو الشنّ البالي، ثم أنه لم يفتش ما يدخل في جوفه أحلال هو أم حرام ما تقبل منه عبادة<sup>(2)</sup>. واعلم أن العالم إذا تصدى للتدريس أو الوعظ فقد تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون؛ لأنه لا يخلو غالباً من إظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت. قال الغزالي: لأنه إن كان كلامه مقبولا حسن الوقع في القلوب لم ينفلك عن الإعجاب والخيلاء والتصنع والتزين، وإن رد كلامه لم يخل عن أنفة وغيظ وحقد على من يرده أكثر من غيظه على من يرد كلام غيره، وقد يلبس الشيطان عليه ويقول: إن غيظك من حيث أنه رد الحق وأنكره، فإن وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان. ثم إن كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الرد والاعتراض لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ حرصاً على استجلاب الثناء والله لا يحب المتكلفين، والشيطان قد يلبس عليه ويقول: إنما حرصك على تحسين الألفاظ والتكلف فيها لينتشر الحق ويحسن موقعه في القلب إعلاء لدين الله تعالى. فإن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من ثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع. وإنما يدور حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين. ومهما اختلج ضميره لهذه الصفات ظهر على ظاهره حتى يكون للموقر له والمعتز به بفضله أكثر احتراماً. ويكون بقلائه أشد استبشاراً ممن يغلو في موالاة غيره. وإن كان ذلك الغير مستحقاً للموالاة. وربما ينتهي الأمر بأهل العلم إلى أن يتغايروا تغاير النساء فيشق على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته على غيره. وإن كان يعلم أنه ينتفع بغيره ويستفيد منه في دينه. فكل هذا رشح للصفات المهلكة في سر القلب التي قد يظن العالم النجاة منها وهو

(1) تقدمت ترجمته.

(2) انظر تنبيه المغترين للشعراني: (37).

مغرور فيها، وإنما ينكشف ذلك بهذه العلامات ففتنة العالم عظيمة فيجب عليه إن أحس هذه الصفات العزلة وطلب الخمول ودفع الفتاوى مهما سئل. والصحابة كلهم مُفْتُونُونَ وكانوا يتدافعون الفتوى، وكل من كان يستفتي كان يود أن يكفيه غيره، وعند هذا ينبغي أن يتقي شياطين الإنس إذا قالوا: لا تفعل هذا. فإن هذا الباب لو انفتح لاندurst العلوم بين الخلق. ولْيقل لهم: إن دين الإسلام مستغن عني، فقد كان معمورا قبلي وكذلك يكون بعدي، ولو مت لم ينهدم والدين مستغن عني وما أنا بمستغن عن إصلاح قلبي.

وأما أداء ذلك إلى اندراس العلم فَحِيلٌ تدل على غاية الجهل فإن الناس لو حبسوا في السجن وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب العلو والرياسة يحملهم على كسر القيود وهدم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم. فالعلم لا يندرس ما دام الشيطان يحبب إلى الخلق الرياسة، والشيطان لا يفتر عن عمله إلى يوم القيامة بل ينتهز لنشره أقوام لا نصيب لهم في الآخرة كما ورد: «إن الله تعالى يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم<sup>(1)</sup>»، «وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر<sup>(2)</sup>» فلا ينبغي أن يغتر العالم بهذه التليسات. فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربى في قلبه حب الجاه والشرف والثناء والتعظيم فإن ذلك بذر النفاق، فقد ورد: «حب الجاه والشرف ينبتان النفاق في القلب<sup>(3)</sup>». وورد أيضا: «ما ذئبان ضاريان أرسلتا في زريبة غنم بأكثر فسادا فيها من حب الجاه والمال في دين المرء المسلم<sup>(4)</sup>». فليكن فكرُ العالم في التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه وفي استنباط طريق الخلاص منها... إلى آخر كلامه<sup>(5)</sup>.

(1) أخرجه أيضًا: الطبراني في الصغير (97/1، رقم 132).

(2) أخرجه الطبراني (39/17، رقم 81) قال الهيثمي (303/5): رجاله ثقات. وأخرجه أيضًا: القضاة (159/2، رقم 1096).

(3) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف. الإحياء: (159/3).

(4) أخرجه الطبراني في الأوسط: (772).

(5) انظر إحياء علوم الدين: (103/7).

ثم قال: (وَالْأَمْرُ) بأن كان تعلمه وتعليمه رياء ومباهاة، أو تصيدا للدنيا... إلخ (كَانَ) ذلك (حُجَّةً) على صاحبه (وَوَبَّالاً عَلَى صَاحِبِهِ) وسببا في تكثير العذاب عليه وحبط عمله فيقال له يوم القيامة: قد استوفيت حظك في الدنيا موفورا فيخسر خسرانا مبينا. والوبال: المكروه وسوء العقبى.

قال ابن العربي: دخلت على بعض المشايخ وكتابي في كمي، فقال: يا هذا تكثر عليك الحجج؛ فوالله ما من حرف تعلمته ولم تعمل به إلا كان حجة عليك، فأقلل أو أكثر. وقال الشعبي<sup>(1)</sup>: اطلبوا العلم وأنتم تبكون فإنه كله حجة عليكم عند ربكم، فويل للجاهل حيث لم يتعلم مرة، وويل للعالم حيث لم يعمل بما علمه ألف مرة؛ لأن حجة الله عليه أظهر.

(و) العلم النافع أيضا: (مَا أَفَادَ الْخَشْيَةَ) وهي مهابة يصحبها تعظيم لأنها تحجز عن المعاصي والقبائح وتدعوا إلى المحاسن والنصائح. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾<sup>(2)</sup>.

وفي الحكم: العلم إن قارنته الخشية فلك وإلا فعليك<sup>(3)</sup>.

قيل: إذا أراد الله تعالى أن يخذل عبدا أعطاه العلم أو النعمة أو الفقر أو البلاء أو الحكمة أو الوقت أو الغنى، ويمنعه الخشية أو الشكر أو الصبر أو الأدب أو العمل أو السخاء. قال الإمام أحمد: علامة إخلاص العالم أنه كلما ازداد علما ازداد خشية وزهدا في الدنيا. وقال الحسن: كان الرجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يرى ذلك في تخشعه ولباسه وبصره ولسانه وصلاته وزهده، وإن كان الرجل ليصيب الباب من أبواب العلم فيعمل به فيكون له خيرا من الدنيا بما فيها لو كانت فيضعها في الآخرة.

(1) الشعبي: هو عبد الرحمن بن قاسم الشعبي أبو المصنف قاضي مالقة بالأندلس، كانت تدور عليه الفتيا أيام حياته في قطره وكان يذهب إلى الاجتهاد. له مجموع في الأحكام. توفي 499هـ. انظر الأعلام: (47/4).

(2) فاطر: (28).

(3) انظر شرح الحكم العطائية للأزهري: (151/1).



فائدة: ومن فضائل الخشية: أنها تورث البكاء، وقد عد من بكى من خشية الله ممن يظلمهم الله تعالى بعرشه.

وحكى الطبري<sup>(1)</sup> عن التيمي<sup>(2)</sup> أنه قال: من أوتي من العلم ما لم يبكه ويورثه الخشوع لخلق ألا يكون أوتي علما ينفعه لأنه تعالى نعت العلماء بقوله: "ويخرون للأذقان يبكون".

ونقل الغزالي عن ابن عباس أنه قال: إذا قرأ أحدكم سجدة سبحان فلا تستعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه. قال الغزالي: فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فإن ذلك من أعظم المصائب<sup>(3)</sup>.

وفي الحديث: «إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله حرمه الله على النار»<sup>(4)</sup>. قال قتادة<sup>(5)</sup>: هذا نعت أولياء الله، نعتهم بأن تقشعر جلودهم وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما ذلك في أهل البدع وهو من الشيطان الرجيم<sup>(6)</sup>.

وأخرج البغوي<sup>(7)</sup> عن عبد الله بن عروة بن الزبير<sup>(1)</sup> قال: قلت لجدتي أسماء: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا قرئ عليهم القرآن؟ قالت: تدمع أعينهم وتقشعر

(1) تقدمت ترجمته.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) انظر إحياء علوم الدين: (38/2).

(4) ذكره الحكيم (395/1)، وأبو بكر الشافعي في الفيلانيات (ص 129، رقم 271)، وأورده الحافظ في الإصابة.

(5) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي البصري الأكمه أحد علماء التابعين ومن أعلمهم بالتفسير واختلاف العلماء، روى عن

(6) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي البصري الأكمه أحد علماء التابعين ومن أعلمهم بالتفسير واختلاف العلماء، روى عن

أنس وابن المسيب وابن سيرين ومجاهد ومسروق وغيرهم، وروى عنه الأعمش والأوزاعي والشعبي، وكان حافظا عالما باللغة والأنساب

وأيام العرب. توفي سنة: 117 وقيل 118 هـ. (وفيات الأعيان ج 4 ص: 85، طبقات الفقهاء ص: 89، شذرات الذهب ج 1 ص:

153).

(7) انظر معالم التنزيل: (116/7).

(1) هو الحسين بن مسعود بن محمد، الفراء، أو ابن الفراء، أبو محمد، ويلقب بمحبي السنة، البغوي فقيه، محدث، مفسر. نسبته إلى (بغا)

(2) هو الحسين بن مسعود بن محمد، الفراء، أو ابن الفراء، أبو محمد، ويلقب بمحبي السنة، البغوي فقيه، محدث، مفسر. نسبته إلى (بغا)

(3) هو الحسين بن مسعود بن محمد، الفراء، أو ابن الفراء، أبو محمد، ويلقب بمحبي السنة، البغوي فقيه، محدث، مفسر. نسبته إلى (بغا)

(4) هو الحسين بن مسعود بن محمد، الفراء، أو ابن الفراء، أبو محمد، ويلقب بمحبي السنة، البغوي فقيه، محدث، مفسر. نسبته إلى (بغا)

(5) هو الحسين بن مسعود بن محمد، الفراء، أو ابن الفراء، أبو محمد، ويلقب بمحبي السنة، البغوي فقيه، محدث، مفسر. نسبته إلى (بغا)

جلودهم. قال: فقلت لها: إن ناسا اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خر أحدهم مغشيا عليه. قالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وأخرج عن ابن عمر أنه مر برجل من أهل العراق ساقط قال: ما بال هذا؟ قيل: إنه إذا قرئ عليه القرآن وسمع ذكر الله سقط. قال ابن عمر: إنا لنخشى ولا نسقط. قال ابن عمر: إن الشيطان ليدخل في جوف أحدهم. ما كان هذا صنيع أصحاب رسول الله ﷺ. وذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذا قرئ عليهم القرآن فقال: بيننا وبينهم أن يقعد أحدهم على ظهر بيت باسطا رجله ثم يقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره فإن رمى بنفسه فهو صادق (2).

(و) العلم النافع (مَا أَفَادَ الذُّلَّ لِلَّهِ وَالْخَوْفَ مِنَ اللَّهِ) تعالى والرجاء (وَالزُّهْدَ) في الدنيا والإعراض عنها وعن طلبها وبغضها والتقلل منها ومجانبة أبواب أربابها، وترك ما فيها على من فيها والرغبة في الآخرة والإعانة على سلوك طريقها.

وروي عن علي وابن عباس وكعب الأحبار رضي الله عنهم: «يكون في آخر الزمان علماء يُزْهَدُونَ في الدُّنْيَا ولا يَزْهَدُونَ، وَيُخَوِّفُونَ ولا يَخَافُونَ، وَيَنْهَوْنَ عن غَشْيَانِ الْوَلَاةِ ولا يَنْتَهَوْنَ، وَيُوَثِّرُونَ الدُّنْيَا على الآخرة، وَيَأْكُلُونَ الدُّنْيَا بِالسِّنْتِهم أَكْلًا، يُقَرَّبُونَ الْأَغْنِيَاءَ، وَيُبَاعِدُونَ الْفُقَرَاءَ، وَيَتَغَايِرُونَ على العلم كما يتغاير النساء على الرجال. يغضب أحدهم على جلسيه إذا جالس غيره. ذلك حظهم من العلم». وفي حديث ابن عباس: «أولئك الجبارون أعداء الرحمن (3)».

(وَالْأَدَبُ) مع الخلق ومع الخالق تعالى ظاهرا وباطنا.

---

التزويل - ط) في التفسير، و (مصاييح السنة - ط) و (الجمع بين الصحيحين) وغير ذلك. توفي عمرو الروذ 510هـ. انظر الوفيات: (145/1).

(1) هو عبد الله بن عروة بن الزبير بن العوام، الاسدي: تابعي. من الخطباء شجعان. كان يشبه بعبد الله بن الزبير في لسانه وجلده. وله شعر. توفي 126هـ. انظر تهذيب التهذيب: (319/5).

(2) انظر معالم التزويل: (87/4).

(3) أخرجه المناوي في فيض القدير: (247).

وفي شرح الحكم للمناوي: قال بعضهم: ليس لنا علم شرعي إلا وهو يدعوا إلى الأدب مع الله تعالى ومع خلقه فليمتحن طالب العلم نفسه، فإن كان كلما ازداد علما ازداد أدبا مع الله تعالى وزهدا فليعلم أن اشتغاله بالعلم على القواعد. وإن كان كلما ازداد علما ازداد حبا للدنيا ومناصبها وحب المأكّل والمشرب والملبس والمنكح فليقصر عنه ويكثر من الاستغفار فإنه على شفا جرف هار. انتهى.

(و) العلم النافع ما أفاد (التواضع) لله تعالى. قال تعالى: ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المومنين﴾<sup>(1)</sup>. وأما حديث: «ليس منا من لم يتعظم بالعلم»<sup>(2)</sup> فمعناه: ليس منا من لم يعتقد أن الله جعله عظيما بالعلم حيث جعله محلا له وموصوفا به، ولم يسترذله بحيث حظره عليه ومنعه منه كما ورد في الحديث: «إذا استرذل الله عبدا حظر عليه العلم والأدب»<sup>(3)</sup>، أو ما هذا معناه. وليس المراد بتعاضمه احتقار غيره.

وعن عمر رضي الله عنه: تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تتعلمون منه، وليتواضع لكم من يتعلم منكم، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم. ويقال: ما أتى الله عبدا علما إلا آتاه معه حلما وتواضعا وحسن خلق فذلك علامة العلم النافع، وقد روينا معناه في الأثر: «من آتاه الله عز وجل زهدا وتواضعا وحسن خلق فهو إمام المتقين»<sup>(4)</sup>.

وقال الحسن: الحلم وزير العلم، والرفق أبوه، والتواضع سرباله. والعلم النافع أيضا: ما أفاد كيفية التعبد له والتأدب بين يديه وإيثار الآخرة والوقوف على حدوده والنصيحة للخلق والشفقة عليهم وحسن معاملة الله ودوام مراقبته وطلب الحلال وحفظ الجوارح وأداء الأمانة ورعاية الظاهر ومراقبة الباطن ومجالسة الفقراء وتعظيم الأولياء والتخلق بأخلاق الإيمان وتوافق الأسرار والإعلان، والموالة في الله

(1) الشعراء: (215).

(2) لم أجد تخريجه.

(3) تقدم تخريجه.

(4) لم أجد تخريجه.

والمعاداة فيه والحرص على التفطن للأسباب الباعثة له على الاستقامة والآداب فيراعيها طلبا وحفظا ومعرفة الأسباب الصادة له عن ذلك فيوسعها رفضا وهربًا.

(و) ما أفاد (الافتقار) إلى الله تعالى والاستغناء به عن غيره ومخالفة النفس ومباينة الشهوات ودوام المجاهدة. (وَطَهَّرَ الْقَلْبَ) أي طهره من عيوبه حتى يفيد لصاحبه الخشية والاستكانة والتأثر بقوارع التذكير، ويكون سالما من الشدة والفترة والغلظ. (وَقَمَعَ النَّفْسَ) قال مالك بن دينار: من لم يؤت من العلم ما يقمعه فما أوتي منه لا ينفعه.

والقلب: القوة المستعدة لقبول المفهومات وهو يطلق على معنيين: اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر وهو لحم مخصوص وفي باطنه تجويف، وفي ذلك التجويف دم أسود وهو منبع الروح ومعدنه وهو موجود لسائر الحيوانات حتى الميتة. المعنى الثاني: هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق وتلك الحقيقة هي حقيقة الإنسان. وتعلقها يشبه تعلق الأعراض بالأجساد والصفة بالموصوف. وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب فالمراد به: المعنى الذي يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء. وقد يكفى عنه بالقلب الذي في الصدر؛ لأن بين اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصة كما مر.

(و) العلم النافع ما (مَنَعَ صَاحِبَهُ مِنَ الْمَعَاصِي) الظاهرة والباطنة، فقليل علم تصحبه هذه الأشياء من ورع وخشية وغيرهما خير من كثير منه خال منها. ألا ترى إلى يوسف عليه السلام كيف لم ينفعه جمال صورته الظاهرة، وكان قيمة ذلك أن كان عبدا مملوكا محكوما عليه ثم غضب عليه ثم سجن مدة، فوصل بجماله إلى السجن والذل والملك. ولما ظهر جمال صورته الباطنة بالعلم والحكمة قال له الملك: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾<sup>(1)</sup>. وقال له عند ذلك: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾<sup>(2)</sup>، ولم يقل: إني حسن جميل؛ لعلمه بأن السؤدد والرفعة في الدنيا والآخرة لا تنال إلا بجمال

(1) يوسف (54).

(2) يوسف (55).

الباطن بالعلم بالله ولله وفي الله، فلما ظهر عليه جمال الباطن وصل به إلى الرفعة والسؤدد.

(وَالْأَلَا) بأن أفاد الرياء والمباهاة والرغبة في الدنيا والتعلق لأربابها، وصرف الهمة لاكتسابها والجمع والادخار والتكبر وطول الأمل ونسيان الآخرة وطلب العلو والرياسة واستتباع الخلق والتصدي إلى تولي الأعمال السلطانية واكتساب الحرام. (لَمْ يَمْنَعْ غَدًا مِنَ النَّارِ) بل يدخل فيها والعياذ بالله تعالى. وهذا هو العلم غير النافع الذي استعاذ منه النبي ﷺ فقال: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع»<sup>(1)</sup>. وفي الحديث: «العلم الذي لا يعمل به كالكثر الذي لا ينفق منه أتعب صاحبه نفسه في جمعه ثم لم يصل إليه»<sup>(2)</sup>. وفيه: «أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»<sup>(3)</sup>. وفيه: «يكون في آخر الزمان عبّاد جهال وعلماء فساق»<sup>(4)</sup>.

وقيل لإبراهيم بن أدهم: أي الناس أطول ندامة؟ فقال: أما في عاجل الدنيا فصانع المعروف إلى من لم يشكر، وأما عند الموت فعالم مفرط. وقال الحسن: عالم بلا عمل هو وإبليس سواء، وملك لا يعدل في رعيته هو وفرعون سواء، وامرأة لا تلزم بيتها هي والأمة سواء.

وقال ابن المبارك: لا يزال المرء عالما ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل. وقال أبو عمر بن عبد البر: وروينا عن فضيل بن عياض وأسد بن القرات<sup>(5)</sup> قالوا: بلغنا أن الفسفة من العلماء ومن حملة القرآن يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان. قال الفضيل: لأن من علم ليس كمن لم يعلم.

(1) أخرجه الحاكم (716/1 ، رقم 1957) وقال: صحيح الإسناد

(2) أخرجه الطبراني في الأوسط. انظر حاشية الشهاب على البيضاوي: (230/1).

(3) أخرجه الطبراني في الصغير (305/1 ، رقم 507) ، والبيهقي في شعب الإيمان (284/2 ، رقم 1778) ،

(4) أخرجه الحاكم (351/4 ، رقم 7883) ، وأبو نعيم في الحلية (331/2).

(5) هو أسد بن القرات بن سنان مولى بني سليم، أبو عبد الله: قاضي القروان وأحد القادة الفاتحين. أصله من غراسان. ولد بمران (أو بنجران) ورحل أبوه إلى القروان، في جيش الأشعث، فأعذه معه وهو طفل، فنشأ بها ثم بتونس. ورحل إلى المشرق في طلب الحديث (سنة 172 هـ ثم ولي قضاء القروان سنة 204 هـ وكان شجاعاً حازماً صاحب رأي. واستعمله زيادة الله الأغلبي على جوشه

وفي الحديث: « يؤتى بالعالم يوم القيامة، فيلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحا فيطوف به أهل النار، فيقولون: ما لك. فيقول: كنت آمر بالمعروف ولا آتية، وأنهى عن المنكر وآتية<sup>(1)</sup>».

وقال ﷺ: «مررت ليلة أسري بي بأقوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: من أنتم؟ فقالوا: إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله<sup>(2)</sup>».

ومن أوصاف العالم: أن يكون أعمل بعلمه من متعلميه وإلا كان حسرة عليه وندامة كما قال حاتم الأصم: ليس في القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علما فعملوا به ولم يعمل به هو، ففازوا بسببه وهلك.

وإذا كان العالم يحض على الخير بلسانه ويأتي خلافة بأفعاله فقد نفع غيره وأهلك نفسه، كما قال الشافعي: يطلع قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم: بماذا دخلتم النار وإنما دخلنا الجنة بفضل تأديكم وتعليمكم؟ فقالوا: إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله، ونهى عن المنكر ولا ننتهي عنه.

وروي: أن رجلا كان يخدم موسى ﷺ فجعل يقول: حدثني موسى صفي الله، حدثني موسى كلیم الله حتى أثري وكثر ماله ففقدته موسى ﷺ وجعل يسأل عنه ولا يحس له أثرا. حتى جاءه رجل ذات يوم وفي يده خنزير وفي عنقه حبل أسود فقال: يا موسى أتعرف فلاناً. قال: نعم. قال: هو هذا الخنزير. فقال موسى ﷺ: يا رب أسألك أن تردّه إلى حاله الأول حتى أسأله بم أصابه ذلك؟ فأوحى الله تعالى إليه: لو دعوتني بالذي دعاني به آدم فمن دونه ما أجبتك فيه، ولكن أخبرك لم صنعت به هذا لأنه كان يطلب الدنيا بالدين.

---

وأسطوله ووجهه لفتح جزيرة صقلية (سنة 212 هـ - فهاجمها بعشرة آلاف، ودخلها فاتحاً، قال ابن ناجي: وهو أول من فتح صقلية. وتوفي من جراحات أصابته وهو محاصر سرقوسة برا وبحرا. وهو مصنف (الاسدية) في فقه المالكية. توفي 213 هـ. انظر قضاء الأندلس: (54).

(<sup>1</sup>) أخرجه أحمد (205/5)، رقم (21832)، والبخاري (1191/3)، رقم (3094)، ومسلم (2290/4)، رقم (2989).  
(<sup>2</sup>) أخرجه أحمد (120/3)، رقم (12232)، والطبراني في الأوسط (144/8)، رقم (8223)، وأبو نعيم في الحلية (386/2).

## العلم غير النافع

واختلف في العلم الذي لا ينفع -الذي استعاذ منه النبي ﷺ- فقيل: هو الذي لا يعمل به صاحبه. قال الطيبي<sup>(1)</sup>: هو الذي لم يهذب الأخلاق الباطنة فيسري منها إلى الأفعال الظاهرة. قال: والعلم المذموم هو أن يكون موديا إلى ضرر لصاحبه أو لغيره كعلم السحر والطلسمات، أو وسيلة إلى شر كعلم النجوم فإنه خوض في فضول لا يعني، وتضييع العمر النفيس بغير فائدة طائلة، وكتعلم دقيق العلوم قبل جليها وكالبحث عن الأسرار الإلهية التي تطلع عليها الفلاسفة والمتكلمون فيجب كف الناس عن البحث عنها وردهم إلى ما نطق الشرع به. انتهى.

قال العلقمي: ويلحق بذلك علم المنطق، فقد نفى عنه كثير من المتقدمين والمتأخرين حتى جوز بعضهم الاستنجاء بكتبه؛ أي الخالية من اسم الله ورسله.

فائدة: وعلى المعلم أن يتفقد أحوال من يتعلم منه، فلا يبذل علمه إلا لمن توسم فيه الخير والصلاح إذ بذلك تستقيم له النيات والمقاصد التي ذكرناها ولا يبذله لمن سوى هذا ممن علم حاله أو جهله.

وقال الثوري: والله لو أعلم بالذي يطلب هذا العلم لا يريد به إلا ما عند الله لكنت أنا الذي آتبه في منزله وأحدثه بما عندي مما أرجوا أن ينفعه الله به. وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم﴾ تنبيه على أن حفظ العلم عن يفسده ويستضر به أولى كما

قيل: وَمَنْ مَنَعَ الْجُهَّالَ عِلْمًا أَضَاعَهُ وَمَنْ مَنَعَ الْمُسْتَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمَ<sup>(2)</sup>

(1) هو أحمد بن أحمد بن بكر الدين، شهاب الدين الطيبي الصالحى الدمشقي: فقه شافعي متصرف. كان إماما بجامع بني أمية له (زاد الأبرار وسلاح الأخيار - خ). توفي 979هـ. انظر الشذرات: (393/8).

(2) البيت هو الأعم من خمسة أبيات للشافعي. انظر ديونه (حرف الميم).

وحكي عن بعض الأمم السالفة أنهم كانوا يختبرون المتعلم مدة في أخلاقه، فإن وجدوا فيه خلقا رديا منعه التعليم أشد المنع. وقالوا: يستعين بالعلم على مقتضى خلقه الردي فيصير العلم آلة شر في حقه.

وقالت الحكماء: زيادة العلم في الرجل السوء: كزيادة الماء في أصول الحنظل؛ كلما ازداد ربا ازداد مرارة. وعلى المعلم أيضا أن يتأمل المفاصد التي تنشأ عن تعليمه ويقيس بها ما توهمه من المصالح الناشئة عن تعليمه بزعمه ويدقق النظر في ذلك كما يدققه في أكثر المسائل التي لا يحتاج إليها، ولا يقدم على التعليم في هذا الزمان حتى يقطع بوجوب ذلك عليه من غير تردد ولا تجويز وقوع خطأ في نظره، وعليه أن يحرص على مخالفة نفسه فيما تدعوه إليه من التعليم لأن كلما تستجليه النفس ويوافق غرضها مصحوب بالآفات والعلل التي تقدح في الإخلاص. ويأتي الكلام على اتهام النفس في دعائها إلى ما ظاهره خير إن شاء الله تعالى. وتقدم الكلام على الميزانين الذين يوزن بهما صحة الأعمال واعتلاها.

قلت: فإذا وفق الله تعالى العالم من العلماء إلى الإقبال على الآخرة والإعراض عن الدنيا وما فيها ومن فيها والسلامة من آفات العلم وخطره العظيم. فأول ما يلزمه أن يعرف نعم الله عليه في ذلك، ويقوم بواجب الشكر، ويزيد تواضعا واجتهادا، ويعلم أنه محمول على ذلك، وأن ذلك بتوفيق من الله لا بمجاهدة منه، فإن بمجاهدته أيضا ومعرفته لنعم الله تعالى نعمة من نعم الله عليه بزيادة توفيق. فإذا كان العالم بهذا المحل من الدين كان إماما مقتدئ به ظاهرا وباطنا، يهتدى بنوره، ويكون حجة الله في عبادته وبركة في بلاده.

والعلوم التي طلبها في الجملة فرض ثلاثة: علم التوحيد، وعلم السر وهو الذي يتعلق بالقلب ومساعيه، وعلم الشريعة. وفي هذه العلوم الثلاثة فرض العين وفرض الكفاية. وقال سيدي زروق: العلوم ثلاثة: علم كالغذاء: فلا يستغنى عنه بحال وهو فرض العين؛ وهو ما لا يؤمن الهلاك مع جهله. وعلم كالدواء: وهو ما يؤمن الهلاك مع جهله؛ وهو فرض الكفاية. وعلم كالداء: وهو ما يؤدي إلى ضرر في الدين والدنيا؛



يختلف باختلاف أحوال الناس فيه. وَعَدَّ فيه جماعة علم الجدل والكلام والمنطق. والحق أن في ذلك تفصيلاً. انتهى.

## العلماء أربعة أقسام

والعلماء أيضا على أربعة أقسام: عالم يعمل بعلمه ويأمر به غيره فهو كالأثرُجَّة: ريحها طيب وطعمها طيب. وعالم يعمل بعلمه ولا يأمر به غيره فهو كالتمرّة طعمها طيب ولا ريح لها. وعالم لا يعمل بعلمه ولكن يأمر به غيره فهو كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر. وعالم لا يعمل بعلمه ولا يأمر به غيره فهو كالحنظلة ريحها خبيث وطعمها مر.

وقال عبد الرحمن بن غانم: حدثني عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ: إنا كنا ندرس العلم في مسجد قباء؛ إذ خرج علينا رسول الله ﷺ قال: «تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله عليه حتى تعملوا»<sup>(1)</sup>. فالعلم دليل على العمل، فإن لم تعملوا به صار جمع العلم عليك حجة، فإن عملت بما علمت أورثك الله علم ما لم تعلم، وإن لم تعمل بما علمت فلا يفيدك طلب ما لم تعلم إلا ثبوت الحجة عليك، فلا فائدة في العلم إذا أطلعك على القبيح فلم تحتبه، وأراك الجميل ولم تتبعه.

وقال عيسى عليه السلام: مثل الذي يتعلم العلم ولا يعمل به؛ كمثل امرأة زنت في السرّ فحملت فظهر حملها فافتضحت. وزنى العالم فعل القبايح في السر والكلام في العلم في العلانية، فإذا ظهرت عليه الأعمال التي لا توافق العلم افتضح، ففائدة العلم العمل به عند العلماء، وفائدته عند الجهلاء الخبر به.

وقال الغزالي: ومما يُصَيِّرُ الصغيرة كبيرة أن يكون المذنب عالما يقتدى به، فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه؛ كلبس العالم الإبريسم وركوبه مراكب الذهب، وأخذ مال الشبهة من أموال السلاطين، ودخوله عليهم وتردده إليهم ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم وإطلاقه اللسان في الاعراض، وتعدّيه باللسان في المناظرة قصد الاستخفاف،

(1) أخرجه ابن عدي (25/2)، ترجمة بكر بن خنيس، والخطيب (94/10)، وأبو نعيم في الحلية (236/1).

واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه كعلم الجدل والمناظرة فهذه ذنوب  
[يعتب<sup>(1)</sup>] العالم عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطيرا في العالم؛ أما إذا متطاوله.  
فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه. قال ابن عباس: وَيَلُّ لِلْعَالَمِ مِنَ الْإِتِّبَاعِ، يَزِلُّ زَلَةً  
فيرجع عنها ويحتملها الناس ويذهبون بها في الآفاق. وقال بعضهم: مثل زلة العالم مثل  
انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها.

فاتضح أن أمر العلماء مُخْطَرٌ، فعليهم وظيفتان: إحداهما: ترك الذنب. والأخرى:  
إخفاؤه. وإن مال العالم إلى التَّجَمُّلِ مالت طبائع من دونه إلى التشبه به، ولا يقدرون  
على التحمل إلا بخدمة السلاطين. وجمع الخطام من الحرام ويكون هو السبب في جميع  
ذلك. انتهى<sup>(2)</sup>.

## وظيفة العالم

ومن وظيفة العالم: تحسين الظاهر والباطن والسر والعلانية والأقوال والأفعال. وأنشدوا:  
الْعَيْبُ فِي الْجَاهِلِ الْمَعْمُورِ مَعْمُورٌ وَعَيْبُ ذِي الشَّرَفِ الْمَذْكُورِ مَذْكُورٌ  
كَقَلَمَةِ الظُّفْرِ تَخْفِي مِنْ حَقَارَتِهَا وَمِثْلُهَا فِي سَوَادِ الْعَيْنِ مَشْهُورٌ<sup>(3)</sup>  
لأن اشتهاره بالخير يبعث على الاقتداء به فيحصل له كمال السعادة ويصير للمتقين  
إماما. واشتهاره بالدناءة ينفر منه النفوس فتفوته هذه المرتلة، وإذا كان ينبغي له أن يكتف  
من الحق ما تنفر منه عقول جلسائه وأهل زمانه، وأن يخاطب الناس على قدر عقولهم،  
وإلا لم يحصل مقصوده من إظهار الحق.

وفي الحديث: «من خاطب الناس بما لا تصل إليه عقولهم كان عليهم فتنة<sup>(4)</sup>». اللهم إلا  
أن يكون مما أوجب الله إظهاره كقواعد الدين، وإبطال شبه المبطلين، والأمر بالمعروف،

<sup>(1)</sup> في النسخة "ب" "ينع".

<sup>(2)</sup> انظر إحياء علوم الدين: (330/5).

<sup>(3)</sup> البيان للمخزومي كما في زهر الأكم في الأمثال والحكم لليوسي.

<sup>(4)</sup> لم أجد تحريجه.

فليقل: ﴿الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾<sup>(1)</sup>. ومن رضي الله تعالى عنه فلا يضره غضب غيره.

إِذَا رَضِيتَ عَنِّي كِرَامُ عَشِيرَتِي فَلَا زَالَ غَضَبَانَا عَلَيَّ لِأَمُهَا<sup>(2)</sup>  
ومن وظيفة العالم أيضا: أن يكون عارفا بزمانه مقبلا على شأنه حافظا للسانته محتزرا من إخوانه فلم يؤذ الناس قديما إلا معارفهم. والمغرور من اغتر بمدحهم له، والجاهل من صدقهم على خلاف ما يعرف من نفسه.

ومن وظيفة العالم أيضا: ألا يصبر حتى يسأل، بل ينبغي أن يتصدى لدعوة الناس إلى نفسه فإن العلماء ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم في مجامعهم، ويدورون على أبوابهم في الابتداء ويطلبونهم واحدا بعد واحد فيرشدونهم. فإن مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم. وهذا فرض عين على العلماء كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلة فقيها متدينا يعلم الناس دينهم. فإن الخلق لا يولدون إلا جهالا فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع. قاله الغزالي<sup>(3)</sup>.

ومن شأنه أن يضع التراب على رأسه ويعاتب نفسه إذا خلى بها، ولا يفرح بالرياسة فإنه إذا اضجع في قبره وتوسد التراب شاهد ذلك كله.  
ومن وظيفة العالم: أن يتواضع لله عز وجل في علمه ويحترس من نفسه ويقف عما أشكل عليه، ولا يستحيي أن يقول: لا أدري فيما لا يدري، وينقل الرواية جهده وينصف جلساءه ويلين لهم جانبه، ويثبت سائله، ويتوقى الضجر، ويلزم نفسه الصبر ويصفح عن زلة جليسه ولا يواخذه بعثرته.

<sup>(1)</sup> الكهف (29).

<sup>(2)</sup> البيت لمحمد بن القاسم بن مخلد بن ياسر الهاشمي أبو الولاء. انظر ديوانه (حرف الميم).

<sup>(3)</sup> انظر الإحياء: (365/5).

ومن وظيفة العالم: صيانة نفسه عن كل دناءة وعيب وإن لم يكن مأثماً، وإن أولى الناس بالمروءة والأدب وصيانة الدين ونزاهة النفس: العلماء.

ومن وظيفة العالم أيضاً: أن لا يخطو خطوة إلا خطوة يبغي بها ثواب الله عز وجل ولا يجلس مجلساً يخاف عاقبته ووزره، فإن ابتلي بالجلوس فيه فليقم لله تعالى بواجب حقه في إرشاد من استحضره ووعظه، ولا يجالس به موافقته فيما يخالف الله عز وجل في مرضاته، ولا تتعرض منه حاجة لنفسه ولا أخيه، فإن قام بذلك ينجو ويسلم فيما بينه وبين الله.

ومن وظيفة العالم أيضاً: قول: لا أدري. قال علي كرم الله وجهه: وما أبردها عل القلب إذا سئل أحدكم عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم. وقال ابن عباس: إذا ترك أحدكم قول: لا أدري أصيبت مقاتله. وفي الحديث: «من سئل فأفتى بغير علم فقد ضل وأضل<sup>(1)</sup>». وقال الهيثم بن جميل<sup>(2)</sup>: كنا في زمان العالم عندهم من يقول: لا أدري. فصرنا في زمان يعدُّون العالم من يقتحم الأمور، ومن اقتحم الفتوى يخاف أن يقال له يوم القيامة: من أين أفتيت. فيا لها من مصيبة إن أفتيت عن جهل ومعلك لا أدري. وهي حصن المفتي. ولكن حال بينك وبين لا أدري خوفٌ وضع قدرك عند الناس وغلبة هواك على عقلك.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من أفتى الناس في المشكلات من غير تربص وتأمل فقد عرض نفسه لدخوله النار. وكان مع جلالته إذا فرغ من تفسيره للقرآن يقول: اختموا مجلسنا بالاستغفار. وكان الصحابة كلهم مفتون وكانوا يتدافعون الفتوى، وكل من استفتي منهم يود أن يكفيه غيره.

(1) أخرجه أبو داود (321/3 ، رقم 3657) ، والحاكم (184/1 ، رقم 350) وقال : احتج الشيخان برواته . والبيهقي (116/10 ، رقم 20140) .

(2) هو الهيثم بن جميل الحافظ الكبير محدث أنطاكية أبو سهل البغدادي حدث عن حماد بن سلمة ومالك والليث بن زهير بن معاوية وشريك بن عبد الله ومنديل بن علي وامثالهم روى عنه أحمد بن حنبل والذهلي ومحمد بن عوف الطائي ويوسف بن سعيد بن مسلم وآخرون قال أحمد العجلي ثقة صاحب سنة وقال أحمد بن حنبل كان أصحاب الحديث عندنا أبو كامل وأبو سلمة الخزاعي والهيثم بن جميل والهيثم أحفظهم. تذكرة الحفاظ: (363/1).

وروي: أن العبد يسأل عن فتواه هل بعلم أو بجهل، وهل فتواه نصيحة أو خذلان، وهل أراد وجه الله أو الرياسة. ولا يجوز للمفتي إذا كان في المسألة قولان: أن يفتي العامة بما فيه تشديد منهما، والخاصة بالتخفيف، إذ ذاك قريب من الفسوق والخيانة في الدين والتلاعب بالمسلمين، وفيه فراغ القلب من تقوى الله وتعظيمه. والحاكم كالمفتي، وكذلك لا يأخذ في أمر نفسه بالتخفيف ويشدد على الناس، والأولى له العكس.

ومن وظيفة العالم: الرفق بالمتعلم وصرف الهمّة إلى السائل، وتفهم سؤاله وقبول الحجة والانقياد للحق بالرجوع إليه عند الهفوة، ومنع المتعلم من كل علم يضره، وزجره عن أن يريد بالعلم غير الله ومواخذته نفسه أولاً بالتقوى ليقنّدي المتعلم أولاً بأعماله ويستفيد ثانياً من أقواله.

وقال الثعالبي: ينبغي لأهل العلم التترّع عن أخذ شيء من المتعلمين على تعليم العلم بل يلتمسون الأجر من الله عز وجل. وقد قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً<sup>(1)</sup>﴾ الآية.

وفي الحديث: أن عبادة بن الصامت<sup>(2)</sup> قال: علّمت ناساً من أهل الصفة الكتاب والقرآن وأهدى إليّ رجل منهم قوساً فقلت: ليست بمال وأرمي عليها في سبيل الله، فسألت النبي ﷺ فقال: «إن كنت تحب أن تطوق طوقاً من نار فاقبلها». وفي رواية: «جمرة بين كفّيك تقبلها أو تعلقها». انتهى من الغافقي<sup>(3)</sup>.

وعن أبي: أعطاني رجل كنت أقرئه سورة قوساً هدية فقال لي النبي ﷺ: «إذا أردت أن تقلد قوساً من نار فخذها<sup>(4)</sup>».

(1) الأنعام (90).

(2) هو عبادة بن الصامت بن قيس الانصاري الخزرجي، أبو الوليد: صحابي، من الموصوفين بالورع. شهد العقبة، وكان أحد النقباء، وبدرًا وسائر المشاهد. ثم حضر فتح مصر. وهو أول من ولي القضاء بفلسطين. ومات بالرملة أو بيت المقدس. روى 181 حديثاً اتفق البخاري ومسلم على ستة منها. وكان من سادات الصحابة. توفي 34 هـ. انظر الإصابة: (4488).

(3) لمحات الأنوار في ثواب قارئ القرآن:

(4) حديث أبي بن كعب: أخرجه ابن ماجه (730/2)، رقم (2158) قال البوصري (12/3): هذا إسناد مضطرب.

وعنه أيضا: «أطعمني رجل كنت أقرئه القرآن طعاما فوجدت منه في نفسي. فسألت النبي ﷺ فقال: «إن كان ذلك الطعام طعامه وطعام أهله الذين يأكلونه فكل، وإن كان طعاما يتحلفك به فلا تأكل».

هذا وفي الصحيح: «إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله<sup>(1)</sup>».

وفي قضية الرقي: فاضربوا لي معكم بسهم. قال ميارة<sup>(2)</sup>: وهذا — والله أعلم — باختلاف الأحوال أو النسخ على تسليم صحة ما في الغافقي. هذا كله مما يتوجه على العالم في نفسه. وأما ما يتوجه على الناس في حقه؛ فمن حقه: أن من جالسه فليُنظر إليه بعين الإجلال، وليُنصت له عند المقال، فإن راجعه راجعه تفهما لا تعنتا، ولا يعارضه في جواب سائل يسأله فإنه يلبس بذلك على السائل. ويزري بالمسؤول، وينتظر بالعالم فيئته، ولا تؤخذ عليه عثرته، وبقدر إجلال العالم ينتفع الطالب بما يستفيد من علمه. ومن ناظره في علمه فبالسكينة والوقار وترك الاستعلاء.

ومن حقه: أن يأتيه الناس كلهم ولا يزهّدوا فيه، بل يحرصوا على الانتفاع منه والتبرك به ولا سيما القريب له بخلاف عادة الناس اليوم، فإن القريب له أزهّد فيه من غيره. قيل: إن العالم كالحة يأتيها البعداء ويزهد فيها القرباء.

ولمسّيح بن حاتم:

لَا تُرَى عَالِمًا يَجِلُّ بِقَوْمٍ	فَيَجِلُّوهُ غَيْرَ دَارِ الْهَوَانِ
قَلَمًا تُوجَدُ السَّلَامَةُ وَالصُّلُوحُ	حَتَّى مَجْمُوعَتَيْنِ فِي إِنْسَانٍ
هَذِهِ مَكَّةُ الْمُنِيفَةِ بَيْتُ اللَّهِ	يَسْعَى لِحَجِّهَا الثَّقَلَانِ
وَتَرَى أَزْهَدَ الْبَرِيَّةِ فِي الْحَجِّ	لَهَا أَهْلَهَا لِقُرْبِ الْمَكَانِ <sup>(3)</sup>

(1) أخرجه البخاري (2166/5)، رقم (5405). وأخرجه أيضًا: ابن حبان (546/11)، رقم (5146).

(2) هو محمد بن أحمد بن محمد، أبو عبد الله، ميارة: فقيه مالكي. من أهل فاس. من كتبه (الاتقان والاحكام في شرح تحفة الحكام - ط) جزآن، و (الدر الثمين في شرح منظومة المرشد المعين - ط) فقه، ويعرف بميارة الكبير. توفي 1072هـ. انظر: الاعلام: (12/6).

(3) هذه الأبيات وجدتها في كتاب أدب الدنيا والدين وزاد على الأبيات بيت آخر قبل البيت الثالث وهو: فَإِذَا خَلَقْنَا مَكَانًا سَجِيًّا فَهُمَا فِي الثُّغُوبِ مَعْشُوقَانِ

وقال سيدي محمد بن أبي جهرة<sup>(1)</sup>: ثلاثة لا يفلحون في الغالب: ابن الشيخ وزوجته وخادمه.

أما ابنه: فإنه يفتح عينيه على تقبيل المريدين يده وَحَمْلِهِ على أعناقهم والتبرك به ويطيعونه فتكبر نفسه ويرضع من حب الرياسة من صغره، فتتولى عليه الصفات المظلمة فلا يفيد فيه وعظ واعظ ويتجرأ على الأكابر وينفي مشيختهم عليه. فإن جاء صالحاً فاق والده وانتفع بوالده أكثر من كل أحد.

وأما الزوجة: فإنها ترى الشيخ بعين الأزواج لا بعين الولاية فتعتقد أنه محتاج إليها في الشهوة، فإن نورَ الله بصيرتها ورأته بعين الولاية انتفعت به قبل كل أحد لملاصقتها له ليلاً ونهاراً.

وأما الخادم: فلتكرّر رؤية الشيخ واطلاعها على أحواله من المأكل والمشرب والمنام. ولذلك قالوا: لا ينبغي للشيخ أن يأكل مع المريد ولا يجالسه إلا عن ضرورة خوفاً على المريد من سقوط حرمة من قلبه، فيحرم بركة الصحبة فإن نظر الخادم إلى الشيخ بالتعظيم انتفع به كذلك وأفلح أكثر من غيره. اهـ من كتاب طبقات الأولياء بخ<sup>(2)</sup>. ومن حقه على الناس: الإجلال والتعظيم. قيل: من إجلال الله عز وجل إجلال العالم العامل وإجلال الإمام المقسط.

وفي البخاري: عن ربيعة أنه قال: لا ينبغي لأحد عنده شيء من العلم أن يضيع نفسه<sup>(3)</sup>. أي بأن يجعلها غرضاً للدنيا فيهيئها بل يعظم معظم العلم.

---

هذه مكة المنيفة.....

(1) هو محمد بن أبي جهرة كان رضي الله عنه كبير الشأن مقبوض الظاهر معذور الباطن غلبت عليه آثار صفة الجلال كان معظماً للشرع قائماً بشرائعه، وشعائره، وأنكروا عليه في دعواه رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم يقظة، وعقدوا له مجلساً فأقام في بيته لا يخرج إلا لصلاة الجمعة، ومات المنكرون عليه على أسوأ حال وعرفوا ببركته، ودفن رحمه الله تعالى بالقرافة بمصر، وقبره بما ظاهر يزار. وأخباره طويلة جداً للمزيد منها انظر الطبقات للشعراني: (378/1).

(2) انظر طبقات الشعراني: (380/1).

(3) انظر صحيح البخاري: رقم (30/1) باب رفع العلم وظهور الجهل. وهو بعد الحديث رقم: (79).

ويحتمل الحث على نشر العلم لأهله ليلا يموت العلم. ويحتمل أن يشهر العالم نفسه ليؤخذ عنه ليلا يضيع علمه فيثاب على ذلك. ويحتمل الحث على التعليم لمن فيه قابلية وعقل وفهم، فلا يُهمل التعليم فيرفع العلم. ويحتمل الحث على العمل بالعلم وترك الشهوات لأن من خالف ذلك فقد ضيع نفسه وفاته خير عظيم.

واختار سيدي محمد بن يوسف<sup>(1)</sup> أن معنى تضييع النفس أن يشتغل به في كل أوقاته، فيؤدي ذلك إلى مخالطة الناس فيقسو قلبه، بل يخلو أحيانا لورده ومناجاة ربه وتفكره فيما ينفعه وما يضره من تلك العلوم حتى يصقل قلبه فيصدق عليه أنه لم يضيع نفسه. وما يتوجه على المتعلم خاصة في جانب الشيخ التملق والتذلل للشيخ وتعظيمه وإكرامه. وفي الحديث: «ليس من أخلاق المومن التملق ولا الحسد إلا في طلب العلم»<sup>(2)</sup>.

وقال ابن عباس: ذَلَّلْتَ طَالِبًا فَعَزَّزْتَ مَطْلُوبًا. وقيل: من قعد صغيرا حيث يحب قعد كبيرا حيث يكره. وقيل:

إِنَّ الْمُعَلَّمَ وَالطَّبِيبَ كِلَاهُمَا لَا يَنْصَحَانِ إِذَا هُمَا لَمْ يُكْرَمَا  
فَاصْبِرْ لِدَائِكَ إِنْ جَفَوْتَ طَبِيبَهُ وَاصْبِرْ لِحَبْلِكَ إِنْ جَفَوْتَ مُعَلِّمًا<sup>(3)</sup>  
وليحذر التبسط على المعلم والإملا لعل عليه بكثرة القراءة أو السؤال، وليتق كثرة السؤال بكثرة التعلم إعناتا. فإن التثقل والإضجار يُغَيِّرُ الإِفْهَامَ ويحيل الطباع. وقد كان إسماعيل بن أبي خالد<sup>(4)</sup> من أحسن الناس خلقا فلم يزلوا به حتى ساء خلقه.

وعن محمد بن سيرين: أنه سأله رجل عن حديث، وقد أراد أن يقوم فقال:  
إِنَّكَ إِنْ كَلَّفْتَنِي مَا لَمْ أَطِقْ سَأَلَكَ مَا سَرَّكَ مِنِّي مِنْ خُلُقٍ<sup>(5)</sup>

(1) تقدمت ترجمته.

(2) أخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع (1/211، رقم 388).

(3) هذان البيتان لم أجد قائلهما.

(4) هو إسماعيل بن أبي خالد البجلي مولاهم الكوفي الحافظ أحد أعلام الحديث سمع أبا حنيفة وابن أبي أوفى وخلقاً وكان صالحاً ثباتاً حجة. انظر المعبر في خبر: (1/204).

(5) البيت ليزيد بن الصعق من ثلاثة أبيات:

أما يزيد يا بن عمرو بن الصعق قد كنت حذرتك آل المصطلق



قال ابن الصلاح<sup>(1)</sup>: يخشى على فاعل ذلك أن يحرم الانتفاع. وقد اضجر بعضهم الشيخ أبا العباس أحمد بن عبد الرحمن البردائي وأطال عليه في القراءة، فقال: لا أحيك الله إن تروها عني أو نحو ذلك. فمات الطالب بعد قليل، ولم ينتفع بما سمعه عليه. ولا يظهر المتعلم استكفاء من العلم، فإن ذلك من كفر النعمة، ولا يعترض عليه إزرأ به وتبكيته له. قال أبو البطحاء:

أَعْلَمُهُ الرَّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ ..... (2)

ورجح كثير من العلماء حق المعلم على حق الوالد. قال:

يَا فَاخِرًا بِالْعِظَامِ وَالسَّلَفِ وَتَارِكًا لِلْعَلَاءِ وَالشَّرَفِ  
أَبَاءُ أَجْسَادِنَا هُمْ سَبَبٌ لِيَأْنُ جُعِلْنَا عَوَارِضَ التَّلَفِ  
مَنْ عَلَّمَ النَّاسَ كَانَ خَيْرَ أَبٍ ذَاكَ أَبُو الرُّوحِ لَا أَبُو النَّطَفِ  
وقال:

فَضْلُ الْمُعَلِّمِ قَدْرٌ لَيْسَ يَبْلُغُهُ حُنُوءٌ وَلَا يَخْوِيهِ عَطْفُ أَبٍ  
هَذَا يُدَبِّرُ فِي الدُّنْيَا مَعِيشَتَهُ وَذَا يُمَكِّنُهُ مِنْ أَرْفَعِ الرُّتَبِ  
ومن آداب المتعلم أيضا: أن يتفقد من علمه ولو آية أو سورة بما قدر عليه من أنواع الهدايا وكسوته وعياله ويتأدب معه حتى أنه لا يمر عليه راكبا، ولا يتزوج له مطلقة ولو صار من مشائخ الإسلام. كما ذكر الشعراني أن هذا من أخلاق السلف.

وقلت يا هذا أطمعني وانطلق إنك إن كلفني ما لم أطق

سأءك ما سرك مني من خلق دونك ما استحسنته فاحس وذق

(<sup>1</sup>) هو عثمان بن عبد الرحمن (صلاح الدين) ابن عثمان بن موسى بن أبي النصر النصري الشهرزوري الكردي الشرحاني، أبو عمرو، تقي الدين، المعروف بابن الصلاح: أحد الفضلاء المقدمين في التفسير والحديث والفقه وأسم الرجال. ولد في شرخان (قرب شهرزور) وانتقل إلى الموصل ثم إلى خراسان، فبيت المقدس حيث ولي التدريس في الصلاحية. وانتقل إلى دمشق، فولاه الملك الأشرف بتدريس دار الحديث، وتوفي فيها. له كتاب " معرفة أنواع علم الحديث - ط " يعرف بمقدمة ابن الصلاح. توفي 643هـ. انظر الوفيات: (312/1).

(<sup>2</sup>) بقيته:

فلما اشتد ساعده رماني

ومن آدابه: أن يبدأه بالسلام ويقلل بين يديه الكلام ولا يقول في معارضته قوله: قال فلان خلاف ما قلت، ولا يسارُ جلسَه في مجلسه، ولا يلتفت إلى الجوانب بل يجلس مطرقاً متأدباً كأنه في الصلاة ولا يسيء الظن به في أفعال ظواهرها منكراً عنده، فهو أعلم بأسراره كما قال موسى للخضر عليهما السلام: أخرقتها لتغرق أهلها. وكونه مخطئاً في إنكاره اعتماداً على الظاهر.

وما ينبغي للمتعلم: أن يكون له ورد من الصلوات كالرواتب ولا سيما ركعتي المغرب فإنه يروى أنها ترفع مع عمل النهار. ومن الذكر ولو مائة صلاة على نبينا ﷺ ليستعين بذلك على تصحيح نيته.

وطلب العلم أفضل الأعمال بنية صالحة. وكل طالب علم أو قراءة لا يستهل بإقامة الفرائض فذلك دليل على عدم القصد به لوجه الله تعالى فإن خدمة العلم هي خدمة الله عز وجل. فإذا لم يحافظ على أوامره فإنما يخدم هواه. وذلك إذا رأته يؤخر الصلاة لآخر وقتها. وما روي من قول مالك وابن وهب ما الذي قمت إليه بأولى مما قمت عنه مشكل، إذ كان قيامه لصلاة الجماعة إلا إذا اتسع الوقت وكانت جماعة أخرى. وكذلك الذي يبادر اللوح والكتاب إثر الصلاة ويترك المعقبات. وانظر ماذا فعل عمر رضي الله عنه لمن بادر التنفل بعد السلام مع أنه قام لنافلة بجانب للصلاة فأين غيرها من نحو اللوح والكتاب، وأين منهما من سلم وإبتدَرَ شقائق الكلام الذي نحن فيه سائر الدهر. ونصوا أن أقل ما يكفي من ذلك قراءة آية الكرسي والتسبيح والتحميد والتكبير عشرا عشرا. زروق: وقد صح فعلها عشرا عشرا. وكان شيخنا القوري<sup>(1)</sup> يأخذ به إن أعجله أمره. انتهى من شرح ميارة<sup>(1)</sup> على ابن عاشر بخ.

(1) هو محمد بن القسم بن أحمد أبو عبد الله اللخمي الكناسي المغربي ويعرف بالقوري نسبة للقور مفتي المغرب الأقصى، كان متقدماً في حفظ المتن وفتاها وعلق على مختصر الشيخ خليل شيئاً لم ينتشر وانتفع به الطلبة ومن أخذ عنه الفاضل أحمد بن أحمد زروق. وسئل عن ابن عربي فقال الناس فيه مختلفون ما بين مكفر ومقطب فالأولى الوقف. انظر الضوء اللامع: (4/246).

وإنما أطلنا النفس في الكلام على العلم لما فيه من الآفات والخطر العظيم لينتبه بذلك من سبقت له من الله العناية. وبالله تعالى التوفيق.

## ترتيب العلوم الشرعية في الأفضلية

ولما بين أفضلية العلم على العمل ذكر أيضا تفاوته في الأفضلية فقال: (وَأَفْضَلُ الْعِلْمِ التَّوْحِيدُ) لأن شرف العلم بشرف متعلّقه كما تقدم، ولتوقف أصل الإيمان أو كماله عليه والخاص منه أفضل من العام كما تقدم أيضا. (فَالْتَفْسِيرُ) لتعلقه بكلام الله تعالى (فَالْحَدِيثُ) لتعلقه بكلام النبي ﷺ (ثُمَّ أُصُولُ الْفِقْهِ) إذ الأصل أشرف من الفرع (ثُمَّ الْفَرَائِضُ) الذي هو من أبواب الفقه، وهو بعد الأصول في الرتبة (فَالْفِقْهُ) فالفقه أشرف من غيره للأحاديث الواردة فيه. قال بعضهم: إذا اجتمع عند الشيخ درس قدم الأشرف فالأشرف. كما ذكرنا. (فَالْآلَاتُ) فتالات التوحيد. المنطق على القول بجوازه. وآلة التفسير ما تكلم عليه السيوطي في الإتيان كاسباب الزول وغيرها. وآلة الحديث ما تكلم عليه العراقي في ألفيته. والعربية واللغة والبيان آلة كل (عَلَى حَسَبِهَا) أي على قدرها في الحاجة إليها، أي فيقدم النحو واللغة لأنهما آلة كُلِّ، ثم التصريف لتوقف علم البلاغة عليهما. ويقدم النحو على التصريف وإن كان اللائق بالوضع العكس؛ إذ معرفة الذات أقدم من الطواري والعوارض لأن الحاجة إليه أهم، ثم يقدم المعاني على علوم البلاغة لتوقف البيان عليه ولأنه إنما يراعى بعد مراعاة الأول، ويؤخر البديع عنهما لأنه تابع بالنسبة إليهما.

(1) هو محمد بن أحمد بن محمد، أبو عبد الله، ميارة: فقيه مالكي. من أهل فاس. من كتبه (الاتقان والاحكام في شرح تحفة الحكام - ط) جزآن، و (الدر الثمين في شرح منظومة المرشد المعين - ط) فقه، ويعرف بميارة الكبير، مميّزا عن مختصر له، يسمى (ميارة الصغير)، و (تنبيه المغترين على حرمة التفرقة بين المسلمين)، و (تكميل المنهج للزقاق - خ). توفي 1072هـ. انظر سلوة الأنفاس: (165).

ولما كانت الأعمال أيضا متفاوتة بين الأفضل فقال: (وَأَفْضَلُ الْعَمَلِ مَا تَعَدَّتْ فَايِدَتُهُ) إلى غير فاعله وعم نفعه (كَأَلْعَمٍ وَنَفْعِ الْمُسْلِمِينَ) بالمال والجاه والإرشاد والنصيحة والإرفاق والجهد، وكالسعي على العيال والفقراء والضعفاء وخدمة الصوفية والفقهاء وأهل الدين والتردد في أشغالهم وإطعام الطعام وعبادة المرضى وتشجيع الجنائز وما يوصل به خيرا إلى مسلم، أو يدخل به عليه سرور، أو ييسر له به عمل... إلى غير ذلك. (وَمَا صَفَى الْقَلْبَ) من شواغل الدنيا وشواغل الخلق، لأن القلب هو المطلوب تنويره وتصفيته بالأعمال. والمحذور إظلامه وتسويده بالسيئات.

والقلب: هو القوة المستعدة لقبول المفهومات. وصفاء القلب له فائدتان: إحداهما: أن أقرب القلوب إلى الله ما رق وصى.

والثانية: أن يكشف له جلال الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله وذلك هو الغاية التي تطلب لذاتها فإن السعادة تُنال بها بل هي عين السعادة. (وَهُوَ) أي ما يصفى القلب من العمل نوعان:

أحدهما: ما دام منه، أي من العمل لحديث: «أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها»<sup>(1)</sup>. (وإن قل) قال القاضي أبو بكر بن العربي: معنى المحبة تعلق الإرادة بالثواب أي أكثر الأعمال ثوابا أدومها.

قال النووي: لأن بدوام القليل تستمر الطاعة بالذكر والمراقبة والإخلاص والإقبال على الله تعالى، بخلاف الكثير الشاق حتى ينمو القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافا كثيرة.

وقال ابن الجوزي<sup>(2)</sup>: إنما أحب الدائم لمعنيين:

(1) رواه البخاري في خلق أفعال العباد (72/1)، والطبراني في الشاميين (122/1)، رقم (191).

(2) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج: علامة عصره في التاريخ والحديث، كثير التصانيف. مولده ووفاته ببغداد، ونسبته إلى (مشرقة الجوز) من محالها له نحو ثلاث مئة مصنف، منها (تلقيح فهوم أهل الآثار، في مختصر السير والاعبار - ط) قطعة منه، و (الاذكياء وأخبارهم - ط) و (مناقب عمر بن عبد العزيز - ط) و (روح الأرواح - ط) و (شذور العقود في تاريخ المهود - خ) و (الدهش - ط) في المواعظ وغرائب الأخبار، وغيرها من كتب الكثرة. توفي 597هـ. انظر الوفيات: (279/1).

أحدهما: أن التارك للعمل بعد الدخول فيه كالمعرض بعد الوصل متعرض للذم. ولهذا ورد الوعيد في حق من حفظ آية ثم نسيها وإن كان قبل حفظها لا يتعين عليه. ثانيهما: أن مداوم الخير ملازم للخدمة وليس من لازم الباب كل يوم وقتاً ما كمن لازم يوماً كاملاً ثم انقطع. قاله العلقمي.

فإذا تقرر هذا فليُنظر العبد أشد الأعمال تأثيراً ووقفاً في قلبه وأزیدها في حاله فليواظب عليه، فإذا أحس بملالة منه فلينتقل إلى غيره؛ لأن أحوال الشخص الواحد تختلف. ولكن إذا فهم فقه الأوراد وسرها فليتبع المعنى. فإن سمع تسبيحة مثلاً وأحس لها بوقع في قلبه فليواظب عليها. ويحفظ من الأدعية ما يراه أوفق لحاله وأرق لقلبه وأخف على لسانه فليواظب عليه وإن قل. والأشياء تستبان بأضدادها، أي وكذلك العمل الكثير المتصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره. وعلى هذا فكل وظيفة لا تمكن المواظبة على كثيرها فقليلها مع المداومة أفضل وأشد تأثيراً في القلب من كثيرها. مثال ذلك: قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة أو دفعات متفرقة متباعدة لم تؤثر.

والحاصل: أن المقصود من العمل إنما هو رعاية أحوال القلب والروح في المعرفة والمحبة، وأن المراد منه تغير صفات الباطن المذمومة، وآحاد الأعمال تقل آثارها بل لا يحس بآثارها. وإنما يترتب الأثر على المجموع. وإذا لم يكن يعقب العمل الواحد أثر محسوس ولم يردف بثان وثالث على القرب أمحى أثر الأول. وكان كالفقيه لا يصير فقيه النفس إلا بتكرار كثير ولو بالغ ليلة في التكرار وترك شهراً أو أسبوعاً ثم عاد وبالع ليلة لم يؤثر تكراره هذا فيه ولو وزع ذلك القدر على الليالي المتواصلة لأثر فيه. ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها: كان عمل النبي ﷺ ديمة<sup>(1)</sup>. وكان إذا عمل عملاً أثبتته.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه: (6466) بلفظ: عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَتْ: "سَأَلْتُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ قُلْتُ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ كَيْفَ كَانَ عَمَلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلْ كَانَ يَخْصُ شَيْئًا مِنْ الْأَيَّامِ قَالَتْ لَا كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً وَأَيْكُمْ يَسْتَطِيعُ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَطِيعُ"

## أفضل الذكر القرآن

ولما كان الذكر من أفضل الأعمال وكان هو في نفسه متفاوتا بين الأفضل منه قال: (وَأَفْضَلُ الذِّكْرِ الْقُرْآنُ) لحديث: «من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوتي مثل ما أوتي فقد استصغر ما عظم الله<sup>(1)</sup>». ولحديث: «إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد وجلاؤها قراءة القرآن وذكر الموت<sup>(2)</sup>».

وقال عمرو بن ميمون<sup>(3)</sup>: من نشر مصحفا حين يصلي الصبح فقرأ مائة آية رفع الله له مثل عمل أهل الدنيا.

وقيل لابن مسعود: إنك لتقل الصوم؟ فقال: إنه ليشغلني عن قراءة القرآن وقراءة القرآن أحب إلي منه.

وروي أن سحنونا<sup>(4)</sup> رأى ابن القاسم<sup>(5)</sup> في النوم فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: وجدت عنده ما أحببت، قال له: فأبي أعمالك وجدت أفضل؟ قال: تلاوة القرآن. قال: قلت له: فالمسائل؟ فكان يشير بأصبعه كأنه يلاشيها. فكنت أسأله عن ابن وهب فيقول لي: هو في عليين.

وأفضلية القرآن لسائر الذكر ما عدا طرقي النهار ففيهما قولان: قال سعيد بن المسيب: القرآن أفضل من الذكر فيهما. وقال أبو حامد: يدعو أولا بالدعاء المأثور ثم بالذكر ثم قراءة القرآن ثم التفكير. قال: وأفضل من ذلك كله الاشتغال بالعلم.

(1) أخرجه الشوكاني في الفوائد المجموعة: (297/1).

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (352/2)، رقم (2014).

(3) هو عمرو بن ميمون الأودي أود بني صعب بن سعد من الطبقة الأولى من التابعين، أدرك رسول الله ﷺ ولم يلقه. انظر النجوم الزاهرة: (77/1).

(4) هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي، الملقب بسحنون: قاض، فقيه، انتهت إليه رئاسة العلم في المغرب. كان زاهدا لا يهاب سلطانا في حق يقوله. أصله شامي، من حمص، ومولده في القيروان. ولي القضاء بها سنة 234 هـ واستمر إلى أن مات، أخباره كثيرة جدا. وكان رفيع القدر، عفيفا، أبي النفس. روى "المدونة - ط" في فروع المالكية، عن عبد الرحمن بن قاسم، عن الإمام مالك. توفي 244 هـ. الوفيات: (241/1).

(5) تقدمت ترجمته.

وقال صاحب الدرر الملتقطة<sup>(1)</sup>: أفضل ما نطق به المسلم قراءة القرآن ثم ذكر الله ثم ذكر الرسول ﷺ حتى من ذكره يوم الجمعة. وهو يخالف ما ذكره الشافعية من أن الصلاة عليه ﷺ في ليلة الجمعة ويومها أفضل من تلاوة القرآن ما عدا سورة الكهف ونحوها مما استثنى.

واختلف في اشتقاق لفظ القرآن. السيوطي: قال جماعة: هو اسم علم غير مشتق خاص بكلام الله تعالى وهو غير مهموز، وبه قرأ ابن كثير وهو مروي عن الشافعي. وأخرج البيهقي<sup>(2)</sup> والخطيب<sup>(3)</sup> وغيرهما عنه أنه كان يهمز قرآنا ولا يهمز القرآن، ويقول: القرآن اسم وليس بمهموز ولم يؤخذ من "قَرَنَ" ولكنه اسم لكتاب الله مثل التورية والإنجيل. وقال الأشعري وغيره: هو مشتق من قرن الشيء بالشيء إذا ضم أحدهما للآخر. وسمي به القرآن لجمع السور والآيات والحروف فيه. وقال الفراء<sup>(4)</sup>: هو مشتق من القرائن فإن الآيات منه يصدق بعضها بعضها ويشابه بعضها بعضها وهي قرائن. وعلى القولين هو بلا همز أيضا ونونه أصلية. وقال الزجاج<sup>(5)</sup>: الصحيح أن ترك

(1) صاحب الدرر الملتقطة هو: عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدمي المعروف بالديلمي: فقيه شافعي من الزهاد. نسبته إلى "ديلمين" في غربة مصر. وقبره بها. من كتبه "التيسير في علم التفسير - ط" أرجوزة تزيد على 3000 بيت، و " الدرر الملتقطة في المسائل المختلطة - خ " و " طهارة القلوب، والخضوع لعلام الغيوب - ط " تصوف، و " إرشاد الحيارى - ط ". انظر طبقات الشافعية: (75/1).

(2) هو أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر: من أئمة الحديث. ولد في خسروجرد (من قرى يهق، بنيسابور) ونشأ في يهق ورحل إلى بغداد ثم إلى الكوفة ومكة وغيرهما، وطلب إلى نيسابور، فلم يزل فيها إلى أن مات. ونقل جثمانه إلى بلده. قال إمام الحرمين: ما من شافعي إلا وللشافعي فضل عليه غير البيهقي، فإن له المنة والفضل على الشافعي لكثرة تصانيفه في نصرته مذهبه وبسط موحزه وتأيد آرائه. وقال الذهبي: لو شاء البيهقي أن يعمل لنفسه مذهباً مجتهد فيه لكان قادراً على ذلك لسعة علومه ومعرفته بالاختلاف. صنف زهاء ألف جزء، منها (السنن الكبرى - ط) عشر مجلدات، و (السنن الصغرى) و (المعارف) و (الاسماء والصفات - ط) و (ودلائل النبوة) و (الآداب - خ) في الحديث، و (الترغيب والترهيب) و (المبسوط) و (الجامع المصنف في شعب الإيمان - خ). توفي 458هـ. انظر الشذرات: (304).

(3) تقدمت ترجمته.

(4) تقدمت ترجمته.

(5) هو إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج: عالم بالنحو واللغة. ولد ومات في بغداد. كان في فتوته يخرط الزجاج ومال إلى النحو فعلمه المبرد. وطلب عبيد الله بن سليمان (وزير المعتضد العباسي) مودبا لابنه القاسم، فله المبرد على الزجاج، فطلبه الوزير، فأدب له ابنه إلى أن ولى الوزارة مكان أبيه، فعمله القاسم من كتابه، فأصاب في أيامه ثروة كبيرة. وكانت للزجاج مناقشات مع ثعلب

الهمز فيه من باب التخفيف ونقل حركة الهمز إلى الساكن قبلها. واختلف القائلون بأنه مهموز. فقال بعضهم: هو مصدر لقرات كالرجحان وسمي به الكتاب المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر. وقال آخرون منهم الزجاج: هو وصف على فعلا ن مشتق من القرء بمعنى الجمع ومنه قرأت الماء في الحوض إذا جمعته.

أبو عبيدة: سمي بذلك لأنه جمع السور بعضها إلى بعض.

وقال الراغب: لا يقال لكل جمعي قرآن ولا لجمع كل كلام قرآن. قال: وإنما سمي قرآنا لكونه ثمرات الكتب السابقة المترلة. وقيل: جمع أنواع العلوم كلها. وقيل: في اشتقاقه غير هذا.

## فضائل السور على التعيين

ومن فضائل سور القرآن على التعيين: «أن البقرة وآل عمران تحاجان عن صاحبهما»، «وأن من قرأ البقرة في بيته لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام<sup>(1)</sup>»، «وأن من قرأها في ليلة كتب من القانتين»، «وأن من قرأ آل عمران يوم الجمعة صلت عليه الملائكة إلى الليل<sup>(2)</sup>»، «وأن آية الكرسي ربع القرآن<sup>(3)</sup>»، «وأن من قرأها بعد كل فرض لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت<sup>(4)</sup>»، «وأن من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه<sup>(5)</sup>»، «وأن من قرأ آخر آل عمران في ليلة كتب له قيام ليلة»، «وأن "يس" قلب القرآن<sup>(6)</sup>»، «وأن من قرأها يريد الله والدار الآخرة غفر له، وأنه كمن قرأ القرآن عشر

---

وغیره. من كتبه (معاني القرآن - خ) (خلق الانسان - ط) و (الامالي) في الأدب واللغة. توفي 311هـ. انظر إنباء الرواة: (159/1).

(<sup>1</sup>) رواه الترمذي: (2882).

(<sup>2</sup>) رواه الدارمي في سننه (3397).

(<sup>3</sup>) ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة: (1484).

(<sup>4</sup>) صحيح صحيحه الألباني في صحيح الجامع: (6463).

(<sup>5</sup>) رواه البخاري: (4068)، ومسلم: (6463).

(<sup>6</sup>) رواه الدارمي في سننه: (3396).



مرات<sup>(1)</sup>»، «وأن لباب القرآن وديباجه الحواميم<sup>(2)</sup>»، «وأن من قرأ "حم" الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك<sup>(3)</sup>»، «وأن عروس القرآن الرحمن<sup>(4)</sup>»، «وأن في المسبحات آية كآلف آية<sup>(5)</sup>»، قيل هي: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾... الآية. «وأن تبارك تشفع لصاحبها وتنجيه من عذاب القبر<sup>(6)</sup>»، «وأن الكافرون والنصر كلٌّ تعدل ربع القرآن<sup>(7)</sup>»، «وإذا زلزلت والعاديات كلٌّ تعدل نصف القرآن»، «وسورة الإخلاص ثلثه»، «وأن من قرأها كل يوم مائتي مرة محي عنه ذنوب خمسين سنة إلا أن يكون عليه دين<sup>(8)</sup>»، «وأن من قرأها مائة مرة في الصلاة أو غيرها كتب الله له براءة من النار<sup>(9)</sup>»، «وأن من قرأها بعد الصبح اثني عشرة مرة فكأنما قرأ القرآن أربع مرات وكان أفضل أهل الأرض يومئذ إذا اتقى<sup>(10)</sup>»، «وأنه ما نزل في التوراة ولا في الزبور ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثل المعوذتين<sup>(11)</sup>»، «وأن من قرأها بعد الإخلاص بعد الجمعة قبل أن يتكلم وهو ثان رجله أعاده الله من السوء إلى الجمعة الأخرى<sup>(12)</sup>».

(1) رواه الترمذي: (2887)، وأبو داود (3121)، وابن ماجه: (1448).

(2) رواه الدارمي في سننه: (539/2).

(3) رواه الترمذي: (2888).

(4) ضعفه الألباني: (135).

(5) أخرجه أبو داود: (5057)، والترمذي: (2921).

(6) رواه الترمذي (2890).

(7) رواه الترمذي: (2894).

(8) رواه مسلم: (813).

(9) رواه الترمذي: (2898).

(10) رواه الطبراني: (331/18).

(11) رواه الطبراني في الصغير: (115/1).

(12) رواه أحمد: (16999).

## فضائل القرآن جملة

ومن فضائل القرآن جملة ما ذكره البغوي عن عقبة بن عامر<sup>(1)</sup> قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار»<sup>(2)</sup>. قيل: معناه: من حمل القرآن وقرأه لم تمسه النار يوم القيامة. وقال أبو عبيدة: أراد بالإهاب: قلب المؤمن وجوفه الذي وعى. وقال غيره: إن من جمع القرآن ثم دخل النار فهو شر من الخنزير. وقال ابن الأنباري<sup>(3)</sup>: معناه: أن النار لا تبطله ولا تقلعه من الأسماع التي وعته والأفهام التي حملته كقوله في الحديث: «وأنزلت عليه كتابا لا يغسله الماء»<sup>(4)</sup> أي لا يبطله ولا يقلعه من أوعيته الطيبة ومواضعه، لأنه وإن غسله بالماء في الظاهر لا يغسله بالقلع من القلوب.

وأخرج الطبراني من حديث أنس: «من قرأ القرآن يقوم به آناء الليل والنهار يحلل حلاله ويحرم حرامه حرم الله لحمه ودمه على النار وجعله رفيق السفرة الكرام البررة حتى إذا كان يوم القيامة كان القرآن حجة له»<sup>(5)</sup>.

وفي الحديث: «القرآن شافع مشفع أو ماحل مصدق من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار»<sup>(6)</sup>.

(1) هو عقبة بن عامر بن عيس بن مالك الجهني: أمير من الصحابة. كان رديف النبي صلى الله عليه وسلم وشهد صفين مع معاوية، وحضر فتح مصر مع عمرو بن العاص. وولي مصر سنة 44 هـ وعزل عنها سنة 47 وولي غزو البحر. ومات بمصر. كان شجاعاً فقيهاً شاعراً قارئاً، من الرماة. وهو أحد من جمع القرآن. توفي 58 هـ. انظر الإصابة: (الترجمة 5603).

(2) ضعفه الألباني: (5764).

(3) هو محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري: من أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة، ومن أكثر الناس حفظاً للشعر والاختيار، قيل: كان يحفظ ثلثمائة ألف شاهد في القرآن. ولد في الأنبار (على الفرات) وتوفي ببغداد. وكان يتردد إلى أولاد الخليفة الراضي بالله، يعلمهم. من كتبه (الزاهر - خ) في اللغة، و (شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات - ط). توفي 328 هـ. انظر الوفيات: (503/1).

(4) أخرجه الطبراني (358/17، رقم 987) وأخرجه أيضاً: النسائي في الكبرى (26/5، رقم 8070).

(5) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (345/2، رقم 1991).

(6) صححه الألباني: (2010).

وأخرج الطبراني من حديث أنس: «حملة القرآن عرفاء أهل الجنة<sup>(1)</sup>» أي رؤساؤهم.  
وفي رواية: «حملة القرآن هم أهل الله».

وأخرج الترمذي وغيره من حديث علي: «من قرأ القرآن فاستظهره فأحل حلاله  
وحرم حرامه أدخله الله الجنة وشفعه في عشرين من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم  
النار<sup>(2)</sup>».

وفي الحديث: «من تعلم آية من كتاب الله عز وجل استقبلته يوم القيامة تضحك في  
وجهه<sup>(3)</sup>».

وقال الزركشي<sup>(4)</sup>: جرت عادة المفسرين ممن ذكر فضائل القرآن أن يذكرها في أول  
كل سورة لما فيه من الترغيب والحث على حفظها إلا الزمخشري فإنه يذكرها في  
أواخرها قائلا: إنها صفات السور والصفة تقتضي تقدم الموصوف.

الإتقان: وأخرج أيضا عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل الذي ليس  
في قلبه شيء من القرآن كالبيت الخرب<sup>(5)</sup>».

وأخرج أيضا عن أبي موسى الأشعري أنه ﷺ قال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن  
كمثل الأثرجة طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل  
التمر طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها  
طيب ولا طعم لها، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح  
لها<sup>(6)</sup>».

(1) رواه الطبراني في الكبير: (132/3).

(2) رواه الترمذي: (2905).

(3) رواه الطبراني في مسند الشاميين: (318/4).

(4) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن هبندر بدر الدين الشافعي، ولد سنة: 725 هـ، كان فقيها محدثا أصوليا مفسرا، أخذ عن  
الأسنوي ومغلطاي وابن كثير والسراج البلقي، من مؤلفاته: البحر المحيط - البرهان في علوم القرآن - الدياج في توضيح المنهاج. توفي  
سنة: 794 هـ ودفن بالقراة الصغرى. (طبقات المفسرين للداودي ج 2 ص: 162، طبقات المفسرين للسيوطي: 277).

(5) رواه الترمذي: (2913)، وأحمد: (1948)، انظر الإتقان: (80/4).

(6) رواه البعاري: (5427)، ومسلم: (797). متفق عليه.

وأخرج أيضا عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتل  
كما ترتل في الدنيا فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها»  
قال العلماء: هذا للقارئ حق قراءته وهو أن يتدبر معناه ويأتي بما هو مقتضاه، لا الذي  
يقرؤه والقرآن يلعبه.

وأخرج أيضا عن أبي أمامة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: اقرءوا القرآن فإنه يأتي شافعا  
لأصحابه يوم القيامة، اقرءوا الزهراوين: البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة  
كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما؛ اقرءوا البقرة  
فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة<sup>(1)</sup>» وزاد في رواية: «وإن القرآن  
ليأتي صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول: هل تعرفني؟  
فيقول له: ما أعرفك. فيقول له: أنا صاحبك القرآن الذي أظمأك بالهواجر، وأسهرك  
ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة، فيعطى الملك  
بيمينه، والخلعة بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار فيكسى والداه حلتين لا يقوم لهما  
أهل الدنيا...» الحديث.

وأخرج أيضا عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «من استمع آية من كتاب الله  
كانت له نورا يوم القيامة<sup>(2)</sup>».

وأخرج أيضا عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوجب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد  
فيه ثلاث خلفات عظام سمان؟ قلنا: نعم. قال: فثلاث آيات يقرؤهن أحدكم في صلاته  
خير له من ثلاث خِلَفَاتٍ عظام سمان<sup>(3)</sup>».

وأخرج أيضا عن معاذ بن جبل الجهني عن النبي ﷺ قال: «من قرأ القرآن فأحكمه  
وعمل بما فيه ألبس والداه يوم القيامة تاجا ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيت من

(1) أخرجه أحمد (249/5 ، رقم 22200) ، والطبراني (118/8 ، رقم 7542) ، والحاكم (752/1 ، رقم 2071).

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (341/2 ، رقم 1981) .

(3) رواه مسلم: (862).

بيوت الدنيا لو كانت فيه<sup>(1)</sup>». فما ظنكم بالذي عمل بهذا الحديث.

وروى الثعلبي<sup>(2)</sup> أنه ﷺ قال: «ثلاثة أصوات يجبها الله تعالى: صوت الديك، وصوت قارئ القرآن وصوت المستغفرين بالأسحار».

وسئل أي الأعمال أفضل؟ قال: «الحال المرتحل». قيل: وما هو؟ قال: صاحب القرآن، يضرب في أوله حتى يبلغ آخره، وفي آخره حتى يبلغ أوله». وقال: «أفضل عبادة أمي قراءة القرآن<sup>(3)</sup>» رواهما البيهقي.

وروى أحمد وغيره حديث: «أهل القرآن هم أهل الله وخاصته<sup>(4)</sup>».

وأخرج الدارمي<sup>(5)</sup> من حديث عبد الله بن عمرو<sup>(6)</sup> مرفوعا: «القرآن أحب إلى الله من السماوات والأرض ومن فيهن<sup>(7)</sup>».

وأخرج الحاكم<sup>(1)</sup> من حديثه أيضا: من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبه غير أنه لا يوحى إليه، لا ينبغي لصاحب القرآن أن يجد مع من يجد ولا يجهل مع من يجهل وفي جوفه كلام الله<sup>(2)</sup>».

(1) رواه أبو داود: (1453).

(2) هو أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري الثعلبي، إمام حافظ لغوي بارع، روى عن أبي طاهر بن خزيمة، وأبي محمد الخليلي، وأخذ عنه الواحدي، كان صحيح النقل ثقة، من مؤلفاته: العرائس في قصص الأنبياء - ربيع المذكورين. توفي سنة: 437 هـ، وقيل: بل 427 هـ. (طبقات المفسرين للداودي ج 1 ص: 66، وفيات الأعيان ج 1 ص: 79، شذرات الذهب ج 3 ص: 230).

(3) أخرجه الحاكم (757/1 ، رقم 2089) ، والبيهقي في شعب الإيمان (348/2 ، رقم 2001) .

(4) رواه أحمد: (11870).

(5) هو أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي التميمي السمرقندي الحجة الحافظ العابد الرحالة، برع في الحديث وألف فيه، من شيوخه: أبو مسهل ومروان بن محمد وعبد الوهاب بن سعيد وزيد بن هارون وآخرون كثيرون، روى عنه البخاري في غير جامعه ومسلم في صحيحه وأبو داود والترمذي والنسائي خارج سننه ومن في طبقتهم. توفي سنة: 255 هـ عن عمر بلغ أربعاً وستين سنة. (تقريب التهذيب: 253، شذرات الذهب ج 2 ص: 130، طبقات المفسرين للداودي ج 1 ص: 242).

(6) هو عبد الله بن عمرو بن العاص، من قريش: صحابي، من النساك. من أهل مكة. أسلم قبل أبيه. فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أن يكتب ما يسمع منه، فأذن له. وكان كثير العبادة حتى قال له النبي صلى الله عليه وسلم: إن لجسدك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لعينيك عليك حقاً - الحديث. توفي 65 هـ. انظر الإصابة: (الترجمة 4838).

(7) رواه الدارمي في سننه: (3358).

- وأخرج البزار<sup>(3)</sup> من حديث أنس: «البيت الذي يقرأ فيه القرآن يكثر خيره، والبيت الذي لا يقرأ فيه القرآن يقل خيره<sup>(4)</sup>».
- وفي الحديث: «من جمع القرآن كانت له عند الله دعوة مستجابة إن شاء عجلها في الدنيا وإن شاء أخرها له في الآخرة<sup>(5)</sup>».
- وفيه: «لأن تغدوا فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة».
- وفيه: إن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبدا<sup>(6)</sup>».
- وفيه: «إنكم لا ترجعون إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه<sup>(7)</sup>» يعني القرآن.
- وأخرج أيضا عن عمران بن حصين<sup>(8)</sup> أنه مر على رجل يقرأ القرآن على قوم، فلما قرأ سأل فقال عمران: "إنا لله وإنا إليه راجعون" سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ القرآن فليسأل الله به فإنه سيحيي أقوام يقرءون القرآن ويسألون الناس به<sup>(9)</sup>».
- 
- (1) هو محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبي، الطهماني النيسابوري، الشهير بالحاكم، ويعرف بابن البيع، أبو عبد الله: من أكابر حفاظ الحديث والمصنفين فيه. مولده ووفاته في نيسابور. رحل إلى العراق سنة 341 هـ وحج، وجال في بلاد خراسان وما وراء النهر، وأخذ عن نحو ألفي شيخ. وولي قضاء نيسابور سنة 359 ثم قلد قضاء جرجان، فامتنع. من كتبه (المستدرک علی الصحیحین - ط) أربع مجلدات، و (الاكلیل) و (المدخل - ط) في أصول الحديث، و (تراجم الشيوخ). توفي 405 هـ. انظر الوفيات: (484/1).
- (2) رواه الحاكم في المستدرک: (738/1).
- (3) تقدمت ترجمته.
- (4) ضعفه الألباني: (5695).
- (5) أخرجه الطبرانی (199/8 ، رقم 7810) قال الهيثمي (125/1) : فيه عيب الله بن زحر عن علي بن يزيد ، وكلاهما ضعيف لا يحتج به . والرامهرمزي في أمثال الحديث (88/1 ، رقم 52) .
- (6) صحح الألباني: (713).
- (7) أخرجه الحاكم (741/1 ، رقم 2039) وقال : صحيح الإسناد.
- (8) هو عمران بن حصين بن عبيد، أبو نجيد الخزاعي: من علماء الصحابة. أسلم عام خميس سنة 7 هـ وكانت معه راية خزاعة يوم فتح مكة. وبعثه عمر إلى أهل البصرة ليفقههم. وولاه زياد قضاءها. وتوفي بها. وهو ممن اعتزل حرب صفين. له في كتب الحديث 130 حديثا. توفي 52 هـ. انظر تهذيب التهذيب: (125/8).
- (9) أخرجه ابن أبي شيبة (168/2 ، رقم 7743).

وأخرج من حديث أبي سعيد<sup>(1)</sup> عن النبي ﷺ: «يقول الله سبحانه من شغله القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين. وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه»<sup>(2)</sup>.

وأخرج مسلم من حديث أبي أمامة: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه».

وأخرج البيهقي من حديث عائشة رضي الله عنها: «البيت الذي يقرأ فيه القرآن يترأى لأهل السماء كما تترأى النجوم لأهل الأرض»<sup>(3)</sup>.

وأخرج من حديث أنس: «نوروا منازلكم بالصلاة وقراءة القرآن»<sup>(4)</sup>.

وفي كتاب الترغيب والترهيب: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يهولهم الفرع الأكبر ولا ينالهم الحساب هم على كتيب من مسك حتى يفرغ من حساب الخلائق: رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله، وعبد أحسن فيما بينه وبين مواليه، وبينه وبين الله». رواه الطبراني<sup>(5)</sup>.

وروى ابن أبي لبابة عن العتي<sup>(6)</sup> عن سحنون: أنه رأى ابن القاسم في النوم فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: وجدت عنده ما أحببت. قال: فأبي عمل من أعمالك وجدت

(1) هو سعد بن مالك بن سنان الخدري الانصاري الخزرجي، أبو سعيد: صحابي، كان من ملازمي النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه أحاديث كثيرة. غزا اثني عشرة غزوة، وله 1170 حديثاً. توفي في المدينة. توفي 74هـ. انظر تمذيب التهذيب: (379/3).

(2) رواه الترمذي في السنن برقم (2926) من طريق محمد بن الحسن الهمداني به، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب".

(3) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (93/3)، رقم (2321) قال الهيثمي (171/7): رواه البزار وقال: لم يروه إلا أنس، وفيه عمر بن نبهان، وهو ضعيف.

(4) أخرجه أيضاً: الديلمي (245/4)، رقم (6725) عن أبي هريرة.

(5) انظر الترغيب والترهيب للمنذري: (112/1).

(6) هو محمد بن أحمد بن عبد العزيز الأموي القرطبي الأندلسي العتي، أبو عبد الله: فقيه مالكي، نسبته إلى عتبة بن أبي سفيان بن حرب، بالولاء. له تصانيف، منها "المستخرجة العتبية على الموطأ - خ" في فقه مالك و"كراء الدور والارضين - خ" توفي بالاندلس. توفي 255هـ. انظر الديباج: (238).

أفضل؟ قال: تلاوة القرآن. قال: قلت: فالمسائل؟ فكان يشير بإصبعه فكأنه يلاشيها. ثم قال الباجي<sup>(1)</sup>: وما أهون الدنيا على من جعل القرآن أمامه والموت أمامه. ورأى ابن غريب<sup>(2)</sup> ابن زرب<sup>(3)</sup> في النوم فسأله فقال: ما وجدت شيئاً أضر من الاختلاف إلى الملوك.

قال المقرئ الباغاني<sup>(4)</sup>: سأله في النوم فقال: ما وجدت أنفع من تلاوة القرآن. قال الثعالبي: وكذا أجابني بعض أصحابي لما سألته عن حاله. وسألت آخر من الأفراد فقلت له: ما أحسن الأعمال عندكم؟ قال: تلاوة القرآن. فسألته عن الاشتغال بالفقه كالمدونة؛ فضاق صدره من ذكرها وأعرض عنها وجعل يلاشيها. وسألته عن كتب الحديث؛ فأنشرح صدره وفرح به لكن دون فرحه وابتهاجه بالقرآن. وأما فضائل القرآن سورةً سورةً فموضوع كما قاله السيوطي في الإتيان<sup>(5)</sup>. وسببه: أن أبا عصمة الجامع قال: إني قد رأيت الناس أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبي حنيفة<sup>(1)</sup> ومغازي ابن إسحاق<sup>(2)</sup> فوضعت هذا الحديث حسبة. أسنده إلى عكرمة<sup>(3)</sup> عن ابن عباس.

(1) هو سليمان بن خلف بن سعد التحيبي القرطبي، أبو الوليد الباجي: فقيه مالكي كبير، من رجال الحديث. أصله من بطليوس ومولده في باجة بالأندلس. رحل إلى الحجاز سنة 426 هـ فمكث ثلاثة أعوام. وأقام ببغداد ثلاثة أعوام، وبالموصل عاماً، وفي دمشق وحلب مدة. وعاد إلى الأندلس، فولي القضاء في بعض أحوالها. وتوفي بالمرية 474 هـ. انظر الديباج: (120).

(2) هو أبو بكر محمد بن غريب البغدادي الشيخ، العالم، الثقة، أبو بكر محمد بن غريب بن عبد الله البغدادي، غلام ابن مجاهد المقرئ. سمع (موطأ سويد) من: أحمد بن محمد بن الجعد الوشاء، وسمع من: جعفر الفريابي، وعلي بن حماد الخشاب. وعنه: البرقاني، وأبو العلاء الواسطي، وعمر بن إبراهيم الفقيه. انظر سير أعلام النبلاء: (22/32).

(3) هو محمد بن يقي بن زرب، أبو بكر: من كبار القضاة وخطباء المنابر بالأندلس. ولي القضاء بقرطبة (سنة 367) في أيام الملويد الاموي (هشام) وتبع أصحاب ابن ميسرة لاستتابة من يعتقد مذهبه، وأحرق ما وجد عندهم من كتبه، ووضع كتاب (الرد على ابن ميسرة) في نقض آرائه. وصنف (الخصال) في فقه المالكية. وتوفي بقرطبة 381 هـ. انظر قضاة الأندلس: (77).

(4) هو المقرئ الباغاني من الطبقة السابعة من الأندلس يكنى أبا العباس الحافظ كان بجرأ من بحار العلم وله تأليف في أحكام القرآن وقدم للشورى بعد موت ابن المكوي وقرأ عليه بن عتاب وناهيك به مزية. وكان بن عتاب يستحسن كتابه في الأحكام. توفي في ذي القعدة سنة إحدى وأربعمائة رحمة الله تعالى. الديباج: (24/1).

(5) انظر الإتيان: (92/2).



قيل لميسرة بن عبد ربه<sup>(4)</sup>: من أين جئت بهذه الأحاديث: من قرأ كذا فله كذا؟ قال: وضعتها لأرغب الناس فيها.

وسئل شيخ روي عنه حديث أبي في فضائل القرآن سورة سورة: من حدثك؟ قال: لم يحدثني أحد ولكننا رأينا الناس رغبوا عن القرآن فوضعنا لهم هذا الحديث ليصرفوا قلوبهم إلى القرآن.

قال ابن الصلاح: ولقد أخطأ الواحدي المفسر ومن ذكره من المفسرين في إيداعه تفاسيرهم. إلى غير ذلك من فضائله.

فائدة: قال السيوطي<sup>(5)</sup>: نسيان القرآن كبيرة صرح به النووي لحديث أبي داود وغيره: «عرضت علي ذنوب أمي فلم أرى ذنبا أعظم من سورة من القرآن أو آية أو تيها رجل ثم نسيها<sup>(6)</sup>».

وروي أيضا حديث: «من أوتي القرآن ثم نسيه لقي الله يوم القيامة أجذم<sup>(7)</sup>».

وحديث: «يسما لأحدكم أن يقول: نسيت آية كيت وكيت<sup>(8)</sup>».

وحديث: «تعاهدوا القرآن بالتكرار<sup>(1)</sup>» أي بالتلاوة خوف النسيان.

(1) هو النعمان بن ثابت، التيمي بالولاء، الكوفي، أبو حنيفة: إمام الحنفية، الفقيه المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. قيل: أصله من أبناء فارس. ولد ونشأ بالكوفة. وكان يبيع الخبز ويطلب العلم في صباه، ثم انقطع للتدريس والافتاء. وأراد عمر بن هيرة (أمير العراقيين) على القضاء، فامتنع ورعا. وأرادته المنصور العباسي بعد ذلك على القضاء ببغداد، فأبى، فحلف عليه ليفعلن، فحلف أبو حنيفة أنه لا يفعل، فحبسه إلى أن مات 150 هـ. وأخباره لا تسعها الهوامش. انظر الوفيات: (163/2).

(2) هو محمد بن إسحاق بن يسار الملقب بالولاء، المدني: من أقدم مؤرخي العرب. من أهل المدينة. له (السيرة النبوية - ط) ههنا من هشام. ومن الأصل أجزاء مخطوطة كتبت سنة 506 هـ في خزنة القرويين بفاس و (كتاب الخلفاء) و (كتاب المبدأ). وكان قدريا، ومن حفاظ الحديث. زار الاسكندرية سنة 119 هـ وسكن بغداد فمات فيها 151 هـ. انظر تهذيب التهذيب: (38/9).

(3) هو عكرمة بن أبي جهل عمرو بن هشام المخزومي القرشي: من صناديد قريش في الجاهلية والاسلام. كان هو وأبوه من أشد الناس عداوة للنبي صلى الله عليه وسلم وأسلم عكرمة بعد فتح مكة. وحسن إسلامه، فشهد الوقائع، وولي الاعمال ل أبي بكر. واستشهد في اليرموك، أو يوم مرج الصفر، وعمره 62 سنة. انظر الإصابة: (الترجمة 5640).

(4) هو ميسرة بن عبد ربه الفارسي، ثم البصري. للمزيد من أخباره انظر ميزان الاعتدال: (165/15).

(5) انظر الإتيان في علوم القرآن: (279/1).

(6) أخرجه أبو داود (126/1 ، رقم 461) ، والترمذي (178/5 ، رقم 2916)

(7) أخرجه أبو داود (75/2 ، رقم 1474) بلفظ: "ما من امرئ يقرأ القرآن ثم ينساه إلا لقي الله يوم القيامة أجذم"

(8) أخرجه أحمد (417/1 ، رقم 3960) ، والبيهقي (1921/4 ، رقم 4744) ، ومسلم (544/1 ، رقم 790).

وفيه تنبيه على معاهدة المصحف فإنه لا يترك حتى يعلوه الغبار لحديث: «من علق مصحفا ولم يتعاهده جاء يوم القيامة متعلقا به يقول: هذا اتخذني مهجورا — أي تركني وصدعني — فاحكم بيني وبينه»<sup>(2)</sup>.

ولكن في الدور الملتقطة ما يخالفه. قال فيها: حفظ القرآن فضيلة عظيمة ومن قرأ شيئا منه ثم تشاغل عنه حتى نسيه فقد ضيع خيرا كثيرا. وينبغي له أن يقرأ حتى يرجع إلى حفظه. واعلم أن بعضهم يتوهم أن هذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وكذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾<sup>(3)</sup> وهذا غلط عظيم. والآية إنما هي في حق الكافر. انتهى المراد منه.

وفصل ابن رشد فقال: إن تركه للاشتغال بواجب أو مندوب حتى نسيه، لم يأثم، وإن تركه استخفافا بحقه ورغبة عن ثوابه أثم. وحفظ القرآن وتعليمه فرض كفاية بحيث يقوم به قوم يحصل بهم التواتر فإن لم يقم به هذا العدد أثم الكل سواء علمه بأجرة أم لا. لأن الإجارة على تعليمه جائزة عند مالك لحديث: «خير ما اتخذتم عليه أجرا كتاب الله»<sup>(4)</sup>، وليلا يضيع القرآن. وفي الحديث: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»<sup>(5)</sup>. ويندب للقارئ الوضوء ومكان طاهر، والاستقبال والخشوع والسكينة والوقار وإطراق الرأس والسواك والترتيل وتدبر المعنى، وأن يقرأ بالتفخيم. ومعناه: أن يقرأ على قراءة الرجال ولا يخضع بالصوت فيه ككلام النساء. قاله النووي<sup>(6)</sup>.

<sup>(1)</sup> أخرجه أحمد (411/4 ، رقم 19700) ، والبخاري (1921/4 ، رقم 4746) ، ومسلم (545/1 ، رقم 791) .

<sup>(2)</sup> أخرجه الثعلبي من طريق أبي هذبة إبراهيم بن هذبة عن أنس. انظر الفتح السماوي في تخريج أحاديث البيضاوي: (881/2).

<sup>(3)</sup> طه: (126).

<sup>(4)</sup> أخرجه البخاري (2166/5 ، رقم 5405) . وأخرجه أيضا: ابن حبان (546/11 ، رقم 5146)

<sup>(5)</sup> أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (405/2 ، رقم 2209) .

<sup>(6)</sup> لم أجده في التبيان في آداب حملة القرآن ولعله في بعض مؤلفات النووي الأخرى الكثيرة.

## تدبر وترتيل القرآن

(وَحَرْفٌ تَدْبِيرٌ أَفْضَلُ مِنْ حَرْفِيٍّ غَيْرِهِ) إذ لا يوجد أنفع من قراءة القرآن بالتفكير فإنه جامع لجميع المقامات والأحوال وفيه شفاء العالمين، وفيه ما يورث الصفات الحمودة ويزجر عن المذمومة.

وقال بعض أهل المعاملات مع الله تعالى بالصدق والإخلاص: إن قراءة القرآن بالتدبر والحضور حياة النفوس، وإنها غذاء الأرواح. فالتدبر يوجب الخضوع والافتقار إلى الله تعالى؛ لأنه إذا تذكر القارئ ذنوبه أو جبت له الذلة والمسكنة. وقال أبو حامد: قراءة آية بتأمل خير من قيام ليلة أو ختمة.

وروي: أن بعض المشايخ وقف ليلة كاملة بقوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾<sup>(1)</sup>. فينبغي أن يردد العبد الآية التي هو محتاج إلى التفكير فيها مرة بعد أخرى ولو بمائة مرة، فقراءة آية بتدبر خير من ختمة من غير تدبر وفهم. وفائدة التدبر: أن تعرف معنى ما تتلوه من الآي.

وقال أبو سليمان الداراني: ربما أقمت في الآية الواحدة خمس ليال، ولولا أني أدع التفكير فيها ما جزتها. وقال: إنما يؤتى على أحدكم من أنه إذا قرأ السورة أراد آخرها. وقال السيوطي في الإتقان: وقراءة جزء بترتيل أفضل من قراءة جزئين في قدر ذلك الزمان بلا ترتيل<sup>(2)</sup>.

وقال في النشر: اختلف هل الأفضل الترتيل مع قلة القراءة أو السرعة مع كثرتها<sup>(3)</sup>. وقال بعض: إن ثواب قراءة الترتيل أجل قدرا وثواب الكثرة أكثر عدداً؛ لأن بكل حرف عشر حسنات.

<sup>(1)</sup> الصافات: (24).

<sup>(2)</sup> انظر الإتقان: (283/1).

<sup>(3)</sup> انظر النشر في القراءات العشر للدمشقي: (234/1).

وقيل: هما سواء لتعارض الأدلة. وقيل: الإسراع أفضل للعارف بمعاني القرآن لأنه يتأتى منه التفهم مع الإسراع. بمتزلة العارف بفروسة الخيل يحكم جميع آلات الحرب في القتال، والجاهل بها لا يحكم، إذا رد بآلة إلى شيء ضاع له شيء آخر.

وقال الزركشي: كمال الترتيل تفخيم ألفاظه، والإبانة عن حروفه، وألا يدغم حرف في حرف<sup>(1)</sup>.

وقيل: هذا أقله. وأكمله أن يقرأه على منازله، فإن قرأ آية تهديد لفظ بها لفظة التهديد. وآية تعظيم لفظ بها على التعظيم ويفرق بين نعماته في آية الرحمة وآيات العذاب والوعد والوعيد والتحميد والتعظيم، وتسن القراءة بالتدبر والتفهم فهو المقصود الأعظم والمطلوب الأهم وبه تشرح الصدور وتستنير القلوب. قال تعالى: ﴿ليدبروا آياته﴾<sup>(2)</sup>، وقال: ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾<sup>(3)</sup>. وصيغة ذلك أن يشغل قلبه بالتفكير في معنى ما تلفظ به فيعرف معنى كل آية، ويتأمل الأوامر والنواهي ويتيقن أنه المأمور والمنهي، ويعتقد قبول ذلك، فإن كان مما قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر، وإذا مر بآية رحمة استبشر وسأل، أو بآية عذاب أشفق وتعوذ، وآية تنزيه: نزه وعظم، وبآية فيها مثل تدبر واعتبر، أو بآية دعاء تضرع وطلب. وكان عليه الصلاة والسلام يكسوه من كل آية يتلوها حال يناسب معناها. وكذلك ينبغي أن تكون تلاوة القرآن وأن لا يكون تاليه كالحمار يحمل أسفارا. ويقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، فإن سمع أمرا أو نهيًا قدر أنه المنهي والأمور. وكذلك إن سمع وعدا أو وعيدا. وكذلك القصص فالمقصود بها الاعتبار. قال تعالى: ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل﴾<sup>(4)</sup> الآية. وقال: ﴿هذا بيان للناس وهدى﴾<sup>(5)</sup> الآية. وقال: ﴿وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾<sup>(1)</sup> الآية.

(1) انظر البرهان في علوم القرآن: (450/1).

(2) ص: (29).

(3) محمد: (29).

(4) هود: (120).

(5) آل عمران: (138).

قال محمد بن كعب القرظي<sup>(2)</sup>: من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله عز وجل. انتهى من الإحياء<sup>(3)</sup>.

وعن سعيد بن مالك<sup>(4)</sup> مرفوعا: «إن هذا القرآن نزل بحزن وكآبة، فإذا قرائتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا»<sup>(5)</sup>.

وفي مسند أبي يعلى: أن النبي ﷺ قال: «اقرأوا القرآن بالحزن فإنه نزل بالحزن»<sup>(6)</sup>. وقال علي عليه السلام: لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا خير في قراءة لا تدبر فيها. ودليل القائل بأفضلية الترتيل: قوله تعالى: ﴿ورتل القرآن ترتيلا﴾<sup>(7)</sup>، وقول عائشة رضي الله عنها - وقد مرت برجل يهذ القرآن؛ أي يسرع-: ما سكت هذا ولا قرأ. وقول ابن مسعود: لا تنثروه نثر الدقل، ولا تهذؤوه هذ الشُّعْرِ قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن هم أحدكم آخر السورة<sup>(8)</sup>.

وقول ابن عباس: لَأَنْ أَقْرَأَ الْبَقْرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ أُرْتَلِيهِمَا وَأَتَدَبِّرُهُمَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ هَذْرَمَةً. ومن الصالحين من يقوم الليل كله بآية واحدة يرددها إلى الصباح، ولأن الترتيل أيضا أقرب إلى التوقير والاحترام، وأشد تأثيرا في القلب من الهذرمة، وحجة القائل بأفضلية الإسراع والهذرمة أن كثرة القراءة تتضمن كثرة الأجر لقوله تعالى: ﴿اذكروا الله ذكرا كثيرا﴾<sup>(9)</sup>.

<sup>(1)</sup> الاتعام: (19).

<sup>(2)</sup> هو محمد بن كعب بن سليم القرظي أبو حمزة القاص، يروي عن زيد بن أرقم. انظر الانساب للسمعاني: (428/4).

<sup>(3)</sup> انظر إحياء علوم الدين: (53/2).

<sup>(4)</sup> هو أبو سعيد الخدري وقد تقدمت ترجمته.

<sup>(5)</sup> أخرجه البزار (69/4 ، رقم 1235) ، والديلمي (97/1 ، رقم 314) .

<sup>(6)</sup> أخرجه الطبراني في الأوسط (193/3 ، رقم 2902).

<sup>(7)</sup> المزمل: (4).

<sup>(8)</sup> أخرجه محمد بن نصر المروزي في "قيام الليل" ص: (116) مختصر المقرئ. وأخرجه أيضا العسكري في "المواعظ" موقفا عن علي رضي الله عنه. انظر: الدر المنثور: 8 / 314. وذكره ابن كثير عن البغوي.

<sup>(9)</sup> الأحزاب: (41).

ومن الصالحين من يختم القرآن في ركعة واحدة ولم يصل قبلها ولا بعدها شيئاً. وسعيد بن جبیر<sup>(1)</sup> يقرأ في الركعة الثانية سورة الإخلاص. ومنهم من يختمه كل ليلة مرتين. ومنهم من يختمه ثلاثاً. ومنهم من يختمه بين المغرب والعشاء. ومنهم من يختمه بين الظهر والعصر. والشافعي وأبو حنيفة يختماناه في رمضان ستين مرة. وبعضهم يختمه فيه تسعين مرة. وابن عباس يختمه فيه مائة مرة. وكان أبو الحسن الكاشي<sup>(2)</sup> إذا ختم القرآن يكي ثم يقول:

أَبْعَدَ دَرْسِي لِلْقُرْآنِ تَحْرِقْنِي يَا لَيْتَ أَذْرَجْتُ قَبْلَ الذُّبِّ فِي الْكَفْرِ

### قراءة القرآن في الصلاة وفي المصحف

(و) قراءة القرآن (بالصلاة) أي فيها أفضل من قراءته في غيرها.

وقال علي كرم الله وجهه: من قرأ القرآن وهو قائم في الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة وإن كان جالساً في الصلاة فله بكل حرف خمسون.

(1) هو سعيد بن جبیر الاسدي، بالولاء، الكوفي، أبو عبد الله: تابعي، كان أعلمهم على الإطلاق. وهو حبشي الاصل، من موالى بني والبة بن الحارث من بني أسد. أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وابن عمر. ثم كان ابن عباس، إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه، قال: أتسألونني وفيكم ابن أم دهماء؟ يعني سعيداً. ولما خرج عبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث، على عبد الملك بن مروان، كان سعيد معه إلى أن قتل عبد الرحمن، فذهب سعيد إلى مكة، فقبض عليه واليها (بخالد القسري) وأرسله إلى الحجاج، فقتله بواسط. قال الإمام أحمد بن حنبل: قتل الحجاج سعيداً وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه. توفي 95هـ. انظر الوفيات: (204/1).

(2) هو حسن بن محمد بن حسن الخولاني. كان رجلاً صالحاً فاضلاً فقيهاً مشهوراً بالعلم متعبداً مجتهداً ورعاً خائفاً رقيق القلب كثير النياحة والبكاء، سمعاً كثير المعروف، باع ضياعه كلها وتصدق بها، وكان صارماً في مذهبه مجانباً لأهل الأهواء. ومن يخالف مذهب أهل المدينة. وكان أبو العباس الإيباني، إذا ذكره يقول: ذلك العالم حقاً. قال أبو بكر بن خلف: كان من العالمين بالله، وبأمره. سكن المستر، سمع من عيسى بن مسكين، ويحيى بن عمر، وأحمد بن يزيد، وأبي إسحاق بن شعبان، وكان يحسن العربية والنحو والنقطة، وشعر العرب، واعتماده في روايته على عيسى بن مسكين. وكان أجمع على فضله المؤلف والمخالف. سمع منه أبو الحسن القاسبي. وأبو القاسم بن شبلون، وأبو الحسن اللواتي. وأبو الحسن القمودي على القمودي. وأبو عبد الله بن نصيب، وجماعة الناس. انظر ترتيب المدارك وتقريب المسالك: (383/1).

وقال أبو العالية<sup>(1)</sup>: من أعظم الذنوب أن يتعلم الرجل القرآن ثم ينام عنه ولا يتعهد به. قاله الشعراني<sup>(2)</sup>. (ثم) تليها في الفضل قراءته (بالمُصحف) لحديث: «فضل قراءة القرآن نظرا على من يقرؤه على ظهر كفضل الفريضة على النافلة»<sup>(3)</sup>. قاله أبو عبيد بن وضاح. قال عليه السلام: «من قرأ القرآن نظرا متع ببصره وخفف عن والديه العذاب وإن كانا مشركين»<sup>(4)</sup>.

ابن وضاح عن بعض شيوخ أهل المدينة قال: كلما قرأ الرجل في المصحف خفف عن أبويه في قبريهما. ابن وضاح يرفعه قال: اجتمع اثنا عشر من الصحابة على أن من أفضل العبادة قراءة القرآن نظرا. انتهى من المفيد شرح الرسالة.

وإنما كانت قراءة المصحف أفضل لأنه أشغل لسانه وعيناه وقلبه بتدبر المعنى. وإن كان قراءته عن ظهر قلب أجمع لقلبه في تدبر المعنى من القراءة في المصحف كانت أفضل من المصحف. وكره جماعة من السلف أن يمضي على الرجل يوم لا ينظر في مصحفه أي لأن النظر فيه عبادة.

وفي الشعب للبيهقي بأسانيد ضعيفة حديث: «قراءة القرآن من غير المصحف ألف درجة، وقراءته في المصحف تضعف على ذلك ألفي درجة»<sup>(5)</sup>، وحديث: «أعطوا أنفسكم حظها من العبادة. قالوا وما هو؟ قال: النظر في المصحف»<sup>(6)</sup>. وفيه بسند

(1) هو زياد بن فيروز البصري البراء من أهل البصرة، يروي عن ابن عمر وابن الزبير رضي الله عنهم، روى عنه عاصم الأحول ويقال إسم أبي العالية البراء: أذينة، وقد قيل اسمه كلثوم، مولى قريش، مات يوم الاثنين في شهر شوال سنة تسعين. انظر الأنساب للسمعاني: (303/1).

(2) انظر الطبقات الكبرى: (79/1).

(3) أخرجه الديلمي (127/3 ، رقم 4342) ، وقال الحافظ في الفتح (78/9 ، رقم 4741) : أبو عبيد في فضائل القرآن وإسناده ضعيف .

(4) أخرجه الديلمي (44/4 ، رقم 6139) ، وابن الجوزي في الملل المتناهية (88/1 ، رقم 98) .

(5) انظر شعب الإيمان للبيهقي: (رقم 2145).

(6) انظر شعب الإيمان للبيهقي: (رقم 2148). بلفظ: "أعطوا أعينكم حظها من العبادة قيل : يا رسول الله ، وما حظها من العبادة ؟ قال : النظر في المصحف ، والتفكر فيه ، والاعتبار عند عجايبه »

صحيح موقوفا على ابن مسعود رضي الله عنه: «أدعوا النظر في المصحف»<sup>(1)</sup>.

ويستحب تقبيل المصحف كما يستحب تقبيل الولد الصغير؛ لأن عكرمة بن أبي جهل<sup>(2)</sup> كان يقبل المصحف، وبالقياص على تقبيل الحجر الأسود؛ ولأنه هدية من الله تعالى.

وعن أحمد ثلاث روايات: الجواز والاستحباب والتوقف. وإن كان فيه رفعة وإكرام لأنه لا يدخله قياس، ولهذا قال عمر في الحجر: لولا أني رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك. الإتيان: ويستحب تطيب المصحف وجعله على كرسي. ويحرم توسده ومد الرجلين إليه<sup>(3)</sup>. وكره سفيان أن تعلق المصاحف.

### فضل قراءة القرآن جهرا

(وَالْجَهْرُ) في قراءة القرآن أفضل من السر بشرطين أشار لأحدهما بقوله: (حَيْثُ لَا رِيَاءَ) يخافه، والثاني: أن لا يؤدي غيره بجهره من مصل أو نائم أو غيرهما. وقيل: إيقاظ النائم بالقراءة جازئ لقول عمر رضي الله عنه: أوقف الوسنان وأطرد الشيطان. وأرضي الرحمان. وإنما كان أفضل لأن فيه تنبيه الغافل وتعليم الجاهل وتذكير الزاهل وإكثار العمل وإيقاظ الفؤاد وإبعاد النعاس، وزيادة النشاط.

وقيل: السر أفضل لأن عمل السر أفضل من عمل الجهر بسبعين ضعفا. وقيل: هما سواء لتعارض الأدلة. وقيل: الجهر أفضل في آية الرحمة.

<sup>(1)</sup> انظر شعب الإيمان للبيهقي: (رقم 2147).

<sup>(2)</sup> تقدمت ترجمته.

<sup>(3)</sup> انظر الإتيان: (2/458).



## القرآن شفاء

ومن خواص القرآن: ما جاء في الحديث: «عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن<sup>(1)</sup>». وفيه: «خير الدواء القرآن<sup>(2)</sup>».

وقال طلحة بن مصرف<sup>(3)</sup>: كان يقال إذا قرئ القرآن عند المريض وجد لذلك خفة. وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أشتكي صدري. قال: اقرأ القرآن يقول الله تعالى: ﴿وشفاء لما في الصدور﴾<sup>(4)</sup>. وورد: «في فاتحة الكتاب شفاء من كل داء<sup>(5)</sup>». وفي رواية: «شفاء من السم».

وورد: «أن من قرأ أربع آيات من أول سورة البقرة وعاية الكرسي إلى خالدون، وآمن الرسول للختم لم يقربه ولا أهله شيطان ولا شيء يكرهه ولا يقرآن على مجنون إلا أفاق». «وأن من قرأ آية الكرسي عند النوم لم يقربه شيطان حتى يصبح». «وأن من قرأها حفظ هو وذريته وداره حتى الدويرات حول داره». «وأن من قرأها عند الكرب أغاثه الله». «وأن سورة الأنعام ما قرئت على عليل إلا شفاه الله». «وأن قوله تعالى: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾<sup>(6)</sup> لم يدع بها مسلم إلا استجيب له، ولا مكروب إلا فرج عنه». «وأن من جعل يس أمام حاجته قضيت له». «وأن من قرأ سورة الدخان وأول غافر إلى المصير وعاية الكرسي مساء وصباحا حفظ إلى المساء والصباح».

(1) أخرجه ابن ماجه (1142/2 ، رقم 3452) ، قال ابن كثير في تفسيره (577/2) : هذا إسناد جيد  
(2) أخرجه ابن ماجه (1158/2 ، رقم 3501) . قال البوصري (69/4) : فيه الحارث بن عبد الله الأعور وهو ضعيف .  
(3) هو طلحة بن مصرف بن كعب بن عمرو المحدث اليامي الكوفي ، أبو محمد : قرأ أهل الكوفة في عصره . وكان يسمى (سيد القراء) وهو من رجال الحديث الثقات ، ومن أهل الورع والنسك . شهد وقعة (الجماحم) وقال : رميت فيها بأسهم ، ولوددت أن يدي قطعت ولم أشهدا . توفي 112 هـ . انظر تهذيب التهذيب : (25/5) .  
(4) يونس : (57) .  
(5) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (450/2 ، رقم 2370) . وأخرجه أيضا : الدارمي (538/2 ، رقم 3370)  
(6) الأنبياء : (87) .

وعن ميمونة بنت شاقول البغدادية قالت: آذانا جار لنا فصليت ركعتين وقرأت من فاتحة كل سورة آية حتى ختمت القرآن وقلت: اللهم اكفنا أمره ثم نمت وفتحت عيني وإذا به قد نزل وقت السحر فزلت قدمه فسقط ومات.

**فوائد الأولى:** قال السيوطي: يستحب الإكثار من قراءة القرآن قال تعالى: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ (1). وعن مكحول (2) قال: كان أقوياء الصحابة يقرؤون القرآن في سبع ليال، وبعضهم في شهر، وبعضهم في شهرين، وبعضهم في أكثر من ذلك. وقال أبو الليث في البستان: ينبغي للقارئ أن يختم السنة مرتين إن لم يقدر على الزيادة. وعن أبي حنيفة قال: من قرأ القرآن في كل سنة مرتين فقد أدى حقه لأنه عليه الصلاة والسلام عرض علي جبريل في السنة التي قبض فيها مرتين. وقال غيره: يكره تأخير ختمه أكثر من أربعين يوماً بلا عذر نص عليه أحمد. لأن ابن عمر سأل النبي ﷺ في كم يختم القرآن؟ قال: أربعين يوماً. رواه أبو داود. انتهى (3). ومن الصالحين من يختم القرآن بين المغرب والعشاء وبين الظهر والعصر. وصح أن أبا عيسى التلمساني يختمه بين اليوم والليلة اثنا عشر ألف مرة، وأنكر ذلك الغزني فقال: لو كان يقول: القرآن القرآن ما أتم اثنا عشر ألفاً. وذكر المحاسبي (4): أن رجلاً كان يقرأ القرآن بالمشرق يختم القرآن اثني عشر ألف ختمة في اليوم. وأنكر ذلك عليه، فلما رجع ثانية إلى المشرق كتب فيه عقدا بالشهود، وعلامة القاضي فيه فجاء به.

(1) آل عمران: (113).

(2) هو محمد بن عبد الله بن عبد السلام، أبو عبد الرحمن، المعروف بمكحول: حافظ للحديث، ثقة، ثبت. من أهل بيروت. سمع بمصر والشام والجزيرة، وروى عنه كثيرون. توفي 321هـ. انظر تذكرة الحفاظ: (33/3).

(3) انظر الاتقان: (276/1).

(4) هو الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله: من أكابر الصوفية. كان عالماً بالاصول والمعاملات، واعظاً مبكياً، وله تصانيف في الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم. ولد ونشأ بالبصرة، ومات ببغداد. وهو أستاذ أكثر البغداديين في عصره. من كُتبه (آداب النفوس - غ) صغبر، و (شرح المعرفة - غ) تصوف. انظر خلية الأولياء: (30/10).

وفي المفيد شرح الرسالة: كان عثمان وعمر بن عبد العزيز وميم الداري وسعيد بن عبد الرحمن بن عوف وثابت البناني رضي الله عنهم يهتمونه في ركعة واحدة، ويقسمون في الثانية: ﴿قل هو الله أحد﴾<sup>(1)</sup>.

والحاصل: أن الاستكثار من القراءة أولى ما لم يؤد إلى الملل.

قال النووي: ذلك يختلف باختلاف الأشخاص. فمن كان من أهل الفهم وتلقيق الفكر استحب له أن يقتصر على القدر الذي لا يخل بالمقصود من التدبر واستخراج المعاني، وكذا من كان له شغل بالعلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة يستحب له أن يقتصر على القدر الذي لا يخل بما هو فيه. ومن لم يكن كذلك فالاستكثار أولى.

وقال عطاء الخراساني: من جمع القرآن فقرأ من أوله إلى آخره في الصلاة كان في رياض الجنة.

وفي الحديث: «من قرأ القرآن فليسأل به فإنه سيحيى أقوام يقرءون القرآن يسألون به الناس، فمن تعلم العلم لله أو حفظ القرآن لوجه الله ولم يصيره آلة لما يأكل به فأولئك من جلساء الرحمن»<sup>(2)</sup>.

وقال السيوطي: وَيُسَنُّ الدعاء عقب الختم كما ورد أن مع كل ختمة دعوة مستجابة. وعن أبي هريرة مرفوعاً: «من قرأ القرآن وحمد الرب وصلى على النبي ﷺ واستغفر ربه فقد طلب الخير مكانه». والعمل على تكرير سورة الإخلاص عند الختم لأنها تعدل ثلث القرآن، فتحصل بذلك ختمة أخرى وكرهه أحمد، فإن قيل: فكان ينبغي أن يقرأها أربع ليحصل ختمتان، قلنا: وحاصل ذلك يرجع إلى جبر ما لعله حصل في القراءة من خلل. انتهى<sup>(3)</sup>.

<sup>(1)</sup> الإخلاص: (1).

<sup>(2)</sup> تقدم فخرجه.

<sup>(3)</sup> انظر الإقناع: (1/294).

أبو عبيد<sup>(1)</sup>: قال أبو قتادة: كان رجل بالمدينة يقرأ القرآن من أوله إلى آخره على أصحاب له وكان ابن عباس يضع عليه الرقباء؛ فإذا كان عند الختم جاء ابن عباس وشهده وكان ابن مسعود يجمع أهله إذا ختم فيدعو ويؤمنون على دعائه؛ لأن الدعاء عند الختم مستجاب.

قال عطاء السلمي: دخلنا على مريض قد أسكت لا يتحرك منه شيء لنختم عليه ختمه. قال: فابتدأنا فلما بلغنا الثلث الأول من القرآن فتح عينيه ثم قرأنا حتى بلغنا الثلث الثاني فتكلم ثم قرأنا الثلث الثالث فجلس.

وقال السيوطي: روى البخاري في تاريخه الكبير بسند صالح أنه عليه السلام قال: «من قرأ القرآن عند ظالم ليرفع عنه: لعن بكل حر عشر لعنات». انتهى<sup>(2)</sup>.

**الثانية: قال السيوطي:** لا تحتاج قراءة القرآن إلى نية كسائر الأذكار لأنه قد جاء أنها أعظم القرب بفهم أو بغير فهم<sup>(3)</sup>.

وفي الفوائد الجميلة: والتفهم للقارئ مستحب لأنه يؤجر مطلقاً مع الحضور وغيره<sup>(4)</sup>.  
وقال الشعراني في طبقات الأولياء: وكان سيدي علي الخواص رضي الله عنه يقول: في معنى كلام الإمام أحمد عليه السلام حين رأى الحق جل جلاله في منامه فقال: يا رب: بم يتقرب إليك المتقربون؟ قال: يا أحمد بتلاوة كلامي. قال: يا رب بفهم أم بغير فهم؟ قال: يا أحمد بفهم أو بغير فهم<sup>(5)</sup>.

(1) هو القاسم بن سلام المروزي الأزدي الخزاعي، بالولاء، الخراساني البغدادي، أبو عبيد: من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه. من أهل مرو. ولد وتعلم بها. وكان مودباً. ورحل إلى بغداد فولى القضاء بطرسوس ثماني عشرة سنة. ورحل إلى مصر سنة 213 وإلى بغداد، فسمع الناس من كتبه. وحج، فتوفي بمكة. من كتبه "الغريب المصنف" - ط "مجلدان، في غريب الحديث، ألفه في نحو أربعين سنة، وهو أول من صنف في هذا الفن. توفي 224هـ. انظر الوفيات: (418/1).

(2) انظر الاقتان: (296/1).

(3) انظر الاقتان: (282/1).

(4) انظر الفوائد الجميلة على الآيات الحليلة: (247).

(5) انظر الطبقات الكبرى: (391/2).

قال الخواص عليه السلام: المراد "بفهم": ما يتعلق بعلماء الشريعة. وبغير فهم ما يتعلق بعلماء الحقيقة فإن العلماء ما لهم آلة إلا الفهم لكتاب الله تعالى بالفكر والنظر. وأما العارفون فطريقتهم إلى فهمه الكشف والتعريف الإلهي وذلك لا يحتاج إلى تفهم؛ أي المراد بغير فهم؛ أن معانيه تأتي إليهم من طريق الكشف؛ لا بواسطة الفهم والفكر، قال: وهذا هو اللائق بفهم هذا الكلام. وإن كان تالي القرآن من العوام بلا فهم له الثواب الجليل. فالكمل ليست علومهم المتعلقة بالقرآن مستنبطة بفكر ولا إمعان نظر؛ إنما هي مواهب يهبها لهم حال تلاوتهم فيكون عين التلاوة عين المعاني. ومتى تخلفت المعاني عن النطق فذلك من نتيجة الفكر فقيل له: فما تقول فيمن يقرؤه من العوام بغير فهم قال: قد صرح أن له بكل حرف يقرؤه عشر حسنات فيحث قوله: بفهم وبغير فهم؟ فقال: قد صرح أن له بكل حرف مسألتان والله أعلم.

وقال الشيخ العارف سيدي إبراهيم الدسوقي<sup>(1)</sup>: يجب على قارئ القرآن أن يظهر فيه من اللفظ والنطق الفاحش، ولا يأكل إلا حلالاً من غير سرف، وإلا أساء الأدب، ويعطر ثيابه وبدنه. وقد كان عليه السلام يتعطر لذلك، ولا يندس فمه بأكل حرام من عرض مؤمن. ومثال من ينطق بالقرآن العظيم مع تدنس فمه بغيبة أو غيبة أو بهتان؛ مثال من وضع المصحف في قاذورة. انتهى<sup>(2)</sup>.

ومما لا يتوقف الثواب فيه على الحضور: ﴿حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾<sup>(3)</sup> لما روي: «أن من قالها كفاه الله ما أهمه من أمر دينه ودنياه صادقاً كان أو كاذباً»<sup>(4)</sup>.

(1) هو إبراهيم بن أبي المجد بن قريش بن محمد، يتصل نسبه بالحسين السبط: من كبار المتصوفين، كثير الاخبار. من أهل دسوق (بغربة مصر) أورد الشعراني من كلامه مجموعة كبيرة اختارها من كتاب له اسمه (الجواهر) قال: وهو مجلد ضخيم. وأورد له شعراً ينحرف فيه منحى ابن الفارض في وحدة الوجود. وفي خطه مبارك أنه تفقه على مذهب الشافعي في أوليته ثم اقتفى آثار الصوفية وكثر مرادوه. توفي 676هـ. انظر طبقات الشعراني: (43/1).

(2) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (181/1).

(3) التوبة: (129).

(4) أخرجه ابن عساکر (193/36).

قال سيدي محمد بن يوسف: فقف على هذا واغبط به، فإن كثيرا من الأذكار متوقف على الصحة والصدق، وقد عمت الرحمة في هذا الذكر سائر الذاكرين وحصلت الكفاية من الهموم الدنيوية والأخروية لمن وفقه الله تعالى إلى النطق به، وإن لم يكن له قدم في التوكل فهذه نعمة لا يقدر قدرها ولا يقام بواجب شكرها، فله الحمد والشكر ظاهرا وباطنا وأولا وآخرا. انتهى.

وقال في كتاب البركة: قال ﷺ: «من قال: ﴿حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾<sup>(1)</sup> سبعا كفى ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة». رواه ابن السني<sup>(2)</sup> وغيره.

فينبغي المواظبة على هذا، فقد قال ابن أبي الصيف اليمني: ينبغي الاعتماد من ربع العبادات على تلاوة القرآن، وقول: ﴿حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾. قال: لأن العبادات سوى هذين يشترط فيها حضور القلب والصدق. وتلاوة القرآن قد جاء أنها أعظم القربات بفهم وغير فهم. ﴿وقل حسبي الله﴾<sup>(3)</sup> جاء أن قائله يكفيه الله ما أهمه صادقا كان به أو كاذبا. انتهى<sup>(4)</sup>.

وفي بعض طرق الحديث عن حذيفة: «إن هذا فيمن قاله سبعا».

(<sup>1</sup>) التوبة: (129).

(<sup>2</sup>) هو أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن اسباط الدينوري، أبو بكر ابن السني: محدث ثقة، شافعي من تلاميذ النسائي. ناهز الثمانين. من أهل الدينور. سمع بالعراق ومصر والشام والجزيرة. وصنف كتباً، منها (عمل اليوم والليلة - ط) و (فضائل الأعمال - خ) في الأزهرية، و (القناعة - خ) في الظاهرية، و (الطلب النبوي - ط) في الفاتح، و (الصراط المستقيم - خ) في شستري (3303) و (المجتبي) اختصر به سنن النسائي. ومات فجأة وهو يكتب. كان جده اسباط مولى لجعفر بن أبي طالب. توفي 364هـ. انظر الشذرات: (47/3).

(<sup>3</sup>) التوبة: (129).

(<sup>4</sup>) انظر البركة في فضل السمي والحركة: (346).

وقال ابن ناجي<sup>(1)</sup>: أفنى بعض من لاقيناه بأن من يقرأ القرآن بلا فهم لا ثواب له البتة، زاعما أن ابن عبد البر نص على ذلك. قال: وهو كمثل الحمار يحمل أسفارا. وكنت لا أرتضي هذه الفتوى. وأجمل ما ذكر ابن عبد البر إن صح على قصد المبالغة في فهم القرآن. انتهى<sup>(2)</sup>.

وقال أحمد بن الحسين الجريوي<sup>(3)</sup>: من قرأ القرآن بقصد الدرجات في الجنة، فقد رضي بالقليل بدلا عن الكثير؛ لأن الجنة مخلوقة، والقرآن غير مخلوق. ومعظم الفائدة في قراءته وجود الرب وفهم خطابه. فكيف من يطلب بقراءته عرضا من الدنيا، ومن فعل ذلك فقد فاته خير القرآن كله. قاله الشعراي<sup>(4)</sup>.

ومن ذلك أيضا: الصلاة على النبي ﷺ؛ ففي الحديث: «من قال حين يسمع المؤذن: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صل على محمد عبدك ورسولك وأعطه الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والشفاعة يوم القيامة حلت له شفاعتي<sup>(5)</sup>». وفيه: «من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشرا<sup>(6)</sup>».

عياض: كان بعض من لاقيناه من المحققين يقول هذا. والله أعلم فيمن صلى عليه محتسبا مخلصا قاضيا حقه بذلك إجلالا لمكانته وحبا فيه لا لمن قصد بذلك حظ نفسه، ودعابه لجرد الثواب. أو رجاء لإجابة دعائه بصلاته عليه أو لحظ نفسه. وهذا عندي فيه نظر. انتهى<sup>(7)</sup>.

(1) هو قاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي القمرواني؛ فقيه، من القضاة، من أهل القمروان. تعلم فيها وولي القضاء في عدة أماكن له كتب، منها "شرح المدونة - خ" وزيادات على معالم الإيمان - ط" مع المعالم، و"شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني - ط" و"مشارك الانوار القلوب - خ" و"شرح التهذيب للبراذعي". توفي 837هـ. انظر تعريف الخلف: (87/1).

(2) انظر شرح ابن ناجي على الرسالة مع شرح زروق لها: (405/2).

(3) هو أبو محمد أحمد بن الحسين الجريوي، كان من كبار أصحاب الجنيد وسهل بن عبد الله التستري، من علماء القوم. انظر بعد الجنيد في مجلسه لتمام حاله. انظر طبقات الأولياء للشعراي: (95/1).

(4) انظر الطبقات الكبرى: (220/1).

(5) أخرجه أحمد (354/3)، رقم 14859، والبيهقي (222/1)، رقم 589، وأبو داود (146/1)، رقم 529.

(6) أخرجه أحمد (168/2)، رقم 6568، ومسلم (288/1)، رقم 384، وأبو داود (144/1)، رقم 523.

(7) انظر إكمال المعلم شرح صحيح مسلم لعياض: (138/2).

قال الأجهوري<sup>(1)</sup>: ولعل وجه النظر أن الصلاة عليه ﷺ لا يدخلها الرياء.

وقال بعض الفضلاء: الصلاة على النبي ﷺ لها مطلبان: مطلب بين العبد وربه، ومطلب بين الرب ونبیه. فإذا قال العبد: اللهم صل على محمد فمعناه: اللهم أوصل رحمتك إلى محمد؛ فالمطلب الذي بين الرب ونبیه هو إيصال رحمته إليه. فهذا حاصل قطعاً ولو مع رياء. والمطلب الذي بين العبد وربه هو طلبه ذلك فيثاب عليه إن لم يصحبه رياء، فأحد المطلبين يدخله الرياء دون الآخر. ويمكن أن يكون جمعا بين قول من قال يدخلها كالرملی. وقول من قال لا يدخلها.

وقال بعض الفقهاء: إنها مقبولة قطعاً لا ترد.

السنوسي<sup>(2)</sup>: معنى القطع بقبولها أنه إذا ختم له بالإيمان وجد حسناته مقبولة لا ريب فيها بخلاف سائر الحسنات فلا وثوق بقبولها وإن مات صاحبها على الإيمان. ويحتمل أن قبولها على القطع إذا صدرت من صاحبها على وجه محبته له عليه الصلاة والسلام فيقطع بانتفاعه بها في الآخرة ولو في تخفيف العذاب في الكافر. ألا ترى إلى انتفاع أبي طالب في الآخرة بمحبته له عليه الصلاة والسلام، وكذا أبو لهب من التخفيف عليه يوم الاثنين لعنقه من بشرته بولادته عليه الصلاة والسلام. فإذا انتفعا معا بحب طبعي لم يكن لله تعالى؛ فكيف بالمؤمن المحب له ﷺ. انتهى من الدر النضيد.

(1) هو علي بن محمد بن عبد الرحمن بن علي، أبو الارشاد، نور الدين الأجهوري: فقيه مالكي، من العلماء بالحديث. مولده ووفاته بمصر. من كتبه "شرح الدرر السنية في نظم السيرة النبوية" مجلدان، و "النور الوهاج في الكلام على الاسراء والمعراج - خ" و "الاجوبة المحررة لاسئلة البررة - خ" فقه، و "المغاربة وأحكامها - خ" و "شرح رسالة أبي زيد - خ" فقه، و "مواهب الجليل - خ" في شرح مختصر خليل، فقه، و "غاية البيان - خ". توفي 1066هـ. انظر خلاصة الأثر: (3/157).

(2) هو محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي الحسني، من جهة الام، أبو عبد الله: عالم تلمسان في عصره، وصالحها. له تصانيف كثيرة، منها (شرح صحيح البخاري) لم يكمله، و (شرح مقدمات الجبر والمقابلة لابن الياهمين) و (شرح جمل الخونجي) في المنطق، و (تفسير سورة ص وما بعدها من السور) و (عقيدة أهل التوحيد - ط) و يسمى العقيدة الكبرى، و (أم البراهين - ط) و يسمى العقيدة الصغرى، و (شرح كلمتي الشهادة - خ) عندي، و (مختصر في علم المنطق - ط) توفي 895هـ. انظر تعريف الخلق: (186/1).



وفي شرح دلائل الخيرات: إنما يصلى عليه الصلاة بنية التقرب والاحتساب وقصد التعظيم ورجاء الثواب، ولذا كرهت في مواضع: في الجماع، وحاجة الإنسان، والعشرة، وشهرة المبيع، وما يصدر من العوام في الأعراس وغيرها من إشهارهم أفعالهم للنظر إليها بالصلاة عليه، عليه الصلاة والسلام مع زيادة عدم الوقار والاحترام بل بضحك ولعب كما ذكره الرصاع. ومن التعجب والذبح والعطاس على خلاف الثلاثة<sup>(1)</sup>.

ويقصد بها أيضا: امتثال أمر الله وتعظيما لقدره وكونه أهلا لذلك ونحو هذا. وهذه المقاصد بعضها أعلى من بعض. وهي كلها أعلى من العمل على الأجور لأن صاحب ذلك عامل على حظ نفسه وواقف معها. والعامل على ذلك لم يحم بحق أوصاف مولاه ولا أوصاف نبيه وحسنه وإحسانه وعظم قدره ودعائه رجاء الثواب ورجاء لإجابة دعائه بالصلاة عليه أو لحظه. ومن ذلك أيضا: الأذان. قاله الفشني على الأربعين.

### الثالثة: قراءة القرآن بالصوت الحسن وبالتجويد

أجمعوا على استحباب قراءة القرآن بالصوت الحسن والقراءة المجودة. كما قاله النووي في التبيان<sup>(2)</sup>. وهو أمر محمود شرعا، قال تعالى: ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾<sup>(3)</sup> قيل: إنه الصوت الحسن.

وفي الحديث: «لكل شيء حلية وحلية القرآن حسن الصوت»<sup>(4)</sup>. وقال عمر لأبي موسى الأشعري: ذكرنا ربنا بحسن صوتك لحسن صوته بالقرآن وتجويده لقراءته استدعاء لركة قلبه بسماع القرآن لا مجرد التذاذ حسن صوته. وقال مالك في هذا الحديث: إن من الأحاديث أحاديث قد سمعتها وأنا أتقيها.

<sup>(1)</sup> انظر شرح دلائل الخيرات للفاسي: (36).

<sup>(2)</sup> لم أحده بهذا اللفظ في التبيان في آداب حملة القرآن.

<sup>(3)</sup> فاطر: (1).

<sup>(4)</sup> أخرجه عبد الرزاق (484/2 ، رقم 4173) ، والخطيب (268/7) ، والضياء (88/7) ، رقم 2496 .

قال القباب<sup>(1)</sup>: إنما اتقى مالك أن يكون التحدث بما روى عن عمر ذريعة لاستجادة قراءة القرآن بالألحان ابتغاء استماع الصوت الحسن والالتذاذ بذلك حتى يقصد أن يقدم الرجل للإمامة بحسن صوته، لا لما سوى ذلك مما يرغب في إمامته من أجله.

وكره مالك النفر في المسجد يقولون لرجل حسن الصوت: اقرأ علينا يريدون حسن صوته. ابن رشد: أما إذا قالوا ذلك استدعاء لركة قلوبهم لسماعهم قراءته الحسنة فلا يكره.

وفي الحديث: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن<sup>(2)</sup>» أي ما استمع لشيء ما استمع لنبي يُحَسِّن الصوت بالقرآن طلباً لركة قلبه بذلك.

فمن أعطاه الله هذه العطية -أي حسن الصوت- وحلاه بهذه الحلية وأعطاه هذه النعمة وأعرض عنها فقد خالف قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾<sup>(3)</sup> والتحدث بما إظهارها<sup>(4)</sup>. قاله الشوشاوي<sup>(5)</sup>.

وقال أبو الحسن في تحقيق المباني: وأحسن ما قيل في حديث: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن<sup>(6)</sup>» عندي أن يكون المعنى فيه: ليس منا من لم يتلذذ بسماع القرآن لركة قلبه وشوقه إلى ما عند ربه كما يتلذذ أهل الأغاني بسماع أغانيهم. انتهى.

(1) هو أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن الجذامي الفاسي، أبو العباس الشهير بالقباب: فقيه مالكي، قاض. مولده ووفاته بفاس. ولي الفتوى بها، والقضاء بجبل الفتح ثم اعتزل وعكف على التدريس في (المدينة البيضاء) فالجامع الأعظم بفاس. وعرض عليه قضاء الجماعة فامتنع واختفى مدة. وعاد إلى التدريس والفتيا. وحج. ثم ولي الخطابة بالجامع الأعظم بفاس في النصف الثاني من ذي القعدة 778 وتوفي إثر ذلك. له كتب، منها (شرح قواعد عياض - خ). توفي 778هـ. انظر الديباج: (31).

(2) أخرجه أحمد (450/2 ، رقم 9804) ، والبخاري (2720/6 ، رقم 7044) ، ومسلم (545/1 ، رقم 792).  
(3) الضحى: (11).

(4) انظر الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة للشوشاوي: (235).

(5) هو الحسين بن علي بن طلحة الرجراجي ثم الشوشاوي، أبو عبد الله السملالي: مفسر مغربي، من بلاد (سوس) له تصانيف، منها (الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة - خ) مباحث في نزول القرآن وكتابته، منه نسخة في الظاهرية بدمشق، و (نوازل) في فقه المالكية، و (شرح مورد الظمان توفي بتارودنت 899هـ. انظر الاعلام: (247/2).

(6) أخرجه محمد بن نصر في قيام الليل كما في مختصره للمقرئ (ص 226-227 رقم 155) . وأخرجه أيضاً: البزار (69/4 ، رقم 1235) ، والدورقي في مسند سعد (214/1 ، رقم 129) ، والقضاعي (208/2 ، رقم 1198) ، والديلمي (97/1 ، رقم 314).

فمن جملة معانيه: أنه يجعله هجّيراً وتسليّة نفسه وذكر لسانه في كل حالة، كما كانت العرب تفعل ذلك في الشعر والحداء في قطع مسافاتها وحروبها فيجد القارئ من الأنسر وانشرّاح النفس بتلاوة القرآن كما يجده أهل الغناء بغنائهم.

وفي الحديث: «زينوا القرآن بأصواتكم»<sup>(1)</sup> أي زينوا أصواتكم بالقرآن، لا على تطريب الصوت. وقال آخرون: لا حاجة إلى القلب؛ فمعناه: الحث على الترتيل. فكأن الزينة للمرتّل لا للقرآن كما يقال: ويل للشعر من رواة السوء. فهو راجع إلى الراوي لا على الشعر. قال ابن مليكة: فإن لم يكن صوته حسناً فليحسنه ما استطاع.

قال النووي: هذا ما لم يخرج عن حد القراءة بالتمطيط. فإن خرج حتى زاد حرفاً أو أخفاه حرم<sup>(2)</sup>. قال العلقمي: ومن جملة تحسينه أن يراعي فيه قوانين النغم، فإن الحسن الصوت يزداد حسناً بذلك. وإن خرج عنها أثر ذلك في حسنه.

وعن الحسن: ربما انجسر بمراعاتها ما لم يخرج عن شرط الأداء المعتبر عند أهل القراءات فإن خرج منها لم يف تحسين الصوت بقبح الأداء. فلعل هذا مستند من كرهه قراءة القرآن بالأنغام، لأن الغالب على من راعى الأنغام أن لا يراعي الأداء، فإن وجد من يراعيهما معا فلا شك أنه أرجح من غيره؛ لأنه يأتي بالمطلوب من تحسين الصوت ويتقي الممنوع من خرم الأداء.

**الرابعة:** حكى عبد الوهاب المالكي عن مالك تحريم قراءة القرآن باللحن المرجعة كترجيع الغناء، لأنها تلهي بسماعها عن الخشوع والاعتبار بآيات القرآن والخشبة لله وتجديد التوبة عند سماع مواعظه. وعن الغزالي من الشافعية، وصاحب الذخيرة من

<sup>(1)</sup> أخرجه أحمد (283/4 ، رقم 18517) ، والدارمي (565/2 ، رقم 3500) ، وأبو داود (74/2 ، رقم 1468)  
<sup>(2)</sup> انظر التبيان في آداب حملة القرآن: (110/1).

الحنفية، والإمام الشافعي: الكراهة. وحكى ابن بطل<sup>(1)</sup> عن جماعة من الصحابة والتابعين: الجواز، وهو للشافعي أيضاً. ونقله الطحاوي<sup>(2)</sup> من الحنفية لحديث البخاري عن عبد الله بن مغفل<sup>(3)</sup> قال: قرأ النبي ﷺ يوم فتح مكة سورة الفتح فرجع فيها وهو على ناقته.

ومحل هذا الخلاف خلاف في حال؛ لأنه إن لم يخرج بالألحان عن المنهج القويم جاز، وإلا حرم. قاله النووي.

ومن حرم الترجيع قال: إن ترجيعه ﷺ يوم الفتح من هز ناقته لا قصدا منه. والترجيع: تقارب ضروب الحركات في القراءة وأصله الترديد، وترجيع الصوت ترديد في الحلق. وقد فسر في التوحيد: ء، ء، ء، ء ثلاث مرات بهمزة مفتوحة بعدها ألف ساكنة ثم همزة أخرى ثم أخرى كذلك.

وقال العلقمي: وذلك يحتمل أمرين: أحدهما: أن ذلك حدث من هز الراحلة. وأنشد الشيخ عبد المؤمن بن خلف الدمياطي<sup>(4)</sup> مشيراً إلى ذلك بقوله:

رَوَيْنَا بِإِسْنَادٍ عَنِ ابْنِ مُغْفَلٍ حَدِيثًا شَهِيْرًا صَحَّ مِنْ عِلَّةِ الْقَدَحِ

(<sup>1</sup>) هو علي بن خلف بن عبد الملك بن بطل، أبو الحسن: عالم بالحديث، من أهل قرطبة. له "شرح على البخاري - خ". توفي 449هـ. انظر الشذرات: (283/3).

(<sup>2</sup>) هو أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزدي الطحاوي، أبو جعفر: فقيه انتهت إليه رئاسة الحنفية بمصر. ولد ونشأ في (طحا) من صعيد مصر، وتفق على مذهب الشافعي، ثم تحول حنفياً. ورحل إلى الشام سنة 268هـ فاقبل بأحمد بن طولون، فكام من خاصته، وتوفي بالقاهرة. وهو ابن أخت المزني. من تصانيفه (شرح معاني الآثار - ط) في الحديث، مجلدان، و (بيان السنة - ط) رسالة، وكتاب (الشفعة - ط) و (المحاضر والسجلات) و (مشكل الآثار - ط) أربعة أجزاء، في الحديث. توفي 321هـ. انظر الوفيات: (19/1).

(<sup>3</sup>) هو عبد الله بن مغفل المزني: صحابي، من أصحاب الشجرة. سكن المدينة. ثم كان أحد العشرة الذين بعثهم عمر ليفقهوا الناس بالهجرة.

فتحول إليها، وتوفي فيها. له 43 حديثاً. توفي 57هـ. انظر الإصابة: (الرجعة 4973).

(<sup>4</sup>) هو عبد المؤمن بن خلف الدمياطي، أبو محمد، شرف الدين: حافظ للحديث، من أكابر الشافعية. ولد بدمياط. وتنقل في البلاد، وتوفي فجأة في القاهرة. قال الذهبي: كان مليح الهيئة، حسن الخلق، بساماً، فصيحاً لغوياً مقرئاً، جيد العبارة، كبير النفس، صحيح الكعب، مفيداً جداً في المذاكرة. وقال المزني: ما رأيت أحفظ منه. من كتبه "معجم" ضمنه أسماء شيوخه وهم نحو ألف وثلاثمائة، في أربع مجلدات، و "كشف المغطى، في تبين الصلاة الوسطى - ط" و "المتجر الرابع في ثواب العمل الصالح - خ" و "قبائل الخزرج" و "العقد الثمن. توفي 705هـ. انظر الشذرات: (12/6).

بأن رسول الله حين مسيره      لثامنة وأفضته في غزوة الفتح  
 تلاً خيراً منموع بمثن بعيره      فرجع في الآيات من سورة الفتح  
 والآخر: أنه أشبع المد في موضعه فحدث ذلك. وهذا الثاني أشبه بالسياق، والذي يظهر  
 أن في الترجيع قدرا زائدا على الترتيل. فقال ابن أبي حمزة: معنى الترجيع تحسين التلاوة  
 لا ترجيع الغناء؛ لأن القراءة بترجيع الغناء تنافي الخشوع الذي هو مقصود التلاوة. وقال  
 القرطبي: هو محمول على إشباع المد في موضعه. وقيل: كان ذلك بسبب كونه راكبا  
 فحصل الترجيع من تحريك الناقة له، وهذا فيه نظر. لأن في رواية علي عن شعبة<sup>(1)</sup>  
 عند الإسماعيلي<sup>(2)</sup> وهو يقرأ قراءة لينة فقال: لولا أن يجتمع الناس علينا لقرات لكم  
 بذلك اللحن، أي النغم. وكذا أخرجه أبو عبيدة<sup>(3)</sup>.

وقول معاوية ابن قرة<sup>(4)</sup>: "لولا أن يجتمع الناس... إلخ: يشير إلى أن القراءة بالترجيع  
 تجمع نفوس الناس إلى الإصغاء وتستميلها بذلك حتى لا يكاد يصبر على الترجيع. وفي  
 قوله: ءا بمد الهمزة والسكون: دلالة على أنه يُكَلِّمُ كان يراعي في قراءته المد والوقف.  
 انتهى.

وقال القرطبي: يحتمل أن يكون ذلك حكاية عن صوته وتقطيعه لأجل هز الركوب.  
 قال شيخ شيوخنا: ولا شك أن النفوس تميل إلى سماع القراءة بالترنم أكثر من ميلها لمن

(1) هو شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي الأزدي، مولا هم، الواسطي ثم البصري، أبو بسطام: من أئمة رجال الحديث، حفظا ودرابة  
 وثبتا. ولد ونشأ بواسط، وسكن البصرة إلى أن توفي. وهو أول من فتنش بالعراق عن أمر المحدثين، وجانب الضعفاء والمتروكين، قال  
 الإمام أحمد: هو أمة وحده في هذا الشأن. وقال الشافعي: لولا شعبة ما عرف الحديث بالعراق. وكان عالما بالأدب والشعر، قال  
 الأصمعي: لم نر أحدا قط أعلم بالشعر من شعبة. له كتاب (الغرائب) في الحديث. توفي 160 هـ. انظر تهذيب التهذيب: (4/338).  
 (2) هو محمد بن إسماعيل بن مهران النيسابوري، أبو بكر المعروف بالإسماعيلي: من حفاظ الحديث، ثقة. جمع (حديث الزهري) و  
 (حديث مالك) و (حديث يحيى بن سعيد) و (حديث عبد الله بن دينار) و (حديث موسى بن عقبة). توفي 295 هـ. انظر الشرائع:  
 (221/2).

(3) تقدمت ترجمته.

(4) هو معاوية بن قرة بن إياس بن هلال المزني، أبو إياس، من الطبقة الثانية من التابعين من أهل البصرة. كان زاهداً عابداً ورعاً. انظر  
 النجوم الزاهرة: (1/79).

لم يترنم. لأن للتطريب تأثيراً في رقة القلب وإجراء الدمع. انتهى كلام العلقمي باختصار.

**الخامسة:** يندب تحسين القرآن بالقراءة المجودة ما لم يخرج عن حد القراءة.

وفي الحديث: «اقرأوا القرآن على اختلاف ألسنتكم»<sup>(1)</sup>... الحديث.

قال ابن رسلان<sup>(2)</sup>: على الكيفية التي يسهل على ألسنتكم النطق بها مع اختلاف ألسنتكم في الفصاحة واللكنة واللثغة من غير تكلف ولا مشقة في مخارج الحروف ولا مبالغة ولا إفراط في المد والهمز والإشباع والإدغام. فقد كانت قراءة رسول الله ﷺ وخيار السلف والتابعين زمنه لو أراد السامع أن يعدها حرفاً حرفاً لعدّها. وقد أقر رسول الله ﷺ أهل كل لسان على قراءتهم الجبليّة التي طبعهم الله عليها. ولم يكلف أحدا منهم أن يجتهد في إصلاح لسانه وتردده إلى المعلمين كما في هذا الزمان، حتى أن بعضهم ليستمر في قراءة الفاتحة شهراً ونحوه، ويلزم التلفظ بالضاد المعجمة في "المغضوب"، وفي "ولا الضالين".

قال ابن الجوزي<sup>(3)</sup>: فيلبس عليه إبليس في تحقيق تشديد الضالين وفي إخراج ضاد "المغضوب". قال: ولقد رأينا من يخرج بصاقه مع إخراج الضاد لقوة تشديده والمراد

(1) لم أجد نخرجه.

(2) هو أحمد بن حسين بن حسن بن علي، أبو العباس، الرملي الشافعي. ويعرف بابن رسلان. فقيه شافعي، ولد بالرملة (بفلسطين) وانتقل في كبره إلى القدس، فتوفى بها، عالم شارك في بعض العلوم. ولزم الإفتاء والتدريس مدة. وأجازته قاضي القضاة الباعوني بالإفتاء.

ومن تصانيفه: "صفوة الزبد" منظومة في الفقه، و"شرح سنن أبي داود" و"شرح البخاري"، و"تصحيح الحاوي" فقه، و"شرح منهاج الوصول إلى علم الأصول". انظر شذرات الذهب: (248/7).

(3) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج: علامة عصره في التاريخ والحديث، كثير التصانيف. مولده ووفاته ببغداد، ونسبته إلى (مشركة الجوز) من محالها له نحو ثلاث مئة مصنف، منها (تلقيح فهم أهل الآثار، في مختصر السمر والاحبار - ط) قطعة منه، و (الاذكياء وأخبارهم - ط) و (مناقب عمر بن عبد العزيز - ط) و (روح الأرواح - ط) و (شذور العفود في تاريخ العمود - خ) و (المدحش - ط) في المواعظ وغرائب الأخبار. توفي 597هـ. انظر الوفيات: (279/1).

تحقيق الحرف حَسْبُ. وإبليس يخرج هؤلاء عن حد التحقيق بالزيادة ويشغلهم بالمبالغة في الحرف عن فهم التلاوة.

وقال الغزالي في الإحياء: وذلك من الأسباب المانعة من فهم معاني كلام الله والحجب التي أسد لها الشيطان على قلوبهم. فعميت عليهم عجائب أسرار القراءان يكون هم القارئ منصرفا إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها. وللقراء شيطان يصرفهم عن معاني القرآن فهو موكل بهم، ولا يزال يحملهم على ترديد الحروف، ويخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه، فهذا يكون تأمله مقصورا على مخارج الحروف، فأني تنكشف له المعاني. فما أعظم ضحكة الشيطان ممن كان مطيعا لمثل هذا التلبيس. انتهى<sup>(1)</sup>.

والمقصود: أن السلف والأئمة يكرهون التنطع في مخارج الحروف والغلو في النطق. ومن تأمل هديه عليه السلام وإقراره أهل البوادي، وأجلاف الأعراب، ومن أسلم من الأعاجم على قراءتهم التي يألفونها، ووصف قراءتهم مع قراءة فصحاء العرب بالحسن بقوله كما رواه أبو داود عن جابر بن عبد الله<sup>(2)</sup> قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن وفينا الأعرابي والأعجمي فقال: «اقرأوا فكل حسن وسيجيء أقوام يقيمونه كما يقام القدح، يتعجلونه ولا يتأجلونه<sup>(3)</sup>» أي يتعجلون العمل بالقرآن ولا يلتفتون إلى الأجر الآجل في الآخرة. وبقوله: اقرءوا ما أنتم تقرأون ودوموا عليها فكل هذا حسن؛ أي فيه فضيلة وأجر وثواب. انتهى.

قال العلقمي: ولا بد من مراعاة إخراج الحروف من مخارجها غير أنها تختلف بالفصح، ومنهم بين بين. كما أن بعضهم يعقد القاف، وبعضهم لا يعقده. فلعل هذا هو المراد باختلاف ألسنتهم. أو لحن لا يغير المعنى فهو جائز مع الكراهة. أما اللاحن المغير المعنى

(1) انظر إحياء علوم الدين: (51/2).

(2) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري السلمي: صحابي، من المكثرين في الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه جماعة من الصحابة. له ولأبيه صحبة. غزا تسع عشرة غزوة. وكانت له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي يؤخذ عنه العلم. روى له البخاري ومسلم وغيرهما 1450 حديثا. توفي 78 هـ. انظر الإصابة: (213/1).

(3) أخرجه أحمد (357/3)، رقم (14898).

فليس له أن يقرأ غير الفاتحة في الصلاة. قال إمام الحرمين<sup>(1)</sup>: لأنه يتكلم بما ليس بقرآن بلا ضرورة. وقواه السبكي. انتهى.

**السادسة:** إذا أنعم الله عليك بحفظ القرآن أو بقراءته فيجب عليك أن تعتقد أنه لولا تسهيل الله تعالى لك ذلك ما قدرت عليه. قال تعالى: ﴿فإنما يسرناه بلسانك﴾<sup>(2)</sup>.

**السابعة:** ورد فيمن لم يعمل بالقرآن وعيد شديد ووعد حسن لمن عمل به. فعن ابن مسعود: أنزل القرآن ليعمل به فاتخذ الناس دراسته عملاً، وسيأتي قوم يثقفونه تثقيف القنا. وفي لفظ آخر: يقيمونه إقامة القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه.

وفي بعض الأحاديث: كنا أصحاب رسول الله ﷺ أوتينا الإيمان قبل القرآن، وسيأتي قوم يؤتون القرآن قبل الإيمان يقيمون حروفه ويضيعون حدوده يقولون قرأنا القرآن فمن أقرأ منا وعلمنا فمن أعلم منا؟ فذلك حظهم منه. وفي لفظ آخر: أولئك شرار هذه الأمة؟.

قال أبو حازم<sup>(3)</sup>: أدركت القراء وهم القراء حقاً. ولو كان حامل القرآن منهم في مائة رجل لعرف حامله منهم بشدة الورع والتواضع وحسن السميت قد خضعه القرآن وخشعه. فأما هؤلاء فوالله ما هم بالقراء ولكنهم المراءون.

---

(1) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين: أعلم المتأخرين، من أصحاب الشافعي. ولد في جوين (من نواحي نيسابور) ورحل إلى بغداد، فمكة حيث جاور أربع سنين. وذهب إلى المدينة فأفتى ودرس، جامعاً طرق المذاهب. ثم عاد إلى نيسابور، فبنى له الوزير نظام الملك "المدرسة النظامية" فيها. وكان يحضر دروسه أكابر العلماء. له مصنفات كثيرة، منها "غياث الأمم والنيات الظلم - خ" و "العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية - ط" و "البرهان - خ" في أصول الفقه، و "نهاية المطلب في دراية المذهب - خ" في فقه الشافعية، اثنا عشر مجلداً، و "الشامل" في أصول الدين، على مذهب الشافعية، و "الارشاد - ط" في أصول الدين، و "الورقات - ط" في أصول الفقه، و "مغيث الخلق - ط" أصول. توفي بنيسابور 478هـ. انظر الوفيات: (287).

(2) مريم: (98).

(3) هو سلمة بن دينار المخزومي، أبو حازم، ويقال له الأعرج: عالم المدينة قاضياً وشيخها. فارسي الأصل. كان زاهداً عابداً، بعث إليه سليمان بن عبد الملك ليأتيه، فقال: إن كانت له حاجة فليأت، وأما أنا فما لي إليه حاجة. قال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: (ما رأيت أحداً الحكمة أقرب إلى فيه من أبي حازم) أخباره كثيرة. توفي 140هـ. انظر تذكرة الحفاظ: (125/1).



وكان الفضيل يحذر من قراء زمانه. وكان الحجاج أقرأ القراء وأحفظهم لحسرو  
القراءان؛ كان يختم في كل ثلاث، وكان أضيّعهم لحدود الله.

وقال الثوري: لا شيء أبغض إليّ من صحبة قارئ. وقال بشر: إياك وصحبة القراء  
فإنهم يذمون غير مذموم ويسرعون الإنكار إلى شيء لغلبة الجهل عليهم وقلّة مجالسة  
العلماء ومعاداتهم للعلم. وأنهم موصوفون بدقائق الرياء والتصنع والعجب.

وقال أبو الحسن المقرئ: يقبح على قارئ القرآن العصيان ولو مرة في عمره. وقال: لو  
عمل قارئ القرآن بالقرآن لم تحرقه نار الدنيا. وقال: أعظم الكبائر فساد العلماء، وأشد  
المصائب زنا الفقراء.

وقال أبو محمد عبد الله بن حنيف الأنطاكي<sup>(1)</sup>: إذا عصى القارئ ناداه القرآن من  
صدره ما لهذا حملتي. فلو أن العاصي سمع ذلك الصوت لمات حيّاء من الله تعالى.

وقال عياض: حامل القرآن حامل راية الإسلام لا ينبغي له أن يلهو مع من يسهو ولا  
يسهو مع من يسهو، ولا يلغو مع من يلغو تعظيماً لحق القرآن.

وقال ابن مسعود: ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليته إذا الناس نائمون وبكائه إذا الناس  
يضحكون وبصمته إذا الناس يتحدثون.

وقال الثوري: كيف يكون حامل القرآن وهو ينام الليل ويفطر النهار ويتناول الخمر  
والشبهات.

وقال الفضيل: لولا نقص دخل على أهل القرآن والحديث لكانوا خبار الناس، ولكنهم  
اتخذوا علمهم حرفة ومعاشاً. ولذلك هانوا في ملكوت السماوات والأرض.

وفي الحديث: «اقرأوا القرآن ما اتلفت قلوبكم فإذا اختلفت فقوموا عنه»<sup>(2)</sup>.

(1) هو أبو محمد عبد الله بن حنيف الأنطاكي صاحب يوسف بن نسطاس وهو من رهبان الصوفية الأقباط في أكل الحلال والثورعين في  
جميع الأحوال، أصله من الكوفة وطريقته في التصوف طريقة الثوري رضي الله عنه فإنه صاحب صحابه رضي الله عنهم بطر الطوائف  
الكبرى للشرابي: (81/1).

(2) أخرجه المستنصري في فضائل القرآن: (رقم 246).

قال ابن أبي جرة: إن القارئ إذا كان في شغل وكان قلبه مجتمعاً على القرآن فلا يضره ذلك الشغل لأن يده فيه عارية وقلبه مشغول بعبادته. وإن تعلق قلبه بالشغل منعت له القراءة. فأقل المجزئ في ذلك أن تسمع بقلبك ما تتلوه بلسانك كأنك تسمع لغيرك يقرأ عليك. وأعلاه أن تتفكر في معناه حتى تفهم ما أنت تتلوه.

وعن زاذان قال: من قرأ القرآن ليأكل به الناس لقي الله عز وجل وليس في وجهه مزعة لحم. وعن الحسن: قراء القرآن ثلاثة أصناف:

صنف اتخذوه بضاعة يأكلون به.

وصنف أقاموا حروفه وضيعوا حدوده واستطالوا به على بلادهم واشتروا به الولاية. كثر هذا الضرب من حملة القرآن لاكثرهم الله.

وصنف عمدوا إلى دواء القرآن فوضعوه على داء قلوبهم فذكروا به في محاريبهم، وجثوا به في برانيسهم، واستشعروا الخوف، وارتدوا الحزن، فأولئك الذين يسقى بهم الغيث وينصر بهم على الأعداء. والله فهذا الضرب من حملة القرآن أعز من الكبريت الأحمر. وقال عبد الله بن المبارك: من حمل القرآن ثم مال بقلبه إلى الدنيا فقد اتخذ آيات الله هزوا ولعبا.

وكان يوسف بن أسباط<sup>(1)</sup> كلما ختم القرآن يستغفر الله تعالى سبعمئة مرة ثم يقول: اللهم لا تمقتني بما قرأته من غير عمل سبعين مرة.

وقال الفضيل بن عياض: حامل القرآن يحل مقامه أن يعصي ربه لأنه يسمع كل حرف منه ينادي بالله عليك لا تخالف ما أنت حامله مني.

وقال الثوري: لا ينبغي لحامل العلم والقرآن أن يكون جافياً ولا ممارياً ولا رافعاً صوته بالحديث والعلم ولا راغباً في الدنيا لأن كل كلمة منه تقول له: ازهد في الدنيا.

(1) هو يوسف بن أسباط كان يقول: غاية التواضع أن تخرج من بيتك فلا ترى أحداً إلا رأيت أنه خير منك، وكان رضي الله عنه يقول: لو أن شخصاً ترك الدنيا كما تركها أبو ذر وأبو الدرداء ما قلت له زاهداً، وذلك أن الزهد لا يكون إلا في الحلال المحض والحلال المحض لا يعرف اليوم وأقام أربعين سنة ليس له إلا قميصان إذا غسل أحدهما لبس الآخر، وكان يعمل الخوص بيده ويتقوت حتى مات رضي الله عنه. للمزيد من أخباره انظر طبقات الشعراء: (59/1).

وقال الفضيل: إن حملة القرآن يسألون يوم القيامة عما يسأل عنه الأنبياء.  
وقال أنس بن مالك: رب تالٍ للقرآن والقرآن يلغنه. ثم يقرأ: ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾<sup>(1)</sup> وهو قد ظلم نفسه.  
وقال الثوري: إذا قرأ العبد كلام الله ثم تكلم بلغو ثم أعاد القراءة قال تعالى: "مالك ولكلامي"؟.

قال الشعرائي: ومن هنا كان سيدي علي الخواص إذا كان يقرأ القرآن وكلمه أحد في حاجة يقول في قلبه: دستور يا رب أكلم فلانا ثم يكلمه. والله أعلم.  
وعن الثوري: عشرة من الجفاء: من يدعو لنفسه ولا يدعو لأبويه والمؤمنين، ومن يتعلم القرآن ولا يقرؤه في كل يوم، ومن يدخل المسجد ويخرج ولا يصلي ركعتين، ومن يمر على المقابر ولا يسلم عليهم، ولا يدعو لهم، ومن يدخل المدينة يوم الجمعة ثم يخرج ولا يصلي الجمعة، ومن نزل بمحلتهم عالم فلا يذهبون إليه للتعلم، ورجلان يترافقان ولا يسأل أحدهما الآخر عن اسمه، وشاب فارغ لا يطلب العلم والأدب، وشبعان وجاره جائع، ومن يجب لصاحبه الضيافة ثم لا يذهب إلى الضيافة.

والحاصل: أن الذنوب قبيحة ولا سيما على العالم وقارئ القرآن.  
ولما ذكر الفاضل والمفضول من العلم ومن الذكر ذكر الأفضل من النفل فقال: (وَالنَّفْلُ أَفْضَلُ فِي الْبَيْتِ) من النفل خارجه حتى في المساجد الثلاثة لحديث الصحيحين: «أيها الناس صلوا في بيوتكم فإن أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته»<sup>(2)</sup> إلا المكتوبة. وقيده الشيرازي<sup>(3)</sup> في المذهب<sup>(1)</sup> بتطوع النهار، وتعجب منه النووي في شرحه.

(1) الأعراف: (44).

(2) أخرجه البخاري (256/1)، رقم (698). وأخرجه أيضاً: أحمد (182/5)، رقم (21622).

(3) هو إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآبادي الشواري، أبو إسحاق: العلامة المناظر. ولد في فيروزآباد (بفارس) وانتقل إلى شيراز فقرأ على علمائها. وانصرف إلى البصرة ومنها إلى بغداد (سنة 415 هـ) فأنشأ بها من الدرس والبحث. وظهر نبوغه في علوم الشريعة الإسلامية، فكان مرجع الطلاب ومفتي الأمة في عصره، واشتهر بقوة المحجة في الجدل والمناظرة. وله تصانيف كثيرة، منها

وقال السبكي في الأشباه والنظائر: لعله أشار به إلى أن التطوع في البيت — حيث يظهر في المسجد — أفضل لا حيث يخفى. قال: وهو حسن (2).

وقال بعض السلف: فضل صلاة النافلة في البيت كفضل الفريضة في المسجد بقطع ظهر إبليس ولكونه أخفى وأبعد من الرياء وأصون من المحبطات، ولترك أهل البيت بذلك، وتزل فيه الرحمة والملائكة، وتنفر منه الشياطين. قال العلقمي: إلا ما استثنى من النوافل كسنية الجمعة القبلية وركعتي الإحرام والطواف.

قال الزركشي: وصلاة الضحى خير رواه أبو داود، وصلاة الاستخارة، وصلاة منشي السفر والقادم منه، والمالك في المسجد لتعلم أو تعليم أو اعتكاف، والخائف فوات الرتبة. انتهى.

(و) النفل أيضا أفضل (بالليل) من النفل بالنهار لحديث: «أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل (3)».

حكى العلقمي الاتفاق على ذلك. وقال السيوطي: استدل أبو إسحاق المروزي (4) من أصحابنا على أن صلاة الليل أفضل من السنن الرتبة. وقال أكثر أصحابنا: الرواتب أفضل لأنها تتمم الفرائض. وقال النووي: الأول أقوى وأوفق للحديث.

(و) النفل أيضا في جوفه الأخير وهو الجزء الخامس من أسداس الليل كما في النهاية (5). وكما في القاموس في تفسير الحديث: «أفضل من النفل أوله» لحديث: «يتزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: من يدعوني أستجب له؟ من

---

(التنبيه - ط) و (المهذب - ط) في الفقه، و (التبصرة - خ) في أصول الشافعية، و (طبقات الفقهاء - ط. توي 476هـ. انظر الوفيات: (4/1).

(1) انظر المهذب لإبراهيم بن يوسف بن علي الشيرازي: (84/1).

(2) انظر الأشباه والنظائر للسبكي: (244/1).

(3) أخرجه أيضاً: الدارمي (412/1)، رقم 1476، وأبو يعلى (280/11)، رقم 6392.

(4) إبراهيم بن أحمد المروزي، أبو إسحاق: فقيه انتهت إليه رئاسة الشافعية بالعراق بعد ابن سريج. مولده بمرو الشاهحان (قصة خراسان) وأقام ببغداد أكثر أيامه. وتوفي بمصر. له تصانيف منها (شرح مختصر الزق). انظر وفيات الأعيان: (4/1).

(5) انظر النهاية في غريب الأثر للجزري: (841/1).

يسألني فأعطيه؟ من يستغفري فأغفر له<sup>(1)</sup>». ولحديث: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود الطيب<sup>(2)</sup> كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه<sup>(3)</sup>» رواهما الشيخان. ولحديث: «أفضل الصلاة بعد المكتوبة: الصلاة في جوف الليل الأخير<sup>(4)</sup>». ولحديث: «أقرب ما يكون العبد من الرب في جوف الليل الأخير<sup>(4)</sup>».

قال الطيبي: هو أن يُنصف الليل ويجعل لكل نصف جوفاً، والقرب يحصل في نصف الجوف الثاني، فابتدأه يكون من الثلث الأخير وهو وقت القيام للتهجد. وأما السلس الأخير فكانوا ينامون فيه حتى قالوا: إن نومه سبب المكاشفة والمشاهدة من وراء حجاب الغيب.

---

(<sup>1</sup>) أخرجه مالك (214/1 ، رقم 498) ، وأحمد (487/2 ، رقم 10318) ، والبخاري (384/1 ، رقم 1094) ، ومسلم (521/1 ، رقم 758) وأبو داود (34/2 ، رقم 1315) ، والترمذي (526/5 ، رقم 3498) وقال : حسن صحيح .  
(<sup>2</sup>) أخرجه أحمد (160/2 ، رقم 6491) ، والبخاري (1257/3 ، رقم 3238) ، ومسلم (816/2 ، رقم 1159) .  
(<sup>3</sup>) أخرجه البيهقي (4/3 ، رقم 4438)  
(<sup>4</sup>) أخرجه الترمذي (569/5 ، رقم 3579) ، وقال : حسن صحيح غريب . والحاكم (453/1 ، رقم 1162) .

## فضل الحضر على العمل

اعْلَمْ أَنَّ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَى الْمَوْتَى) وهو أحب إليهم من الدنيا بخذافيرها لأنهم عرفوا قدر الأعمال (أَنْ يُرَدُّوا إِلَى الدُّنْيَا) ولو يوما واحدا من أيام أعمارهم التي ضيعوها. بل (وَلَوْ سَاعَةً) أما من عصى فليتدارك، وأما من أطاع فليزيد في طاعته، فإن يوم القيامة يوم التغابن، فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول: كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات، فما أعظم غبني إذ ضيعت بعض الأوقات في المباحات. وأما العاصي فغبنه ظاهر. (لِيَعْمَلُوا) عملا (صَالِحًا) ينفعهم في الآخرة (فَ) إذا علمت أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يكون بقي لهم من العمر ما بقي لك (اغْتَنِمَ بَقِيَّةَ عُمْرٍ) وهي صباغة يسيرة وما عمرك من يوم ولدتك أمك، ولكن عمرك من يوم عرفت الله تعالى.

وقال علي كرم الله وجهه: بقية عمر المؤمن ما لها ثمن؛ يدرك فيها ما أفات، ويحيي فيها ما أمات، وقد نظمهم بعضهم:

بَقِيَّةُ الْعُمْرِ مَا عِنْدِي لَهَا ثَمَنٌ وَإِنْ غَدَى غَيْرَ مَحْبُوبٍ مِنَ الثَّمَنِ  
يَسْتَدْرِكُ الْمَرْءُ فِيهَا مَا أَفَاتَ وَيُحْـ \_\_\_\_\_ سِي مَا أَمَاتَ وَيَمَحُو السُّوءَ بِالْحَسَنِ (1)  
وقال رجل لعامر بن عبد الله بن عبد قيس (2) وهو يريد الجمعة: قف حتى أكلمك.

فقال: لولا أني أبادر لوقفت لك. قال له: وما تبادر؟ قال: أبادر خروج روعي.  
(ضَيِّعَ أَوَّلُهُ) في البطالة والسيئات واصرفها إلى ما يشتهي الموتى — العودُ إلى الدنيا لأجله — فإن عمرا ضيِّعَ أَوَّلُهُ حرٌّ أن تحفظ آخره كامرأة لها عشرة أولاد ماتوا كلهم

(1) البيتان لأبي الفتح البستي، انظر ديوانه (حرف النون).

(2) هو عامر بن عبد الله المعروف بابن عبد قيس العنبري، تابعي من بني العنبري، هو أول من عرف بالنسك من عباد التابعين بالبصرة، كان فرض على نفسه كل يوم ألف ركعة وكان إذا سافر يصب من ركوته: إن شاء لنا وإن شاء ماء، أخذ القرآن عن أبي موسى الأشعري، وتخرج عليه في النسك والتعب من أقران أويس القرني. توفي في خلافة معاوية. انظر حلية الأولياء (87/2) وطبقات الشعرائي (28/1)

إلا واحداً أليست تردُّ وجدها على ذلك الواحد، وأنت قد ضيعت بقية عمرك فأحفظ بقيته. وإنما كان العود إلى الدنيا أحب إليهم من الدنيا بخذافيرها؛ لأنهم قد عرفوا قدر الأعمال وقدر الحياة وظهرت لهم الأمور وانكشفت لهم الحقائق وتبدلت لهم المنازل. وعلموا مقدار ما ضيعوا وقيمة ما فيه فرطوا، فندموا وتمنوا الرجوع إلى الدنيا ليزداد المطيع من العمل وليستدرك المقصّر ما فرط فيه.

وفي الحديث: «ما من أحد يموت إلا وندم إن كان محسناً ندم ألا يكون ازداد، وإن كان مسيئاً ندم ألا يكون نزع»<sup>1</sup>.

قال بعض الأولياء: رأيت أخاً لي في الله في النوم فقلت: يا فلان عشت بعدك والحمد لله رب العالمين، قال: لأن أقدر أن أقولها أحب إلي من الدنيا وما فيها، ثم قال: ألم تر كيف كانوا يدفنوني فإن فلاناً يصلي ركعتين، لأن أكون أقدر أن أصليهما أحب إلي من الدنيا وما فيها.

وقال مطرف بن عبد الله<sup>2</sup>: رأيت أني نزلت إلى الأموات فرأيتهم جالسين فسلمت عليهم فلم يرد علي منهم أحد السلام، فقلت لهم في ذلك، فقالوا: إن رد السلام حسنة وإنا لا نستطيع أن نزيد في الحسنات. قاله في طبقات الأولياء<sup>3</sup>.

وقال أبو يزيد بن نعامة<sup>4</sup>: رأى رجل ابنة له في النوم فقالت له: يا أبت والله لتسيحة أو تسيحتان أو ركعة أو ركعتان أحب إلي من الدنيا وما فيها.

وقال أبو قلابة<sup>1</sup>: صليت ركعتين ثم نمت على قبر، فإذا صاحبه يشتكي يقول: لقد أذيتني منذ الليلة ثم إنكم لا تعملون وتقدرتون على العمل ونحن نعلم ولا نقدر على العمل، ثم قال: الركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها.

<sup>1</sup> - أخرجه الترمذي عن أبي هريرة، رقم: (2403).

<sup>2</sup> - تقدمت ترجمته.

<sup>3</sup> - انظر طبقات الأولياء: للشعراني (34/1).

<sup>4</sup> - لم أعثر عليه.

ودخل أصحاب حسان بن أبي سنان<sup>2</sup> عليه في مرض موته فقالوا: كيف تجدك؟ قال: بخير إن نجوت من النار، فقليل له: ما تشتهي؟ قال: ليلة طويلة أحييها بالصلاة والاستغفار قبل أن أموت.

ومر ابن عمر رضي الله عنهما يوما على مقبرة وصلى ركعتين هناك فقليل له: هذا شيء ما رأيـناك تصنعه قبل اليوم، فقال: ذكرت أهل القبور وقد حيل بينهم وبين العبادة فأحببت أن أتقرب إلى الله تعالى بركعتين بينهم استغناما للعمر.

وفي الحديث: «ما من ليلة إلا وينادي ملك: يا أهل القبور من تغبطون؟ فيقولون: نغبط أهل المساجد لأنهم يصومون ولا نصوم، ويصلون ولا نصلي، ويذكرون الله ولا نذكره<sup>(3)</sup>».

ويقال: إن ملك الموت إذا ظهر للعبد أعلمه؛ إنك قد بقي من عمرك ساعة، وأنت لا تستأخر عنها طرفة عين، قالوا: فييدوا للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا من أولها إلى آخرها لخرج منها إلى أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى. فيستعقب فيها. أو يستبدل بها خيرا، فلا يجد إلى ذلك سبيلا. قال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قيل: هو التوبة، وقيل: الزيادة في العمر. وقيل: إن العبد عند كشف الغطاء يقول: يا ملك الموت أخرني يوما أعمل فيه صالحا لنفسي. فيقول: فנית الأيام فلا يوم، فيقول: أخرني ساعة، فيقول: فנית الساعات فلا ساعة، فتبلغ الروح الحلقوم ويؤخذ بكظمه عند الغرغرة. فذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ فحينئذ يغلق باب التوبة. وتنقطع الأعمال والأوقات، ويبقى عدد الأنفاس يشهد فيها المغابنة عند كشف الغطاء. فيحد بصره، فإذا

<sup>1</sup> - هو عبد الله بن زيد بن عمرو الجرمي، عالم بالقضاء والأحكام، كان ثقة بالحديث، ناسك بصري، أرادوه على القضاء فهر إلى الشام فمات بها سنة (104هـ). انظر تمهيد التهذيب (224/5) وحلية الأولياء (282/2).

<sup>2</sup> - لعله حسان بن أبي سنان البصري صدوق عابد كان يكتب بالعربية والفارسية والصربية، رأى أنس بن مالك وأدرك الدولتين؛ الأموية والعباسية، من نسله قضاة ووزراء. (ت-186) انظر تقريب التهذيب (ص 98) والبداية والنهاية (175/10).

<sup>(3)</sup> أخرجه في الفوائد المجموعة: (35).



كان في آخر نفس زهقت روحه فيدرك ما سبق له من السعادة فتخرج روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة. أوبالعكس والعياذ بالله تعالى.

وقيل: إن أول من يسأل الرجوع من هذه الأمة: من لم يكن أدى زكاته، ولم يحج بيت ربه، لقوله تعالى: ﴿فَأَصْدَقْ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. وقيل: لا يسأل الرجعة عند الموت من له عند الله مثقالُ ذرة من خير، لو أن له الدنيا بما فيها لم يحب أن يعود إليها أي ليعمل صالحا. فإذا علمت أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يكون بقي لهم من العمر ما بقي لك فاغتسم بقية عمرك (قَبْلَ فَوَاتِهَا) واغتسم معها غنيمة الفراغ فإنها فضيلة لم تعط على شروطها إلا لنادر من الناس. ولعلها لا تدوم، وإن دامت فالموت القريب يهدم كل عمل. وأشار بهذا إلى حديث: «اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»<sup>1</sup>.

وأنشد أبو القاسم عبد المحسن التنوخي<sup>2</sup>:

اغْتَنِمْ خَمْسَةَ شَبَابًا وَيُسْرًا وَفَرَاغًا وَصِحَّةً وَبَقَاءً  
وَاحْذَرْنَ خَمْسَةَ مَشِيئًا وَعُسْرًا وَاشْتِغَالًا وَعِلَّةً وَفَنَاءً

وعن محمد بن القاسم الفارسي<sup>3</sup> عن شمر بن عبد الله الصوفي<sup>4</sup> قال: رأيت مكتوبا

على جدار مسجد القادسية بالأزوردي بيتين قيل إنهما من كلام البخاري وهما:

اغْتَنِمْ فِي الْفَرَاغِ فَضْلَ رُكُوعٍ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مَوْتُكَ بَعْتَهُ  
كَمْ صَحِيحٍ رَأَيْتَ مِنْ غَيْرِ سَقَمٍ ذَهَبَتْ رُوحُهُ الصَّحِيحَةُ فَلْتَهُ

<sup>1</sup> - أخرجه في الجامع الصغير (48/1) وعزاه للحاكم في المستدرک والبيهقي في شعب الإيمان.

<sup>2</sup> - عبد المحسن التنوخي: هو عبد المحسن بن حمود بن عبد المحسن التنوخي الحلبي أبو الفضل؛ أديب من الشعراء كان كاتباً ووزيراً لعز الدين أليك صاحب صرخد له كتاب في الأخبار والنوادر وله ديوان شعر ومؤلفات أخرى. (ت 643هـ) انظر شذرات الذهب (220/5) آداب اللغة (22/3) وغيرها.

<sup>3</sup> - محمد بن القاسم الفارسي: يوجد محمد بن القاسم علم على عدة أشخاص ولم أجد فيهم الفارسي.

<sup>4</sup> - لم أعثر عليه كذلك.

وقال ابراهيم بن أدهم<sup>1</sup>: لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يجوز ستَّ عقبات وهي: أن يغلق باب النعمة ويفتح باب الشدة، أن يغلق باب العز، ويفتح باب الذل، ويغلق باب الراحة، ويفتح باب الجهد، ويغلق باب النوم، ويفتح باب الفقر، ويغلق باب الأمل، ويفتح باب الاستعداد للموت.

## مراعاة الباطن وضبط الحواس

(وَلَا تَغْفَلْ) مع هذا كله (عَنْ مُرَاعَاةِ الْبَاطِنِ) والتفتيش عنه كل ساعة، هل هو متلبس بخفايا آفات النفس، وغرور الدنيا، ومصائد الشيطان، لتحताल في الطهارة من ذلك، والتحرز منه، أو هو مترء عنه، فتتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلات عليه، وهل هو متصف بالفضائل كالزهد والرضى وغيرهما، وما الذي يعوزك منها. (وَضَبْطُ الْحَوَاسِ) وهي الجوارح السبعة التي هي: السمع والبصر واللسان واليدان والرجلان والبطن والفرج. ففي الحديث: «خلق الله للنار سبعة أبواب وخلق لابن آدم سبعة جوارح؛ فمتى أطاع الله بجارحة من تلك الجوارح السبعة أغلق عنه بابا من تلك الأبواب<sup>(2)</sup>». (وَحِفْظُ الْأَنْفَاسِ) لأن أنفاسك معدودة عليك ومستول عنها مطالب بها، بل وعن دقائقك وجزئياتك، فإذا كنت هكذا فإنه لم يبق محل لمتابعة هواك، فعليك بدوام المراقبة وعدم الغفلة.

وأدب العبد في أنفاسه: أن يجعل أنفاسه التي هي عنده أمانة له لا عليه لأنها خزائن أعماله النافعة له يوم يفتقر غالب الناس. وقد كان بعضهم يعد ما يفوته من الأنفاس فيما يمضغ من الأكل، فيسف السويق ليلا يشتغل بالأنفاس في الأكل دون الذكر، وهذه

<sup>1</sup> - تقدمت ترجمته.

<sup>(2)</sup> لم أجد تفرجه.

مراقبة سنية عدها السلف أعلى مقامات السلوك. لكن فُتح لبعضهم بأكمل منها وهي مراقبة طرفة العين.

والمراقبة: تحقيق القلب بنظر الحق على سره وجهره، في كل زمن فرد، فمن راعى الله في الأنفاس راقبه في عموم أحواله، فيرى أنه رقيب عليه وأقرب إليه من حبل الوريد. فلا تغفل عن مراعاة أنفاسك فإن السنة 12 شهرا، والشهر 30 يوما، واليوم واللييلة 24 ساعة، والساعة 120 نفسا والنفس لحظتان، وفي كل لحظة يجب على العبد ثلاثة أشياء يعصي بتركها: ذكر الله، والإخلاص، والرضى بكل ما يأتي من الله. فكل لحظة تقرب باستعمالها في الذكر لله، وتبعد باستعمالها لغير الله.

فأيام السنة: ثلاثمائة وستون يوماً "360"، وساعاتها: 8640 نفسا، والأنفاس فيها: 1036800، واللحظات فيها: 2073600 لحظة. فانظر يا أخي ما ذا يضيع البطال من الأوقات الشريفة التي تذهب سُدًى، وهو لا يشعر ولا يدري أن كل نفس جوهرة نفيسة لا عوض لها كما أشار إلى ذلك بقوله: (لأنَّ كلَّ نفسٍ) من أنفاس عمرك. والنفس بفتح الفاء أدقُّ الحركات النفسية في عالم الملكوت والشهادة. (جَوْهَرَةٌ نفيسةٌ) لا عوض لها (يُمْكِنُ أَنْ تُشْتَرِيَ بِهَا) أي أن تفعل في ساعة قصيرة من العمر (كَثْرًا) أي عملا صالحا (لَا يَتَنَاهَى نَعِيمُهُ) في الجنة أبدا. وذلك بصرف ذلك النفس في ذكر الله وطاعته، وذلك أرباح عظيمة يستحقها الغافلون الذين لم يعرفوا قدر الدين (فَإِخْلَاءُ نَفْسٍ) أي ساعة قصيرة من الطاعة أي انقضاؤها ضائعا (أَوْ) استعمالها (فِي مَعْصِيَةٍ) قوله: (حَسْرَةٌ) راجع إلى قوله: "فإخلاء.. إلخ" وقوله: (وَحُسْرَانٌ عَظِيمٌ) راجع إلى قوله: "أو في معصية" على طريق اللف والنشر.

وفي الخبر: «ما من ساعة تأتي على العبد لا يذكر الله فيها إلا كانت عليه حسرة»<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> - أورده السيوطي في الجامع الصغير بلفظ: «ما من ساعة يمر بآدم ولم يذكر الله فيها إلا حسر عليها يوم القيامة» (150/2) وعزاه للبيهقي في شعب الإيمان، وأبي نعيم في الحلية.

ويقال: إن العبد تعرض عليه ساعاته في اليوم والليلة فيراها خزائن مصفوفة 24  
خزانة فيرى في كل خزانة لذة ونعيماً وعطاءً وجزاءً بما كان أودع خزائنه من ساعاته  
في الدنيا من الحسنات فيسره ذلك ويغبط به. فإذا مرت في الدنيا ساعة لم يذكر الله فيها  
رآها في الآخرة خزائن فارغة لا عطاء فيها ولا جزاء عليها فيسوءه ذلك ويتحسر كيف  
فاته حيث لم يدخر فيها شيئاً.

ثم قال: (وَاعْمُرْ أَوْقَاتَكَ) واشغلها واستغرقها ولا سيما أفاضلها بما ينفعك مما  
سيأتي. فإن الشيطان يرضى منك بتضييع عمرك من غير فائدة.

قال الشاذلي: الطريق ليست بالرهبانية ولا بأكل الشعير، بل بحفظ الأوقات عن  
الضياع فإن طريقهم جهاد لا صلح فيه.

قال الحكيم الترمذي<sup>(1)</sup>: رَأْسُ مَالِكَ وَقَتُّكَ وَقَلْبُكَ، وقد شغلت قلبك  
بمواجس الظنون وضيعت وقتك بارتكاب ما لا يغنيك فمتى يربح من خسر رأس ماله.  
قال الغزالي: من أراد أن يدخل الجنة بغير حساب فليستغرق أوقاته في الطاعة ومن  
أراد أن ترجح كفة حسناته وتثقل ميزان خيراته فليستوعب في الطاعة أكثر أوقاته. وانظر  
إلى ما قال الله تعالى لأقرب عباده وأرفعهم درجة لديه: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا  
وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾، ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ  
لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾.<sup>(2)</sup>

وقال الحسن البصري: أدركت أقواما كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على  
دنانيركم ودراهمكم يقول: كما لا يخرج أحدكم دينارا ولا درهما إلا فيما يعود عليه  
نفعه؛ كذلك لا يجبون أن تخرج عنهم ساعة من أعمارهم إلا فيما يعود عليهم نفعه.  
فمن فاته نفس بلا ذكر ولا طاعة فقد ضيع خيرا كثيرا، لا يمكن أن يخلفه أبدا.

(1) هو محمد بن علي بن الحسن بن بشر، أبو عبد الله، الحكيم الترمذي: باحث، صوفي، عالم بالحديث وأصول الدين. من كتبه:  
فمنها (نوادير الأصول في أحاديث الرسول - ط) و (الفروق - خ) يفرق فيه بين المداراة والمداينة، والمجاجة والمجادلة، والمناظرة والمغالبة،  
والانتصار والانتقام الخ، وهو فريد في بابيه. وله كتاب (غرس الموحدين). توفي 320هـ. انظر طبقات السبكي: (20/2).

(2) انظر إحياء علوم الدين: (331/1).

ولكن هذا كله. (بَعْدَ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ) قال صالح بن بشير<sup>(1)</sup>: رأيت الفضيل بعد موته فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: لم أر شيئا أفضل من تأدية الفرائض فعليكم بها. وقال سعيد بن المسيب<sup>(2)</sup>: من حافظ على الصلوات الخمس فقد ملأ البر والبحر عبادة. ثم ذكر ما تعمّر به الأوقات بعد الفرائض فقال: بكثرة النوافل؛ لأن التزوّد بمجرّد الفرائض لذلك السفر البعيد قد لا يكفي، لاحتمال أن يكون فيها نقص فيحتاج أن يُكَمَّلَ (بِالنَّوَافِلِ) كما ورد في الحديث. ويدل على هذا قوله ﷺ للذي قال: لا أزيد على هذا ولا أنقص يعني الفرائض «أفلح هذا إن صدق»<sup>3</sup> لأنه قال: لا أنقص.

قال ثابت البناني<sup>(4)</sup>: لو علم الله تعالى شيئا أفضل من الصلاة لما قال: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ فينبغي للمؤمن أن يُنْعَشَ لإيمانه بكثرة النوافل ويسقي شجرة إيمانه حتى تحيا وتثمر وتخرج أغصانها وثمارها من كل جزء من أجزاء البدن. ولا حياة لشجرة الإيمان إلا بأن تسقى على الدوام بمياه الطاعات. فمن فرط في الطاعات وأعرض عن التقرب إلى الله تعالى والتضرع إليه على مر الأزمان والساعات ييسر شجرة إيمانه وقُلت ثمارها فلم تنفذ إلى الجوارح. وإذا كانت الجوارح عريت عن ثمار الإيمان صارت مأوى لأفاعي المعاصي وحياتها وعقاربها. ولذا قيل: من وُفِّقَ في نهاره وُفِّقَ في ليله وبالعكس. وإن خلط في أحدهما ابتلي بالتخليط في الآخر إلا أن يغفو الله تعالى عنه.

قال الغزالي: ومن اشتغل بشهوة نفسه عن العبادة مع تمكنه منها من غير تعذر - والدار دار خدمة وعبادة لا دار تنعم وشهوة - استحق اللوم بذلك والتعير من سيده. انتهى بخ.

(1) هو صالح بن بشير، القاص الزاهد الخاشع؛ لما سمعه سفيان الثوري قال لمرحوم: تقول لهذا قاص؟ إنما هذا نذير. توفي سنة اثنتين وسبعين ومائة، وروى له الترمذي. انظر الوافي بالوفيات: (230/5).

(2) تقدمت ترجمته.

3 أخرجه البخاري رقم: (46) عن طلحة بن عبيد الله.

(4) تقدمت ترجمته.

وقيل لعبيد<sup>1</sup> مولى رسول الله ﷺ: هل كان رسول الله ﷺ يأمر بالصلاة غير المكتوبة؟ قال: بين المغرب والعشاء. وقال الأسود: ما أتيت ابن مسعود في هذا الوقت إلا ورأيتَه يصلي فسألتَه؟ فقال: نعم هي ساعة الغفلة، ففي الحديث: «من صلى المغرب وصلى بعدها ركعتين بنسى الله له قصرا في الجنة»<sup>2</sup> قال الرواي: لا أدري من ذهب أو فضة. ومن صلى بعدها أربع ركعات غفر له ذنوب عشرين، أو قال أربعين سنة<sup>(3)</sup>. وفيه: «من صلى ست ركعات بعد المغرب عدلن له عبادة سنة أو كأنه صلى ليلة القدر»<sup>4</sup>.

وفيه: «من صلى بعد المغرب ستا ولم يتكلم بينهما بسوء عدلن له عبادة اثنتي عشرة سنة»<sup>5</sup>.

وعن سعيد بن جبير عن ثوبان<sup>(6)</sup> قال: قال رسول الله ﷺ: «من عكف نفسه بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة لم يتكلم إلا بصلاة أو قراءة كان حقا على الله أن يني له قصرين في الجنة مسيرة كل قصر منهما مائة عام ويغرس له {غرسا}<sup>(7)</sup> بينهما لو طافه أهل الدنيا لوسعهم»<sup>8</sup>.

<sup>1</sup> - عبيد مولى رسول الله: هو عبيد بن عبد الغامري ويقال عبد الله بن عبد الغافر مولى رسول الله ﷺ راوي حديث: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا» انظر الإصابة (398/2)

<sup>2</sup> - أخرجه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (252/3) برقم (1252) وقال رواه أبو الوليد يونس

<sup>(3)</sup> انظر إحياء علوم الدين: (351/1) باب: بيان أوراد الليل.

<sup>4</sup> - قال في الجامع الصغير (175/2). «من صلى ست ركعات بعد المغرب قبل أن يتكلم غفر له ذنوب خمسين سنة» وعزاه لابن نصر عن ابن عمر ورمز له بالضعف (ض).

<sup>5</sup> - أورده في الجامع الصغير (174/2) وعزاه للترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة ورمز له بالضعف (ض).

<sup>(6)</sup> هو ثوبان بن يجدد، أبو عبد الله: مولى رسول الله ﷺ أصله من أهل السراة (بين مكة واليمن) اشتراه النبي ﷺ ثم أعتقه، فلم يزل يخدمه إلى أن مات، فخرج ثوبان إلى الشام فترل الرملة (في فلسطين) ثم انتقل إلى حصص فابتنى فيها دارا، وتوفي بها. له 128 حديثا. انظر الإصابة (212/1).

<sup>(7)</sup> في نسخة: {غراسا}.

<sup>8</sup> - ذكره الغزالي في الإحياء (383/1) أخرجه أبو الوليد الصنفار في كتاب الصلاة من طريق عبد الملك بن حبيب بلاغا له من حديث عبد الله بن عمر.

وفي الحديث: «من ركع عشر ركعات ما بين المغرب والعشاء بني له قصر في الجنة»<sup>1</sup> قال عمر: إذن تكثر قصورنا يا رسول الله؟ فقال: «الله أكثر وأفضل»، أو قال: «أطيب»<sup>2</sup>.

وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «من صلى المغرب في جماعة ينبغي أن يصلي بعدها ركعتين ولا يتكلم بشيء فيما بين ذلك من أمر الدنيا ويقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وعشر آيات من أول سورة البقرة وعائيتين من وسطها، ﴿وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآيتين، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ خمس عشرة مرة ثم يركع ويسجد فإذا قام قرأ في الركعة الثانية فاتحة الكتاب وآية الكرسي وعائيتين بعدها إلى: ﴿خَالِدُونَ﴾ وثلاث آيات من آخر البقرة من قوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى آخر السورة، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ خمس عشرة مرة»<sup>3</sup>. ووصف من ثوابه في الحديث ما يخرج عن حصر.

ومنها: صلاة الضحى. ومن فضلها: أن ركعتين منها تجزئ عن صدقة الأعضاء التي تصبح عليها كل يوم وهي ستون وثلاثمائة عدد مفاصل ابن آدم.

وفي الحديث: «يصبح على كل سلامي من الناس صدقة»<sup>4</sup>. والسلامي بالضم مقصورا: واحد السلاميات وهي مفاصل الأصابع. وكان المعنى: على كل عظم من عظام ابن آدم صدقة؛ أي في مقابلة ما أنعم الله تعالى به على الإنسان في خلق تلك السلاميات إلى أن قال: ويجزئ عن ذلك كله ركعتا الضحى. لأن الصلاة عمل بجميع الأعضاء، فإذا صلى العبد فقد قام كل عضو منه بوظيفته وأدى شكر نفسه.

<sup>1</sup> أخرجه أحمد (147/5، رقم 21346)

<sup>2</sup> أسنده في الجامع الصغير (174/2) إلى ابن ماجه عن عائشة ورمز له بالضعف (ض).

<sup>3</sup> ذكره الفزالي في الإحياء (191/2) وعلق العراقي في تحريجه بقوله: "أخرجه أبو الشيخ في الثواب من رواية زياد بن ميمون

عنه مع اختلاف يسير وهو ضعيف"

<sup>4</sup> - أخرجه مسلم حديث رقم (1671) عن أبي ذر.

ولفظ مسلم في الحديث: «يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليل صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى»<sup>1</sup>. وفي رواية: وفي الإنسان 360 مفصلاً فعليه أن يتصدق عن كل مفصل منها صدقة. قالوا فمن يطيق ذلك يا رسول الله؟ قال: «النخامة في المسجد يدفنها والشيء ينحيه عن الطريق، وإن لم يقدر فركعتا الضحى تجزئ عن ذلك». وفي رواية: «تعديل بين اثنين صدقة وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة». وفي رواية: «تسمع الأصم وتهدى الأعمى وتدل المستدل على حاجته وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف فهذا كله صدقة منك على نفسك». وزاد البيهقي: «وتبسمك في وجه أخيك صدقة، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن طريق الناس صدقة، وهديك الرجل في أرض الضلالة لك صدقة». وفي رواية: «حتى أنه ليؤجر في السلعة تكون في طرف ثوبه فيلمسها فيفقد مكانها أو كلمة نحوها فيحقق بذلك فؤاده فيرده الله عليه». وفي رواية: «ولو أن تهب صلة الجبل... إلى أن قال: ولو أن تونس الوحشان بنفسك ولو أن تهب الشسع». وفي رواية: «أن من الصدقة أن تسلم على الناس وأنت طليق الوجه». وفي أخرى: «ولو أن تكلم أخاك ووجهك إليه منبسط». وفي أخرى: «وإتيانك زوجتك صدقة وما أكلته من مالك ومشيك بدينك تقضيه ودعاؤك واستغفارك للمؤمنين والمؤمنات وما وقيت به عرضك صدقة ومدارات الناس وإطراق فحل وإعادة الصلاة مع رجل يصلي وحده صدقة. وكذلك المعونة في الحاجة والشفاعة والنخامة في المسجد يدفنها وإخراج القذى منه وإضاءة السراج فيه والجلوس مستقبلاً، والتبشير بما يسره والتهنئة بما يسره والدلالة على

<sup>1</sup> - أخرجه مسلم برقم (720) عن أبي ذر.



الخير والحاجة، وأداء الأمانة الخفية، والدين الخفي والإعرة والعبادة، وتشجيع جنازة وحملها وتعزية وزيارة وقرض طعام ودرهم وغيره». انتهى<sup>1</sup>.

وقال بعض السلف: طلبنا البركة في الرزق فوجدناها في صلاة الضحى. والصحيح أنها من حيث الفضل ثمان ومن حيث الكثرة اثنتا عشرة. وأقلها ركعتان ووقتها من ارتفاع الشمس إلى الزوال. وروى عن أبي ذر: أن من صلاها أربعاً لم يكتب من الغافلين. ومن صلاها ثماناً كتب من القانتين. وعن أبي هريرة قال: أوصاني خليلي رسول الله صلى الله عليه وسلم بصيام ثلاثة أيام من كل شهر وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أرقد. رواه الشيخان<sup>2</sup>.

وعنه أيضاً: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من حافظ على سبحة الضحى غفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر»<sup>3</sup>. رواه ابن ماجه.

وعنه أيضاً: قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحافظ على صلاة الضحى إلا أواب»<sup>4</sup>. رواه ابن خزيمة<sup>(5)</sup> في صحيحه.

وعنه أيضاً عن النبي ﷺ قال: «إن في الحنة باباً يقال له الضحى، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الذين كانوا يذمنون على صلاة الضحى؟ هذا بابكم فادخلوه برحمة الله»<sup>6</sup>. رواه الطبراني في الأوسط. انتهى من شرح شهية السماع<sup>(7)</sup>.

<sup>1</sup> - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (220/3 ، رقم 3377).

<sup>2</sup> - أخرجه مسلم برقم (1672) عن أبي هريرة و (1673) و (1674) كذلك. و (1675) عن أبي الدرداء. والبخاري برقم: (1971) و (1178) عن أبي هريرة كذلك.

<sup>3</sup> - أخرجه ابن ماجه برقم: (1382) عن أبي هريرة.

<sup>4</sup> - أورده في الجامع الصغير (204/2) بزيادة: «وهي صلاة الأوابين» وعزاه للحاكم عن أبي هريرة وصححه.

<sup>(5)</sup> هو محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي، أبو بكر: إمام نيسابور في عصره. كان فقيهاً مجتهداً، عالماً بالحديث. مولده ووفاته بنيسابور. رحل إلى العراق والشام والجزيرة ومصر، ولقبه السبكي بإمام الأئمة. تزيد مصنفاته على 140 منها كتاب (التوحيد وإثبات صفة الرب - ط) كبير وصغير، و (مختصر المختصر) المسمى (صحيح ابن خزيمة - ط). توفي 311هـ. انظر طبقات السبكي: (130/2).

<sup>6</sup> أخرجه الطبراني في الأوسط (195/5 ، رقم 5060)

<sup>(7)</sup> انظر شرح شهية السماع: (97) مخطوط بالزاوية.

وقال الفشني على الأربعين: وعن أنس عنه عليه السلام: «من صلى الضحى يقرأ في الركعة الأولى فاتحة الكتاب وآية الكرسي عشر مرات. وفي الثانية فاتحة الكتاب و﴿قل هو الله أحد﴾ عشر مرات استوجب رضوان الله الأكبر»<sup>1</sup>.

وفي كتاب النورين في إصلاح الدارين: عنه عليه السلام: «صلاة الضحى تجلب الرزق وتنفي الفقر». ومنها رواتب الفرائض المشهورة.

وقال القاضي عياض: المختص بالأسباب من النوافل عشرة: الصلاة عند الخروج إلى السفر. وعند القدوم منه. وعند حلول المنزل وعند الخروج منه وصلاة الاستخارة: ركعتان. وصلاة الحاجة ركعتان، وصلاة التسبيح: أربع. وركعتان بين الأذان والإقامة. وركعتان لمن قدم للقتل، وركعتان عند الدعاء. وركعتان عند التوبة من الذنب والاستغفار منه. وأربع ركعات بعد الزوال<sup>(2)</sup>. ومنها: التنفل في الأيام والليالي الفاضلة.

قال الغزالي: اعلم أن الليالي المخصوصة بمزيد الفضل التي يتأكد فيها استحباب الإحياء في السنة: خمس عشرة ليلة لا ينبغي أن يغفل المريد عنها، فإنها مواسم الخيرات، ومظان التجارات، ومتى غفل التاجر عن المواسم لم يربح، ومتى غفل المريد عن فضائل الأوقات لم ينجح. فسته من هذه الليالي في شهر رمضان، خمسة منها: هي أوتار العشر الأخيرة إذ فيها تطلب ليلة القدر، وليلة سبع عشرة من رمضان. وأما التسع الأخرى: أول ليلة من المحرم، وليلة عاشوراء، وأول ليلة من رجب وليلة النصف منه، وليلة سبع وعشرين منه. وهي ليلة المعراج؛ ففيها صلاة مأثورة: ففي الحديث: «للعامل في هذه الليلة حسنات مائة سنة، فمن صلى فيها اثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب وسورة من القرآن يتشهد في كل ركعتين. ويسلم في آخرهن ثم يقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة ويستغفر الله مائة مرة، ويصلي على النبي ﷺ مائة مرة، ويدعوا لنفسه ما شاء الله من أمر دنياه وآخرته ويصبح صائماً. فإن

<sup>1</sup> - انظر الفشني على الأربعين حاشية الشرحيني على الأربعين (ص 174) المجلس 26.

(2) انظر: قواعد عياض.

الله تعالى يستجيب دعاءه كله، إلا أن يدعو في معصية<sup>(1)</sup>». وليلة عرفة، وليلتا العيد، وليلة النصف من شعبان، وفيها مائة ركعة في كل ركعة سورة الإخلاص عشرا، كانوا لا يتركونها، وكذا ليلة النصف من رمضان هذه الصلاة أيضا.

وأما الأيام الفاضلة: فهي تسعة عشر يستحب مواصلة الأوراد فيها: يوم عرفة، ويوم عاشوراء ويوم سبع وعشرين من رجب ويوم سبعة عشر من رمضان ويوم النصف من شعبان ويوم العيد، والعشر الأول من ذي الحجة وأيام التشريق. وفي الحديث: «إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام، وإذا سلم رمضان سلمت السنة»<sup>2</sup>..

وقال بعض العلماء: من أخذ مهناه في الأيام الخمسة في الدنيا لم ينل مهناه في الآخرة أي العيدين والجمعة وعرفة وعاشوراء.

ومن الرغائب: كما في كتاب البركة: صلاة أول جمعة من رجب بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة بست تسليمات يقرأ في كل ركعة الفاتحة والقدر ثلاثا والإخلاص إحدى عشرة مرة، وفي رواية اثنتا عشر مرة فإذا فرغ قال: اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله بعد ما يسلم سبعين مرة، ثم يسجد فيقول: سبوح قدوس رب الملائكة والروح سبعين مرة ثم يرفع رأسه فيقول: رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم فإنك أنت العلي الأعظم سبعين مرة. ثم يسجد ويقول مثل الأولى سبعين مرة ثم يسأل الله وهو ساجد حاجته، فإن الله لا يرد سائله.<sup>(3)</sup>

وذكر النووي في فتاويه كراهة فعلها. ولعله يعني بذلك كراهة فعلها في الجماعة والله أعلم. انتهى.

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (374/3)، رقم (3812)

<sup>2</sup> انظر إحياء علوم الدين للغزالي: (361/1).

(3) انظر كتاب البركة في فضل السعي والحركة (ص 460) قال الغزالي: هذه صلاة مستحبة ذكرها الآحاد لكن رأيت أهل القدس بأجمعهم يواطئون عليها ولا يسمحون بتركها. انتهى من كتاب البركة.

قال الغزالي: فهذه صلوات مستحبة نقلها الآحاد ولكني رأيت أهل القدس بأجمعهم يواظبون عليها ولا يسمحون بتركها<sup>(1)</sup>.

وعن عمرو بن خالد الخزاعي<sup>2</sup> قال: كنت عند عطاء فجاء رجل فقال يا أبا محمد؛ إن طاووسا قال: من صلى العشاء ثم صلى بعدها ركعتين، يقرأ في الأولى أم القرآن و السجدة، وفي الثانية: أم القرآن وتبارك الملك، كتب له مثل وقوف ليلة القدر. فقال عطاء: صدق طاووس، وعن أنس: أن من قرأ السجدة و تبارك في ليلة كان كمن وافق ليلة القدر وكان طاووس لا يدعهما في حضر ولا سفر. وروى: أن من قرأهما في ركعتين ثم قال: يا دائم يا حي يا قيوم يا وتر يا قليم يا أحد يا صمد صل على محمد وآله وصحبه وسلم تسليما. ثم سأل الله حاجته استجيب له. وروى الترمذي عن جابر: أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأهما.

## فضل الصدقة

(وَالصَّدَقَةُ) من حلال لتنفعه. قال الثوري: من أنفق الحرام في طاعة الله كان كمن غسل الثوب بالبول. فقد جاء في فضلها آثار كثيرة، ففي الحديث: «إن الله يدخل بلقمة الخبز وقبضة التمر ومثلهما مما ينفع المساكين؛ ثلاثة الجنة: صاحب البيت والآمر به والزوجة المصلحة والخادم»<sup>3</sup>. وفيه: «استعينوا على الرزق بالصدقة»<sup>4</sup>. وفيه: «إن الله ليصرف العذاب عن الأمة بصدقة رجل منهم»<sup>5</sup>. وفيه: «إن الله ليضحك إلى الرجل إذا

(1) انظر الإحياء: (203/1).

<sup>2</sup> - هو عمرو بن خالد بن فروخ بن سعيد التميمي ويقال الخزاعي نزيل مصر ثقة. (ت 229) تقريب التهذيب (ص 358).

<sup>3</sup> - أورده في الجامع الصغير (76/1) وأسنده للحاكم عن أبي هريرة.

<sup>4</sup> - أخرجه في الجامع الصغير (40/1) وعزال للدبلي في مسند الفردوس عن عبد الله بن عمرو المزني.

<sup>5</sup> أخرجه الدبلي (160/1 ، رقم 589).

مد يده بالصدقة وإذا ضحك الله لعبد غفر له»<sup>1</sup>. وفيه: «أعظم الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم؛ قلت: لفلان كذا ولفلان كذا»<sup>2</sup>.

وجاء: أن سائلاً أتى امرأة وفي فمها لقمة فأخرجت اللقمة فناولتها السائل فاحتمل الذئب يوماً ابنها فعدت في إثره وهي تقول: ابني ابني، فأمر الله ملكاً أن ألحق الذئب فخذ الصبي من فيه، وقل لأمه: الله يقرئك السلام ويقول لك: لقمة بلقمة.

وفي الحديث: «لا توكي فيوكي الله عليك»<sup>(3)</sup>. أي لا تمسكي المال في الوعاء وتوكي عليه فيمسك الله فضله وثوابه عنك، كما أمسكت ما أعطاك الله تعالى.

وفي هذا الحديث دليل على النهي عن منع الصدقة خشية النفاذ، فإن ذلك أعظم الأسباب لقطع مادة البركة؛ لأن الله تعالى يثيب على العطاء بغير حساب، ومن لا يحاسب عند الجزاء لا يحاسب عليه عند العطاء، ومن علم أن الله يرزقه بغير حساب فحقه أن يعطى ولا يحتسب قاله ابن رسلان.

وفيه: «يا زبير إن مفاتيح الرزق بإزاء العرش يتزل الله للعباد أرزاقهم منه على قدر نفقاتهم فمن كثر الله عليه ومن قل قل الله عليه»<sup>4</sup>.

وفيه: «أفضل الصدقة جهد المقلّ وأبدأ بمن تعول»<sup>5</sup>. قال في النهاية: أي قدر ما يحتمله حال قليل المال<sup>(6)</sup>.

<sup>1</sup> أخرجه الديلمي (160/1 ، رقم 590) .

<sup>2</sup> - أخرجه البخاري برقم: (1419) عن أبي هريرة، ومسلم برقم: (2382) عن أبي هريرة كذلك.

<sup>(3)</sup> أخرجه البخاري (915/2 ، رقم 2451) ، ومسلم (713/2 ، رقم 1029) بلفظ: "ولا توعي فيوعي الله عليك".

<sup>4</sup> أخرجه أيضاً : الديلمي (402/5 ، رقم 8554) .

<sup>5</sup> - أخرجه في الجامع الصغير (50/1) لأبي داود والحاكم في مستدركه.

<sup>(6)</sup> انظر النهاية في غريب الأثر: (848/1).

قال ابن رسلان: أي أقصى ما يقدر عليه المقل، يعني من المال، ولا شك أن الصدقة بالشيء مع شدة الحاجة إليه والشهوة له أفضل من صدقة الغني وذلك بشرط أن لا يضر ذلك بدينه من ضعفه عن القيام في الصلاة وكشف عورته وغير ذلك.

قوله: "أبدأ بمن تعول"، ثم بعد ذلك يدفع الصدقة لغيرهم، لأن القيام بكفاية العيال واجب عليه، والصدقة على الغير مندوبة، ولا يدخل في ذلك ترفه العيال وإطعامهم لذائذ الأطعمة مما زاد على كفاياتهم من الترفه، لأن من لم تندفع حاجته أولى بالصدقة ممن اندفعت حاجته في مقصود الشرع، وبهذا يجمع بين هذا الحديث وبين حديث: «أفضل الصدقة ما كان عن ظهر غنى»<sup>1</sup>.

قال السيوطي: أي ما وقع من غير محتاج إلى ما تصدق به لنفسه. أو لمن تلزمه نفقته، والمعنى: أفضل الصدقة ما أخرجه الإنسان من ماله بعد أن يستبقي منه قدر الكفاية، ولذلك قال بعد ذلك: «أبدأ بمن تعول».

البغوي: المراد: غنى يستظهر به عن النوائب التي تنوبه. وقيل المراد: أفضل الصدقة ما أغنيت به من أعطيته عن المسألة. وقيل: "عن" للسببية، و "ظهر" زائد، أي خير الصدقة ما كان سببها غنى في المتصدق. قاله العلقمي. بخ.

وفي الحديث أيضا: «المرء في ظل صدقته حتى يفصل بين الناس»<sup>2</sup>. وفيه: «ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله الخلافة على بنيهِ، وكان في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله، وحفظ من يوم صدقته من كل عاهة وآفة»<sup>3</sup>.

قال ابن أبي جمرة: ولا يلهم الصدقة إلا من سبقت له سابقة خير. وكان أبو الخير لا يخطئه يوم لا يتصدق بشيء فيه، ولو كعكة أو بصلة.

<sup>1</sup> - أخرجه في الجامع الصغير بزيادة «واليد العليا خير من اليد السفلى وأبدأ بمن تعول» وأسنده إلى مسلم والنسائي وأحمد في مسنده.

<sup>2</sup> - أخرجه في الجامع الصغير بلفظ: «إن الصدقة لتطفئ عن أهلها حر القبور وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة في ظل صدقته» عزاه للطبراني (طب) في الكبير.

<sup>3</sup> - أخرجه في الجامع الصغير وعزاه لابن المبارك عن ابن شهاب مرسلا وأشار له بالضعف (ض)

وفي الحديث: «من لبس ثوبا جديدا فقال حين يبلغ ترقوته: الحمد لله الذي كساني ما أوارني به عورتي، وأتجمل به في حياتي، ثم عمد إلى الثوب الذي أخلق فتصدق به كان في كنف الله وفي حفظ الله، وفي ستر الله، حيا وميتا.»<sup>1</sup> ما بقي من الثوب سلك، قال الراوي: ولا أدري من أي الثوبين.

وفي الزناني<sup>2</sup>: «كان ﷺ إذا استجد ثوبا سماه باسمه: إما قميصا وإما عمامة ثم يقول: اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه، أسالك خيره وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له»<sup>3</sup>.

وقال الفشني في شرح الأربعين: إن الصدقة بغير الفاضل عن الكفاية مكروهة، أو محرمة، وإنما أمر بالصدقة لأنها عبادة تقر به إلى الله تعالى ثم يحصل له فائدة الغير وتنحذب إليه بركة دعوات المسلمين؛ فيتضاعف له الأجر، ولكن ينبغي أن يطلب لصدقته من تزكوا به الصدقة كالتقي المعرض عن الدنيا المتجرد لتجارة الآخرة<sup>4</sup>.

وفي الحديث: «لا تأكل إلا طعام تقي، ولا يأكل طعامك إلا تقي، وهذا لأن التقي يستعين به على التقوى فتكون شريكا لله في طاعته، بإعانتك إياه»<sup>5</sup>. وفي الحديث: «أضف بطعامك من تحب في الله»<sup>6</sup>.

وكان بعض العلماء يؤثر بالعطاء المنقطعين في الله تعالى، فقليل له: لو عمت كان أفضل؟ فقال: لا هؤلاء قوم همهم لله تعالى، فإذا طرقتهم فاقة شئت هم أحدهم، فلأن أرد همة واحد منهم إلى الله تعالى أحب إلي من إعطاء ألف ممن همهم الدنيا». فذكر هذا الكلام للجديد فاستحسنه وقال: هذا ولي من أولياء الله. ثم حكى أن رجلا اختل

<sup>11</sup> - أخرجه الترمذي رقم: (3560) قال أبو عيسى: هذا حديث غريب وهو عن أبي أمامة.

<sup>2</sup> - تقدمت ترجمته.

<sup>3</sup> - أخرجه أبو داود رقم: (4020) والترمذي رقم: (1767) والنسائي رقم: (310) كلهم عن أبي سعيد الخدري ر.ه.

<sup>4</sup> - انظر الفشني على الأربعين حاشية على الشرحيني على الأربعين (ص 160) المجلس 25.

<sup>5</sup> - أخرجه ابن المبارك (124/1)، رقم 364، وأحمد (38/3)، رقم 11355.

<sup>6</sup> - أخرجه ابن المبارك (124/1)، رقم 366، وابن أبي الدنيا في الإخوان (ص 232)، رقم 197.

حاله وهم بترك الخانوت فبعث إليه الجنيد مالا وقال: اجعله بضاعتك ولا تترك الخانوت، فإن التجارة لا تضر بمثلك، وكان هذا الرجل بقالا لا يأخذ من الفقراء ممن ما يتعاون منه.

ومن تزكو به الصدقة: من كان من أهل العلم خاصة، فإن ذلك إعانة له على العلم، والعلم أشرف العبادات مهما صحت فيه النية.

وكان عبد الله بن المبارك يخصص بمعرفة أهل العلم فقيل له: لو عمت؟ فقال: إني لا أعرف بعد مقام النبوة مقاما أفضل من مقام العلماء فإذا شغل قلب أحدهم بحاجته لم يتفرغ للعلم، ولم يقبل على التعليم، فتفريغهم للعلم أفضل.

ومن تزكو به الصدقة أيضا: المستتر المخفي حاجته، أو من يكون من أهل المروءة ممن ذهبت نعمته، وبقيت عادته، فهو يتعيش في جلباب التجمل. قال تعالى: ﴿يَخْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أُغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ الآية. وكذلك المَعِيل والمحبوس بمرض أو سبب من الأسباب. وكذلك الغرباء كما يأتي إن شاء الله تعالى. فليراع هذه الصفات، ففي كل صفة درجات ينبغي أن يطلب أعلاها، فإن وجد من جمع جملة منها فهي الغنيمة العظمى، فإن اجتهد وأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر، وأحد أجره في الحال تطهير نفسه من صفة البخل وتأكد حب الله في قلبه، واجتهاده في طاعته. والأجر الثاني: ما يعود إليه من فائدة دعوة الآخذ وهمته، فإن قلوب الأبرار لها آثار في الحال والمآل، فإن أصاب حصل الأجران، وإن أخطأ حصل الأول دون الثاني، وفي ذلك أجر آخر، وهو أجر خدمة الفقراء، وقد ورد فيها فضل عظيم، قاله الغزالي. بخ<sup>(1)</sup>.

وفي الحديث: «أفضل الصدقة صدقة على ذي الرحم الكاشح<sup>2</sup>». وفيه: «من تصدق بصدقة من كسب طيب -ولا يقبل الله إلا طيبا- كان كأنما يضعها في كف

(1) انظر الإحياء: (221/1).

2- أخرجه الحارث كما في بغية الباحث (396/1 ، رقم 301) وعزاه الحافظ في الإصابة (182/1) لابن شاهين في الصحابة.



الرحمن يربّيها له كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله، حتى إن اللقمة لتعود مثل جبل أحد.<sup>1</sup>

وكفى بفضل الصدقة أنها تمنع ميتة السوء، وأنها تطفئ غضب الرب، وأنها تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وأن صاحبها في ظلها حتى يقضي الله بين الناس، وإنا أمرنا أن نداوي بها مرضانا». كما جاء هذا كله في الحديث.

وفي الحديث: «إن الله يدرأ بالصدقة سبعين ميتة من ميتات السوء، وميتات السوء أن يموت مصرا على معصية، أو قانطا من رحمة الله أو ظالما أو قاطعا لرحمه، أو يفجأ بالموت أو يحتّم له بالسوء، أو شبه ذلك»<sup>2</sup>.

وفيه: «ما من رجل يتصدق في ليل أو نهار إلا حفظ من أن يموت بغيّة أو هدمة أو لدغة»<sup>3</sup> وفيه: «حصنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة، واستقبلوا أنواع البلايا بالدعاء»<sup>4</sup>.

### وفي الصدقة خمس خصال في الدنيا وخمس في الآخرة:

فالتى في الدنيا: تطهير المال لحديث: «يا معشر التجار إن هذا البيع يحضره اللغو والكذب فشوبوه بالصدقة»<sup>5</sup> والتطهير من الذنب «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا» الآية. ورفع البلاء والأمراض لحديث: «داووا أمراضكم بالصدقة، وإدخال السرور على المؤمن وبركة المال وسعة الرزق».

والتي في الآخرة: خفة الحساب، وثقل الميزان، وتخفيف الجواز على الصراط، ورفع الدرجات، ورضى الله تعالى. وفيها: استغنام دعوة المساكين وغم الشيطان. وقيل: إن ملكين يناديان أبدا عند طلوع الشمس: اللهم اجعل للمنفق خلفا، وللممسك تلفا.

<sup>1</sup> - أخرجه البخاري رقم: (1410) ورقم: (7430) عن أبي هريرة باختلاف بسيط.

<sup>2</sup> - أخرجه القضاعي (158/2) برقم: (1094) وكو العمال برقم: (16979)

<sup>3</sup> - أخرجه الطبراني رقم (10096) والبيهقي رقم: (6385) كلاهما عن ابن مسعود رضي الله عنه.

<sup>4</sup> - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (282/3)

<sup>5</sup> - أخرجه الحاكم برقم (2138) عن فيس بن أبي عريضة وأبو داود برقم (3326).

وخاف رجل على ولده الملاك، فجاء إلى أبي هريرة فقال: ادع الله لابني فقال: تصدق بصدقة تنوي بها نجاة ولدك، وسلامة ما معه فذلك أنفع لك من دعائي وأنجح.

وقال رجل لابن وضاح: إني حضرت الآن فأصابك العجلة ولدك ومشت عليه، فلم يكثر ابن وضاح بذلك فما لبث أن قيل له: أبشر يا بن وضاح سلّم الصبي إنما أصابت العجلة ثوبه فسقط وجازت ولم تضره، فقال: الحمد لله قد أيقنت بذلك لأنني رأيت الصبي اليوم ناول مسكينا كسرة فعلمت أنه لا يصيبه بلاء هذا النهار للحديث: «إن الله يدفع عن العبد الميتة السوء بالصدقة يتصدق بها<sup>(1)</sup>». وقيل: «ما من أحد يتصدق بصدقة حتى يترعها من ضرر ستين شيطانا».

وعن علي الوراق: لم يسرف من أراد الله بنفقته، ولم يسلم من الإسراف من رآى وإن قصر.

وقال محمد بن يوسف: أنفق على أخيك الصالح فإنه خير لك من ورثك فإنه يدعو لك وأنت في الثرى، حتى ربما تخرج من قبرك وليس عليك ذنب بدعائه. وأما ورثك فيقتسمون مالك وينسونك، ولا يرون لك فضلا عليهم ويقولون إن الله تعالى جعل لنا ذلك.

وروى أبو نعيم<sup>2</sup> عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «تصدقوا فإن الصدقة فكاكم من النار»<sup>3</sup>. وذكر في الحديث أشياء يجري أجرها للعبد بعد موته، فذكر: «من علم علما، أو أجرى نهرا أو حفر بئرا، أو غرس نخلا، أو بنى مسجدا، أو ورث مصحفا، أو ولدا صالحا تركه أو بيتا لابن السبيل بناه وصدقة أخرجها من ماله في صحته تلاحقه

(1) لم أحد تخريجه.

<sup>2</sup> - هو أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني أبو نعيم جافظ مؤرخ من الثقة في الحفظ والرواية، من تصانيفه: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء "ط" عشرة أجزاء. وطبقات المحدثين، ودلائل النبوة. وعدة مؤلفات أخرى (ت- 430هـ). انظر وفيات الأعيان (26/1) طبقات الشافعية (7/3).

<sup>3</sup> - أخرجه الطبراني في الأوسط برقم: (8060) عن أنس. والبيهقي في شعب الإيمان برقم: (3355).

بعد موته»<sup>1</sup>.

قال ابن القاسم الجذامي<sup>(2)</sup>: معنى: ورث مصحفا أي كتبه أو استأجر عليه، أو اشتراه ثم خلفه من بعده قاصدا أن يقرأ فيه، فله أجر من قرأ فيه، سواء حبسه أم لا، ويدخل في ذلك من ورث سنة النبي ﷺ، ومن أجرى نهرا أو أنبط عينا، فله أجر من شرب منه، أو توضأ منه أو اغتسل وغير ذلك من منافع الماء، ومن غرس غرسا لا يصيب الطير ولا السباع ولا الذئب ولا ابن السبيل من ثماره شيئا إلا كتب له به صدقة، ومن

أخرج صدقة أي جعلها يتصدق من غلتها أو ثمرتها. ونظمها السيوطي فقال:

ذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ لَيْسَ يَجْرِي عَلَيْهِ مِنْ فِعَالٍ غَيْرِ عَشْرِ  
عُلُومَ بَثَّهَا وَدُعَاءَ نَجْلِ وَغَرْسِ النَّخْلِ وَالصَّدَقَاتِ تَجْرِي  
وَرَأْيَ مَصْحَفٍ وَرِبَاطِ نَعْرِ وَحَفْرِ الْبَيْرِ أَوْ إِجْرَاءِ نَهْرِ  
وَبَيْتٍ لِلْغَرِيبِ بِنَاءُ يَأْوِي إِلَيْهِ أَوْ بِنَاءِ مَحَلِّ ذِكْرِ  
وَتَعْلِيمٍ لِقُرْءَانٍ كَرِيمٍ فَخُذْهَا مِنْ أَحَادِيثٍ بِحَضَرِ

وذكر أبو نعيم عن الأوزاعي<sup>3</sup> قال: سألت محمد<sup>4</sup> بن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم عن قوله تعالى: «يَمْنَحُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» قال: نعم حدثني أبي عن جدي عن علي عليه السلام قال: سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: إني أبشرك بها يا علي فبشر بها أمي من بعدي: الصدقة عن وجهها واصطناع المعروف وبر الوالدين وصلة الرحم، تحول الشقاوة سعادة وتزيد في العمر، وتقي مصارع السوء. وروى أبو نعيم عن بشر بن الحارث الحافي<sup>5</sup> أنه كان يقول: الصدقة أفضل من

<sup>1</sup> - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم: (3449) بلفظ: «سبع يجري للعبد أجرهن بعد موته: من علم علما أو أجرى

نورا... الخ» وأخرجه أبو نعيم في الحلية (344/2)

<sup>(2)</sup> أبو القاسم الجذامي

<sup>3</sup> - تقدمت ترجمته.

<sup>4</sup> - هو عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي المدني صدوق فاضل توفي بعد المائة. انظر تقريب التهذيب

(354).

<sup>5</sup> - تقدمت ترجمته.

الحج والعمرة والجهاد، ثم قال: ذلك يركب ويرجع ويراه الناس، وهذا يعطي سرا لا يراه إلا الله عز وجل.

وقال أبو الحسن بن سلمون<sup>1</sup>: من كثرت ذنوبه فعليه بكسب الضياع، يعني أن صاحب الضيعة لا يخلو من أجور تدخل عليه باختياره وعلمه، وقد تدخل عليه بعلمه بغير اختياره، وقد تدخل لا بعلمه ولا باختياره، وأيضا فإنها باقية للزمان الطويل.

وقال إسماعيل بن رافع<sup>2</sup>: ما من ذي رحم أوصل لذي رحمه من رجل اتبع ذا رحم بحج أو عمرة أو صدقة.

وفي مسند علي بن مجاهد<sup>3</sup> من حديث عمرو بن شعيب عن جده عن النبي ﷺ أنه قال: «ما على أحد إذا أراد أن يتصدق أن يجعلها لوالديه إذا كانا مسلمين، فيكون لوالديه أجرها ويكون له مثل أجورهما من غير أن ينقص من أجورهما شيء<sup>4</sup>». صح من العلوم الفاخرة بخ<sup>5</sup>.

ويقال: عشر خصال تبلغ بالعبد منزلة الأخيار ودرجة رفيعة: كثرة الصدقة، وكثرة تلاوة القرآن، والجلوس مع الزهاد، وتجنب مجالسة الأغنياء، وكثرة التفكير في ما هو صائر إليه غدا، وقصر الأمل، وذكر الموت، والصمت والتواضع، ولبس الكفاف، وحب الفقراء ومجالستهم، وتقريب اليتامى والمساكين ومسح رؤوسهم.

وفي الحديث: «لو جرت الصدقة على يد سبعين ألفا كان أجر آخرهم مثل أجر

<sup>1</sup> - هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن علي بن سلمون الكناي أبو محمد فاضل أندلسي، ولد بقرطبة وقرأ بها وبمالقة وسبتة وتصوف بفاس. توفي وفي وقعة طريف 741هـ. من كتبه: السافي في تحرير ما وقع من الخلاف بين التبصرة والكافي في فروع المالكية. جدوة الاقتباس: ص: 4. وشجرة النور الزكية (214).

<sup>2</sup> - هو إسماعيل بن رافع بن عمر الأنصاري المدني نزيل البصرة يكنى أبا رافع، ضعيف الحفظ. توفي في حدود: 150هـ. تقريب التهذيب.

<sup>3</sup> - علي بن مجاهد بن مسلم القاضي متروك، قال في تقريب التهذيب: وليس في شيوخ أحمد أضعف منه. توفي بعد 180هـ. انظر تقريب التهذيب (243).

<sup>4</sup> - أخرجه الطبراني في الأوسط برقم: (7726) والديلمي برقم: (6342).

<sup>5</sup> (العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة لعبد الرحمن بن محمد الشعاللي الجزائري. المتوفى سنة 876. لم نثر عليه بعد.

أولهم<sup>1</sup>.

وفي الحديث: «الصدقة تطفى الخطيئة لتعدي نفعها. ولأن الخلق عيال الله، وهي إحسان عليهم، والعادة أن الإحسان على عيال شخص يطفى غضبه»<sup>2</sup>.

وقال في شرح الأربعين: وتكره الصدقة بالردى؛ كدرهم مغشوش وحب مسوس، أو عتيق، أو ما فيه شبهة.

وفي الحديث: «إن صدقة السر تطفى غضب الرب»<sup>3</sup>. وفيه: «يا معشر النساء تصدقن فإن أكثركن حطب جهنم، إنكن تكثرن الشكاية وتكفرن العشير»<sup>4</sup>. وفيه: «يصبح صائح يوم القيامة: أين الذين أكرموا الفقراء والمساكين في الدنيا؟ ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون»<sup>5</sup>.

وقال عبد العزيز بن عمير<sup>6</sup>: الصلاة توصلك إلى نصف الطريق، والصوم يوصلك إلى باب الملك، والصدقة تدخلك على الملك. وقال أبو هريرة: يتزوج أحدكم فلانة بالمال الكثير، ولا يتزوج أحدكم الحور العين بلقمة ولا ثمرة؟ هذا من العجب<sup>7</sup>.

وقال معاذ النسفي<sup>8</sup>: من لم ير نفسه أحوج إلى ثواب صدقته هو فهو ممن أبطل صدقته بالمن، لأنه يرى نفسه على الفقير، وعند ذلك يضرب بها وجهه.

وقال حاتم الأصم<sup>1</sup>: من أعطى درهما من مائة درهم ولم يكن عنده ذلك الدرهم أعظم وأحب إليه من التسعة والتسعين المدخرة ردت صدقته إليه وضرب بها وجهه.

<sup>1</sup> - أخرجه الديلمي برقم: (5090) عن جابر.

<sup>2</sup> - أخرجه ابن ماجه برقم: (1408) عن أنس، وأبو يعلى برقم: (3356).

<sup>3</sup> - أخرجه الطبراني في الكبير برقم (1018) وأخرجه في الأوسط برقم (3450) عن هر بن حكيم عن أبيه عن جده.

<sup>4</sup> - أخرجه مسلم برقم (80) عن ابن مسعود، وابن حبان برقم (5744).

<sup>5</sup> - أخرجه ابن عساکر (148/5) عن ابن عمر، والرافعي (492/2).

<sup>6</sup> - هو عبد العزيز بن عمير أصله من خراسان لكنه سكن دمشق أحمد بن محمد بن أبي موسى الأنطاكي قال سمعت أحمد بن أبي الحواري يقول سمعت عبد العزيز بن عمير يقول ترى نور الجلال عليهم وأثر الخدمة بين أعينهم ثم قال عبد العزيز إن الرجل لينقطع إلى بعض ملوك أهل الدنيا فيرى أثره عليه فكيف بمن ينقطع إلى الله عز وجل كيف لا يرى أثره عليه. انظر صفوة الصفوة: (234/4).

<sup>7</sup> - تقدم تخريجه.

<sup>8</sup> - لم أجده.

وقالت عائشة رضي الله عنها: لا تحقروا من الصدقة شيئا فإن الحبة منها توزن يوم القيامة بجمال الأجر.

وكان الثوري ينشرح إذا رأى سائلا على بابه ويقول: مرحبا بمن جاء يفسل ذنوبي. وكان إبراهيم بن أدهم إذا جاءه سائل يدخل على عياله ويقول: جاءكم رسول المقابر، فهل توجهون إلى موتاكم شيئا من الصدقة. وذلك قبل أن يزهد في الدنيا. وكان الحسن البصري يقول: إذا رأى سائلا: اللهم إن هذا سألنا ونحن سألناك وأنت بالمغفرة أجود منا بالعطية ثم يطعمه.

وقال عيسى <sup>عليه السلام</sup>: من رد سائلا خائبا لم تغش الملائكة بيته سبعة أيام عقوبة له. قال الشعرائي: محل ذلك ما إذا رده مع القدرة بخلا بها لا لحكمة أما العاجز فلا. ومن سأل سائل فخرج له بصدقة فلم يجده؟ فقال سحنون: أحب له أن يتصدق بها على غيره، وإن أعادها في ماله فلا بأس به.

وجاءت امرأة جميلة سائلة إلى حسان بن سنان فأعطاه أربعمئة درهم. فقيل له سائلة تسألك درهما فأعطيتها أربعمئة درهم؟ فقال: إنها جميلة فخشيت أن تفتن فتقع في المعصية فأحببت أن أغنيها، فعسى أن يرغب فيها رجل فيتزوجها.

وجاء سائل يوما إلى مالك بن دينار<sup>2</sup> فأعطاه نصف خلة بتمر فقالت له زوجته: أنت زاهد، هل رأيت أحدا يبعث إلى الملك هدية مكسورة؟ فأعطى مالك السائل البقية، فقال لها قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْحَجِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ أيتها المرأة إنا قد طرحنا من أعناقنا نصفها بالإيمان فينبغي لنا أن نطرح النصف الآخر بالصدقة.

<sup>1</sup> - حاتم الأصم: هو حاتم بن علوان الأصم رضي الله تعالى عنه أبو عبد الرحمن من قدماء المشايخ بخراسان، صاحب شفيقا البلخي. توفي 237هـ. وكان غاية في الزهد وله كلام فيه في غاية البعد. انظر طبقات الشعرائي: (80/1).

<sup>2</sup> - تقدمت ترجمته.

وتصدق أعرابي بسخلة مهزولة من غنمه، وكان قليل الصدقة، فرأى في المنام كأن غنمه كلها أقبلت إليه فجعلت السخلة تحامي عنه، فلما انتبه قال: والله إن استطعت لأجعلن أتباعك كثرة فكان بعد ذلك يجزل الصدقة منها ويقسم للمساكين. ويقال سبع خصال تزين الصدقة وتعظمها: إخراجها من حلال، ومن مال قليل، وتعجيلها، وإعطاؤها من أحسن المال لا من رديه، وإسرارها، ولا يطلها بالمن والأذى<sup>(1)</sup>.

وفي الحديث: «يا عائشة؛ إذا طبختم قدرا فأكثرُوا من مرقها وتعاهدوا الجيران»<sup>2</sup>. وقال مجاهد: لا يتصدق أحدكم إلا بما يشتهي، فإن الله تعالى يقول: «وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ» أي وهم يشتهونه.

وفي الحديث: «إن عابدا عبد الله سبعين سنة ثم أصاب فاحشة فأحبط عمله بها، ثم أنه نزل يغتسل فمر به مسكين فتصدق عليه برغيف فغفر الله له ذنبه ورد عليه عمله سبعين سنة»<sup>(3)</sup>. وفيه: «باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يجاوزها»<sup>(4)</sup>. وورد: «أن المباشرة بالصدقة تنمي الرزق وتدفع العاهات»<sup>5</sup>.

وكانت الصحابة لا يخرجون لصلاة الصبح إلا بشيء يتصدقون به على أول مسكين يلقونه، ولو لقمة أو زبينة أو بصلة، وكره بعضهم أن يقال للسائل - إذا لم يحضره ما يعطى له - يفتح الله عليك لأنه قصد دفعه بذلك لا الدعاء.

ابن عرفة: كرهوا ذلك تريها لاسم الله تعالى أن يذكر لمن يكره سماعه. قيل: هو الدعاء الذي لا يسمع الذي استعاذ منه النبي ﷺ. وقيل لابن عرفة: إن معنى قوله تعالى: «فَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا مِّسْوَرًا»: أن يقال لهم رزقنا الله وإياكم من فضله. قال: الكراهة لا تنافي الإباحة.

(1) انظر تنبيه المفترين: (136).

(2) أخرجه ابن حبان برقم: (513) عن أبي ذر بلفظ: «إذا طبخت قدرا فأكثر من مرقها فإنه أوسع للأهل والجيران».

(3) لم أحد تخريجه.

(4) أخرجه الطبراني في الأوسط (9/6)، رقم (5643).

(5) أخرجه الطبراني في الأوسط برقم (5643). والبيهقي في الشعب برقم (3353) عن أنس.

## فضائل الصوم وقيام الليل والاوراد

(والصَّوْم) ففي حديث مسلم: «والصيام جنة»<sup>1</sup>. أي وقاية من النار. وفي حديث الصحيحين: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»<sup>2</sup>. أي إذا حوسب العبد في الآخرة وأدَّى ما عليه من الظلم من عمله ولم يبق إلا الصوم؛ احتمل الله ما عليه من المظالم وأدخله بالصوم الجنة. أو معنى قوله: فإنه لي: لا يطلع عليه غيري. وقيل: تشبه بوصفي. وفي الحديث: «لكل شيء باب وباب العبادة الصوم، ونوم الناس كلهم عطلة إلا نوم الصائم، فإنه عبادة. وفيه: كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام فإن الله تعالى يقول: هو لي وأنا أجزي به، وأعطى عليه من الأجر ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»<sup>3</sup>.

وقد قيل: الصوم: عموم وخصوص وخصوص الخصوص؛ فالعموم: كف الفم والفرج، وصوم الخصوص: كف سائر الجوارح عن الآثام، وخصوص الخصوص: صون القلب عن الهمم الدنية، وكفه عما سوى الله بالكلية.

وروي: أن تسيحة واحدة في رمضان أفضل من ألف تسيحة في غيره، وأدنى درجات الصوم: الاقتصار على الكف عن المفطرات، وأوسطها: أن يضم إليها كف الجوارح عن الجرائم، وأعلىها: أن يضم إليها كف القلب عن الوسواس.

وسمع الحسن البصري<sup>(4)</sup> يوما رجلا حلف لصاحبه في أمر تنازعا فيه، فقال: وحق الصائمين ما كان كذا، فقال الحسن لنفسه: ويحك؛ إنك حيث يقسم على الله بحقك وأنت تفطرين؟ لا كان ذلك أبدا. (وَلَا سِيَمًا فِي اللَّيْلِ) قوله: "لا سيما في الليل" راجع لقوله: "بالنوافل" على طريق اللَّفِّ والنشر المرتب. فينبغي للعاقل أن لا يجعل ليله كله

<sup>1</sup> - أخرجه مسلم برقم: (1151) عن أبي هريرة والنسائي (2228) عن أبي هريرة.

<sup>2</sup> - أخرجه مسلم برقم: (1151) وأخرجه البخاري برقم: (5927) كلاهما عن أبي هريرة.

<sup>3</sup> - أخرجه في الزهد برقم (1423) والقضاعي برقم (1032) عن ضمرة بن حبيب مرسل.

<sup>(4)</sup> تقدمت ترجمته.



نوما فيكون ضائع العمر؛ جيفة بالليل بطال بالنهار. فإن أردت أيها الأخ أن تكون من الأبرار، فعليك بالقيام في الأسحار. قالت أم سليمان لسليمان عليه السلام: يا بُنَيَّ: لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم بالليل تدع الرجل فقيراً يوم القيامة.

وفي الترمذي عن معاذ بن جبل قال: قلت يا رسول الله: أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار. قال: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه؛ تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان وتحج البيت. ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه: الجهاد. ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت بلي يا رسول الله، فأخذ بلسانه فقال: كف عليك هذا. قلت يا رسول الله: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم<sup>(1)</sup>».

وقال ابن رجب<sup>(2)</sup>: قيام الليل من الأسباب المنجية من عذاب النار. وأنشد ابن الجوزي<sup>(3)</sup>:

تَجَافَى جُنُوبُهُمْ مَنْ لَذِيذِ الْمَضَاجِعِ  
كُلُّهُمْ بَيْنَ خِائِفٍ مُسْتَحِيرٍ وَطَامِعٍ  
تَرَكُوا لَذَّةَ الْكَرَى لِلْعُيُونِ الْهَوَامِيعِ  
رَعَوْا النَّجْمَ فِي الدُّجَى طَالِعًا بَعْدَ طَالِعِ

(1) أخرجه أحمد في مسنده والترمذي والحاكم في المستدرک وابن ماجه برقم (3973) عن معاذ. وزاد بعد «وتحج البيت» ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ النار الماء وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم قرأ ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر... إلخ الحديث» انظر سنن ابن ماجه (ص 571)

(2) هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السلامي البغدادي ثم الدمشقي، أبو الفرج، زين الدين: حافظ للحديث، من العلماء. ولد في بغداد ونشأ وتوفي في دمشق. من كتبه (شرح جامع الترمذي) و (جامع العلوم والحكم - ط) في الحديث، وهو المعروف بشرح الأربعين، و (فضائل الشام - خ) و (الاستعراج لاحكام الخراج - ط) و (القواعد الفقهية - ط) و (لطائف المعارف - ط) و (فتح الباري، شرح صحيح البخاري - خ) لم يتمه، و (كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة - ط) رسالة في شرح حديث (بدأ الإسلام غريباً) و (التوحيد - خ) و (رسالة في معنى العلم - خ). انظر الشذرات: (339/6).

(3) تقدمت ترجمته.

وَأَسْنَتْهُمْ ذُمُّهُمْ ۖ أُنْسِيَ كَابِ الْمَسَامِيعِ  
فَأَجِيبُوا إِجَابَةً لَمْ تَقْعْ فِي الْمَسَامِيعِ  
لَيْسَ مَا تَصْنَعُونَهُ يَأْتِي عِبَادِي بِضَائِعٍ  
فَابْذُلُوا إِلَيَّ نُفُوسَكُمْ إِنَّهَا فِي وَدَائِعِ

وفي الحديث: «ركعتان يركعهما الرجل في جوف الليل الأخير خير من الدنيا وما فيها، ولولا أن أشق على أمتي لفرضتهما عليهم»<sup>1</sup>.

وفيه: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وإن قيام الليل قربة إلى الله تعالى، وتكفير للذنوب، ومطرودة للداء عن الجسد، منة عن الإثم»<sup>2</sup>.

وفيه: «يا أبا هريرة أتريد أن تكون رحمة الله عليك حيا ومقبورا ومبعوثا، قم من الليل فصلًا وأنت تريد رضى ربك، يا أبا هريرة صلّ في زوايا بيتك يكن نور بيتك في السماء كنور الكواكب والنجوم عند أهل الدنيا»<sup>(3)</sup>.

وفيه: «ألا أنبئك بما ينفعك ذلك اليوم؟ قال بلى، بأبي أنت وأمي. قال: صم يوما شديد الحر ليوم النشور، وصل ركعتين في ظلمة الليل لوحشة القبور، وحجّ حجة لعظام الأمور، وتصدق بصدقة على مسكين، أو كلمة حق تقولها، أو كلمة شر تسكت عنها»<sup>(4)</sup>.

وفيه: «رحم الله رجلا قام من الليل فصلى ثم أيقظ امرأته فصلت، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت ثم أيقظت زوجها فصلى، فإن أبى نضحت في وجهه الماء»<sup>5</sup>.

وقال زهير بن مغيث<sup>1</sup>: رأيت ليلة حوراء من أجمل النساء فقلت لها لمن أنت: فقالت: لمن يقوم الليل في ليالي الشتاء.

<sup>1</sup> - أورده في الجامع الصغير وعزاه لابن نصر عن حسان بن عطية مرسلًا ورمز له بالضعف (ض).

<sup>2</sup> - أخرجه الترمذي برقم (3549) والبيهقي برقم (4425) كلاهما عن جابر.

<sup>3</sup> - ذكره في الإحياء واستكره العراقي: (24/1).

<sup>4</sup> - أخرجه الفاكهاني: (رقم 1904) عن أبي ذر.

<sup>5</sup> - أخرجه أبو داود برقم (1308) والنسائي (1610) وابن ماجه (1336) عن ب أبي هريرة.

وروى الجنيد في المنام ف قيل له: كيف تحدثك عند الله؟ قال وجدت بركة ركعتين كنا نقوم بها في الليل، فسئل عن الإشارات والإلهامات التي تُتلقى منه في مقامات التصوف، فقال: هيهات ذهب كل ذلك.

وسئل ابن القاسم أيضا في المنام عن الاجتهادات في المسائل، فقال: لم يبق لنا إلا صلوات الليل.

فإذا كان هؤلاء هكذا مع أن ما هم فيه مطلوب، فأين ما فيه غيرهم من الفضول؟ ويروى: أن إنسانا عامل نبينا ﷺ، فأراد ﷺ مكافأته، فقال له: «ما حاجتك؟ فقال: الجنة يا رسول الله، فقال له: أعني على نفسك بقيام الليل». أو كما قال. وفيه: «من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبنا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات»<sup>2</sup>.

وفيه: «أفضل الصلاة بعد الصلاة المكتوبة قيام الليل»<sup>3</sup>.

وروي أن سفيان الثوري شبع ليلة فقال: إن الحمار إذا زيد في علفه زيد في عمله، فقام في تلك الليلة حتى أصبح.

وكان عبد العزيز بن أبي رواد<sup>4</sup>: إذا جن عليه الليل يأتي فراشه فيمر يده عليه ويقول إنك للين، والله لفي الجنة ألين منك، ولا يزال يصلي كل ليلة.

وقال الحسن: إن الرجل ليزن فيحرم به قيام الليل.

وقال الفضيل: إذا لم تقدر على صيام الليل وقيام النهار، فاعلم أنك محروم، وقد

كثرت خطيئتك.

<sup>1</sup> - لم أجده كذلك.

<sup>2</sup> أخرجه أبو داود برقم: (1451) والحاكم عن أبي هريرة وأبي سعيد.

<sup>3</sup> أورده في الجامع الصغير: (50/1) بزيادة: «وأفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم»، وأخرجه مسلم برقم:

(2756) عن أبي هريرة، وأخرجه الأربعة.

<sup>4</sup> - هو عبد العزيز بن أبي رواد بفتح الراء وتشديد الواو، صدوق عابد ربما وهم، ورمي بالأزجاء. توفي 159 هـ. انظر تقريب

التهذيب: (298).

وكان أبو حنيفة يحبي نصف الليل، فمر بقوم فقالوا: إن هذا يحبي الليل كله.  
فقال: إني أستحي أن أوصفَ بما لا أفعل، فكان بعد ذلك يحبي الليل كله.  
وقيل للحسن: ما بال المجتهدين أحسن الناس وجوها؟ قال: لأنهم خلّوا بالرحمن  
فألبسهم نورا من نوره.

وقال الفضيل: أدركت أقواما يستحيون من الله في سواد الليل من طول الهجعة إنما  
هو على الجنب، فإذا تحرك قال قومي خذي حظك من الآخرة ليس لك أن تنامي.  
وقال ابن عطية<sup>(1)</sup>: من أطال قيام الليل هون عليه طول القيام يوم القيامة.  
وقال مكحول: من أحى ليلة في ذكر الله عز وجل أصبح كيوم ولدته أمه.  
وفي الحديث: «أمّتي حملة القراءان وأصحاب الليل»<sup>2</sup>.

وكان زمعة بن صالح<sup>3</sup> يصلي ليلا طويلا فإذا كان في السحر نادى أهله: يأيتها  
الركب المعرّسون أكل هذا الليل ترقدون؟ فيتواثبون بين باكٍ وداعٍ وقارئٍ ومتوضئٍ فإذا  
أصبح نادى: عند الصباح يحمد القوم السرى.

فائدة: من الأسباب التي تيسر قيام الليل: قلة الأكل؛ لأن من كثره يُكثرُ الشراب  
فيغلبه النوم ويثقل عليه القيام.

كان بعض المشايخ يقف على المائدة كل ليلة ويقول: يا معشر المريدين: لا تأكلوا  
كثيرا فتشربوا كثيرا فترقدوا كثيرا، فتحسروا عند الموت كثيرا.

ومنها قلة التعب بالنهار، فإن التعب مجلبة للنوم. والقيلولة بالنهار فإنها سنة  
للاستعانة على قيام الليل.

---

(1) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي، من محارب قيس، الغرناطي، أبو محمد: مفسر فقيه، أندلسي، من  
أهل غرناطة. عارف بالاحكام والحديث، له شعر. ولي قضاء المرية، وكان يكثر الغزوات في جيوش المثلثين. وتوفي بلورقة. له (الحرر  
الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - خ) في عشر مجلدات، و (برنامج - خ) في خزانة الرباط (المجموع 1301 ك) في ذكر مروياته وأسماء  
شيوخه. وقيل في تاريخ وفاته سنة 541 و 546 هـ. انظر نفح الطيب: (593/1).

<sup>2</sup> أخرجه الطبراني (125/12)، رقم 12662.

<sup>3</sup> هو زمعة بسكون الميم بن صالح الجندي بفتح الجيم والنون اليماني، نزيل مكة أبو وهب، ضعيف وحديثه عند مسلم مقرون،  
توفي بعد المائة. انظر تقريب التهذيب: (156).

ومنها: عدم الذنوب بالنهار، فإنها تقسي القلب وتحول بينه وبين أسباب الرحمة.  
قال رجل للحسن: يا أبا سعيد؛ إني أبيت معافى وأحب قيام الليل وأعدُّ طهوري،  
فما بالي لا أقوم؟ قال: ذنوبك قيدتك.

وقال الثوري: حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته قيل: وما ذلك الذنب؟  
قال: رأيت رجلاً يبكي فقلت في نفسي: هذا مرء.

وبكى كرز بن وبرة<sup>1</sup> فقليل له: ما يبكيك؟ قال: بابي مغلق وستري مسبل ولم أقرأ  
وردي البارحة وما ذاك إلا بذنب أحدثته، هذا لأن الخير يدعوا إلى الخير والشر يدعوا  
إلى الشر والقليل من كل منهما يجر إلى الكثير. ولذلك قال سليمان الداراني<sup>2</sup>: لا تفوت  
أحداً صلاة الجماعة إلا بذنب. وكان يقول: الاحتلام بالليل عقوبة. وقال بعض العلماء:  
إذا صمت يا مسكين فانظر عند من تفطر وعلى أي شيء تفطر؟ فإن العبد ليأكل أكلة  
فينقلب قلبه عما كان عليه ولا يعود على حالته الأولى. فالذنوب كلها تورث قساوة  
القلب وتمنع من قيام الليل وأخصها بالتأثير في القلب: تناول الحرام. وتؤثر اللقمة الحلال  
في تصفية القلب وتحريكه إلى الخير ما لا يؤثر غيرها. ولذا قال بعضهم: كم من لقمة  
منعت قيام ليلة وكم من نظرة منعت قراءة سورة. وإن العبد ليأكل أكلة ويفعل فعلة  
فيحرم بها قيام سنة.

وقال بعض السجانيين بدينور<sup>(3)</sup>: بقيت سجانا نيفا وثلاثين سنة أسأل كل ما خوذ  
بالليل: هل صلى العشاء في جماعة؟ فكانوا يقولون لا .

<sup>1</sup> - هو كرز بن وبرة الحارثي أبو عبد الله، تابعي من أهل الكوفة، يضرب به المثل في التعب، دخل جرجان غازياً مع يزيد بن  
المهلب سنة 98هـ. ثم سكنها وتوفي بها (110هـ) انظر تاريخ جرجان (ص295)  
<sup>2</sup> - تقدمت ترجمته.

<sup>(3)</sup> قيل بكسر الدال المهملة. قال الحافظ أبو سعد السمعاني بفتحها. وقال ابن خلكان: الأصح الكسر: وهي بلدة من بلاد الجبل  
نسب إليها جماعة من العلماء. انظر مرآة الجنان وعمرة اليقظان لليافعي: (85/2).

ولقد تنبيه على أن بركة الجماعة تمنع من تعاطي الفحشاء والمنكر  
وكما أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فكذلك الفحشاء تنهى عن  
الصلاة وسائر الخيرات. هذه هي الأسباب الميسرات للقيام في الليل ظاهرا.

وأما الباطنة: فسلامة القلب من الحقد والبدع، وفضول هموم الدنيا، فهذا الأخير؛  
— وإن قام — فلا يتفكر في صلاته إلا في مهماته. ومنها: خوف غالب. وحكي أن  
غلاما اسمه صهيب كان يقوم الليل كله فقالت له سيده: إن قيامك بالليل يضر بعملك  
بالنهار. فقال: إن صهيبا إذا ذكر النار لا يأتيه النوم. ومنها: أن يعرف فضل قيام الليل  
بسماع الآيات والأخبار حتى يستحكم بها رجاءه. ومنها: — وهو أشرف البواعث: —  
الحب لله وقوة الإيمان فصاحبه في قيامه لا يتكلم بحرف إلا وهو يناجي به ربه، وهو  
مطلع عليه مع مشاهدة ما يخطر بقلبه وأن تلك الخطرات من الله تعالى خطاب معه، فإذا  
أحب الله أحب لا محالة الخلوة به والتلذذ بالمناجاة فتحمله لذة المناجاة بالحبيب على  
طول القيام. قيل لبعضهم: كيف الليل عليك؟ قال ساعة أنا فيها بين حالتين: أفرح  
بظلمته إذا جاء، وأغتم بفجره إذا طلع، ما تم فرحي به قط.

وقال علي بن بكار<sup>1</sup>: بقيت منذ أربعين سنة ما أحزني شيء سوى طلوع الفجر.

وقال الفضيل بن عياض: إذا غربت الشمس؛ فرحت بالظلام بخلوتي بربي، وإذا  
طلعت الشمس حزنت لدخول الناس علي. وقال بعض العلماء: ليس في الدنيا وقت  
يشبه نعيم الجنة إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة.

وقال بعضهم: لذة المناجاة ليست من الدنيا؛ إنما هي من الجنة، أظهرها الله لأولياؤه  
لا يجدها سواهم.

<sup>1</sup> — هو الإمام، الرباني، القابلي، أبو الحسن البصري، الزاهد، نزيل المصيصية، ومريد إبراهيم بن أدهم. حدث عن: ابن عون،  
ومحمد بن عمرو، وحسين المقلم، وهشام بن حسان، والأوزاعي، وطائفة. وليس هو بالكثير. روى عنه: هناد بن السري، وثوبان بن  
سعيد بن مسلم، والفيض بن إسحاق، وسلمة بن شبيب، وبركة بن محمد الحلبي الرازي، وعبد الله بن حبيب الأنطاكي، وآخرون.  
انظر سير أعلام النبلاء.

وقال خالد بن معدان: بلغني أن الله تعالى يباهي الملائكة بثلاثة نفر:

- رجل كان بأرض فلاة؛ فيؤذن ويقيم الصلاة ثم يصلي وحده فيقول الله عز وجل: «انظروا عبدي يصلي ولا يراه أحد غيري» فيترل سبعون ألف ملك يصلون وراءه.

- ورجل قام من الليل فيصلي وحده، فيسجد وينام وهو ساجد فيقول: «انظروا روحه عندي وجسده ساجد».

- ورجل زحف وثبت حتى قتل.

وقالوا: ما من عبد يقع جنبه على فراش فيذكر الله تعالى فيدركه النوم وهو مضطجع ساجد إلا كتب ذاكرا إلى أن يستيقظ.

وكان ممن يقوم الليل كله وواظب عليه: سعيد بن المسيب<sup>(1)</sup> وصفوان بن سليم<sup>(2)</sup> المدنيان، والفضيل بن عياض<sup>(3)</sup> ووهب بن الورد المكيان، وطاووس<sup>(4)</sup> ووهب بن منبه<sup>(5)</sup> اليمانيان، والربيع بن خثيم<sup>(6)</sup> والحكم الكوفيان، وأبو سليمان الداراني<sup>(7)</sup> وعلي بن بكار<sup>(8)</sup> الشاميان، وأبو عبد الله الخواص<sup>(9)</sup> وأبو عاصم<sup>(10)</sup> العباديان، وحبیب

(1) تقدمت ترجمته.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) تقدمت ترجمته.

(4) تقدمت ترجمته.

(5) تقدمت ترجمته.

(6) تقدمت ترجمته.

(7) تقدمت ترجمته.

(8) هو علي بن بكار، أبو الحسن البصري؛ كان إماماً عالماً زاهداً؛ انتقل من البصرة فترل المصيصة فأقام مرابطاً، وكان صاحب كرامات واجتهاد. انظر النجوم الزاهرة: (1/198).

(9) تقدمت ترجمته.

(10) هو أبو عاصم الضحاك بن مخلد بن الضحاك بن مسلم الشيباني، أبو عاصم النبيل النبيل البصري، ثقة ثبت. (ت212هـ)

ولم أره في غوره من المراجع.

بن محمد<sup>(1)</sup> وأبو جابر السلماني الفارسيان، ومالك بن دينار<sup>(2)</sup> وسليمان التيمي<sup>(3)</sup>،  
وزيد الرقاشي<sup>(4)</sup> وحبيب بن أبي ثابت<sup>(5)</sup> ويحيى البصريون، وكهمس بن المنهال<sup>(6)</sup>  
وكان يختم في الشهر تسعين ختمة وما لم يفهم رجع وقرأه مرة أخرى. وأيضاً من أهل  
المدينة: أبي حازم<sup>(7)</sup> ومحمد بن المنكدر<sup>(8)</sup> وجماعة يكثر عددهم.

وأما من يقوم نصف الليل فلا ينحصر عدد المواظبين عليه من السلف، وأحسن  
طريق فيه: أن ينام الثلث الأول من الليل والسدس الأخير منه، وهو قيام داوود عليه  
السلام؛ لأن نوم آخر الليل يذهب النعاس بالغداة ويقلل صفرة الوجه والشهرة. وكان  
ﷺ ينام آخره حتى قال بعض السلف: هذه الضجعة قبيل الصبح سنة منهم أبو هريرة.  
وكان نوم هذا الوقت سبب المكاشفة والمشاهدة من وراء حجاب العين، وذلك لأرباب  
القلوب، وفيه استراحة تعين على الورد الأول من أوراد النهار.

---

(1) هو حبيب بن محمد العمري، ويعرف بالفارسي، البصري، من الطبقة الرابعة من تابعي أهل البصرة. وهو أحد الزهاد الذي  
يضرب بزهده المثل. انظر النجوم الزاهرة: (111/1).

(2) تقدمت ترجمته.

(3) تقدمت ترجمته.

(4) هو يزيد الرقاشي زاهد من العباد من كلامه: إلى متى تقول : غدا أفعل كذا وبعد غد أفعل كذا وإذا أفطرت فعلت كذا وإذا  
قدمت من سفري فعلت كذا ؟ أغفلت سفرك البعيد ونسيت ملك الموت أما علمت أن دون غد ليلة تحترم فيها أنفس كثيرة أما علمت  
أن ملك الموت غير منتظر بك أملك الطويل أما علمت أن الموت غاية كل حي ؟ ثم يكي حتى ييل عمامته. مختصر تاريخ دمشق:  
(373/1).

(5) لهله حبيب بن أبي ثابت قيس بن دينار، وقيل قيس بن هند، مولى بني أسد بن خزيمه كان أعور. روى عن ابن عباس وابن  
عمر وأبي عبد الرحمن السلمي وأبي وائل وسعيد بن جبور وخلقا. انظر الوافي بالوفيات: (83/4).

(6) تقدمت ترجمته.

(7) لهله عبد العزيز بن أبي حازم سلمة بن دينار المدني، أبو تمام: فقيه محدث. قال ابن حنبل: لم يكن بالمدينة بعد مالك أفقه من  
ابن أبي حازم. توفي 184هـ. انظر تذكرة الحفاظ: (274/1).

(8) هو محمد بن المنكدر بن عبد الله بن المهدير (بالتصغير) بن عبد العزيز القرشي التيمي (من بني تميم بن مرة) المدني: زاهد، من  
رجال الحديث. من أهل المدينة. أدرك بعض الصحابة وروى عنهم. له نحو مئتي حديث. قال ابن عينة: ابن المنكدر من معادن الصدق.  
توفي 130هـ. انظر الاعلام: (112/7).



ثم إن تعذر عليه قيام الليل: تطهر وقام مقدار أربع ركعات أو ركعتين، وإن تعذرت عليه الطهارة فيسن أن يمس أعضائه بالتراب، فإن لم يتيسر فإنه يجلس مستقبل القبلة ساعة مشغلاً بالذكر والدعاء فيكتب في جملة قوام الليل برحمة الله وفضله.

وقد جاء في الأثر: «صَلِّ مِنَ اللَّيْلِ وَلَوْ قَدَرُ حَلَبِ شَاةٍ»<sup>1</sup>. وفي رواية: «لا بد من قيام الليل ولو حلب ناقة». وإن تعذر عليه أيضاً القيام وسط الليل فلا ينبغي أن يهمل إحياء ما بين العشاءين والورد الذي بعد العشاء ثم يقوم قبل الصبح وقت السحر. فلا يدركه الصبح نائماً ويقوم بطرفي النهار.

وقال ابن الحاج: قالوا فيمن كان ينفلت منه القرآن لقلة حفظه فليقيم به في الليل في الصلاة فإن ذلك يثبت له وما ذاك إلا لبركة امتثال السنة في قيام الليل، سيما إن كان في الثلث الآخر منه لما ورد في ذلك من البركات والخيرات<sup>2</sup>.

وفي قيام الليل من الفوائد جملة: فلا ينبغي لطالب العلم أن يفوته منها شيء، فمنها: أنه يحط الذنوب كما يحط الريح العاصف الورق اليابس. الثاني: أنه ينور القلب. الثالث: أنه يحسن الوجه. الرابع: أنه يذهب الكسل وينشط البدن. الخامس: أن موضعه تراه الملائكة من السماء كما يترأى الكوكب الدري لنا في السماء.

وفي الحديث: «من قام بعشر آيات: لم يكتب من الغافلين. ومن قام بمائة آية كتب من القانتين. ومن قام بألف كتب من المقنطرين»<sup>3</sup>. وقوله (و) لاسيما الصدقة (على الأقارب) راجع لقوله: "الصدقة" وإنما كانت الصدقة على الأقارب وذوي الأرحام أفضل لأنها صدقة وصلة قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ لَأَنَّ أَصْلَ أَخاً من إخواني بدرهم أحب إلي من أن أتصدق بعشرين درهماً، وَلَأَنَّ أَصْلَهُ بعشرين درهماً أحب إلي من أن أتصدق بمائة درهم، وَلَأَنَّ أَصْلَهُ بمائة درهم أحب إلي من أن أعتق

<sup>1</sup> - أخرجه الطبراني في الأوسط (251/4)، رقم (4114)

<sup>2</sup> - انظر المدخل لابن الحاج: (2/136).

<sup>3</sup> - أخرجه أبو داود برقم (1398) وابن حبان عن ابن عمر.

رقبة. ولأنَّ حقَّهم أيضا أكد وصلتهم أوجبُ لتأكيد حق الرِّجَمِ التي اشتق اسمها من اسمه تعالى، وجعل صلتها من صِلته.

وفي البخاري: أن زينب امرأة ابن مسعود رضي الله عنه قالت: يا نبي الله، أردت أن أتصدق فزعم ابن مسعود أنه هو وولده أحق من تصدقت عليهم فقال ﷺ: «صدق ابن مسعود، زوجك وولدك أحق من تصدقت عليهم»<sup>1</sup>.

وفي الحديث: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة»<sup>2</sup>. وقال الشعبي: "ما من مال أعظم أجرا من مال يتركه الرجل لوُلِّدِه يغنيهم به عن الناس".

وفي مسلم: قال رسول الله ﷺ لامرأة عتقت رقبة: «لو كنت أخذمتيها بعض أقاربك لكان أعظم لأجرك». وفي الحديث: «أفضل الصدقة: الصدقة على ذي الرحم الكاشح»<sup>3</sup>. وفيه: «إن من الجفاء الصدقة على الأبعدين وترك الأقربين».

وقال مجاهد: لا يقبل الله صدقة من تعدى بصدقته رحمه المحتاج.

وفي البخاري أيضا: أن أبا طلحة لما قال: إن أحب أموالي إلي "بئر حاء" وإنه لصدقة قال رسول الله ﷺ: «اجعلها لفقراء أقاربك» فجعلها لحسان بن ثابت وأبي، قال أنس: وكانا أقرب إليه مني. وأبو طلحة: اسمه: زيد بن سهل بن الأسود بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار. وحسان بن ثابت بن المنذر بن حرام، فيجتمعان إلى حرام وهو الأب الثالث. وأبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك. فيجتمعان في عمرو بن مالك وهو الأب السادس. انتهى بخ<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - أخرجه البخاري، كتاب الزكاة برقم (1466) عن أبي سعيد.

<sup>2</sup> - أخرجه في الجامع الصغير وعزاه للطبراني في الأوسط (178/2) عن أبي أيوب وحكيم بن حزام.

<sup>3</sup> - أورده في الجامع الصغير (198/1) وعزاه لأحمد في مسنده والطبراني في الكبير.

<sup>4</sup> - أخرجه البخاري برقم (4554) عن أنس بن مالك.

وقوله: (وَ) لاسيما (في الأيام الفاضلة) راجع لقوله: "في الصوم" كالיום الخامس والعشرين من ذي القعدة، ويوم عرفة والتروية، وثالث المحرم، وعاشوراء وتاسوعاء، والسابع والعشرين من رجب، ويوم النصف من شعبان، ويوم الجمعة، ويومي العيدين، وعشر ذي الحجة وأيام التشريق، (وَ) ضيق على نفسك أيضا بعمارة الأوقات. (بكثرة الأوزاد) جمع ورد؛ بكسر الواو.

وقال في القاموس: الورد: جزء من القرآن<sup>1</sup>. وهو ما يجعله الإنسان على نفسه من صلاة وقراءة وذكر ونحوه.

قال سيدي زروق: الورد ما يترتب من العبادات في الأوقات، وهو عظيم الموقع شرعا، لأنه بساط العبودية التي يترتب عليها الثواب في الدار الآخرة بقدره. ولأنه مفتاح الفتح على حسب حال المتوجه. وقال أيضا: الأورد ترتيب الأعمال بحسب الأوقات والأحوال.

وفي كلام ابن عطاء الله في لطائف المنن تنبيه على تأكيد أمر الأورد، وعظم موقعها من الدين. وأن مراعاتها من أحسن سيما العارفين.

وقال أبو طالب المكي<sup>(2)</sup>: مداومة الأورد من أخلاق المومنين، وطريق العابدين. وهي: مزيد الإيمان، وعلامة الإيقان. وقال: من لم يهذب نفسه ولم يلتزم وردا فهو مغرور.

وقال الشافعي: من أحب أن يفتح الله قلبه وينوره: فعليه بترك كثرة الكلام فيما لا يعني، وتجنب المعاصي، ويكون له ورد في الأعمال فيما بينه وبين الله تعالى. وفي رواية: فعليه بالخلوة، وقلة الأكل، وترك مخالطة السفهاء وبعض أهل العلم الذين لا يريدون بعلمهم إلا الدنيا، وليس معهم إنصاف ولا أدب.

<sup>1</sup> - ترتيب القاموس (596/4).

<sup>(2)</sup> هو محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب: واعظ زاهد، فقيه. من أهل الجبل (بين بغداد وواسط) نشأ واشتهر بمكة. ورحل إلى البصرة فاقم بالاعتزال. وسكن بغداد فوعظ فيها، فحفظ عنه الناس أقوالا مجرّوه من أجلها. وتوفي ببغداد. له (قوت القلوب - ط) في التصوف، مجلدان، قال الخطيب البغدادي: ذكر فيه أشياء منكّرة مستثناة في الصفات، و (علم القلوب - خ) و (أربعون حديثا) أخرجه لنفسه. توفي 386هـ. انظر الوفيات: (493/1).

وفي الحكم العطائية: لا يستحق الررد إلا جهول<sup>1</sup>. وفيها أيضا: وأولى ما يعتني به: ما لا يخلف وجوده. زروق: ما لا يُخلف وجوده هو وجود الررد لتوقفه على هذه الدار إذ كل أسباب السعادة إنما توجد فيها غير الشفاعة.

وقال في الأجوبة الناصرية: اعلم أن طريق أشياخي هي: جعل الأوراد كلها وردا واحدا. وهي الهيلة التي هي الذكر الأعظم بعد التوطئة له بتقديم الاستغفار والصلاة على النبي المختار. ويتركون ما سواه من الأحزاب والوظائف والدعوات إلا الصلاة على النبي المختار ﷺ، وتلاوة القرآن، والإتيان بذلك على الكيفية المذكورة للسنوسي هو الكمال. وأما الصلاة على النبي ﷺ فيأتون منها دبر كل صلاة بمائة بعد الاستغفار، ويأتون منها بين المغرب والعشاء بألف، ويحتمون دلائل الخيرات في كل جمعة ثلاث مرات، يحتمونه في كل يوم جمعة. ويقرءون في كل يوم غيره ثلثة. وأما المريدون: فكل على حسب طاقته. وتوفيق ربه، فليس الرجل كالمرأة، فهي حسبها من الهيلة مائة، وليس من يعالج القرآن كغيره، فالمعالج يذكر الهيلة ألفا وغيره سبعة آلاف، ويزاد عند تمام كل مائة: محمد رسول الله ﷺ. هذا كله بعد قول: استغفر الله مائة، اللهم صلى على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما. مائة أيضا. ولا يتخذ وردا إلا بإذن الشيخ، وكذلك أحزاب السادات. ومن اتخذ وردا بغير شيخ فهو غار مغرور، إلا الصلاة على النبي ﷺ، والمسبوعات العشر، وهي تكفي عن جميع الأوراد، والدعاء بالأسماء الحسنى فإن هذا لا يحتاج إلى إذن.

وإن فاته ورده في الوقت المعتاد له: فليقضه. ومن كثر عدد الأذكار والعبادات غير ما صح من السنة بعد عليه الفتح؛ لأنه كمن يريد حفر بئر يريد ماءها، ويحفر في كل موضع شبرا فشبرا، فمن لازم أوقائه ورتب أوراده قرب الفتح منه وانتهى الخير إليه.

قال المناوي: طلب الشيء بوجه واحد مع الإلحاح أقرب لحصوله، وأدعى لدوام المطلوب، فلذلك لزم السالك التزام ورد واحد لا ينتقل عنه حتى يحصل نتائج، وإلا

<sup>1</sup> - انظر شرح الحكم لزروق (ص 122).

فالمنتقل قبل الفتح كحافر بئر لا يدوم على محل واحد، وكالمقطر قطرة على كل محل يريد تأثير المحل بالقطرة أتراه يظهر لعمله أثر. انتهى.

ثم إن الذي لا بد فيه من الأخذ من الشيخ؛ إنما هو الورد: وهو الذكر بأذكار معلومة على هيئة مخصوصة لتطهير القلب، وإيراد المعارف عليه. وأما الذكر بمجرد قصد الثواب والأجر، فلا يحتاج إلى الأخذ.

قال الشيخ أبو عبد الله الأنصاري<sup>(1)</sup>: الذكر على قسمين: ذكر العامة: وهو أن يذكر العبد مولاه بما شاء من الأذكار، ولا يقصد غير الأجور والثواب. وذكر الخاصة: وهو أن يذكر بأذكار معلومة على صفة مخصوصة لينال بذلك المعرفة بالله سبحانه بطهارة نفسه من كل خلقٍ ذميم. انتهى.

ومن فضل الورد على مجرد الذكر ما قاله سيدي محمد بن ناصر<sup>(2)</sup>: المتغمش تغمّش ما في دينه، متعلق بحزبنا وكان من جملة فقرائنا؛ خير من الحازم المتعلق بغيرنا. وقال شيخه: سيدي عبد الله بن حسين: من وقع عليه طابعنا؛ أي أخذ منا الأوراد تهنتا منه، ونشفع في غيره من المحبين.

وقال أيضا سيدي محمد بن ناصر: من كان عليه الطابع فلا كلام فيه، ومن أحب فهو لاحق، وغيرهما ينتفع بدعائنا في الدنيا. ومن قال بعد ورده: سبحان الله وبحمده، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، عملت سوءا وظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، يا رب العالمين. فكأنما عمل عليه الطابع. ومما يقال بعد الورد: الجبار إحدى وعشرين مرة.

(1) لعله محمد بن عبد الله بن محمد بن خلف، أبو عبد الله، الأنصاري: مرقئ واعظ أندلسي. من أهل بلنسية. من كتبه: (نسيم الصبا) في الوعظ، على طريقة ابن الجوزي، و (بغية النفوس الزكية في الخطب الوعظية). توفي 640هـ. انظر غاية النهاية: (2/178).

(2) هو محمد بن محمد بن أحمد، ابن ناصر، أبو عبد الله الدرعي: من صلحاء المالكية وعلماهم في المغرب. كانت له زاوية وأتباع كثيرون. وهو الممدوح بالقصيدة (الدالية - ط) لليوسي. كان من أهل درعة (قرب سحلماسة) وهو أستاذ العياشي صاحب الرحلة. عني في أول أمره بجمع الكتب، نسخا بخطه وشراء، وتصحيحا ومقابلة، مع كتابة الفوائد على حواشيها وطررها، على ضيق معيشته. وكان ينال مع أهله على التراب لضعف ماله عن شراء حصير أو فراش. توفي 1085هـ. انظر شجرة النور: (313).

قال الهيثمي: ومن يريد التبرك يجوز له الأخذ من مشايخ متعددين، ومن يريد السلوك والتربية؛ يحرم عليه الخروج عن شيخه، بل ولا رخصة عندهم للشيخ الثاني، إذا علم أن المريد الآخذ عنه أستاذا كاملا، بل يأمره بالرجوع لأستاذه<sup>(1)</sup>.

وقال سيدي علي بن وفا: مادام المريد تحت حكم أستاذه فترقيته دائمة، فإن خرج عن حكمه اتكالا على ما حصل منه فهو كالحجر المرفوع إلى السماء، مادامت تلك القوة الرافعة مصاحبة له فهو متعال، ومتى فتر انحط إلى الأرض. فكن تحت حكم أستاذك تغنم<sup>(2)</sup>.

وقيل: من دخل الدنيا ولم يصادف رجلا كاملا يربيه؛ يخرج منها وهو متلوف، ولو كان على عبادة الثقيلين. وقيل: والله ما عرف الجيلاني والرفاعي<sup>3</sup> وغيرهما الطريق إلى الله إلا على يد شيخ.

وقال سيدي الحسن اليوسي: فكما أنه لا يشتعل المصباح من ذات نفسه إلا من مصباح آخر، إلا أن يخرق الله عاداته أحيانا؛ فكذلك لا ينتفع الإنسان بلا قدوة. ولهذا قال أئمة الطريق: من لم يأخذ أدبه عن المتأدين أفسد نفسه ومن تبعه. انتهى.

فائدة: قال سيدي زروق: أساس الأوراد كلها أن يكون عملك كله لله، سواء كان عادات أو عبادات، فإن النية إكسير العمل، ومن لم ينقل قدميه إلا حيث يرجو ثواب الله قل أن يقع في محذور.

وأعدل أوراد الضحى ست ركعات، كما في حديث أنس وعلي، وهما في الترمذي، وأشارت إليه عائشة رضي الله عنها في مسلم. وقبل الظهر أربع، وبعدها

(1) انظر الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيثمي: (170/1).

(2) انظر طبقات الشمراني: (271/1).

3- الرفاعي: هو أحمد بن علي بن يحيى الرفاعي الحسني. أبو العباس، الإمام الزاهد، مؤسس الطريقة الرفاعية، تفقه وتأدب في واسط وتصوف فانضم إليه خلق كثير من الفقراء كان لهم به اعتقاد كبير، صنف كثيرون كتباً في سيرته وجمع بعض كلامه في رسالة سميت "رحيق الكوثر" ومن كلامه: التوحيد: وجدان تعظيم في القلب يمنع من التعليل والتشبيه. ومنه: ما أقبح الجهل بالألباء والعلّة بالأطباء والجفاء بالأحباء. (ت 578) انظر طبقات الشمراني (140/1) وابن خلكان (55/1).

ركعتين كما صح من فعله عليه الصلاة والسلام، وكره ابن المبارك أن تتبع الصلاة بمثلها. وقبل العصر أربع، وبعد المغرب ركعتان كما صح من فعله عليه الصلاة والسلام، ومن الليل ثلاث عشرة ركعة؛ أولها ركعتان خفيفتان وآخرها الوتر بواحدة. (و) ضيق على نفسك بعمارة الأوقات (بأنواع الذكر) قال الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا» «وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ» «الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ». وفي الحديث: «ذاكر الله في الغافلين: مثل الذي يقاتل بين الفارين، وذاكر الله في الغافلين مثل الشجرة الخضراء في وسط الشجر الذي قد تحات من الصر أي البرد الشديد، وذاكر الله في الغافلين يغفر الله له بعدد كل فصيح وأعجم، أي الآدميين والبهائم، وذاكر الله في الغافلين يعرفه الله مقعده من الجنة»<sup>1</sup>.

وفيه: «كل نفس تخرج من الدنيا عطشانة إلا نفس ذاكر الله تعالى»<sup>(2)</sup>. وقد جعل الله التقليل من الذكر علامة المنافقين. فقال ذاما لهم: «وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا». وفيه: «سبق المفردون. قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيرا والذاكرات». وفي رواية: «المستهترون بذكر الله يضع الذكر عنهم أوزارهم، فيأتون يوم القيامة خفافا»<sup>3</sup>. وروي: "المفرد" بتخفيف الراء وتشديدها (المفردون) والتشديد أكثر. قال ابن عباس: الذاكرون الله كثيرا: الذين يذكرون الله أدبار الصلوات وغدوا وعشيا، وفي المضاجع. وكلما استيقظ من نومه. وكلما غدا أو راح من مثله ذكر الله تعالى. وقال مجاهد: لا يكون منهم حتى يذكر الله تعالى قائما وقاعدا ومضجعا. وقال عطاء: من صلى الخمس بحقوقها فهو داخل في قوله تعالى: «وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ».

<sup>1</sup> - أخرجه في الجامع الصغير (113/2) وعزاه لابن نعيم في الحلية عن ابن عمر.

<sup>(2)</sup> لم أجد تخريجه.

<sup>3</sup> - أورده في الجامع الصغير (الفتح الكبير) (147/2) وأسنده إلى الترمذي والحاكم عن أبي هريرة والطبراني في الكبير عن أبي

الدرداء.

وفي حديث أبي سعيد: قال قال رسول الله ﷺ: «إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصلى أو صليا ركعتين جميعا؛ كتبنا من الذكرين الله كثيرا والذاكرات»<sup>1</sup>.  
 قال ابن الصلاح: إذا واطب على الأذكار الماثورة صباحا ومساء وفي الأوقات والأحوال المختلفة ليلا ونهارا كان من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات.  
 وفي حديث ابن أبي أوفى<sup>2</sup>: «إن خيار عباد الله الذين يراعون الشمس والقمر والنجوم والأظلة لذكر الله»<sup>3</sup>. وقال رجل: يا رسول الله: إن شرائع الإسلام كثرت علي فأخبرني بشيء أتشبث به، وفي رواية: «فدلني على عمل أدرك به ما فاتني». قال: لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله»<sup>(4)</sup>.

وفي الحديث «سئل رسول الله ﷺ وسلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى؟ قال: أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله»<sup>(5)</sup>. وفيه: «أكثرُوا من ذكر الله حتى يقولوا مجنون»<sup>6</sup>. وفيه: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا: بلى قال ذكر الله تعالى»<sup>7</sup>. وفيه: «ذكر الله بالغداة والعشي خير من حطم السيوف في سبيل الله»<sup>8</sup>. وفيه: «لا يأتي على العبد ساعة لا يذكر الله فيها إلا كانت عليه حسرة يوم القيامة». وفيه: «الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت»<sup>(9)</sup>. وفيه: «إن لله ملائكة يطوفون بالطرق يلتمسون أهل

<sup>1</sup> - أورده في الجامع الصغير وعزاه للطبراني في الكبير (90/1).

<sup>2</sup> - ابن أبي أوفى: هو زيد بن أبي أوفى بن خالد بن الحارث بن أبي أسيد الأسلمي أبو عبد الله، روى حديثه ابن أبي حاتم والبخاري في التاريخ الصغير. انظر الإصابة (560/1).

<sup>3</sup> - أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (327/1).

<sup>4</sup> - أخرجه أحمد (188/4 رقم 17716) والترمذي (458/5 رقم 3375) وقال: حسن غريب

<sup>5</sup> - أخرجه الحاكم (672/1 ، رقم 1822) وقال: صحيح الإسناد . والبيهقي (371/3 ، رقم 6318) .

<sup>6</sup> - أخرجه الطبراني

<sup>7</sup> - أخرجه الترمذي برقم (3377) عن أبي الدرداء. وابن ماجه برقم (3790).

<sup>8</sup> - أخرجه ابن أبي شيبة برقم (29456).

<sup>9</sup> - أخرجه البخاري في باب فضل ذكر الله عز وجل: (6044) عن أبي موسى.



الذكر فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم منهم»<sup>1</sup>. ويروى: ما من مصيد يصاد ولا شجرة تقطع، إلا لغفلتها عن ذكر الله تعالى؛ لأن السارق لا يسرق بيتا وأهله أيقاظ بل على نوم وغفلة. وقال أبو جعفر الباقر<sup>(2)</sup>: الصاعقة تصيب المسلم وغير المسلم، ولا تصيب ذاكرا. وحكى النووي عن ابن جبير وغيره: أن الذكر غير منحصر في التسبيح والتهليل والتكبير بل كل عامل لله تعالى بطاعته فهو ذاكر.

وقال عبد الله بن زكريا<sup>3</sup>: من قال سبحان الله وبحمده عند البرق؛ لم تصبه صاعقة. قال الشعرائي: ومن أخلاق السلف كثرة الغيرة على ذكر الله تعالى. أن يذكره أحد وهو غافل. وذلك كقصد الوالدة بالذكر تنويم ولدها إذا سهرت به في الليل، فإن ذكر الله يُجَلِّ عن مثل ذلك.

وقد قال بعض الصالحين يوما لمريض: قل: يا لطيف، وهو غافل عن كونه بين يدي الله فعاتبه ربه على ذلك في المنام، وقال له قد جعلت ذكر اسمي لعبا ولهوا. وقال الفضيل: إذا ذكرت الخلق في مجالسكم فاذكروا الله فإنه دواء لذكر الخلق. وقال داوود الطائي: كل نفس تخرج من الدنيا عطشانة إلا نفس الذاكرين. وقال وهيب بن الورد: أولى الناس بالله من افتتح المجلس بذكر الله قبل الناس. وقال عطاء السلمي: لا ينبغي لمن ظلم نفسه أن يذكر الله تعالى، إلا بعد التوبة والاستغفار، فإن الله تعالى يلعن الظالم إذا ذكره ما دام مصرا على الظلم.

<sup>1</sup> - أخرجه البخاري (6408) برواية تختلف لفظا والمعنى متحد، ومسلم، كتاب الدعوات برقم (3600) عن أبي سعيد الخدري.

<sup>2</sup> هو محمد بن علي زين العابدين بن الحسين الطائي الهاشمي القرشي، أبو جعفر الباقر: خامس الائمة الاثني عشر عند الامامية. كان ناسكا عابدا، له في العلم وتفسير القرآن آراء وأقوال. ولد بالمدينة، وتوفي بالحميمة 114هـ - ودفن بالمدينة. انظر الوفيات: (450/1).

<sup>3</sup> - له عبد الله بن أبي زكرياء الخزاعي أبو يحيى الشامي واسم أبيه إياس، ثقة فقيه عابد (ت 119هـ) انظر تقريب التهذيب (ص 246).

قال الشعرائي: وهذا يؤيد ما ذهب إليه القوم من التوبة كلما أرادوا أن يذكرها  
رهم احتياطا لنفوسهم لاحتمال ظلمهم لها ولو بارتكاب المكروه أو غفلة عن رهم، أو  
خاطر مذموم (1).

وقال القشيري: قال الحريري: كان بين أصحابنا رجل يكثر أن يقول الله الله؛  
فشج رأسه يوما فطار دمه في الأرض فكتب على الأرض الله الله (2).

وقال زروق: الذكر مدار العبادات عليه، وهو لا حد له وهو منشور الولاية أي  
ظهيرها.

قال ابن عباد: الذكر أقرب الطرق إلى الله تعالى، وهو علم على وجود ولايته،  
كما قال علي الدقاق: الذكر منشور الولاية: أي مرسوم من الله للعبد كمراسيم ملوك  
الدنيا بالولاية والوظائف، والله المثل الأعلى، فمن وفق للذكر فقد أعطي مرسومها، ومن  
سلب الذكر فقد عزل.

وقال أبو القاسم القشيري: الذكر عنوان الولاية ومنار الوصلة وتحقيق الإرادة  
وعلامة صحة الولاية، فليس وراء الذكر شيء، وجميع الخصال المحمودة راجعة إلى  
الذكر، ومنشأها عنه.

وروى الطبراني: «من لم يذكر الله فقد برئ من الإيمان» (3). وفي رواية له: «من  
لم يكثر ذكر الله فقد برئ من الإيمان».

وروي أيضا أن رجلا قال: «يا رسول الله؛ أي المجاهدين أعظم أجرا؟ قال: أكثرهم  
لله ذكرا. قال: فأبي الصالحين أعظم أجرا؟ قال: «أكثرهم لله ذكرا، ثم ذكر الصلاة  
والزكاة والحج والصوم والصدقة، كل ذلك ورسول الله ﷺ يقول: أكثرهم لله ذكرا.

(1) انظر تنبيه المغترين: (93).

(2) انظر الرسالة القشيرية: (226).

(3) أخرجه في المعجم الكبير: (18206).

فقال أبو بكر لعمر: يا أبا حفص؛ ذهب الذاكرون بكل خير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أجل»<sup>1</sup>.

وقال ابن أبي الدنيا وغيره: إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله خنس، وإن نسي التقم قلبه. والأخبار في فضل الذكر والحث عليه أكثر من أن تحصى. وكذا الآثار.

قال أبو علي الدقاق: الذكر ركن قوي في طريق الله بل هو العمدة في هذه الطريق ولا يوصل إلى الله إلا بالذكر.

وقال أهل الطريقة: لا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر، ولا يدوم الذكر إلا بالقلب. ولا يصل الذكر بالقلب إلا بشرط الدوام والإكثار منه باللسان، فإذا استولى الذكر باللسان على القلب رسخ فيه ولازمه ملازمة لا انفكاك له عنه، حتى لو سكت اللسان لأحس صاحبه بباطنه يلهج به.

وقال ذو النون<sup>(2)</sup>: من ذكر الله حفظه من كل شيء. وقال: ذكر الله بالقلب سيف المريرين به يقاتلون أعداءهم، وبه يدفعون الآفات التي تطرقهم.

وقال سهل: لا أعرف معصية أقبح من نسيان هذا الرب. وإذا تمكن الذكر من القلب ثم دنا منه الشيطان صرع، فتجتمع عليه إخوانه فيقولون ما هذا؟ فيقال: قد مسه الإنس. وقال: لكل شيء عقوبة وعقوبة العارف انقطاعه عن الذكر.

وقال أبو سليمان الداراني: إن في الجنة قيعانا، فإذا أخذ الذاكرون في الذكر أخذت الملائكة في غرس الأشجار، فرما يقف بعض الملائكة فيقال له: لم وقفت فيقول: فتر

<sup>1</sup> - أخرجه أحمد رقم (15652). والطبراني (186/20) عن معاذ بن أنس.

<sup>(2)</sup> هو نوبان بن إبراهيم الأحميمي المصري، أبو الفياض، أو أبو الفيض: أحد الزهاد العباد المشهورين. من أهل مصر. نوبى الأصل من الموالي. كانت له فصاحة وحكمة وشعر. وهو أول من تكلم بمصر في (ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية) فانكر عليه عبد الله بن عبد الحكم. واتهمه المتوكل العباسي بالزندقة، فاستحضره إليه وسمع كلامه. ثم أطلقه، فعاد إلى مصر. وتوفي بجزها 245هـ. انظر الوفيات: (101/1).

صاحبي. وقال الحكميم الترمذي<sup>1</sup>: ذكر الله يربط القلب ويلبسه، فإذا خلا عن الذكر أصابته حرارة النفس ونار الشهوات، فقسى ويس، وامتنعت الأعضاء عن الطاعة. وقال أبو مدين التلمساني: أقرب رحلة تكون للمريد الذكر. وقال أيضا: من دامت أذكاره صفت أسرارها، ومن صفت أسرارها كان في حضرة الله قراره. وقال عون بن عبد الله بن عتبة<sup>2</sup>: مجالس الذكر شفاء القلوب، وذكر الله صفاؤها. ولولا من يذكر الله تعالى في غفلة الناس هلك الناس. وقال: لو بآني على الناس ساعة لا يذكر الله تعالى فيها: منك من في الأرض جميعا. وقال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود<sup>3</sup>: لو أن رجلا جلس في الطريق ومعه دنائير لا يمر عليه أحد إلا أعطاه ديناراً، وآخر إلى جنبه يكبر الله تعالى، كان صاحب التكبير أعظم أجراً. وقال ثابت البناني: لو أن أهل الذكر يجلسون إلى ذكر الله وعليهم من الآثام أمثال الجبال فإذا ذكروا الله تعالى يقومون من مجلسهم بعد الذكر عطلاء من الذنوب ما عليهم منها شيء. وقال الشبلي<sup>4</sup>: كل من تساهل بالعقبة ولم تكن أشد عليه من ضرب السيوف، فهو كاذب لا يجيء منه شيء في الطريق. وقال الشاذلي: إذا ترك العارف الذكر نفسا أو نفسين فيض الله له شيطاناً فهو له قريب، وأما غير العارف فيسامح بمثل ذلك. ولا يؤخذ إلا في مثل درجة أو درجتين، أو زمن أو زمنين، أو ساعة أو ساعتين، على حسب المراتب. وقال: من نسي الله فقد كفر به كما ثبت في الخبر. قال: وهذا النسيان يطلق على نسيانه غفلة، وعلى الإعراض عن الحق

<sup>1</sup> - هو محمد بن علي بن الحسن بن بشر، أبو عبد الله الحكميم الترمذي، ناقد صوري عالم بأحدث وأصول الحديث، من أهل الترمذ يعني منها كتب محاميه لندهم في الصوف، كان يقول: لأولياءه حاتم كما أن لأتباعه حاتم، ثم ساء حاله، إن حج فمريضه ولم يسلم من المناياك كتب نصايحه (نـ320هـ) من نصايحه بواخر الأصول في أحاديث الترمذي، وكتاب الترمذي وأول قصور وهي عديدة وأحارها لا تسعه المواصل. انظر لميادة وتكميل طبقات السكي (20/2). لسان الميراث لاس حجر (5/308)

<sup>2</sup> - هو عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود اهليل، خطيب، زوينة، نائب، شاعر، كان سكي الحكمة واشهر بالعبادة والقرعة، وصحب عمر بن عبد العزيز في خلافته (نـ115هـ). انظر حنية الأولياء (4/240) لحدث فتهذيب (8/171) طبقات الشعراء (42/1).

<sup>3</sup> - هو أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود، مشهور بكبته، كوفي، ثقة قريب فتهذيب (ص578).

<sup>4</sup> - تقدمت ترجمته.

وطريقه، وكلاهما مدموم.

وقال الشيخ الفضل الدين: لو كشف لأحدنا لرأى إبليس يركبه كما يركب أحدنا الدابة، ويصرفه كيف شاء طول الليل والنهار، كلما غفل ويترل عنه كلما ذكر.

قال ابن عربي: إذا غفل المريد عن الذكر نفسا واحدا صار الشيطان قرينه، فإنه بالمرصاد لمن أقبل على الله تعالى، يقف تجاه قلبه، فمضى دخلت الغفلة عليه دخل وإن دخل الذكر خرج. وإن كان الشيطان يدنّس القلب بدخوله مرة بالنهار. فكيف بقلب باض فيه وأفرخ. انتهى. قاله المناوي.

وأجمع القوم على أن الذكر مفتاح الغيب وجاذب الخير، وأنيس المتوحشين، وجامع لشتات صاحبه، وإن البلاء إذا نزل على قوم وفيهم ذاكر حاد عنه البلاء. وأجمعوا أيضا على أن فوائده لا تنحصر؛ لأن الذاكر يعني الحاضر بقلبه في ذكره يصير جليس الحق تعالى وحضرة الحق تعالى لا يرد عليها أحد ويفارقها من غير مدد، فمن لم يحضر في ذكره يتخذ شيخا يزيل عنه الموانع عن الحضور، فإن لم يجد شيخا يكثر من ذكر الله تعالى باللفظ حتى يصير يحضر في ذكره مع ربه.

## فوائد

**الفائدة الأولى:** الأكمل في الذكر أن يكون مع الحضور. وإلا: فلا يترك لذلك، لأن بذكر اللسان يصل إلى استدامة ذكر القلب.

**قال في الحكم:** لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه فإن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره<sup>(1)</sup>. زروق: لأنه بساط للحضور فيه بالتكرار. ولأن وجوده معين على صورته، فهو مهين لتيسير أمثاله، إذ يألف الحسن، فإذا آن وقت الحضور وجدت النفس مهيئة له قبل، ومن ثم حصل الفتح في أقرب مدة لذوي البدايات المخدمة؛ كابن أدهم ومن في معناه، إذ لم يكن عليهم في الخدمة كبير كلفة الاعتياد النفس به في محل آخر، فلم يحتاجوا لغير تحويل النية، ولذلك قيل: وجود العمل مع الرياء خير من فقدته لخوفه، ولأن الترك بالكلية غفلة بالكل والحضور بالجراحة حضور ما. ولأن فيه أيضا ثلاث فوائد:

— اشتغال الجراحة عما لا يعنى بما صورته تعنى.

— وتزوين الجراحة بالطاعات التي لا خلف لها منها إن تركتها في حال من الأحوال.

— والتعرض لنفحات الله؛ إذ الذي من بالأول هو المنان بغيره، ولا يخيب عليه عمل عامل<sup>(2)</sup>.

**قيل لبعضهم:** ما لنا نذكر الله باللسان والقلب غافل؟ فقال: أشكروا الله على ما وفق من ذكر اللسان ولو أجرى مكانه الغيبة ما ذا كنت تصنع؟ والله أكرم من أن يحضر العبد بلسانه، ثم لا يمن عليه بحضور قلبه. وأيضا: إنما تثبت الأعمال والأحوال في القلب بوجود الذكر بالقلب واللسان والجوارح، فإن فاتك واحد فلا يفوتك اثنان، وإن فاتك اثنان فلا يفوتك الثالث بل اذكر مولاك الله على كل حال.

(1) انظر شرح الحكم للأزمري: (55/1).

(2) انظر شرح زروق على الحكم: (70).

قال المناوي: عن بعض الأكابر: لا تحصل لأحد القدرة في الذكر وغيره على دوام شهوده أنه في الحضرة، إلا بعد إدمانٍ لتقلب النفس من صاحبها في تلك الحضرة، وسرعة خروجها بإسدال الحجاب سيما الملطّخة بالأقذار، فهو وإن أكره نفسه على المكث فيها شيئاً فشيئاً من ثانية إلى دقيقة إلى عشر درجة، إلى خمسها، إلى ربعها، إلى نصفها، وهكذا بالتدريج إلى ساعة فساعتين، إلى يوم كامل ثم جمعة ثم شهر، ثم سنة، وهكذا حتى لا يخرج من الحضرة؛ لأنه لا يجد مكاناً في الوجود إلا وهو فيها. وقد قال التستري لي: منذ ثلاث سنين أكلم الله والناس يظنون أنني أكلمهم. انتهى.

وقال بعضهم: أقرب الطرق إلى دخول حضرة الله: ذكر الله: لأن الاسم لا يفارق مسماه. فلا يزال الذاكر يذكر والحُجُبَ تتمزّق شيئاً فشيئاً، حتى يقع الشهود القلبي، وحينئذ يستغنى عن الذكر بمشاهدة المذكور.

ومرادهم بحضرة الله حيث أطلقت: انكشاف الحجاب فتدخلها وأنت قاعد مكانك.

**الفائدة الثانية:** قال في شرح شهية السماع: لا يقرب الله تعالى عبداً إلى حضرته إلا أن يستحيي منه حق الحياء، ولا يصح له ذلك إلا إن حصل له الكشف ورفع الحُجُب، ولا يصح له ذلك إلا بملازمة الذكر. ولا يصلح مقام الإخلاص الكامل وهو شهود الأعمال أنها خلق الله تعالى إلا بمداومة الذكر، ولا تحمد الأمراض الباطنة إلا به، ولا تنقطع الخواطر الشيطانية إلا به، ولا تضعف الخواطر النفسانية إلا به. ومداومته يزول الهم والغم في الدنيا، فإنهما بقدر الغفلة عن الله فلا يلومن العبد إلا نفسه إذا ترادفت عليه الهموم والغموم، فإن ذلك إنما هو جزاء بقدر إعراضه عن ربه، فمن أراد دوام السرور فليداوم على الذكر، وقد يقنع بعض المغرورين بمجلس الذكر صباحاً ومساءً مع الغفلة عن الله فيما بينهما وذلك لا ينجع بالسالك إلى منازل القوم، وربما يحتج بحديث: «إذا ذكر العبد ربه ساعة أول النهار وآخر النهار ساعة غفر له ما بينهما»، والمغفرة لا ترقى

فيها. وغايتها أن تُلْحَقَ الْمُذْنِبَ بِمَنْ لَا يَذْنِبُ ذَلِكَ الذَّنْبَ. لأنها لا تلحقه بمن فعل الطاعات فافهم. ومراد القوم: دوام الترقى مع الأنفاس في المقامات، وذلك بدوام ذكر الله ثم إنهم لا يرون أنهم قاموا بذرة واحدة من واجب حق الله تعالى<sup>1</sup>.

**الفائدة الثالثة:** قال الشيخ أبو عبد الله الساحلي: اعلم أن الإنسان مطلوب بطهارة نفسه وتزكيتها. وطرق التزكية: - وإن كثرت - فطريق الذكر أسرع نفعا، وأقرب مراما، وعليه درج أكثر مشايخ التربية. ثم قال: والذكر ضد النسيان. والمراد منه عمارة الباطن بالله تعالى في كل زمان، ومع كل حال؛ لأن الذكر يدل على المذكور لا محالة، فذكره ديدنا يوجب المحبة والمعرفة. والذكر - وإن اختلفت ألفاظه ومعانيه - فكل معنى من معانيه اختصاص بنوع من التحلية والتزكية. ثم قال: والذكر على قسمين: ذكر العامة: وهو أن يذكر العبد مولاه بما شاء من الأذكار لا يقصد غير الأجور والثواب.

وذكر الخاصة: وهو أن يذكر بأذكار معلومة على صفة مخصوصة لينال بذلك المعرفة بالله سبحانه بطهارة نفسه من كل خلق ذميم. قاله الثعالبي عند قوله تعالى في الأنفال: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾<sup>2</sup>.

**الفائدة الرابعة:** ما اعتادته الصوفية من عقد حلق الذكر والجهر به، ورفع الصوت بالتهليل، ليس بمكروه كما قاله السيوطي؛ للأحاديث الواردة بالجهر بالذكر تصرحا والتزاما. وقد ورد أيضا في الحديث استحباب السر به كحديث: «خير الذكر الخفي

<sup>1</sup> - شرح شهية السماع (ص 90) مخطوط في الزاوية. وينظر كلامه في الذكر ابتداء من ص 69 فأكثر ما هنا يوجد فيها.  
<sup>2</sup> - انظر الجواهر الحسان للثعالبي: (82/2).



وغير الرزق ما يكفي»<sup>1</sup>. والجمع بينهما: أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص.

النووي: الجمع بينهما أن الإسرار أفضل حيث خاف الرياء، أو تأذى به مصل أو نائم والجهر أفضل من غير ذلك؛ لأن العمل فيه أكثر، ولأن فائدته تتعدى إلى السامعين، ويوقظ قلب الذاكر، ويجمع همه إلى الفكر ويصرف سمعه إليه، ويطرد النوم ويزيد في النشاط، وهو نظير معارضة الجهر بالقرآن لحديث السرف فيه وقد ورد في الأحاديث ما يدل على الجهر بذلك؛ إما صريحاً أو التزاماً. ففي الحديث: «ما من قوم يذكرون الله إلا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله في من عنده»<sup>2</sup>. وفيه: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»<sup>3</sup>. وفيه: «أيها الناس إن الله سرايا من الملائكة تحل وتقف على مجالس الذكر، فاغدوا وروحوا في ذكر الله»<sup>4</sup>. وفيه: أنه ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: «ما يجلسكم؟ قالوا جلسنا نذكر الله ونحمده، فقال: أتاني جبريل فأخبرني أن الله تعالى يباهي بكم الملائكة»<sup>5</sup>. وفيه: «أكثرُوا ذكر الله حتى يقولوا مجنون»<sup>6</sup>. وفي حديث آخر: «حتى يقول المنافقون إنكم مراءون». ووجه الدلالة من هذا والذي قبله: أنه إنما يقال هذا عند الجهر دون الإسرار. وفيه: «يقول الله تعالى يوم القيامة: سيعلم أهل الجمع اليوم من أهل الكرم فقيل: ومن أهل الكرم يا رسول الله؟ قال مجالس الذكر»<sup>7</sup>. وعن ابن عباس: المؤمن إذا مات بكى عليه من الأرض الموضع الذي كان يصلي عليه، ويذكر الله فيه. قال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾. وعن

<sup>1</sup> - أخرجه أحمد برقم: (1477) عن سعد بن أبي وقاص. والبيهقي في شعب الإيمان (406/1). وينظر كذلك الجهر بالذكر والكلام فيه في شرح شهية السماع.

<sup>2</sup> - أخرجه الترمذي برقم (3348) عن أبي هريرة وقال حسن صحيح. وابن ماجه برقم (3791)

<sup>3</sup> - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد برقم: (7405) عن أبي هريرة.

<sup>4</sup> - أخرجه الحاكم برقم (1820) وقال صحيح الإسناد. والطبراني في الأوسط (1367) برقم (2501) عن جابر بن عبد الله.

<sup>5</sup> - أخرجه ابن أبي شيبة (59/6 ، رقم 29469) ، وأحمد (92/4 ، رقم 16881) ، ومسلم (2075/4 ، رقم 2701)

<sup>6</sup> - أورده في الجامع الصغير (الفتح الكبير) (212/1) وعزاه لأحمد في مسنده والحاكم وابن حبان والبيهقي عن أبي سعيد.

<sup>7</sup> - أورده في الدر المنثور (95/5) قال أخرجه أحمد وأبو يعلى وابن حبان عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ.

**أبي عبيد قال:** إن المؤمن إذا مات تنادي بقاع الأرض: "عبد الله المؤمن مات" فتبكي عليه الأرض والسماء فيقول الرحمن: ما يبكيكما على عبدي؟ فيقولان: لم يمش فينا إلا وهو يذكر الله. ووجه الدلالة من هذا أن سماع الأرض والجبال للذكر لا يكون إلا عن الجهر به. وفيه: «مر ﷺ برجل في المسجد يرفع صوته، قيل: يا رسول الله عسى أن يكون مرثيا؟ قال: لا، ولكنه أواة»<sup>(1)</sup>. وفيه: «جاءني جبريل فقال: مُر أصحابك أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية»<sup>(2)</sup> وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾ قال الصوفية: إن الآية خاصة بالنبي ﷺ وأما غيره ممن هو محل الوسواس والخواطر الرديئة، فمأمور بالجهر؛ لأنه أشد تأثيرا في دفعها ويؤيده حديث معاذ: «من صلى منكم بالليل فليجهر بقراءته فإن الملائكة تصلي بصلاته، وتسمع لقراءته»<sup>(3)</sup>... الحديث. وما نقل عن ابن مسعود أنه قال: لقوم وجدتهم يذكرون الله جماعة: لقد جئتم بيدعة ظلما، ولقد فقتم أصحاب محمد علما. وأنه رأى قوما يهللون برفع الصوت في المسجد: فهذا على تقدير ثبوته معارض بالأحاديث الكثيرة الثابتة المقدمة عليه عند التعارض. أو أنه لم يبلغه حديث الترغيب فيها، أو أنه أنكر الهيئة ونحوها، وإلا فلا يصح إنكاره لهذا الوجه بعد صحة الحديث. وعن الإمام أحمد: ما ينقض إنكار ذلك عن ابن مسعود، فإنه قال: حدثنا حسين بن محمد حدثنا المسعود عن عامر بن شقيق عن أبي وائل قال: هؤلاء الذين يزعمون أن عبد الله كان ينهى عن الذكر؛ ما جالست عبد الله مجلسا قط إلا ذكر الله فيه.

**قال السيوطي:** وقال زروق: الجمع للذكر والدعاء والتلاوة أخص من الجمع فيها لكونه مقصودا بخلاف الأول، فإنه أعم من ذلك فلزم طلب دليل يخصه؛ فأما الجمع للذكر: ففي حديث أبي هريرة: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون حلق

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: (576) عن زيد بن أسلم.

(2) الترمذی (191/3 ، رقم 829) وقال : حسن صحيح . والنسائي في الكبرى (رقم 3734) ، وابن ماجه (975/2) ، رقم 2922.

(3) أخرجه البزار في مسنده: (2655).

الذكر<sup>(1)</sup>..» إلخ الحديث. وفي آخره: «فيسألهم ربه ما يقول عبادي؟ فيقولون: يسبحونك ويهللونك ويمجدونك ويكبرونك ويمجدونك...» إلخ الحديث. وهو صريح في ندب الجمع لعين الذكر للترغيب في سياقه وما وقع في آخره من أن فيهم من ليس منهم فإن قيل: يجتمعون وكلٌّ على ذكره، فالجواب: إن كان سرا فجدواه غير ظاهر، وإن كان جهرا وكلٌّ على ذكره؛ فلا يخفى ما فيه من إساءة الأدب بالتخليط وغيره مما لا يسوغ في حديث الناس، فضلا عن ذكر الله، فلزم جوازه بل ندبه. ثم قال: والجمع لذلك قد صح ندبه بالأحاديث المتقدمة فلا يصح دفع أصل حكمه، وإن أوتر عليه غيره فلافضلية الغير عليه؛ كالذكر الخفي، وما يتعدى نفعه من العبادات؛ كالعلم والجهاد والتكسب على العيال إلى غير ذلك مما كان اعتناء الصحابة به، وشغلهم فيه، حتى شغلهم عن الاجتماع للذكر والتفرغ له من غير ضمنية شيء من ذلك إليه ألا تراهم عند إمكانه مع ما هم فيه استعملوه؛ كالأسفار والأعياد وأدبار الصلوات ونحو ذلك.

وأما التلاوة: فصحيح النووي وغيره: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يقرءون القرآن ويتدارسونه إلا حفت بهم الملائكة<sup>(2)</sup>...» الحديث. كما في الذكر. وأخذوا منه جواز قراءة الحزب الذي يقرأ في المساجد. كل ذلك على أصل مذهب الشافعي. وأما مالك فمذهبه في كل ذلك الكراهة لعدم عمل السلف ولسد ذريعة الابتداع بالزيادة على ذلك والخروج فيه لغير الحق، وقد وقع ما اتقاه عليه السلام.<sup>(3)</sup>

وقال ابن عباد: الحزب من روائع الدين التي يجب التمسك بها لذهاب حقائق الديانات في هذه الأزمنة، وإن كان بدعة، فهو مما اختلف فيه وغاية القول فيه الكراهة. فصح العمل به على قول من يقول به. قلت: وقد يلحق الذكر في بعض الأماكن والأوقات بشرطه، ولعل الشارع إنما قصد بترغيبه من بعد الصدر الأول لاحتياجهم له.

<sup>(1)</sup> أخرجه أحمد (382/2 ، رقم 8960) ، والبخارى (2353/5 ، رقم 6045) ، ومسلم (4/2069 ، رقم 2689)

<sup>(2)</sup> أخرجه مسلم (4/2074 ، رقم 2700) ، والترمذى (5/459 ، رقم 3378) وقال : حسن صحيح .

<sup>(3)</sup> انظر القواعد الصوفية (ص: 116-117-118-119-120-122)

وشروط الذكر التي تتعين عند الجمع لثلاثة:

أولها: خلو الوقت من واجب أو مندوب إذا كان يلزم من عمله الإخلال بذلك الواجب؛ كأن يسهر فينام عن الصلاة أو يتشاغل فيها أو يفرط في ورده، أو يضر بأهله، إلى غير ذلك.

الثاني: خلوه عن محرم أو مكروه يقترن به: كإسماع النساء أو حضورهن أو من يتقى من الأحداث، أو قصد طعام لا قرابة فيه، أو داخلته شبهة ولو قلت، أو فراش محرم كحرير ونحوه، أو ذكر مساوي الناس، أو الاشتغال بالأراجيف. إلى غير ذلك.

الثالث: التزام أدب الذكر من كونه شرعياً، أو معناه بحيث يكون بما صح واتضح، وذكره على وجه السكينة. وإن مع قيام مرة وقعود أخرى، لا مع رقص وصباح ونحوه فإنه من فعل المجانين كما أشار إليه مالك رحمه الله لما سئل عنهم فقال: أجمانين هم؟ وغاية كلامه الاستقباح بوجه يكون المنع أخرى.<sup>1</sup>

**الفائدة الخامسة: "الأولى"** قال الغزالي في جواهر القرآن: اعلم أنه قد انكشف لأرباب البصائر أن الذكر أفضل الأعمال، ولكن له قشور ثلاثة بعضها أقرب إلى اللب من بعض، ولها لب وراء القشور الثلاث، وإنما فضل القشور لكونها طريقاً إليه، فالقشر الأعلى منه: ذكر اللسان فقط. والثاني: ذكر القلب إذا كان القلب يحتاج إلى مراقبة حتى يحضر مع الذكر، ولو تركه وطبعه لاسترسل في أودية الأفكار.

والثالث: أن يتمكن الذكر من القلب بحيث يحتاج إلى تكلف في صرفه عنه إلى غيره، كما احتاج الثاني إلى تكلف في قراره معه ودوامه معه.

الرابع: وهو اللباب المطلوب؛ وذلك بأن لا يلتفت القلب إلى الذكر ولا إلى القلب بل يستغرق المذكور جملة، ومهما ظهر له في أثناء ذلك التفات إلى الذكر فذلك حجاب

<sup>1</sup> - انظر القواعد الصوفية لزروق (ص: 94) القاعدة 121.

شاغل، وهذه الحالة هي التي يعبر عنها العارفون بالفناء، وذلك بأن يفني عن نفسه حتى لا يحس بشيء من ظاهر جوارحه، ولا من الأشياء الخارجة عنه، ولا من العوارض الباطنة، بل يغيب عن جميع ذلك ويغيب عنه جميع ذلك ذاهبا إلى ربه أولا، ثم ذاهب فيه آخر. وإن ظهر له في أثناء ذلك أنه فني عن نفسه بالكلية؛ فذلك شوب وكدورة، بل الكمال فيه: أن يفني عن نفسه ويفني عن الفناء أيضا، والفناء عن الفناء غاية الفناء. وهذا قد يظنه الفقيه الرسمي أنه طاقات غير معقولة وليس كذلك بل هذه الحالة لهم بالإضافة إلى محبهم؛ كحالتك في أكثر أحوالك بالإضافة إلى محبوبك؛ من جاه أو مال، أو معشوق، فإنك تكون مستغرقا من شدة الغضب بالفكر في عدوك، ولشدة شهوتك بالفكر في معشوقك، حتى لا يكون قلبك مستعملا لشيء أصلا، فتخاطب فلا تفهم، ويمتاز غيرك بين يديك فلا تراه، وعينك مفتوحتان، ويتكلم عندك فلا تسمع، ولا بأذنك صمم، وأنت في الاستغراق غافل عن كل شيء وعن الاستغراق أيضا، لأن الملتفت إلى الاستغراق معرض عن المستغرق به إلى أن قال: فقد أفهمناك ما أرادوه بالفناء فدع عنك الغيبة والتكذيب بما لم تحط به قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾. وقال: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾. ثم إن الفناء والاستغراق يكون أولا كالبرق الخاطف قلما يثبت ويدوم، فإن دام ذلك وصار عادة راسخة، وهيئة ثابتة عرج به إلى العالم الأعلى، وطالع الوجود الحقيقي الأصفى، وانطبع فيه نفس الملكوت، وتجلي له قدس اللاهوت.

وأول ما يتمثل له من ذلك العالم جواهر الملائكة وأرواح الأنبياء والأولياء في صورة جميلة، يفضي إليه بواسطتها بعض الحقائق، وذلك في البداية إلى أن تعلو درجته عن المثال، ويكافح بصريح الحق في كل شيء. فإذا رد إلى هذا العالم المجازي الذي هو كالظلال، نظر إلى الخلق مترحما عليهم لحرمانهم من مطالعة جمال حضرة القدس، ويتعجب في انخداعهم بعالم الغرور، فيكون معهم حاضرا شخصه غائبا بقلبه متعجبا هو من حضورهم ويتعجبون هم من غيبته.

وهذه ثمرة لباب الذكر. وإنما مبدؤها ذكر اللسان، ثم ذكر القلب مكلفاً، ثم ذكر القلب طوعاً ثم استيلاء المذكور وانمحاء الذكر، وما دام القلب يشعر بالذكر، ويلتفت إليه فهو معرض عن الله، وغير منفك عن شرك خفي حتى يصير مستغرقاً بالواحد الحق. فذلك هو التوحيد.

وكذلك القول في المعرفة فمن طلب المعرفة بالمعرفة فقد قال بالثاني. ومن وجدها وكأنه لا يجدها بل يجد المعروف بها فهو الذي استكمل حقيقة الوصال ووصل بجبوحة حضرة القدس. انتهى<sup>(1)</sup>.

**الفائدة السادسة: قال القاضي عياض:** ذكر الله تعالى ضربان: ذكر بالقلب وذكر باللسان. وذكر القلب نوعان: أحدهما: وهو أرفع الأذكار وأجلها وهو الفكر في عظمة الله تعالى وجلاله وجبروته وملكوته، وآياته في سمواته وأرضه. ومنه الحديث: «خير الذكر: الخفي»<sup>2</sup>. والمراد به: هذا. والثاني: ذكر القلب عند الأمر والنهي فيمثل ما أمر به ويترك ما نهى عنه، ويقف فيما أشكل عليه، وأما ذكر اللسان مجرداً فهو أضعف الأذكار ولكن فيه فضيلة عظيمة كما جاءت به الأحاديث. قال: وذكر محمد بن جرير الطبري وغيره: اختلاف السلف في ذكر القلب واللسان أيهما أفضل؟ قال القاضي: والخلاف عندي إنما يتصور في مجرد ذكر القلب تسبيحاً وتحميلاً وشبههما، ويدل عليه كلامهم لا أنهم مختلفون في الذكر الخفي الذي ذكرناه أولاً فذلك لا يقاربه ذكر اللسان، فكيف يفاضله؟ وإنما الخلاف في ذكر القلب بالتسبيح المجرد ونحوه، والمراد به بذكر اللسان مع حضور القلب فإن كان لاهياً فلا. واحتج من رجح ذكر القلب بأن عمل السر أفضل. ومن رجح ذكر اللسان بأن العمل فيه أكثر فإنه زاد باستعمال اللسان

(1) لم أجد هذه الإحالة في جواهر القرآن للغزالي.

<sup>2</sup> أخرجه أحمد (172/1)، رقم (1477)

فانقضى زيادته أجرا. قال القاضي<sup>(1)</sup>: واختلفوا هل تكتب الملائكة ذكر القلب فقيل: تكتبه وتجعل لهم علامة يعرفونه بها. وقيل: لا تكتبه لأنه لا يطلع عليه إلا علام الغيوب. انتهى.

قلت: وسمعت من شيخنا العارف بالله محمد بن الترجمان<sup>2</sup>: أن علامة الحسنة: رائحة طيبة يشمها الملك وعلامة السيئة: ريح خبيثة يشمها الملك أيضا. ولا يعلمون بخصوص الحسنة ما هي، وكذا السيئة. انتهى من حاشية الأجهوري على الرسالة عند قوله: "والذكر أفضل الأعمال".

واختلفوا أيضا في الفكر والذكر اللساني المجرد أيهما أفضل؟ وأما الذكر النفساني فقال الدقاق: أنه أتم من الفكر لأنه تعال يوصف بالذكر لا بالفكر. وذهب بعضهم إلى تفضيل الذكر مطلقا لأنه لو مات في الذكر مات في حضرة المذكور. أو مات بالفكر مات في حضرة الأكون. قال بعضهم: والحق أن الحكم يختلف باختلاف الأحوال ومراتب الرجال. صح من الدرر الجوهريّة.

**الفائدة السابعة: من أفضل الذكر: الصلاة على النبي ﷺ؛** لأن ذكر الله تعالى يستلزم ذكره عليه الصلاة والسلام، إذ هو دليل ذلك الذكر ومنه عرف ولا اعتداد به إلا من جهة الاعتداد به. وقد ورد في فضل الصلاة والسلام عليه ﷺ أحديث كثيرة تحتاج إلى ديوان مستقل، وفي الغفلة عنها رائحة الجفاء. ففي الحديث: «من نسي الصلاة علي أعطى طريق الجنة<sup>(3)</sup>».

وروى الطبراني: «من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشرا. ومن صلى

(1) لعله القاضي عياض الأنف الذكر.

<sup>2</sup> - هو محمد بن الحسين بن علي بن الترجمان، أبو الحسين العزّي، شيخ الصوفية بديار مصر في وقته، حدث بمصر والشام. (ت

448هـ) الروافى بالوفيات: (307/1).

(3) أخرجه ابن ماجه: (908) عن ابن عباس.

علي عشرة صلى الله عليه مائة. ومن صلى علي مائة كتب الله له بين عينيه براءة من النفاق وبراءة من النار وأسكنه يوم القيامة مع الشهداء<sup>(1)</sup>» وقالوا: ينبغي لمن فاته كثرة الصيام والقيام أن يشتغل بما فإنك لو فعلت كل طاعة في عمرك، ثم صلى الله عليك صلاة واحدة رجحت تلك الصلاة الواحدة جميع ما فعلت في عمرك من الطاعات، لأنك تصلي على قدر وسعك، وهو يصلي على حسب ربوبيته. هذا إذا كانت صلاة واحدة، فكيف إذا صلى عليك عشرة بكل صلاة كما جاء في الحديث الصحيح.

**قال بعضهم:** الصلاة على النبي ﷺ سلم ومعراج وسلوك إلى الله تعالى إذا لم يلق الطالب شيخا مرشدا<sup>(2)</sup>.

**وقال سيدي زروق:** نورانية الأذكار محرقة لأوصاف العبد، ومثيرة لحرارة طبعه بانحراف النفس عن طبعها، فلذا أمر بالصلاة على النبي ﷺ معها؛ لأنها كالماء للنار تقوي النفس وتذهب وهج الطباع وسر ذلك في السجود لآدم عند قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ولذا أمر المشائخ بالصلاة عليه ﷺ عند غلبة الوجد. والذوق لذلك شاهد. وقد أشار إليه الصديق رحمه الله إذ قال: الصلاة على محمد ﷺ أحق للذنوب من الماء البارد للنار... إلى آخر الأثر<sup>3</sup>.

**ونص في مفتاح الفلاح<sup>4</sup>:** أن علامة الفتح: ثوران الحرارة في الباطن.<sup>5</sup> انتهى.

**وفي شرح دلائل الخيرات:** وفي الصلاة على النبي ﷺ من سر الاعتدال الجامع لكمال العبد وتكميله. ففيها ذكر الله ورسوله. فكذا كانت المثابرة على الأذكار والدوام عليها يحصل به الانحراف ويكسب نورانية تحرق وهج الطباع، وتقوي النفوس؛ لأنها كالماء، فكانت تقوم مقام التربية أيضا من هذا الوجه. انتهى.

(1) أخرجه الطبراني في الأوسط: (7235).

(2) قواعد زروق ص: 86.

(3) انظر القواعد (ص 87) القاعدة 115.

(4) اسم كتاب لابن عطاء الله.

(5) انظر القواعد (ص: 87) القاعدة: 180.



وفي الحديث: «أربع من الجفاء: أن يبول الرجل وهو قائم، وأن يمسح جبهته قبل أن يفرغ من الصلاة، وأن يسمع النداء فلا يتشهد مثل ما يتشهد المؤذن، وإذا ذكرت عنده فلم يصل علي<sup>(1)</sup>».

واختلف في أفضل كيفيات الصلاة على النبي ﷺ، ومن جملتها: اللهم إني أشهدك وأشهد ملائكتك أني أصلي على محمد. قاله السمرقندي<sup>2</sup>.

ومن أنواع الذكر: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ وهو أفضل الذكر، كما ورد في الحديث<sup>(3)</sup>. وهو دأب السالكين وعدة السائرين وتحفة السابقين. ومفتاح الجنة، ومفتاح العلوم والمعارف.

وفي الحديث: «إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقا من قلبه إلا حرمه الله على النار»<sup>4</sup>. وفيه: «جددوا إيمانكم. قيل: يا رسول الله كيف نجدد إيماننا؟ قال: أكثروا من قول لا إله إلا الله<sup>(5)</sup>». رواه أحمد وغيره.

وقال ابن مسعود: إن الله يعطي المال لمن يحب ولمن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا لمن يحب فمن ضمن بالمال أن ينفقه، وخاف العدو أن يجاهده، وهاب الليل أن يكابده؛ فليكثر من قول: لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله. وإذا سمع ابن مسعود سائلا يسأل ويقول: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا﴾ يقول: القرض الحسن: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

وفي الحديث: «من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير. كتب الله

(<sup>1</sup>) أخرجه الديلمي (372/1 ، رقم 1501)

<sup>2</sup> - هو نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، أبو الليث الملقب ب: إمام الهدى؛ علامة من أئمة الحنفية، ومن الزهاد المتصوفين، له تصانيف نفيسة منها: تفسير القرآن جزء غير كبير - عمدة العقائد - بستان العارفين وتبني الغافلين - فضائل رمضان وغيرها وهي كثيرة ومفيدة معتمدة. (ت 373هـ). انظر الجواهر البهية (ص: 220) والجواهر المضئية (2/196) (الأعلام (8/348).

(<sup>3</sup>) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (4/90 ، رقم 4371) بلفظ: "أفضل الدعاء لا إله إلا الله وأفضل الذكر الحمد لله"

<sup>4</sup> - أورده في الجامع الصغير (2/57) وعزاه لأحمد في مسنده والحاكم في المستدرک.

(<sup>5</sup>) أخرجه أحمد (2/359 ، رقم 8695)

له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة»<sup>1</sup>.

وكان قتيبة يركب فيأتي السوق فيقول هذه الكلمات فينصرف. قاله السمرقندي.

وفي الحديث: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصا من قبل نفسه»<sup>(2)</sup>. وفيه: «من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة» ف قيل: يا رسول الله؛ وما إخلاصها؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله<sup>(3)</sup>. انتهى من الثعالبي<sup>(4)</sup>.

وقال سهل: ليس لقول لا إله إلا الله ثواب إلا النظر إلى وجه الله الكريم. والجنة ثواب الأعمال.

وقيل: إن كلمة التوحيد إذا قالها الكافر تنفي عنه ظلمة الكفر. وتثبت في قلبه نور التوحيد، وإذا قالها المؤمن ذكر وإن قالها في كل يوم ألف مرة تنفي عنه شيئا لم تنفه في المرة الأولى.

وحكي: أنه إذا كان آخر الزمان فليس لشيء من الطاعات فضل كفضل لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ؛ لأن الصلاة والصوم يشوبهما الرياء والصدقة يشوبها الحرام، ولا إخلاص في شيء منها. وأما كلمة لا إله إلا الله فهي: ذكر الله. والمؤمن لا يذكرها إلا عن صميم قلبه.

وحكى الرازي أن رجلا كان واقفا بعرفات، وكان بيده سبعة أحجار فقال: أيتها الأحجار اشهدي لي أنني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ، فنام فرأى في المنام كأن القيامة قد قامت وحوسب ذلك الرجل فوجبت له النار، فلما ساقوه إلى باب من أبواب جهنم جاء حجر من تلك الأحجار السبعة فألقى نفسه على ذلك الباب فاجتمعت ملائكة العذاب على دفعه فما قدرُوا، وسيق إلى باب آخر فكان من الأمر

<sup>1</sup> - أورده في الجامع الصغير (الفتح الكبير) (180/2) وعزاه لأحمد في مسنده والحاكم في المستدرک والترمذي برقم (3428) عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه عن جده وابن ماجه في سننه.

<sup>(2)</sup> أخرجه البخاري (49/1 ، رقم 99) . وأخرجه أيضا : أحمد (373/2 ، رقم 8845)

<sup>(3)</sup> أخرجه أيضًا : النسائي في الكبرى (276/6 ، رقم 10964)

<sup>(4)</sup> انظر الجواهر الحسان: (252/1).

كذلك. وهكذا إلى الأبواب السبعة، وسيق به إلى العرش فقال تعالى: عبدي: أشهدت هذه الأحجار فلم تضيع حَقَّك وأنا شاهد على شهادتك على توحيددي أدخل الجنة. فلما قرب من أبواب الجنان فإذا أبوابها مغلقة فجاءت شهادة أن لا إله إلا الله وفتحت الأبواب. وسبعون منها تكون فداء من النار، وفضائلها كثيرة.

ومن أنواع الذكر: الاستغفار؛ قال بعضهم: من غفل عن الاستغفار نزل عليه البلاء وقر عليه الرزق لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾

وفي الحديث: «من لزم الاستغفار جعل الله له في كل ضيق فرجا، ومن كل هم مخرجا ورزقه الله من حيث لا يحتسب<sup>(1)</sup>». ومن خطر له أنه مستغن عن الاستغفار في وقت من الأوقات فهو جاهل. ويتأكد على العبد كثرة الاستغفار كلما اعتقد الناس فيه الخير، وهو في السر على خلاف ذلك، وقال بعضهم: ما دام للعبد سريرة يفتضح بها في الدنيا والآخرة لو كشف فاللائق به كثرة الاستغفار والخوف لتليسه على الناس فإذا تخلق بما ظنه الناس فيه كان له حكم آخر.

وفي سنن المهتدين: الاستغفار دأب العارفين بل هو مرقى خيرة الخلق من الأنبياء والمرسلين. وكان يعد له ﷺ في المجلس الواحد أكثر من مائة مرة. (ربُّ اغفر لي وثبْ عَلَيَّ) وإذا كان ﷺ يومر بالاستغفار وهو معصوم فما الظن بغيره؟ والأكمل: الاستغفار بالقلب واللسان معا، وإلا فلا يترك لذلك، لأن الاستغفار باللسان فقط حسنة أيضا لأنه أفضل من حركة اللسان حينئذ بالغيبة، أو بالفضول بل من السكوت.

وقول رابعة: استغفارنا يحتاج إلى استغفار؛ أي من غفلة القلب لا من حركة اللسان بالاستغفار، فإن سكت عن الاستغفار باللسان أيضا: أحتاج إلى استغفارين؛ لا إلى استغفار واحد.

وقال مكحول: إذا كان في أمة خمسة عشر رجلا يستغفرون الله تعالى كل يوم خمسة وعشرين مرة؛ لم يواخذ الله تلك الأمة بعذاب العامة.

(1) أخرجه أبو داود (85/2)، رقم (1518)، وابن ماجة (1254/2)، رقم (3819)

وقال أبو المهاجر بن قيس<sup>1</sup>: لي نيف وأربعون ذنبا قد استغفرت عن كل ذنب منها مائة ألف مرة وما ثم إلا عفوه ومغفرته.

وقال أبو الحسن الشاذلي: أحصن الحصون من وقوع البلاء على المعاصي الاستغفار. وقال ابن عيينة: رأيت أخي في المنام فقلت ما فعل الله بك؟ فقال: كل ذنب استغفرت الله منه غفر لي، وما لم أستغفر منه لم يغفر لي. انتهى من طبقات الأولياء<sup>(2)</sup>.

وقال إبراهيم بن أدهم: ما ألهم الله عبدا الاستغفار وهو يريد أن يعذبه. وقال أبو العالية: إني لأرجو أن لا يهلك عبد بين نعمتين: نعمة يحمد الله عليها، وذنب يستغفر الله منه. وقال الربيع بن خثيم: لا يقل أحدكم أستغفر الله وأتوب إليه فيكون ذلك ذنبا وكذبا إن لم يفعل، ولكن ليقُل: اللهم اغفر لي وتب علي؛ أي لأنه سؤال وضراعة ودعاء وتسميته كذبا لا يوافق عليه؛ لأن معنى: أستغفر الله وأتوب إليه: أي أطلب مغفرته وليس في هذا كذب. ويمكن أن يكون أيضا: أستغفر الله وأتوب إليه دعاء على صورة الخبر. فعلى هذا لا فرق بحسب المعنى بين: أستغفر الله وبين اللهم اغفر لي وتب علي. فقليل له: إن قول العبد: أستغفر الله ورد في السنة. فقال: ذلك في حق الصديقين.

وقال الشيخ داود بن ماخلاء: إذا أجنب العبد ألف جنابة كفاه غسل واحد وأباح له الدخول في الصلاة. وكذلك العبد إذا أجنب بالغفلة، ثم ذكر الله تعالى مرة واحدة واستغفره كان ذلك مطهرا له من تلك الجنابات ومبيحا له الدخول في الحضرات قاله الشعراني<sup>(3)</sup>. ويأتي بعض فضائل الاستغفار إن شاء الله.

ومن أفضل أنواع الذكر التسبيح: وقد ورد في فضله أحديث كثيرة ففي الحديث: «إن أحب الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده»<sup>4</sup>. وهذا محمول على كلام الآدميين. وإلا

<sup>1</sup> - لعله أبو المهاجر سالم بن عبد الجزري، ويقال ابن أبي المهاجر مولى بني كلاب ثقة (161هـ) انظر تقريب التهذيب (ص167)

<sup>(2)</sup> انظر طبقات الشعراني: (216/1).

<sup>(3)</sup> انظر طبقات الشعراني: (205/1).

<sup>4</sup> - أخرجه مسلم كتاب الأدب برقم (5601) عن سمرة بن جندب.

فالكلام بالذكر أفضل من التسبيح والتهليل المطلق كما تقدم<sup>1</sup>. وأما المأثور في وقت أو حال فلاشتغال به أفضل. وفيه: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»<sup>2</sup>. وفيه: «من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة»<sup>3</sup>. وعن شريح قال: بلغني أنه لو قسم ثواب تسبيحة على جميع هذا الخلق لأصاب كل واحد منهم خير. وفيه: «من قال إذا أصبح: سبحان الله وبحمده ألف مرة فقد اشترى نفسه من الله وكان من آخر يومه عتيقا من النار»<sup>(4)</sup>. وروى ابن أبي حاتم<sup>5</sup> عن علي كرم الله وجهه قال: سبحان الله كلمة أحبها الله لنفسه ورضيها وأحب أن يقال.

ومن الذكر: التكبير: وفي الحديث «إذا رأيتم الحريق فكبروا فإن التكبير يطفئه»<sup>6</sup>. وفيه: «من كبر تكبيرة عند غروب الشمس على ساحل البحر رافعا صوته أعطاه الله من الأجر بعدد كل قطرة في البحر عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات بين الدرجتين مسيرة مائة عام بالفرس المسرع»<sup>(7)</sup>. انتهى من الأنوار المضيئة للثعالبي.

<sup>1</sup> - وفي نسخة: وإلا فكلام الله أفضل من التسبيح والتهليل المطلق.

<sup>2</sup> - أخرجه البخاري كتاب التوحيد برقم (3563) عن أبي هريرة. ومسلم برقم (6846) عن أبي هريرة.

<sup>3</sup> - أخرجه الترمذي كتاب الدعوات برقم (3464) عن جابر. وقال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب صحيح لا نعرفه إلا

من حديث ابن الزبير عن جابر.

<sup>(4)</sup> - أخرجه السيوطي في الدر المنثور: (592/11).

<sup>5</sup> - عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي، حافظ للحديث له تصانيف منها: الجرح والتعديل ط 8 مرات والتفسير عدة مجلدات. علل الحديث ط. وغوها (ن-327هـ) انظر تذكرة الحفاظ (46/3) وفات الوفيات (260/1).

<sup>6</sup> - أورده في الجامع الصغير (106/1) وعزاه لابن السني وابن عدي في الكامل وابن عساكر.

<sup>(7)</sup> - أخرجه الحاكم في المستدرک: (6484).

## إعمار الوقت بالفكر

ثم قال: (وَ) أعمر أوقاتك أيضا (بِالْفِكْرِ) وهو استعمال القوة في طلب العلم من وجهه بطريقه؛ أي يتفكر في صنع الله تعالى لتحصل له المعرفة به، وفيما يقربه إلى الله تعالى؛ كالطاعات كيف يؤديها، وكيف يحرسها من النقصان والتقصير، أو كيف يجبرها بالنوافل إن كانت فرائض، وفيما يبعده منه كالذنوب فيتركها، ويفتش أعضائه كل يوم هل هي متلبسة بها الآن فيتركها، أو لا بسها بالأمس فيتداركها بالتوبة. أو هو متعرض لها فيستعد للاحتراز منها. وفي رحمة الله تعالى فيشمر للطاعات، وفي شدة عذابه فيترك المعاصي، وفي تعدد نعم الله تعالى عليه، وما سبق من حسن عمله فيشكر ذلك، وفي كيفية اكتساب الفضائل، وكيفية التحرز من آفات النفس ومكايد الشيطان وغرور الدنيا، فيستفيد بهذا كله أحوالا سنية يزول بها مرض قلبه، ويستعين بسببها على طاعة ربه، فلذا كان الفكر خيرا من الذكر؛ لأن فيه ذكرا وزيادة. وقيل: تفكر ساعة خير من عبادة سنة.

وقال ابن رشد: التفكير من أشرف الأعمال لأنه من أعمال القلوب التي هي أشرف من أعمال الجوارح؛ لأنه لا يثاب أحد على عمل من أعمال الجوارح إلا مع مشاركة القلوب لها بالإخلاص.

القاضي عياض: كان الشيخ محرز التونسي خاتمة صلحاء إفريقية أكثر عمله التفكير، إنما صلاته النافلة يصلي ركعتين ثم يجلس يتفكر ساعة أو ساعتين، ثم يركع ركعتين ثم يتفكر كذلك، يفعل ذلك عامة ليله ونهاره.

قال الثعالبي: ينبغي أن يفصل الحكم فيها بحسب ما يقع التفكير فيه فإن كان الفكر وسيلة في تحصيل واجب فهو واجب. (وَبِالْعِلْمِ النَّافِعِ) وقد تقدم (وَالْإِكْتِسَابِ) بما لا بد منه (بِنِيَّةِ الْخَيْرِ) وهو ما يأتي في قوله: وللاحتياج عوننا على الطاعة، وتعطفنا على الناس وتعفوا عنهم، ليسلموا منه ويسلم له دينه: خير وثواب

## إيصال الخير وإدخال السرور إلى المسلم

(وإِصَالِ خَيْرٍ) إلى مسلم: من قضاء حاجة له، ونصيحة وإرشاد وتعليم وقضاء دين، وتفريج عن مكروب، وإغاثة ملهوف، وإطعام جائع، وسقي عطشان وكسوة عريان، وغير ذلك من وجوه الخير. (أَوْ) إيصال (سُرُورٍ إِلَى مُسْلِمٍ) لحديث: «من أدخل على مسلم سرورا فقد سرنى، ومن سرنى فقد اتخذ عند الله عهدا، ومن اتخذ عند الله عهدا فلن تمسه النار أبدا<sup>(1)</sup>». ولحديث: «من أقر عين مؤمن أقر الله عينه يوم القيامة». ولحديث: «إن من أحب الأعمال إلى الله سبحانه إدخال السرور على المؤمن، وأن تفرج عنه هما أو تقضي عنه ديناً، أو تطعمه من جوع<sup>(2)</sup>». ولحديث: «من أدخل على مؤمن سرورا خلق الله من ذلك السرور ملكا يدخل عليه في قبره ويؤنسه إلى يوم القيامة».

قال عبد الجليل<sup>3</sup>: لما كان السرور يطيب قلب المؤمن ويزيل همه، ويؤنسه كان الجزاء على ذلك في محل الوحشة موافقا لعمل العبد فيدخل عليه الملك في قبره في أحسن صورة؛ لأن السرور أحسن شيء وإدخال السرور على المؤمن أعظم الخيرات.

## إخفاء الأعمال الصالحة

ولما كان أمر الرياء دقيقا صعبا جدا خاف أولو البصائر على أنفسهم؛ حتى أن منهم من لا يلتفت إلى جميع ما يظهر للناس من أعماله. أشار إلى ذلك بقوله: (وَاجْعَلْ لَّكَ خَبِيئَةً وَّرِدًّا) أي ورد عمل يكون سرا بينك وبين الله تعالى تخبئه عن الناس، أي تخفيه وتستره عنهم، والخبيئة والخياء والخبء بالفتح والكسر: ما خبيء وغاب وستر. يقال:

(1) أخرجه الدارقطني في الأفراد، وأبو الشيخ في الثواب عن ابن عباس. انظر جامع الأحاديث للسيوطي: (54431)

(2) أخرجه الطبراني (71/11)، رقم (11079). وأخرجه أيضًا: الطبراني في الأوسط (45/8)، رقم (7911)

<sup>3</sup> - عبد الجليل علم على عدة أعلام لا شيء يميز بينهم.

خَبَاهُ كَمَنَعَهُ : سَتَرَهُ كَخَبَّاهُ وَاخْتَبَاهُ . وَامْرَأَةٌ خُبَاءٌ كَهُمَزَةٍ : لَازِمَةٌ بَيْتِهَا . قَالَ فِي الْقَامُوسِ<sup>(1)</sup> . (وَإِنْ قَلَّ لِيَنْفَعَكَ غَدًا) وَرِئِي بَعْضَ الصَّالِحِينَ فِي النَّوْمِ فَقِيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟ فَقَالَ: مَا نَفَعْنَا إِلَّا رَكِيعَاتٍ كُنَّا نُرْكِعُهَا فِي السَّحَرِ .

ورِئِي الْجَنِيدَ بَعْدَ مَوْتِهِ فَقِيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟ فَقَالَ: طَاحَتْ تِلْكَ الْإِشَارَاتُ ، وَفَنِيَتْ تِلْكَ الْعِبَارَاتُ ، وَمَا نَفَعْنَا إِلَّا رَكِيعَاتٍ كُنَّا نُرْكِعُهَا فِي السَّحَرِ . وَرِئِي أَبُو حَنِيفَةَ بَعْدَ مَوْتِهِ فَقِيلَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ فَقَالَ: غَفَرَ لِي ، فَقِيلَ لَهُ بِالْعِلْمِ؟ فَقَالَ: هِيَاتِ إِنْ لِلْعِلْمِ شُرُوطًا وَآفَاتٌ قَلَّ مِنْ يَنْجُو مِنْهَا .

ورِئِي أَبُو سَهْلٍ الصُّعْلُوكِيَّ<sup>(2)</sup> بَعْدَ مَوْتِهِ فَقِيلَ لَهُ: مَا صَنَعَ عِلْمُكَ فَقَالَ: كُلُّ مَا كَانَ مِنْ دَقَائِقِ الْعُلُومِ وَجَدْتُهَا هَبَاءً مَنثورًا إِلَّا بَعْضَ مَسَائِلٍ سَأَلَنِي عَنْهَا الْعَوَامُ . وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَفْتَحَ اللَّهُ قَلْبَهُ وَيَنْوِرَهُ فَعَلِيهِ بِتَرْكِ كَثْرَةِ الْكَلَامِ فِيمَا لَا يَعْنِي ، وَتَجَنُّبِ الْمَعَاصِي . وَيَكُونُ لَهُ وَرْدٌ فِي الْأَعْمَالِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى .

وَقَالَ أَيْضًا: يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَبِيئَةٌ مِنْ عَمَلٍ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنْ كُلُّ مَا ظَهَرَ لِلنَّاسِ مِنْ عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ قَلِيلُ النِّفَعِ فِي الْآخِرَةِ . قَالَ: وَمَا رِئِي أَحَدًا بَعْدَ مَوْتِهِ وَقَالَ: غَفَرَ اللَّهُ لِي بِعِلْمِي إِلَّا قَلِيلًا . وَلِذَا قَالَ: (وَاجْتَهِدْ فِي الْإِخْلَاصِ فِيهِ وَفِي إِخْفَائِهِ عَنِ النَّاسِ) اِكْتِفَاءً بِنَظَرِ اللَّهِ تَعَالَى لِحَدِيثِ رَوَاهُ الشَّهَابُ: «مَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ سَجُودٍ خَفِي<sup>(3)</sup>» . ثُمَّ إِنَّ إِخْفَاءَ الْعَمَلِ مِنْ أَقْوَى أَسْبَابِ ظُهُورِهِ جَبَلَتْ عَلَيْهِ النُّفُوسُ مِنْ إِظْهَارِ مَا خَفِيَ وَإِعْلَانِ مَا كَتَمَ . (إِذْ مَا ظَهَرَ لَهُمْ مِنْهُ) أَيُّ مِنَ الْعَمَلِ (رُبَّمَا كَانَ قَلِيلَ النَّفْعِ فِي الْآخِرَةِ) قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنْ أَمَكْنَكَ أَنْ تَجْعَلَ لَكَ خَبِيئًا مِنَ الْخَيْرِ فَافْعَلْ ،

(1) انظر القاموس المحيط: (48/1) .

(2) هو محمد بن سليمان بن محمد بن هارون الحنفي (من بني حنيفة) أبو سهل الصُّعْلُوكِيَّ: فقيه شافعي، من العلماء بالأدب والتفسير. قال صاحب ابن عباد: ما رأينا مثله ولا رأى مثل نفسه. وأورد الثعالبي أبياتا من نظمه، وقال: له شعر كثير. مولده بأصبهان وسكنه ووفاته بنيسابور. درس بالبصرة بضعة أعوام، وبنيسابور 32 سنة. ورويت عنه فوائد. توفي 369 هـ. انظر الوفيات: (460/1) .

(3) أخرجه ابن المبارك (50/1 ، رقم 154) . وأخرجه أيضًا: القضاعي (250/2 ، رقم 1294) .



ولا تنس صلاتك بالليل لخبر: ركعتان في الليل المظلم خير من ألف ركعة بالنهار. وقال آخر: اكنم حسناتك كما تكنم سيئاتك. وقالت رابعة: ما ظهر من أعمالي لا أعده شيئا؛ أي لعجز أمثالنا عن الاخلاص في العمل إذا رآه الناس.

وقال بشر الحافي: لا ينبغي لواحد من أمثالنا أن يظهر من أعماله الصالحة مثقال ذرة: فكيف بأعماله التي دخلها الرياء. والأولى بأمثالنا الكتمان. قال: بلغنا أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يقول للحواريين: إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه ليلا يرى الناس أنه صائم.

وقال الفضيل: خير العلم والعمل ما خفي عن الناس. وقال عكرمة: ما رأيت أقل عقلا ممن يعلم من نفسه السوء ويحب من الناس أن يصفوه بالعلم والصلاح، ولا بد أن يطلع الناس على سوء سريره. ومثاله: من غرس شوكا وطلب أن يحمل له رطبا. ومر أبو أمانة على شخص ساجد وهو يبكي فقال: نعم هذا لو كان في بيتك حيث لا يراك الناس. وقال الفضيل: من أحب أن ينظر إلى مرآة فلينظر إلى.

وكان عبد الرحمن بن هرمز الزاهد<sup>1</sup> يقول في مناجاته: من أسوأ حالا مني؟ عاملت عبادك في الظاهر بالأمانة، وعاملتك في السر بالخيانة فليتني عكست. وقال يوسف بن أسباط: أوحى الله إلى نبي من الأنبياء: قل لقومك يخفوا لي أعمالهم وعلي أن أجهرها لهم. وقال الزبير بن العوام: اجعلوا لكم خبيثة من العمل الصالح، كما أن لكم خبيثة من العمل السيئ. وقال معاوية ابن قرة<sup>2</sup>: من يدلني على رجل يبكي في الليل ويتبسم في النهار؛ أي إن ذلك لقليل. وكان السمرقندي يقول إذا مدحه الناس: والله ما مثلي ومثلكم إلا كمثل جارية ذهبت بكارمها بالفجور، وأهلها لا يعلمون فهم يفرحون بها ليلة

<sup>1</sup> - عبد الرحمن بن هرمز الزاهد تابعي جليل أخذ القراءة عن أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهما وغيرهما، وأخذ عنهم كثيرون (117هـ) غاية النهاية في طبقات القراء (168/1) طبقات الحفاظ (6/1)  
<sup>2</sup> - تقدمت ترجمته.

الزفاف، وهي حزينه مغمومة خوف الفضيحة. وكان أبو أمامة يعيب على الرجل بكاءه في المسجد بحضرة الناس. قاله الشعراي<sup>(1)</sup>.

وقال أبو الوليد الطيالسي<sup>2</sup>: سمعت مالكا يقول: من أحب أن يفتح الله له قريحة قلبه فليكن عمله في السر أكثر منه في العلانية. قال بعضهم: هذا موافق لحديث: «من أخلص لله أربعين صباحا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه؛ لأن عمل السر منعوت بالإخلاص، وعن الإخلاص تنبع الحكمة»<sup>3</sup>.

وقال إبراهيم النخعي<sup>(4)</sup>: لو أن عبدا اكتتم بالعبادة كما يكتتم بالفجور لأظهر الله تعالى ذلك منه.

قلت: وصى بعض أسلافنا صديقا له فقال: أوصيك بثلاث خصال: واحدة لدنياك وواحدة لآخرتك، وواحدة لهما؛ فأما التي لدنياك فهي: أن البهيمة الثارية في ماشيتك فلا تهبها ولا تبعها، فإنها بركة المال. وأما التي لآخرتك فهي أن يكون لك سر مع الله، وخبيثة لا يطلع عليها إلا الله تعالى. وأما التي لهما: بأن تعتمد إلى أخ صالح ناصح، وتتخذة رقيقا على نفسك وراعيًا، يصرك بعيوبك، ويرشدك لمصالحك دينا ودنيا. وذلك لأن الإنسان كائنا من كان؛ لا يرى عيوب نفسه غالبا، وإنما يراها أصحابه لحديث: «المؤمن مرآة المؤمن»<sup>(5)</sup>. فالمرء لا ترى نفسها وترى غيرها. وكذلك المرء؛ يرى عيوب غيره ولا يرى عيوب نفسه لغلبة الهوى ولحبهته لنفسه. قاله الشعراي.

(1) انظر تنبيه المغترين: (25).

<sup>2</sup> - هو هشام بن عبد الملك الباهلي (مولاه) البصري الحافظ أركان الحديث سمع الحمادين وابن زيد وأبي سلمة وحدث عنه جماعة منهم إحمد ابن حنبل (ت 227) عن 94 سنة. انظر طبقات الحنابل (158/1) والعبر في خبر من غير (75/1)

<sup>3</sup> - أورده في الجامع الصغير (144/2) وعزاه لأبي نعيم في الحلية ولفظه: «أربعين يوما» بدل "صباحا" ..

(4) هو إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الاسود، أبو عمران النخعي، من مذحج: من أكابر التابعين صلاحا وصدق رواية وحفظا للحديث. من أهل الكوفة. مات محتفيا من الحجاج. قال فيه الصلاح الصفدي: فقيه العراق، كان إماما مجتهدا له مذهب. ولما بلغ الشعبي موته قال: والله ما ترك بعده مثله. توفي 96هـ. انظر طبقات القراء: (29/1).

(5) أخرجه الطبراني في الأوسط (325/2)، رقم (2114)

## فصل

التصوف وهو علم يعرف به كيفية التخلص من عيوب النفس (فَرَضُ عَيْنٍ) وذلك لأن الإنسان لا يسلم غالبا من دواعي الشر: كالرياء والعجب، والكبر، والحسد، وغيرها. وتعلم ما يتخلص به من هذه الدواعي واجب.

وقال الغزالي: وكيف لا يجب؟ وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ثلاث مهلكات»<sup>1</sup>... الحديث. والإنسان لا ينفك عنها وعن غيرها من عيوب النفس.

قال الغزالي: معرفة حدودها وأسبابها، وطبها وعلاجها: فرض عين<sup>2</sup>.

وقال غيره: إن رزق المكلف قلبا سالما من أمراض القلب المحرمة كفاه ذلك، ولا يلزم تعلم دوائها. فإن لم يسلم ونظر فيها فإن تمكن من تطهير قلبه من ذلك بلا تعلم لزمه التطهير كما يلزمه ترك الرياء ونحوه من غير تعلم أدلة الترك، وإن لم يمكن الترك إلا بتعلم العلم المذكور تعين حينئذ.

قال المناوي: وأول مهم على المكلف بعد التوحيد: السعي في طهارة نفسه من الأخلاق الردية.

قال في شرح شهية السماع: علاج أمراض القلوب واجب، والغفلة عن الواجب معصية بإجماع وقد حكى شيخنا الإجماع على وجوب علاجها حتى تحمد حركتها؛

<sup>1</sup> - هذا الحديث أورده في الجامع الصغير (الفتح الكبير بضم الزيادة إلى الجامع الصغير) (46/2) ولفظه: «ثلاث مهلكات وثلاث منجيات، وثلاث كفارات، وثلاث درجات؛ فأما المهلكات فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه. وأما المنجيات: فالعدل في الغضب والرضى، والقصد في الفقر والغنى، وخشية الله تعالى في السر والعلانية. وأما الكفارات فانتظار الصلاة بعد الصلاة وإسباغ الوضوء في السبرات ونقل الأقدام إلى الجماعات. وأما الدرجات: فإطعام الطعام، وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام» عزاه في الجامع الصغير للطبراني في الأوسط.

<sup>2</sup> - انظر كلامه في منهاج العابدين عن النفس (ص26).

وذلك من باب: مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب. ثم قال: فلا يقال: لو كان علاجها واجبا لوضع السلف فيها كتباً كما فعلوا في أحكام الدين. لأننا نقول: إنما ظهرت بعدهم، ولو ظهرت في عصرهم لاستنبطوا لأهلها الدواء الذي يخرجهم من تلك الكبائر التي توعد الله عليها بالنار ولا يقول عاقل أن أحداً من السلف يقر أحداً على ما رأى فيه من كبر أو غيره، حاشاهم من ذلك<sup>1</sup>.

قال القشيري: أول ما حدثت هذه الأمراض الباطنة أواخر المائة الثالثة لحديث: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»<sup>2</sup>.

فيجب على كل من غلب عليه مرض منها أن يعالجه بشيئين: ملازمة التوحيد وملازمة أركان الطريق التي أشار إليها بقوله: (و) من (أركانها): المعدودة هنا سبعة:

## اركان التصوف

(العزلة) بضم العين كذا ضبطها القسطلاني<sup>(3)</sup>، وبدأ بها؛ لأن التصوف: هو مداواة أمراض الباطن، وأبلغ دوائها وأنفعه العزلة. قاله ابن عباد.

وهي: التفرد عن الناس بالمعنى، ولو كان معهم بالشخص، واعتزال الشر وأهله

---

<sup>1</sup> - شهية السماع (ص91) مخطوط في الزاوية.

<sup>2</sup> - أخرجه البخاري في كتاب الشهادات برقم (2651-6428-6695) ومسلم برقم (6469) بلفظ: «خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» قال: عمران: لا أدري أذكر النبي ﷺ بعد قرنين أو ثلاثة. قال ﷺ: «إن بعدكم قوما يخونون ولا يؤمنون، ويشهدون ولا يستشهدون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن. وفي إحدى الروايات «خير أمتي قرني».

<sup>(3)</sup> هو أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين: من علماء الحديث. مولده ووفاته في القاهرة. له (إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري - ط) عشرة أجزاء. و (المواهب اللدنية في المنح المحمدية - ط) في السيرة النبوية، و (لطائف الاشارات في علم القراءات - خ) و (الكثر في التجويد، و (شرح البردة) سماه (مشارك الانوار المضية - خ). توفي 923هـ. انظر البدر الطالع: (102/1).

بأنقلب والعمل، وإن كان بين أظهرهم، ويشهد له حديث ابن عمر: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي يخالطهم ولا يصبر على أذاهم<sup>(1)</sup>». وقد يراد بالعزلة الخلوة بالشخص ليسلم من ذنوب المخالطة، ومن مسارقة الطباع الرديئة، ويصون دينه ونفسه عن التعرض للخصومات وأنواع الشر، ويجتمع بها هم، ويقوى في ذات الله عزمه، وليسلم الناس من شره، وليسلم له دينه، ويسلم من الفتنة كما يأتي إن شاء الله في فوائد العزلة. وهي سنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وهي أرفع الأحوال؛ لأنها الحالة التي أختارها لنبيه عليه السلام في بداية أمره. قال تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ وهي تكون مرة في الجبال، ومرة في السواحل والرباط، ومرة في البيوت. وفي الخبر: إذا كانت الفتنة فأخف مكانك، وكف لسانك، ولم يخص موضعاً دون موضع.

**فائدة:** وفي الدرر الجوهري شرح الحكم وغيرها: قال بعض الكاملين: الخلوة أخص من العزلة، وهي نوع من الاعتكاف، ولكن لا بالمسجد وربما كانت به، وأكثرها عند القوم لا حد له، لكن السنة تشير للأربعين كمواعدة موسى عليه السلام. وفي الحديث: «من أخلص لله أربعين يوماً تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه<sup>(2)</sup>». والقصد في الحقيقة إلى الثلاثين، إذ هي أصل المواعدة. وجاور عليه السلام بجراء شهراً. وقد اعتزل نساءه شهراً، وشهر الصوم واحد. وزيادة القمر ونقصانه كالمرید في سلوكه، وأقلها عشرة لا اعتكافه عليه الصلاة والسلام العشر. والخلوة للكامل زيادة في حاله ولغيره ترقية. ولا بد من أصل يرجع إليه، والقصد بها تطهير القلب من أدناس المخالفة، وإفراد القلب بذكر واحد، وحقيقة واحدة، لكنها بلا شيخ مخطرة ولها فتوح عظيمة قد لا تصلح لقوم فليعتبر كل واحد بما حاله. انتهى.

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (127/7)، رقم (9730)

(2) أخرجه ابن عدي (307/5) بلفظ: "من زهد في الدنيا أربعين يوماً وأخلص فيها العبادة أجرى الله على لسانه ينابيع الحكمة

من قلبه".

وأجمعوا على أنه لا بد للمريد في بداية أمره من العزلة بشرطها. ثم في انتهائه من الخلوة لتحقيقه بأنسه.

### حكم العزلة شرعا

ثم لما كانت العزلة ربما تحب وربما تحرم بحسب الحال والإمكان أشار لذلك بقوله: (وَكُجِبُ) العزلة (إِنْ خَافَ) المرء (عَلَى دِينِهِ وَ) تحب أيضا عليه (فِي الْفِتَنِ) أي عند ظهور الفتن وفساد الناس ولذلك يكره التبدي إلا في الفتن، وحين يفر بالدين.

الثعالبي: ولا يعترض على هذا يبدو يعقوب عليه السلام؛ لأن ذلك لم يكن في أهل عمود، بل كان ينزل في منازل وربوع، وأيضاً: إنما جعله بدواً بالإضافة إلى مصر كما هي في بنات الحواضر بدو بالإضافة إلى الحواضر. وفي الأحاديث ما يدل على وجوب العزلة عند الفتن والخوف على الدين.

وروي من طريق عمرو بن العاص قال: بينا نحن جلوس حول رسول الله ﷺ إذ ذكر الفتنة فقال: «إذا رأيتم الناس مرجت عهودهم، وخفت أمانتهم وكانوا هكذا وشبك بين أصابعه، فقلت ما أصنع عند ذلك جعلني الله فداك؟ قال الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف ودع ما تنكر وعليك بأمر الخاصة، ودع عنك أمر العامة<sup>(1)</sup>».

وفي الحديث: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعب الجبال ومواقع القطر، وفرّ بدينك من الفتن»<sup>2</sup>. رواه البخاري.

وروى البيهقي في الزهد من طريق أبي هريرة مرفوعاً: «يأتي على الناس زمان لا

(1) أخرجه أبو داود (124/4 ، رقم 4343) ، والطبراني (9/13 ، رقم 4)

<sup>2</sup> - أخرجه البخاري، كتاب الإيمان برقم (19) عن أبي سعيد الخدري. وأخرجه في عدة مواضع من صحيحه.

يسلم لذي دين دينه إلا من هرب بدينه من شاهق إلى شاهق، ومن جحر إلى جحر، وإذا كان ذلك الزمان لم تُتل المعيشة إلا بسخط الله، فإذا كان ذلك كذلك كان هلاك الرجل على يد زوجته وولده، فإن لم تكن له زوجة ولا ولد، كان هلاكه على يدي أبويه، فإن لم يكن له أبوان كان هلاكه على يدي قرابته أو الجيران. قالوا: كيف ذاك يا رسول الله؟ قال: يعيرونه بضيق المعيشة، فعند ذلك يورد نفسه الموارد التي يهلك بها نفسه<sup>(1)</sup>».

وذكر في خبر آخر للحارث بن عميرة<sup>2</sup> أنه قال: «إن يرفع من عمرك فسيأتي عليك زمان كثير خطباؤه، قليل علمائهم، كثير سؤاله، قليل معطوه، الهوى فيه قائد العلم. قيل: ومتى ذلك؟ قال: إذا أميتت السنة، وقبلت الرشا وبيع الدين بعرض يسير من الدنيا، فالتجنا ويحك ثم التجنا<sup>(3)</sup>».

قال الغزالي: وجميع ما ذكره في هذه الأخبار تراه بعينك في زمانك وأهلك فانظر نفسك، ثم إن السلف أجمعوا على التحذير من زمانهم وأهله وآثروا العزلة، وأمروا بذلك، وتواصوا به، ولا شك أنهم كانوا أبصر وأنصح، وأن الزمان لم يصبر بعدهم خيرا مما كان، بل أشر وأمر. وذكر عن يوسف بن أسباط قال: سمعت الثوري يقول: والله الذي لا إله إلا هو لقد حلت العزلة في هذا الزمان.

قال الغزالي: قلت أنا ولئن حلت في زمانه ففي زماننا هذا قد وجبت وافترضت<sup>4</sup>.

قال الشعرائي: معنى حلت: وجبت. كما في حديث: «فقد حلت له شفاعتي يوم

(1) انظر الزهد الكبير للبيهقي: (183/1).

<sup>2</sup> - هو أبو عمير البصري نزيل مكة، وثقه الجمهور، وفي أحاديثه مناهج ضعفها الأزدي وابن حبان وغيرهما. توفي بعد المائة. انظر تقريب التهذيب (ص 87).

(3) البخاري في الأدب المفرد (1/275، رقم 789)، والبيهقي في شعب الإيمان (4/258، رقم 5000).

<sup>4</sup> - الحديث وما معه من كلام القوم بما فيه كلام سفيان بن عيينة والثوري ينظر هذا كله في منهاج العابدين (ص 17).

القيامه<sup>(1)</sup>». أي وجبت. فقد وصى ﷺ عند فساد الزمان بال عزلة وكسر السيوف، واتخاذها من العراجين والخشب. (إِنْ عَجَزَ عَنْ إِزَالَتِهَا وَإِلَّا) بأن يكون قادرا على إزالة الفتن (حَرُمَتْ) عليه العزلة حينئذ وتجب عليه الخلطة عينا أو كفاية بحسب الحال والإمكان (وإن اتفقا) أي انتفت الفتن والخوف على الدين.

(فَهَلْ الْأَفْضَلُ) حينئذ (الْخُلُطَةُ) كما عند الشافعي وكثير من التابعين والفقهاء (لَا كِتَابَ فَوَائِدِهَا) أي الخلطة، التي هي آفات العزلة؛ من تعلمه، وتعليمه، وعبادته، وأدبه، وتأديبه، ونفع وانتفاع، وإيناس واستئناس، وتحسين خلقه بحلم واحتمال، وتواضع، ومعرفة أحكام لازمة، وتكثير سواد المسلمين، وعيادة مريضهم، وتشجيع جنائزهم وحضور الجمعة والجماعة (أَوْ) الأفضل (الْعُزْلَةُ) وهو مختار معظم علماء الآخرة. قاله الغزالي. ثم قال: والمختار أن أغلب الناس محتاجون إلى العزلة بعد الخلطة لاكتساب فوائدها أيضا.

وفوائد العزلة كثيرة. منها: سلامته هو خصوصا، وسلامة الناس من شره عموما.

ومنها: التخلص من الذنوب التي يتعرض لها بالمخالطة، كالغيبة والنميمة وسماعهما، والسعاية والمخاصمة، والمسارقة للطبائع الرذيلة، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ أي لعدم وجوبهما عليه لأنه لا يرى المنكر، ولا يعلم المعاصي كلها بين اثنين، والواحد منها أسلم غالبا، والمداينة والرياء والتصنع للخلق. فإنهم يشغلون المرء عن العبادة حتى لا يكاد يحصل له منها شيء ويفسدون عليه ما حصل له حتى لا يكاد يسلم له منها شيء.

ومنها: أنه يصون بها دينه ونفسه عن التعرض والفتن والخصومات وأنواع الشر.

(1) أخرجه أحمد (3/354، رقم 14859)، والبخاري (1/222، رقم 589)، وأبو داود (1/146، رقم 529)



ومنها: أنه ينقطع بها طمعه عن الناس ويحصل له منهم اليأس وذلك من أعظم فوائدها وينقطع طمعهم عنه وعتبهم عليه.

ومنها: التفرغ للعبادة والتخلص من مشاهدة الثقلاء والحمقاء.

ومنها: أنه ينكف بها بصره عن ما لا يحل من العورات وعن النظر إلى زينة الدنيا، فيتخلص من سمها، ومن منافسة أهلها.

قال أبو القاسم القدسي: فأرباب المجاهدات إذا أرادوا صون أنفسهم عن الخواطر الرذيلة لم ينظروا إلى المستحسنات.

ومنها: أنه يجتمع بها همه، ويقوى في ذات الله عزمه، ويعمل بما يهمله، ويأنس بدوام ذكره.

ومنها: أنه يسلم من الاعتراض بقلبه على الناس إذا عصوا، إلى غير ذلك من فوائدها.

### شروط العزلة

ثم ذكر للعزلة شروطاً خمسة، متى اجتمعت كان ذلك محل الخلاف المتقدم، أشار لأولها بقوله: (إِنْ أَفَادَتْ فِكْرَةً) في عجائب صنع الله لتحصل له المعرفة، فكلما أكثر التفكير كثرت المعارف؛ لأن بحر المعرفة لا ساحل له، والإحاطة بكنه جلال الله محال، وكلما كثرت المعارف بالله تعالى وصفاته وأفعاله وأسرار مملكته وقويت كثر النعيم في الآخرة، وعظم كما أنه كلما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن. وسعة ملك العبد في الجنة بحسب سعة معرفته بالله، وبحسب ما يتجلى له من عظمة الله تعالى وصفاته وأفعاله.

قال الغزالي: والفكرة أيضا فيما يقربه من الله فيأتيه، وفيما يبعده منه فيجتنبه. أو فيما سلف من ذنوبه فيستغفر منه، وفيما سبق من حسن عمله فيشكره، وفي شدة عذاب الله فيترك المعاصي وفي رحمته فيشمر للطاعة، فالفكر في الخير يدعو إلى العمل به والندم على الشر يدعو إلى تركه.

وقال بعضهم: كل عزلة لا تصحبها فكرة فإلى الحق مآلها.

وقوله: "إن أفادت فكرة": احتراز عن الذي تأخذه فرسان الشياطين وتسلبه قطاع النفس إذا انعزل. فالأفضل له: الصبر على مشقة الصحبة، والالتجاء إلى حصن جلال الله تعالى. وقال الغزالي: وإن كانت الوسوس في العزلة تجاذبك إلى ما لا يرضاه الله ولم تقدر على قمعها بوظائف العبادات فعليك بالنوم فإنه أحسن أحوالك وأحوالنا إذا عجزنا عن الغنيمة رضىنا بالسلامة في الهزيمة وأخس بحال من سلامة حياته في تعطيل حياته؛ إذ النوم أخ الموت، وهو تعطيل الحياة والتحاق بالجمادات.

وقال سيدي زروق: الفكرة هي استعمال القوة في طلب العلم من وجهه بطريقة.

وقال الغزالي: الفكر: هو إحضار معرفتين في القلب لتستمد منها معرفة ثالثة. مثال ذلك: أن يعرف أن الأبقى أولى بالإيثار، ثم يعرف أن الآخرة أبقى فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهي: أن الآخرة أولى بالإيثار. وإحضار المعرفتين السابقتين للتوصل إلى الثالثة يسمى تفكرا، واعتبارا، ونظرا، وتدبرا. إلى أن قال: وثمره الفكر العلوم والأحوال، والأعمال فإذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب من حب الدنيا والميل مثلا إلى الزهد، والإقبال على عمل الآخرة. وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح فالعمل تابع الحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر. فالفكر إذا هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها، وهذا هو الذي يكشف لك عن فضيلة التفكير، فإنه خير من الذكر والتذكر؛ لأن في الفكر ذكرا وزيادة. وذكر القلب خير من عمل الجوارح، بل شرف

العلم بما فيه من الذكر، فإذاً التفكير أفضل من جملة الأعمال ولذلك قيل: تفكر ساعة خير من عبادة سنة.

قال السري السقطي: ما هو إلا أن تحمل أطناب خيمتك وتجعلها في الآخرة. وقال الحسن: من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو. وقيل لأم الدرداء: ما كان عمل أبي الدرداء؟ قالت التفكير. وقال الحسن: الفكرة مرآة تريك حسنك من سيئك. وقال ابن عباس رضي الله عنه: ركعتان مع تفكر وتدبر خير من قيام ليلة كاملة، والقلب ساه عن الله تعالى.

قال الشعراوي: والمراد بالتفكر هنا: تفكر في الآداب المتعلقة بحضرة الله تعالى لا التفكير في استنباط الأحكام، فإن الصلاة ليست بمحل لذلك. انتهى.

وقال كعب الأحبار: من أراد أن يبلغ شرف الآخرة فليكثر التفكير.

وأخذ أبو سليمان الداراني قدحاً ليتوضأ لصلاة الليل، فأدخل أصبعه في أذن القدح فأقام كذلك متفكراً حتى طلع الفجر. فقيل له: ما هذا؟ فقال: إني لما طرحت أصبعي في أذن القدح تذكرت قوله تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ وتفكرت في حالي كيف أتلقى الغل إن طرح في عنقي يوم القيامة فمازلت في ذلك حتى أصبح.

وهذه نهاية الخوف، وخير الأمور أوسطها، وليس علماء الأمة الذين هم الحجة على هذا المنهاج. وقراءة معاني القرآن والحديث لمن يفهم ويرجى نفعه أفضل من هذا لكن يحسن أن لا تخلو البلاد من مثل هذا، قاله ابن عطية<sup>(1)</sup>.

(1) انظر المهرر الوجيز: (1/593).

وعن بعضهم: كنت باثنا في مسجد الأقدام بمصر وسهرنا للصلاة، ورأيت رجلا مضجعا إلى الصباح، ثم صلى أصبح بغير وضوء فاستعظمت منه ذلك فخرج وهو ينشد:

مَسَحَّى الْجَسْمِ غَائِبٌ حَاضِرٌ مُنْتَبِهٌ الْقَلْبِ صَامِتٌ ذَاكِرٌ  
مُنْبَسِطٌ فِي الْغُيُوبِ مُنْقَبِضٌ كَذَاكَ مَنْ كَانَ عَارِفًا ذَاكِرٌ  
يَبِيتُ فِي لَيْلِهِ أَخَا فِكْرٍ فَهُوَ مَدَى اللَّيْلِ نَائِمٌ سَاهِرٌ

قال: فعلمت أنه يعبد الله بالتفكير.

قال الفخر: دلت الآيات على أن أعلى مراتب الصديقين التفكير<sup>(1)</sup>. قال مالك: وهو من الأعمال وهو من اليقين.

ابن رشد: وهو من أشرف الأعمال؛ لأنه من أعمال القلوب. التي هي أشرف الجوارح، ألا ترى أنه لا يثاب أحد على عمل إلا مع مشاركة القلوب لها بإخلاص النية.

والفكر يجري في أربعة أنواع: معاص، وطاعات، وصفات مهلكات، وصفات منجيات. أما المعاصي: فينبغي للعبد أن يفتش صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلا، ثم بدنه على الجملة، هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها، أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم. أو هو متعرض لها بنهاره فليستعد للاحتراز والتباعد منها. وأما الطاعات: فليُنظر أولا في الفرائض كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان؟ والتقصير. أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل ثم يتفكر في أفعال كل عضو.

وأما المهلكات: فإن ظن أن قلبه متره عنها فيتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلامات. فإن النفس أبدا تعد بالخير من نفسها وتختلف.

(1) انظر التفسر الكبير: (9/112).

وأما المنجيات: فيتفكر كل يوم في قلبه ما الذي يفوته من هذه الصفات المقربة إلى الله تعالى.

وقال ابن عباد: بالفكرة يصل إلى معرفة حقائق الأشياء ويتبين الحق من الباطل، والنافع من الضار. ويطلع بها أيضا على خفايا آفات النفس ومكائد العدو، وغرور الدنيا ويتعرف بها وجود الخيل في التحرز منها. والطهارة منها، ويطلع بها على عظمتها تعالى وجلاله إذا تفكر في آياته ومصنوعاته، وعلى آلائه ونعمائه الجليلة والخفية فيستفيد بذلك أحوالا سنوية يزول بها مرض قلبه، ويستعين بسببها على طاعة ربه. انتهى.

وقال في الدرر الجوهري في شرح الحكم العطائية: ولل فكرة: ابتداء ووسط وغاية:

فالابتداء: استعمالها في تذكر التبعات، ورد الظلمات، وتذكر أفعاله القبيحة، ليندم ويعزم على أن لا يعود؛ لأن من لا توبة له لا عمل له. وإن عمل من البر ما عمل. والوسط: التفكير في إنعام الله تعالى بالوجود على الوجود. والغاية: التفكير في دقائق المعارف الربانية، والعلوم الدنية التي بها يلج القلب حضرة القدس، ويخلع عليه فيها خلعة الأنس، حيث المشاهدة والمفاتيح، والمواجهة والمطالعة والمكاملة، والمنادمة بلذيد الخطاب عند رفع الحجاب. انتهى.

والجمع بين حديث: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة<sup>(1)</sup>». وحديث: «تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة<sup>(2)</sup>». أن الأول التفكير في الموت وما بعده. والثاني: التفكير في الأمور الرفيعة؛ كالسما والارض والعرش والكرسي، وسائر العوالم، وفي قدرة الله تعالى وإرادته وتعلقهما بالممكنات، وفي علمه وتعلقه بكل موجود ومعدوم، وغمر ذلك من

(1) أخرجه أبو داود في المراسيل (231/1)، رقمه: 298.

(2) أخرجه ابن عساکر (149/47).

عجائب المخلوقات. ولا شك أن التفكير في هذه الأشياء أعلى وأفضل من التفكير في الموت وما بعده، فالتفكير فيه إن كان عاليا فيضاعف ثوابه، وإن كان أدنى فآدنى. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾. وفي الحديث: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»<sup>(1)</sup>. وروي: «ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأملها».

وكان الرجل من بني إسرائيل إذا عبد الله ثلاثين سنة أظلمته سحابة فعبد الله فتي من فتيانهم فلم تظله سحابة، فقالت له أمه: لعلك فرطت منك فرطة، فقال: ما أذكر شيئا. قالت: لعلك نظرت مرة إلى السماء فلم تعتبر. قال: لعل ذلك. قالت: فما أوتيت إلا من ذلك. وفي بعض الأخبار أن من نظر في النجوم وتفكر في عجائبها وفي قدرة الله تعالى وقرأ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ الآية. كتب له بعدد كل نجم في السماء حسنة.

وقيل: لا تفكر في ثلاث: في فقرك فيكثر همك وغمك ويكثر حرصك، ولا في ظلم من ظلمك فيغلظ قلبك ويكثر حقدك ويدوم غيظك، ولا في طول البقاء في الدنيا فتحب الجمع وتضيع العمر وتسوف العمل.

قال مكحول: من آوى إلى فراشه ينبغي أن يتفكر فيما صنع في يومه، فإن عمل خيرا حمد وإلا استغفر ورجع من قريب فإن لم يفعل ذلك كان كالتاجر الذي ينفق ولا يحسب حتى يفلس ولا يشعر.

ولثانيها بقوله: (وَلَمْ يَصْبِرْ عَلَى أَذَى النَّاسِ) عند مخالطتهم ولم يقدر على الصمت والسلامة من غائلة اللسان، فيؤمر بالعزلة حينئذ، إذ لا يتوصل إلى الواجب الذي هو ترك المحرمات إلا بها.

(1) رواه ابن حبان في صحيحه في النوع السابع والأربعين من القسم الخامس من حديث عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء. انظر تخريج الأحاديث الواردة في الكشف للزمخشري: (260/1).

ولثالثها بقوله: (وَلَمْ يَتَرَفَّعْ بِهَا) على الناس، وأما إن ترفع بها وتكبر على الناس بأن يلجئه إلى اعتزال الناس خوف ابتذاله وإهانتته بكثرة الملاقات وطلب المحبة، والتعظيم بطول الغيبة في الخلوات فذلك كبر وطلب للرياسة. وإنما الواجب أن يرى نفسه حية أو كلبا عقورا أو نجاسة يهرب بها ستر لعيبه، وكفاية المسلمين من شره.

ولرابعها بقوله: (وَلَمْ يَحْتَجْ) هو إلى غيره في الضرورة وديننا وديننا.

ولخامسها بقوله: (وَلَمْ يَحْتَجْ إِلَيْهِ) في ذلك في بيان حق، أو رد على مبتدع، أو دعوة إلى خير يفعل، أو قول، أو تعليم علم نافع، ونحو ذلك (وَالْإِلَّا) بأن اختل شرط واحد أو أكثر من شروط العزلة الخمسة. (تُدْبِتُ الْخِلْطَةَ) والصبر على مشقتها والالتجاء إلى حصن جلال الله تعالى (فِي الْأَوَّلَيْنِ) أي عند انتفاء الشرطين الأولين. وانتفاء الأول أن لا تفيده العزلة الفكرة بأن تأخذه فرسان الشياطين وقطاع النفس إذا انعزل. وانتفاء الثاني: أن تكون له قدرة على صبر أذى الناس. أما في الأول فإنما أمر بالخلطة ليسلم من الشياطين. وإما في الثاني: فلحديث ابن عمر: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي يخالطهم ولا يصبر على أذاهم». رواه البخاري في الأدب وغيره<sup>(1)</sup>. ورواه داود الطائي<sup>(2)</sup> عن الأعمش<sup>(3)</sup> عن يحيى بن وثاب<sup>(4)</sup>

---

(1) البخاري في "الأدب المفرد" (388)، والترمذي (2507)

(2) تقدمت ترجمته.

(3) هو سليمان بن مهران الاسدي بالولاء، أبو محمد، الملقب بالأعمش: تابعي، مشهور. أصله من بلاد الري، ومنشأه ووفاته في الكوفة. كان عالما بالقرآن والحديث والفرائض، يروي نحو 1300 حديث، وكان رأسا في العلم النافع والعمل الصالح. قال السخاوي: قيل: لم ير السلاطين والملوك والاعنياء في مجلس أحقر منهم في مجلس الأعمش مع شدة حاجته وفقره. توفي 148هـ. انظر الوفيات: (213/1).

(4) هو يحيى بن وثاب الاسدي بالولاء، الكوفي: إمام أهل الكوفة في القرآن. تابعي ثقة. قليل الحديث. من أكابر القراء. له خبر طريف مع الحجاج: كان يحيى يوم قومه في الصلاة، وأمر الحجاج أن لا يؤم بالكوفة إلا عربي ا فقيل له: اعتزل، فبلغ الحجاج، فقال: ليس عن مثل هذا هيت، فصلى بهم يوما، ثم قال: اطلبوا إماما غيبي إنما أردت أن لا تستذلوني فإذا صار الامر إلي فلا أؤمكم!. توفي 103هـ. النجوم الزاهرة: (299/11).

عن ابن عمر<sup>(1)</sup> عن النبي ﷺ. وليغتنم أيضا ما في إذاية الناس من الفضل كما يأتي في مبحث فضل الناس إن شاء الله تعالى. وليغتنم أيضا فوائد الخلطة المتقدمة. ثم ذكر لندبية الخلطة هنا شرطا أشار إليه بقوله: (إِنْ سَلِمَ مِنْ آفَاتِهَا) كالذنوب التي يتعرض لها بالمخالطة. كالرياء والعجب والتصنع والغيبة والمداهنة، والفن في دينه، ونفسه إلى غير ذلك مما تقدم.

### الخلطة بقدر الضرورة

(وَوَجَبَتْ) الخلطة (فِي الْبَوَاقِي) أي عند الباقي من الشروط، كما إذا لم يترفع بها، أو يحتاج هو إلى غيره في ضرورة علم نافع ونحوه أو يحتاج الناس إليه في ذلك، وإذا ندبت الخلطة أو وجبت عليه فإنه يجب عليه أن يختار من يخالطه (بِقَدْرِ الضَّرُورَةِ) أي في ما لا بد له منه. وتجب عليه العزلة عموما في ما فضل عن ذلك متحريا في مخالطته من يسلم معه دينه، وطالبا من المواضع ما هو أقرب إلى الخمول وأسلم للدين وأفرغ للقلب وأيسر للعبادة معتزلا عن الناس بالمعنى وإن كان معهم بالشخص منفردا عنهم بالقلب والعمل، وإن كان بين أظهرهم منقبضا عنهم غير تارك لجماعتهم مثل الفكرة إذا رأت الناس انقبضت وأدخلت يديها ورجليها وإذا وجدت الخلوة انبسطت، وناصبا نفسه إذا احتيج إليه بين الخلق، ناصحا لهم ذابا عن دين الله. وفي الحديث: «إذا ظهرت البدع وسكت العالم فعليه لعنة الله.»<sup>2</sup>

وحكي أن الأستاذ أبا بكر بن فورك<sup>3</sup> هم بالعزلة فنودي: يا أبا بكر؛ إذ صرت من حجاج الله على خلقه تركت عباد الله فرجع وصحب الخلق.

(1) تقدمت ترجمته.

<sup>2</sup> - انظر منهاج العابدين (ص19) تجد الحديث وكلام أبو بكر بن فورك بعده مباشرة وكذلك كلام أبي إسحاق وما كتبه به بعض العباد لملك.

<sup>3</sup> - هو محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصماني، أبو بكر: واعظ عالم بالأصول والكلام، شافعي، مؤلفاته كثيرة نحو المائة توي بنيسابور 406هـ. انظر للتكميل: طبقات السبكي (53/3)، تاريخ بغداد (214/2).



وذكر مأمون بن أحمد<sup>1</sup> أن الأستاذ أبا إسحاق قال لعباد جبل لبنان: يا أكلة الحشيش تركتم أمة محمد ﷺ في أيدي المبتدعة هاهنا واشتغلتم بأكل الحشيش. قالوا: لا نقوى على صحبة الناس.

وروي أن بعض العباد كتب إلى مالك يحضه على الانفراد وترك مجالسة الناس. فكتب إليه مالك: إن الله قسم بين عباده الأعمال كما قسم الأوزاق. فرب رجل فتح له في كذا ولم يفتح له في كذا فعدد أشياء ثم قال: وما أظن ما أنت فيه بأفضل مما أنا فيه فكلانا على خير إن شاء الله تعالى.

وقال أبو العباس المرسى: والله ما جلست للناس حتى هددت بالسلب. وقيل لي: إن لم تجلس سلبنك ما وهبنك. ومما جاء في التأكيد على العزلة على الإجمال ما روي في الخبر أن العزلة عن الناس عافية<sup>2</sup>.

وفي الحديث: «قالوا: يا رسول الله؛ أي الناس أفضل؟ قال: من جاهد نفسه وماله. قال: ثم من؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ثم مؤمن يعتزل في شعب يتقي ربه ويدع الناس من شره» رواه الشيخان<sup>3</sup>.

وروي ابن أبي الدنيا في كتاب العزلة حديث: «إن أعجب الناس إليّ رجل يؤمن بالله ورسوله ويقوم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعمر ماله ويحفظ دينه، ويعتزل الناس<sup>(4)</sup>».

وعن سفيان الثوري: أنه كتب إلى عباد الخواص أما بعد: فإنك في زمان كان أصحاب رسول الله ﷺ يتعوذون بالله أن يدركوه فيما بلغنا، ولهم من العلم ما ليس لنا،

<sup>1</sup> - لعله المأمون بن أحمد العباسي، ينتهي نسبه إلى المأمون الخليفة، بغدادي واعظ له نظم حسن ونثر، كان فصيحا، حسن الإيراد (ت633هـ). انظر الأعلام (6/147).

<sup>2</sup> - انظر منهاج العابدين (ص:19) تجد كلام ابن فورك، وأبي إسحاق، وما كتب به بعض العباد لمالك.

<sup>3</sup> - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير برقم: (2634) ومسلم في كتاب الإمامة برقم (1888) عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه.

<sup>4</sup> (انظر العزلة لابن أبي الدنيا: (51/1).

فكيف بنا حين أدركناه على قلة علم، وقلة صبر، وقلة أعوان وكدر من الدنيا، وفساد من الناس؟ وإن عمر قال: في العزلة راحة من خلطاء السوء. ونقل عن سفيان بن عيينة أنه قال: قلت للثوري: أوصني. قال: قلل من معرفة الناس. قلت: يرحمك الله أليس قد جاء في الخبر «أكثرُوا من معرفة الناس فإن لكل مؤمن شفاعَة». قال: لا أحسبك رأيت قط ما تكره إلا ممن تعرف. قلت أجل. ثم مات، فرأيتُه في المنام فقلت يا أبا عبد الله أوصني قال: أقلل من معرفة الناس، فإن التحصن منهم شديد.

وقال الفضيل: هذا زمان أحفظ فيه لسانك، وأخف مكانك، وعالج قلبك وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر. وقال داود الطائي: فر من الناس فرارك من الأسد.

وقال سهيل: اجتمع الخير كله في هذه الخصال، وبها صارت الأبدال أبدالاً: إخماس البطون، والصمت، واعتزال الناس، وسهر الليل. وقال أيضاً: مخالطة الولي الناس ذلٌّ وتفرده عنهم عز فقلما رأيت ولياً لله تعالى إلا منفرداً. ولقد ذكر أن هرم بن حيان قال لأويس رضي الله عنهما: صلنا بالزيارة واللقاء قال أويس: قد وصلتكَ بما هو أنفع لك منهما وهو الدعاء عن ظهر الغيب؛ لأن الزيارة واللقاء يعرض فيهما التزُّين والرياء<sup>1</sup>.

وقيل لسليمان الخواص لما قدم إبراهيم بن أدهم رضي الله عنهما: أفلا تأتيه؟ فقال: لأن ألقى شيطاناً مارداً أحب إلي من لقائه. فاستكروا ذلك من قوله. فقال: لأنني إذا لقيتُه أخاف أن أتزين له، وإذا لقيت شيطاناً أمتنع منه. قال الغزالي: فهذا حال أهل الزهد والرياضة في ملاقاتهم فكيف حال أهل الرغبة والبطالة. بل حال أهل الشر والجهالة. قال: وأعلم أن الزمان قد أصبح في فساد كبير وأصبح الناس في ضرٍّ عظيم، فإنهم يشغلونك عن العبادة ويفسدون ما حصل لك منها فلزمتك العزلة والتفرد عن

<sup>1</sup> - هذا الكلام بلفظه في منهاج العابدين: ص: 18 وكذلك ما قبله وما بعده.

الناس، والاستعاذة بالله من شر هذا الزمان وأهله، والله تعالى الحافظ برحمته وفضله.  
وأنشدو:

عِشْ خَامِلَ الذِّكْرِ بَيْنَ النَّاسِ وَارْضَ بِهِ فَذَاكَ أَسْلَمٌ لِلدُّنْيَا وَلِلدِّينِ  
مَنْ عَاشَرَ النَّاسَ لَمْ تَسْلَمْ دِيَانَتُهُ وَلَمْ يَزَلْ بَيْنَ تَخْرِيكِ وَتَسْكِينِ

### فائدتان في الخلطة:

**الفائدة الأولى:** يحتاج من يخالط الناس إلى عدة أعين: عين ينظر بها إلى الحقوق المترتبة عليه في المخالطة فيستغفر منها، وعين ينظر بها إلى ما أنزل الله في قلوب الناس من تعظيمهم له فيشكر ويستغفر معا. وعين ينظر بها إلى حقارة نفسه في نفسه ليعطي التواضع حقه، وعين ينظر بها إلى المواضع التي يحصل للناس بسببها نقص في دينهم فيتركها. وعين ينظر بها إلى الحكمة الإلهية في المعاصي التي تقع ممن يخالطهم ليسلم من الاعتراض. قاله في شرح شهية السماع<sup>(1)</sup>.

**الفائدة الثانية:** قال الغزالي: ينبغي للمريد أن يلزم مكانه، إلا أن يكون قصده بالسفر استفادة علم، هذا إذا سلم له حاله في وطنه، وإن لم يسلم فليطلب من المواضع ما هو أقرب إلى الخمول وأسلم للدين، وأفرغ للقلب، وأيسر للعبادة، فهو أفضل المواضع في حقه. وفي الحديث: «البلاد بلاد الله والخلق عباد الله فأَيُّ المواضع رأيت فيه رفقا فأقم وأحمد الله تعالى»<sup>2</sup>. قال أبو نعيم: رأيت سفيان الثوري وجعل جرابه على كتفيه، فقلت إلى أين؟ قال: إلى موضع أملأ فيه جراحي بدرهم. وكان سفيان يقول: إذا سمعت بقرية فيها رُخص فاقصدها فإنه أسلم لدينك، وأقل لعمرك. وقال له رجل: إني عزمت على المجاورة بمكة. فقال: أوصيك بثلاث: لا تصلين بالصف الأول ولا تصحب قرشيا ولا

(1) انظر شرح شهية السماع: (68).

<sup>2</sup> - أخرجه أحمد في مسنده بلفظ: «البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فحيثما أصبت محم فاقم» (166/1) برقم: (1420) عن الزبير بن العوام. قال شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

تُشهرن صدقة. وإنما كره الصف الأول للشهرة، واعتقاد الفضل فيه، فيركن إلى ذلك فيحبط عمله. وقال داوود الطائي: ما خالط أحد الناس قط إلا نسي العهد. وقال: نازعتني نفسي إلى العزلة فقلت: حتى تجلس مع الناس سنة ولا تجيب في شيء فكنت أجالسهم فتجيب مسألة فأجد فيها من شهوة الجواب أكثر من شهوة العطشان إلى الماء البارد فلا أجيب، فلما مضت سنة اعتزلتهم. انتهى.

وقال الشاذلي: وليلازم أسماء النصره عند الدخول في الخلوة وهي: بسم الله، وبالله، ومن الله، وإلى الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون. وإن أردت سعة الصدر فيما يرد عليك من الضيق في العزلة فقل: حسبي الله آمنت بالله ورضيت بالله وتوكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، وقل في بعض مناجاتك وسؤالك: يا من وسع كرسيه السموات والأرض ولا يتوده حفظهما وهو العلي العظيم. رب أسألك الإيمان بحفظك إيماناً يسكن به قلبي عن هم الرزق وخوف الخلق، وأقرب مني بقدرتك قرباً تمحق به عني كل حجاب محقته عن إبراهيم خليلك. فلم يحتاج لجبريل رسولك ولا لسؤاله منك، وحجبته بذلك من نار عدوك، وكيف لا يحجب عن مضرة الأعداء من غيبته عن منفعة الأحياء، كلا، إني أسألك أن تغيبني بقربك مني حتى لا أرى ولا أحس ولا أبصر بقرب شيء ولا يبعده عني إنك على كل شيء قدير<sup>1</sup>.

وقال الشاذلي أيضاً: آفات العزلة أربع: تعلق النفس بالأسباب. وركون النفس إلى الجهة المخصوصة بالاكْتِسَاب، واكتفاء العقل بما يحصل له من الاقتراب وخطرات الشيطان بالأمان الصادة عن المرام. وآفاتهما في خواصهم أيضاً أربع: الاستئناس بالوسواس، والتحدث بالرجوع إلى الناس والتحديد في الوقت وهو من أمارات الإفلاس، وملاقات هواتف الحق على زعمه بالمعهود من الخواس. ولكل آفة سبيل في الجهاد بالرد إلى أصل التوجه والمعرفة والحمل على سبيل الاستقامة، فإذا عرض لك عارض من جهة التعلق بالأسباب، والركون إلى الجهة المخصوصة في الاكْتِسَاب فارجعها إلى أصل المعرفة

<sup>1</sup> - انظر المغاخر العلية (ص 62).

بالسوابق فيما قسم لها أو أجرى عليها، وقل لها اتخذت عند الله عهداً أنك لا ترزقين إلا بهذا السبب أو من هذه الجهة، وضيق عليها بالمعرفة، وأغرقها في بحر التوحيد. وقل: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. وكذلك قالوا: أغرق الدنيا في بحر التوحيد قبل أن تغرقك. وإن عرض لك عارض من جهة اكتفاء العقل بما حصل له من علم أو عمل، أو نور أو هدى أو خطاب بنجوى فلا تغفل عن السابقة أو الخاتمة، ولا بد من فعل الواحد المختار الذي يفعل ما يشاء لا يبالي بحسنة المقبل، ولا بسيئة المدبر، وإذا عرض لك عارض من خطرات العدو الصادة عن المراد بالدنيا والآخرة، أو من جهة الألفاف والأحوال والمنازل، فاعلم أنها صادة عن المراد، والمراد: العبودية المحضة، ووجود الحق بلا سبب من الخلق فالله تعالى يقتضي منك أن تكون له عبداً، وتحب أنت أن يكون لك ربا، فإذا كنت له عبداً من حيث يرضى كان لك ربا من حيث ترضى فلا يدعك لغيره، من طريق الحقائق، فكيف بالأمانى، وإذا عرض لك بما يشبه العلم من طريق الإلهام من حيث التوهم فلا تقبل، وارجع إلى الكتاب والسنة، واعلم أن الذي عارضك لو كان حقا في نفسه واعرضت عنه إلى حق بكتاب أو سنة لما كان عليك عتب بذلك لأنك تقول: إن الله قد ضمن لي العصمة في جانب الكتاب والسنة، ولم يضمنها لي في جانب الكشف والإلهام والمشاهدة. وإن عرض لك عارض بالتحدث بالرجوع إلى الناس لتعرض عليهم ما أنت فيه فأنت معهم لم تخرج عنهم بشيء ولا تغتر باعتزالك ظاهراً والقلب معهم، واهرب إلى الله تعالى، فمن هرب إليه آواه. انتهى كلام الشاذلي<sup>1</sup>.

وقال الشيخ محمد المنير<sup>2</sup>: قد غلط قوم فظنوا أن من اعتزل الناس خرج عن كونه إلفاً مألوفاً، والحال أنه أولى بمقام الألفة، لأنه إذا اعتزل الناس صفت نفسه واشتاق الناس

<sup>1</sup> - هذا الكلام كله في المفاتيح العلية في المآثر الشاذلية لابن عياد (ص 63-64) وقال في آخر كلامه: فاعلم هذا الباب وأتقنه جدا واستعن بالله وأصبر، إن الله مع الصابرين.

<sup>2</sup> - الشيخ محمد المنير أحد أصحاب سيد إبراهيم المبتولي، وهو الذي أمر بحفر بئر على الطريق. في خلاء حتى صارت عمارة كبيرة بعد ذلك وهو من أكابر الأولياء. وفي أخباره ومناقبه طول لا تسعه الهوامش. توفي نيفاً وثلاثين وتسع مائة. انظر طبقات الشمراني (130/2).

إلى رؤيته فألفوه أكثر من المخالط. وأصل الائتلاف إنما هو بالأرواح لخبر: «الأرواح جنود مجنّدة... الحديث»<sup>1</sup>.

ثم أشار إلى الركن الثاني من أركان التصوف بقوله: (و) منها أي من أركان التصوف: (التَّوْبَةُ) قال الواسطي<sup>(2)</sup>: كانت توبة بني إسرائيل بقتل النفس. قال تعالى: ﴿فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فتوبتهم إفناء نفوسهم وتوبة هذه الأمة أشد، وهي إفناء نفوسهم عن مرادها مع رسوم الهياكل ومثله بعضهم بمن أراد كسر لوزة في قارورة لكن ذلك يسير على من يسره الله عليه، وهي لغة الرجوع. (و) شرعا (هِيَ تَرْكُ ذَنْبٍ) في الحال (سَبَقَ) عنه (مِثْلُهُ اخْتِيَارًا) ولو لم يسبق عنه مثله لكان متقيا غير تائب منه، فالنبي ﷺ متق عن الكفر غير تائب منه إذ لم يسبق عنه كفر بحال. وعمر رضي الله عنه تائب عن الكفر لما سبق عنه ذلك وقوله: "سبق مثله": أي في المترلة والدرجة لا في الصورة، فيدخل الشيخ الفاني الذي سبق منه الزنى والسرقة، والمحبوب، والأشل، والأخرس إذا سبق منهم الزنى والقذف فتصح توبتهم إذا لم يغلق بابها لأنهم وإن كان تركهم للذنوب لا عن اختيار، لكنهم يقدرّون على ما هو مثل الزنى والسرقة والقذف وقطع الطريق في المترلة والدرجة كالقذف والغيبة والنميمة إذ جميع ذلك كله معاص وإن كان الإثم يتفاوت في كل واحدة لكن المعاصي الفرعية كلها مترلة واحدة. وهي دون المترلة البدعية، وهذه دون الكفر، فلذلك صح منه التوبة عن الزنى وقطع الطريق وسائر الذنوب التي هو عاجز عن أمثالها اليوم في الصورة. (تَعْظِيمًا لِلَّهِ) سبحانه و (تَعَالَى وَخَوْفًا) وحذرا (مِنْ) سخطه وأليم (عَذَابِهِ) مجردا لا لإضرارها ببدنه، أو لإخلالها بعرضه، أو

<sup>1</sup> - نص الحديث: «الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف. أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء عن عائشة برقم: (3336).

<sup>(2)</sup> هو أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن مسعود، عماد الدين الواسطي البغدادي ثم الدمشقي فقيه كان شافعيًا. وأقام بالقاهرة مدة خالط بها طوائف من المتصوفة فتصوف. وقدم دمشق فتلمذ لابن تيمية. وانتقل إلى مذهب ابن حنبل. ورد على المبتدعة الذين خالطهم. وكان يتقوت من النسخ ولا يكتب الا مقدار ما يحتاج إليه، وصنف كتبها رسالة (مفتاح طريق الاولياء وأهل الزهد من العلماء - خ) و (اختصار دلائل النبوة) و (شرح منازل السائرين) وله نظم. توفي بدمشق 771هـ. انظر الشذرات: (24/6).

حسبه، أو ماله، و لا لرغبة دنيوية، أو رهبتة من الناس، أو طلب ثناء أو صيت، أو ضعف في الناس أو فقر، أو غير ذلك.

قال السنوسي: أما تركها لخوف النار، أو طمعا في الجنة؛ هل يكون توبة ففيه تردّد مبني على أن ذلك هل يكون ندما عليها لقبحها؛ ولكونها معصية أم لا وكذا وقع التردّد في الندم عليها لقبحها مع غرض آخر. والحق أن جهة القبح إن كانت بحيث لو انفردت لتحقيق الندم؛ فتوبة. وإلا فلا كما إذا كان الغرض مجموع الأمرين لا كل واحد منهما وكذا وقع التردد في التوبة عند مرض مخوف بناء على أن ذلك الندم؛ هل يكون لقبح المعصية أم لا. بل للخوف كما في الآخرة عند معاينة النار. انتهى. (مَعَ النَّدَمِ) على المعصية لأجل قبحها، وألها معصية. ومعنى الندم حزن وتوجع على أن فعل وتعمي كونه لم يفعل.

ابن عرفة: هو تألم نفس الفاعل لكرهه لما فعل فمن ترك المعصية من غير ندم لا يكون تائباً شرعاً. قال أبو الجوزاء<sup>1</sup>: إن الرجل ليذنب الذنب فلا يزال نادماً حتى يدخل الجنة، فيقول إبليس: يا ليتني لم أوقعه فيه. (وَالنَّيَّةُ) على (أَنْ لَا يَعُودَ) إلى الذنب في المستقبل كما لا يعود اللبن إلى الضرع ويوطن نفسه ويجرد عزمه على ذلك البتة، ويعقد مع الله تعالى عقداً مؤكداً، أو يعاهده عهداً وثيقاً على ذلك. وأما إن ترك الذنب وفي نفسه أنه ربما يعود إليه أو تردد بأنه يقع له العود، فإنه ممتنع عن الذنب غير تائب منه. ولهذا تصح توبة الزاني المحبوب وغيره ممن تقدم لأن المراد العزم على الترك على تقدير القدرة حتى لو سلب القدرة لم يشترط العزم على الترك خلافاً لأبي هاشم في قوله: لا تنصور توبته وهو مردود بصحة توبة ذي مرض مخوف إجماعاً.

<sup>1</sup> - هو أوس بن عبد الله الربيعي بفتح الموحدة: أبو الجوزاء بالجيم والزاي، بصري، ثقة، يرسل كثيراً. (ت 183هـ) تقريب التهذيب (ص 55).

قال ابن عرفة: وفيه نظر لنفي الإمكان في المحبوب وثبوته في المريض. قاله السنوسي. (ورد المظالم) من مال وعرض ونفس وحرمة دين.

أما المال فيرده إلى أربابه إن وجدهم وإلا فإلى ورثتهم، فإن لم يكونوا تصدق به عنهم وإلا أكثر من الحسنات وإلا فيرجع إلى الله سبحانه بالتضرع والصدق ليرضي خصمه عنه، ويكون في مشيئة الله تعالى، والمرجو من فضله العظيم أنه إذا علم صدق العبد أرضى خصماءه عنه من خزائن فضله، ولا حكم عليه.

وأما العرض إن اغتبت أو بهته أو شتمته أو قذفته فلتستحله إن أمكنك ولم تخش زيادة وهيج فتنة في إظهار ذلك أو تجديده وتكذب نفسك بين يدي من فعلت ذلك عنده، وإن لم يمكن أو خشيت ذلك فلتكثر من الحسنات فيعطى في الآخرة حق من له عليك شيء وليسر ببعضها بينه وبين الله تعالى بكمال الإخلاص بحيث لا يطلع عليه إلا الله تعالى فعسى أن يقر به ذلك إلى الله سبحانه وتعالى، فينال به فضله الذي ادخره لعباده المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم كما رواه أنس. ويستحب أن يكثر من قول: اللهم من له حقٌ عليّ وعلى والدي فاغفر لي ولوادي وله ولوالديه، ثم الاستغفار الكثير لصاحبه، والثناء عليه والرجوع إليه سبحانه ليرضيه عنك.

وأما النفس: فإن كان القتل خطأ فتسليم الدية إلى المستحق، وإن كان عمداً فبالقصاص، فإن شاء وليُّ الدم عفا عنه، وإن شاء قتله لخبر: القصاص طهارة.

وقال إمام الحرمين: إن القاتل إذا ندم من غير تسليم نفسه للقصاص صحت توبته، وكان منعه القصاص من مستحقه معصية متجددة تستدعي توبة. فلا تقدر في التوبة عن القتل. وقيل: لا تصح. وهو مرجوح. ثم قال: وربما لا تصح التوبة بدون الخروج من حق العبد كما في الغصب فإنه لا يصح الندم عليه مع إدامة اليد على المغصوب ففرق بين القتل والغصب. انتهى.



ثم إنه إن استحلّه وأبى فعلية أن يتلطف به ويسعى في مهماته وأغراضه ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه. فإن الإنسان عبد الإحسان وكل من نفر بسيئة مال بحسنة. فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه سمحت نفسه بالاستحلال، فإن أبى إلا الإصرار فيكون تلطفه واعتذاره إليه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنايته، وليكن قدر سعيه في فرحه وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه في إيذائه حتى إذا قاوم أحدهما الآخر وزاد عليه أخذ ذلك عوضاً منه في القيامة بحكم الله تعالى له به عليه، كمن أتلّف في الدنيا مالا فجاء بمثله فامتنع من له المال عن القبول، وعن الإبراء فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض شاء أم أبى، وكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين. وأعدل المقسطين. وأما الحرمة: فإن خنته في أهله أو ولده أو نحوه، فلا وجه للاستحلال، والإظهار لأنه يولد فتنة وغيظاً، بل تضرع إلى الله تعالى ليرضيه عنك، ويجعل له خيراً كثيراً في مقابلته فإن أمنت الفتنة والهيج وهو نادر فيستحل منه. وأما في الدين: فإن كفرته أو بدعته، أو ضلّته؛ فهو أصعب الأمر فتحتاج إلى تكذيب نفسك بين يدي من قلت ذلك له، وأن تستحل من صاحبك إن أمكنك، وإلا فالابتهاال إلى الله تعالى بالتضرع والصدق ليرضيه عنك، وتكثر من الدعاء له بالرحمة والصلاح، وبالجملة فما أمكنك من إرضاء الخصوم عملت، وما لم يمكنك رجعت إلى الله تعالى بالتضرع والصدق ليرضيه عنك. ومن فضائل التوبة: أنها تغسل الذنوب، وترضي علام الغيوب. وفي الحديث: «من أحسن فيما بقي غفر له ما مضى، ومن أساء فيما بقي أخذ فيما مضى وما بقي»<sup>1</sup>.

وقال بعضهم: جملة ما على العبد وما يتعلق به عشر خصال واجبة عليه: أن لا يعصي الله، وأن لا يصبر على المعصية إن ابتلي بها، والتوبة إلى الله، والندم على ما فرط منه، وعقد الاستقامة على الطاعة إلى الموت، وخوف العقوبة ورجاء المغفرة، والاعتراف

<sup>1</sup> - أخرجه الطبراني في الأوسط رقم: (6998) (76/15) عن أبي ذر رضي الله عنه.

بالظلم، واعتقاده أن الله قدر ذلك عليه، وأنه عدل منه، ومتابعة الأعمال الصالحة  
لحديث: «أتبع السيئة الحسنة تمحها»<sup>(1)</sup> فإذا ن كل ساعة تمضي على العبد فهي بمنزلة هذه  
الساعة؛ قيمتها الدنيا كلها إذا عرف قيمة ذلك. ولذلك قيل: ليس لما بقي من عمر  
العبد قيمة إذا عرف وجه التقدير من الله ﷻ، بالتصريف والحكمة. قال بعضهم: لا  
تصح التوبة من عبد حتى ينسى شهواته، ويكون ذاكرة للحزن لا يفارق قلبه، ذاهبا عن  
الذنب لا يخالج سره.

وقال بعض علماء أهل الشام: لا يكون المريد تائبا حتى لا يكتب عليه صاحب  
الشمال معصية عشرين سنة. وقال بعضهم: من علامة صدق التائب في توبته؛ أن  
يستبدل بحلاوة الهوى حلاوة الطاعة، ويبدل ركوب الذنب بالحزن عليه والسرور بحسن  
الإنابة. وقال آخر: لا يكون تائبا حتى تدخل مرارة مخالفة النفس مكان حلاوة  
موافقتها.

### فوائد في التوبة

**الفائدة الأولى:** إنما أمرت بالتوبة لأمرين: أحدهما: ليحصل لك توفيق الطاعة فإن شؤم  
الذنب يورث حرمان الطاعة. ففي الحديث: «إذا كذب العبد تباعد الملكان عن نين ما  
يخرج من فيه»<sup>2</sup>. فكيف يصلح هذا اللسان لذكر الله تعالى؟ فلا جرم، لا يكاد يجد المصر  
على العصيان توفيقا، ولا تخف أركانه للعبادة وكل ذلك بشؤم الذنب وترك التوبة.  
ولقد صدق من قال: إذا لم تقوَ على صيام النهار وقيام الليل فاعلم أنك مكبول، فقد  
كبلتك خطيئتك. الأمر الثاني: إنما تلزمك التوبة لتقبل عبادتك فإن رب الدين لا يقبل  
الهدية وذلك أن التوبة عن المعاصي فرض لازم وعامة العبادة التي تقصدها نفل، فكيف

<sup>(1)</sup> أخرجه أحمد (153/5 ، رقم 21392) ، والترمذي (355/4 ، رقم 1987) وقال : حسن صحيح

<sup>2</sup> - أورده في الجامع الصغير (142/1) برقم: (1461) بلفظ: «إذا كذب العبد كذبة تباعد عنه الملك من نين ما جاء به». وعزاه للترمذي وهو فيه برقم (1972) عن ابن عمر. وأخرجه أبو نعيم في الحلية كذلك.

يقبل منك تبرعك والدين عليك حالاً، ولم تقضه فكيف تترك لأجل الحلال وأنت مصر على فعل الحرام.

**الفائدة الثانية:** التوبة واجبة بالكتاب والسنة والإجماع على الفور؛ من كل ذنب صغيراً كان أو كبيراً، معلوماً أو مجهولاً، لكن المعلوم تجب التوبة منه تفصيلاً، والمجهول إجمالاً على كل مكلف؛ مؤمناً كان أو كافراً. وقيل: الصغائر لا تفتقر إلى توبة، وتغفر باجتناب الكبائر. وقيل: تجب من الصغيرة إذا كانت على أفرادها، ولا تجب منها إذا كانت مرتبطة بالكبيرة مثل: مقدمة الزنا إذا أراد أن يزني وقبْل وباشر، ورجع عن الزنا فإنه يغفر له ذلك بترك الوقاع. وقيل: تغفر بالحسنات، وإن لم تجتنب الكبائر، كما اختاره الطبري. وإن كان خلاف ما عليه حديث أبي هريرة: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»<sup>1</sup>

والتوبة نعمة من الله تعالى على العبد وهي مما اختصت به هذه الأمة، لأنه كان من قبلنا إذا أذنب يجد ذنبه مكتوباً على باب دراه، وكفارته: اقتل نفسك أو افعل كذا. وأبوابها منفتحة ما لم يعاين أسباب الموت، وما لم تطلع الشمس من مغربها. فمن أخرها عصي فتجب عليه توبتان.

واختار سيدي محمد بن يوسف السنوسي: أن الكبائر تتضاعف بتأخير التوبة أبداً حسب تضاعف بيوت الشطرنج في الحساب على ما وصف. وذكر اللقاني في شرح الجوهرة أن هذا مذهب المعتزلة، فإنه قال: والتمادي على الذنب بتأخير التوبة منه معصية واحدة. وقالت المعتزلة: يلزم بتأخيرها ساعة: إثم آخر تجب التوبة منه. وساعتين أربع؛ الأوليان، وترك التوبة من كل منهما. وثلاث ساعات ثمان وهكذا.

<sup>1</sup> - أخرجه مسلم برقم: (550-551-552). وأخرجه أحمد في مسنده والترمذي برقم: (214) قال أبو عيسى: "حديث حسن صحيح".

والتوبة فرض على كل عبد؛ إذ لا بد له من زلة، بل من زلل كثير، فإن لم تكن له وهو نادر فزلته التقصير، ولا بد منه لمجتهد، وإن مات من شدة اجتهاده، فإنه لا يبلغ أحد أمر الله كله.

**الفائدة الثالثة:** تصح التوبة عندنا من بعض المعاصي مع الإصرار، على بعض خلافا لأبي هاشم. واختلفوا في لزوم تجديد الندم كلما ذكر المعصية؛ فأوجبه القاضي منا وأبو علي من المعتزلة. ولم يجب عند إمام الحرمين إلا أن يذكره مشتتيا لها فرحا بها.

ابن عرفة: وظاهر لفظ عياض بطلان التوبة الأولى بعدم تجديد الندم عند ذكر الذنب. وتوبة الكافر: مقبولة قطعاً إجماعاً. واختلف في توبة المؤمن العاصي، هل هي مقبولة شرعاً، ظناً، وصحح أو قطعاً. واختلف أيضاً هل التوبة من جميع الذنوب، أو في غير قتل النفس. وهو ظاهر قول مالك لأنه رد شهادته وإمامته.

**الفائدة الرابعة:** في التوبة النصوص ثلاث وعشرون قولاً، منها قول عمر: أن يذنب ثم لا يعود. ومنها: أن يصير من عدم قبولها على وجل. ومنها: ألا يحتاج معها إلى توبة أخرى. ومنها: أن يفيض الذنب ويستغفر منه كلما ذكره. أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن البصري. ومنها: أن يخلص التوبة. ومنها: أن يشتمل على خوف ورجاء ويهاجر من أعانه. ومنها: أن يكون ذنبه بين عينيه. ومنها: أن يكون وجهها بلا قفا، كما كان قفا بلا وجه في المعصية. انظر بقية الأقوال في تفسير القرطبي. فإن رجع التائب إلى الذنب من غير إصرار. فالصحيح لا تعود عليه ذنوبه أولاً، لكن الاعوجاج في التوبة من سوء الأدب مع الله تعالى.

قال في شرح شهية السماع: لأنه متى كان في التوبة اعوجاج ولو يسيراً انسحب حكم الاعوجاج في كل مقام بعد التوبة فيصير بناء السالك مهلهلاً كالذي يبني حائطه من اللبن اليابس بغير طين. إذ التوبة أس لكل مقام ترقى إليه العبد حتى يموت فكما أن

من لا أس له لا بناء له كذلك من لا توبة له لا مقام له. وقال سيدي عبد القادر الجيلاني: من أحكم مقام توبته حفظ من سائر الشوائب التي تشوب في الأعمال، فهي نظير مقام الزهد في الدنيا، يحفظ به صاحبه من سائر ما يحجب عن الحق سبحانه. وقال سيدي محمد بن عنان: من استقام في توبته عن المعاصي ارتقى إلى التوبة من كل ما لا يعني. ومن لم يستقم فلا يشم من التوبة عن الفضول رائحة ولا يقدر على رعاية خاطره أبدا بل تغلب عليه خواطر المعاصي حتى في صلاته. وتأمل قوله تعالى للمعصوم الأكبر ﷺ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ فأمره تعالى بالاستقامة في التوبة ومن تاب معه من جميع أتباعه وأمته. وقال سيدي علي الخواص: من استقام في توبته وزهد في الدنيا فقد انطوى فيه سائر المقامات والأحوال الصالحة. والمستقيم في التوبة: هو الذي لم يكتب عليه صاحب الشمال ذنبا أربعين سنة. انتهى<sup>(1)</sup>.

**الفائدة الخامسة:** للتوبة بداية ونهاية؛ فبدايتها التوبة من الكبائر. ثم الصغائر، ثم المكروهات ثم من خلاف الأولى، ثم من رؤية الحسنات، ثم من رؤية أنه صار معدودا من فقراء الزمان، ثم من رؤية أنه صدق في التوبة، ثم من كل خاطر مذموم. وأما نهايتها فالتوبة كلما غفل عن شهود ربه طرفة عين.

**الفائدة السادسة:** وأما النية أن لا يعود فلها أعمال تخصها منها: المداومة في الأعمال، ومراقبة الله في السر والعلانية وإدامة الاستغفار حتى تنمحي آثار المعصية من قلبه. ثم الإكثار من الصلاة على النبي ﷺ حتى يتنور قلبه وإذا تنور صار له حكم أهل العناية، ويتم له ذلك بصحبة الصالحين والمشائخ، ومن عسرت عليه التوبة فليكثر من قراءة سورة النصر. ومن عسر عليه قياد نفسه فليكثر من "حسبنا الله ونعم الوكيل"، ومن أراد الإخلاص فليكثر من قراءة سورتها، وليقل كل يوم: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك

(1) انظر شهية السماع (ص: 2-3) مخطوط في الزاوية.

وأنا أعلم وأستغفرك مما لا أعلم. ثلاثا مساء وصباحا، ويذكر سيد الاستغفار دائما.  
واتباع السنة، والصلاة في الجماعة عصمة من الانقلاب. قاله سيدي زروق.

وكان أبو زكرياء الرازي<sup>1</sup> يقول في دعائه: إلهي لا أقوى على شروط التوبة فاغفر  
لي بلا توبة. قاله الشعراني<sup>(2)</sup>.

وأما نسيان الذنوب بعد التوبة وتذكرها فهما طريقتان:

الأولى: للعارفين والمحبين، نسوا ذنوبهم شغلا عنها بالأذكار وهي مقام التوحيد وهي  
أفضل.

الثانية: للمريدين والخائفين تذكروا ذنوبهم دائما لاستخراج الحزن الدائم، والخوف  
اللازم وهي مقام التعريف، وهي أدنى ولا يعترض بقصة داود عليه السلام في تذكره  
ونحوه على خطيئته؛ لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يسلك بهم سبيل المعلمين، وذلك  
لأجل الأمة.

وفي نسيان الذنوب: الذكر لما يستقبل، والانكماش على ما يفوت من الوقت خوفا  
لفوت ثان. وكره بعضهم للمريد أن تكون وساوس الجنة. أو يذكر ما فيها من النعيم  
واللباس والأزواج، ولكن تكون وساوس ذكر الله، وخواطره وهمته متعلقة بالله لا  
بسواه. قال: لأن المريد حديث عهد بتوبته غير معتاد لطول الاستقامة والعصمة فإذا  
تذكر نعيم الجنة لم آمن عليه لضعف قلبه أن يشتهي مثله مما يشاهد في الدنيا من اللباس  
والطيبات والنساء. لأن هذا عاجل وذلك آجل.

<sup>1</sup> - هو يحيى بن معاذ بن جعفر، الواعظ الرازي رحمه الله له لسان في الرجاء خصوصا وكلام في المعرفة (ت 258هـ) بنيسابور.  
طبقات الشعراني (81/1).

<sup>(2)</sup> انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (80/1).

وقال أبو محمد بن سهل: لا يضره خطورة ذنب تاب منه بقلبه، فيجد حلاوته، لأنه من طبع البشر وليس له حيلة إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى وينكر بقلبه ويلزم نفسه الإنكار ولا يفارقه ويدعو الله ﷻ أن ينسيه ذكر غيره ويشغله بذكره، فإن غفل عن الإنكار طرفة عين أخاف عليه أن يعود. وتعمل الحلاوة في قلبه ولكن مع وجدان الحلاوة يلزم نفسه الإنكار ويحزن فإنه لا يضره؛ لأن التوبة تصح مع بقاء الشهوة. ويكون العبد مرادا بالمجاهدة ومحو الشهوة من القلب وربما تعلق بالذنب ذنوب كثيرة هي أعظم منه، مثل الإصرار عليه والاعتباط به وتسويق التوبة بعده، ووجدان حلاوة الظفر، ووجدان الحزن والكراهة على فوته، والسرور بعلمه أو حمل غيره عليه، إن كان ذنب بين اثنين. وأقل ما في هذه: أنه لا ينهى عن منكر بيده ولا بلسانه، وهو يقدر عليه ولا بقلبه وهو أضعف الإيمان، وذهاب الحياء عنه، ويكون بموافقة الفاحشة منافقا، ومن ذلك إنفاق مال فيه، وأن يستصغر الذنب ويحتقره، والمجاهرة به والتحدث به، ثم إذا تمت توبتك على نحو ما قدمنا من إرضاء الخصماء، والتضرع إلى الله تعالى ليكفيك ذلك فقال الغزالي: تغتسل وتغسل ثيابك وتصلي أربع ركعات وتضع وجهك بالأرض، بمكان خال لا يراك إلا الله تبارك وتعالى، ثم تجعل التراب على رأسك، وتمرغ وجهك في التراب بدمع جار وقلب حزين، وصوت عال، تذكر ذنوبك واحدا واحدا، ما أمكنك، وتلوم نفسك العاصية وتوبخها وتقول: أما تستحيي يا نفسي، أما آن لك أن تتوبي؟ ألك طاقة بعذاب الله تعالى؟ ألك حاجة بسخطه؟ وتذكر من هذا كثيرا وتبكي، ثم ترفع يديك إلى رب رحيم وتقول: إلهي؛ عبدك الآبق رجع إلى بابك، إلهي؛ عبدك العاصي رجع إلى الصلح، عبدك المذنب أتاك بالعدر، فاعف عني بجودك وتقبلني بفضلك. وانظر إلـيَّ برحمتك، اللهم اغفر لي ما سلف من الذنوب، واعصمني فيما بقي من الأجل، فإن الخير كله بيدك، وأنت رؤوف رحيم. ثم تبدأ دعاء الشدة وهو: يا مجلي عظام الأمور، يا منتهى همه المهمومين، يا من إذا أراد أمرا فإنما يقول له كن فيكون؛ أحاطت بنا ذنوبنا، وأنت المذخور لها يا مذخورا لكل شدة، كنت أدعرك لهذه الساعة، فتب علي إنك أنت

التواب الرحيم، ثم اهك وتدلل وقل: يا من لا يشغله شأن عن شأن، ولا سمع عن سمع، ولا تشتهيه عليه الأصوات، يا من لا تغلظه المسائل، ولا تختلط عليه اللغات، يا من لا يبرمه إلحاح الملحين، ولا تضجره مسألة السائلين، أذقنا برد عفوك، وحلاوة مناجاتك إنك على كل شيء قدير. ثم تصلي على النبي ﷺ وتستغفر لجميع المسلمين وترجع إلى الطاعة، فتكون قد تبت توبة نصوحا، وقد خرجت من الذنوب طاهرا كيوم ولدتك أمك، وأحبك الله سبحانه ولك من الأجر والثواب، وعليك من البركة والرحمة ما لا يحيط به وصف واصف، وحصل لك الأمن والخلاص، ونجوت من غضة المعاصي، وبليتها في الدنيا والآخرة.

وقال سيدي عطية: من علامة التوبة إذابة كل لحم وشحم نبت من حرام في جسمك وإذابة نفسك مرارة الطاعة، كما أذقتها حلاوة المعصية. وقال سهل بن عبد الله التستري: لا يصح للإنسان حقيقة التوبة حتى يترك أربعة: أخلاق إلا الأبالسة؛ وهي الإباء عن قبول الحق. وأخلاق السحرة؛ وهي الخنثى، والمكر، وإظهار ما يستحلب به عيون الناس إليه. وأخلاق البهائم؛ وهي الأكل بلا توقف ولا ورع. وأخلاق الشياطين؛ وهي مكافأة الجاهل بأكثر مما جهل به عليك.

وقال عبيد بن عمير<sup>1</sup> في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا﴾ إن الأبواب من يذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر منها. وقال في الإحياء: وينبغي أن يبادر التائب بعد التوبة إلى الاشتغال بالتفكير بحسنة تضاد ذنبه، كما يأتي طريق ذلك إن شاء الله، وأن يدرأ بالحسنة السيئة لتمحوها.

والحسنات المكفرات للسيئات: إما بالقلب وإما باللسان، وإما بالجوارح، ولتكن الحسنة في محل السيئة وفي ما يتعلق بأسبابها:

<sup>1</sup> - عبيد ابن عمير كان يقول: من صدق الإيمان إسباغ الوضوء في المكاره بالليل، وأن تخلو المرأة الحسناء لا تلفت إليها. ومن كلامه: طوبى لمن يرى الشهوات بعينه ولا يشتهد الخطايا بقلبه. طبقات الشمراني (38/1)



- فأما بالقلب: فيكفر بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو ويتذلل كتذلل العبد الآبق حتى يظهر للناس فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على العباد وكذلك يضرر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات.

- وأما باللسان: فبالاعتراف بالظلم والاستغفار. يقول: رب إني ظلمت نفسي وعملت سوءا فاغفر لي ويكثر من ضروب الاستغفار.

- وأما بالجوارح: فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات.

وفي الآثار ما يدل على أن الذنب إذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوا أربعة من أعمال القلب وهي: التوبة، والعزم على التوبة، وحب الإقلاع عن الذنب، وخوف العقاب ورجاء المغفرة. وأربعة من أعمال الجوارح وهي: أن يصلي عقب الذنب ركعتين: ثم يستغفر الله بعدهما سبعين مرة. ويقول: سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة. ثم يتصدق، ثم يصوم يوما، وفي بعض الآثار: يتوضأ ويصلي في المسجد ركعتين، وفي بعض الأخبار: يصلي أربع ركعات. وفي الخبر: «إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها؛ السر بالسر والعلانية بالعلانية<sup>(1)</sup>».

وفي الخبر الصحيح: أن رجلا قال لرسول الله ﷺ: إني عاجلت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس، فأقض علي بحكم الله. فقال ﷺ: «أو ما صليت معنا صلاة الغداة؟ فقال: بلى. فقال: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾<sup>2</sup> وهذا يدل على أن مادون الزنى من معالجة النساء صغيرة. انتهى.

(1) أخرجه أحمد في الزهد (ص 26). قال المناوي (406/1): قال العراقي: فيه انقطاع.

<sup>2</sup> - ففي سنن ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة يعني ما دون الفاحشة - فلا أدري ما بلغ غير أنه دون الزن - فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فأنزل الله سبحانه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النُّهَارِ﴾ إلخ الآية. فقال يا رسول الله ألي هذه؟ قال: لمن أخذ بها. انظر سنن ابن ماجه كتاب إقامة الصلوات برقم: (1398) عن عبد الله بن مسعود.

وقال الشوشاوي: هذه الآيات يقرؤها من ارتكب ذنبا فيستغفر الله وهي: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. انتهى<sup>(1)</sup>.

**الفائدة السابعة:** قال الغزالي: إذا ثبت من سيئاتك فاطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها. لحديث: «اتق الله وأتبع السيئة الحسنة تمحها». قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وبمحالس الذكر، والقعود في المسجد جنبا؛ بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة. ويكفر مس المصحف محدثا بإكرامه وكثرة القراءة فيه، وكثرة تقبيله. وبأن يكتب مصحفا ويحبه. وشرب الخمر بالتصدق بكل شراب حلال هو أطيب وأحب، ويقابل أيضا إذاية الناس بالإحسان عليهم، وغصب أموالهم بالتصدق، ويكفر غيبتهم بالثناء على أهل الدين، وإظهار ما يعرف من خصال أقرانه، ويكفر قتل النفس بالعتق. وهذا التدريج في محو المعصية أولى من أن يواظب على نوع من العبادات وإن كان أيضا مؤثرا في المحو لأن المرض يعالج بضده، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها. انتهى بخ وتلفيق.

وفي الخبر: «إذا أسأت فأحسن<sup>(2)</sup>». وفيه: «إذا كثرت ذنوبك فاسق الماء على الماء<sup>(3)</sup>». قوله: "الماء على الماء" قال العلقمي: ليس ذلك بقيد، بل لنفي توهم أنه حازه

(1) انظر الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة: (403) قال فيها: "لأنه روي في الحديث: أن من قرأها ثم استغفر الله تبارك وتعالى غفر له منه وفضله".

(2) أخرجه الطبراني (39/20 ، رقم 58)

(3) أخرجه الخطيب (403/6) وأورده الذهبي في الميزان (73/7)

بلا كلفة كبيرة فلا أجر فيه. بل فيه الأجر والثواب فكيف إذا عظمت مشقته. وقال المرسى في حديث: «من اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه<sup>(1)</sup>». قال: لأن إنكار الذنب والاعتذار عنه بالكذب تزكية للنفس المذنبية، وشهادة زور، وتجهيل المنكر منه المعتذر عنده ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ وهذا شيء نجده في أنفسنا أن المذنب إذا اعترف وخضع رقت، له وكرهت عقوبته وتوبيخه بعد ذلك ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ والعكس بالعكس. قاله الشعراي<sup>(2)</sup>.

وقال سيدي زروق: قالوا: من ترك شهوته لله تعالى سبع مرات: أي بصدق وجهاد نفس لم يتل بها والله أكرم من أن يعذب قلبا بشهوة تركت لأجله. وقيل: من تاب من ذنب واستقام عليه سبع سنين لم يعد إليه أبدا. قال بعض العلماء: إنما يكفر الذنب الذي ارتكبه العاصي عشر مرات، أن يتمكن منه عشر مرات مع صدق الشهوة ثم يصبر عنه ويكسر شهوته خوفا من الله تعالى.

قال الغزالي: واشتراط هذا بعيد، وإن كان لا ينكر عظيم أثره لو فرض، ولكن لا ينبغي للمريد الضعيف هذا خوفا من نقض التوبة بل طريقه الفرار.

وقال الحسن: من كانت ذنوبه في شهوته فأرجو له التوبة. ومن كانت ذنوبه في الكبر [فلا ترجو له التوبة<sup>(3)</sup>]. دليل ذلك آدم وإبليس. وفي الحديث: عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «لا الله تعالى أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ

(1) أخرجه البخاري (4/1517، رقم 3910)، ومسلم (4/2129، رقم 2770).

(2) انظر الطبقات الكبرى للشعراي: (1/276).

(3) في نسخة "فأرجو له التوبة".

بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك فأخطأ من شدة الفرح»<sup>1</sup>.  
وفي رواية: «فنام نومة فاستيقظ -وقد ذهبت راحلته- فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر  
والعطش أو ما شاء الله. قال: ارجع إلى مكاني فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا راحلته  
عنده».

قال ابن أبي جمرة: وفي رجوعه إلى الموضع الذي ذهبت منه راحلته إشارة إلى الثقة  
بعظم قدرة القادر، لعل من الباب الذي كان منه الكسر بالعدل، يكون منه الجبر بالفضل  
حالة يعقوبية، كما ذهب بصره بقميص يوسف عليه السلام. كان به أيضا رجوعه  
ولذلك قال ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وفي هذا أيضا دليل على بركة الاستسلام لأمر  
الله وسرعة النجاح عند ذلك.

يؤخذ ذلك من أنه لما ترك صاحب الراحلة جده وطلبه، وأسلم لله أمره. واستسلم  
له برجوعه إلى موضوعه، فأول خمراته: إرسال النوم، لأنه من علامات الرحمة عند وقوع  
الشدائد والرفق بمن وقعت به كما قال الله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ ﴾ ولم  
يرسل تعالى على المنافقين شيئا من النعاس، وبقوا في كرب عظيم. وفي الحديث: «إذا  
تاب العبد يباهي الله به الملا الأعلى، ويوقد له سراج بين الأرض والسماء وينادي مناد  
من قبل الله: إن فلانا بن فلان قد صالح مولاه». أو كما قال.

وفي المتفق عليه من الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كان  
فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على  
رجل عالم، فقال له: إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله،  
فكمل به مائة. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض؟ فدل على رجل عالم فقال له إنه قتل مائة  
نفس فهل له من توبة؟ فقال نعم، ومن يحول بينك وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا

<sup>1</sup> - أخرجه البخاري: كتاب الدعوات برقم: (6380) عن ابن مسعود فأخرجه من عدة طرق كذلك. ومسلم برقم: (6953)-  
6955-6960-6961-6958

وكذا، فإن بها ناسا يعبدون الله، فاعبد الله تعالى معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا أنصف الطريق أتاه الموت فاختمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة جاءنا تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى. وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه حكماً بينهم. فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له فقياسوا فوجدوه أقرب إلى الأرض التي أراد بشير فقبضته ملائكة الرحمة<sup>(1)</sup>».

وعن الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني<sup>2</sup> أنه قال: دعوت الله تعالى ثلاثين سنة أن يرزقني توبة نصوحاً، ثم تعجبت في نفسي! فقلت: سبحان الله، حاجة دعوت الله فيها ثلاثين سنة فما قضيت إلى الآن. فرأيت فيما يرى النائم كأن قائلاً يقول: أتعجب من ذلك؟ أتدري ما تسأل الله تعالى؟ إنما تسأله أن يحبك، أما سمعت قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ فهذه حاجة هينة.

وفي الخبر: «جالسوا التوابين فإنهم أرق شيء أفدة<sup>(3)</sup>». وفيه: «إذا عملت سيئة فأحدث بعدها توبة؛ السر بالسر والعلانية بالعلانية»<sup>4</sup>. وفيه: «لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم عنان السماء ثم تبتم لتاب الله عليكم»<sup>5</sup>.

وفي الإسرائيليات: أن الله تعالى قال لبعض أنبيائه عليهم السلام -وقد سأله ذلك النبي قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم ير قبول توبته- فقال: "وعزتي وجلالي لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت شفاعته". وحلاوة ذلك الذنب في قلبه.

(1) أخرجه مسلم (4/2119 ، رقم 2766) ، وابن ماجه (2/875 ، رقم 2622)

<sup>2</sup> - هو ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن مهران، أبو إسحاق الإسفراييني، عالم بالفقه والأصول، درس بنيسابور ورحل إلى خراسان والعراق، له كتاب "الجامع" في أصول الدين (5 مجلدات) ورسالة في أصول الفقه، وكان ثقة في الحديث (ت 481هـ) ينظر للزيادة وفيات الأعيان (4/1) شذرات الذهب (3/209).

(3) أخرجه ابن المبارك في الزهد (1/42 ، رقم 132) عن عمر

<sup>4</sup> - أورده في الجامع الصغير (الفتح الكبير) (1/126) وعزاه لأحمد في مسنده في الزهد عن عطاء مرسل.

<sup>5</sup> - أخرجه ابن ماجه برقم: (4248) عن أبي هريرة.

وفي الحديث: «ما من رجل يذنب ذنباً ثم يتطهر ثم يصلي ركعتين فيستغفر الله من ذلك الذنب إلا غفر الله له»<sup>1</sup>. وفيه: «من أخطأ خطيئة أو أذنب ذنباً وأحب أن يتوب إلى الله فليأت فليمدد يده إلى الله ثم ليقل: اللهم إني أتوب إليك منها لا أرجع إليها أبداً، فإنه يغفر له ما لم يرجع في عمله ذلك، وقال رجل واذنوباه، فقال له النبي ﷺ قل: اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي ورحمتك أرجى عندي من عملي فقالها ثلاثاً. فقال: قم قد غفر الله لك»<sup>2</sup>.

وروى الطبراني مرفوعاً: «من قال دبر كل صلاة: أستغفر الله وأتوب إليه غفر الله له وإن كان فر من الزحف»<sup>(3)</sup>. ولا شك أن الفرار من الزحف من الكبائر.

وروى ابن عساكر عن معروف الخياط عن وائلة مرفوعاً: «من حمل جوانب السرير الأربع غفر الله له أربعين كبيرة»<sup>4</sup>.

وروى الطبراني والبيهقي عن ابن عمر وابن عباس مرفوعاً: «من صام يوم الأربعاء ويوم الخميس ويوم الجمعة ثم تصدق بصدقة يوم الجمعة بما قل أو كثر غفر له كل ذنب حتى يصير كيوم ولدته أمه من الخطايا»<sup>5</sup>.

وروى الديلمي عن ابن عمر مرفوعاً: «من صام يوماً من رمضان بإنصات وسكون وتكبير وتهليل وتحميد: يحل حلاله ويحرم حرامه غفر له ذنوبه كلها»<sup>(6)</sup>.

---

<sup>1</sup> - أورده الحديث في الجامع الصغير (الفتح الكبير) (144/3) وعزاه للطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان، وأخرجه ابن ماجه بلفظ: «ما من رجل يذنب ذنباً فيتوضأ فيحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين فيحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين ويستغفر الله إلا غفر له» برقم: (1395) عن علي بن أبي طالب عن أبي بكر الصديق.

<sup>2</sup> - أورده في الجامع الصغير (الفتح الكبير) (284/2) وعزاه للحاكم في المستدرک والضياء عن جابر.

(3) أخرجه الطبراني (89/5 ، رقم 4670)

4- أخرجه في مجمع الزوائد ومنب الفوائد (42/3).

<sup>5</sup> - أورده في الجامع الصغير (الفتح الكبير) (178/3) وقال أخرجه ابن عساكر عن وائلة.

(6) أخرجه السيوطي في جامع الأحاديث: (22656).

وروى الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً: «من قاد أعمى حتى بلغ مأمنه غفر الله له أربعين كبيرة، وأربع كبائر توجب النار»<sup>1</sup>.

وروى الترمذي عن أبي سعيد مرفوعاً: «من قال حين يأوي إلى فراشه: أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر»<sup>2</sup>.

وروى البخاري عن أنس مرفوعاً: «من قال: لا إله إلا الله ومدها هدمت له أربعة آلاف ذنب من الكبائر».

ورواه السنوسي بلفظ: «من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه ومدها بالتعظيم غفر الله له أربعة آلاف ذنب من الكبائر قيل: فإن لم تكن له هذه الذنوب؟ قال غفر له ذنوب والديه وأهله وجيرانه، ولم ينسبه لمخرجه. إلى غير ذلك من الأحاديث التي تكفر الكبائر»<sup>3</sup>.

## الجوع وفوائده

ثم أشار إلى الركن الثالث من أركان التصوف الذي هو معظمها بقوله: (و) منها: أي من أركان التصوف (الجُوع) كما أن "عرفة" معظم أركان الحج؛ لأن ما في الأركان تابع له بالخاصية. وإنما كان الجوع معظمها؛ لأن العبد إذا جاع قل نومه وكلامه، وأحب العزلة ولكن الجوع المفرط مفسد للفكرة مقو للخيالات، مفسد للقلب وهو ما يشتهي معه كل خبز فلزم الجوع المتوسط وهو ما يشتهي معه الخبز وحده، ثم عند أكله باستقلاله والكاذب ما ينضاف إليه كل شهوة غير معتادة له فافهم. قاله زروق<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - تقدم تخريجه.

<sup>2</sup> - رواه أحمد في مسنده والترمذي برقم: (3297) عن أبي سعيد الخدري.

<sup>3</sup> - تقدم تخريجه.

<sup>4</sup> - القواعد (77/103)

وفوائد الجوع ثلاثة عشر: -صفاء القلب. -ورقته لاستلذاذ للعبادة. -والانكسار. -وذكر جوع جهنم. -ودفع كثرة شهوة الفرج. -ودفع النوم. -وتيسير المواظبة. -على الطاعة. -والفراغ من الاهتمام بتحصيل الطعام وإعداده وأكله. -والفراغ من قضاء الحاجة الإنسانية. -ودفع الأمراض الشاغلة عن الطاعة. -وخفة المؤونة. -والاكتفاء بالقليل. -وإمكان الإيثار بالفاضل. وقالوا: الأشياء التي قَلَّتْها محمودة ثلاثة: الأكل، والنوم، والكلام. وقد أفهى بعضهم فوائد الجوع إلى خمسين ونظمها.

وقال يحيى بن معاذ: الجوع طعام يقوِّي الله به أبدان الصديقين. وقال سهل: لما خلق الله الدنيا جعل في الجوع العلم والحكمة، وفي الشبع الجهل والمعصية. وقال الشيخ محي الدين: إن الله لما خلق النفس قال لها: من أنا؟ فقالت من أنا؟ فأسكنها في بحر الجوع أربعة آلاف سنة. ثم قال لها من أنا؟ فقالت: أنت الله وليس للنفس الأبية أسرع لانقيادها من الجوع: لأنه يذل الملوك فضلا عن غيرهم، إذ النفس قبل الرياضة تشبه الدابة الحرون، أو كالعجل الذي يعلمونه الدوران في الطاحون، فتراهم يجوعونه ويغمضون عينيه بخرقه، ويدورونه في الطاحون، فلا يزال كذلك حتى يظهر لهم كمال الانقياد. فهناك يطعمونه ويكفون العمى عن عينيه.

وروى أبو نعيم عن سفيان الثوري عن إبراهيم بن أدهم عن محمد بن زياد عن أبي هريرة قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يصلي جالسا فقلت له: يا رسول الله تصلي جالسا فما أصابك؟ قال: «الجوع يا أبا هريرة. قال: فبكيت فقال: لا تبك فإن شدة يوم القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسبه في دار الدنيا»<sup>1</sup>. وكان ﷺ يشد الحجر على بطنه من الجوع. وقال الشعراي: كان له ﷺ مقام آخر أكبر من هذا وهو أنه يبدأ بنفسه ولا يجوع إلا اضطرارا لأن الكامل من شأنه أن يوفي طبيعته حقها لأنه مسئول عنها فما جاع ﷺ اختيارا ولا أثر على نفسه إلا ليقنّدى به في ذلك فافهم. انتهى.

<sup>1</sup> - أخرجه في جامع الأحاديث (229/39) وحلية الأولياء (109/7) عن أبي هريرة.



وما ذكره الشعراوي مخالف لما في شفاء الصدور أنه ﷺ كان يجوع من غير عذر مختاراً لذلك. وقال السلمي: إن النفس إذا جاعت عدمت حظها، وإذا عدمت حظها ضعفت، وإذا ضعفت غلبها القلب وإذا غلبها حملها على الطاعة وأسقط عنها الكسل. ولذا جاء في الحديث: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه<sup>(1)</sup>».

## فوائد

**الفائدة الأولى:** قال زروق: ويعين على الجوع أن يذكر الشخص: "يا صمد من غير شبه" "ولا شيء كمثله 350". وقال أبو سليمان الداراني: إذا أردت حاجة من حوائج الدنيا والآخرة: فعليك بالجوع ثم أسألك. وذلك لأن الأكل يغير العقل.

**الفائدة الثانية:** قال في قواعد الصوفية: ما مدح أو ذم لا لذاته قد ينعكس لموجب يقتضي نقيضه. وقد صرح: "الدنيا ملعونة" الحديث. وصرح: لا تسبوا الدنيا... إلخ. ومدحت الرئاسة لما تؤدي له من حفظ النظام؛ حتى أثنى الله على من طلب الرياسة الدينية فقال: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ وذمت لما تؤدي إليه من الكبر والخروج عن الحق ومدح الصمت للسلامة وذم الصمت عن الواجب الذي لا بد منه. ومدح الجوع لتصفية اباطن. وذم لإخلاله بالفكر، فلزم التوسط<sup>(2)</sup>.

**الفائدة الثالثة:** قال زروق أيضاً في قواعده: استواء الفعل والترك في المنفعة يقتضي بترجيح الترك؛ لأنه الأصل ولاستصحابه السلامة. فمن ثم فضل الصمت الكلام، حيث لا مرجح له. وترك الدنيا أخذها، والعزلة الصحبة سيما في زمن لا يأمن فيه الرجل جلسه. والجوع الشبع. إلى غير ذلك مما فقده في الحال فائدة في المال. ومنه ترك

(<sup>1</sup>) أخرجه ابن حبان (2/449، رقمه 674)، والبيهقي في شعب الإيمان (5/28، رقمه 5649)

(<sup>2</sup>) انظر قواعد الصوفية (103/77)

الشهوات عند قوم ما لم يعتقد القربة بذلك، فلا يصح إلا بنية صالحة تحوله للندب، إذ قد أذن الله فيه فليس أحد الجانبيين بأولى من غيره في أخذه وتركه إلا بمرجح<sup>(1)</sup>.

**الفائدة الرابعة:** قال الشعراي: قالوا: ينبغي للعالم ألا يشبع قط لاسيما أيام التأليف وذلك لثلا يحجب عن كمال الفهم في القرآن والحديث والفقه وغير ذلك. فإن فهم الشبعان يكون ضعيفا جدا. ومن شك في هذا فليجرب. وقد جربوا فوجدوا الخير كله والنور في خلو البطن، حتى أنهم قالوا في المثل السائر في الطبل: إنما كان صوته قويا جهوريا لكونه خالي الجوف. وقال سيدي علي السنائي المشهور بالذويب<sup>(2)</sup>: صاحب الجوع إن لم يطع الله لم يعصه، لعدم داعية تدعوه إلى المعاصي. وقال أبو سليمان الداراني: الجوع عند الله في خزائنه لا يعطيه إلا لمن أحب. انتهى.

وفي الحديث: «ما من عبد ترك أكلة مخافة من حساها إلا كانت له درجات يوم القيامة<sup>(3)</sup>». وفيه: «لا يدخل ملكوت السموات والأرض من يملأ بطنه». وفيه: «لكل شيء زكاة وزكاة البدن الجوع»<sup>(4)</sup> ووضع أهل قباء بين يديه ﷺ قدحا فيه لبن مشوب بعسل، فقال: أما أني لست أحرمه ولكني أتركه تواضعا لله.

## السهر والصمت

ثم أشار إلى الركن الرابع والخامس فقال: (وَالسَّهْرُ وَالصَّمْتُ) وهو السكوت مع القدرة على النطق، فإن توقف فيه فهو العي وإن فسدت آلة النطق فهو الخرس (إِلَّا عَنْ

(<sup>1</sup>) القواعد (92/102).

(<sup>2</sup>) هو علي السنائي المعروف بالذويب الصالح المكاشف أقام بمصر نحو عشرين سنة ثم نزل إلى الريف وظهرت له كرامات وعوارق أخذ عن الشيخ محمد العدل الطناحي وغيره وكان ملاميا بلبس تارة لبس الحماليين وتارة لبس التراسين ولما مات وجدوا في داره نحو ثمانين ألف دينار مع أنه كان متحررا من الدنيا. انظر شذرات الذهب: (269/8).

(<sup>3</sup>) لم أجد تخريجه.

(<sup>4</sup>) أخرجه ابن ماجه رقم (1745) عن أبي هريرة ؓ.

خَيْرٍ لحديث أبي ذر أن النبي ﷺ قال له: «عليك بالصمت إلا عن خير، فإنه مطردة للشيطان عنك، وعون لك على أمر دينك»<sup>(1)</sup>.

قال القشيري: الصمت في وقته صفة الرجال، كما أن النطق في وقته أشرف الخلال<sup>(2)</sup>. وقال أبو علي الروذباذي<sup>3</sup>: من سكت عن الحق فهو شيطان.

قال علماؤنا: إذا استوى الكلام والصمت في المنفعة فالصمت مقدم، وما ترجح منهما فحكم الوقت له، وسئل أبو حفص أي الحالين للولي أفضل؛ الصمت أو النطق؟ فقال: لو علم الناطق ما آفة النطق لصمت إن استطاع ألف سنة، ولو علم الصامت ما آفة الصمت لسأل الله أن يعمره ألفي سنة، حتى ينطق. وإنما أمرت بالصمت لأن اللسان أشد الأعضاء على الإنسان وأهلكها له. وفي الحديث: «هل يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم»<sup>(4)</sup>. وفيه: «إن الرجل ليتكلم بكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في النار سبعين خريفا»<sup>(5)</sup>. ولذا قيل: ما شيء أحق بطول السجن من اللسان.

قال بعض السلف: تعلمت الصمت بحصاة جعلتها في فمي ثلاثين سنة كنت إذا هممت بكلمة تلجلج بها لساني، فأسكت. ونحوه عن الصديق عليه السلام قال: جعلت على لساني بكل كلمة أتكلم بها فيما لا يعني صلاة ركعتين، فسهل ذلك علي ولم أنته حتى جعلت على نفسي بكل كلمة صوم يوم فسهل ذلك علي ولم أنته حتى جعلت على نفسي بكل كلمة صدقة درهم فصعب ذلك علي، فانتهيت.

(1) من حديث طويل أخرجه ابن حبان (76/2 ، رقم 361) ، وأبو نعيم في الحلية (166/1) .

(2) انظر الرسالة القشيرية: (120).

3- أبو علي الروذباذي: واسمه أحمد بن محمد بن القاسم بن منصور ينتهي نسبه إلى كسرى، بغدادى سكن مصر وكان شيخها ومات بها. صاحب الجنيد والثوري ومن في طبقتهم، وكان عالما عارفا يعلم الطريقة، حافظا للحديث (ت: 322هـ) ومن كلامه: المرید لا يريد لنفسه إلا ما أراد الله له، ومنه: التوبة، والاعتراف والندم والإقلاع. انظر طبقات الصوفية للسلمي (ص 354) طبقات الشعرا (106/1).

(4) أخرجه البزار (273/6 ، رقم 2302) عن معاذ. قال الهيثمي (300/10) : رواه البزار ، وقال إسناده حسن

(5) أخرجه الترمذی (559/4 ، رقم 2319) وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه (1312/2 رقم 3969)

وأخذ ابن عباس يوما ثمرة<sup>(1)</sup> لسانه وهو يقول: ويحك قل خيرا تغنم، واسكت عن شيء تسلم، فقيل له: ما هذا؟ قال: بلغني أن العبد أغيظ ما يكون يوم القيامة على لسانه. وقيل: العلم نصفه السكوت ونصفه أن تدري أين تضعه؟ وقال الضحّاك: أدركتهم وهم يتعلمون الصمت والورع وهم اليوم يتعلمون كثرة الكلام الحسن.

وسئل بعض السلف: هل العلم اليوم أكثر أو فيما سلف؟ قال: الكلام اليوم أكثر، والعلم فيما سلف أكثر. وفي الصمت خصلتان: تدفع به جهل من هو أجهل منك، وتعلم به علم من هو أعلم منك. وقيل: تسعة أعشار السلامة في الصمت.

والحكمة في ذلك: أن مريم عليها السلام لما نذرت ألا تتكلم، وحبست لسانها لأجل الله، أنطق الله سبحانه لسان صبي أبكم لا يعرف الخطاب لأجل ذلك. فمن حفظ لسانه لأجل الله، أطلق الله ﷻ لسانه بالشهادة عند الموت. وقيل: يأتي على الناس زمان يكون أفضل أعمالهم النوم، وأفضل علومهم الصمت؛ يعني لفساد الأعمال، وفساد العلم. وحقه أن يزيد، وأفضل أحوالهم الجوع لقلة الحلال. ويقال: كل كلمة فيما لا يعني يوقف العبد عليها في الآخرة خمس وقفات، يطول لها حسابه ويذوب، ويتقطع حسرات، وهي أن يقال له: لم قلت كذا؟ أكانت مما يعينك؟ وهل نفعتك إذ قلتها؟ وهل ضرتك لو لم تقلها؟ وهلا سكت فربحت السلامة من عاقبتها، وهلا جعلت مكانها: سبحانه الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر؛ فربحت ثوابها.

وقال يوسف بن عبد البر: العمل كله قد يشوبه شيء إلا ما كان من الصمت. وقال: إذا صلح من العبد أمران: صلاته ولسانه: صلح ما سواههما. وقال إبراهيم بن أدهم: سكوت العالم أشد على الشيطان من كلامه؛ لأنه يسكت بحكمة، وينطق بعلم، فيقول الشيطان: انظروا إلى هذا سكوته أشد علي من كلامه. ولذلك قيل: السكوت زين للعالم وستر للجاهل. وعن ابن القاسم: من إكرام المرء نفسه أن يسكت على ما

(1) الثمرة: طرف اللسان. القاموس .

عده حتى يسأل عنه. ووصف رجل لما لك بن الس قال: لا بأس به إلا أنه يتكلم في شيء، قل أن يسأل عنه. وقال بعضهم في وصف الأبدال: أكلهم قاعة، وكلامهم ضرورة، ويومهم علة. وقال أبو محمد: العالم بقعد فيسكب، ويرفع قلبه إلى مولاه، فيمنز إليه في حسن التوفيق، فيسأله أن يلهمه الصواب. فأي شيء مثل عنه تكلم بما فتح الله له. فجعل العلم بالله في حال سكوته ونظره إلى سيده مخاضا إلى التوكل، منتظرا موكله. وقال بعضهم: إنما العالم الذي إذا سئل عن المسألة كأنما يطلع ضرما من أصراسه. وقال بعضهم: ليس العالم الذي يجمع الناس ويقص عليهم إنما العالم الذي إذا سئل عن العلم كأنما يسعط بالخرذل. وقال أبو حفص النيسابوري الكبير<sup>1</sup> وهو من نظراء الجنيد: إنما العالم الذي يسأل عن مسألة في الدين فيفتن حتى لو جرح لم تخرج منه قطرة دم من الفرع، يخاف أن يسأل في الآخرة كما سئل في الدنيا، ويفزع أن لا ينحصر في السؤال. وقال بعض العلماء: يأتي على الناس زمان يكون أفضل العلم الصمت. وأفضل العمل النوم؛ يعني لكثرة الناطقين بالجهل. فصار الصمت علما للجاهل، ولكثرة العاملين بالهوى صار النوم عبادة للغافل. ولعمري إن الصمت والنوم أدق أحوال العالم وإلحما أعلى أحوال الجاهل.

## الاستقامة على السنة

ثم أشار إلى الركن السادس بقوله: (وَالْإِسْتِقَامَةُ عَلَى السُّنَّةِ) الاستقامة لله: ضد الأعوجاج. واصطلاحا: الاعتدال في السلوك عن الميل إلى جهة من الجهات. ويقال:

<sup>1</sup> - هو معروف بن سلم أو سلمة، أبو حفص النيسابوري، صاحب عهد الله بن مهدي وعليها النصرايادي وغيرهما، كان أحد الأئمة وفائدة وانفع به كثيرون. من كلامه: المعاصي: يريد الكفر. ومنه: الفتن من يرى الفتن ولا يستمسك في محالته وأعماله فهو فتن. وقال: والله سئل من الرجال: القائلون مع الله تعالى يوفاء المهود (رَجُلٌ مَدَّ يَدَهُ نَا فَأَقْبَضُوا إِلَيْهِ غَلَبَهُ). انظر طبقات السلسي (ص: 115) وله طبع لوماته.

هي أن لا يختار على الله تعالى شيئاً. ولكل سالك اعتدال وسببها كمال العلم بالأحكام، ومجاهدة النفس في كسر الهوى. وثمرتها السلامة من الحساب، والتخلق بشريف الآداب.

**والاستقامة بالنظر إلى محلها خمسة أنواع:** استقامة اللسان بالنطق بالحكمة، واستقامة القلب بصدق الهمة، واستقامة النفس بحسن الخدمة، واستقامة الروح بتعظيم الحرمة، واستقامة السر بالاشتغال بالمنعم دون النعمة. قال بعض العلماء: معنى الاستقامة: لزوم طاعة الله تعالى؛ وهي نظام الأمور، وقيل: الاستقامة: أن تشهد الوقت الذي أنت فيه قياماً قامت بأن تستشعر قيامك بين يدي مولاك، وتحسن استقامتك له في دنياك.

**وقال بعضهم:** الاستقامة تكون في الأقوال بترك الغيبة ونحوها، وفي الأفعال بنفي البدعة، وفي الطاعة بنفي الفترة؛ أي الفتور عنها، وفي الأحوال بنفي الحجة التي تمنع من [تقبلها<sup>1</sup>].

**والاستقامة من أرفع الدرجات والمراتب.** قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ انتهى من العلقمي بخ، وتلفيق.

**وقال بعضهم:** الاستقامة: الاستواء في اتباع الحق على منهاج السداد من غير إفراط ولا تفريط. وأركانها: عمل بلا فترة ولا إخلال، وتوبة بلا إصرار ولا رجوع، وإخلاص بلا تشوف ولا ملاحظة، واستسلام بلا منازعة ولا معارضة، وتفويض بلا تردد ولا تدبير، وملازمها واصل قطعاً. وهي الكرامة على الحقيقة. انتهى.

**والاستقامة خير من ألف كرامة وما أكرم الله تعالى عبداً بكرامة خير من الاستقامة، ولهذا لم ينقل عن الصحابة رضي الله عنهم إلا القليل من الكرامات، ونقل عن المتأخرين من المشايخ الصادقين والمريدين أكثر من ذلك؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم ببركته الطيبة وصحبتهم له**

<sup>1</sup> - في نسخة: "تقبلها"

ومشاهدة الوحي وتردد الملائكة وهبوطهم بين يديه، تنورت قلوبهم، وتزكت نفوسهم، فعابوا الآخرة، واستغنوا بما أعطوا عن رؤية الكرامة، واشتغلوا بالعبادة والاستقامة وزهدوا في الدنيا الدنية. قاله الفشني (1).

تمة: وإنما كانت الاستقامة على السنة شرطا في التصوف؛ لأن التصوف إنما يحصل في الغالب بعد مجاهدات ورياضات. ولا تنتج تلك المجاهدات إلا بموافقتها للسنة والشرعية وإلا كانت عبثا، وأتعبا. ولكن الرياضات والمجاهدات لها تأثير في صفاء الباطن مطلقا، وافقت السنة أم لا. إلا أن ما كان من ذلك بحسن سياسة الشرع، ومتابعته ﷺ، ينتج تنوير القلب، والزهد وجميع الأخلاق الحميدة. وما كان منه من غير سياسة الشرع ومتابعته ﷺ، ينتج صفاء في النفس يستعان به على علوم رياضته مما يعتني به الفلاسفة والدهريون. وكلما كثر من ذلك كثر البعد من الله. ولا يزال المقبل على ذلك يستغويه الشيطان بما يكتسب من العلوم الرياضية. أو بما يتراءى له من صدق المخاطر وغير ذلك حتى يركن إليه، ولا يعلم أن هذا الفن غير ممنوع من النصارى والبراهمة. وما يفتح من ذلك على من ليس تحت سياسة الشرع، يصير سببا لزيادة بعده وغروره وحماقته، ولا يزال به حتى يخلع رقبة الإسلام من عنقه، وينكر الحدود والأحكام، والحلال والحرام، ويظن أن المقصود ذكر الله تعالى، وعدم متابعة السنة. ثم يتدرج من ذلك إلى تزندق ونعوذ بالله من الضلال. وقد يلوح لأقوام خيالات يظنونها وقائع ويسموها بوقائع المشايخ. قاله صاحب عوارف المعارف (2).

وقال السنوسي: التقدم لمعالي الأمور قبل إتقان أصولها، وضبط فروعها، عجلة مذمومة، وشهوة نفسية توجب لصاحبها الفضيحة والهلاك دنیا وأخرى، ألا ترى البراهمة والنصارى قد ارتاضوا على قاعدة فاسدة، فلم يزدهم ذلك إلا ضلالا. وكثيرا ما يغتر

(1) انظر المجالس السنية في الكلام على الأربعين النووية للفشني بمأمش شرح الشرحي على الأربعين: (124). حرفا بحرف.

(2) انظر عوارف المعارف للسهروردي: (205/1).

أصحاب هذا الطريق بالتخييلات الشيطانية، أو النفسانية نوما ويقظة. ويعدونها كرامات وهي في الحقيقة استدراج وزيادة لهم في أنواع الضلالة. نسأله سبحانه أن يلهمنا رشدًا بأنفسنا. انتهى.

وفي كتاب الفرج بعد الشدة: أن راهبا اشتهر ببلاد مصر بالمكاشفة فقال عالم من المسلمين: لا بد من قتله خوفا على المسلمين أن يفتنهم، فقصده بسكين مسمومة ليقتله، فلما طرق بابه قال له: أطرَح السكين يا عالم المسلمين، فطرحها ودخل، فقال له: من أين لك نور المكاشفة؟ قال: بمخالفة النفس. فقال: هل لك في الإسلام؟ فقال: وما الإسلام؟ فقال: أن تشهد بالله وملائكته وكتبه ورسله. قال: نعم. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. قال: ما حملك على هذا؟ قال: عرضت الإسلام على نفسي فأبَت فخالفتها. انتهى<sup>(1)</sup>.

قال ابن عباد: وليس طريق موت النفس بقطع جميع الأرباق عنها، وردها إلى الاجترأ بالحشيش والنخالة، والمبالغة في التقشف، والتَّقلُّل مع قطع النظر عن أحوال القلب وإرادته، وترك الالتفات إلى ما يحمد منها وما يذم، فذلك كله بدعة. وقد غلط في هذا طوائف عملوا عليه في رياضتهم ومجاهداتهم، ولم يقصدوا بذلك إخلاص العبودية لربهم، فأداهم ذلك إلى اختلال عقولهم، وانحلال قوى أبدانهم، ولم يحصلوا من أمرهم على فائدة؛ وذلك لجهلهم بالسنة. وما كان عليه سلف هذه الأمة، انتهى.

والحاصل أنه لا بد من الجمع بين الحقيقة والشرعية. قال أبو سليمان الداراني: إنها لتقع النكتة من كلام القوم في قلبي أياما فأقول: لا أقبلك إلا بشاهدي عدل: الكتاب والسنة.

---

(1) الفرج بعد الشدة علم على عدة كتب، وإن كان أشهرها الفرج بعد الشدة للتوحي لکني لم أجد هذه الإحالة فيه.



## القسم السادس

### تجنب البدع وحدها وأنواعها وأحكامها

(وتجنب البدعة) في العقائد وأحكام الشريعة.

قال اللقاني في شرح الجوهرة: البدعة لغة: ما كان مخترعاً على غير مثال سابق. ومنه: "بديع السموات والأرض"؛ أي موجدتهما على غير مثال سابق. وشرعاً: ما أحدث على خلاف أمر الشارع. ودليله الخاص والعام؛ بأن يكون الحامل عليه مجرد الشهوة والإرادة من القرب والعبادات، وكذا العادات بناء على الراجح من دخول البدع في العادات كالمعاملات، كما هو مختار السرخسي<sup>(1)</sup> وغيره من الحنفية من كل ما لم تتناوله أدلة الشريعة إذا كانت مذمومة. وأما ما أحدث مما له أصل في الشرع إما بحمل النظر على النظر أو بغير ذلك فإنه حسن، إذ هو سنة الأئمة المهتدين. ومن ثم قال عمر في التراويح: نعمت البدعة هي. وليس ذلك مذموماً بمجرد لفظ "محدث، أو بدعة" فإن القرآن باعتبار لفظه، وإنزاله، وصف بالمحدث أول سورة الأنبياء. وإنما منشأ الذم ما اقترن به من مخالفة السنة ودعايته إلى الضلالة.

القرافي: إذا عرضت البدعة تعرض على قواعد الشرع وأدلتها، فأى شيء تناولها من الأدلة والقواعد ألحقت به من إيجاب، أو تحريم، أو غيرها. وإن نظر إليها من حيث الجملة بالنظر إلى كونها بدعة مع قطع النظر عما يتقاضاها كرهت. فإن الخير كله في الاتباع، والشر كله في الابتداع. قيل: السنة الضعيفة: أحب إلي من عقول الرجال.

(1) هو عبد الرحمن بن محمد السرخسي، أبو بكر: فقيه حنفي، من أهل سرخس. انتقل إلى خوزستان، وولي قضاء البصرة مرثين. من كتبه (تكملة التحريد) للكرمانى، توفي 439هـ. انظر الجواهر المضية: (308/1).

ومن البدع المباحة مما لم يكن في السلف ونحن نفعله اليوم في المدارات والمكارات: القيام للداخل من الأعيان، وإحناء الرأس له إن عظم قدره جدا، والمخاطبة بجمال الدين ونور الدين، وغير ذلك من النعوت والإعراض عن الأسماء. والمكاتبات بالنعوت أيضا إلى كل أحد على قدره، والتعبير عن المكتوب إليه بـ: المجلس العالي، والسامي، والجناب. ونحو ذلك من الأوصاف العرفية، والمكاتبات العادية، ومن ذلك ترتيب الناس في المجالس والمبالغة في ذلك وأنواع من المخاطبات والكنيات والنعوت المعتادة للملوك والوزراء والولاة، والعظماء وغير ذلك من الأمور العادية مما لم يرد في النصوص ولم يكن في السلف، لأنه لم تكن أسباب اعتباره موجودة حينئذ، وتجددت في عصرنا فتعين فعله لتجدد أسبابه، لا لأنه شرع مستأنف. بل عُلِمَ من القواعد الشرعية: أن هذه الأسباب لو وجدت في زمن الصحابة رضي الله عنهم لكانت هذه المسببات من فعلهم وصنيعهم وتأخير الحكم لتأخير سببه ووقوعه عند وقوع سببه، لا يقتضي تجدد شرع ولا عدمه. كما لو أنزل الله تعالى حكما في اللواط من رجم أو غيره من العقوبات فلم يوجد اللواط في زمن الصحابة، ووجد في زماننا اللواط، فرتبنا عليه تلك العقوبة لم نكن بمحدثين لشرع؛ بل متبعين لما تقرر في الشرع، ولا فرق بين أن يعلم ذلك بنص، أو بقواعد من الشرع، وهو معنى قول عمر بن عبد العزيز: تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور. أي يحدثون أسبابا يقتضي الشرع فيها أمورا لم تكن قبل ذلك، لأجل عدم سببها قبل ذلك لا أنها شرع متجدد. كذلك هاهنا. فعلى هذا القانون يجري هذا بشرط ألا يبيح محرما ولا يترك واجبا. فلو كان الملك لا يرضى منا إلا بشرب الخمر لم يحل لنا أن نُؤاذه: "إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" وإنما هذه أمور لولا هذه الأسباب المتجددة لكانت مكروهة من غير تحريم. فلما تجددت هذه الأسباب صار تركها يوجب المقاطعة المحرمة، فقدم المحرم والتزم في دفعه وحسم مادته، وإن وقع المكروه، هذا هو قاعدة الشرع في زمن الصحابة وغيرهم، وإنما هذا التعارض مما وقع

الآن في زماننا فاختص الحكم به، وما خرج عن هذين القسمين؛ إما محرم فلا تجوز  
المادة به، أو مكروه لم يحصل فيه تعارض بينه وبين محرم.

ثم إن القيام يحرم إذا فعل تعظيما لمن يحبه تجبرا على القائمين، ومكروه إذا فعل  
تعظيما لمن لا يحبه كذلك. لأنه يشبه فعل الجبابة، ولتوقع فساد قلب المقوم له.

سيدي زروق: التحقيق: أن البدعة إحداث أمر في الدين يشبه أن يكون منه، وليس  
منه الخبر: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»<sup>1</sup>. مفهومه: أن العوائد  
والأسباب المجردة عن أمور الدين لا تدخلها البدعة، وبناء على ذلك فالقيام مباح إذا فعل  
إجلالا لمن لا يريده، ومندوب للقادم من السفر فرحا به، وشكرا لإحسانه، والمصاب  
لبعزيه. وبهذا يجمع بين حديث: «من أحب أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من  
النار»<sup>2</sup>. وبين قيامه لعكرمة لما قدم من اليمن فرحا به وقيام طلحة بن عبيد الله لكعب بن  
مالك ليهنته بتوبة الله تعالى عليه بحضرته عليه السلام ولم ينكره، والنهي الوارد عن محبة القيام  
ينبغي أن يحمل على من يريد ذلك تجبرا. أما من أراده لدفع الضرر عن نفسه، والنقيصة  
به، فلا ينبغي أن ينهى عنه؛ لأن محبة دفع الأسباب المؤلمة مأذون بها. بخلاف التجبر. ومن  
أحب ذلك تجبرا أيضا لا ينهى عن المحبة والميل لذلك الطبيعي، بل لما يترتب عليه من  
إذاية الناس، إذا لم يقوموا، ومؤاخذتهم عليه فإن الأمور الجبلية لا ينهى عنها، فقد ظهر  
الفرق بين المشروع من الموائدة وغير المشروع منها.

وقال بعضهم: كل حكم أجازة الشرع أو منعه، أو أمكن رده على أحدهما فهو  
واضح بأن أجازة مرة ومنعه أخرى؛ فالثاني ناسخ للأول. وإن لم يرد فيه عنه شيء ولا  
أمكن رده إلى إجازة ولا منع، ففيه الخلاف قبل ورود الشرع والأصح أنه لا حكم تمت

<sup>1</sup> - أخرجه البعاري في كتاب الصلح رقم: (2697) عن عائشة رضي الله عنها.

<sup>2</sup> - أخرجه أبو داود رقم: (5229) عن معاوية.

فلا تكليف فيه بشيء. وقيل: يرجع على المصلحة والسياسة فما وافقهما منه أخذ به، وما لا ترك. انتهى بخ.

وفي الحديث: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»<sup>(1)</sup>. رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها. أي من أحدث ما لم يكن له من الكتاب والسنة والإجماع عارض ظاهر أو خفي ملفوظ أو مستنبط. وروى أبو هريرة أنه ﷺ خرج إلى المقبرة وذكر الحديث في صفة أمته.

وفيه: «فَلْيَذَاقَنَّ رَجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يَذَاقُ الْبَعِيرُ الضَّالَّ. فَأَنَادِيهِمْ: أَلَا هَلُمَّ أَلَا هَلُمَّ أَلَا هَلُمَّ. فَيَقَالُ: لَئِمٌّ قَدْ بَدَلُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ: فَسَحَقًا، فَسَحَقًا، فَسَحَقًا»<sup>2</sup>.

وفي الحديث: «هلك المتنطعون»<sup>(3)</sup>. أي المتعمقون الغالون في أفعالهم وأقوالهم، كلامًا من أقصى من حلوقهم. وفي رواية لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد». أي مردود عليه وإن لم يكن هو المحدث له. فاستفيد منه زيادة على ما يفهم من الرواية الأولى وهو الرد لما يحتاج به بعض المبتدعة من أنه لم يخترع، وإنما المخترع من سبقه. ويحتاج بالرواية الأولى فيرد عليه بهذه الصريحة في رد المحدثات المخالفة للشريعة سواء أحدثها الفاعل أو سبق بإحداثها.

وقال ابن حجر في شرح الأربعين: هذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام بل من أعظمها وأعمها نفعا من جهة منطوقه؛ لأنه مقدمة كلية في كل دليل يستنتج منه حكم شرعي. ومن جهة مفهومه إذ كل عمل غير محدث هو صحيح مقبول. قال بعض الأئمة: هذا الحديث ثلث الإسلام. ووجهه أن أحكام الشرع؛ إما منصوصة نصا لا يحتمل التأويل، أو يحتمله، أو مستنبطة، ومآلها إليه منطوقا أو مفهوما؛ كما قررنا. على أنه

(1) أخرجه أحمد (146/6 ، رقم 25171) ، ومسلم (1343/3 ، رقم 1718)

(2) - أخرجه البخاري في كتاب المساقاة رقم: (2367) ومسلم في كتاب الطهارة رقم: (584) كلاهما عن أبي هريرة.

(3) أخرجه مسلم (2055/4 ، رقم 2670) ، وأبو داود (201/4 ، رقم 4608)

يصح أن يكون نصف الأدلة؛ لأن الدليل إنما يتركب من صغرى وكبرى، ثم المطلوب إما إثبات الحكم أو نفيه. وهذا الحديث مقدمة في إثبات كل حكم شرعي ونفيه باعتبار منطوقه ومفهومه. وقال بعضهم: إنه مما ينبغي حفظه وإذاعته فإنه أصل عظيم في إبطال جميع المنكرات وحوادث الضلالات. إذ هو من جوامع كلمه ﷺ، واستمداده من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ ومن قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ قال مجاهد: السبل البدع والشبهات. ثم قال: إن السنة السيئة قد تنتهي إلى ما يوجب التحريم، وإلى ما يوجب الكراهة أخرى. وإلى ما يظن أنه طاعة وقربة، فمن الأول: الانتماء إلى جماعة يزعمون التصوف ويخالفون ما كان عليه مشايخ الطريق من الزهد والورع، وسائر الكمالات المشهورة عنهم؛ بل كثير من أولئك إباحية لا يحرمون حراما ليلبس عليهم الشيطان أحوالهم القبيحة الشنيعة، فهم باسم الكفر والفسق أحق منهم باسم التصوف والفقر. وروى الدارامي أن النبي ﷺ خط خطا ثم قال: «هذا سبيل الله: ثم خط خطا عن يمينه وعن شماله ثم قال: هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ ... الآية<sup>(1)</sup>».

وقال الشافعي: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي فردوه إلى ما قال الله والرسول. وقال ميمون بن مهران: إن الرد إلى الله: إلى رسوله، والرد إلى الرسول إذا قبض: إلى سنته. وروى الدارمي أن ابن مسعود أنكر على جماعة اجتمعوا في المسجد يعدون الأذكار بالخصى وأشار إليهم بأن يعدوا سيئاتهم، فإنهم مفتتحوا باب ضلالة<sup>(2)</sup>. وينبغي حمل إنكاره على هذه الهيئة المخصوصة. وإلا فالسبحة ورد لها أصل أصيل عن بعض أمهات المؤمنين، وأقرها النبي ﷺ على ذلك. وكان الشعبي إذا نظر إلى ما أحدث الناس من الرأي والهدى يقول: لقد كان القعود في هذا المسجد

<sup>(1)</sup> أخرجه الدارمي في سنته: (202).

<sup>(2)</sup> أخرجه الدارمي: (204).

أحب إلي لا أعدن به شيئا فمد صار فيه هؤلاء المراءون بفضوا إلي المجلس فيه. ولأن  
أفقد على مرسنة أحب إلي من أن أرجع فيه. وكان السلف يستعظمون يسير الحدث في  
ندبر ودقائق البدع في الإسلام لعظم الإيمان والسنة في قلوبهم، ولمعرفتهم بحقيقة  
معروف. وقال وكيع: لأن أرى أحب إلي من أن أسأل مبتدعا في ديني<sup>(1)</sup>.

ومما أحدث أيضا: الرد على المبتدعة بالمعقول، وهجر أحمد بن حنبل الحارث  
نحاسي لرده على أهل البدع، وقال: إذا رددت عليهم فقد حكيت قولهم فرددت بدعة  
بيدعة. وأيضا: فقد حملتهم على التفكير والرأي فيها فتكون السبب في رد الحق بالباطل.  
وقال هشام بن عروة: لا تسألهم اليوم عما أحدثوا فإنهم قد أعدوا له جوابا ولكن  
سلوهم عن السنة فإنهم لا يعرفونها. وقيل لعبد الرحمن بن مهدي: إن فلانا يرد على  
البدعة فقال: بالكتاب والسنة؟ قالوا: لا بل بالمعقول. قال: بيس ما صنع رد بدعة  
بيدعة.

وقال الإمام مالك: ليس من السنة أن تجادل عن السنة ولكن تخبر بها فإن قبل وإلا  
سكت. وعن المروزي<sup>(2)</sup>: أن شيخا ذا هيئة كان يجالس الإمام أحمد فيكرمه الإمام فبلغه  
أنه طين حائط داره من خارج فأعرض عنه الإمام وقال له: إنك أخذت من طريق  
المسلمين قدر أثملة. قال: كيف أصنع؟ قال: إما أن تكشط ما طينته، وإما أن تقدم الحائط  
وتؤخره إلى وراء مقدار إصبع ثم طينه من خارج ففعل، فأقبل عليه كما كان. ويقال:  
أول ما أحدث الفتن أربعة: الموائد، والمناخل، والأشنان، والشبع، وكانوا يكرهون أن  
تكون أواني البيت غير الخزف ولا يتوضئون في آنية الصفر والنحاس.

وقال الجنيد: قال لي سري: أجهد أن لا تستعمل من آنية بيتك إلا جنسك يعني  
الطين. ويقال: لا حساب عليه.

(1) انظر هرج الأربعين للهنسي: (109).

(2) تقدمت ترجمته.

وقال ابن عباس: لا يأتي على الناس عام إلا أماتوا فيه سنة وأحيوا فيه بدعة. حتى يموت السنن وتحى البدع، وإنما قيل: منكر لأنه لا يعرف فإذا خفي الحق ولم يعرف وقع عليه اسم المنكر، وإنما قيل المعروف لأنه مشهور مألوف فإذا كثر الباطل وفشا الجهل حتى أُلِف وعرف، وقع عليه اسم المعروف. والحاصل أن البدعة سم الدين، فكما أن سم البدن منه ما يقتل من حينه، ومنه ما يختل منه مزاج البدن فينشأ عنه المرض، كذلك البدعة المحرمة سم قاتل. والمكروهة ممرضة لدين صاحبها.

وأخرج البيهقي أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن أبغض الأمور إلى الله تعالى البدع، وإن من البدع الاعتكاف في المساجد التي في الدور»<sup>1</sup>. وينبغي حمله على المعتزلات المهيئات للصلاة، فإن هذه لا يصح الاعتكاف فيها، بخلاف ما وقف منها مسجدا. وأخرج أبو داود عن حذيفة قال: «كل عبادة لم تفعلها الصحابة رضي الله عنهم فلا تفعلوها»<sup>2</sup>؛ أي إلا إن دل عليها دليل آخر. وإلا فكم من عبادة اتضحت عنه عليه السلام قولاً وفعلاً، ولم تنقل عن أحد منهم. وفي الحديث: «عمل قليل في سنة خير من عمل كثير في بدعة»<sup>3</sup>. وفيه: «خير الحديث: كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»<sup>4</sup>. رواه مسلم والترمذي. زاد البيهقي: «وكل ضلالة في النار».

وفيه: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم والمحدثات فإن كل محدثة بدعة»<sup>5</sup>. وفيه: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً فطوبى

<sup>1</sup> - السنن الكبرى للبيهقي تحقيق محمد عبد القادر عطا (316/4) برقم (8356) عن ابن عباس.

<sup>2</sup> - أخرجه الألباني في التوسل (27/1) بلفظ: «كل عبادة لم يتبعها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تتبعوها» وأخرجه في السلسلة

الغنية أيضاً.

<sup>3</sup> - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم: (9523) (72/7) ومصنف عبد الرزاق (291/11).

<sup>4</sup> - أخرجه مسلم، كتاب الجمعة برقم: (2005) عن جابر بن عبد الله. وليس في روايته «وكل محدثة بدعة» وأخرجه أحمد في

مسنده والنسائي وابن ماجه.

<sup>5</sup> - أخرجه الرافعي عن أبي هريرة. والديلمي في مسند الفردوس عن ابن مسعود وهو في فتح الباري

وقال أبو طالب المكي: فقد صار المعروف منكرا والمنكر معروفا، وصارت السنة بدعة والبدعة سنة. ولما ذكر ﷺ الفتن: قال بعضهم: ما تأمرني به يا رسول الله إن أدركني ذلك؟ قال عليه الصلاة والسلام: «كن حلسا من أحلاس بيتك»<sup>2</sup>.

قال ابن الحاج: يعني أنه يتخذ بيته كأنه ثوبه الذي يستر به عورته، فيلازمه، ولا يفارقه إذا عمت الفتن وكثرت. قال: وهذا موجود مشاهد؛ لأن مواضع العبادات جعلت للعادات بل بعض العبادات قد صارت اليوم وسائل للدخول في الدنيا، وأكلها وبعضهم يفعلها للرياء والسمعة في الغالب، فإذا كان الأمر كذلك فالهرب من مواضع العبادات المشتملة على هذه المفاصد العديدة بل قعود الإنسان في بيته أسلم له بل أوجب عليه إن قدر<sup>(3)</sup>.

## الفرق الإسلامية

وفي الحديث: «إن بني إسرائيل افرقت على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة. أو كما قال. فأصل هذه الثلاث والسبعين فرقة عشرة: أهل السنة، والخوارج، والشيعة، والمعتزلة، والمرجئة، والمشبهة، والجهمية، والصراذية، والنجارية، والكلابية»<sup>4</sup>.

فأهل السنة: طائفة واحدة. والخوارج خمس عشرة فرقة. والمعتزلة ست فرق. والمرجئة اثنتا عشرة فرقة. والشيعة: اثنتان وثلاثون فرقة. والجهمية والنجارية

<sup>1</sup> - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم: (372) وليس في مسلم: "من أمتي" وهي في نسخة الأحوذى (338/8).

<sup>2</sup> - تقدم تخريجه.

<sup>(3)</sup> انظر المدخل لابن الحاج: (302/1).

<sup>4</sup> - تقدمت تخريجه.



والصراذية والكلابية: كل واحدة فرقة واحدة. والمشبهة ثلاث فرق فجميع ذلك ثلاث وسبعون (1+15+6+12+32+4+3-73)

وأما الخوارج: فسموا "محكمة" لانكارهم الحكمين. وحرورية، وشرارة: لقولهم شرينا أنفسنا في الله أي بعناها. ومارقة: لمروقهم من الدين. وأكثر ما تكون الخوارج في الجزيرة وعمان والموصل وحضرموت ونواحي المغرب.

ومصنف الكتب لهم: عبد الله بن زيد، ومحمد بن حرب، ويحيى بن كامل، وسعد بن هارون<sup>(1)</sup>.

وأسماء فرقهم: النجدات: نسبوا إلى نجدة بن عامر الحنفي. وتميم: وهم أصحاب عبد الله بن ناصر. والأزارقة: أصحاب نافع بن الأزرق. والفريكية: نسبة إلى ابن فريك. والعطوية: نسبة إلى عطية بن الأسود. والعجاردة: وهم فرق كثيرة. والخازمية. والجهولية والصلتية: نسبة إلى عثمان بن الصلت. والأخنسية: نسبة إلى الأخنس. وتشعبت عنها الظفرية، والحفصية وهم أهل النهروان، ومنهم: الأباطلية. والبيهشية نسبة إلى أبي بيهش. والشمراخية: نسبة إلى عبد الله بن الشمراخ. والبدعية.

وأما الشيعة: فسموا بذلك لأنها شيعت عليا، وفضلته على سائر الصحابة. ورافضة: لرفضهم أكثر الصحابة. وغالية: لغلوهم في علي عليه السلام، بما لا يليق به من صفات الربوبية. ومصنف كتبهم: هشام بن الحكم، وعلي بن منصور وأبو الأحوص، والحسين بن سعيد، والفضيل بن شداد، وأبو عيسى الوراق، وابن الراوندي، والمنبجي. وأكثر بلادهم: قم، وقاشان، وبلاد إدريش، والكوفة.

(1) في نسخة: سعيد بن هارون.

## فيجب على من من الله عليه بالاتباع أن يحتجب سبيل الابتداء، ويقف مع الكتاب والسنة والجماع.

وعن الإمام أحمد قال: كنت يوما مع جماعة يتجردون ويدخلون الماء فاستعملت حديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر<sup>(1)</sup>» فلم أتجرد، فرأيت تلك الليلة في المنام قائلا يقول: أبشر يا أحمد فإن الله غفر لك باستعمال السنة. فقلت من أنت؟ فقال: جبريل، وقد جعلك الله إماما يقتدى بك. ورأى آخر النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله عسى أن تشفع لي. فقال: قد شفعت لك من اليوم الذي أحيت فيه سنتي.

وحكي أن موسى الهادي استحلف هارون الرشيد أنه متى أفضت الخلافة إليه لا يقرب جارية عنده فحلف له هارون بأيمان كثيرة منها المشي إلى مكة حافيا، فلما مات الهادي طلب هارون رخصة في نكاحها، فلم يسعفه الشافعي فتوعده وهدده فانصرف عنه الشافعي وقد رعب. ثم رأى في النوم كأنه قائم بين يدي الله تعالى؛ فتودي: يا محمد تثبت على دين محمد، وإياك أن تحيد فتضل، ألسنت بإمام القوم، لا وجل عليك منه، اقرأ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ الآية. فاستيقظت وأنا أقرأها. فصليت الصبح فوجدت في نفسي كسلا. فقبل لي هارون توجه عنك، فلا تخف ما دمت سنيا، وقرأ في نفسك إذا مشيت إليه دعاء الخائف، فإنك لا ترى منه إلا خيرا فانتبهت وجعلت أقول: "اللهم إليك أشكوا ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن لك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك لك العتي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك." قال: فما أكملت

(1) أخرجه أحمد (339/3)، رقم 14692

قراءته حتى جاءني الربيع وقال: أجب الخليفة فمشيت معه إليه، ورحب بي وتبسم وقال لي: نعم الإمام مثلك، لا تأخذه في الله لومة لائم، أعلم يا فقيه أني عوتبت الليلة في أمرك فانصرف راشدا فأنت الملحوظ والمحفوظ. وأمر له بعشرة آلاف دينار ففرقها بين يديه وانصرف.<sup>1</sup> وهذا كله ببركة التمسك بالسنة وتجنب البدعة.

وفي الحديث: «من مشى إلى صاحب بدعة ليوقره فقد أعان على هدم الإسلام»<sup>2</sup>. وفيه: «لا تقوم الساعة حتى تصير السنة بدعة، فإذا كثرت البدعة يقول الناس: تركت السنة». قال الشعراي: وذلك لتوارث الفروع البدع عن أصولهم، فلما طال زمن العمل بالبدعة ظنوا أنها سنة.

وروى الطبراني في المعجم الكبير بسنده إلى النبي ﷺ أنه قال: «يأتي زمان على أمتي وجوههم وجوه الآدميين، وقلوبهم قلوب الشياطين، أمثال الذئاب الضواري، ليس في قلوبهم شيء من الرحمة، سفاكون للدماء، لا يراعون عن القبيح، إن بايعتهم رابوك، وإن تواريت عنهم اغتابوك، وإن أتممتهم خانوك، وإن جادلوك كذبوك، فصبيهم عارم، وشابهم شاطر، وشيخهم لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، السنة فيهم بدعة والبدعة فيهم سنة. فعند ذلك سلط الله عليهم شرارهم، ويدعو خيارهم فلا يستجاب لهم. قراؤهم فسقة، وعظماؤهم شر ما تحت أديم السماء، فيهم خرجت الفتنة، وإليهم تعود»<sup>3</sup>.

وقال ابن مسعود: حسن الهدي في آخر الزمان خير من كثير من العمل. وقال: إنكم في زمان خيركم فيه المسارع في الأمور. وسيأتي زمان خيركم فيه المثبت المتوقف يعني لكثرة الشبهات. وقال حذيفة: أعجب من هذا أن معروفكم هذا منكر زمان قد

<sup>1</sup> - ذكر القصة القشني على الأربعين حاشية على الشرحية خاتمة المجلس الخامس (ص 46) بالفاظها كما هي.

<sup>2</sup> - أخرجه في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (231/1) عن معاذ بن جبل، والطبراني في الأوسط (35/7). برقم: (6772) عن عائشة.

<sup>3</sup> - انظر المعجم الكبير (309/9) برقم: (11006) عن ابن عباس ؓ.

مضى، وأن منكركم معروف زمان يأتي، وإنكم لن تزالوا بخير ما عرفتم الحق، وكان العالم فيكم غير مستخف. وكان يقول: في آخر الزمان قوم يكون العالم فيما بينهم بمنزلة الحمار الميت، لا يلتفتون إليه. يستخفي المؤمن فيهم كما يستخفي المنافق فينا اليوم، المؤمن فيه أذل من الأمة. وفي حديث أبي هريرة: «يأتي على أمي زمان من عمل فيه بعشر ما أمر به نجا»<sup>1</sup>. وفي رواية: «بعشر ما يعلم». وعن بعض الصحابة: أنتم اليوم في زمان من ترك منكم عشر ما يعلم هلك ويأتي عليكم زمان من عمل فيه بعشر ما يعلم نجا.

وقال حذيفة: أشد الفتن أن يعرض عليك الخير والشر فلا تدري أيهما تأخذ لكثرة الشبهات. وفي الخبر: «يأتي على الناس زمان يضلون فيه دينهم فلا يعرفونه، يصبح الرجل على دين ويمسي على دين يظل من أمره على غير يقين، تسلب عقول أكثر الناس في ذلك الزمان، فأول ما يرفع منهم الخشوع ثم الأمانة ثم الورع»<sup>(2)</sup>. وروي: «أول ما يرفع من الناس الألفة». قيل: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: لا تجالس أهل الأهواء فيحدثوا في قلبك ما لم يكن. وقال سهل بن عبد الله التستري: من داهن مبتدعا سلبه الله حلاوة السنن. وقال الدقاق: من استهان بأدب من آداب الإسلام عوقب بحرمان الفرائض. ومن استهان بالفرائض قىض الله له مبتدعا يذكر عنده باطلا فيوقع في قلبه شبهة.

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ لما حج حجة الوداع أمسك بيده حلقة الكعبة وهزم وبكى بكاء شديدا فقال أبو بكر الصديق: مم بكائك يا رسول الله؟ فقال: «وكيف لا أبكي وهذا آخر حجة لي لا أحج بعدها، وأبكاني فراق الكعبة وتوديع المسلمين».

<sup>1</sup> - أخرجه الترمذي في كتاب الفتن رقم: (2267) عن أبي هريرة. قال أبو عيسى: "هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث نعيم بن حماد عن سفيان بن عيينة" وضعفه الألباني.

<sup>(2)</sup> أخرجه في الطبقات الكبرى بإسناد إلى معاذ بن جبل: (588/3).

قال ﷺ: «ليبغ الحاضر الغائب؛ إن مثلكم كمثل ورق بلا شوك إلى سبعمائة سنة، ثم تكون أمتي ورقا وشوكا إلى تمام مائة سنة. ثم تكون أمتي شوكا بلا ورق، فلا ترى فيهم إلا سلطانا جائرا، أو غنيا بخيلا، أو عالما راغبا في المال أو عابدا مرائيا أو فقيرا كاذبا، أو تاجرا فاجرا، أو صانعا خائنا، أو شيخا غافلا، أو شابا فضيحا، أو امرأة لا حياء لها قال عكاشة: يا رسول الله؛ كيف يكون ذلك الزمان؟ قال: يكون فيه قوم يصومون ويصلون ويقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، أقوالهم أحلى من العسل، وأفعالهم أنتمن من رائحة البصل، قلوبهم مسودة بأعمالهم، وخبث سرائرهم. فقالوا: وما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: إذا أكرم الشعراء وأهين العلماء وتشاور النساء، وخلط في الأموال الربا، فيجعلون الدنيا فوق رؤوسهم، والعلم والقرآن وراء ظهورهم، قد صار الغش فاكهتهم، وغيبة الناس مجالسهم، فيرفعون الأصوات في المساجد بحديث الدنيا، لا يرحم غنيهم فقيرهم، ولا يوقر صغيرهم كبيرهم، زمان تركب فيه الفروج السروج وتأكل القضاة الرشا، ويشهد أجل العدل بالزور، ويخفى فيه الحق، ويظهر الباطل، ويشيد البناء، وتهان المساجد، ويظلم الأحرار عبيدُهم وتأكل الأم كسب فرج ابنتها، المؤمن بينهم ذليل، والفاجر عزيز. زمان يكون فيه الأمير كالأسد، والقاضي كالذئب، والتاجر كالثعلب، والفاسق كالكلب، والمؤمن كالشاة، ثم بكى رسول الله ﷺ وقال: يا لها من شاة بين أسد وذئب، وثعلب وكلب.»

وقال حذيفة: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني. فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر ف جاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، قلت فهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال نعم، وفيه دخن. قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجاهم إليها قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا. قلت:

فما تأمرني به إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: وإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يأتيك الموت وأنت على ذلك»<sup>1</sup>. أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما. والمراد بالجماعة: ما عليه جميع الأمة أو دهاؤهم: وهو طريق الجادة وظاهر السنة التي لا يشك في حقيقتها إلا مخذول أو مردول. قاله سيدي زروق.

وعن حذيفة أيضا «أنه عليه السلام أخذ حصاة بيضاء فوضعها في كفه وقال: «إن الدين قد استضاء إضاءة هذه. ثم أخذ كفا من تراب فجعل يذره على الحصاة حتى واراها ثم قال: والذي نفسي بيده ليجيئن أقوام يدفنون الدين كهذا كما دفنت هذه الحصاة»<sup>(2)</sup>.

وقال الفضيل: من أحب صاحب بدعة فقد أحبط الله عمله، وأخرج نور الإسلام من قلبه. وقال: لا يرتفع لصاحب بدعة عمل. وإذا رأيت صاحب بدعة في طريق فخذ في طريق آخر. وقال: من أعان صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام، ومن زوج كريمته من مبتدع فقد قطع رحمها. وقال: النظر إلى صاحب بدعة يورث العمى؛ لأن أكل عند اليهودي والنصراني أحب إلي من أن يأكل عند صاحب بدعة.

وقال في شرح الأربعين: أكثر ما يمكر عند الموت بأرباب البدع وأصحاب الآفات الباطنة، والظلمة المجاهرين بالمعاصي.

وقال سيدي زروق: اعلم أن للشارع في كل باب من المطالب إفادة، "وللأولياء فيه زيادة" فمن جمع بين إفادة الشارع وزيادة الأولياء كان على اهتداء واقتداء، ومن أفرد أحدهما كان نقصه بحسب ذلك. لكن نقص الاهتداء يمنع الفائدة، ونقص الاقتداء قد لا يضر لأنه مقوف فقط، والوقوف معه بهجران ما ورد شرعا مضر دينا وأخرى. قال وقد

<sup>1</sup> - البخاري في كتاب المناقب رقم: (3606)

<sup>(2)</sup> تقدم تخريجه.

تأملت ما عمت به البلوى في هذا الزمان لفقراء الوقت وفهقائه فإذا هو عشرة أشياء.  
فعد منها: المسارعة إلى نوافل الخير، والتكاسل عن القيام بحقوق الواجبات، وعدم  
تصحيح العمل بالعلم، كما هو شأن كثير من الجهال.

ومنها: أن شأن المريدين في بداياتهم تتبع الفضائل والأخذ بالغرائب والاعتناء  
بالفضائل العامة، وكل هذه موافقة الفتن والحن فإن تتبع الفضائل مدهش للنفس مشته  
للقلب، مؤد للفترة والكسل، موقع في البدع والأمور الخارجة عن الحق. فدع الغريب  
وما يريب، وعليك باتباع الجادة وهي: ماله أصل صحيح ومادة. وما رأيت من وقع في  
الفضائل العامة إلا وقع في شبه العامة. وخرج لكثير من المحرمات؛ كالقيام على الأمراء،  
وتفريق كلمة المسلمين. ولا من أخذ بالغرائب إلا وقع في مهاوى الفتنة ولا من تتبع  
الفضائل عن الجملة إلا وقع في شبه البدعة التي منها العمل بالموضوعات.

فأما الاغترار فمن الجهل بالزمان وأهله، وهو مؤد إلى الضلال. وأما اتباع  
الوساوس: فإن الوسوسة بدعة أصلها جهل بالسنة، أو خبال في العقل. وأما التعزز  
بالطريق: فمن الحمق والجهل بالطريق، إنما بنيت على الذل والتذل. حتى يأتيهم الله بعز  
من عنده، وعلى الفقر حتى يأتيهم الغني من غير التفات ولا تشوف ولا إشراف.

ومنها: أن الغالب على المريدين في هذا الزمان -إلا من عصمه الله- الاغترار بكل  
ناعق واتباع الوساوس، والتعزز بالطريق. ومنها: طلب الكمال بالترهات والترهات مع  
التساهل في أمر الدين؛ فتجد أحدهم يطمع في المقامات، ويطلب الفتح باسم الله  
الأعظم؛ والانتفاع بصحبة المشايخ ورؤيتهم، مع كونه لا ينفك عن محرم ولا يتحفظ عن  
كل شيء من أمر دينه، ولا يقيم صلاة، وهذا بمثابة من يطبخ الماء المجرد، ويطمع أن يجد  
في القدر لحما، وإنما جعل الله الشيخ مريباً لا خالعا، ومعينا لا موحدا. وأصل هذا كله:  
إنما هو الترخص والتأويل والجهل والابتداع في الدين. ومن ثم ضيق المضيق ووسع

الموسع. وكل ذلك مخالف للصراط المستقيم -إلا من عصمه الله- وقليل ما هم. ومنها: إحداث كفيات من العمل وغيره واتباع أهلها. والتبرؤ من ذلك كله بالأخذ بما بان رشده وداخله الاحتياط لا غيره. وليس ذلك إلا بتحقيق العلم والعمل بنصوص الشريعة. ومنها: أن كثيرا من الناس يعتقد العصمة في المشايخ، ويعتمد عليهم فيما بينه وبين ربه. ويرى اتباعهم في كل أمر كان مباحا أو غيره، أو يعترض عليهم في ارتكاب غير المحرمات أو يسقطهم من يده بالزلة، أو الزلات، بل غالب العامة إنما يريدون من يكشف لهم الغيب، أو يخالف الحكمة أو يخرق حرمة الشريعة، أو يستظهر بالأمور الشنيعة، انتهى.

وقال السنوسي: السنة في أزمنتنا هذه بين البدع كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، فمن لم يجاهد اليوم نفسه في تعلم العلم وأخذه من العلماء الراسخين -وما أندر اليوم وجودهم، وأعز لقاءهم- مات على أنواع من البدع والكفریات وهو لا يشعر. وأكثر الناس اليوم في درجة من الاعتقاد الفاسد والجهل المركب وما ذاك إلا لقرب هجوم أشراط الساعة الكبرى، وقلة العلماء الراسخين، وانعدام المتعلمين الصادقين، وتعرض الدجاجة ممن انتمى إلى الرهبانية على غير أصل علم، لقطع طريق السنة بجبال نصبوها مزخرفة، نسأله سبحانه حسن الخاتمة. انتهى.

ولبعض السلف: ثلاث لو كتبن في ظفر لوسعهن وفيهن خير الدنيا والآخرة (اتبع، لا تبتدع -اتضع، لا ترتفع. -اترع، لا تتسع) وهذه الكلمات قالها أبو العباس الأبياني الأندلسي<sup>(1)</sup>؛ كما ذكره اللقاني في شرح الجوهرة.

وقيل: إمائة بدعة: خير من إحياء سنة؛ لأن البدعة إذا تركت صارت سنة.

(1) عبد الله بن أحمد التونسي، أبو العباس المعروف بالأبياني: فقيه مالكي روى عنه جماعة، منهم ابن أبي زيد (386) والأصلي (392) وصف "مسائل السماصرة في البيوع - خ". توفي 352هـ. انظر شجرة النور: (173).



وكان مالك كثيرا ما ينشد هذا البيت:

وَحَيْرُ أُمُورِ الدِّينِ مَا كَانَ سُنَّةَ      وَشَرُّ الْأُمُورِ الْمُحَدَّثَاتِ الْبِدَائِعِ

وقال الخليل بن أحمد<sup>1</sup>: الناس أربعة:

- رجل يدري، ويدري أنه يدري: فهذا عالم فاتبعوه.

- ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فهذا جاهل فارفضوه.

- وآخر لا يدري ولا يدري أنه يدري: فهذا نائم فأيقظوه.

- وآخر لا يدري و يدري أنه لا يدري: فهذا جاهل فعلموه.

وقال السنوسي: ومن أطلق في ذم البدعة ولم يفصل: رأى أن البدعة على التحقيق لا تطلق إلا على القسم المحرم أو المكروه، فيحمل حديث: «كل محدث بدعة، وكل بدعة ضلالة»، والضلالة وأهلها في النار على البدعة المحرمة.

وقال القرافي: اتفق الأصحاب على إنكار البدع، نص على ذلك ابن أبي زيد وغيره. ولا يستقيم ذلك على ظاهره لأنها خمسة أقسام:

قسم واجب: وهو ما تناولته قواعد الوجوب وأدلته كتدوين القرآن والشرائع إذا خيف عليها الضياع، فإن التبليغ لمن بعدنا من القرون واجب إجماعا. وإهمال ذلك حرام إجماعا، فمثل هذا النوع لا ينبغي أن يختلف في وجوبه. قلت: ومن ثم لا يجوز اليوم الأخذ بالمذاهب التي لم تدون.

<sup>1</sup> - هو الخليل بن أحمد الأزدي الفراهيدي، أبو عبد الرحمن البصري، اللغوي، صاحب العروض والنحو صدوق عالم عابد، توفي نيفا وستين ومائة أو بعد ذلك. تقريب التهذيب (ص 135).

قال سيدي زروق في قواعده: ما دُوِّنَ من كلام الأئمة في كل فن فهو حجة لثبوته بتداوله ومعرفة أصوله، وصحة معناه، واتضاح مبناه، وتداوله بين أهله، واشتهار مسائله عند أئمته، مع اتصال كل عمن قبله، فلذلك صح ولزم، وإن انقرضت الرواية في أفرادها. وغير المدونة ليست كذلك، فلا يصح الأخذ بها، لانقراض جملتها، وقد ينخص ذلك ويعم كانقراض مذهب الليث، والسفيانيين عموماً، وسائر المذاهب سوى: المالكي في المغرب، والشافعي: بالعجم، والحنفي بالروم.<sup>1</sup>

وأما الحنبلي: فلم يوجد إلا مع غيره، فلزم كل ما تمكن صحة نقله، لا ما احتمل؛ ولهذا أفتى سحنون بأنه: لا يُفتي بالمغرب بغير مذهب مالك، ونحوه لابن الكاتب، وعند أهل مصر: أن العامي لا مذهب له، لتوفر المذاهب عندهم، حتى رأيت لهم على ذلك فروعا جمّة وفتاوى والله أعلم.

وتدوين المصنفات بدعة واجبة، حدثت بعد سنة عشرين ومائة، وبعد وفاة كل الصحابة وكبار التابعين. ويقال: أول مصنف صنف في الإسلام كتاب ابن جريج<sup>2</sup> في الآثار، وحروف من التفسير بمكة عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس، ثم كتاب معن بن راشد الصنعاني باليمن؛ جمع فيه سنناً مثورة مبنية على اليقين، وغاية معرفة علم الموقنين من علم التقوى وإلهام الرشد واليقين، فخلف من بعدهم خلف والله المستعان.

قال اللقاني في شرح الجوهرة: ومن البدع الواجبة كفاية: الإشتغال بالعربية المتوقف عليها فهم الكتاب والسنة، كالنحو والصرف والمعاني والبيان واللغة، بخلاف العروض ونحوه، ففيه بحث ظاهر وكالجرح والتعديل، وتمييز صحيح الأحاديث من سقيمها،

<sup>1</sup> - انظر القواعد (ص: 34) القاعدة رقم: 44.

<sup>2</sup> - هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي (مولاهم) أبو الوليد المكي، ثقة، فقيه فاضل، كان إمام أهل الحجاز في عصره، وهو أول من صنف التصانيف في العلم بمكة، رومي الأصل، مكّي المولد والوفاة. كان يدلس ويرسل (ت 150هـ). تقريب التقريب (ص: 304) ابن خلكان (286/1) بذكره الحفاظ (160/1).

وتدوين نحو: الفقه وأصوله وآلاته والرد على القدرية والجبرية والمجسمة، إذا دعت إلى ذلك حاجة؛ لأن حفظ الشريعة فرض كفاية فيما زاد على المتعين، كما دلت عليه القواعد الشرعية، ولا يتأتى حفظها إلا بذلك، وما لا يتم الواجب المطلق إلا به فهو واجب.

قسم محرم: وهو ما تناولته قواعد التحريم وأدلته كالمكوس، والمحدث من المظالم والمحدثات المنافية لقواعد الشريعة وكتقدم الجهال على العلماء، وتولية المناصب الشرعية من لا يصلح لها بطريق التوارث وجعل المستند في ذلك كون المنصب كان لأبيه، وهو في نفسه ليس بأهل.

قال اللقاني: ومن ذلك مذاهب القدرية والجبرية والمجسمة، والرد على هؤلاء من البدع الواجبة.

قسم مندوب إليه: وهو ما تناولته قواعد النذب وأدلته؛ كصلاة التراويح جماعة، وكإحداث الربط والمدارس، وكل إحسان لم يعهد في الصدر الأول، وكالكلام في دقائق التصوف، وفي الجدل، وكجمع المحافل في الاستدلال على المسائل، إن قصد بذلك وجه الله تعالى، قاله اللقاني. وكإقامة صور الأئمة، والقضاة، وولاة الأمر، على خلاف ما كان عليه الصحابة رضوان الله تعالى عن جميعهم. بسبب أن المصالح والمقاصد الشرعية لا تحصل إلا بعظمة الولاية في نفوس الناس، وذلك في زمن الصحابة إنما كان بالدين فقط، وسابق الهجرة والإسلام وفي من بعدهم: إنما يعظمون بالصور فيتعين تفخيمها حتى تصلح المصالح.

وقد كان عمر رضي الله عنه يأكل خبز الشعير والملح، ويفرض لعامله نصف الشاة في كل يوم، لعلمه أن الحالة التي هو عليها لو عملها غيره لكان في نفوس الناس، ولم يحترموه، وتجاوزوا عليه بالمخالفة، فاحتاج إلى أن يضع غيره في صورة تحفظ النظام، ولذلك لما

قدم الشام ووجد معاوية قد اتخذ الحُجَّاب والمراكب النفيسة الهائلة العلية، وسلك ما سلكه الملوك فسأله رضي الله عنهما عن ذلك، فقال له: أنا بأرض نحن محتاجون إلى هذا، فقال له: لا أمرك ولا أهلك. ومعناه: أنت أعلم بحالك. هل أنت محتاج إلى هذا؟ فيكون حسنا، أو غير محتاج، فدل ذلك من قول عمر رضي الله عنه ومن غيره على أن أحوال الأئمة، وولاية الأمر تختلف باختلاف الأمصار والأعصار والقرون، والأحوال، فكذلك يحتاجون إلى تجديد زخارف وسياسات لم تكن قديما، وربما وجبت في بعض الأحوال.

قسم بدعة مكروهة: وهي ما تناولته أدلة الكراهة وقواعدها: كتخصيص الأيام الفاضلة، أو غيرها بنوع من العبادات وزخرفة المساجد وتزويق المصاحف، وكزيادة في المندوبات المحدودة، كالتسبيح دبر الصلوات، وزكاة الفطر بسبب أن الزيادة فيها إظهار للاستظهار على الشارع، وسوء أدب معه، بل شأن العظماء من أهل الدنيا إذا حددوا شيئا وقف عنده، وعد الخروج عنه قلة أدب، والزيادة في الواجب أو عليه أشد في المنع من الزيادة في المندوب، لأنه ذريعة إلى اعتقاد وجوب الزيادة.

اللقاني: ولذا نهي مالك عن وصل ستة من شوال برمضان لكلا يعتقد أنها من رمضان، وكذا فعل عمر رضي الله عنه بمن وصل النفل بالفرض، يريد عمر أن من قبلنا وصلوا النوافل بالفرائض، فاعتقدوا الجميع واجبا. وذلك تغيير للشرائع وهو حرام إجماعا. ثم إن كراهة الزيادة إنما هي من حيث الزيادة فلا ينافي قول النووي إنه يثاب عليه، يعني من حيث أنه ذكر. انتهى.

قال زروق: روي أن رجلا كان يذكر دبر كل صلاة: سبحان الله والحمد لله والله أكبر. مائة مرة من كل واحدة. فرأى كأن قائلا يقول: أين الذاكرون الله أدبار الصلوات؟ فقام له، فقال له: ارجع فليست منهم، إنما هذه المزية لمن اقتصر على الثلاث والثلاثين. وكل ما ورد فيه عدد قصر عليه وكذا اللفظ.<sup>1</sup>

<sup>1</sup> - انظر القواعد (ص: 82) القاعدة رقم: 109.

نعم: اختلف في زيادة سيدنا في الأوراد من كيفية الصلاة عليه ﷺ والوجه أن يقتصر على لفظه فيما تعبد به، ويزاد حيث يراد الفضل في الجملة.

**قسم البدع المباحة:** وهي ما تناولته أدلة الإباحة. وقواعدها من الشريعة؛ كاتخاذ المناخل للدقيق ففي الآثار: أول شيء أحدثه الناس بعد رسول الله ﷺ: اتخاذ المناخل.<sup>(1)</sup> لأن تليين العيش وإصلاحه من المباحات فوسيلته مباحة وكالمصافحة عقب العصر والصبح. **قاله العلقمي.**

وكالتوسع في اللذيق من المأكول والمشرب والملبس، والمسكن، ولبس الطيالة وتوسيع الأكمام، وقد يختلف في بعض ذلك فيجعله بعض العلماء من البدع المكروهة، ويجعله آخرون من السنن المفعولة في عهده ﷺ فما بعده، وذلك كالاتعاذة وبسملة في الصلاة.

**وقال الفشني في شرح الأربعين:** لأهل البدع علامات: من أعظمها: عدم الاستواء والاستقامة في الصلاة فصلاهم معوجة، لعدم التراص في الصف وكثرة الفرج والخلل فيه، وتقدم الرجل وتأخيرها، وكذا الصدر والاستهزاء بالصالحين، وإهمال الذكر والقرآن، والاشتغال بالجدال والغيبة والهذيان. وقال الثوري: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية؛ لأن المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها.<sup>2</sup>

**وقال سهل:** إنما ظهرت البدعة على أيدي أهل السنة لأنهم ظاهروهم وتأولوهم فظهرت أقاويلهم وفشت في العامة، فسمعها من لم يسمعها، ولو تركوهم ولم يكلموهم لمات كل واحد منهم على ما في صدره. ولم يظهر منه شيء.<sup>3</sup>

<sup>(1)</sup> هذه الأقسام ذكرها القراني في الذمعة باختصار وقد فصلها المؤلف هذا التفصيل الذي رأينا. انظر الذمعة: (234/13).

<sup>2</sup> - انظر الفشني على الأربعين حاشية الشرحي: (ص: 187) المجلس: 28.

<sup>3</sup> - أورده الفشني م.س (ص: 186).

فائدة: إنكار ما ابتدعه المسلمون على وجه القربة مما لم يخالف الشرع من الجهل، كما قاله علي الخواص. إذ لو كان كل ما سكت عنه الشارع مذموماً؛ لتعدّي ذلك إلى مذاهب المجتهدين ولا قائل به. وقد حكم الشارع لحكيم بن حزام حين أسلم بالخير، وكان قد سأله عن أمور فعلها في الجاهلية من عتق وصدقة، وصلة رحم، فسمى ذلك الفعل الذي فعله حكيم في الجاهلية على غير قدم الاتباع خيراً. قاله في شرح شهية السماع<sup>(1)</sup>.

وقال صاحب كتاب التشوف: إن للصالحين أحوالاً ينكرها كثير من الناس فأردت الإتيان باستنادهم فيها إلى الشريعة<sup>(2)</sup>. وذكر الأستاذ الحكيم سعد بن أحمد بن إبراهيم بن ليون التجيبي<sup>3</sup> منها تسعين أمراً. وذكر دليل كل واحدة فمن أراد الوقوف عليها فلينظرها هناك. فمنها: الذكر أمام الجنائز، ومجالس الوعظ. ومنها: اتخاذ السبحة: فإن لها أصلاً أصيلاً عن بعض أمهات المؤمنين، ورثت بيد الجنيد سبحة فقيـل له: أنت مع شرفك ممسك سبحة؟ فقال: آله وصلتنا إلى ما وصلتنا إليه، والله لا نتركها أبداً، ولها سند معروف إلى الحسن البصري، كل يرى في يدي شيخه سبحة ويقول له: أنت إلى الآن مع السبحة؟ فيقول: كذلك رأيت أستاذي.

وقال الحسن البصري: هذا شيء كنا استعملناه في البداية ما كنا لنتركه في النهاية، أنا أحب أن أذكر الله بقلبي ولساني ويدي.

وقال أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن الرداد: يتبين من قول الحسن البصري أن السبحة كانت موجودة متخذة في عهد الصحابة رضي الله عنهم.

(1) انظر شرح شهية السماع: (26).

(2) انظر التشوف إلى رجال التصوف: (50).

<sup>3</sup> - هو أبو عثمان، من علماء الأندلس وأدبائها المتقدمين، له أكثر من مائة مصنف في مختلف الفنون؛ منها: كتاب كمال الحافظ في المواعظ، وأنداء الدم في الحكم، نصائح الأحباب وصحائف الآداب، واختصر كثيراً من الكتب، وشعره كله حكم ووعظ (ت 750هـ). انظر نفع الطيب (289/3) دائرة البستاني (257/2).

قال زروق: ولعقد الأعداد وجه في الشرع: إذ قال عليه الصلاة والسلام: «لنساء من المؤمنات أعقدن بالأصابع فلهن مستنطقات مسئولات»<sup>(1)</sup>. وأقر بعض أزواجه على تسبيحها بنوى كان بين يديها، وكان لأبي هريرة خيط قد ربط فيه خمسمائة عقدة يسبح الله فيها. قيل: والسبحة أعون على الذكر وأدعى للدوام، وأجمع للفكر، وأقرب للحضور، وأعظم للثواب إذ له ثواب أعدادها وما تعطلت فيه لضرورة، أو تعطل منها لغلط ونحوه.

ومنها: ابتداع الأحزاب: قال في شرح شهية السماع: كره بعضهم ابتداعها. وقال: إن فيما ورد في الشريعة غنية عن ذلك، والحق تعالى؛ لا يجالس العبد إلا فيما شرعه نبيه ﷺ. ولما اعترض بعض الفقهاء على الشاذلي في ابتداع حزبه المسمى بـ "حزب البحر" قال الشيخ: والله لقد أخذته من في رسول الله ﷺ حرفا بحرف. انتهى<sup>(2)</sup>.

وقال ابن عباد: الحزب من روابح<sup>(3)</sup> الدين التي يتعين التمسك بها لذهاب حقائق الديانات في هذه الأزمنة. وإن كان بدعة فهو مما اختلف فيه. وغاية القول فيه: الكراهة، فصح العمل به على قول من يقول به.

ومنها: التفرغ للعبادة دون تعلق بحرفة وكذلك كان أهل الصفة من أصحابه ﷺ. كما أخرجه البخاري عن أبي هريرة، قال: أهل الصفة: لا ياوون على أهل ولا مال، ولا أحد، إذا أته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا أو هدية أشركهم فيها. والحجة في ذلك إقراره ﷺ لهم على ذلك.

ومنها: لبس المرقعات لمن لا يجد غيرها: فقد لبسها الصحابة كمصعب بن عمير

<sup>(1)</sup> أخرجه الحاكم في المستدرک: (2007) والطبرانی في الأوسط بلفظ: «عليكن بالتسبيح والتهليل واعقدن بالأنامل فلهن يأتين يوم

القيامة مسئولات مستنطقات ولا تغفلن فتنسين الرحمة».

<sup>(2)</sup> انظر شرح شهية السماع: (260).

<sup>(3)</sup> في نسخة: من روابح الدين.

وعمر وعلي عليهما السلام. وفي الجواهر الصوفية أن عليا قال: رقت مدرعتي هذه حتى استحيت من رقعها.

وقد قيل: إن أول من رقع آدم وحواء عليهما السلام. وقيل في حديث: «حسن العهد من الإيمان<sup>(1)</sup>». أن من حسن العهد ترقيع الثوب الخلق، فإن لم يتمكن من لبسه فليجعل منه عصاة ويشدها في وسطه ويجعل الثوب الجديد فوقها، ولا يزهد فيه إذا خلق ويترك لبسه. قال الملاي: كذا سمعته من سيدي محمد بن يوسف.

ومنها: لبس الخرقة: فقد ألبس الشيخ إبراهيم التازي الخرقة الشريفة الطاهرة المطهرة للشيخ محمد بن يوسف السنوسي بسندهما المعروف إلى الشيخ المعمر إلى القطب الكبير أبي محمد صالح إلى الغوث الفرد الجامع أبي مدين شعيب إلى أبي بكر بن العربي من الغزالي من إمام الحرمين من أبي طالب المكي إلى الإمام الجنيد إلى علي الرضى من أبيه موسى الكاظم من أبيه جعفر الصادق من أبيه محمد الباقر من أبيه زين العابدين من أبيه الحسين من أبيه علي بن أبي طالب من المصطفى عليه السلام.

ومنها: المصافحة: فقد صافح محمد بن يوسف شيخه إبراهيم التازي بسندهما المعروف إلى المعمر، وهو صافح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: من صافحني أو صافح من صافحني دخل الجنة. وشدد سيدي إبراهيم على يد الشيخ سيدي محمد بن يوسف وقال: المراد بهذا الشد: الاشتداد في تأكيد الصحبة.

ومنها: المشابكة: فقد شابك سيدي إبراهيم: سيدي محمد بن يوسف فقال له: شابكني فمن شابكني دخل الجنة. بسندها المعروف أيضا إلى أبي الحسن الباغوراوي. قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم فشبك أصابعه بأصابعي وقال: يا علي شابكني فمن شابكني دخل الجنة، ومن شابك من شابكني فما زال يعد حتى وصل إلى سبعة. ثم

(<sup>1</sup>) أخرجه الحاكم (62/1)، رقم 40، وقال: صحيح على شرط الشيعين



استيقظت وأصابني في أصابعه ﷺ. وهكذا ينبغي لكل من شابك أحدا أن يقول له: شابكني... إلى آخره. كما قال ﷺ للباغوراوي.

ومنها: الضيافة بسندها المعروف. ومنها: تلقين الذكر بسنده المعروف إلى رسول الله ﷺ. ومنها: حديث الرحمة. ذكر هذا كله في المواهب القدسية. بخ.

وقال سيدي زروق: لبس الخرقة، ومناولة السبحة، وأخذ العهد، والمصافحة، والمشابكة: من علم الرواية إلا أن يقصد بها حال فتكون لأجله<sup>(1)</sup>.

وقد ذكر ابن أبي جمرة أخذ العهد في باب البيعة. وألحقه بأقسامها، وأخذوا لباس الخرقة من أحاديث وردت في خلعه عليه الصلاة والسلام على غير واحد من أصحابه، ومبايعته لسلمة بن الأكوع تشهد لإيداع السر فيها. وكذا مبايعته عليه الصلاة والسلام بعد تحقيق الإيمان وتقرره في قلوبهم؛ إنما هو لذلك، ويجري حكم الإرث والتأسي فيها كغيرها. وفيها أسرار خفية يعلمها أهلها. والله أعلم.

## تقوى الله ظاهرا وباطنا

ثم أشار إلى الركن السابع من أركان التصوف بقوله: (وَتَقْوَى اللَّهِ) التقوى لغة: اتخاذ الوقاية وهي ما بقي الإنسان ويحفظه ويحول بينه وبين ما يخافه. مثاله: الترس، ونحوه من الأجسام. والصدق والصدقة من الأفعال. فالمتقي جعل بينه وبين المعاصي وقاية من قوة عزمه على تركها، واستحضار علمه بقبحها.

وفي المنهاج للغزالي: قال شيخنا: أصل لفظة التقوى في اللغة: الوقوى بالواو وهو مصدر الوقاية، يقال: وقى بقي وقاية ووقوى فأبدلت عن الواو تاء كما هو في الوكلان

(1) انظر قواعد التصوف: (القاعدة 158).

والتكلان، والتقوى جمع تقاة. والتقوى شرعا: اجتناب كل ما يبعد عن الله تعالى من الآثام وما يجر إليها.<sup>1</sup> وهي قسمان: التقوى (ظَاهِرًا) وهو كف الجوارح الظاهرة عن الحرام وحفظها عما لا تؤمن عاقبته (وَ) الثاني: التقوى (بَاطِنًا) وهو مراقبة الله تعالى والظاهرة: تدرج صاحبها إلى الباطنة.

وفي ابن عاشر: ما يدل على أن أقسام التقوى أربعة: اجتناب المنهيات في الظاهر والباطن، وامتنال المأمورات في الظاهر والباطن. والاجتناب والامتنال الباطنيان مرجعهما للنية فينوي فعل الطاعة واجتناب المعصية.<sup>2</sup>

وللتقوى ثلاث مراتب: الأولى: التوقي من العذاب المخلد بالتبري من الشرك وعليه قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾. والثانية: التجنب عن كل ما يؤثم حتى الصغائر عند قوم. وهذا التجنب هو المعروف بالتقوى في الشرع وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾. والثالثة: أن يتزهد عن كل ما يشغل سره عن الحق تعالى، وهذه هي التقوى في الحقيقة المطلوبة بقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾.

وقال بعضهم: إن أدنى رتبة الاجتهاد هو اجتناب المحرم وهو الورع ثم اجتناب الشبهات وهو التقوى، ثم اجتناب ما لا بأس به خوفا مما به بأس. وهو الصدق في التقوى، كترك الرِّي والشبع والنظر؛ لتحريكها الشهوة، ثم اجتناب ما ليس له تعالى، وهو الصدق المطلق، كترك خطوة أو لقمة ليس فيها نية عبادة.

<sup>1</sup> - انظر المنهاج (ص: 27) وما بعدها.

<sup>2</sup> - إشارة إلى قوله:

وحاصل التقوى اجتناب وامتنال	في ظاهر وباطن بذا تنال
فجاءت الأقسام حقا أربعة	وهي للسالك سبل المنفعة

وقال الغزالي: اعلم أن التقوى كثر عزيز فلان ظفرت به فكم تجد فيه من جوهر شريف وعلق نفيس وخير كثير ورزق كريم وفوز كبير وغنم جسيم وملك عظيم فكان خيرات الدنيا والآخرة جمعت فجعلت تحت هذه الخصلة الواحدة التي هي التقوى، فعليك بها، إن أردت العبادة، بل إن أردت سعادة الدنيا والعقبى. ولقد صدق القائل:

مَنْ اتَّقَى اللَّهَ فَذَاكَ الَّذِي سَبَقَ إِلَيْهِ الْمَتَجَرُّ الرَّابِعُ  
والقائل أيضا:

مَنْ عَرَفَ اللَّهَ فَلَمْ تُغْنِهِ مَعْرِفَةُ اللَّهِ فَذَاكَ الشَّقِي  
مَا يَصْنَعُ الْعَبْدُ بَعِزُّ الْغَنِيِّ وَالْعِزُّ كُلُّ الْغِزِّ لِلْمُتَّقِي

وكتب على بعض القبور:

لَيْسَ زَادَ سِوَى التَّقَى فَخُذِي مِنْهُ أَوْدَعِي

وقالت عائشة رضي الله عنها: ما أعجب رسول الله ﷺ شيء من الدنيا ولا أعجبه أحد إلا ذو تقى.

وعن قتادة أنه قال: مكتوب في التوراة: يا ابن آدم اتق الله ونم حيث شئت. وذكر أن بعض الصالحين قال لبعض أشياخه: أوصني: قال: أوصيك بوصية الله رب العالمين للأولين والآخرين: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾.

قال الغزالي: حد التقوى الجامع: تزيه القلب عن شر لم يسبق عنك مثله بقوة العزم على تركه حتى يصير ذلك وقاية بينك وبين كل شر. ثم الشرور ضربان: شر أصلي، وهو ما نهى عنه كالمعاصي المحضه. وشر غير أصلي؛ وهو ما نهى عنه تأديبا، وهو فضول الحلال كالمباحات المأخوذة بالشهوات.

فالأول: تقوى فرضي يلزم بتركه عذاب النار. والثاني: تقوى خير وأدب يلزم بتركه الحبس والحساب والتعير واللوم. فمن أتى بالأول فهو في الدرجة الدنيا من التقوى، وهو منزلة مستقيمي الطاعة، ومن أتى بالآخرى فهو في الدرجة العليا من

التقوى وذلك منزلة مستقيمي المباح فإذا جمع العبد بينهما على اجتناب كل معصية وفضول فقد استكمل معنى التقوى وقام بحققها. انتهى.

قال زروق في قواعده: غاية اتباع التقوى: التمسك بالورع، وهو ترك ما لا بأس به خوفا مما به بأس كما صح: لا يبلغ أحد درجة المتقين حتى يدع ما حاك في الصدر. وشك بلا علامة وسوسة. وورع بلا سنة بدعة. ومنه: التورع عن اليمين في الحق بالحق من غير إكثار فلا يصح قول من قال: "من الديانة أن لا تحلف بالله صادقا ولا كاذبا"، لما استفاض من آثار السلف، والأحاديث، بل في الحديث: «إن الله يحب أن يحلف به فاحلفوا بالله وبروا بيمينه واصلقوا»<sup>1</sup>. ونهى الله تعالى أن يجعل عرضة للأمان؛ فليتنق وقوعه غاية ولا يجتنب بالكلية. والله أعلم.<sup>2</sup>

ثم قال: من كمال التقوى: وجود الاستقامة وهي: حمل النفس على أخلاق القرآن والسنة؛ كالغفو والأمر بالمعروف والإعراض عن الجاهلين، ودفع السيئة بالحسنة. وكقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا...﴾ الآيات. إلى غير ذلك. ولا يتم أمرها إلا بشيخ ناصح أو أخ صالح يدل العبد على اللائق به في إصلاح حاله؛ إذ رب شخص ضره ما نفع غيره، ويدل على ذلك اختلاف أحوال الصحابة في أعمالهم ووصايا رسول الله ﷺ لهم. ومعاملته معهم، فنهى عبد الله بن عمر عن سرد الصوم. وأقر عليه حمزة ابن عمرو الأسلمي.<sup>3</sup> وقال في ابن عمر: «نعم الرجل لو كان يقوم من الليل»<sup>4</sup>، وأوصى أبا هريرة بأن لا ينام إلا على وتر، وأمر أبا بكر برفع صوته، وعمر بالإخفاء، وتفقد عليا وفاطمة لصلاتهما من الليل، وعائشة تعترض بين يديه اعتراض الجنابة فلم يوقظها. وأعلم معاذ بأن من قال: لا إله إلا الله وجبت له الجنة.<sup>5</sup> وأمره

<sup>1</sup> - أخرجه أبو نعيم في الحلية (267/7) والديلمي (101/1) رقم: 333 عن ابن عمر.

<sup>2</sup> - انظر القواعد (ص: 47) القاعدة رقم: 63.

<sup>3</sup> - أخرجه الدارمي (379/1) رقم: 1400. وابن أبي شيبة في مصنفه (244/7) عن ابن عمر.

<sup>4</sup> - أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة رقم: (3670) عن عبد الله بن عمر.

<sup>5</sup> - تقدم تخريجه.

بإخفاء ذلك عن كل الناس. وخص حذيفة بالسِر، وأسر لبعض الصحابة أذكارا .  
ترغيبه في الخير عموما. وهذا كله تربية منه ﷺ في مقام الاستقامة. والله أعلم.<sup>1</sup>  
وقال عمر بن عبد العزيز: لا يبلغ أحد مقام التقوى حتى لا يكون له فعل ولا قول  
يفتضح به في الدنيا والآخرة. وقيل له متى يبلغ العبد سنام التقوى؟ فقال: إذا وضع جميع  
ما في قلبه من الخواطر في طبق، وطاف به في السوق، ولم يستحي من شيء فيه.

# الباب الأول

## في الخلق

(البَابُ الْأَوَّلُ فِي الْخُلُقِ: اعْلَمْ أَنَّ الْإِلْتِفَاتَ بِالْقَلْبِ (إِلَى الْخُلُقِ) بالنظر إليهم والوقوف معهم وحب مدحهم وبغض ذمهم والطمع فيهم والخوف منهم، والشكوى إليهم (حِجَابٌ) للعبد عن الوصول إلى مقام الإحسان وإلى الله فالحجاب مضاف إلينا لا إليه إذ لا يصح الحجاب في حقه تعالى.

وقال أبو الحسين الوراق<sup>1</sup>: الأنس بالخلق وحشة. والطمأنينة إليهم حمق، والسكون إليهم عجز، والاعتماد عليهم وهن، والثقة بهم ضياع، وإذا أراد الله بعبد خيرا جعل أنسه به، وبذكره، وتوكله عليه، وصان سره عن النظر إليهم، وظاهره عن الاعتماد عليهم فالملتفت إلى الخلق محجوب، وكل محجوب عن محبوبه فهو محول بينه وبين ما يشتهي، محترق بنار الفراق، ولذلك قال العارفون: ليس خوفنا من نار جهنم، ولا رجاؤنا للحرور، إنما مطلبنا اللقاء ومهربنا من الحجاب فقط، ونار الحجاب إذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام، فإن نار الفراق نار الله الموقدة التي لا تطلع إلا على الأفئدة، ونار جهنم لا شغل لها إلا مع الأجسام، فألم الأجسام يستحققر مع ألم الفؤاد ولذلك قيل:

وَفِي فِرَاقِ الْمُحِبِّ نَارَ جَوَى أَحَرَّ نَارِ الْجَحِيمِ أَبْرَدَهَا  
ولا ينبغي أن ينكر هذا في الآخرة. إذ له نظير في الدنيا، ومدبر الدنيا والآخرة واحد وسنته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبديل لها، فقد ريء من غلب عليه الوجد

<sup>1</sup> - واسمه محمد بن سعيد، من كبار مشايخ نيسابور، كان عالما بعلوم الظاهر. ويتكلم في دقائق علوم المعاملات وعبود الأفعال، مات قبل العشرين وثلاثمائة. من كلامه: "حياة القلب في ذكر الحي الذي لا يموت" و "العيش الهنيء مع الله لا غير" انظر للاستزادة طبقات الصوفية للسلمي (ص: 299).

قاعدا على النار وعلى أصول القضب الجارحة للقدم وهو لا يحس بها لفرط غلبة ما في قلبه، وريء الغضب ان يستولي عليه الغضب في القتال فتصيبه الجراحات وهو لا يشعر بها في الحال؛ لأن الغضب نار في القلب، واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الأجساد، والأشد: يبطل الإحساس بالأضعف. قاله الغزالي<sup>(1)</sup>.

ولما كانت حجب الوصول أربعة: الهوى، والشيطان، والدنيا، والناس. وأقواها: حجاب هوى النفس: لأن حجاب الناس يزول بالعزلة عنهم. وحجاب الدنيا يزول بالزهد في الدنيا، وحجاب الشيطان يمكن دفعه بالذكر والحوقة والتلاوة. والنفس لا تدفع بشيء إلا بالالتجاء إلى الله تعالى، بدأ بأشدها وأقواها وهو هوى النفس. فقال:

---

(<sup>1</sup>) انظر إحياء علوم الدين: (24/4).

# (1) المـوى

(وَمِنَ الْخَلْقِ الْهَوَى) بالقصر والجمع: أهواء، وبالمد ما بين السماء والأرض، والجمع أهوية، والهوى مصدر هويته من باب تعب، إذا أحببته وعلقت به، ثم أطلق على ميل النفس وانحرافها نحو الشيء. ثم استعمل في ميل مذموم وهو تولع النفس إلى محبوبها، وميلها إلى مرغوبها، ولو كان فيه هلاكها من غير التفات إلى عاقبة الأمر وما فيه نجاتها. قال الشاعر جامعا بين الهوى والهواء بالقصر والمد:

جُمِعَ الْهَوَاءُ مَعَ الْهَوَى فِي أَضْلَعِي فَتَكَامَلَتْ فِي أَضْلَعِي نَارَانِ  
فَقَصَرْتُ بِالْمَمْدُودِ عَنْ تَيْلِ الْمُنَى وَمَدَدْتُ بِالْمَقْصُورِ فِي أَكْفَانِي

قال بعض الأمراء لأحد العارفين: سلمي حاجتك. فقال له: أولي تقول هذا؟ ولي عبدان هما سيداك؟ قال ومن هما؟ قال: الحرص، والهوى. قد غلبتهما وغلباك، وملكتهما وملكاك.



## (2) الشيطان

وَمِنْ أَوَّلِ مَنْ خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ (الشَّيْطَانُ فَاعْصِيهِمَا) لقوله تعالى: «وَمَنْ أَضَلُّ بِمَنْ أَتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ» ولحديث: «العاجز من أتبع نفسه هواها»<sup>(1)</sup>.  
حديث: «آفة الدين الهوى»<sup>(2)</sup> قال الشاعر:

إِنَّ الْهَوَانَ هُوَ الْهَوَى قَلْبَ اسْمُهُ فَإِذَا هَوَيْتَ فَقَدْ لَقَيْتَ هَرَوَانًا  
رعصيان الهوى: ألا تميل بنفسك ولا بقلبك ولا بروحك، ولا بعقلك، ولا ببعضك،  
ولا بكلك، ولا بسرک، ولا بعلائيتك، إلا إلى الله تعالى، أي ميلك إلى الله تعالى وحبك  
له، وبغضك وقضاء حوائجك منه، وما أشبه ذلك فإن ملت إلى شيء من هذا عن الله  
تعالى فقد اتخذته ندا لقوله تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا».

وذكر أن راهبا نصرانيا كان يعبد في صومعته فلا يأتيه ذو عاهة إلا ويبرأ بجر يده  
عليه، فسمع به رجل صالح فتعجب من ذلك فأتاه فسأله بم بلغت هذه المترلة؟ فقال:  
بمخالفة هوى النفس. فقال له الرجل: عرضت عليها لا إله إلا الله قط؟ قال: لا، ولا  
أعرفها. فقال له: دعني إلى غد فأني أعرضها عليها هذه الليلة. فذهب الرجل الصالح،  
فلما أتاه من الغد قال له النصراني: امدد يمينك أنا أقول: لا إله إلا الله، قال له: عرضتها  
على نفسي البارحة فنفرت منها غاية النفور، فقلت: إن فيها رضى الله. وليكن من  
دعائك: اللهم ملك لنا أنفسنا بخير، ولا تسلطها علينا. انتهى.

وأما الشيطان فعصيانه مخالفته في كل ما دعاك إليه من الشر والخير. ولا تقصر في  
مجاهدته، وابدل مجهودك فيها بلا غفلة ولا سهو واستعن بالله فيه، وافزع إليه بالفقر،

(1) الترمذی (638/4 ، رقم 2459) وقال : حسن . وابن ماجه (1423/2 ، رقم 4260)

(2) البيهقي في شعب الإيمان (158/4 ، رقم 4647)

واللجأ والاضطرار فإنك لا حيلة لك ولا قوة إلا به، فإنه لا يالك بك كل حيلة يهلكك بها، ولا يريد بك إلا أن ترد معه حيث يرد جهنم ويغضب الله عليك، فاحذر منه فإنه أول من عصى، وقد عاند الله تعالى في عبده آدم، وضاده في ذريته، وعاند أولياء الله من الأنبياء والصديقين، وأصفياه من الخلق أجمعين، فإن مكائده على أنواع شتى. فأول ما يأمر بك به: الكفر، فإن لم يقدر عليك فيأمرك بالشرك، فإن ائتمرت وإلا أمرك بالشك، فإن ائتمرت وإلا فبالزيف، في كل ذلك يزين لك ويبين لك ويريك النصيحة، ونصيحته خديعة محضة، وما ذلك إلا ليستفز منك ولو بحرف واحد، فإنه يقنع منك به، فإن لم يقدر عليك في هذا كله أمرك بالكبائر، وإلا فبالصغائر، فإن ائتمرت وإلا فبالنظر لعيوب الناس، ليشغلك بها عن كمون دسائس نفسك، فإن لم يقدر عليك بالمعاصي، أمرك بالطاعة وذلك لوجهين: أحدهما: يأمرك بإفراط المجاهدة ليخرجك بها عن السنة، وتحقر بها الأمة، ليوقعك في البدعة والتكبر، وتركية النفس. والآخر: يقول لك: أنت الآن وصلت وقد تركت الكفر وجميع المعاصي ليغيبك عن تقصير نفسك ويوقعك في الدعوى.

ومن ذلك أنه يقول لك: ما بقي إلا أن ترى الناس فعلك ليشهدوا فيك بالصلاح، لحديث: «من شهد فيه اثنان كان الله ثالثهما<sup>(1)</sup>». فترجع كلما تعمل عملا من أعمال البر ما تعلمه إلا لتراعي الناس، فما ذلك إلا ليخرجك عن الإخلاص. ومن ذلك: أن يزينك الشيطان في أعين الناس، ويأمرهم بتعظيمك وتقيل يدك ويطلبون خاطرك، وما ذلك إلا لترى أن لك قيمة تستحق عليها ذلك.

ومن ذلك: أن يأمر الناس بأن يقولوا لك: تكون شيخنا، ويرى لك حديث علي عليه السلام: «لأن يهدي الله على يدي رجلا خيرا لي مما طلعت عليه الشمس». فتقبل الشياخة وأنت لم تعلم دسائس نفسه ويرى لك علوما ويسوق لك فيها شواهد من مشكلات

(1) لم أجد تخريجه.

الآيات والروايات لتحرف حكمها عن موضعه، فيخرجك عن حكم الشريعة، فتحلل الحرام وتحرم الحلال، فإذا لم يقدر عليك وبرئت من حولك وقوتك، وأخلصت عبادتك ولا رأيت لنفسك قيمة على ذلك، ولم تبدل ولم تغير في حكم ربك، كل ذلك بالله ومن الله وإلى الله، ورأى أنك قد استقمت على ذلك وخالفته في كل ما احتال عليك؛ فحينئذ يصرخ في جميع الشياطين ليعينوه فيك، فيحاربوك على ما ذكرنا أشد محاربة. فإذا لم يقدر عليك فينفخ في الماء، فكل من شرب من ذلك الماء يمرضك، وما ذلك إلا ليضيق عليك ليدخل معك القنوط والملل فيبغضك جميع الناس حتى أبواك وأولادك ولهذا قالوا: لا يكون الصديق صديقا حتى يشهد فيه ألف صديق أنه زنديق. فإذا هان عليك هجران الخلق في جنب الحق ورأى أنك قد وطنت نفسك على ذلك، فيرجع ويقول لك: أنت تريد أن تدخل الجنة بعملك، فإن غيرك أكثر اجتهدا منك، ومات على غير الشهادة، مثل برصيص العابد وغيره، فلا يزال يحاربك بأنواع المحاربة عسى أن تقصر فيما أنت فيه أي تفرط في جنب الله تعالى، فإذا غلبك وردك إلى الشهوة والتقصير؛ مسح على وجهك ويقول: هذا وجه لا يفلح أبدا. ولهذا قيل: من لم يكن في زيادة فهو في نقص. وقالوا: من نقص فقد سقط من عين الله تعالى. فإذا لم يقدر عليك وثبتك الله في طاعته؛ انهزم الشيطان. ويقول الله تعالى: يا جبريل: ناد في السموات والأرض إن الله قد أحب فلانا فأحبوه، ويزل محبته في الماء، فكل من شرب من الماء يحبه، فتلك هي المحبة المستقيمة التي هي من الله تعالى، وبأمر الله. فحينئذ: يوضع له القبول في الأرض فيحبه جميع المؤمنين، ويبغضه ويحسده جميع المنافقين، فحينئذ ما يبقى له من حيلة<sup>(1)</sup>.

غير أن النفس هي وزيرته ومعها شيء من طبيعته، والنفس مثل ورقة في طرف شجرة أقل شيء يهزها، فينفخ فيها اللعين من بعد فيخبرها في تلك النفخة بما تميل إليه من طبائعها فيلهمها لطلبه، فإن غلبتك نفسك وقنعت بما زين لك حجت عما فوقها،

(<sup>1</sup>) انظر منهاج العابدين (ص: 26).

وما ذلك من الشيطان إلا ليقول درجتك حسدا منه فيبقى يلهم النفس درجة بعد درجة عسى أن تبقى مع واحدة فتحجب عما فوقها، وذلك مكر من الشيطان وجهل من النفس بما وراء ذلك، فأول ما يرى لك عذاب النار ونعيم الجنة، عسى أن تعبد بنية الخوف من النار، والطمع في الجنة، فإذا لم يقدر عليك ورأى أنك تعلو عن ذلك؛ يرى لك الكرامات عسى أن تعبد بنيتها، ثم علو الدرجات، ثم كمال المقامات، ثم القرب ثم الوصال، ثم الأنوار والأسرار، ثم الفناء ثم البقاء، ثم الأنس، ثم المحادثة والمكاملة ثم النظر للمولى. فإذا لم يقدر عليك ورأى أنك فנית في عظمتة تعالى، حتى لم تشاهد سواه وترى الأمور كلها منه، وإليه انهزم الشيطان، وينقطع ويأس أن يحجبك عن الله تعالى بشيء ولكن ما يزال يطمع ويحتال عليك، وأنت ما تزال تحذر منه، وتتهمه في كل لحظة وتخلص في حقيقة إيمانك، وفي حقيقة توكلك، وتستبشر بأنه لا يقوى عليك، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية.

وقال الغزالي في المنهاج: مكائد الشيطان في ابن آدم في الطاعة من سبعة أوجه: أحدها: إن ينهأ عنها، فإن عصمه الله تعالى رده بأن قال له: إني محتاج إلى ذلك جدا؛ أي لا بد لي من التزود من هذه الدنيا لآخري، ثم يأمره بالتسويق فإن عصمه الله رده بأن قال: ليس أجلي بيدي، على أي إن سوفت عمل اليوم إلى غد، فعمل غد متى أعمله؟ فإن لكل يوم عملا. ثم يأمره بالعجلة فيقول له: اعجل لتفرغ لكذا وكذا فإن عصمه الله تعالى رده بأن قال: قليل العمل مع التمام خير من كثيره مع نقصان، ثم يأمره بمراعاة الناس، فإن عصمه الله تعالى رده بأن قال: أفلا تكفيني رؤية الله تعالى، ثم يأمره بالعجب به، فإن عصمه الله ورده بأن قال له: المنة لله تعالى في ذلك دوني وهو الذي خصني بتوقيفه وجعل لعملي قيمة بفضله ولولا فضل الله ما كان لعملي قيمة في جنب نعمة الله تعالى وجنب معصيتي له، ثم يأتيه من وجه سادس؛ وهو أعظمها ولا يقف عليه

إلا متيقظ، وهو أيقول: اجتهد أنت في السر فإن الله سيظهره عليك ويلبس كل عامل عمله. وأراد بذلك ضرباً من الرياء، فإن عصمه الله تعالى رده بأن قال يا ملعون: كنت تأتيني بوجه إفساد عملي، والآن تأتيني بإخلاص لتفسده، إنما أنا عبد الله وهو سيدي إن شاء أظهر وإن شاء أخفى، وإن شاء جعلني خطيراً وإن شاء جعلني حقيراً، وذلك إليه ما أبالي أأظهر ذلك للناس أو لم يظهره، فليس بأيديهم شيء. ثم يأتيه بوجه سابع: ويقول: لا حاجة لك بهذا العمل، لأنك إن خلقت سعيداً لم يضرك ترك العمل، وإلا لم ينفعك فعله. فإن عصمه الله تعالى رده بأن قال له: أنا عبد الله وعلى العبد امتثال الأمر لعبوديته. والرب أعلم بربوبيته، وأيضاً فمن لقي الله تعالى على الإيمان والطاعة لم يدخل النار البتة، ودخل الجنة لا لاستحقاقه الجنة بعمله ولكن لوعده الصادق. انتهى.

تنبيه: اعلم رحمك الله أن الشيطان عدو مسلط على الإنسان، ومقتضى ذلك أن لا توجد منه غفلة ولا فترة عن التزيين والإغواء والإضلال وهو دائماً مجتهد في عطبك سرا وجهراً، ونوماً ويقظة، يبطل طاعتك ويوقعك في المعصية.

قيل لبعضهم: أينام إبليس؟ فقال لو نام لوجدنا راحة. فإن غفلت عنه غلبك لا محالة لثبوت سلطنته عليك، ووصوله بالوسوسة إليك، فإن غفلت ومللت أهلكك وأعطيته أمنيته منك، وقوي عليك، ولا يريد منك إلا الكفر والعياذ بالله تعالى.

قال أهل العلم: إن لكل أحد من الناس وسواساً موكلاً به مستبطناً قلبه، واضعاً رأسه أو قال خرطوميه عليه، فإذا غفل العبد وسوس، وإذا ذكر الله خنس. أي تأخر واستتر. وقيل: صدر ابن آدم مسكن له، وجراه من بني آدم مجرى الدم.

وقال مالك بن دينار: إن عدوا يراك ولا تراه لشديد المؤونة، إلا من عصمه الله. وقال محمد بن واسع: ليس لإبليس كيد أعظم من رؤية العبد نفسه على إخوانه، فإنه إذا مات على ذلك أخذه ملك الموت وربّه ساخط عليه لم ينفعه شيء من أعماله. وقال

**الفضيل:** إن إبليس يقول: إذا ظفرت من ابن آدم إحدى ثلاث لا أطلب غيرها؛ إعجابه بنفسه، واستكثاره عمله، ونسيانه ذنوبه. **وقال شقيق:** شيآن يغيضان الشيطان: الاكتراث بوسوسته وعدم التفكير في ذات الله تعالى. والتدبير في دفع الشيطان إنما هو بالالتجاء إلى الله تعالى منه والاستعاذة به لا غير، فإن الشيطان كلب سلطه الله عليك فالرجوع إلى ربه أولى، ثم بمجاهدته والقيام عليه بعد ذلك بالرد والدفع والمخالفة، وأن تعلم كيده وحيله، فلا يتجاسر حينئذ عليك، كاللص إذا علم أن صاحب الدار قد أحس به فر، وأن تستخف بدعوته فلا تعلق قلبك به وتتبعه، فإنه بمنزلة الكلب النابح، إن أقبلت عليه أولع بك ولج، وإن أعرضت عنه سكت. **قال أبو حازم:** ومن الشيطان حتى يهاب؟ والله لقد أطيع فما نفع ولقد عصي فما ضر. **وقال بعضهم:** الشيطان منديل هذه الدار تمسح به أقدار النسب، وهي نسبة أنواع الشر والفساد والمعاصي تأدبا معه تعالى، وهذا سر إيجاده كما قال تعالى: **﴿وَمَا أُنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾**، **﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾** وأما أن له حولا أو قوة يضر بهما، أو ينفع فلا. **قال أبو العباس المرسى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾** فقوم فهموا من هذا الخطاب أنهم أمروا بعداوة الشيطان، فشغلهم ذلك عن محبة الحبيب، وقوم فهموا من ذلك أن الشيطان لكم عدو، وأنا لكم حبيب فاشتغلوا بمحبته فكفاهم من دونه. وأن تدم ذكر الله بلسانك وقلبك، **ففي الحديث:** **﴿إن ذكر الله في جنب الشيطان كالأكلة في جنب ابن آدم<sup>(1)</sup>﴾**. وأن تقول كل يوم: اللهم إنك سلطت علينا بذنوبنا عدوا من غيرنا بصيرا بعيوبنا، مطلعا على عوراتنا، يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم، اللهم أيسه منا كما أيسته من رحمتك، وقنطه منا كما قنطته من عفوك، وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين مغفرتك وجنتك إنك على كل شيء قدير. وكان محمد بن واسع يقولها كل يوم، فتمثل له الشيطان يوما؛ فقال له: لا تعلم هذا الدعاء لأحد، وأنا لا أعود أتعرض لك بسوء أبدا، فقال له: والله لا أمنعه من أحد واصنع أنت ما شئت. وكان يحيى بن معاذ يقول: اللهم

(1) لم أجد تفرجه.

إن إبليس لك عدو وهو لنا عدو وإنك لا تغيبه بشيء هو أنكأ له من عفوك عنا فاعف  
عنا يا أرحم الراحمين.

ومن دعاء الشيخ العارف محمد بن ميسرة القرطبي: اللهم لا تجعل قلبي للشيطان  
مراغا، ولا تصير قلبي له مجالا، ولا تجعلني ممن استفزه بصوته، وأجلب عليه بخيله ورجله،  
فكن لي من حبائله منجيا، ومن مصائده منقذا، ومن غوايته مبعدا، إنه وسوس في القلب،  
وألقى في النفس ما لا يطيق اللسان ذكره ولا تستطيع النفس نشره مما نزهك عنه علو  
عزك، وسمو مجدك، فأزل يا سيدي ما سطر، وامح ما زور بوابل من سحائب عظمتك  
وطوفان من بحار نصرتك، واسل عليه سيف إبعادك، وارشقه بسهام إقصائك، وأحرقه  
بنار انتقامك واجعل خلاصي منه زائدا في حزنه، ومؤكدا لأسفه وبالله تعالى التوفيق.

## النفـس

(و) من الخلق الذي هو حجب الوصول (النفس) بل هي أقوى حجب الوصول  
كما مر. وهي هنا القوة المتوجهة بطلب الملائم طبعاً في الحال، دون مبالاة بالمآل، وهي  
كهف الظلمة، وموطن الغفلة، وأرض الشهوة، وخزانة الجهل، ومعدن الكسل، وهي  
للشيطان خدن وللهلاك عدل، فلا يصل إليك شيطان إلا بشهوتها، ولا تقتحم معصية إلا  
بجهلها، إن ادعت صدقا كذبت، وإن امتحتتها افتضحت، وإن نصحتها غشت، وإن  
قومتها اعوجت، وإن قدتها بركت، وإن خوفتها استأمنت، وإن دعوتها أدبرت، وإن  
رشدتها أعرضت وإن غفلت عنها أهلكت، وإن سرحتها ضلت، وإن رأت شهوة  
فرحت، وإن رأت مرادها بادرت، وإن رأت مصيبة سخطت، فهي لكل شر أهل، ولها  
عن كل خير عجز، فمن لم يعرفها أردته، ومن اطمأن إليها غدرته، ومن رفعها وضعته،  
ومن أعزها أذلته، ومن ملكته حجبته.

فائدة: ما يرد على القلب من أربعة أوجه: الأول: حديث النفس والدليل عليه طلب الشهوات. والثاني: وسوسة الشيطان والدليل عليه طلب المعصية. والثالث: إلهام الملك، والدليل عليه طلب الهداية. والرابع: إلهام من الله تعالى لا يطلع عليه ملك ولا شيطان، والدليل عليه انشراح الصدر وجمود الغواية.

واعلم أن النفس خلقت ضعيفة وطبعها قوى وهي شرهة، مدهانة، آمنة، مدعية، خارجة عن طاعة الله، متملكة متمنية. خوفها أمن ورجاءها أمان. وليس لها فعل محمود ولا دعوى حق، وهي رأس البلاء ومعدن الفضيحة، وخزانة إبليس، ومأوى كل سوء، وهي كثر إبليس ومستراحه، ومسامرته ومحادثته، وصديقه فليس بلاء عظيم إلا وقد حل بها، ولا توصف بشيء إلا وهي أكثر مما توصف به (وهي أضُرُّ الأعداء) وبلاؤها أصعب البلاء، وعلاجها أعسر الأشياء، ودأؤها أعضل الأدوية، ودواؤها أشكل الدواء. وذلك لأن العدو حقيقة من سعى في ذهاب آخرتك أو نقصها، وإن حصل بذلك صورة نفع في دنياك. ولذلك كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أوليائنا وأصدقاءنا لأنهم سعوا في عمارة آخرتنا دون الشيطان والنفس، فإنهما سعيًا في إفسادها، ولأنهما عدو من داخل، واللص إذا كان من داخل البيت عزت الحيلة فيه، وعظم الضرر، ولقد صدق القائل:

نَفْسِي إِلَى مَا ضَرَّنِي دَاعٍ تَكْثُرُ أَسْقَامِي وَأَوْجَاعِي  
كَيْفَ اخْتِرَاسِي مِنْ عَدُوِّي إِذَا كَانَ عَدُوِّي بَيْنَ أَضْلَاعِي<sup>1</sup>

ولأنها أيضا عدو محبوب، والإنسان عم عن عين محبوه كما قيل:

وَعَيْنُ الرُّضَى عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا<sup>2</sup>  
ولأنها أيضا مجمع الشهوات والمفاسد؛ كحب الدنيا، وخوف الخلق، وهم الرزق،

<sup>1</sup> - انظر المنهاج (ص: 26).

<sup>2</sup> - انظر المنهاج (ص: 27).



والحسد والكبر والحقد والرياء. وغير ذلك من عيوبها. ولذا كانت أضّر الأعداء وأعداها وهي أيضا أعدى من الشيطان، وإنما يقوى عليك بها، ولذلك قيل: إن النفس كالنمر لا يردّها إلا القهر القوي. والشيطان مثل الذئب إن أخرجته خرج ثم يأتي من موضع آخر. قال الشاعر:

تَوَقُّ نَفْسَكَ لَا تَأْمَنْ غَوَائِلَهَا فَالْنَفْسُ أَخْبَثُ مِنْ سَبْعِينَ شَيْطَانًا  
فإذا نظرت وجدت كل فتنة وفضيحة وخزي وهلاك وذنوب وآفة وقع في خلق الله تعالى من أول الخلق إلى يوم القيامة من هذه النفس: إما بها وحدها أو بمعاونتها ومشاركتها ومساعدتها. فأول المعصية: كان من إبليس وسببه بعد القضاء السابق هوى النفس بكيدها وحسدها، فأهلكته أبدا الآبدى بعد عبادة ثمانين ألف سنة. فيما قيل، إذ لم يكن هنالك ذنب ولا خلق، ولا شيطان، بل كانت النفس بكبرها وحسدها، فعملت به ما عملت ثم هلم جرا في الآدميين إلى يوم القيامة، لا تجد شرا إلا وأصله النفس وهواها، وإلا كان الخلق في سلامة وخير.

وقال أبو مالك الأشعري: ليس عدوك الذي إذا قتلته آجرك الله عليه ولكن عدوك الذي بين جنبك وامراتك التي تضاجعك وولدتك، فهؤلاء أعدى عدوك.

وقال بشر الحافي: ستون من مردة الشياطين لا يفسدون ما يفسده قرين السوء في لحظة، وستون من قرناء السوء لا يفسدون ما تفسده النفس في لحظة. وقال: إذا حصلت الأمور كلها على وفق المراد للعبد: أتاه الخلل فيها من قبل نفسه وأجمع سائر الملل كلها على أن رضى الرب تعالى في مكروه النفس.

وقال يحيى بن معاذ: أنا أعلم شقاوتي من الآن، فقالوا له: كيف؟ قال: لأنهم قالوا: من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلا، وإن خصمي من لا عقل له، وهو نفسي فقيل له: أنت بحمد الله ذو عقل. فقال: كيف عقلي؟ وأنا أبيع الجنة بشهوة نومة، أو لقمة أو

كلمة. وقال: بلغنا أنه أوحى الله إلى داود عليه السلام إن أردت محبتي لك فعاد نفسك وودني بعداوتها. وقال: من زعم أنه يحب الله تعالى وهو يحب نفسه فقد كذب. وقال الأحنف بن قيس: من أكل الشهوات وطلب حفظ جوارحه وفرجه، فقد طلب المحال.

قيل: إن أعرابيا دعا لإنسان بخير فقال له: كتب الله لك كل عدو إلا نفسك، وإذا كانت النفس بهذه المترلة من العداوة والشر كله (فَلَا تُرْكَنْ إِلَيْهَا) ومن ركونك إليها اتباعك الأخف عليها دون الأثقل، وهو معدود عندهم من نفاق القلب فخفة العمل على غالب الأنفس إنما هو لموافقة هواها، وهو لا يميل إلا إلى الباطل. وقال أبو الفضل الأحمدي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُرْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الآية. أنه قد يدخل في ذلك الركون إلى النفس. قاله الشعراي. (وَلَا تُرَضْ عَنْهَا) أي لا تسكن إليها ولا تستحسن حالا من أحوالها، لأن من استحسن حالا من أحوالها فقد أهلكتها بمهلكاتها؛ كالكبر والحسد والرياء والعجب وغيرها، ومن استحسنها أيضا استولت عليه الغفلة، وبالعفلة ينصرف قلبه عن التفقد والمراعاة لخواطره، فتثور حينئذ دواعي الشهوة على العبد، وليس عنده من المراقبة والذكر ما يدفعها به ويقهرها، فتصير الشهوة غالبية له بسبب ذلك. ومن غلبته شهوته وقع في المعاصي لا محالة، وأصل ذلك كله رضاه عن نفسه، وإلى ذلك أشار بقوله: (وَهُوَ) أي الرضى عن النفس دل عليه قوله: "ولا ترض عنها" على حد قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (أَصْلُ كُلِّ شَرٍّ) قال في الحكم العطائية: أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضى منك عنها<sup>(1)</sup>. وذلك لأن الرضى عنها يوجب تغطية عيوبها، ومساوئها، ويصير قبيحها حسنا، وعدم الرضى عنها على عكس هذا؛ لأن العبد إذ ذاك يتهم نفسه ويتطلب عيوبها، ولا يغتر بما تظهره من الطاعات والانقياد ومن كان بهذا الوصف كان متيقظا،

(1) انظر شرح الحكم العطائية للأزمهرى: (45/1).

وباليقظة والتنبيه يتمكن من تفقد خواطره ومراعاتها، وعند ذلك تحمد نيران الشهوة، فلا يكون لها عليه غلبة، ولا قوة، فيتصف حينئذ بالعفة عن المنهيات.

وقال المناوي في شرح الحكم: علامة الرضى عن النفس الشفقة عليها، والاغضاء عن عيوبها. وقال الأنماطي: أقرب شيء إلى مقت الله رؤية النفس ورؤية أحوالها. وأشد منه طلب العوض على فعلها، فإذا كان الرضى عن النفس بهذه المترلة من الشر؛ فلا شيء أوجب على العبد من معرفة نفسه؛ لأن بها يصلح حاله ويعلو مقامه. وقد ورد عن الكبار والائمة الأخيار، من الكلمات المتضمنة لعيهم لنفوسهم، والتهمة منهم لها وعدم رضاهم عنها أكثر من أن يحصى، ولذلك قال أبو حفص<sup>1</sup>: من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم يجرها إلى مكروها في سائر أيامه، كان مغرورا.<sup>2</sup> وكيف يصح لعاقل الرضى عن النفس، والكريم ابن الكرم يقول: «وَمَا أُبْرِي نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» وقال: - أي الأنماطي - منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي: أن الله ينظر إلي نظرة سخط، وأعمالي تدل على ذلك. وقال السري السقطي: إني لأنظر إلى أنفي في اليوم كذا وكذا مرة مخافة أن يكون قد اسود لما أخافه من العقوبة. وقال: من الناس ناس لو مات نصف أحدهم ما انزجر النصف الآخر، ولا أحسبني إلا منهم. (وَأَتَّهِمُهَا) لأن من شأنها أبدا طلب الحظوظ فلا تسعى إلا في ذلك (وَلَوْ فِي) عملها بـ (الطَّاعَةِ) فضلا عن المعصية، ومن حاسب نفسه وراقب خواطره؛ تبين له مصداق هذا. لأنها ربما تدعو إلى الخير وتنشط فيه ما لا تنشط في نوع آخر. وقصدها في ذلك الشر، بأن تدعو إلى الفضول لئلا تمنعك من الفاضل؛ لأن حظها في الفضول أكثر وتدعوك إلى خير لتجرك إلى ذنب عظيم لا يفي خيره بذلك الشر؛ من رياء أو عجب أو

<sup>1</sup> - هو عمر بن سلمة، أبو حفص الحداد، أحد سادات نيسابور، أول من أظهر طريقة التصوف بنيسابور، (ت: 264هـ) انظر

الرسالة القشري (ص: 45). وطبقات الأولياء لابن الملقن (ص: 193).

<sup>2</sup> - انظر شرح الحكم العطائية لزروق (ص: 57).

غيرهما. وكذلك الشيطان، فإذا ألفت نفسك بابا من أبواب العبادات فافهمها وشوش عليها ذلك وانقلها إلى غيره.

قال الأجهوري: الخير في خلاف ما قواه وإن بدا فيه رضى مولاه. واعلم أن العبد إن كان منسلخا من الخير عرضت عليه النفس الوسواس بينا لعلمها أنه يقبله، وإن كان صادقا تقيا؛ أدخلت عليه الشر في معرض الخير، تلييسا منها عليه، مثل أن تلقي دقيقة من رياء للعبد في صيام النهار وقيام الليل مثلا: فتأمره بالاجتهاد فيهما. ومثاله أيضا: رجل يكون له ورد على قدر ما يحتمله من العمل ولا يمله، فتقول له قد كان السلف يواصلون الصوم ويقومون الليل كله، هلا فعلت فعلهم لتصل إلى ما وصلوا إليه من الكرامات وتريد بذلك أن يعمل فوق طاقته، فيقطعه ذلك عن العمل ويبغض إليه العبادة. ويستدل العبد على هذه الدقيقة بكونه ينشط بحضرة الناس مالا ينشط فيه في الخلوة وبكونه إن تركه بحضرة الناس يخاف سقوطه من أعينهم، فإن المرائي لا يحب أن يطلع عليه الناس إلا وهو في نوع من العبادات (لخضعها) ومكائدها ولأجل خدعها خفي على العامل حفظها في الطاعة، فلذلك تعسر مداواته لأنه يحتاج إلى دقة فهم ونفوذ إدراك.

وحكي عن المرتعش<sup>(1)</sup> أنه قال: حججت كذا وكذا حجة على التجريد، فبان لي أن جميع ذلك مشوب بحظ، وذلك أن والدتي سألتني يوما أن أسقي لها جرة ماء، فثقل ذلك على نفسي، فعلمت أن مطاوعة نفسي في الحاجات كانت بحظ وشوب من نفسي، وإلا لما صعب عليها ما هو أخف في الشرع.

وعن أحمد بن أرقم البلخي قال: دعيتي نفسي إلى الغزو فقلت: سبحان الله إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ وهذه تأمرني بالخير لا يكون هذا أبدا، ولكنها

(1) المرتعش: بضم الميم، وسكون الراء، وفتح التاء المنقوطة من فوقها باثنتين، وكسر العين المهمل، وفي آخرها الشين المعجمة، هذا لقب شيخ عصره أبي محمد جعفر بن المرتعش، من كبار مشايخ الصوفية، وهو نيسابوري، كان من ذوي الأحوال وأرباب الأموال، فتعلی منها وصحب الفقراء وسافر كثيرا، ثم استوطن بغداد إلى أن مات بها. انظر الأنساب للسمعاني: (253/5).

استوحشت، فتريد لقاء الناس لتستريح إليهم، ويتسامع الناس به فيستقبلونها بالبر والتعظيم، والإكرام فقلت لها: لا أسألك العمران. (القَرَار) ولا أنزل على معرفة فأجابت فأسأت ظنا بها وقلت: الله أصدق قولا، فقلت لها: أقاتل العدو حاسرا فتكوني أول قتيل، فأجابت وعد أشياء مما أراد بها فأجابت إلى كل ذلك، قال: فقلت: يا رب نبهني لها فإني لها متهم ولقولك مصدق فألهمت كأنها تقول لي إنك تقتلني كل يوم مرات لمخالفتك إياي، ومنعي شهواتي ولا يشعر بي أحد، فإن قاتلت فقتلت كانت قتلة واحدة فنجوت منك، ويتسامع الناس فيقال: استشهد أحمد، فيكون شرفا لي، وذكرنا في الناس. قال: فقعدت ولم أخرج ذلك العام، فانظر إلى خدع النفس وغرورها أعاذنا الله من شرها، ترائي الناس بعد الموت بعمل لم يكن بعد.

تنبيه: هذا في غير النفس المطمئنة، أما المطمئنة: فقد تدعوا إلى الطاعة ولا يدل ذلك على أن فيها حظها. (وَاحْمِلْهَا عَلَى مَكْرُوهِهَا فَإِنَّ الْمَكَارِمَ) جمع مكرمة (بِحَسَبِ) الصبر على (الْمَكَارِهِ) جمع مكروه، وهو كل ما يشق على النفس فعله؛ كالطهارة وغيرها من الطاعات، والصبر على المصائب وجميع المكاره. وفي الحديث: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»<sup>(1)</sup>. أي الجنة لا تنال إلا بقطع مفاوز المكاره، والصبر عليها، والنار لا ينجى منها إلا بترك الشهوات وفطام النفس عنها. وفي الحديث: «إن الله خلق النار فقال لجبريل عليه السلام: اذهب فانظر إليها، فذهب فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فحفظها بالشهوات، ثم قال: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها. وخلق الله الجنة فقال لجبريل عليه السلام: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فحفظها بالمكاره، ثم قال: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر فقال: وعزتك وجلالك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد»<sup>(2)</sup>.

(<sup>1</sup>) الترمذی (693/4 ، رقم 2559) وقال : حسن غريب

(<sup>2</sup>) أخرجه أبو داود (236/4 ، رقم 4744) ، والترمذی (693/4 ، رقم 2560) وقال : حديث حسن صحيح

وقال عيسى عليه السلام: إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون. ولما كانت النفس هي الحجاب الأعظم للعبد عن الله تعالى وأن بمجاهدتها وقمعها وموتها تنال سعادة لقاء الله تعالى. أشار إلى ذلك بقوله: (وَجَاهِدْهَا) وحقيقة مجاهدة النفس: دوام مخالفتها فيما تمناه وتشتهيه من الحظوظ الظاهرة والباطنة من الشهوات والإرادات، ودواعي النفس وأمانيتها، واختياراتها، إلا ما لا بد منه من حقوقها طلبا للاستقامة، واستبقاء وثباتا على المعاملات. ومجاهدتها إنما هي بالتلطف والتدرج، فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى، فإن الطبع نفور، ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدرج، فيترك البعض ويسلي نفسه بالبعض، ثم إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتداء بترك البعض من ذلك البعض إلى أن تقنع بالبقية. وهكذا يفعل شيئا فشيئا إلى أن يجمع تلك الصفات التي رسخت فيه. وفي الحديث: «لا تشادوا هذا الدين فإن من يشاده يغلبه»<sup>(1)</sup>.

وقال ابن بطال: مجاهدة النفس أشد من مجاهدة العدو. ولأن النبي ﷺ جعل الذي يملك نفسه عند الغضب أشد قوة في قوله: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب»<sup>(2)</sup>. والصرعة: كهزمة: القوي الذي يصرع الناس، وأما الصرعة بسكون الراء، فهو الذي يصرعه الناس، أي الذي يقوى على نفسه عند الغضب، فيردها؛ هو القوي الفاضل. وقال علي كرم الله وجهه: أعمال البر كلها إلى جنب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كنفثة إلى جنب البحر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى جنب الجهاد كنفثة في بحر، والجهاد في جنب مجاهدة النفس عن هواها كنفثة في بحر، وهذا معنى: جئتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. وإنما كان أكبر لأنها أعدى، عدو لابن آدم. ولأنه إن قتل عدوه الكافر دخل الجنة، وإن قتل عدوه كانت له شهادة، والنفس لا يحل قتلها، لأنه لا يؤذن له بذلك، وهي مسلطة عليه، فإن قتلها كفر وإن قتلته هلك، وأي جهاد أكبر من هذا؟

(1) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة. انظر المغني عن حمل الأسفار: (327/1).

(2) أخرجه أبو داود (248/4)، رقم (4779).

فائدة: إنما أمر بمجاهدة النفس؛ لأن بمجاهدتها تنال سعادة لقاء الله تعالى، و بها تحصل للعبد أهلية القرب منه تعالى، ولأن المجاهدة تغطي عيوبها، فإن فيها كبر إبليس وحسد قاييل، وعتو عاد، وتمرد نمروذ، واستطالة فرعون، وبغي قارون، وحماسة هامان، وهوى بلعام. وفيها من أخلاق البهائم: حرص الغراب، وشره الكلب، ورعونة طاووس، ودناءة الجعل، وعقوق الضب، وحقد الجمل، ووثوب الفهد، وصول الأسد، وخبث الحية، ومكر الفأر، وعبث القرد.

وقال بعضهم: ما الحياة إلا في الموت، أي ما حياة القلب إلا في إماتة النفس.

وقيل: النعمة العظمى: الخروج عن النفس. وقال سيدي أبو مدين رحمته: من لم يميت لم ير الحق. وقيل: من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريق شمة.

وقال أبو عثمان المغربي: من ظن أنه يفتح الله عليه بشيء من هذه الطريقة أو يكشف له عن شيء منها من غير لزوم المجاهدة فهو في غلط.

وقال الأستاذ أبو علي: من لم تكن له في بدايته قومة، لم تكن له في نهايته جلسة. ولما كانت النفس شبيهة بالكافر الذي يريد أن تكون كلمة الكفر هي العليا، وكلمة التوحيد هي السفلى، وهي أيضاً تريد أن تكون كلمة باطلها من الدعاء للحظوظ العاجلة المشغلة عن الطاعات، وعن الإخلاص فيها هي العليا النافذ أمرها ونهيها في مدن الأجسام، وكان الإخلاص شرطاً في الجهادين، أي لا لقصد غنيمة الأموال، ولا غنيمة الخوارق ونحوها، كما قال أبو عبد الله القرشي<sup>(1)</sup>: من عمل ليجد أو يرى، لم يفتح له بشيء حتى يكون قصده تحقيق العبودية، والقيام بما يجب عليه من حقوق الربوبية. أشار لذلك بقوله: ولا تقصد بمجاهدتك ورياضتك توصلاً إلى شيء من المكرمات، وخرق

(1) هو محمد بن أحمد بن إبراهيم. أبو عبد الله القرشي الهاشمي: زاهد. أندلسي الأصل، من الجزيرة الخضراء. أقام بمصر مدة، وسكن القدس وتوفي بها، ودفن بمملا (مقبرة القدس القديمة) له كلمات وجمل، في آداب المعاملات وطرائق أهل الرياضات، جمعها بعض تلاميذه في كتاب "الفصول - خ. توفي 599هـ. انظر الشذرات: 342/4).

العوائد، وأنواع الإجابات، فإن ذلك فتنة وبلية، وتقطع طريق العبودية بل ليكن قصدك الصديق في العبودية والقيام بما يجب عليك من حقوق الربوبية (امْتِثَالاً) لأمر الله تعالى بأن يجاهد النفس (لِتَكُونَ كَلِمَتُهُ تَعَالَى مِنَ الْأَمْرِ بِالْإِخْلَاصِ) له في العبادة ظاهراً وباطناً وسراً وعلانية في قوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فإنه تعالى أمر بالإخلاص على كل حال ورفض كل ما يشوش في ذلك (هِيَ الْعُلْيَا) النافذة عملاً وامْتِثَالاً وتعظيماً في جميع أجزاء البدن الظاهرة والباطنة، وذلك لا يكون إلا بقتال النفس حتى تنقاد طوعاً، أو تغلب وتستسلم لأداء جزية الاستعانة بها على الطاعة، بشرط أن تنزل من الذل والهوان بموضع تنفذ فيه أحكام الإيمان طوعاً أو كرهاً، عن يد لا يقبل منها عذر وهي صاغرة لا تحمد على ما بذلت ولا يعبأ بها، بل يرى المؤمن المنة في ذلك للمولى، لأنه هو الذي ذللها له، ولا يزال المؤمن ينظرها مع هذا نظر عداوة إذ يعلم أنها لو خرجت عن هذه الذلة ورجعت إلى وطن أخلاقها الذميمة لأهلك الحارث والنسل (وَحَاسِبُهَا) وناقشها، فإن الأمور المفضضة أمامك، ولا بد لك من مشاهدتها؛ إما بالنجاة وإما بالعطب (كُلُّ لَحْظَةٍ) لتريح الملائكة من التعب وتخفف عليك من الرهب (وَلِيَخِفَّ حِسَابُكَ غَدًا) يوم القيامة، فإن الغفلة عن محاسبتها تمنع من الوصول إلى مقام المراقبة.

وقال سيدي أحمد الرفاعي<sup>(1)</sup>: من لم يحاسب نفسه كل نفس ويتهمها بالسوء فلا يكتب في ديوان الرجال. وقيل: محاسبة النفس أن تضيق بمحاري الشيطان، ومحاري النفس الأمانة بالسوء، وتحفظ الأنفاس، وتراعي الأوقات، وتضبط الحواس. فعدد عليها صباحاً ومساءً ما عملته ليلاً ونهاراً، ثم كل جمعة كذلك. ثم كل شهر كذلك. ثم كل سنة كذلك. ثم دم على ذلك مدة حياتك. فما وجدت من حسنة حمدت عليها، ومن سيئة

(1) هو أحمد بن علي بن يحيى الرفاعي الحسني، أبو العباس: الإمام الزاهد، مؤسس الطريقة الرفاعية. ولد في قرية حسن (من أعمال واسط - بالعراق) وتفقّه وتآدب في واسط، وتصوف فانضم إليه خلق كثير من الفقراء كان لهم به اعتقاد كبير. وكان يسكن قرية أم عبيدة بالبغاث (بين واسط والبصرة) وتوفي بها. وقرره إلى الآن عظم الرجال لسلكي طريقته. وقد صنف كثيراً كتباً خاصة به وبطريقته وأتباعه. توفي 578هـ. انظر الوفيات: (55/1).



استغفرت وتبت منها. وأقرب من ذلك كله إلى السلامة أن تحاسبها على كل فعل قبل الإقدام عليه، حتى لا تتلبس به إلا بعد معرفة حكم الله تعالى فيه، فما كان خيرا فعلته، وإلا أمسكت عنه. وينبغي للعبد أن يدقق الحساب مع نفسه، ويكون أهم عليه كثيرا من تدقيقه في أرباح الدنيا، مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نعيم الآخرة. ثم إنها كيف ما كانت فمصيرها إلى الزوال. ولا خير في خير لا يدوم، بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم. ولذلك قيل:

أَشَدُّ الْعَمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ      تَيَقَّنُ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالًا

فينبغي أن يفرغ قلبه ساعة بعد الصبح فيقول للنفس: ما لي بضاعة إلا العمر، ومهما فني رأس المال، وقع اليأس عن التجارة. وبطل الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله تعالى فيه، وأنسا في أجلي فيه، وأنعم علي به، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوما واحدا حتى أعمل فيه صالحا، واحسبي أنك توفيت ثم رجعت، وإياك ثم إياك أن تضع اليوم قال تعالى حكاية عنهم: ﴿قال رب ارجعون لعلني أعمل صالحا﴾ الآية. ووجد مكتوبا على قبر:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كَانَ لِي أَمَلٌ      قَصَرَ بِي عَنْ بُلُوغِهِ الْأَجَلُ  
فَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ رَجُلٌ      أَمَكْنَهُ فِي حَيَاتِهِ الْعَمَلُ  
مَا أَنَا وَحْدِي نَقَلْتُ حَيْثُ تَرَى      كُلُّ إِلَى مِثْلِهِ سَيَنْتَقِلُ

ثم يستأنف وصية أخرى في أعضائه السبعة، وكذا ينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، كما يفعل التاجر في آخر القراض مع الشركاء في آخر سنة أو شهر أو يوم، حرصا على الدنيا الفانية ليختبر رأس المال والربح؛ فإن وجد فضلا استوفاه وشكره، وإن وجد خسرانا طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل. فكذاك رأس مال العبد تأديته الفرائض وزججه النوافل

والفضائل، وخسرانه المعاصي. وموسم هذه التجارة جملة النهار وعامله: نفسه الأمانة بالسوء فيحاسبها على الفرائض، فإن أداها على وجهها شكر الله عليها ورغبها في مثلها. وإن فوقها من أصلها طالبها بالقضاء، وإن أداها ناقصة كلفها بالجبر بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بتعذيبها ومعاتبتها، ولا يمهلهما لئلا تتأنس بفعل المعاصي، ويعسر عليه فطامها. وإن أردت استقصاء محاسبة النفس فعليك بكتاب المراقبة والمحاسبة في الربع الثالث من الإحياء؛ فقد أطل فيها بنحو ثلاثين ورقة. وفي الحديث: «الكيس من دان نفسه -أي حاسبها- وعمل لما بعد الموت»<sup>1</sup>.

وذكر السهروردي عن بعض المحاسبين أنه كان يكتب الصلوات الخمس، ويضع بين كل صلاتين بياضا وكلما ارتكب من غيبة أو ظن سوء، أو نحوهما خط خطأ، وكلما تكلم أو تحرك فيما لا يعنيه نقط نقطة، كل ذلك ليعتبر ذنوبه وحركاته وسكناته الواقعة بغير قصد فيستغفر منها<sup>(2)</sup>.

وكان الربيع بن خثيم إذا أصبح وضع عنده قرطاسا وقلمًا، فكان لا يتكلم يومه بلغوا إلا حاسب نفسه عليه عند غروب الشمس.

وقال ميمون بن مهران: لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه.

اعلم أن ذوي البصائر حاسبوا أنفسهم بست مقامات: الأول: المشاركة قبل العمل في ساعة بعد طلوع الفجر لنفسه وأعضائه السبعة، فإذا تمرنت النفس لم تبق إلى المشاركة حاجة إلا فيما يطرأ من المعاصي. الثاني: المراقبة: وهي مراعاة الرقيب في أقواله وأفعاله ظاهرا وباطنا، ويشمره تأكد المعرفة باطلاعه تعالى على ما في الضمائر وانتقامه. الثالث:

<sup>1</sup> - الترمذي برقم: (2459).. وابن ماجه برقم: (4260) كلاهما عن شداد بن أوس.  
<sup>(2)</sup> انظر عوارف المعارف للسهروردي: (447/1).

المحاسبة بعد العمل في آخر النهار. الرابع: المعاقبة عند ظهور الخسران، مثاله: إن كانت المعصية بالنظر إلى حرام عاقب العين بمنعها من النظر، أو تدارك الأمر بالنظر في المصحف وغيره. الخامس: المجاهدة عند استئصال العمل بزيادة في العمل احتياطا للمستقبل. ويتعرف أحوال العبادة، والاقتداء بهم، ويتعرف ثواب الطاعات. السادس: أن تلوم النفس اللوامة لتتدرج إلى النفس المطمئنة.

(وَلَا زِمَهَا بِـ) كثرة (ذِكْرِ الْمَوْتِ) لأنه يردع المعاصي، ويلين القلب، القاسي ويوجب التجافي عن دار الغرور، ويتقاصى الاستعداد للآخرة، ويتنغص على العبد نعيم الدنيا، ويتكدر عليه صفوة لذتها، ولذا كان من أكثر ذكره يعد من الشهداء كما يأتي. قال الحسن: ما رأيت عاقلا قط إلا رأيت حذرا من الموت حزينا. وفي الحديث: «أكثرُوا من ذكر هادم اللذات<sup>(1)</sup>»: الموت. وفي هذا الحديث دليل على استحباب ذكر الموت، وعلى أكثريته؛ لأن ذكره أزجر عن المعصية وأدنى إلى الطاعة. زاد النسائي: «فإنه ما يذكر في قليل إلا كثرة، ولا في كثير إلا قلله<sup>(2)</sup>»؛ أي كثير من الأمل وقليل من العمل. قيل: يا رسول الله، من أكيس الناس؟ قال: «أكثرهم ذكرا للموت، وأكثرهم استعدادا له، أولئك الأكياس، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة<sup>(3)</sup>». وفي الحديث: «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة<sup>(4)</sup>». وفيه: «لو تكاشفتهم ما تدافنتم<sup>(5)</sup>». وحفر الربيع بن خثيم قبرا في بيته ووضع غلا في عنقه، فكان إذا وجد قسوة في قلبه اضجع فيه، ومكث ما شاء الله. ثم يقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾، ثم يخرج ويقول: يا ربيع؛ قد أعطيت ما سألت فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد. وقال الثوري:

(1) أخرجه الطبراني في الأوسط (256/8)، رقم (8560)

(2) أخرجه النسائي (4/4)، رقم (1824)

(3) أخرجه الطبراني في الأوسط (61/5)، رقم (4671)، وفي الصغير (189/2)، رقم (1008)

(4) أخرجه أحمد (441/2)، رقم (9686)، ومسلم (671/2)، رقم (976)، وأبو داود (218/3)، رقم (3234)

(5) أخرجه في كتاب جامع غريب الحديث (285/2).

الطاعات تتفرع من ذكر الموت، والمعاصي تتفرع من نسيانه. وقال حاتم الأصم: من خرجت من داره جنازة ولم يعتبر بها لم ينفعه علم ولا حكمة ولا موعظة.

قال الشعراي: من أخلاق السلف: كثرة الحزن على تفريطهم ولاسيما عند رؤيتهم المقابر. وكان جعفر بن محمد يأتي المقابر ويناديهم فلا يجيبوا فيقول: كأنك يا جعفر وقد صرت مثلهم لا تجيب داعيا، ثم يَصِفُ قدميه للصلاة إلى الفجر. وكان يزيد الرقاشي إذا وقع بصره على قبر يصرخ كما يصرخ الثور. ولما حضر بشر بن منصور<sup>1</sup> الوفاة فرح فقيل له: أتفرح بالموت؟ فقال: أتجعلون قدومي على خالق أرجوه كمقامي مع مخلوق أخافه<sup>(2)</sup>.

ولعلي عليه السلام بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم:

غَرَّ جَهُولًا أَمَلُهُ	يَمُوتُ مَنْ جَا أَجَلُهُ
وَمَنْ دَنَا مِنْ حَتْفِهِ	لَمْ تُغْنِ عَنْهُ حِيلُهُ
وَمَا بَقَاءُ آخِرٍ	قَدْ غَابَ عَنْهُ أَوَّلُهُ
فَالْمَرْءُ لَا يَصْنَحُهُ	فِي الْقَبْرِ إِلَّا عَمَلُهُ <sup>3</sup>

وروي: أن الموت إذا نزل على أحد قام بين يديه على صورته، ثم تقول النفس: من أنت، وماذا تريد؟ فيقول: أنا الموت الذي أخرجك من الدنيا، وجعل أولادك أيتاما، وزوجتك أرملة، ومالك موروثة بين وارثيك الذين لا تحبهم في حياتك، فإنك لو لم تقدم إلا خيرا لنفسك لكان ما وجدت خيرا لك. فإذا سمعت نفس الميت هذا؛ حول الميت وجهه إلى الحائط، فيرى الموت قائما بين يديه، فحول وجهه إلى جانب آخر، فيرى الموت قائما بين يديه فيقول له ألم تعرفني؟ فيقول له أنا الموت الذي قبضت أرواح

<sup>1</sup> بشر بن منصور السليمي الأزدي البصري الزاهد روى عن أيوب وطبقته. انظر العبر في أخبار من غبر: (275/1).  
(2) انظر تنبيه المفتريين: (108).

<sup>3</sup> انظر ديوان علي بن أبي طالب.

أولادك ووالديك. لم ينفعك اليوم أحد من أقاربك، وأنا الموت الذي أفنيت القرون الماضية قرناً بعد قرن أكثر منك مالا وولداً وقوة، ثم تكلمه الدنيا، فتقول: يا عاصي أما تستحي؟! أنت أذنبت ولم تمتنع من المعاصي. ظننت أنك لم تخرج من الدنيا، هيهات، فإني بريء منك ومن عملك، وترى مالك قد وضع في يد غيرك، فيقول المال: يا عاصي، كسبتني بغير حق، ولا تصدقت بي على الفقراء والمساكين، أنا اليوم قد وقعت في يد غيرك فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ فيقول الميت: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾ فيقول الله: كلا ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ثم يأخذ روحه.

وفي الخبر: «إن ملك الموت إذا أراد أن يقبض روح العبد تقول الروح: لا أطيعك ما لم يأمرني ربي بذلك، فيقول له ملك الموت: أمرني ربي بذلك، ويطلب منه الروح العلامة والبرهان فيقول: إن ربي خلقتني وأدخلني في جسدي فهل تريد أن تأخذني؟ فيرجع ملك الموت إلى الله تعالى، فيقول: إلهي عبدك يقول: كذا وكذا ويطلب مني العلامة، فيقول الله تعالى: صدق روح عبدي، يا ملك الموت اذهب إلى الجنة وخذ تفاحة عليها علامتي وأرها روح عبدي، فيذهب ملك الموت فيأخذها وعليها مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم. ويجيء فإذا رآه العبد خرج روحه مع النشاط<sup>(1)</sup>»

وفي الخبر: «إذا وقع العبد في الترع ينادي مناد؛ دعه حتى يستريح، فإذا بلغ الروح إلى الصدر قال تعالى: دَعُهُ حتى يستريح، وكذلك إذا بلغ الروح إلى الركبتين والسرة، فإذا بلغ الحلقوم جاء النداء: دعه حتى تودع الأعضاء بعضها بعضاً، فتودع العين العين، فتقول السلام عليكم إلى يوم القيامة، وكذلك الأذنان والرجلان. فتودع الروح النفس<sup>(2)</sup>» فنعوذ بالله من وداع الإيمان فتبقى الأعضاء بلا حركة والعينان بلا نظر. والأذنان بلا سمع والبدن بلا روح. فإذا بقي القلب بلا إيمان فقد خسر العبد خساراً

(1) هذا الحديث لم أجده إلا في شرح صحيح البخاري لشمس الدين السقوي.

(2) لم أجده نخرج هذا الحديث.

مبيناً. والعياذ بالله. وذلك لأن الموت حال عطش واحترق كبد فيجىء الشيطان عند رأسه ومعه قدح ماء فيحرك له الماء، فيقول له المؤمن: إعطني، فيقول الشيطان: كَذِبُ الرسل حتى أعطيك من الماء؛ فمن أدركته السعادة رد كلامه. فإذا كان الخطر شديداً فعليك بالبكاء والتضرع وإحياء الليل، وكثرة الركوع والسجود حتى تنجو إن شاء الله.

ويقال: إن القبر ينادي كل يوم خمس مرات: أنا بيت الوحشة فاجعل لي مؤنساً. أنا بيت منكر ونكير فأكثر علي موقناً في القرآن "لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ". وأنا بيت الظلمة فنورني بصلاة الليل. وأنا بيت الوحدة فاعمل لي عملاً صالحاً. وأنا بيت الأفاعي فاعمل لي الترياق، وهو: "بسم الله الرحمن الرحيم". وإهراق الدموع<sup>(1)</sup>.

وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص<sup>(2)</sup> أنه قال أبوه: ليتني ألقى رجلاً عند الموت عاقلاً يخبرني بما يجد عند نزوله. قال: فلما نزل الموت قلت: يا أبت إنك كنت رجلاً عاقلاً فصف لي الموت وما تجد من ألمه. قال: والله يا بني: كأن جثتي طحنت طحناً، وكأن غصن شوك سُلَّ من قدمي إلى هامتي، وكأني أتنفس من سم الخياط، ثم مَدَّ يده وقال: اللهم لا قوة لي فأنصرف بسواك ولا براءة لي فأعتر، ولا ملجأ فأهرب. اللهم إني مذنب مقرر ومستغفر.

وفي الحديث: «أكثرُوا من ذكر هاذم اللذات ومفرق الجماعات وتوسَّدوه إذا نمت، واجعلوه نصب أعينكم إذا قمتم، واعمروا به مجالسكم.. الحديث<sup>(3)</sup>».

(1) أخرجه الترمذي (2460) عن أبي سعيد.

(2) هو عبد الله بن عمرو بن العاص صحابي، من النساك. من أهل مكة. كان يكتب في الجاهلية، ويحسن السريانية. وأسلم قبل أبيه. فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أن يكتب ما يسمع منه، فأذن له. وكان كثير العبادة حتى قال له النبي صلى الله عليه وسلم: إن لجسدك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لعينيك عليك حقاً - الحديث. وكان يشهد الحروب والغزوات. ويضرب بسيفين. وحمل راية أبيه يوم اليرموك. وشهد صفين مع معاوية. وولاه معاوية الكوفة مدة قصيرة. ولما ولي يزيد امتنع عبد الله من بيعته، وانزوي - في إحدى الروايات - بجهة عسقلان، منقطعاً للعبادة. وعمر في آخر حياته. واختلفوا في مكان وفاته. له 700 حديث. انظر الإصابة الترجمة رقم: (4838).

(3) أخرجه الترمذي رقم: (2307) عن أبي هريرة. وابن ماجه رقم: (4258). وأورده في الجامع الصغير بعدة روايات.

وفيه: «من أكثر الفكرة في الموت هوّن الله عليه مرارتها وسكراتها، وجعل منه على حذر، ومن غفل عن الموت يوشك أن يأتيه فجأة<sup>(1)</sup>».

وفيه: «ما أكثر منا رجل ذكر الموت إلا ترك الفرح والسرور، ونزع من قلبه الحسرة والرغبة، فلو كان عندنا يقين أنه لا يموت إلا واحد اتهمنا أن نكون كلنا ذلك الواحد، وكان الواجب أن لا ترقى لنا دمة خوفا من الموت فكيف ونحن على يقين أنه لا يبقى منا أحد<sup>(2)</sup>».

وذكر في بعض الأخبار: أن داود عليه السلام كان في محرابه فإذا بدودة فأنطقها الله تعالى وقالت: يا داود؛ إني أعبد الله وأسأله أن يهون عليّ سكرات الموت.

وروي: أن موسى عليه السلام لما صارت روحه إلى الله سبحانه، قال الله: يا موسى كيف وجدت الموت؟ قال: وجدت نفسي كالعصفور حين يُلقى على المِقلَى لا يموت فيستريح، ولا يحيا فيطير. وفي رواية أخرى: وجدت نفسي كشاة حية تسلخ من جلدها. وفي رواية أخرى عن أبي إسحاق: كسفود أدخل في جرة صوف فامتلخ.

وفي الحديث: «لو تعلم البهائم والطيور من الموت ما تعلمون ما أكلتم منها سمينا<sup>(3)</sup>». وعن وهب بن منبه أنه قال: أقام نوح عليه السلام خمسمائة سنة لا يقرب النساء وجلاً من الموت وهول المطلع.

وروي: أن عيسى عليه السلام قال للحواريين: ادعوا الله لي أن يخفف علي سكرات الموت فلقد خفت الموت حتى أوقعتني مخافتي من الموت على الموت.

وروي أنه عليه السلام لما احتضر جعل يقول: «لا إله إلا الله إن للموت سكرات<sup>(4)</sup>». وروي: أنه كان عنده قدح من ماء يدخل يديه فيه وكان يمسح بالماء وجهه وهو يقول:

«إن للموت سكرات».

(1) لم أجد تحريجه.

(2) لم أجدّه أيضاً.

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، انظر الجامع الصغير: (39/3).

(4) أخرجه البخاري (4/1616، رقم 4184)، وأخرجه أيضاً: الطبراني (31/23، رقم 78).

وفي الحديث: «لو أن قطرة من الموت وقعت على جبال الدنيا لذابت»<sup>(1)</sup>.  
وفيه: «لو أن أَلَمَ شعرة من شعرات الموت وضعت على أهل السموات والأرض لماتوا  
أجمعين؛ لأن في كل شعرة أَلَمَ الموت، ولا يقع الموت ولا يحل في شيء إلا مات»<sup>(2)</sup>.  
وفي حديث عائشة رضي الله عنها وأنس: قيل: يا رسول الله هل يكون مع الشهداء  
يوم القيامة غيرهم؟ قال: «نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة»<sup>(3)</sup>. وفي لفظ  
الحديث الآخر: «يذكر ذنوبه فتحزنه».

قال الغزالي: وإنما سبب هذه الفضيلة كلها أن ذَكَرَ الموت يوجب التجافي عن دار  
الغرور. ويتقاضى الاستعداد للآخرة، والغفلة عن ذكره تدعو إلى الانهماك في شهوات  
الدنيا<sup>(4)</sup>. فبذكره يتجافى العبد عن الدنيا ويتنغمص عليه نعيمه، ويتكدر عليه صفوه  
ولذته، وكل ما يكدر على الإنسان اللذات؛ فهو من أسباب النجاة.

قيل: أوحى الله إلى موسى عليه السلام: يا موسى أتحب أن تموت آمناً، وتبعث آمناً، وتدخل  
الجنة آمناً؟ قال نعم، قال: قل كل يوم عشر مرات: اللهم بارك لي في الموت وفيما بعد  
الموت. وذكر عنده عليه السلام رجل فأحسنوا الثناء عليه، فقال: «كيف كان ذكر صاحبكم  
للموت؟» قيل له: ما كنا نسمعه يذكره. فقال: «إن صاحبكم ليس هناك»<sup>(5)</sup>. وفي  
الخبر أن فتى من الأنصار قال: يا رسول الله؛ أي المؤمنين أفضل؟ قال: «أحسنهم خلقاً.  
قال: فأبي المؤمنين أكيس؟ فقال: أكثرهم ذكراً للموت، وأكثر استعداداً له، قبل أن يترل  
به، أولئك الأكياس»<sup>(6)</sup>.

<sup>(1)</sup> أخرجه في كثر العمال: (39791).

<sup>(2)</sup> أخرجه المناوي في فيض القدير: (7378).

<sup>(3)</sup> أخرجه الشوكاني في الفوائد المجموعة رقم: (175).

<sup>(4)</sup> انظر إحياء علوم الدين للغزالي: (450/4).

<sup>(5)</sup> أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب: (5054) عن سهل بن سعد الساعدي.

<sup>(6)</sup> تقدم تخريجه.



قال القرافي: اعلم أن ذكر الموت يهون على العبد بعض ما هو فيه من الضيق والمحنة؛ لأنه لا يدوم، والموت أشد منه، ويمنع من الاغترار بالنعمة والسعة.

قال الغزالي: علامة التوفيق ذكر الموت كل ساعة والاستعداد لما عسى أن يرد منه في الوقت، فإن عاش يومه إلى المساء شكر الله على طاعته وفرح بأنه لم يضيع نهاره، بل استوفى منه حقه، وادخره لنفسه، ثم يستأنف مثله إلى الصباح. وهكذا إذا أصبح ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه. فمثل هذا إذا مات سعد، وإن عاش سُرَّ بحسن الاستعداد، ولذة المناجاة، فالموت له سعادة، والحياة له مزيد خير<sup>(1)</sup>.

وقال اللقاف: من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب ونشاط العبادة. ومن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضى بالكفاف، والتكاسل في العبادة.

وفي الحديث: «الكيس من دان نفسه أي حاسبها»<sup>(2)</sup> وقال أبو عبيد: أي أذلها واستعبدها وعمل لما بعد الموت.

وقال الثعالبي: وأنفع طريق في ذكر الموت؛ أن يذكر الإنسان أشكاله، وأقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر كونهم في التراب، وكيف محا التراب الآن محاسنهم، وأرمل نساءهم وأيتم أولادهم، وقسمت أموالهم وعرضت عليهم أعمالهم، وندموا ولم ينفعهم الندم، وسمعوا النداء إما بالجنة وإما بالنار، فعند ذلك ينظر الموفق نظراً شفقة لنفسه، ويعلم أنه مثلهم، وأن غفلته كغفلتهم، وستكون عاقبته كعاقبتهم، ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد من مفارقتها.

وكتب زيد بن حبيش إلى عبد الملك يعظه: لا يطمعك يا أمير المؤمنين في طول حياتك ما يظهر من صحتك وأنت أعلم بنفسك. وانظر ما قال الأول: إذا الرجال ولدت

(<sup>1</sup>) انظر إحياء علوم الدين للغزالي: (458/4).  
(<sup>2</sup>) أخرجه الترمذی (638/4 ، رقم 2459) وقال : حسن . وابن ماجه (1423/2 ، رقم 4260).

أولادها، وبليت من كبر أجسادها، وجعلت أسقامها تعتادها، تلك زروع قد دنا حصادها.

قال هرم بن حيان<sup>(1)</sup> لأويس القرني: أوصني، قال: توسد الموت إذا نمت، واجعله نصب عينيك إذا قمت، وادع الله أن يصلح لك قلبك. وأوصاه مرة فقال له: عليك بذكر الموت فلا يفارقن قلبك ما بقيت.

قال الحسن: ما رأيت عاقلاً قط إلا وجدته حذراً من الموت حزينا من أجله. وعلى العبد بتقصير الأمل، فإن من طال أمله ساء عمله، ومن خاف الوعيد، قرب عليه البعيد. ويروى عن الحسن أنه قال: قال النبي ﷺ: «كلكم يجب أن يدخل الجنة؟ قالوا نعم يا رسول الله. فقال: قَصِّرُوا آمالكم وثبِّتُوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء»<sup>(2)</sup>. (و) لازمها أيضا بكثرة ذكر شدة الموت (هَوْلُهُ) فقد ورد في شدته آثار كثيرة: منها: ما أخرجه ابن أبي الدنيا بسند رجاله ثقة عن الحسن أنه ﷺ ذكر الموت فقال: «هو قدر ثلاثمائة ضربة بالسيف»<sup>(3)</sup>.

وفي الحديث أيضا: «أدنى جذبات الموت بمثلة مائة ضربة بالسيف وإن ألم شعرة من الموت لو وُضِعَ على جميع الخلائق لماتوا، وإن بين الموت وبين دخول الجنة مائة ألف هول كل هول منها يزيد على ألم الموت بمائة ألف ضعف»<sup>(4)</sup>.

---

(<sup>1</sup>) هو هرم بن حيان العبدي الأزدي، من بني عبد القيس: قائد فاتح، من كبار النساك. من التابعين. كان أمير بني عبد القيس في الفتوح. وولي بعض الحروب في أيام عمر وعثمان، بأرض فارس. وحاصر "بوشهر" سنة 18 ودخلها. وكان من سكان البصرة. عده ابن أبي حاتم في الزهاد الثمانية، من كبار التابعين. وسماه الجاحظ في النساك الزهاد من أهل البيان. من كلامه: "إياكم والعالم الفاسق! سألته عمر عما أراد به، فكتب إليه: ما أردت إلا الخير، يكون إمام يتكلم بالعلم ويعمل بالفسق فيشبه على الناس فيضلون. انظر الاصابة الترجمة رقم: (8948).

(<sup>2</sup>) حديث ابن مسعود: أخرجه أحمد (387/1)، رقم (3671)، والترمذي (637/4)، رقم (2458) وقال: غريب.

(<sup>3</sup>) قال المناوي (233/1): أخرجه ابن أبي الدنيا أبو بكر في كتاب ذكر الموت عن الضحاك بن حمزة الأملوكي الواسطي، مرسلاً أرسل عن قتادة وجماعة قال سئل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الموت ... فذكره.

(<sup>4</sup>) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذكر الموت عن الضحاك بن حمزة مرسلاً. انظر الجامع الصغير: (59/1).

وقال العلاء بن المسيب: ليس شيء قبل الموت إلا والموت أشد منه. وليس شيء بعد الموت إلا والموت أيسر منه.

وقال كعب: مثل الموت كشجرة كثيرة الشوك، أدخلت في جوف ابن آدم فأخذت كل شوكة بعرق، ثم اجتذبا رجل شديد الجذب فقطع ما قطع، وأبقى ما أبقى.

وقال الحسن ابن عمران<sup>(1)</sup>: الموت أشد من نشر المناشير، ومن طبخ القدور، ولو أن ألم شعرة واحدة من الموت وضع على أهل الدنيا لوجدوا من ذلك ألما يشغلهم عن الأكل والشرب<sup>(2)</sup>.

وقال كعب الاحبار<sup>(3)</sup>: لما أحيى عيسى ~~عليه السلام~~ سام ابن نوح قال له عيسى: منذ كم وأنت ميت؟ قال: منذ أربعة آلاف سنة. قال: كيف وجدت الموت؟ قال: إلى الآن لم تذهب حرارته وسكراته<sup>(4)</sup>.

وعند الموت يحدث في كل عضو بل في كل عرق ألم، وينتشر ذلك في الظاهر والباطن، ولهذا يَرَبْدُ لونه حتى كأنه يظهر منه التراب الذي هو أصل فطرته، وإنما لا يصبح لضعف قواه، حتى أن من كان له أدنى قوة سمع له غرغرة، وخوار من حلقه وصدره، ثم يموت أعضاؤه على التدريج فيطول ألمه.

ومن أهوال الموت: مشاهدة ملك الموت وهي مزعجة لأهل الشقاوة فقط، ومشاهدة العصاة مواضعهم في النار، وخوف الكل قبل المشاهدة إلى أن يسمعوا نغمة الملك بإحدى البشارتين:

---

(<sup>1</sup>) هو الحسن بن عمران بن شاهين ثاني أمراء بني شاهين أصحاب البطيحة (بين واسطة والبصرة) وليها استقلالاً بعد موت أبيه (369) وجيوش بغداد قماجمها ولا تفوت فاستمر فيها ثلاث سنوات ثم آل أمره إلى أن قتل 372هـ. انظر تاريخ ابن خلدون: (507/4).

(<sup>2</sup>) انظر تنبيه المغترين للشعراني: (68).

(<sup>3</sup>) تقدمت ترجمته.

(<sup>4</sup>) انظر تنبيه المغترين للشعراني: (69).

إما: أبشر يا عدو الله بالنار. وإما أبشر يا ولي الله بالجنة، وقد مضى ذكر بعض أهواله. وقال علي الخواص: يسهل الموت على العبد بقدر ما ذاق من الغصص في مرضاة الله تعالى.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: إذا شدد الله على المؤمن الموت لا يعذبه في قبره، وإذا عذبه في قبره لا يعذبه في الآخرة.

وقال عمر بن عبد العزيز: إني أكره تخفيف الموت، وأحب التشديد لأنه آخر عمل يثاب عليه المؤمن. وأما ما قال كعب الأحبار: إن البشير لما أتى يعقوب عليه السلام قال له يعقوب عليه السلام: ما عندي شيء أكافيك به، ولكن هوّن الله عليك سكرات الموت فهذا في حق من يخاف عليه إذا شدد عليه. قاله الشعراني.

وأما ما ورد من أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يشدد عليهم المرض؛ فإن الأكابر قد يشدد عليهم تعظيماً لأجورهم، وبعضهم يشدد عليه الموت لأجل تلامذته فيريد عدم الخروج من الدنيا ليرشدتهم إلى كمال مقام المعرفة مع محبته للقاء الله أيضاً، فلما تجاذب عليه الأمران حصل التشديد، ولولا شفقتة على تلامذته لكان أسرع الناس خروجاً لروحه طلباً للقاء الله عز وجل.

وفي الحديث عن أبي هريرة: «يقول الله تعالى: لا يخرج عبد من عبادي من الدنيا وأنا أريد أن أغفر له إلا أقتص منه بكل سيئة عملها بسقم أو مرض، أو حد، أو ضيق في معيشته، أو بما يصيبه من غم». وإن بقي عليه شيء من سيئاته شدد عليه عند الموت حتى يلقاني ولا سيئة عليه من سيئاته. وعزتي وجلالي لا أخرج عبداً من عبادي من الدنيا وأنا أريد أن لا أغفر له إلا فتنته بكل حسنة عملها بصحة في جسده، أو فرح يصيبه، أو سعة في رزقه. فإن بقي من حسناته شيء هونت عليه عند الموت حتى يلقاني ولا حسنة له<sup>(1)</sup>».

(1) لم أجد تحريجه.

وفي الخبر: «إن أشد الحال على الميت حين يدخل الغاسل داره عليه ليغسله فيخرج خاتم الشباب من أصبعه، ويتزع قميص العروس من يده، ويرفع عمامة المشائخ عن رأسه، فينادي روحه: يا غاسل بالله لا تجعل ماءك حارا ولا باردا فإن جسدي مجروح بخروج الروح، وانزع ثيابي برفق فالآن فرغت من حرب ملك الموت. وإذا كفنه قال: بالله يا غاسل! لا تشدد الكفن على راسي حتى يرى وجهي أهلي ومالي، وأولادي، فإن هذا آخر رؤية فلا أراهم إلى يوم القيامة. فإذا خرج من داره نادى أيضا: يا جماعتي: تركت امرأتي أرملة، وأولادي أيتاما لا تؤذوهم. وإذا حملوه قال: بالله يا جماعتي! لا تعجلوني حتى أسمع أصوات أولادي وقربائي، فإني أفارقهم إلى يوم القيامة ولا تغرنكم الدنيا كما غرتني، ولا يلعبن بكم الزمان كما لعب بي. وإذا وضعوه في اللحد قال: لا تنسوني من خيركم ودعائكم، فإنا اليوم أحتاج إليكم وأنا علمتكم القرآن والأدب<sup>(1)</sup>».

وفي الخبر: «إذا وقع العبد في الترع وحُبِسَ لسانه يدخل عليه أربعة ملائكة، فيقول الأول: أنا موكل برزقك، طفت الأرض شرقا وغربا فما وجدت لك لقمة في الأرض. ويقول الثاني: أنا موكل بشرابك من الماء طفت الأرض شرقا وغربا فما وجدت لك شربة من الماء. ويقول الثالث: أنا موكل بالأنفاس طفت الأرض شرقا وغربا فما وجدت لك نفسا واحدا. ويقول الرابع: أنا موكل بأجلك طفت الأرض شرقا وغربا فما وجدت لك ساعة. وإذا مضت للميت ثلاث ليال: رجعت روحه تنظر إلى الجسد فتتظر من بعيد، وقد سال الدم من منخريه، ومن فيه فيبكي طويلا، ثم يقول: يا جسد المسكين، أما تذكر أيام حياتك، وهذا المترل مترل الوحشة والبلاء والغم والكربة والندم. وإذا مضت سبعة أيام رجع وينظر إلى الجسد من بعيد، وقد وضع فيه الدود وسال فيه الدم والكديد. ثم ينادي أيضا».

وفي الخبر: «إذا مات المؤمن طار روحه حول داره شهرا فينظر من خلفه من عياله وكيف يقسم ماله وتؤدي ديونه، فإذا تم شهر رُدَّ إلى قبره فيدور حول قبره سنة ينظر من

(1) لم أحده.

يدعو له، وإذا كان يوم العيد أو يوم عاشوراء، أو أول جمعة من رجب، أو ليلة النصف من شعبان ويوم الجمعة؛ يخرج الموتى من قبورهم ويقفون على أبواب بيوتهم فيقولون: ارحمونا اليوم المبارك بصدقة أو ببقعة وإلا فاذكرونا بركتين في هذه الليلة المباركة، فمن وجد منهم شيئاً من الصدقة والدعاء رجع مسروراً، وإلا رجع محزوناً.

وروي: أن الميت يعذب في قبره حتى تدخل أول ليلة من رجب فيقول الله تعالى: «أشهدكم يا ملائكتي أني غفرت له بحب هذه الليلة المباركة وبركتها».

(و) اقم نفسك واحذر منها و(كُنْ فِي الْحَذَرِ مِنْهَا كَمَنْ اِحتَوَشَتْهُ) الجوهرى: احتوش القوم الصيد إذا نَفَرَهُ بعضهم على بعض، وإنما ظهرت فيه الواو كما ظهرت في اجتوروا وأوحشت الصيد إذا جثته من حواليه لتصرفه إلى الحباله. (السَّبَاعُ) والهوام فهو خائف أن يغفل (إِنْ غَفَلَ) عن نفسه (سَاعَةً اِفْتَرَسَتْهُ) السباع ونهشته الهوام (فَهُوَ مَذْعُورٌ أَبَدًا) وجل فهو في المخافة في ليله، وإن أمن المغترون، وفي الحزن نهاره وإن فرح البطالون. هذه وصية وصى بها راهبٌ عيسى بن مالك الخولاني كما ذكره الغزالي في كتاب الأوراد؛ ثم قال له عيسى: لو زدني شيئاً عسى أن ينفعني، فقال: الظمان يجزيه من الماء يسيره أي القلب الصافي يحركه أدنى مخافة.

قال الغزالي: وما ذكره من تقديره أنه احتوشته السباع والهوام؛ فلا ينبغي أن يظن أنه تقدير بل هو تحقيق. فإنك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرأيت مشحوناً بأنواع السباع، وأصناف الهوام، مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد، والرياء والكبر والعجب وغيرها. وهي التي لا تزال تنهشك وتفترسك إن سهوت عنها لحظة إلا أنك محجوب القلب عن مشاهدتها. فإذا انكشف الغطاء ووضعت في قبرك عاينتها وقد تمثلت لك بصورتها، وأشكالها الموافقة لمعانيتها، فترى بعينك الحيات والعقارب قد أهدت بك في قبرك، وإنما هي صفاتك الحاضرة الآن قد انكشفت لك صورها. فإن أردت أن تقتلها أو

بهرها وأنت قادر عليها قبل الموت فافعل وإلا فَوَطَّنْ نفسك على لدغها ونهشها لصميم  
بك فضلا عن ظاهر بشرتك وجسمك<sup>(1)</sup>.

ثم قال: (وَعَدَاوَتُهُمَا) أي النفس والشيطان (لَكَ نِعْمَةٌ لِّتَضْطَرَّ إِلَيْهِ) أي إلى الله (فِي  
أَفْعِهِمَا) وتستعين به عليهما، فيوجد منك حينئذ الالتجاء والاضطرار إليه، والانتصار به،  
التوكل عليه فعداوتهما ردك بها عليه وجمعك بها عليه. وهذا هو غاية المقصود لمن وفقه  
الله تعالى.

ولما أنهى الكلام على اثنين من العوائق الأربعة التي جمعها الشاعر في قوله:

إِنِّي بُلِيْتُ بِأَرْبَعٍ يَرْمِينَنِي بِالنَّبْلِ عَنْ قَوْسٍ لَهُ تَوْتِيرُ  
إِبْلِيسُ وَالِدُنْيَا وَنَفْسِي وَالْهَوَى <sup>(2)</sup> يَا رَبُّ أَنْتَ عَلَى الْخَلَاصِ جَدِيرُ

### (3) الحرفيا

أشار إلى الثالث الذي هو من أعظمها وهو الدنيا فقال: (فَصْلٌ وَمِنْهُ) أي من الخلق الذي هو حجب الوصول (الدُّنْيَا) وهي تأنيث الأدنى.

قال التيمي في شرح البخاري: ليس بمنصرف لاجتماع الوصفية ولزوم حرف التأنيث. وأدنى أفعال التفضيل وأفعال التفضيل إذا نكر لزمه الافراد والتذكير وامتنع تأنيثه وتثنيته وجمعه.

قال ابن مالك: ففي استعمال دنيا بتأنيث مع كونه منكرا إشكال فكان من حقها أن تستعمل باللام كالكبرى والحسنى. قال: إلا أنها خلعت عنها الوصفية غالبا وأجرى مجرى ما لم يكن وصفا قط، مما وزنه فعلى: كرجى ورهى. ومن وروده منكرا مؤنثا قول الفرزدق:

لَا تَعْجَبَنَّكَ دُنْيَا أَنْتَ تَارِكُهَا كَمْ نَالَهَا مِنْ أَتَاسٍ ثُمَّ قَدْ ذَهَبُوا  
ومما عومل معاملة دنيا في الجمع بين التذكير والتأنيث والأصل أن لا يكونا، قول الشاعر:

وَإِنْ دَعَوْتَ إِلَى جُلَى وَمَكْرُمَةٍ يَوْمًا سِرَافَةَ كِرَامِ النَّاسِ فَادْعِينَا<sup>(1)</sup>  
فإن الجلى في الأصل مؤنث الأجل، ثم خلعت عنه الوصفية وجعل اسما للحادثة العظيمة فجرى مجرى الأسماء التي لا وصفية لها في الأصل.

قال الكرمانى<sup>(2)</sup>: والدليل على جعل الدنيا أسما: قلب الواو ياء؛ لأنه لا يجوز القلب إلا في فعلى الإسمية.

(1) البيت من قصيدة لنهشل بن حري مطلعها:

إِنَّا مُحْتَرِكُ يَا سَلَمَى فَحَيِّنَا وَإِنْ سَقَيْتَ كِرَامَ النَّاسِ فَاسْقِينَا  
انظر ديوانه: (حرف النون).

(2) هو محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرمانى، ويعرف بتاج القراء: عالم بالقراءات. نقل في (التفسير) آراء مستنكرة، في معرض التحذير منها، كان الأولى إهمالها. أثنى عليه الجزرى وذكر بعض كجه، ومنها (لباب التفاسير - خ) في شستريق



وقال بعضهم: المشهور في "دنيا" القصر بلا تنوين. وحكى تنوينها والدنيا بضم الدال. وحكى ابن قتيبة<sup>(1)</sup> كسرهما فعلى من الدنو أي القرب لسبقها الآخرة. وقيل: لدنوها من الزوال: وهي ما على الأرض من الهواء والجو. وقيل: كل المخلوقات من الجواهر والأعراض. وتطلق على كل جزء من ذلك مجازا. والدنيا أيضا: اسم لهذه الحياة. تمة: المراد بالدنيا هنا: المال وتوابعه التي هي من جملتها كالجاه والكبر والخلاء. قال الثوري: سُمي المال مالا لأنه يميل القلوب. النووي: وهذه مناسبة في المعنى وإلا فليس مشتقا من ذلك، لأن عين المال وَاوِيٌّ لا من الميل بالياء. ومن شرط الاشتقاق الاتفاق في الحروف الأصلية.

## الزهد في الدنيا

ولما كان المذموم من الدنيا الركون إليها بالقلب. فالشأن فيه لا في الجوارح؛ أشار إلى ذلك بقوله: (فَانْقُضْ يَدَ الْقَلْبِ مِنْهَا) إذ كم تارك لها بظاهره؛ محب مرید لها بباطنه، وأمر القلب هو المهم. والدنيا أمرها يسير وقدرها حقير، كأنها سحائب صيف، أو زائر طيف، أشبه شيء بالسراب، طالبا لم يزل في عذاب وليس القصد منها إلا ما أعانك لا ما أتعبك وأهانك.

وقال بعضهم: تركت الدنيا لسرعة فنائها، وقلة غنائها، وخسة شركائها. دار شأنها الذل والهوان، فكيف تصفو لك يا إنسان، مسرتها مقرونة بالغم، وحلاوتها معجونة بالسم.

---

(4147) وهو المعروف بكتاب (العجائب والغرائب) في مجلدين، ضمنه أقوالا في معاني بعض الآيات. توفي 505هـ. انظر غاية النهاية: 291/2).

(<sup>1</sup>) هو أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، أبو جعفر: قاض، من أهل بغداد، له اشتغال بالأدب والكتابة. كان يحفظ كتب أبيه وهي 21 كتابا في غريب القرآن والحديث والأدب والخبار. ولي القضاء بمصر سنة 321 هـ فجاهها، وعرف فضله فيها فأقبل عليه طلاب العلوم والآداب. ويرجح (الكندي) أنه عزل بعد ثلاثة أشهر من ولايته. ويقول أكثر مؤرخيه إنه مات وهو على القضاء وكانت وفاته بمصر. انظر إنباه الرواه: (45/1).

أَتَطْلُبُ أَنْ تَعِيشَ بِغَيْرِهِمْ وَذَارُ الْهَمِّ أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ

طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَفْوًا مِنَ الْأَقْذَارِ وَالْأَكْذَارِ  
وَمُكَلِّفُ الْأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبٌ فِي الْمَاءِ جِذْوَةَ نَارٍ  
والقلب: جزء من البدن جعله الله تعالى محل الكلام والعلم وغير ذلك من الصفات.  
وجعله مبدأ الحركات البدنية، والإرادات النفسانية. ووكل به ملكا يأمره بالخير،  
وشيطانا يأمره بالشر، والعقل بنوره يهديه والهوى بظلمته يغويه، والقضاء والقدر  
مسلطان على الكل، والقلب يتقلب بين الخواطر الحسنة والسيئة، والمحفوظ من حفظه الله  
تعالى. (زُهْدًا فِيهَا) ورغبة عنها وإنما لزمك الزهد لأمرين: أحدهما: لزمك (لِيَزْكُوَ  
عَمَلُكَ) أي تكثر قيمته ويعظم قدره. ففي الحديث: «ركعتان من رجل زاهد قلبه خير  
وأحب إلى الله تعالى من عبادة المتعبدين إلى آخر الدهر أبدا سرمدًا» (1).

والثاني: فراغ وقتك للعبادة فتستقيم لك وتكثر، فإن الرغبة في الدنيا تشغلك. أما  
ظاهره: فبالطلب، وأما باطنك فبالإرادة وحديث النفس، وكلاهما يمنع من العبادة  
فالقلب واحد، فإذا اشتغل بشيء انقطع عن ضده.

وعن أبي الدرداء (2) قال: حاولت أن أجمع بين العبادة والتجارة فلم يجتمعا فأقبلت على  
العبادة وتركت التجارة.

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: لو كانتا مجتمعين لأحد غيري لاجتمعنا لي، لما أعطاني الله  
تعالى من القوة واللين.

وقال طاووس: حلو الدنيا مر الآخرة، ومر الدنيا حلو الآخرة.

(1) أخرجه الديلمي (265/2 ، رقم 3234)

(2) هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي، أبو الدرداء: صحابي، من الحكماء الفرسان القضاة. كان قبل البعثة تاجرا  
في المدينة، ثم انقطع للعبادة. ولما ظهر الإسلام اشتهر بالشجاعة والنسك. وفي الحديث "عويمر حكيم أمي" و "نعم الفارس عويمر".  
وولاه معاوية قضاء دمشق بأمر عمر بن الخطاب، وهو أول قاض لها. قال ابن الجوزي: كان من العلماء الحكماء. وهو أحد الذين جمعوا  
القرآن، حفظا، على عهد النبي صلى الله عليه وسلم بلا خلاف. مات بالشام. وروى عنه أهل الحديث 179 حديثا. انظر الإصابة: ت  
6119.

وقال يمين بن رزق<sup>(1)</sup>: ليس إلا دنيا أو أخرى، فإن أردت الجمع بينهما رمت محالا وذهبتا عنك معا، فاختر لنفسك؛ فالأولى: عيش النفس ومادته الأرضيات. والثانية: عيش الروح ومادتها العلويات.

وفي الحديث: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى<sup>(2)</sup>» فاستبان من هذا أن العبادة لا تتأتى على وجهها إلا بالزهد.

قوله: "من أحب دنياه.. إلخ. سبب ذلك أن القلب إذا انصرف همهته إلى الدنيا تصاعبت عليه الآخرة حتى يصير أصعب شغل من أشغال الدنيا أخف عليه من أقل شغل من أشغال الآخرة؛ لأن القلب إذا تفاحش فيه حب الدنيا لازم العبد فراش الغفلة، ولم يستطع الخروج عنها، وكلت الجوارح عن أفعال البر، فيكون شغل من أشغال الدنيا - وإن كان عسيرا - أهون عليه من ركعتين يركعهما بخشوع.

وقوله: "من أحب آخرته.. إلخ. سبب ذلك أن القلب إذا أحياه الله بحب الآخرة تيسر عليه العمل لها بطيب نفس منه دون صعوبة وتثقل عليه أشغال الدنيا التي لا يتعلق حبه بها حتى يتعطل عليه أكثر أشغالها من أجل انصراف القلب عنها.

ومن فوائد الزهد أيضا: السلامة من كدر الدنيا والراحة من طلبها. (وهو) قسمان: زهد مقدور للعبد، وزهد غير مقدور؛ فالمقدور ثلاثة أشياء: ترك طلب المفقود من الدنيا. وتفريق المجموع منها و(تَرْكُ إِرَادَتِهَا) واختيارها (بِالْقَلْبِ) وغير المقدور للعبد هو برودة الشيء على قلب الزاهد. فالمقدور مقدمات لغير المقدور له. فإنه إذا فعل الأشياء الثلاثة أورثه ذلك برودة الدنيا على قلبه، وأصعب الثلاثة ترك الإرادة بالقلب؛ إذ كم تارك لها بظاهره محب مرید لها بباطنه فالشأن في ترك الإرادة بالقلب وهو المهم دون الطلب والفعل للمراد.

(1) هو يمين بن رزق الزاهد: من أهل كطيلة، يكتب: أبا بكر. له كتاب في الزهد. انظر تاريخ علماء الاندلس: (212/1).  
(2) أخرجه السيوطي في جامع الاحاديث: (45314).

قال في الإحياء: الزهد عبارة عن عزوف النفس عن الدنيا مع القدرة عليها، لأجل الآخرة. فلا يتصور الزهد ممن ليس له مال ولا جاه، ولا ساعدته الدنيا. والزاهد لا ينخل الحنطة، وإلا فليس بزاهد، ولا يأتمد باللحم إلا مرة أو مرتين في الأسبوع وإلا فليس بزاهد. ولا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه، وإلا فليس بزاهد، ولا يدخر فوق كفايته سنة، وإلا فليس بزاهد، أي لا يعطي في الآخرة ما أعد الله للزهاد.

قال: والدرجة العليا في الزهد: أن يزهد وأن يزهد في زهده ولا يرى زهده شيئاً إذ لا يرى أنه ترك شيئاً إذ عرف أن الدنيا لا شيء، فيكون كمن ترك حصاة وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة، ولا يرى نفسه تاركاً لشيء بل الدنيا أحسن من الحصاة بالنسبة لهما. ومثل من ترك الدنيا للآخرة: كمن منعه من باب الملك كلب على بابه، فألقى إليه لقمة فشغل الكلب باللقمة ودخل الباب ونال قرب الملك. فاللقمة قليلة في جنب ما نال من قرب الملك ونعيمه فالشيطان على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول. والدنيا كلقمة تنقضي لذتها بعد البلع على القرب، بل الدنيا أقل من اللقمة بالنسبة. والزهد أيضاً قسمان:

- فرض: وهو ترك كل ما يعطل عن الواجبات ويوقع في بعض المحرمات.

- ونفل: وهو ترك كل ما زاد على مقدار الضرورة<sup>(1)</sup>.

قال بعضهم: الزهد له أول وهو: ترك كل ما يشغل المرید عن الطريق من الأسباب، والأشياء والأشخاص والخروج عما يملكه إلا ما لا بُدَّ منه من سد الجوعة وستر العورة، في الوقت من غير ذخيرة للغد باعتماده وتوكله على الله تعالى. وله آخر وهو: ترك كل ما يشغله عن الله تعالى بالإعراض عما سواه من العلوم والأحوال والكرامات، وما في معناها. وثمره الزهد الواجب: استنارة القلب بالحكم وتعاون الأعضاء على العبادة وكثرة نية العمل ومضاعفة ثوابه وعظم قدره، وشرف محله.

(1) انظر إحياء علوم الدين: (242/4).

وعن سلمان الفارسي<sup>(١)</sup>: إن العبد إذا زهد في الدنيا استنار قلبه بالحكمة وتعاونت أعضاؤه بالعبادة.

وقال العلقمي: الزهد ثلاثة: زهد العوام؛ وهو ترك الحرام بالقلب. وزهد الخواص: وهو ترك الفضول من الحلال بالقلب. وزهد خواص الخواص: وهو ترك كل ما يشغل عن الله تعالى بالقلب.

قال ابن عيينة: الزهد ثلاثة أحرف: الزاي: ترك الزينة. والهاء: ترك الهوى. والdal ترك الدنيا بجملتها.

وحقيقته شرعا: ترك الدنيا بجملتها، وترك كل ما لا قربة فيه منها مما يتنعم به فيها؛ من مطعم ومشرب وملبس ومسكن، وترك التلذذ بملاذها والخلود فيها إلى الراحة، ولم يأخذ من ذلك إلا ما لا بد منه. لأن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده. وأما ترك ما يجب تركه من المحرمات فلا يسمى زهدا. وأما ترك ما يجب أخذه من قوام نفسه ومن تلزمه نفقته فمعصية يستحق عليها العقوبة. فالزاهد: هو المستصغر للدنيا الذي انصرف قلبه عنها لصغر قدرها عنده، فلا يفرح بشيء منها ولا يحزن على فقده، ولا يأخذ منها إلا ما أمر بأخذه مما يعينه على الطاعة، ويكون مع ذلك داعيا للشغل بذكر الله، وذكر الآخرة. هذا هو أرفع أحوال الزهد، فمن بلغ هذه المرتبة فهو في الدنيا شخصه وفي الآخرة روحه.

وقال الفضيل<sup>(٢)</sup>: جعل الله الشر كله في بيت، وجعل مفتاحه حب الدنيا وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد.

قيل: جاء ولي<sup>١</sup> إلى أمير فقال له الأمير -وقد رأى عليه لباس الزهد-: مالكم تزهدون في الدنيا؟ قال: أنتم أزهد منا. قال له الأمير: وكيف ذلك؟ قال لأن زهدنا إنما هو في الدنيا، وزهدكم أنتم إنما هو في الآخرة. فلما افترقا، تأمل الأمير قوله، فوجده كأنه قال

(١) تقدمت ترجمته.

(٢) تقدمت ترجمته.

له: أنت أحق لزهدك في شيء نفيس. ونحن عقلاء لزهدنا في شيء قليل جدا لا قيمة له ليسارته.

## فائدتان في الزهد:

**الفائدة الأولى:** قال الهيثمي: أنكر بعض العلماء وصفه عليه السلام بالزهد ويؤيده قول محمد بن واسع، وقد قيل له: فلان زاهد. قال: وما قدر الدنيا حتى يزهد فيها؟ وإذا أنكر وصفه عليه السلام بالزهد فالضرورة من باب أولى. وأفتى فقهاء الأندلس بقتل من وصفه عليه السلام بالفقر.

وزعم ابن السبكي<sup>(1)</sup> أن زهده لم يكن قصدا، ولو قدر على الطيبات لأكلها. وذكر الزركشي<sup>(2)</sup> عن بعضهم أنه عليه السلام لم يكن فقيرا من المال قط ولا حاله حال فقير، بل كان أغنى الناس بالله قد كفى أمر دنياه في نفسه وعياله. والمراد بقوله: اللهم أحيني مسكينا وأمتي مسكينا<sup>(3)</sup>... الحديث. استكانة القلب لا المسكنة المرادفة للفقر؛ لأنه صح استعاذته عليه الصلاة والسلام من فتنة الفقر، كما استعاذ من فتنة الغنى.

**الفائدة الثانية:** قال الهيثمي أيضا: الصحابة في الزهد قسمان: فأكثرهم زهد في الدنيا اشتغالا بالعلوم والمعارف ونشرها وبالعبادات حتى لم يبق من أوقاتهم شيء إلا وهم مشغولون بشيء من ذلك وكثير منهم حصل الدنيا لكن كانوا فيها خزانة لله تعالى. وهذا لا ينافي زهدهم فيها، لأنهم لم يمسكوها لأنفسهم بل أمسكوها لإخراجها لمستحقها

(1) تقدمت ترجمته.

(2) هو محمد بن هاد بن عبد الله الزركشي، أبو عبد الله، بدر الدين: عالم بفقهاء الشافعية والأصول. تركي الأصل، مصري المولد والوفاء. له تصانيف كثيرة في عدة فنون، منها (الاجابة لايراد ما استدركه عائشة على الصحابة - ط) و (لقطة العجلان - ط) في أصول الفقه، و (البحر المحيط - خ) ثلاث مجلدات في أصول الفقه، و (إعلام الساجد بأحكام المساجد - ط) و (الديباج في توضيح المنهاج - خ) فقه، و (مجموعة - خ) فقه، و (المنثور - خ) يعرف بقواعد الزركشي في أصول الفقه، و (التنقيح لالفاظ الجامع الصحيح - خ) و (ربيع الغزلان) أدب و (عقود الجمان، ذيل وفيات الأعيان - خ) في 34 كراسا، بمكتبة عارف حكمة، في المدينة، كما في مذكرات الميمني - خ. انظر شذرات الذهب: (335/6).

(3) أخرجه الترمذی (577/4 ، رقم 2352) وقال : غريب.

بحسب نظرهم واجتهادهم، فأغنياؤهم كانوا خزاناً لله يصرفون ماله في مصارفه الشرعية، ويفنونه لذلك لا لفخر ولا لمباهات ولا لمجبة جمع لذلك الحطام الفاني، فلا يعدون من الأغنياء إلا باعتبار الصورة. وأما باعتبار الحقيقة فهم على غاية من الافتقار إلى الله عز وجل ببواطنهم وظواهرهم، لا يشهدون لأنفسهم مالا ولا غنى وإنما يعدون أنفسهم خزنة لا غير. انتهى بخ (1).

قال عبد الله بن عتبة (2): كان لعثمان رضي الله عنه يوم قتل عند خازنه مائة ألف وخمسون ألف دينار، وألف ألف درهم، وخلف ضياعه ببيير أريس، وخيبر وواد القرى. وبلغ مال الزبير خمسين ألف دينار، وترك ألف فرس، وألف مملوك. وغنى عبد الرحمن بن عوف أشهر من أن يذكر. وكانت الدنيا في أكفهم لا بقلوبهم صبروا عنها حين فقدت. وشكروا الله حين وجدت وإنما ابتلاهم الحق بالفاقة في أول أمرهم حتى تكملوا، ثم بذلها لهم فلو أعطوها قبل ذلك، فلعلها تأخذ من قلوبهم. فلما أعطوها بعد التمكن والرسوخ في اليقين تصرفوا فيها تصرف الخازن الأمين. وقال تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ فقد خرج أبو بكر رضي الله عنه من ماله كله وعمر من نصفه، وعبد الرحمن بن عوف عن سبعمائة بعير موقورة الأحمال وجهز عثمان جيش العسرة.

ومن كتاب تنبيه المغترين للشعراني: قال سيدي محمد بن عنان: كيف يليق بالفقير أن يكون الولاية أزهده منه؟ فقل له: كيف ذلك؟ قال: لأن الأمير ما أعصى الفقير شيئا إلا بعد زهده فيه، ولولا زهده ما قدر أن يستخلصه من يده أبدا (3).

(1) انظر الهيثمي على الأربعين باختصار وتصرف وتلفيق: (236).

(2) هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي، أبو عبد الله: مفتي المدينة، وأحد الفقهاء السبعة فيها. من أعلام التابعين. له شعر جيد أورد أبو تمام قطعة منه في "الحماسة" وأبو الفرج كثيرا منه في "الأغاني" وهو مؤدب عمر بن عبد العزيز. قال ابن سعد: كان ثقة عالما فقيها كثير الحديث والعلم بالشعر، وقد ذهب بصره. مات بالمدينة. انظر: الوفيات: (1271).

(3) لم أجده في محله من كتاب تنبيه المغترين ولعله أتى به في موضع آخر.

وقال والي البصرة يوما لمالك بن دينار<sup>(1)</sup>: أتدري ما الذي أجراك علينا في إغلاظك القول علينا وعدم قدرتنا على مقابلتك؟ قلة طمعك فيما بأيدينا وزهدك فيه.

ودخل محمد بن واسع<sup>(2)</sup> على قتيبة بن مسلم<sup>(3)</sup> وعليه صوف فقال قتيبة: ما الذي حملك على لبس مدرعة الصوف؟ فسكت محمد. فقال: أكلمك فلا تجيبني؟ فقال: إن قلت زهدا زكيت نفسي، وإن قلت فقرا شكوت ربي فهذا نظير ما قيل: إن معاوية ذكروا عند كلاما وعنده الأحنف بن قيس فقال معاوية: ما تقول يا أحنف في هذا الكلام؟ فسكت، فقال له: أما تتكلم؟ فقال: إني أخشى الله إن كذبت وأخشاك إن صدقت فرأيت السكوت أولى.

وقال الثوري<sup>(4)</sup>: من جمع المال ابتلي بخمس خصال طول الأمل، وشدة الحرص، والشح، ونسيان الآخرة وقلة الورع.

وقال سيدي علي الخواص<sup>(5)</sup>: إنما طلب سليمان ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ليتحقق بمقام الزهد؛ لأن الزهد مع وجود الدنيا أعظم ممن كان زهده فيها مع الفقر.

وقال الشافعي<sup>(6)</sup>: لو أوصى إلى أعقل الناس لصرفته إلى الزاهدين في الدنيا.

وقال الحسن<sup>(7)</sup>: يحشر الناس كلهم عراة إلا الزاهدين في الدنيا.

وقال إبراهيم ابن أدهم<sup>(8)</sup>: من ادعى الزهد في الدنيا وغضب ممن نقصه عند أهلها فهو كاذب في دعواه.

وقال يونس بن عبيد<sup>(1)</sup>: غاية الزهد في الدنيا عدم الراحة.

(1) تقدمت ترجمته.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) تقدمت ترجمته.

(4) تقدمت ترجمته.

(5) تقدمت ترجمته.

(6) تقدمت ترجمته.

(7) تقدمت ترجمته.

(8) تقدمت ترجمته.



وقال مالك بن دينار: بلغنا أن عيسى عليه السلام مر على شخص نائم والناس قائمون يصلون بالليل فقال له: قم فصل قال: قد عبدت الله بأفضل العبادة، فقال له: وما هي؟ قال: زهدت في الدنيا، فقال له ثم فقد فقت العابدين.

وقال ابن مسعود: من كان أكثر الناس زهدا في الدنيا كان أكثرهم عملا صالحا. وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل: قال: قلت لأبي: إنك كنت تختلف إلى معروف الكرخي؛ أكان عنده حديث؟ فقال: كان عنده رأس المال؛ تقوى الله والزهد.

واعلم أن طلب الرزق من وجه سوؤه الشرع لا ينقص الزهد؛ لأن طلب الرزق الحلال فرض ولأن العبادة لا تكون إلا بإحراز القوت.

وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة<sup>(2)</sup> في بزته إلى أبي ذر وسأله عن الزهد فجعل أبو ذر يضبط له في كفه، ثم أعرض عنه ولم يكلمه، فغضب أبو عامر، وشكاه إلى عبد الله بن عمر؛ فقال: يا ابن عمي؛ تأني أبا ذر في هذه الثياب وتسأله عن الزهد.

ومن خسة الدنيا التي يحق أن يزهد الناس فيها: أنها كثيرا ما ترفع الجاهل وتضع العالم. وأنشدوا:

عَبْتُ عَلَى الدُّنْيَا بِتَقْلِيمِ جَاهِلٍ وَتَأْخِيرِ ذِي فَضْلٍ فَقَالَتْ خُذِ الْعُذْرَا  
بُنُو الْجَهْلِ أَبْنَائِي لِذَاكَ رَفَعْتُهُمْ وَأَهْلُ التَّقَى أَبْنَاءُ ضَرَّتْنِي الْآخَرَى  
وقال شقيق<sup>(3)</sup>: من انشرح لدخول الدنيا عليه فهو منافق، يريد بذلك من تظاهر للناس بالزهد فيها، وأما من لم يتظاهر بذلك فليس بمنافق.

وفي الخبر: «قال الله تعالى: يا موسى: إذا تنفس المسكين لطلب شهوة لا يقدر عليها

(1) هو يونس بن عبيد بن دينار العبدي بالولاء، البصري، أبو عبد الله، أو أبو عبيد: من حفاظ الحديث الضعفاء. من أصحاب الحسن البصري. كان من أهل البصرة. يبيع بما الخبز. ونعته الذهبي بأحد أعلام الهدى. قال أحد الغزاة: والله إنا نكون في غير العدو فإذا اشتد علينا الأمر قلنا اللهم رب يونس فرج عنا، فيخرج عنا! ولما مات حمله بنو العباس على أعناقهم. له نحو مئتي حديث. انظر تاريخ الإسلام للذهبي: (318/5).

(2) هو عبد الله بن عامر بن ربيعة العبدي حليف بني هدي.

(3) تقدمت ترجمته.

كان أفضل عندي من مائة حسنة، ومن عبادة ألف سنة. يا موسى إن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده غناه، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الغنى فلو أفقرته لأفسده فقره».

وفي الحديث: «الفقر أزين للمؤمن من العذار الجيد على خد الفرس<sup>(1)</sup>».

وقال أحد الحكماء: ستة لا تفارقهم الكتابة: الحقود، والحسود، وحديث عهد بالغنى، وغنى يخشى الفقر، وطالب رتبة يقصر قدره عنها، وجليس لأهل الأدب وليس منهم. وفي الخبر: «يفرح عبدي أن أوسع له في الدنيا، وذلك أبعد ما يكون مني وأبغض ما يكون إلي».

وفي الخبر أيضا: «إن الله عز وجل يقول: يحزن عبدي أن اصرف عنه فتنة الدنيا، وذلك أقرب ما يكون مني وأحب ما يكون إلي. قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾».

وفيه: «إن العبد يدعى للحساب بكل قيراط أربعا وعشرين مرة».

وقال عيسى عليه السلام: يا طالب الدنيا لتبّر. تركك الدنيا أبر وأبر.

وقال بعض الحكماء: جواهر البر ست خصال: كتمان الفقر حتى يظن الناس أنك غني. وكتمان الصدقة حتى يظن الناس أنك بخيل. وكتمان الشدة حتى يظن الناس أنك متمم. وكتمان الأمراض حتى يظن الناس أنك لا تشكو شيئا. وكتمان المصائب حتى يظن الناس أنك معافي، وكتمان البر حتى يظن الناس أنك لا تعمل عملا.

وفي الحديث: «إن بين أيدينا عقبة كؤودا لا يصعد بها إلا المخفون. قيل له: وما المخفون؟ ومن المثقلون؟ قال: عندك طعام يومك؟ قال نعم. قال: وطعام غد؟ قال نعم. قال وطعام بعد غد؟ قال: لا، قال: فلو كان عندك طعام ثلاث لكنت من المثقلين<sup>(2)</sup>».

(1) أخرجه الطبراني (294/7، رقم 7181) قال المناوي (464/4) : قال الحافظ العراقي : سنده ضعيف.

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (309/7، رقم 10407) .

وتوفي رجل من أهل الصفة فما وجدوا له كفنا. فقال النبي ﷺ «فتشوا ثوبه» قال: فوجدنا في داخله إزاره دينارين. فقال: كيتان وإنما كانا كيتين في حق هذا دون غيره ممن خلف أكثر من ذلك؛ لأن هذا حاله الزهد وإظهار الفقر فاستعمل الادخار وأظهر بخلاف حاله. ومرو رسول الله ﷺ بنوق عشار فغمض عينيه وهي من أنفس المال وتلا: ﴿لَا تُمَدِّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾... الآية.

قيل: إن عمر بن عبد العزيز أزهد من أويس القرني؛ لأن عمر ملك الدنيا فزهد فيها، وأويس لم يملكها فقيل: لو ملكها لفعل كما فعل عمر. فقالوا: ليس من جرب كمن لم يجرب (1).

قال الثعالبي: لا شك أن الزهد علامة كمال العقل والهداية. العاقل يترك المنفعة العاجلة خوفا من المضرة الآجلة. وينظر في عواقب الأمور. بخلاف الجاهل.

واعلم أن من فهم عن الله تعالى ورزق التوفيق لم ينخدع بغرور الدنيا، وزخرفها الفاني بل بصرف همه بالكلية إلى التزود لآخرته، ساعيا في مرضاة ربه. وأن من أيقن أن الله يطلبه صدق في الطلب إليه وأنه لا بد لبناء هذا الوجود أن تنهدم دعائمه، وأن تسلب كرائمه، فالعاقل: من كان بما هو أبقي أفرح منه بما هو يفنى. قد أشرق نوره، وظهرت تباشيره، فصرف همه عن هذه الدار مغضيا، وأعرض عنها موليا، فلم يتخذها وطنا، ولا جعلها سكنا، بل أنهض الهمة فيها إلى الله تعالى، وصار فيها مستعينا به في القدوم عليه، فما زالت مطية عزمه لا يقر قرارها دائما تسيارها إلى أن أناخت بحضرة القلوس وبساط الأنس.

وفي الحديث: «إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ، ذو حظ من الصلاة، أحسن عبادة ربه، وأطاعه في السر، وكان غامضا في الناس، لا يشار إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافا، فصبر على ذلك. ثم نفض يديه وقال: عَجَّلْتُ مَنِيَّتَهُ، وَقَلْتُ نَوَائِحَهُ، وَقَلَّ تَرَاهُ (2)».

(1) انظر شرح الميثمي على الأربعين النووية: (236).

(2) أخرجه أحمد (255/5 ، رقم 22251) ، والترمذي (575/4 ، رقم 2347) ، والحاكم (137/4 ، رقم 7148)

وفي الحديث أيضا: «عرض علي ربي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهبا، فقلت: لا يا رب ولكن اشبع يوما وأجوع يوما، أو قال ثلاثا ونحوها. أو نحو هذا. فإذا جعت تضرعت إليك وإذا شبعت شكرتك وحمدتك<sup>(1)</sup>».

وقال الغزالي: إذا أنعم الله عليك بنعمة في الدين فلا تلتفت إلى الدنيا وحطامها فإن ذلك ضرب من التهاون بما أولاك ربك من نعم الدين. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ فالزم الشكر على ذلك فإنه الكرامة الحقيقية.

وفي الحديث: «من أوتي القرآن فیری أن أحدا أعطى أفضل مما أعطى فقد عظم صغيرا وصغر عظيما».

وأما حطام الدنيا فإنه يصبه تعالى على كل كافر، وفرعون، وملحد وزنديق، وجاهل وفاسق، ويصرفه عن كل نبي، وصفي وصديق، وعالم وعابد، حتى أنهم لا يكادون يجدون كسرة أو خرقعة حتى من عليهم بأن لا يلطخهم بقذرها. وروي أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: لو شئت أن أزينك بزينة يعلم فرعون حين يراها أن مقدرته تعجز عنها لفعلت ولكن أزوي عنك الدنيا. كذلك أفعل بأوليائي، وإني أذودهم عن نعيمها كما يذود الراعي الشفيق إبله عن مبارك العرة، وإني لأجنبهم سلوفا وعيشها وليس ذلك لهوائهم علي، ولكن ليستكملوا حظهم.

تتمة: الفرق بين الزهد والورع: أن الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما يخشى ضرره في الآخرة. قاله العلقمي. والورع سيد العمل.

وعن ابن المبارك<sup>(2)</sup>: ترك فلس من حرام أفضل من مائة فلس يتصدق بها.

وأتى عمر رضي الله عنه بزيت من الشام فقسمه على الناس وعنده ابن له وله شعر فلما فرغ مسح الابن رأسه ببقية جفنة الزيت فقال له عمر: إن شعرك شديد الرغبة في زيت

(1) أخرجه أحمد (254/5 ، رقم 22244) ، والترمذي (575/4 ، رقم 2347) وقال : حسن .

(2) تقدمت ترجمته .

المسلمين فجز رأسه، وقال: هذا أهون عليك.

واستأجر ابن أدهم دابة إلى عمان فركبها حتى سقط سوطه فترل فربطها وذهب راجلا وأخذ السوط فقبل له: لو حولت رأس دابتك؟ فقال: إنما استأجرتها لتذهب وما استأجرتها لترجع. انتهى من السمرقندي.

وقال سحنون<sup>(1)</sup>: ترك الحرام أفضل من جميع العبادات، وترك دائق من الحرام أفضل من سبعين ألف حجة مبرورة وسبعين ألف عمرة مبرورة مقبولة. ومن سبعين ألف فرس في سبيل الله بزادها وسلاحها، ومن عتق سبعين رقبة مؤمنة من ولد إسماعيل.

وقال عبد الجبار بن خالد<sup>(2)</sup>: وَمِنْ مِلْأِ الْأَرْضِ نَقْدًا حَلَالًا أَنْفَقَ خَالصًا لِلَّهِ تَعَالَى.

ولما كان حب الدنيا المذموم يرجع إلى أصليين، وهما اللذان يجب الزهد فيهما وهما: الفرح بالموجود منها، والتأسف على المفقود منها؛ أشار إليهما بقوله: (وَلَا تَفْرَحْ بِمَوْجُودِهَا، وَلَا تَحْزَنْ عَلَى مَفْقُودِهَا) فلا عثور على مقام الزهد إلا بعد تجريد النفس عن هذين الأصليين. قال تعالى: ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ فهاتان العلتان لا مطمع للسالك في حقوق أهل ولاية الله ما لم تزولا من قلبه. فمن أراد اللحوق بهم فليقطع أصول هاتين العلتين من قلبه، ومثال من يحزن على الفاتت من الدنيا من جاءته حية لتلدغه، ثم مضت وسلمه الله منها فحزن عليها إذ لم تضره، وإنما أمر بالزهد في الدنيا وعدم الفرح بها (لَأَنَّ حُبَّهَا) والرغبة فيها والتكالب عليها؛ وهو حب كل ما يشغلك عن ذكر الله تعالى فيها من حب الحلال وحب التكاثر والجمع والمنع والتمتع والتنافس فيها وحب أبنائها، والركون إليهم، والركون إلى ما بيدك منها، وإلى

(1) هو أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي الفقيه المالكي، ولد سنة: 160 هـ، قرأ على ابن القاسم وعنه أخذ المدونة، وابن وهب وأشهب، وانتهت إليه رئاسة العلم بالمغرب، وأخذ عنه خلق كثير منهم: ابنه محمد ومحمد بن عبدوس وابن غالب ومحمد بن القطان وغيرهم. توفي سنة: 240 هـ. (شجرة النور الزكية ص: 69، وفيات الأعيان ج 3 ص: 180، شذرات الذهب ج 2 ص: 94).

(2) هو عبد الجبار بن خالد بن عمران السري، أبو حفص: فقيه فاضل زاهد. من ثقات الشيوخ وعقلائهم في إفريقية. يضرب أهلها المثل به في الفضل والدين. له أخبار وكلمات سائرة. انظر معالم الإيمان: (123/2).

قال الهيثمي: حب الدنيا المذموم: هو ما في قوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ الآية. ويجمع ذلك كل ما لك فيه عاجل حظ، أو شهوة من غير أن يعين على عمل أخروي، ولا يقصد به (بـ) حكم (الطبع) فمن أحبها بحكم الطبع كرهه الحق على قدر محبته لها، كثرة وقلة، احترازا من حبها للعون على الطاعة، أو لنفع المسلمين أو للاستغناء عن الناس ليسلموا من لسانه ويده وإذايته، وليسلم له دينه - كما يأتي إن شاء الله - فإن ذلك خير وأجر<sup>(1)</sup>. (وَمِنْهُ يَتَفَرَّغُ كُلُّ شَرٍّ) ومنه يتفرع كل قبيح كعيوب النفس كلها الآتية وذلك لأن المال والجاه من الدنيا، وهما كما قال الفخر الرازي: يحملان الإنسان على المبالغة في حفظهما، وذلك الحفظ لا يتم إلا بجميع الأخلاق الذميمة كالغدر، والمكر، والكذب، والغيبة، والنميمة، والأيمان الكاذبة، ولو لم يكن للمال والجاه سوى أن الله تعالى حكم بأنه إنما وصف بهذه الأوصاف الذميمة من كان له مال وجاه لكفى ذلك دليلا على تحاسنهما. انتهى<sup>(2)</sup>.

قال الثعالبي: وما ذكره الفخر في المال والجاه هو الأغلب.

وعن علي عليه السلام أنه قال: إذا كان يوم القيامة أتت الدنيا بأحسن زينتها ثم قالت يا رب هبني لبعض أوليائك، فيقول الله تعالى: اذهبي يا لا شيء فلأنت أهون من أن أهبك لبعض أوليائي فتطوى كما يطوى الثوب الخلق فتلقى في النار.

وفي الحديث: «حب الدنيا رأس كل خطيئة<sup>(3)</sup>».

وفيه: «أكبر الكبائر حب الدنيا<sup>(4)</sup>».

(1) كلام الهيثمي لم أجد لفظه وكأنه نقله بمعناه من شرح حديث: «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس» انظر

كلام الهيثمي في شرح الأربعين: (231-232).

(2) انظر التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: (143/13).

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن الحسن مرسلاً.

(4) أخرجه الديلمي (364/1)، رقم (1468).

ومن كلامهم: لا يترقى مريد قط إلا إن صحت له محبة الله تعالى ولا يحبه الحق تعالى حتى يبغض الدنيا وأهلها. ومتى تلقى على شيخ وهو يميل إلى الدنيا، فلا بد أن يرجع من حيث جاء وترفضه الطريق.

وقال الشاذلي<sup>(1)</sup>: العبادة مع محبة الدنيا شغل وتعب جوارح، فهي - وإن كثرت - قليلة. وإنما هي صورة بلا روح ولهذا ترى كثيرا من أرباب الدنيا يصلون كثيرا ويصومون كثيرا، وليس لهم نور الزهادة ولا حلاوة العبادة.

وقال سيدي إبراهيم المبتولي: من لم ينظف قلبه من محبة الدنيا لم يجر في قلبه ماء الإيمان. وفي الحديث: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها الكافر شربة ماء»<sup>(2)</sup>.

وفيه: «عش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزي به، وأحب ما شئت فإنك مفارقه»<sup>(3)</sup>.

وفيه: «إذا رأيت أنك كلما طلبت شيئا من أمر الآخرة وابتغيته يسر لك، وإذا أردت شيئا من أمر الدنيا وابتغيته عسر عليك فأنت على حسنة. وإذا رأيت كلما طلبت شيئا من أمر الآخرة وابتغيته عسر عليك، وإذا أردت شيئا من أمر الدنيا وابتغيته يسر لك؛ فأنت على حالة قبيحة»<sup>(4)</sup>. وفيه دليل على أن تيسر أسباب الدنيا مع الإعراض عن الآخرة ليس من علامات الفرج.

وفيه: أنه ﷺ رأى شاة ميتة فقال: «والذي نفسي بيده للدنيا أهون عند الله من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها الكافر شربة ماء». وفيه: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما ولاه، وعالم ومتعلم»<sup>(5)</sup>. والمراد

(1) تقدمت ترجمته.

(2) أخرجه ابن ماجه (1376/2 ، رقم 4110) ، والطبراني (157/6 ، رقم 5840) ، والحاكم (341/4 ، رقم 7847).

(3) أخرجه الحاكم (360/4 ، رقم 7921) ، وقال : صحيح الإسناد ، والبيهقي في شعب الإيمان (349/7 ، رقم 10541).

(4) أخرجه ابن المبارك في الزهد (29/1 ، رقم 88) عن أبي سعيد.

(5) أخرجه الترمذي (561/4 ، رقم 2322) وقال : حسن غريب . وأخرجه أيضا : ابن ماجه (1377/2 ، رقم 4112).

بهذا المستثنى ما كان من الدنيا يقرب من الله ويعين على عبادته.

وفيه: «إن العبد لئن نشر له من الثناء ما بين المشرق والمغرب ولا يزن عند الله جناح بعوضة<sup>(1)</sup>».

وفيه: «ليأتي الرجل السمين العظيم يوم القيامة ولا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾» معنى الآية والحديث: أنه لا ثواب لهم وأعمالهم مقابلة بالعذاب فلا حسنة لهم توزن في موازين القيامة ومن لا حسنة له فهو في النار .  
وقال أبو سعيد الخدري: يوتى بأعمال مثل جبال ثمامة؛ فلا تزن عند الله شيئا. وقيل: المراد المجاز والاستعارة؛ وكأنه قال: لا قدر لهم عندنا يوم القيامة وفي هذا الحديث من الفقه: ذم السمن لمن تكلفه من تكليف المطاعم الزائدة على قدر الكفاية.  
وفي الحديث: «إن أبغض الرجال إلى الله الخبر السمين<sup>(2)</sup>».

وفيه: «ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تسلط عليكم الدنيا كما سلطت على من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم<sup>(3)</sup>».  
وفيه: «اللهم من آمن بي وصدقني، وعلم أن ما جئت به هو الحق من عندك فأقل ماله وولده، وحبب إليه لقاءك وعجل له القضاء، ومن لم يؤمن بي ولم يصدقني ولم يعلم أن ما جئت به هو الحق من عندك فأكثر ماله وولده وأطال عمره<sup>(4)</sup>».  
وفيه: إن أبا ذر أتى النبي ﷺ فقال: إني أحبكم آل البيت فقال له النبي ﷺ: «يا الله قال: يا الله. قال: فأعد للفقر تحففا، فإن الفقر أسرع إلى من يجبن من السيل من أعلى الأكمة إلى أسفلها<sup>(5)</sup>».

(1) ذكره الغزالي في الإحياء واستنكره العراقي: (2/1).

(2) أخرجه في كثر العمال 4171.

(3) أخرجه في فتح الباري لابن حجر - (ج 9 / ص 426)

(4) أخرجه ابن ماجه (2/ 1385 ، رقم 4133)

(5) أخرجه الحاكم (4/ 367 ، رقم 7944) وقال : صحيح على شرط الشيخين



وروي في الخبر: «ما أعطى أحد من الدنيا شيئا إلا نقص من درجته وإن كان عند الله كريما».

وفي شرح الحكم العطائية للمناوي: قال الجيلاني<sup>(1)</sup>: لا يدخل أحد من عتبة الولاية حتى يسمع النداء من قلبه: ألا من أراد دخول حضرة الحق، فليترك الحظوظ كلها ويخلع نعليه وهما دنياه ويتجرد من جميع الأكوان ويتعدى عن سائر الأماني ثم يدخل فمن لم يتجرد كما ذكر لا يمكنه أن يطا بساط الحضرة أبدا.

وقال: قال بعضهم: مثل الحريص على الدنيا: مثل رجل يصلي خلف الإمام وهو مستعجل لحاجته فهو يسبق الإمام بالركوع والسجود استعجالا للفراغ فلا ينفعه ذلك ولا يخرج من الصلاة إلا إذا سلم الإمام.

وروي ابن أبي الدنيا عن ابن عباس قال: يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء بارزة أنيابها، مشوهة خلقتها، فتشرف على الخلائق فيقال: هل تعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه، فيقال: هذه الدنيا التي تناجزتم عليها، وبها تقاطعتم، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم، ثم تقذف في جهنم فتنادي: أي رب أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول الله تعالى: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها<sup>(2)</sup>.

وفي الخبر: «إن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: إذا رأيت الفقر مقبلا إليك فقل: مرحبا بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلا إليك فقل: ذنب عُجِّلَتْ عقوبته<sup>(3)</sup>».

وقال في سراج الملوك: اعلم أن الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له، وعليها يعادى من لا علم له، وعليها يَحْسُدُ من لا فقه له، من صح فيها سقم، ومن سلم فيها برم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها فتن، ومن طلبها فاتته،

(1) تقدمت ترجمته.

(2) أخرجه أبو سعيد بن الأعرابي في الزهد (46/1 ، رقم 70) ، والبيهقي في شعب الإيمان (383/7 ، رقم 10671)

(3) أخرجه الديلمي (175/3 ، رقم 4469)

ومن قعد عنها أته، لا خيرها يدوم، ولا شرها ييقى، ولا فيها لمخلوق بقاء<sup>(1)</sup>.

ولما بلغ الأمير "مزدك" من الدنيا أفضل ما سمت إليه نفسه، ورقت إليه همته، رفضها ونبذها وقال: هذا سرور لولا أنه غرور ونعيم لولا أنه عديم، وملك لولا أنه هُلك، وغناء لولا أنه عناء، وجسيم لولا أنه دميم، ومحمود لولا أنه مفقود، وغنى لولا أنه منى، وارتفاع لولا أنه اتضاع، وعلاء لولا أنه بلاء، وحسن لولا أنه حزن. ولا تكن يا أخي كالمنخل، يرسل أطيب ما فيه ويمسك الخثالة.

وقال عبد الواحد بن زيد<sup>(2)</sup>: قالت لي مجنونة تنطق بالحكمة: يا عبد الواحد: فعجبت من معرفتها بي ولم ترني قبل ذلك: اعلم أن العبد إذا كان في كفاية من الله ثم مال إلى الدنيا سلبه الله حلاوة الزهد، فيظل حيران والها، فإن كان له عند الله نصيب عاتبه الله تعالى وحيا في سره فقال: عبدي؛ أردت أن أرفع قدرك عند ملائكتي وحملة عرشي، وأجعلك دليلا لأوليائي وأهل طاعتي في أرضي، فملت إلى عرض من أعراض الدنيا وتركتني فورثك بذلك الوحشة بعد الأنس، والذل بعد العز، والفقر بعد الغنى... عبدي؛ أرجع إلى ما كنت عليه أرجع إلى ما كنت تعرفه من نفسك.

وفي الحديث: «وهل يتوقع أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغيا، أو فقرا منسيا، أو مرضا مفسدا، أو هرما مفندا، أو الدجال فالدجال شر غائب ينتظر، أو الساعة؛ والساعة أدهى وأمر»<sup>(3)</sup>.

وفي بعض الأحاديث: «يا دنيا: مُرِّي على أوليائي ولا تحلولي لهم فتفتنهم»<sup>(4)</sup>.

(1) انظر سراج الملوك للطرطوشي: (82/1).

(2) هو عبد الواحد بن زيد البصري الزاهد الذي قيل إنه صلى الغداة بوضوء العشاء أربعين سنة ومن مواعظه قوله ألا تستحيون من طول مالا تستحيون روى عن الحسن وجماعة وهو متروك الحديث وفيها شريك بن عبد الله النخعي الكوفي القاضي أبو عبد الله أحد الأعلام عن نيف وثمانين سنة روى عن سلمة بن كهيل والكبار سمع منه إسحاق الأزرق تسعة آلاف حديث قال ابن المبارك هو أعلم بحديث بلده من سفيان الثوري. انظر الغر في خير من غر: (270/1).

(3) أخرجه ابن المبارك في الزهد (3/1 ، رقم 7) ، والترمذي (552/4 ، رقم 2306) ، والحاكم (356/4 ، رقم 7906) وقال : صحيح على شرط الشيخين.

(4) أخرجه في الزهد لابن حنبل: (98/1).

وهذا الحرف يروى بكسر الميم من المראה وبضمها من المرور. ومثل من يستعجل زهرة الدنيا ويعرض عن الدار الآخرة؛ مثال رجلين لقطا من الأرض حَبَّتِي عِنَبٍ فَمَصَ أَحَدُهُمَا حَبَّتَهُ التَّذَاذَا بَهَا ثُمَّ بَلَعَهَا، وَزَرَعَ الْآخَرُ حَبَّتَهُ فَالْتَقِيَا بَعْدَ زَمَانٍ، فَإِذَا الَّذِي زَرَعَ الْحَبَّةَ قَدْ صَارَتْ لَهُ كَرْمًا وَكَثُرَتْ ثَمَرَتُهُ، وَفَكَرَ الْآخَرُ فِي صِنْعِهِ فِي الْحَبَّةِ فَوَجَدَهَا قَدْ صَارَتْ عَذْرَةً، وَلَيْسَ عِنْدَهُ مِنْهَا إِلَّا الْحَسْرَةُ عَلَى تَفْرِيطِهِ وَالْغَبْطَةُ لِمَالِكِهِ. انتهى بخ. ولبعضهم:

إِذَا مَا شِئْتَ أَنْ تُدْعَى حَكِيمًا      وَتُلْحَقَ بِالرُّجَالِ ذَوِي الْكَمَالِ  
فَلَا تَغْبِطُ بَنِي الدُّنْيَا بِشَيْءٍ      وَلَا تَخْطُرَ لَكَ الدُّنْيَا بِيَالِ  
ولبعضهم:

إِذَا مَا شِئْتَ أَنْ تُحْيَا حَيَاةَ حُلُوءَةِ الْمَحْيَا  
فَلَا تَغْضَبْ وَلَا تَحْسَدْ وَلَا تَأْسَفْ عَلَى الدُّنْيَا

وفي الترمذي عن ابن مسعود قال: نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر في جنبه قلنا يا رسول الله؛ لو اتخذنا لك؟ فقال: «مالي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل في ظل تحت شجرة ثم راح وتركها»<sup>(1)</sup>.

وفي الخبر: «إن موسى عليه السلام مر برجل وهو يكي فقال: يا رب عبدك يكي من مخافتك. فأوحى الله إليه يا ابن عمران؛ لو نزل دماغه مع دموع عينيه ورفع يديه حتى تسقطان لم أغفر له وهو يحب الدنيا».

وقال الحسن: والله ما أحد من الناس بسط الله له في الدنيا فلم يخف أن يكون قد مكر به فيها إلا كان قد نقص عمله، وعجز رأيه وأمن مكر الله، وما أمسكها الله عن عبد فلم يظن أنه خير له فيها إلا قد كان نقص عمله وعجز رأيه.

وقال الشعراي في كتاب تنبيه المغترين: قال مسلم بن النحات: لما ضرب الدينار والدرهم جعلهما إبليس على جبهته، وقال: من أحبكما فهو عبدي حقا حقا. قلت: لا

(1) أخرجه الترمذي (588/4، رقم 2377) وقال: حسن صحيح.

يؤمن استثناء من أحبهما للإنفاق من هذا الإطلاق، والله تعالى أعلم لأنه إطلاق في محل التفصيل<sup>(1)</sup>.

وكان الثوري يتمثل بهذين البيتين:

إِنِّي وَجَدْتُ فَلَا تَظُنُّوا غَيْرَهُ أَنَّ التَّوَرُّعَ عِنْدَ هَذَا الدَّرْهَمِ  
فَإِذَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ ثُمَّ تَرَكْتَهُ فَاعْلَمْ بِأَنَّ تُقَاكَ تَقْوَى الْمُسْلِمِ  
ومن أخلاق السلف: تقدم أعمال الآخرة دائما على أعمال الدنيا فيقدم ورده بعد  
الصباح على سائر مهامه، كما يقدم التهجد في الليلة الباردة على نومه تحت اللحاف.  
وقال مالك بن دينار<sup>(2)</sup>: من خطب الدنيا طلبت منه دينه كله في صداقها، لا يرضيها  
منه إلا ذلك.

وقال الشاذلي: الدنيا بنت إبليس فمن خطبها كثر ترداد أبيها إليه فإن دخل بها أقام  
عنده بالكلية. قلت: المراد بخطبة الدنيا تمنيتها، وبالدخول بها إمساك الفاضل عن حاجته  
لغير غرض شرعي، فاعلم أن من أراد أن إبليس لا يسكن عنده مع تزوج ابنته الدنيا فقد  
رام المحال ولذلك كان يتوسوس في نية الصلاة، وفي الطهارة كثير من الناس الذين يحبون  
الدنيا بقلوبهم.

وقال حفص بن حميد<sup>(3)</sup>: أجمع العلماء والفقهاء والحكماء والشعراء على أن كمال  
النعيم في الآخرة لا يدرك إلا بنقص النعيم في الدنيا.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من حبس الله عنه الدنيا ثلاثة أيام وهو عنه راض  
وجبت له الجنة.

وقال سيدي علي الخواص<sup>(1)</sup>: إذا ترقى العبد في مقامات العرفان صارت الدنيا تزدد  
منه نفرة ولو أنه طلبها لما أجابته لعدم رؤيتها محلا في قلبه تمكث محبتها فيه. انتهى<sup>(2)</sup>.

<sup>(1)</sup> انظر تنبيه المفترين للشعراني: (103).

<sup>(2)</sup> تقدمت ترجمته.

<sup>(3)</sup> وأبو عبيد حفص بن حميد القمي. من الاتباع، من أهل قم. يروي عن عكرمة، وشمس بن عطية. وقرأ القرآن على أبي حميد عبد  
الرحمن السلمي. روى عنه يعقوب القمي. انظر الانساب للسمعاني: (544/4).

فَعَلِمَ أَنَّ مِنْ عِلَامَةِ الْفَقِيرِ الْكَاذِبِ أَنَّ يَزْدَادَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَمْتَعَتْهَا كُلَّمَا طَعَنَ فِي السَّنِ .  
وَقَالَ عِيسَى <sup>(عليه السلام)</sup> : الْجَنَّةُ بِجَمَلَتِهَا تَرْجِعُ إِلَى شَيْعَيْنِ : الرِّحَاتِ وَالشَّهَوَاتِ ، وَلَا يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ إِلَّا بِتَرْكِ الرِّاحَاتِ وَالشَّهَوَاتِ فِي الدُّنْيَا . قُلْتُ : مَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَنْ فَضُولِ الدُّنْيَا مِنْ طَعَامٍ وَمَنَامٍ وَكَلَامٍ وَجَمَاعٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، لَا تَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ بَلْ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي هَمٍّ وَغَمٍّ وَعَدَمِ أَمْنٍ ، بِخِلَافِ مَنْ سَلِمَتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ فَإِنَّهُ بِأَمْنٍ وَيَزُولُ عَنْهُ الْهَمُّ وَالْغَمُّ وَيَصِيرُ فِي سُرُورٍ .

وَمِنْ أَخْلَاقِ السَّلَفِ : تَقَدُّمُ السَّلَامَةِ عَلَى الْغَنِيمَةِ مِنْ حَيْثُ رَفَضَ الدُّنْيَا وَفَرَّغَ أَيْدِيَهُمْ مِنْهَا فَكَانُوا يَقْدُمُونَ فَرَاغَ أَيْدِيهِمْ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى جَمْعِهَا وَإِنْفَاقِهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَمْنَعُوا مِنْهَا حَقَّهَا حَتَّى كَانَ أَحَدُهُمْ يَقُولُ : يَا طَالِبَ الدُّنْيَا لَتَبِرْ بِهَا غَيْرَكَ تَرَكَّ لَهَا أَبْرَ وَأَبْرَ .

وَقَالَ الْجَنِيْدُ : تَجْرِيدُ الْقَلْبِ مِنَ الدُّنْيَا أَفْضَلُ مِنْ أَخْذِهَا وَإِنْفَاقِهَا .

وَقَالَ الْحَسَنُ : مَنْ تَفَرَّغَ لِعِبَادَةِ رَبِّهِ فَهُوَ أَفْضَلُ مِمَّنْ تَرَكَهَا وَسَعَى عَلَى عِيَالِهِ .

قُلْتُ : وَمِنْ أَدَلَّةِ الْقَوْمِ عَلَى أَنْ تَرَكَ الدُّنْيَا مُقَدِّمٌ عَلَى جَمْعِهَا وَإِنْفَاقِهَا : مَا وَرَدَ أَنَّهُ <sup>(عليه السلام)</sup> خَرَجَ يَوْمًا عَلَى أَهْلِ الصَّفَةِ فَقَالَ : «أَيْكُمْ يَحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلُّ يَوْمٍ إِلَى بَطْحَاءٍ فَيَأْتِي بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ؟» قَالُوا : كُلُّنَا يَحِبُّ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ . فَقَالَ : «لَأَنْ يَتَرَكَ أَحَدُكُمْ ذَلِكَ ثُمَّ يَذْهَبَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَتَعَلَّمَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ اثْنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ <sup>(3)</sup>» .

وَالْحَاصِلُ : أَنَّ مَنْ كَانَ مَوْقِفًا بِحَيْثُ لَمْ تَوْسُوسْ لَهُ نَفْسُهُ إِنْ تَرَكَهَا ، وَلَمْ تَتَعَلَّقْ بِهِ نَفْسُهُ وَاجِبَةٌ وَجِبَ إِرْشَادُهُ لِرَفْضِ الدُّنْيَا لِيَصِيرَ الْفَقْرُ لَهُ زِينَةً وَالْقَنَاعَةُ لَهُ ذَخِيرَةً فَإِنْ نَزَلَ الْعَبْدُ عَنْ هَذِهِ الرِّتْبَةِ وَجِبَ إِرْشَادُهُ لَجَمْعِ الْحَلَالِ ، لِيَدْخُرَ مِنْهُ مَا تَسْكُنُ بِهِ نَفْسُهُ وَيَنْقَطِعَ عَنْهَا الْوَسْوَاسُ ، مِنْ أَجْلِهِ ، وَيَجْعَلَ الْفَضْلَةَ ذَخِيرَةً لِمِيعَادِهِ ، فَإِنْ نَزَلَ الْعَبْدُ عَنْ هَذِهِ الرِّتْبَةِ أَيْضًا

(<sup>1</sup>) تَقَدَّمَتْ تَرْجُمَتُهُ .

(<sup>2</sup>) انْظُرْ تَنْبِيْهَ الْمُفْتَرَيْنِ : (106) .

(<sup>3</sup>) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (71/2 ، رَقْمَ 1456) ، وَالتَّيْرَانِيُّ (290/17 ، رَقْمَ 799) ، وَابْنُ حِبَّانَ (321/1 ، رَقْمَ 115) .

وغلب عليه شحه وجب إرشاده لجمع ما تسكن إليه نفسه من الحلال ويدخره ولا يرشد للأحوال الزهدية والمقامات العلية، فإن نفسه لا تسكن إلى القسمة السابقة لكنها بما تدخر واثقة وليس أسفل من هذه الرتبة إلا رتبة من نبذ ورعه ولم يبال من حيث جلب رزقه.

وقال أبو حازم<sup>(1)</sup>: يوقف من يعظم الدنيا بين يدي الله فيقال: هذا الذي عظم ما حقر الله فيسقط لحم وجهه من الخجل. فعليك بالقناعة في الدنيا. فمن حرم القناعة لم يرض إلا الكثير، وليس دون الجنة كثرة، ومن أجل ذلك لا يشبع قلب محب الدنيا، فالدنيا قليلة، ومن أجل قلتها وقع عليها الازدحام والرغبة فإنها لا تسد للقلوب جوعة فما كان وصفه القلة والزوال فطالبه لا يشبع وهو متعب لا راحة له. انتهى من الشعراني باختصار وتلفيق<sup>(2)</sup>.

وفي المناوي: قال الشهاب الرفاعي<sup>(3)</sup>: القلب إذا تخلص من حب الدنيا وشهواتها صار كالبللور وأخبر صاحبه بالماضي والآتي من أحوال الخلق.

وقال بعضهم: القلب إذا تخلص صار كالمرآت الكرة المعلقة بين السماء والأرض فيرتسم فيها جميع العلويات والسفليات وامتنحن ذلك بوضع مرآت صغيرة فوق منارة عليّة. فإنك إذا قابلتها بمدينة كاملة تجدها كلها مرتسمة فيها. فاعمل على جلاء قلبك تطرق الأقاليم كلها في ساعة. انتهى.

وقال الثوري: ما بسطت الدنيا على أحد إلا اغترارا ولا زويت عن أحد إلا اختيارا. وفي الحديث: «آخر الأنبياء دخولا الجنة: سليمان بن داود عليه السلام لمكان ملكه. وآخر أصحابي عبد الرحمن بن عوف».

(1) هو أبو حازم رضي الله عنه، كان يقول: كل مودة يزيد بها اللقاء لمدخولة. ومن كلامه: إذا كنت في زمان يرضى فيه القول دون العمل فأنت في شر ناس وشر زمان. ومن كلامه: أدركت الأمراء والسلاطين يأتون العلماء ويقفون على أبوابهم كالعبيد، واليوم انعكس الأمر. ولمزيد من أخباره انظر طبقات الشعراني: (36/1).

(2) لم أجده في الطبقات ولا في عمله من تنبيه المغترين ولعله في بعض كتيبه الكثيرة.

(3) تقدمت ترجمته.

وفيه: «إنك يا ابن عوف لن تدخل الجنة إلا زحفاً<sup>(1)</sup>»، وفي رواية: «حبوا فأقرض الله عز وجل بقرض يطلق قديمك»، فاهتم عبد الرحمن بن عوف بصدقة ماله كله، فقال جبريل للنبي ﷺ: مر ابن عوف فليضف الضيف، وليطعم المسكين، وليعط السائل، فإذا فعل ذلك كان كفارة لما هو فيه.

وفي الحديث: «اطلعت على النار فوجدت أكثر سكانها الأغنياء، واطلعت على الجنة فوجدت أكثر سكانها الفقراء<sup>(2)</sup>».

وقال الثعالبي: اعلم أن أصل الوهن والضعف عن الجهاد ومكافحة العدو هو حب الدنيا، وكرهية بذل النفوس لله وبذل مهجها للقتل في سبيل الله. ألا ترى حال الصحابة رضي الله عنهم وقتالهم في صدر الإسلام وكيف فتح الله بهم البلاد ودان لدينهم العباد لما بذلوا لله أنفسهم في الجهاد، وحالنا اليوم كما ترى؛ عدد أهل الإسلام كثير، ونكايتهم في الكفار نزر يسير<sup>(3)</sup>.

ومن خسة الدنيا: أن المشغوف بحب المال والولد لا يزال في تعب فيحتاج في اكتساب الأموال وتحصيلها إلى تعب شديد ومشقة عظيمة. ثم عند حصولها يحتاج إلى مصاعب أشد وأصعب في حفظها وصونها؛ لأن حفظ الأموال بعد حصولها أصعب من اكتسابها، ثم إنه لا ينتفع إلا بالقليل من تلك الأموال فالتعب كثير والنفع قليل.

وقال الفخر: إن الدنيا حلوة خضرة، والحواس الخمس مائلة إليها فإذا كثرت وتوالى استقرت فيها وانصرف الإنسان بكليته إليها فيصير ذلك سبباً لحرمانه من ذكر الله تعالى، ثم إنه يحصل في قلبه نوع قسوة وقوة وقهر، وكلما كان المال والجاه أكثر كانت القسوة أقوى. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ فظهر أن كثرة المال سبب قوي في زوال حب الله وحب الآخرة من القلب وفي حصول حب الدنيا وشهواتها في القلب.

(1) أخرجه ابن سعد (131/3)، وابن عدى (12/3)، ترجمة 577 خالد بن يزيد بن عبد الرحمن، والحاكم (352/3)، رقم 5358.

(2) أخرجه في الأمالي الشجرية: (418/1) عن ابن عباس.

(3) انظر الجواهر الحسان للثعالبي: (119/2).

فعند الموت كان الإنسان ينتقل من البستان إلى السجن، ومن مجالسة الأقرباء والأحبة إلى موضع الغربة والكربة فيعظم تألمه ويقوى حزنه<sup>(1)</sup>.

وقال: اعلم أن أعقل العقلاء مؤمن مقبل على آخرته، فقد جعل الموت نصب عينيه ولم يغتر بزخارف الدنيا كما اغتر به الحقماء، ومن جعل همه هما واحدا -هم الميعاد- كفاه الله هم الدنيا. ومن تشعبت به هموم الدنيا لم يبال الله تعالى في أي أوديتها هلك.

وقال الغزالي: ما خلقت<sup>(2)</sup> لذات الدنيا إلا لتجلب بها العقول الناقصة وتخضع حتى إذا انخدعت وتقيدت بها. أبت كالمرأة الجميل ظاهرها تتزين للشباب الشبق الغبي حتى إذا تقيد بها قلبه استصعبت واحتجبت عنه فلا يزال معها في عناء دائم وتعب وكل ذلك لاغتراره بلذة النظر إليها في لحظة، ولو غفل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره. هكذا وقعت أرباب الدنيا في شباك الدنيا وحبائلها<sup>(2)</sup>.

ومثال المغموم بدنياء والغافل عن التزود لأخراه؛ كمثال إنسان جاءه سبع وهو يريد أن يفترسه ووقع عليه ذباب فاشتغل بذب الذباب ودفعه عن التحرز عن السبع، فهذا أحمق ولو كان عاقلا لشغله أمر الأسد وصولته وهجومه عليه عن الفكرة في الذباب. كذلك المتهمم بأمر دنياء عن التزود للآخرة. إذ لو كان عاقلا لشغله التأهب للآخرة التي هو مسئول عنها ولا يشتغل بأمر الرزق فإن الاهتمام به بالنسبة إلى الآخرة نسبة الذباب إلى مفاجأة الأسد وهجومه.

وفي الحديث: «من أشرب قلبه حب الدنيا وركن إليها التاط منها بشغل لا يبلغ غناه، وأمل لا يبلغ منتهاه، وحرص لا يدرك مداه<sup>(3)</sup>».

وقال عيسى عليه السلام: الدنيا مزرعة لإبليس وأهلها حرث له. وقال: الدنيا قنطرة تعبر ولا تعمّر.

(1) انظر التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: (75/16).

(2) انظر إحياء علوم الدين: (126/4).

(3) أخرجه الطبراني (162/10 رقم 10328).



وقال علي عليه السلام: الدنيا كالحية لين مسها قاتل سمها فكن أحذر ما تكون لها، أسر ما تكون بها، فإن من سكن منها إلى إيناس أزاله عنها إيجاش.

وفي الحديث: «من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى الله إلا فيها ولا ينال ما عنده إلا بتركها». وقيل: الدنيا تقبل إقبال الطالب، وتدبر إدبار الهارب، وتصل وصال الملول، وتفارق فراق الواله التي فقدت ولدها.

وقال عيسى عليه السلام: الدنيا يومان؛ يوم فرح ويوم هم، وكلاهما زائل فدعوا ما يزول وأتعبوا أنفسكم في العمل فيما لا يزول.

وقال عيسى عليه السلام: تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل.

وقيل: أوحى الله إلى الدنيا: من خدمني فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه.

وقال صاحب كلیلة ودمنة: طالب الدنيا كشارب ماء البحر؛ كلما ازداد شربا ازداد عطشا.

وسمع حكيم رجلا يقول لصاحبه: لا أراك الله مكروها فقال: إنك دعوت عليه بالموت فإن صاحب الدنيا لا بد أن يرى مكروها.

وقيل لعيسى عليه السلام: ألا تتزوج؟ فقال: إنما التكاثر في دار البقاء. وقيل له: لو اتخذت حمرا؟ فقال: أنا أكرم على الله من أن يجعلني خادما حمرا.

وقيل لأبي حازم<sup>(1)</sup>: ما مأك؟ قال: الرضى عن الله والغنى عن الناس. وقيل له: إنك لمسكين قال: كيف أكون مسكينا ومولاي له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى؟ وقيل: رب مغبوط بمسرة هي داؤه، ومحروم من سقم هو شفاؤه.

وقال رجل يا رسول الله: أنا أكره الموت، قال: «ألك مال؟» قال نعم قال «قدم مالك فإن قلب المرء عند ماله».

(1) تقدمت ترجمته.

وقال أبو القاسم اللجائي<sup>(1)</sup>: ليس غسق الليل على بصر الوجه بأشد سوادا أو ظلمة من سواد حب الدنيا وظلمتها على بصيرة القلب.

وباع عبيد الله<sup>(2)</sup> بن عبد الله بن عتبة بن مسعود دارا بثمانين ألف درهم فقيل له: لو اتخذت لولدك ذخرا من هذا المال؟ فقال: اجعله ذخرا عند الله وأجعل الله ذخرا لولدي وتصدق بها.

وعوتب سهل بن عبد الله المروزي في كثرة الصدقة فقال: من أراد الانتقال من دار إلى دار هل يبقى في الأولى شيئا.

قالت عائشة رضي الله عنها: ذبحنا شاة فتصدقنا بها فقلت يا رسول الله، ما بقي منها إلا كتف، فقال رسول الله ﷺ: «كلها بقيت إلا كتفها» واعلم أن الله تعالى أخرج خلقه من الأرحام إلى الدنيا ثم أعطاهم العقول ودعاهم إليه فشغلتهم الدنيا ولم يسمعوا ذلك سماع حقيقة بل صار سماع قلوبهم لدعوته تعالى شبه سماع النداء وهو تحت ثقل النوم، فلا يتهيأ لإجابة النداء حتى يفوته الوقت الذي يصلح فيه امتثال أمر المنادي ولذلك قيل: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

وقال الثعالبي: اعلم أن المال الزائد على قدر الحاجة قل أن يسلم صاحبه من الآفات إلا من عصمه الله. قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية.

وفي الخبر: «الأكثر من مالا المقلون يوم القيامة إلا من قال بالمال هكذا وهكذا<sup>(3)</sup>». وأشار ابن شهاب بين يديه وعن يمينه، وعن شماله، وقليل ما هم.

وفيه: «إن الشيطان قال: لا يخلوا الغني من إحدى ثلاث: إما أن أزين ماله في عينه فيمنعه من حقه. وإما أن أسهل له سبيله فينفقه في غير حقه. وإما أن أحبه إليه فيأخذه بغير حقه»<sup>(4)</sup>.

(1) لم أعر عليه رقم كثرة هذا اللقب.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) أخرجه البغوي: (249/3).

(4) أخرجه أحمد (230/4 ، رقم 18053) ، وهناد (323/1 ، رقم 586) ، وابن ماجه (1413/2 ، رقم 4228).

وقال عيسى عليه السلام: في المال ثلاث خصال: يكسبه الإنسان من غير حله وإن كسبه من حله؛ يضعه في غير حقه، وإن وضعه في حقه يشغله عن عبادة ربه <sup>(1)</sup>.

وقال بشر بن مروان <sup>(2)</sup>: يا أبا حازم ما المخرج مما نحن فيه؟ قال: تنظر فيما عندك فلا تضعه إلا في حقه، وما ليس عندك فلا تأخذه إلا بحقه، قال: ومن يطيق هذا؟ قال: فمن أجل ذلك ملئت جهنم من الجنة والناس أجمعين.

ولما ثقل عبد الملك بن مروان رأى غسالا يلوي ثوبا بيديه فقال: وددت أني كنت غسالا لا أعيش إلا بما أكسبه يوما فيوما؛ فبلغ ذلك أبا حازم فقال: الحمد لله الذي جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه ولا نتمنى عند الموت ما هم فيه.

وقال أبو حازم: إنما بيني وبين الملوك يوم واحد؛ أما أمس فلا يجدون لذته، وأنا وهم من غد على وجل وإنما هو اليوم فما عسى أن يكون فيه.

وقال الهيثمي: أكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا، وصرف الخلق عنها، ودعوتهم إلى الآخرة، بل هذا هو المقصود بالذات من سائر الشرائع، كيف وهي عدوة الله تعالى لقطعها الطريق الواصلة إليه، ولذلك لم ينظر إليها منذ خلقها. وعدة لأوليائه لأنها تزيت لهم بزيتها حتى تجرعوا مرارة الصبر على مقاطعتها. وعدوة أيضا لأعدائه لأنها استدرجتهم بمكرها واقتنصتهم بشبكاتها، حتى وثقوا بها فخدلتهم أحوج ما كانوا إليها. وصح أنه عليه السلام دعا لمن آمن به وصدقه بقله المال والولد، هذا مع دعائه عليه السلام لخادمه أنس بكثرة المال والولد.

وقال الشعرائي: كان عامر بن قيس <sup>(1)</sup> إذا تشوش من إنسان ودعا عليه يقول: اللهم كثر ماله وأصح جسمه وأطل عمره. ومن دعاء طاووس: اللهم أحرمني كثرة المال والولد وارزقني الإيمان والعمل.

<sup>(1)</sup> انظر الجواهر الحسان للثعالبي: (249/3).  
<sup>(2)</sup> هو بشر بن مروان بن الحكم بن أبي العاص القرشي الأموي. أمير، كان سمحا جوادا. ولي إمرة العرافين (البصرة والكوفة) لآخيه عبد الملك سنة 74 هـ وهو أول أمير مات بالبصرة. توفي عن نيف وأربعين سنة. انظر خزائن البغداد: (117/4).

قال الهيثمي: ووجه الجمع بينهما: أن المدعو له في الأول من قلة المال والولد المراد منهما: قلة فتنتهما. وفي الثاني من كثرتهم المراد به كثرة فوائدهما، وثمراهما الآخروية. والمال ليس خيرا محضا من كل وجه ولا شرا محضا من كل وجه وإنما هو كالسيف يد القاتل يقتل به معصوما تارة ومهدورا تارة أخرى.. وكحية في يد إنسان، فيعمل سم وترياق لكن سمها أكثر وأغلب وأوهى للنفوس وأذهب. انتهى<sup>(2)</sup>.

قال:

أَرَى طَالِبَ الدُّنْيَا وَإِنْ طَالَ عُمُرُهُ وَتَالَ مِنَ الدُّنْيَا سُرُورًا وَأَنْعَمًا  
كَبَّانٍ بَنَى بُنْيَانَهُ فَأَقَامَهُ فَلَمَّا اسْتَوَى مَا قَدْ بَنَاهُ تَهَدَّمًا  
ولما كان البطن هو أشد الأعضاء إصلاحا على المجتهد، وأكثرها مؤونة وشغلا وأعظمها ضررا؛ لأنه المنبع والمعدن، ومنه تهيج الأمور في الأعضاء بقوة وضعف، وعفة وجماع، وكان يتعين على العبد صيانتها عن الحرام، والشبهة وفضول الحلال، لما فيها من الآفات فبدأ بالحرام لأنه أشد، وفيه ثلاث مهلكات:

أشار إلى المهلكة الأولى بقوله: (وَحَرَامُهَا) وهو عند الشافعي ما منع من تعاطيه دليل. وعند أبي حنيفة ما لم يرد دليل بحله (طرد) لصاحبه عن خدمة الملك الجبار؛ لأن أكله مطرود لا يوفق للعبادة إذ لا يصلح لخدمة الله تعالى على وجهها إلا كل طاهر مطهر. قال الغزالي: وإذا كان الْمُحَدِّثُ يَمْنَعُ مِنْ مَسِّ كِتَابِهِ، وَالْجَنْبُ يَمْنَعُ مِنْهُ وَمِنْ دُخُولِ بَيْتِهِ مَعَ أَهْمَا أَمْرٍ مَبَاحٍ، فَكَيْفَ يَمْنَعُ مَنْ هُوَ مَنْغَمَسٌ فِي قَدْرِ الْحَرَامِ، وَنَجَاسَةِ السَّحْتِ، وَالشَّبَهَةِ فَإِنَّهُ لَا يَدْعَى لخدمته تعالى، وذكره الشريف.

وقال يحيى بن معاذ الرازي<sup>(3)</sup>: الطاعة مخزونة في خزائن الله تعالى. ومفتاحها الدعاء

(1) هو عامر بن قيس بن محمد بن قاسم الشهابي، أمير كانت له ولاية حوران، وفي أيامه استولى أحمد بن طولون على بلاد الشام، وحاول الاستيلاء على حوران فقاتله عامر وظفر عليه وكان شجاعا شاعرا. توفي 280هـ. انظر للزيادة الشرياق (43).

(2) انظر مبحث ذم الدنيا والزهد فيها من شرح الأربعين للهيثمي: (231).

(3) هو يحيى بن معاذ الرازي بن جعفر أبو زكرياء. واعظ زاهد لم يكن له نظير في وقته من أهل الري. توفي 258هـ. للزيادة من ترجمته انظر الصوفية: (107).

وأَسْنَاهَا الْحَلَالُ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْفَتْحِ أَسْنَانٌ فَلَا يَنْفَتَحُ الْبَابُ وَلَا يُوَصَّلُ إِلَى الطَّاعَةِ.  
وَقَالَ غَيْرُ الْغَزَالِيِّ: صَاحِبُ الْحَرَامِ لَا يَفْعَلُ إِلَّا الْحَرَمَاتِ، وَصَاحِبُ الشَّبْهَةِ مَخْلُطٌ  
لِلطَّاعَاتِ بِالشَّبْهَاتِ، وَصَاحِبُ فَضُولِ الْحَلَالِ وَقَعَ فِي الْغَفَلَاتِ وَالْفَتَرَاتِ.  
ثُمَّ أَشَارَ إِلَى الْمَهْلَكَةِ الثَّانِيَةِ بِقَوْلِهِ: (وَجَرْمَانٌ) لِصَاحِبِهِ مِنْ قَبُولِ الطَّاعَةِ إِنْ فَعَلَهَا فَهُوَ  
مَحْرُومٌ وَإِنْ اتَّفَقَ لَهُ فَعَلٌ خَيْرٌ فَهُوَ مُرَدُّودٌ عَلَيْهِ غَيْرٌ مَقْبُولٌ مِنْهُ، فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا الْعَنَاءُ وَالْكَدُّ  
وَشُغْلُ الْوَقْتِ.

فَفِي الْحَدِيثِ: «كَمْ مِنْ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ، وَكَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ  
صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ وَالظَّمَأُ»<sup>(1)</sup>.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَلَاةَ امْرِئٍ فِي جَوْفِهِ حَرَامٌ.  
وَفِي الْحَدِيثِ: «الرَّبَا اثْنَانِ وَسَبْعُونَ أَبَا أَدْنَاهَا أَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِأُمِّهِ أَوْ أُخْتِهِ»<sup>(2)</sup>.  
وَفِيهِ: «لِدَرَاهِمٍ يَصِيْبُهُ الرَّجُلُ مِنَ الرَّبَا أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ سَبْعِينَ زَنِيَةً فِي الْإِسْلَامِ»<sup>(3)</sup>.  
وَفِيهِ: «قَضَاءُ دَرَاهِمٍ أَكَلَهُ الْعَبْدُ مِنَ الرَّبَا خَمْسُونَ صَلَاةً مَقْبُولَةً عِنْدَ اللَّهِ».  
ثُمَّ أَشَارَ إِلَى الْمَهْلَكَةِ الثَّالِثَةِ بِقَوْلِهِ: (وَعَذَابٌ) بِدُخُولِ النَّارِ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَكُونُ  
أَمْوَالُ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.  
تَنْبِيهِ: ذَكَرَ الْغَزَالِيُّ فِي الْمُنْهَاجِ أَنَّ الْحَرَامَ وَالشَّبْهَةَ فِي هَذِهِ الْآفَاتِ سَوَاءٌ. وَمِنْ آفَاتِ  
الْحَرَامِ؛ أَنَّهُ رُبَّمَا يُوْرَثُ الْخْتَمُ بِالسَّوَاءِ.

قَالَ الْعَلْقَمِيُّ: قِيلَ: إِنْ أَكَلَ أَمْوَالُ الْيَتَامَى بِمَجْرِبِ لِسْوَةِ الْخَائِمَةِ أَعَاذَنَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا.

<sup>(1)</sup> أخرجه أحمد (373/2) (8843)

<sup>(2)</sup> أخرجه الطبراني (172/13)، رقم (411).

<sup>(3)</sup> أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد (117/4)

## مبحث الشبهات

ثم أشار إلى آفات الشبهة بقوله: (وَشُبُهَاتِهَا) جمع شبهة، وهي: ما أخذ شبهها من الحلال والحرام. وفي جواز الإقدام عليها قولان: لتوسطها بينهما. فالحلال ما ليس فيه تبعة، والحرام ما فيه تبعة. والشبهة ما في التبعة فيه شك، فقد يكون ذلك من جهة تعلق الطلب به، وقد يكون مما يقع في نفس متناوله من تقدره لحديث: «دع ما يريك إلى ما لا يريك»<sup>(1)</sup> وقيل: الشبهة ما لا يعلم حكمه كثير من الناس لخفائه عليهم ويعلمه العلماء بنص أو قياس أو استصحاب ونحو ذلك واختلف في الشبهة وفي جواز الإقدام عليها قولان: فقيل: إنها الحرام عملاً بقوله تعالى: ﴿أَحِلُّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ وعملاً بحديث: «من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه»<sup>(2)</sup> أي طلب البراءة لدينه من ذم الشرع وصان عرضه من كلام الناس. وقيل: إنها الحلال عملاً بحديث: «كالراتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه»<sup>(3)</sup> وعملاً بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾.

ومعنى قوله في الحديث: «ومن وقع في الشبهة وقع في الحرام» أي أنه بصدد الوقوع في الحرام لأن من أكثر تصافحها ربما صادف الحرام المحض وإن لم يتعمده، (ظُلْمَةٌ) في القلب (وَعِتَابٌ) في الآخرة وتحرك الأعضاء أيضاً للمعاصي كالحرام. وفي الحديث: «دع ما يريك إلى ما يريك»<sup>(4)</sup>.

ولفظ "عتاب" ورد في أثر رواه الزناتي عن علي عليه السلام قال: "حلال الدنيا حساب، وحرامها عذاب وشبهاتها عتاب". ولكن الغزالي ألحق الشبهة بالحرام في جميع آفاته كما مر. والأصل في ترك الشبهات ما أخرجه أهل الصحيحين عن النعمان بن بشير عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال: «الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشتبها لا يعلمها كثير

(1) أخرجه أحمد (153/3)، رقم 12572

(2) البخاري (28/1)، رقم 52، ومسلم (1219/3)، رقم 1599 من حديث: "الحلال بين والحرام بين..." عن النعمان بن بشير.

(3) أخرجه ابن حبان (380/12)، رقم 5569، والطبراني كما في مجمع الزوائد (293/10)

(4) أخرجه أحمد (153/3)، رقم 12572

من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه<sup>(1)</sup>... الحديث.

والشبهة: ما تخيل للناظر أنه حجة وليس كذلك، وكل ما ترتاب فيه فهو شبهة. قاله في شرح شهية السماع<sup>(2)</sup>.

وقال الزناتي<sup>(3)</sup>: الشبهة: ما أخذت شبهها من كل من الحلال والحرام ويعتبر ذلك بالحال وبالمقال، ومثل الحال ما يأخذه من يد صالح حلالي أو من يد طالح حرامي أو من يد متوسط بينهما؛ فالأول: حلال. والثاني: حرام. والثالث: شبهة.

ومثال المقال: بالنظر إلى العالم المحدث، تقوم معه أدلة فيعجز عن ترجيح بعضها فيستخير منها ففتواه بذلك شبهة. ومثاله بالنظر إلى العامي المقلد في مسائل الخلاف: كل مسألة وقع فيها الخلاف بين العلماء المشهورين شبهة. فإن الأقوال إذا تقابلت بالجواز والمنع فالمسألة بالنظر إلى الجواز حلال وبالنظر إلى المنع حرام. ويقع الترجيح بكثرة العدد، أو بالاعلمية فمن الناس من يسكن إلى الأول، ومنهم من يسكن إلى الثاني. فهذا هو الجاري على سنن الأصول.

وأما الاعتماد على إمام واحد مطلقاً في جميع المسائل كما جرت به العادة اليوم في الامتناع عن الخروج عن مذهب مالك عند مقلديه؛ فليس بمخلص للورع، فلا بد من السؤال في كل قضية تعرض - وإن كان في الوقت من هو أهل للسؤال - فإن عدم لرئما يقبل عذره في البقاء على معتقده في مقلده إن شاء الله تعالى. انتهى.

وقال الفضيل بن عياض: إياكم أن تسافروا إلى مكة بشيء من الشبهات فإن رد دانق من شبهة أفضل عند الله من خمسمائة حجة فيها شبهة.

(1) تقدم تحريجه.

(2) انظر شرح شهية السماع: (28) مخطوط بالزاوية.

(3) نقلت ترجمته.

قال الهيثمي: هي كل ما ليس بواضح الحل والحرمه، مما تنازعت الأدلة وتحاذيته المعاني والأسباب. فبعضها يعضده دليل الحلال. وبعضها يعضده دليل الحرام. ومن ثم فسر أحمد وإسحاق وغيرهما الشبهة: بما اختلف فيه، وفسرها أحمد مرة: باختلاط الحلال والحرام<sup>(1)</sup>.

قال ابن حجر العسقلاني: وَحَاصِلُ مَا فَسَّرَ بِهِ الْعُلَمَاءُ الشُّبُهَاتِ أَرْبَعَةٌ أَشْيَاءٌ: أَحَدُهَا: تَعَارُضُ الْأَدِلَّةِ كَمَا تَقَدَّمَ. ثَانِيهَا: اِخْتِلَافُ الْعُلَمَاءِ وَهِيَ مُنْتَزَعَةٌ مِنَ الْأَوَّلَى. ثَالِثُهَا: أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا مُسَمَّى الْمَكْرُوهِ لِأَنَّهُ يَحْتَذِرُهُ جَانِبًا الْفِعْلِ وَالتَّرْكِ. رَابِعُهَا: أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا الْمُبَاحِ ، وَلَا يُمَكِّنُ قَائِلُ هَذَا أَنَّ يَحْمِلُهُ عَلَى مُتَسَاوِيِ الطَّرَفَيْنِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ ، بَلْ يُمَكِّنُ حَمْلَهُ عَلَى مَا يَكُونُ مِنْ قِسْمِ خِلَافِ الْأَوَّلَى ، بِأَن يَكُونَ مُتَسَاوِيِ الطَّرَفَيْنِ بِاعْتِبَارِ ذَاتِهِ ، رَاجِحِ الْفِعْلِ أَوْ التَّرْكِ بِاعْتِبَارِ أَمْرِ خَارِجٍ (2).

ثم أشار إلى المباح. وأحواله في الجملة ثلاثة: أشار لأولها بقوله: (وَأَمْسَاكَ حَلَالِهَا تَفَاخُرًا وَتَكَاثُرًا) حبس و(حِسَابٌ) ولوم وتعير لصاحبه، استوجب ذلك على ظاهر فعله (وَعِقَابٌ) أي عذاب في النار لصاحبه استوجبه على باطن فعله، وهو قصد التكاثر والتفاخر، وذلك القصد معصية وذنب لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاتُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ تَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَنَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وفي الحديث: «من طلب الدنيا حلالا مباحا، مكاثرا مفاخرًا مرائيا لقي الله تعالى وهو عليه غضبان»<sup>(3)</sup> فالوعيد على قصده ذلك بقلبه. ولثانيها بقوله: (و) أخذها واستعمالها (شَهْوَةٌ) وهي انبعاث النفس لطلب الملائم طبعًا. والفرق بينها وبين الهوى: أنه يختص بالإرادات والاعتقادات

(1) انظر شرح ابن حجر الهيثمي على الأربعين النووية: (112).

(2) انظر فتح الباري لابن حجر العسقلاني: (82/1).

(3) أخرجه أبو نعيم في الحلية (110/3). وأخرجه أيضًا: إسحاق بن راهويه (353/1)، رقم (352)



والشهوة تختص بالمحجوبات والمستلذات فهي أحصى والهوى أعم. قاله ابن ليون<sup>(1)</sup>.  
(حُبْسٌ) لصاحبه عن الجنة مدة الحساب عريانا عطشاناً، وذلك في عرصات القيامة، بين  
أموالها ومخاوفها (وَحِسَابٌ) وهو أن يسأل يوم القيامة عن ماذا اكتسبت وفيما أنفقت؟  
وما أردت بذلك. قال تعالى: ﴿لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾.

وفي الحديث: «حلالها حساب<sup>(2)</sup>» وإنما لم يعذب كالأول؛ لأن الأكل بالشهوة ليس  
بمعصية، وإنما عليه الحبس والحساب واللوم والتعير لتركه الأدب كما يأتي.

وقال الغزالي: فضول الحلال آفة العبادة وبلية أهل الاجتهاد، وفيها عشر آفات:  
الأولى: قسوة القلب وذهاب نوره، وانطفاء النور الحاصل من التوحيد. وفي الحديث:  
«لا تميموا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب يموت كالزراع إذا كثرت عليه  
الماء<sup>(3)</sup>».

الثانية: فتنة الأعضاء وانبعاثها للفضول والفساد لأن الرجل إذا شبع بطر واشتهت عينه  
النظر إلى ما لا يعنيه، والأذن الاستماع إليه واللسان للتكلم، والفرج الشهوة وإن جاع  
سكنت الأعضاء ولم تنشط. وقال الأستاذ أبو جعفر<sup>(4)</sup>: البطن عضو إن جاع هو شبع  
سائر الأعضاء وإن شبع جاعت.

الثالثة: قلة الفهم والعلم؛ فإن البطنة تذهب الفطنة.

الرابعة: قلة العبادة لثقل الأعضاء وكثرة النوم، وفي النوم الغفلة وإضاعة مصالح الدارين.  
ولقد قيل: إذا كنت بطيئاً، فقد نفسك زميناً.

(1) هو سعد بن أحمد بن ليون التحيي أبو عثمان من علماء الأندلس وأدبائها المقدمين له أكثر من مائة مصنف منها كتاب كمال  
الحافظ في المواعظ وأنداء الدم في الحكم. توفي 750هـ. انظر للزيادة نفع الطيب: (289/3).

(2) هذا جزء من حديث: "يا ابن آدم ما تصنع بالدنيا حلالها حساب وحرامها عذاب". أخرجه الديلمي (283/5، رقم 8192).

(3) ذكره الغزالي في الإحياء واستكره العراقي: (45/1).

(4) لعله أبو جعفر الكاتب وهو أحمد بن يوسف بن إبراهيم البغدادي، باحث من وجوه الكتاب الفصحاء، كانت له معرفة بالأدب  
والتاريخ والطب والفلك والحساب وله شعر حسن، اشتهر بمصر وولي أعمالاً ديوانية في العهد الطولوني وله مؤلفات عديدة في مختلف  
المواضيع توفي 240هـ انظر معجم الأدباء: (157/2).

الخامسة: فقد حلاوة العبادة. قال أبو بكر رضي الله عنه: ما شبت منذ أسلمت لأجد حلاوة عبادة ربي وما رويت منذ أسلمت اشتياقا إلى لقاء ربي. وقال الدارمي<sup>(1)</sup>: أحلى ما تكون العبادة إذا التصق ظهري ببطني.

السادسة: خطر الوقوع في الحرام والشبهة لأن الحلال قل أن يأتي إلا قوتا. وقال ذو النون: ما شبت قط إلا عصيت أو هممت بالمعصية.

السابعة: كثرة شغل القلب والبدن بتحصيله أولا ثم بتهيئته ثانيا. ثم بأكله ثالثا، ثم بإفراغه وتخليص البطن منه رابعا، ثم بالسلامة من آفاته وعمله الدينية والدنيوية خامسا. وكل واحد من هذه يطلب زمنا طويلا ومعاناة وتعلقا بالدنيا وأهلها وطمعا وهلعا ونحو ذلك من المفاسد، ويفوت بذلك من العبادات وخيرات الآخرة ما لا يمكن أن يعد ويحصى.

الثامنة: شدة سكرات الموت، وروي في الأخبار: أن شدة سكرات الموت على قدر لذات الحياة.

التاسعة: نقصان الثواب فإنه بقدر ما يأخذ من لذات الدنيا ينتقص من ثواب الآخرة. وروي أن عمر رضي الله عنه عطش يوما، فأتاه رجل بماء نبذ فيه ثمرات فلما وجده باردا حلوا أمسك عنه، فقال: أوه. فقال الرجل: والله ما ءالوكه حلاوة يا أمير المؤمنين، فقال عمر: ذلك الذي منعي ويحك لولا الآخرة لشاركناكم عيشتكم.

العاشرة: الحبس وطول المواقف في عظام تلك الأهوال والحساب واللوم والتعير في ترك الأدب في أخذ الفضول وطلب الشهوات فإن الدنيا حلالها حساب، وحرامها عقاب وزينتها إلى تباب. وفي الحديث: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام<sup>(2)</sup>».

(1) تقدمت ترجمته.

(2) أخرجه ابن حجر في فتح الباري: (6468).

تنمة: وإنما استحق اللوم والتعير مع أن الحلال أحله الله لنا؛ لترك الأدب كمن جلس على مائدة الملك فترك الأدب فإنه يعير بذلك ويلام - وإن كان الطعام له مباحا - والأصل في هذا أن الله تعالى خلق العبد لعبادته فحق له أن يجعل أفعاله كلها عبادة ما أمكن فإن لم يفعل وآثر شهوته على عبادته ربه مع تمكنه من ذلك والدار دار خدمة وعبادة لا دار تنعم وشهوة استحق بذلك اللوم والتعير من سيده.

## فائدتان

**الأولى:** ورد: أن فضلة الضيف لا يحاسب عليها. وكان بعض السلف إذا جاءهم ضيف يقدمون له في وقت واحد ما يقوم بنفقته شهرا ونحوه، فيقال له في ذلك، فيقول: قد ورد أن فضلة الضيف لا حساب فيها على المرء، فكان لا يأكل إلا فضلة الضيف لأجل ذلك. وكذا في أوقات التوسعة على العيال كيوم عاشوراء ويوم العيد إن لم يقصد التفاخر والتكاثر. بل تطيب خاطر الضيف والعيال وقضاء وطهرهم مما يشتهونه. وكان عبد الله بن المبارك<sup>(1)</sup> إذا انتهى شيئا لا يأكله إلا مع ضيفه، ويقول بلغنا أن طعام الضيف لا حساب فيه.

وذكر القسطلاني أيضا أنه ورد: أن لا حساب في الفطور والسحور وما أكل مع الإخوان. ونصه في حديث أبي هريرة: «ثلاثة لا يحاسب عليها العبد: أكلة السحور، وما أفطر عليه، وما أكل مع الإخوان<sup>(2)</sup>». ونظمها الأجهوري<sup>(3)</sup> فقال:

قَدْ جَاءَ لَا حِسَابَ فِي أَكْلِ الْفُطُورِ لِصَائِمٍ كَذَاكَ أَكَلَ فِي السُّحُورِ  
أَوْ مَعَ الْإِخْوَانِ وَفَضَلَ الضُّيْفِ قَدْ صَرَّحَ بَغَضُ أَنَّهُ كَذَا وَرَدَ  
وَقَالَ حَسَانُ بْنُ عَطِيَّةَ<sup>(4)</sup>: مَنْ قَالَ عِنْدَ طَعَامِهِ: "اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي رِزْقًا طَيِّبًا لَا تَبَاعَةَ فِيهِ  
وَلَا حِسَابَ" فَقَدْ أَدَّى شُكْرَهُ. قَالَ الثَّعَالِي.

وعن بعض من أتق به عن بعض الفضلاء أن من قال بعد الطعام: "الحمد لله الذي أنعمنا وأروانا وأنعم علينا وأفضل اللهم أرحم أمة محمد، اللهم انصر أمة محمد، اللهم

(1) تقدمت ترجمته.

(2) ذكره الغزالي واستنكره العراقي: (144/1).

(3) هو أبو الإرشاد نور الدين علي بن محمد زين العابدين عبد الرحمن الأجهوري شيخ المالكية في عصره في مصر، أخذ عن أعلام منهم الحنفية والغزالي وأبو النجاة السهري والكرخي، وأخذ عنه جماعة كالشمس الباهلي وعيسى الثعالبي وأبي سالم العياشي والخرشي وزرقاني والشرعيني، من مؤلفاته: شرح لرسالة ابن أبي زيد القيرواني - شرح لألفية العراقي في السيرة - تأليف على مختصر ابن أبي حنيفة - شرح لألفية ابن مالك - ثلاثة شروح لمختصر خليل. توفي سنة: 1066 هـ. (شجرة النور الزكية: 303، كفاية المحتاج ج 1 ص: 282).

(4) هو حسان بن عطية الحاربي مولاهم أبو بكر الدمشقي، ثقة فقيه عابد توفي بعد 120 هـ. تقريب التهذيب: (98).

صلى وسلم على سيدنا محمد" فإنه لا يحسب عليه إن شاء الله تعالى.  
وقيل: أوحى الله تعالى إلى موسى ~~عليه السلام~~: أنحب أن لا أحاسبك غدا بما أنعمت عليك في  
دار الدنيا؟ قال موسى: نعم. قال الله تعالى قل كل يوم عشر مرات: الحمد لله قبل كل  
أحد، والحمد لله بعد كل أحد، والحمد لله على كل حال.

وفي نهاية البيان في تفسير القرآن: قال إبراهيم: من أكل فسمي وفرغ فحمد الله لم  
يسأل عن نعيم ذلك الطعام. فمن عطف همته على استيفاء اللذات، ولم يعيش إلا ليأكل  
الطيب، ويلبس اللين، ويقطع أوقاته في اللهو واللعب، ولا يعبأ بالعلم والعمل؛ فإنه  
يسأل. وأما من تمتع بنعم الله تعالى وأرزاقه التي لم يخلقها إلا لعباده، ويتقوى بها على  
الدين والعمل، وكان ناهضا بالشكر فهو من ذلك بمعزل.

الثانية: قال سيدي زروق في شرح الرسالة: الحلال ما انحلت عنه التبعات فلم يتعلق به  
حق لله تعالى ولا حق لغيره، وهل هو ما جهل أصله أو ما علم أصله وأصل أقوال  
أرجحها الأول؛ لأنه الأشبه بحديث: «دين الله يسر<sup>(1)</sup>» وعليها؛ لو رأينا نباتا لا ندرك  
أضر هو أملا؟ أو حيوان لا يعرفه الناس، فعلى الأول: هو حلال كما عند الشافعي  
لسكوت الشارع عن تحريمه. وعلى الأخيرين: حرام كما عند أبي حنيفة لعدم ورود  
نص بحله.

قال بعضهم: خلق الله المال حلالا كما خلق الماء طهورا، فكما لا ينحس الماء إلا ما  
غيره، كذلك لا يحرم المال إلا ما غيره. إلا أن الشارع لما رأى حرص النفوس على  
التحفظ في الطهارة تساهل فيها. ولما رأى تساهلها في الأموال تحفظ فيها، فاستعمل  
الورع في هذه دون تلك.

قال البلائي<sup>(2)</sup>: الحلال مثل ماء المطر أخذ قبل وقوعه، والحرام كربي وخمر ونحوهما.

(1) أخرجه أحمد (69/5)، رقم 20688، وابن سعد (68/7) بلفظ: أيها الناس دين الله يسر.

(2) محمد بن علي بن جعفر، شمس الدين أبو عبد الله المجلوني ثم القاهري المعروف بالبلائي فقيه شافعي من أهل بلالة (من أعمال  
عجلون)، تميز بالتصوف ولازم النظر في كتاب (الاحياء) للغزالي، وصنف (مختصرا - خ) له، في التيمورية، و (السول في شئ من

والشبهة تعارض احتمالين وأماراتها كثيرة كشكه في سبب حله وتحريمه، ثم ذكر شبهة الاختلاط، وأن أموال زماننا من اختلاط غير محصور، بغير محصور، فلا يحرم التناول. قال: ويحرم بقرينة كأموال الظلمة وفيه نظر. قال: وما جهل من هدية ومبيع وغيرهما فرخصة، ويحرم بحثه عنه لإيذاء مالكة، ويؤيده دليل ملكه، ويجب بحثه عما غلب عليه الحرام. قال: ولو اشتبه بما له حرام رد مثله، ومن غيره أولى. وتركه أعلى. ثم قال: ومن بأحد ماله شبهة فما تيقن حله؛ فلقوته وكسوته والشبهة لمنافع منفصلة، وإن اختلط اشترى على ذمته ونقد ما اشتبه ثمنا. قال: وشك بلا علامة وسوسة.

ثم قال زروق: والجزم بالتحريم في الشبهة عظيم. وقد كان مالك وأمثاله يتورعون من إطلاق الحلال والحرام في الفروع لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ كذا روي عنه وفيه نظر لمربط الآية بقوله الكريم: ﴿تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ انتهى (1).

فيجب على الإنسان التحري في طلب معاشه، والاجتهاد غاية جهده في حفظ الخلاف ليعمل به؛ إذ لا يستوي من أكل شيئا فيه الخلاف مع من أكل مالا خلافا في تحريمه. فإن كان الطعام في السوق ف شراء الخبز أخف وأحسن من شراء الدقيق، وشراء الدقيق أحسن من شراء الزرع؛ لأن ذلك يدخل فيه الطعام في ضمان البائع كأنه أدى ثمنه لصاحبه ثم باعه. وشراء الزرع المجلوب من بعد أفضل من الذي جلب من بلد قريب فكل ما بعد من ذلك حيث يقوى الخلاف في أن ذلك فوت ولا يكون لأهل تبعات البائع لذلك إلا القيمة كان أحسن مما إذا كان قريبا حيث يضعف الخلاف في أنهم ليس لهم أخذ ذلك، وفي وجوب السؤال عن صفة أصل حله قولان:

أحاديث الرسول) ولم يكمله، وعمل (مختصرا) في فروع الفقه. واستقدمه نائب السلطنة إلى مصر في حدود سنة 790 فتولى مشيخة (سعيد السعداء) ومن تصانيفه (جنة المعارف - خ) في شتريني (الرقم 4455). توفي بمصر. انظر الشذرات: (147/7). (1) انظر شرح زروق على الرسالة: (348/2).

الفاكهاني<sup>(1)</sup>: لا ينبغي اليوم أن يسأل عن أصل شيء فإن الأصول قد فسدت واستحكم فسادها، بل أخذ الشيء على ظاهر الشرع أولى له من أن يسأل عن أصل شيء ليتعين له تحريمه ثم يحتاج إليه فيأخذه مع علمه بتحريمه، أو شبهته وهذا هو الأرفق بالناس لا قول من قال: الحلال ما عرف أصله والذي عندي في هذا الزمان أن من أخذ قدر الضرورة لنفسه وعياله من غير سرف ولا زيادة على ما يحتاج إليه لم يأكل حراماً ولا شبهة.

وقال القاسم بن محمد<sup>(2)</sup>: لو كانت الدنيا حراماً لما كان لك بد من العيش.

سئل بشر الحافي: من أين طعامك؟ قال: أكل مما تأكلون، ولكن ليس من يأكل ويكي كمن يأكل ويضحك وليس من يده قصيرة كمن يده طويلة، وليس من يصغر اللقمة كمن يكبرها يعني الأكل من ورع، ثم إن اجتهد في طلب الحلال ولم يجد إلا الحرام المحض فإنه يقتصر على قوته منه، ولا يوسع، ولا حرج عليه لأنه ضرورة كما أبيحت له الميتة.

وفي الحديث: «لو كانت الدنيا كلها مضغة دم لكان قوت المؤمن منها حلالاً».

ومن الحلال: أكل الفواكه والثمار ولبن الغنم بحملتها لمن احتاج إليها وإن لم يأذن رها. وفي جواز ذلك لغير المحتاج وعدمه. ثالثها: يجوز في اللبن دون الفواكه والثمار.

وأصول الحلال: صيد البر وصيد البحر، وتجارة صدق، وإجارة نصح ومغنم قسم بعدل، وإرث عن قريب، وماء من غدير، ونبات أرض غير مملوكة، وهديّة من أخ صالح، وسؤال عن حاجة.

(1) هو عمر بن علي بن سالم بن صدقة اللخمي الاسكندري تاج الدين، عالم بالنحو، سمع منه ابن كثير صاحب البداية والنهاية. له كتب منها: الإشارة في النحو، والمنهج المبين، والتحرير والتجويد في شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وله شرح عمدة الأحكام والمعر النير في الصلاة على البشير النذير. توفي: 734هـ. انظر الدرر الكامنة: (178/3).

(2) هو القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق أبو محمد أحد الفقهاء السبعة في المدينة. ولد فيها وتوفي بقديد (بين مكة والمدينة) حاجاً ومعتزلاً، وكان صالحاً ثقة من سادات التابعين. قال ابن عيينة: كان القاسم أفضل أهل زمانه. توفي 167هـ. انظر الوفيات: (418/1).

قال الجزولي: الغالب في مغربنا هذا الحرام إذ يكرون الأرض بما تنبتة، ولا يؤدون الزكاة فزروهم حرام.

والغالب في بلاد المصامدة الحلال؛ إذ لا يأكلون ميراث الإناث ويزكون كذلك، وشراؤهم صحيح فحيثما دنوت إلى المغرب يكثر الحرام.

ومن الحرام: ما يعطى لمن يظن به الدين وليس كذلك وهو الأكل بالدين. وشرط حله: ألا يكون في باطنك ما لو اطلع عليه المعطي لامتنع من العطاء.

ولا فرق بين ما يأخذه بالتصوف والتقوى ولم يتصف به باطنا، وبين من يدعي الشرف كاذبا فذلك حرام. ولو أفق الفقيه بالحل بناء على الظاهر. وكذلك -على هذا- من تصدر في الإمامة والشهادة وهو يعلم الجرحه في نفسه أو تصدر للفتيا والقضاء وهو لم يتقنهما بشرائطهما على هذا القياس والله أعلم. ولم يكتب الكاتب هذا بناء على تبرئه، بل لتقوم حجة الله، ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ عنده في التستر به عن الناس. اللهم يسر علينا أحسن المخرج. انتهى من شرح ميارة على ابن عاشر. بخ. أو يعطى له إعانة على طلب العلم ولم يكن يطلبه. وتكره الإجارة على تعليم العلم وحفر القبور وغسل الموتى.

وقال الغزالي: الامتناع عن الحرام المحض واجب، وعن الشبهة تقوى وورع، واختلف في قبول صلاة متناولها. واختلف في قبول صلاة السلاطين: قيل: يجوز للغني والفقير أخذها، إلا أن يتحقق حراميتها. وإنما تبعثها على المعطي. قالوا لأن النبي ﷺ قبل هدية المقوقس ملك الأسكندرية، واستقرض من اليهودي مع قول الله تعالى: ﴿أَكْأَلُونَ لِلْسُّخْتِ﴾.

وقد أدرك بعض الصحابة كأبي هريرة وابن عباس وابن عمر<sup>(1)</sup> وغيرهم أيام الظلمة وأخذوا منهم. وقيل: لا يجوز لهما إلا أن تتحقق الحلية. وقيل: يجوز للفقير فقط لأنها إن كانت فيئا فله فيه حق وكذلك لأهل العلم فيه حق.

(1) تقدمت ترجمتهم.



قال علي عليه السلام: من دخل الإسلام طائعا وقرا القرآن طاهرا فله في بيت مال المسلمين في كل سنة مائة درهم. وروي: دينار. وإن لم يأخذها في الدنيا أخذها في الآخرة. وإذا كان كذلك فالفقير العالم يأخذ بوصفيه.

ثم إن كان المُنْهَدِي ظاهر الصلاح فلا يلزم البحث عن صلته بل ذلك سوء ظن بالمسلم، وكان بعضهم يأخذ التطوع ولا يأخذ الزكاة لعدم التحقق بشرطها. وبعضهم بالعكس لأن الزكاة مال الله وكلهم على هدى. ومن لا يتناول ما بأيدي الناس إلا عند الضرورة بمقدار ما يبلغه إلى الطاعة كان له عذر في ذلك ولا يضره أن كان في أصله شبهة، فإن الله تعالى أولى بالعذر.

وعن وهيب بن الورد<sup>(1)</sup>: أنه يجوع نفسه يوما ويومين وثلاثة ثم يأخذ رغيفا ويقول: اللهم إنك تعلم أنني لا أقوى على العبادة إلا به وأخشى الضعف إن لم أكله اللهم إن كان فيه شيء من خبث أو حرام فلا تواخذي به ثم يبل الرغيف ويأكله.

ثم إن حكم الشرع وظاهره أن تأخذ ما لا تتيقن أنه حرام. ولكن حكم الورع أن لا تأخذ إلا ما بحثت عنه غاية البحث حتى تتيقن أنه لا شبهة فيه بحال. فالورع مبني على التشدد والاحتياط، كما قيل: الأمر على المتقي أضيق من عقد التسعين وبقدر ما تعنى تنال ما تمنى.

وروي: أن غلاما أتى الصديق عليه السلام بلبن فشربه، ثم أخبره أن قوما رقاهم برقى الجاهلية أعطوه هذا اللبن فتقايأ منه أبو بكر الصديق عليه السلام وقال: اللهم إن هذه مقدرتي فما بقي في العروق فأنت حسبه ولأجل قلة الحلال وضيقه كرهوا التوسع على النفس والعيال خوف الوقوع في الحرام والشبهة، وقد قالوا في حديث: «إن الله ليحب أن يرى أثر نعمه على عبده»<sup>(2)</sup> إن التعبير "بأثر" إشارة إلى القلة في المأكول والمشرب والملبس وغيرها.

(1) وهيب بن الورد بن أبي الورد المخزومي، بالولاء، أبو أمية: من العبادة الحكماء. من أهل مكة. ووفاته بها. كان من أقران إبراهيم بن أدهم. وكان سفيان الثوري إذا حدث الناس في المسجد الحرام وفرغ قال: قوموا إلى الطبيب يعني وهيب. له أخبار وكلمات مأثورة. وكان اسمه "عبد الوهاب" فصغر فقيل "وهيب". انظر حلية الأولياء: (140/8).

(2) أخرجه ابن سعد (291/4)، والطبراني (135/18)، رقم (281).

وقال سيدي علي الخواص: لبس الثوب بال عشرة دارهم كاف في إظهار النعم المأمور بها.

وقال: لا ينبغي للموسر لبس الأصواف الرفيعة، ولا الجوخ البندقي ولا الشاش العنדהوي ولا الظهر الأسكندراي ولا أن يأكل في أواني الصيني ولا أن يطبخ في ينه كل ليلة اللحم الضائي والدجاج والحلواء لكثرة المحاويج، ولأن القوات اليوم لا يوجد إلا بمعاينة أسباب الموت، كما يعرف ذلك أرباب الحرف من السوق والفلاحين، والخوف الاستهانة بالنعم وجهل مقدارها لأن من جاع وعطش يتلقى الطعام والشراب بكل شعرة فيه، فأعدل الأمور أن تكون نفقته على عياله على وجه الكرّ والفرّ فكلما خاف سخطهم على ربهم وسع عليهم حتى يشكروا، وإن خاف قهاونهم بالنعمة فترها عليهم ليتلقوها بالتعظيم. ولئلا يتسبب في تحويل النعم عنهم بكثرة إطعامهم الشهوات ولأن الإسراف في المال إسراف في الدين والعرض، وعن قريب يصير يسأل الناس فلا يعطونه.

وقال سيدي زروق: تكليف ما ليس في الوسع جائز عقلا، وقد أمر تعالى كل مؤمن بطلب الحلال فوجده ممكنا لكل في كل عصر وقطر، لوجود أصوله عموما، ولأن الأرض لا تخلوا من ولي وصالح وهو قوتهم، ولا يكلفنا الله بما في علمه إلا بعلامة صحيحة، وإنما يكلفنا بما نعلم من حيث نعلم فمن لم يعمل بيده حراما ولا يغلب على ظنه دخوله في ماله بعلامة صحيحة فلا وجه لاعتقاد الحرام ولا الشبهة فيه. بل قد قيل: المال كالماء خلق الله هذا حلالا كما خلق الماء طهورا لا ينجسه إلا ما غيره وهذا لا يحرمه إلا ما غيره، ولذا أجمعوا على وجوده كما ذكره السهروردي<sup>(1)</sup>.

وقال الشعراي: كان السلف يقدمون كسب الدرهم الحلال على سائر مهماتهم؛ لأن الأعمال الأخروية الخالصة لا تقع على يد من أكل حراما أو شبهة.

(<sup>1</sup>) انظر قواعد التصوف: (القاعدة 90). حرقا بحرف.. والسهروردي هو عبدالقاهر بن عبد الله بن محمد البكري الصديقي، أبو النجيب السهروردي: فقيه شافعي واعظ، من أئمة المتصوفين. ولد بسهرورد. وسكن بغداد. فنيته له فيها رباطات للصوفية من أصحابه، وولي المدرسة النظامية. وتوفي ببغداد. له "آداب المريدين - خ" و "شرح الاسماء الحسن - خ" و "غريب المصايح - خ". انظر الوفيات: (299/1).

وقال يونس بن عبيد<sup>(1)</sup>: ما ثم اليوم أقل من درهم طيب ولو وجدناه لاستشفينا به لمرضانا.

وكان إبراهيم بن أدهم<sup>(2)</sup> يرى الحضور مع الله في عمل الحرفة شرطا للحلال وكل شيء عمله بلا حضور لا يأخذ له أجره. وقال: رأيت عابدا يقوم إلى الصلاة بثقل فنظرت فإذا ذلك الثقل من عدم صفاء ماكله ولو أنه أكل حلالا لحفت عليه العباد.

وسئل سفيان الثوري<sup>(3)</sup> عن فضل الصف الأول فقال: انظر رغيفك من أين هو؟ فكله وصل في الصف الأخير ولا حرج عليك. وكان إذا ذهب به إلى وليمة أخذ معه رغيفا فإذا قال له صاحب الطعام إنما دعوتك لتأكل من طعامي قال له سفيان: إنك تدري خبزك من أين هو وأنا أدري خبزي من أين هو؟ فكل واحد يأكل مما يدري.

قال ابن عبدوس<sup>(4)</sup>: قوام الدين طيب الطعام، فمن طاب مكسبه زكا عمله وزاد أجره.

وفي الحديث: «المؤمن الذي إذا أصبح سأل من أين قرصاه وإذا أمسى سأل من أين قرصاه». قالت عائشة: ولو علم الناس لتكلفوه. أي علم الناس أن المؤمن من كان حاله هكذا لاجتهدوا فيه بالتعب قال ﷺ: «قد علموا ولكنهم غشموا المعيشة غشما.

وقال ﷺ لسعد بن أبي وقاص<sup>(5)</sup>: «طيب لقمته إن أردت أن يجيب الله دعاءك» وقد سألته أن يجعل الله دعوته مستجابة. وقال سعد ففعلت ذلك فوجدته كما قال.

وفي الحديث: «العبادة عشرة أجزاء تسعة منها في طلب الحلال<sup>(6)</sup>». وفيه: «طلبك الحلال جهاد<sup>(1)</sup>». وفيه: «من بات وانيا في طلب الحلال باب مغفورا له، وأصبح والله

(1) تقدمت ترجمته.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) تقدمت ترجمته.

(4) علم على عدة رجال ولعله: محمد بن إبراهيم بن عبد الله ابن عبدوس، فقيه زاهد من أكابر التابعين من أهل القروان له مجموعة في

الفقه والحديث. توفي 260هـ. انظر للزيادة والتكميل معالم الايمان: (2/90).

(5) تقدمت ترجمته.

(6) رواه الذهلي من حديث أنس. انظر الاحياء: (2/90).

راض عنه<sup>(2)</sup>». وفيه: «من أوقف نفسه موقف الذل في طلب الحلال تساقطت عنه ذنوبه كما يسقط الورق عن الشجر<sup>(3)</sup>». وفيه: «من أكل الحلال أطاع الله أحسب أم كره». وفيه: «من أكل الحلال أربعين يوما نور الله قلبه وأظهر الحكمة على لسانه<sup>(4)</sup>». (و) أخذه (احتياجًا) بأن يتشوش حاله إن لم يأخذ ذلك المباح ينقطع بسببه عن فرض أو سنة أو نفل يكون ذلك أفضل من ترك المباح فإن ترك المباح فضيلة فهذا حال العذر. (وَعَوْنًا) أي وأخذه لقصد العون والعدة (عَلَى الطَّاعَةِ) وهو أن يذكر بقلبه أنه لولا ما فيه من التوصل إلى الطاعة لما أخذ ذلك، فهذا ذكر الحجة.

ويشترط في كون أخذ الحلال خيرا وحسنة هذان الشرطان وهما: ذكر الحجة في حال العذر. أما لو كان حاله حال العذر ولا يكون له هذا القصد والذكر. أو يكون له هذا الذكر ولا يكون في حال العذر فلا يصير ذلك من جملة الخيرات. ثم الاستقامة على حفظ هذا الأدب تحتاج إلى بصيرة وقصد مجمل؛ فإنه لا يأخذ من الدنيا بحال إلا للعدة على الطاعة حتى أنه إن سها عن ذكر الحجة في حال أجزاء ذلك القصد المجمل عن تجديد ذكر الحجة. قال شيخنا: فصارت الأمور الثلاثة معتبرة فيه كل واحد من وجه؛ يعني أن الذكر والحال معتبران في حصول كونه خيرا أصلا، والقصد المجمل المقتضي عن بصيرة المنزل منزلة الأدب، معتبر في الاستقامة عليه. فافهم ذلك راشدا. قاله في المنهاج<sup>(5)</sup>.

(و) أخذه (تَعَطُّفًا عَلَى النَّاسِ) ولا سيما على عياله وعلى جاره (وَتَعَفُّفًا عَنْ مَسَائِلِهِمْ) وفي الحديث: «من سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف<sup>(6)</sup>». وفيه: «المسالة كلها

<sup>(1)</sup> أخرجه القضاة (83/1 ، رقم 82) . وأخرجه أيضًا: الديلمي (442/2 ، رقم 3919) .

<sup>(2)</sup> أخرجه الطبراني (267/20 ، رقم 631) ، وابن عساكر (10/14) . وأخرجه أيضًا: أحمد (131/4 ، رقم 17220) .

<sup>(3)</sup> أخرجه في الأحياء: (91/2) .

<sup>(4)</sup> أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أبي أيوب. انظر الأحياء: (89/2) .

<sup>(5)</sup> انظر منهاج العابدین للفرالي: (45) .

<sup>(6)</sup> أخرجه أبو داود (116/2 ، رقم 1628) وابن خزيمة (100/4 ، رقم 2447)

كدحوا إلا أن يسأل الرجل قدر الحاجة، وما جاءك من غير مسألة ولا إشراف نفس  
فخذها فإنما هو رزق ساقه الله إليك».

(يَسْأَلُوا مِنْهُ) أي من يده ولسانه وأذاه (وَيَسْأَلُ لَهُ دِينَهُ) وفي الحديث: «كاد الفقر  
أن يكون كفرا».

وقال ذو النون المصري<sup>(1)</sup>: أقرب الناس إلى الوقوع في الكفر شخص ذو فاقة وعيال  
ولا صبر له.

قال الشعرائي: وقوعه في الكفر بالألفاظ التي ظاهرها السخط على مقدور الله. (خَيْرٌ)  
وهو ما فيه سلامة ومنفعة. (وَتَوَابٌ) وأجر جزيل؛ لأن العبادة المتعدية فائدتها أنفع من  
القاصرة فالتعطف على الناس عبادة في نفسه تقربه إلى الله تعالى. ثم يحصل له بالصدقة  
فائدة الغير وتنجذب إليه بركة دعوات المسلمين فيتضاعف به الأجر وقد تقدم الكلام في  
فضل الصدقة.

وفي الحديث: «من طلب الدنيا حلالا تعففا عن المسألة وسعيا على عياله وتعطفا على  
جاره لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر».

وفيه أيضا: «أنه ﷺ كان جالسا مع أصحابه ذات يوم فنظر إلى شاب ذي جلد وقوة  
قد بكر يسعى فقالوا: ويح هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله. فقال عليه الصلاة  
والسلام: لا تقولوا هذا فإنه إن كان يسعى لنفسه ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس  
فهو في سبيل الله وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفهم  
فهو في سبيل الله. وإن كان يسعى تفاخرا وتكاثرا فهو في سبيل الشيطان».

وفيه: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلا فيسأله  
أعطاه أو منعه<sup>(2)</sup>».

وفيه: «من فتح على نفسه بابا من المسألة فتح الله عليه بابا من الفقر<sup>(1)</sup>».

(1) تقدمت ترجمته.

(2) أخرجه مالك (2/998 ، رقم 1815) ، والبخاري (2/535 ، رقم 1401) ، والنسائي (5/96 ، رقم 2589)

وقالت محدبة: خياركم من لم يدع ديناه لآخرته، ولا آخرته لديناه.

وفيه: «لا تسبوا الدنيا فنعم مطية المؤمن، عليها يبلغ الخير وما ينجوا من الشر<sup>(2)</sup>». وقد جاء عن عيسى الشبلي أنه مر بمتعبد فقال له: من أين تأكل؟ فقال له: إن لي أحسا يطعمني فقال له عيسى الشبلي: أخوك أعبد منك لأنه هو الذي أعانك على الطاعة وفرغك لها.

وفي الحديث: «اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول<sup>(3)</sup>».

وفيه: «كفى المرء إثماً أن يضيع من يعون<sup>(4)</sup>».

وفيه: «الفار من عياله كالفار من الزحف<sup>(5)</sup>».

وقال العلماء: من وجد كفاية عن الأسباب فالله أغناه، وإلا فلا يجوز لأحد أن يقعد عن الأسباب كلا على الناس، وهو قادر على الاكتساب والشبع من الحلال مبدأ كل شر فكيف به من الحرام.

وقال عبد الله بن المبارك<sup>(6)</sup>: لا يخرج العبد من الزهد إمساك الدنيا ليصون بها نفسه عن سؤال الناس.

وقال لقمان لابنه: يا بني؛ حملت الصخر والحديد فلم أر شيئا أثقل من الدين وأكلت الطيبات وعانقت الحسان فلم أر شيئا ألد من العافية وذقت المرارة كلها فلم أر شيئا أمر من الحاجة إلى الناس.

وقال الشعرائي: من أخلاق السلف: تقديمهم الخوف من الحاجة إلى الناس على خوف الحساب من جهة المال الذي ربما دخلته الشبهة.

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (273/3 ، رقم 3524) .

(2) أخرجه الديلمي (10/5 ، رقم 7288) . وأخرجه أيضاً: الشاشي (387/1 ، رقم 383)

(3) أخرجه أحمد (329/3 ، رقم 14571) ، وقال الهيثمي (115/3) : رجاله رجال الصحيح

(4) أخرجه أحمد (160/2 ، رقم 6495) ، وأبو داود (132/2 ، رقم 1692)

(5) أخرجه أحمد (324/3 ، رقم 14518) ، وعبد بن حميد (ص 336 ، رقم 1118)

(6) تقدمت ترجمته.

وقال سفيان الثوري: لأن أخلف عشرة آلاف أحاسب عليها أحب إلي من أن احتاج إلى الناس. وقال: المال فيما مضى يكره، وأما اليوم فهو ترس المؤمن.

وقال: حفظك لما في يدك لتقضي به حاجتك؛ أولى من تصدقك وطلبك لما في يد غيرك. وقال: خصلتان لا يزال العبد بخير ما حفظهما: درهمه لمعاشه، ودرهمه لمعاده.

وكان قيس بن عاصم<sup>(1)</sup> مع زهده وورعه يقول: لبنيه: عليكم بالكسب الحلال؛ فإنه يسر الصديق ويكمد العدو، وتستغنون به عن سؤال الناس لاسيما اللئيم، وإياكم وسؤال الناس فإنه كسب العاجز.

وقيل للثوري: أيكون الرجل زاهدا ويكون له المال؟ قال: نعم. إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر.

وقال ابن مسعود: إني لأكره أن أرى الرجل فارغا، لا في أمر دنياه ولا في أمر آخرته. وقال سهل بن عبد الله التستري<sup>(2)</sup>: من أعظم ما يتلى به العبد الفراغ من أعمال الدنيا والآخرة ولكن لا يشعر به أنه بلاء إلا القليل من الناس.

وقال أبو قلابة<sup>(3)</sup>: لأن أرى في معاشي أحب إليّ من أن أرى في زوايا المسجد. وقال: عليكم بالسوق والصنعة فإنكم لن تزالوا كراما على إخوانكم ما لم تحتاجوا إليهم.

(1) هو قيس بن عاصم بن سنان المقرئ السعدي التميمي، أبو علي: أحد أمراء العرب وعقلائهم والموصوفين بالحلم والشجاعة فيهم. كان شاعرا، اشتهر وساد في الجاهلية. وهو ممن حرم على نفسه الخمر فيها. ووفد على النبي صلى الله عليه وآله في وفد تميم (سنة 9 هـ فأسلم، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما رآه: هذا سيد أهل الوبر ! واستعمله على صدقات قومه. ثم نزل البصرة في أواخر أيامه، وروى أحاديث. وتوفي بها. وهو الذي يقول عبدة بن الطيب في رثائه: " وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما " وكان له 33 ولدا. قال لهم في مرض موته: " يا بني احفظوا عني ثلاثا، فلا أحد أنصح لكم مني: إذا أنا مت فسودوا كباركم ولا تسودوا صغاركم فيحقر الناس كباركم وتهونوا عليهم، وعليكم بحفظ المال فإنه منبهة للكرم ويستغني به عن اللئيم، وإياكم والمسألة فالحا آخر كسب الرجل ". انظر الإصابة: (الترجمة 7194).

(2) تقدمت ترجمته.

(3) تقدمت ترجمته.

وقال لقمان لابنه: يا بني استغن بالكسب الحلال عن الفقر فإنه ما افتقر أحد إلا أصابه إحدى خصال ثلاث: رقة في دينه. وضعف في عقله. وذهاب في مروءته. وأعظم مسن هذه الثلاثة استخفاف الناس به.

وسئل إبراهيم عن التاجر الصدوق أهو أحب إليه أم المتفرغ للعبادة؟ قال: التاجر الصدوق أحب إلي؛ لأنه في جهاد يأتيه الشيطان من طريق المكيل والموزون ومن قبل الأخذ والعطاء فيجاهده. وخالفه الحسن في هذا.

وقال الغزالي: أما المؤمن فالمال له محمود لأن الفقير في طلب العلم والكمال وليس معه كفاية كساع إلى الهيجاء بغير سلاح، وكباز يروم الصيد بلا جناح. وفي الخبر: «نعم المال الصالح للرجل الصالح<sup>(1)</sup>». وفيه: «نعم العون على تقوى الله المال<sup>(2)</sup>».

كيف ومن عدم المال صار مستغرق الأوقات في طلب القوت، ثم يتعرض لأنواع من الأذى تشغله عن الفكر والذكر، ولا يندفع ذلك إلا بسلاح المال، ثم بعد ذلك يحرم فضيلة الحج والزكاة والصدقات وإفاضة الخيرات. فالمدموم من الدنيا إمساكها والحرص عليها للاستكثار منها والتوسع في نعيمها بما يوجب الركون إليها وإلى لذاتها. وأما قدر الكفاية وصرف الفضائل إلى الخيرات فليس بمدموم، ومن سمحت نفسه بإطعام الطعام وتوسيع الزاد فلا بأس بالاستكثار له. وفي الحديث: «ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب<sup>(3)</sup>». معناه: لأنفسكم خاصة وإلا فقد كان من يروى هذا الحديث ويعمل به: يأخذ مائة ألف درهم في موضع واحد، ويفرقها في موضعه ولا يمسك منها حبة. ولما ذكر ﷺ أن الأغنياء يدخلون الجنة زحفا استأذنه عبد الرحمن بن عوف في أن يخرج

عن جميع ما يملكه فأذن له فزل جبريل عليه السلام فقال له: «مره أن يطعم المسكين ويكسو

(1) أخرجه أحمد (4/202، رقم 17835)، والحاكم (2/3، رقم 130) وقال: صحيح على شرط مسلم.  
(2) أخرجه الديلمي (4/256، رقم 6756).  
(3) أخرجه ابن الأعرابي في الزهد (1/54، رقم 87).



العاري ويقرى الضيف<sup>(1)</sup>»... الحديث.

واعلم أن أفضل ما أكلت منه كسبك من زراعة لأنه أقرب إلى التوكل ثم من صنعة لأن الكسب فيها يحصل بكد اليمين ثم من تجارة؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يكتسبون بها.

**فائدة: قال سهل التستري:** اجتمعت بشيخ من أصحاب عيسى عليه السلام وعليه جبة صوف فيها طراوة فقلت له: فكم لهذه الجبة عليك فقال: لها علي من أيام المسيح سبعمائة سنة، إن الأبدان لا تخلق الثياب وإنما يخلقها رائحة الذنوب ومطاعم السحت. قلت: ومن هنا كان الخضر لا يبلى له ثوب لأنه لا يعصى ولا يأكل حراما وكما لا يبلى لآكل الحلال ثوب، فكذا لا يبلى له جسم بعد موته كما وقع لبعض الأولياء، فوجدناه طريبا كما وضعناه بعد سنين. **قاله الشعراني<sup>(2)</sup>.**

**وقد قيل في فضل الكسب:** الرجال ثلاثة: رجل شغله معاشه عن معاده فهو من الهالكين. ورجل شغله معاده عن معاشه فهو من الفائزين. والأقرب إلى الاعتدال هو الثالث الذي شغله معاشه لمعاده فهو من المقتصدين.

**وفي الحديث:** «من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم في طلب المعيشة<sup>(3)</sup>».

**وفيه:** «التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء<sup>(4)</sup>».

**وفيه:** «إن الله يحب العبد المؤمن المحترف<sup>(5)</sup>».

**وفيه:** «أحل ما أكل الرجل من كسبه وكل بيع مبرور<sup>(6)</sup>».

**وفيه:** «أحل ما أكل الرجل كسب يد الصانع إذا نصح<sup>(1)</sup>».

(1) أخرجه ابن عساكر (263/35)

(2) انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (77/1).

(3) أخرجه الطبراني في الأوسط (38/1 ، رقم 102)

(4) أخرجه عبد بن حميد (ص 299 ، رقم 966) ، والترمذي (515/3 ، رقم 1209) وقال : حسن .

(5) أخرجه الطبراني (308/12 ، رقم 13200)

(6) أخرجه أحمد (141/4 ، رقم 17304) ، والطبراني (276/4 ، رقم 4411) ، والحاكم (13/2 ، رقم 2160)

وقال ابن ليون: فليصرف الإنسان إلى دنياه حظا من عنايته؛ لأن بها يتزود لآخرته، وقد قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ أي فإذا فرغت من أمر الدنيا فانصب في العبادة. وقال عليه الصلاة والسلام: «خيركم من لم يترك الدنيا للآخرة، ولا الآخرة للدنيا لا من ترك إحداها للآخرى ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه»<sup>(2)</sup> وقال: «نعمت المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة».

وقال الثوري: في التوراة: إذا كان في الليلة قوت فتعبد وإن لم يكن فاطلب يا ابن آدم حرك يدك يتحرك لك رزقك. ولحمود الوراق<sup>(3)</sup>:

لَا تَتَّبِعِ الدُّنْيَا وَأَيَّامَهَا ذَمًّا وَإِنْ دَارَتْ بِكَ الدَّائِرَةُ  
أَنْ بِهَا تُسْتَذَرَكُ الْآخِرَةُ مِنْ شَرَفِ الدُّنْيَا وَمِنْ فَضْلِهَا  
قال الشعرائي: من أخلاق السلف: تقديمهم عمل الحرفة والصناعة التي تكفهم عن سؤال الناس على سائر نوافلهم وواجباتهم الموسعة.

وقد سئل الحسن البصري عن رجل محتاج إلى الكسب ولو ذهب لصلاة الجماعة احتاج ذلك النهار إلى سؤال الناس فقال: يتكسب ويصلي منفردا. قال الشعرائي: لعل ذلك في غير صلاة الجمعة.

وفي الحديث: «إن الله تعالى علم آدم عليه السلام ألف حرفة وقال له: قل لولدك يتعلمون هذه الحرف ويأكلون بها ولا يأكلوا بدينهم»<sup>(4)</sup>.

وقال عمر رضي الله عنه: لا يقعد أحدكم في المسجد ويترك طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني فإن ذلك خلاف السنة. وقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة. وكانت الصحابة

(1) حديث أحل ما أكل العبد كسب الصانع إذا نصح رواه أحمد من حديث أبي هريرة خير الكسب كسب العامل إذا نصح وإسناده حسن. انظر الاحياء: (62/2).

(2) أخرجه الديلمي (409/3)، رقم (5249)، وابن عساكر (197/65).

(3) تقدمت ترجمته.

(4) أخرجه الديلمي (42/3)، رقم (4105).

يتجرون برا وبحرا والقُدوة بهم أولى. قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ سَمَاهُمْ رجالا لما قاموا بالأسباب ولم يشتغلوا بها عن الذكر.

وفي الحديث: إنهم أثنوا عند النبي ﷺ على رجل بالعبادة فقال ﷺ: «فمن كان بطعمه ويستقيه ويعلف دابته ويكفيه ضيعته؟ قالوا: نحن يا رسول الله. قال: كلكم خير منه<sup>(1)</sup>». وقال أبو سليمان الداراني<sup>(2)</sup>: ليس الشأن أن تصفَّ قدميك للعبادة وغيرك يقوت لك، إنما الشأن أن تحرز رغيفك في بيتك ثم تُغلقه وتصلي فلا تبالي بعد ذلك بأي داقٍ دقَّ عليك الباب، بخلاف من قام في بيته يصلي وليس عنده شيء يأكله فيصير كل داقٍ دقَّ الباب يقول إن معه رغيفا.

وقال الثوري: عليكم بالحرفة فإن عامة من أتى أبواب الأمراء إنما أتاها من الحاجة<sup>(3)</sup>. وقال الفضيل: إذا افتقر أحدكم فلا يجعل فقره فيما بينه وبين الناس وليجعله فيما بينه وبين الله لئلا يهون في أعين الناس يحزن ويسوء بذلك الصديق ويسر بذلك العدو. وقال بعض السلف: وجدت خير الدنيا والآخرة في التقوى والغنى، وشر الدنيا والآخرة في الكفر والفقر. ول بعضهم:

وَلَمْ أَرْ بَعْدَ الدِّينِ خَيْرًا مِنَ الْغَنَى وَلَمْ أَرْ بَعْدَ الْكُفْرِ شَرًّا مِنَ الْفَقْرِ  
وقيل: إن كان شيء فوق الحياة فالصحة. وإن كان شيء مثلها فالغنى، وإن كان شيء فوق الموت فالمرض، وإن كان شيء مثله فالفقر. وقيل: القبر خير من الفقر. وأنشدوا:  
أَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ بَطَرِ الْغَنَى وَمِنْ نَهْكَةِ الْبَلَوَى وَمِنْ ذِلَّةِ الْفَقْرِ  
وقال مجاهد<sup>(4)</sup>: الخير كله في القرآن: المال.

وقال السدي<sup>(1)</sup> وابن زيد<sup>(2)</sup>: إن الحسنة في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ المال. وفي الآخرة حسنة: الجنة.

(1) رواه أبو داود في المراسيل: (306) عن أبي قلابة.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) انظر كلام الشرحي بكامله في تنبيه المغترين: (303).

(4) تقدمت ترجمته.

والحاصل: أن المال كالحية التي فيها سم نافع وترياق نافع فإن أصابها المعزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن سمها، وطريق استخراج ترياقها النافع، كانت نعمة وإلا فهي عليه هلاك وبلاء، وإن الجاه كالبحر الذي تحته أصناف الجواهر والآلي. فمن ظفر بها فهي نعمة، وإن خاضه جاهل هلك. وأكثر الناس جاهل بطريق الرقية لحية المال وبطريق الغوص في بحر الجاه فوجب تحذيرهم لئلا يهلكوا بسم المال قبل الوصول إلى ترياقه وبتمساح الجاه قبل العثور على جواهره فمن وفق ببصيرته وكمال معرفته فله أن يقرب منها متقيا داءها ومستخرجاً دواءها. ومن لا: فالبعد البعد والفرار الفرار عن مظان الأخصار ولا تعدل بالسلامة شيئا.

## الكفاف أفضل من الفقر والغنى

ثم قال: (وَالْكَفَافُ فِيهَا) أي في الدنيا أي قدر الحاجة لا يفضل عنها.

قال النووي: هو الكفاية بلا زيادة ولا نقص. وقال أيضا: هو ما يسد الرمق.

وقال القرطبي<sup>(3)</sup>: هو ما يكف عن الحاجات، ويدفع الضرورات والفاقات. ولا يلحق

بأهل الترفهات. وقال أيضا: هو ما يقوّم ويكفيهم بحيث لا يشوشهم الجهد، ولا

ترهقهم الفاقة، ولا تذلهم المسالة والحاجة. ولا يكون في ذلك فضول يخرج إلى الترفه

والتبسط في الدنيا والركون إليها.

وفي بعض الأخبار: أن عليا كرم الله وجهه قال: أربعة آلاف درهم فما دونها نفقة فما

زاد عليها فهو كثر، وإن أدّيت زكاته.

وقال أبو ذر<sup>(4)</sup> وجماعة معه: ما فضل من مال الرجل عن حاجة نفسه فهو كثر.

(1) تقدمت ترجمته.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) تقدمت ترجمته.

(4) تقدمت ترجمته.

وقال الشعراوي: الكفاف هو الذي يفضل عن الغداء والعشاء منه شيء. وصاحب الكفاف معدود من الفقراء؛ لأنه لا يترفه في طيبات الدنيا بل يجاهد نفسه في الصبر عن القدر الزائد على الكفاف فلم يفته من حال الفقراء إلا السلامة من قهر الحاجة وذل المسألة.

وفي الحديث: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما رزقه<sup>(1)</sup>».

معناه: من اتصف بتلك الصفات حصل على مطلوبه، وظفر بمرغوبه في الدنيا والآخرة.

وفيه: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا<sup>(2)</sup>». أي اكفهم من القوت مالا يرهقهم إلى

ذل المسألة ولا يكون فيه فضول يبعث على الترفه والتبسط في الدنيا.

وذكر ابن رشد في البيان: أن الفقر أفضل من الكفاف لأن الفقير يؤجر من وجهين:

-الصبر على الفقر مع الرضى والشكر.

والثاني: تصرفه فيما لا بد منه من نفقة نفسه، ومن تلزمه نفقته، فصاحب الكفاف إنما

يؤجر على الشكر على الكفاف، وإن الغنى أفضل من الفقر؛ لأن الغنى يؤجر من وجوه؛

وهي الشكر والصبر على إعطاء الزكاة الواجبة والإنفاق على عياله<sup>(3)</sup>. (أَفْضَلُ مِنَ الْفَقْرِ

وَالْغِنَى) لحديث: «اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا<sup>(4)</sup>» في هذا الحديث دليل على

فضل الكفاف وأخذ البلغة من الدنيا والزهد فيما فوق ذلك رغبة في توفير نعيم الآخرة

وإثارا لما يبقى على ما يفنى فينبغي أن تقتدي به أمته في ذلك. ومعلوم أنه ﷺ لا يسأل

إلا أفضل الأحوال وأسنى المقامات والأعمال. ولحديث: «قد أفلح من أسلم وكان رزقه

كفافا وقنعه الله بما رزقه<sup>(5)</sup>». ولحديث: «يا بن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن

(1) أخرجه أحمد (2/168 ، رقم 6572) ، ومسلم (2/730 ، رقم 1054)

(2) أخرجه البخاري (5/2372 ، رقم 6095) ، ومسلم (4/2281 ، رقم 1055)

(3) انظر البيان والتحصيل لابن رشد: ((109/17)).

(4) تقدم تخريجه.

(5) تقدم تخريجه.

تمسك شر لك ولا تلام على كفاف<sup>(1)</sup>». وحديث: «إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من الصلاة أحسن عبادة ربه، وأطاعه في السر والعلانية وكان غامضا في الناس لا يشار إليه بالأصابع وكان رزقه كفافا فصبر على ذلك<sup>(2)</sup>»... الحديث. ولأن الكفاف أيضا حالة متوسطة.

وفي الحديث: «خير الأمور أوسطها<sup>(3)</sup>» ولأن حالة صاحبه أيضا حالة الفقير إذ لا يترفع في الطيبات. وكانت حاله إلى الفقر أقرب فقد حصل له ما حصل للفقير من الثواب على الصبر وكفي مرارته وآفاته. وعلى هذا فأهل الكفاف هم إن شاء الله صدر كتيبة الفقراء الداخلين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام. لأنهم وسطهم والوسط العدل. وليسوا من الأغنياء كما ذكرنا. وإذا تأملت هذا وجدت حالة الكفاف هي حالة أكثر الناس اليوم سيما أهل البادية. قاله الشعراي. ولأن في الكفاف أيضا السلامة من آفات الغنى والفقر. وفتنتيهما اللتين كان يتعوذ منهما النبي ﷺ.

أما آفات الغنى فقال الغزالي: هي الحرص على جمع المال حتى يكسبه من غير حله، ويمنعه من واجبات إنفاقه. وقال البيضاوي: هي البطر والطغيان والتفاخر وصرف المال في المعاصي وما أشبهه كأخذه من الحرام وأن لا يؤدي حقه وأن يتكبر به.

وأما آفات الفقر فقال بعضهم: هي حسد الأغنياء والطمع في مالهم والتذلل لهم بما يدنس به عرضه ويثلم به دينه وعدم الرضى بما قسم الله له إلى غير ذلك مما لا تحمد عاقبته. وأما قوله ﷺ: «كاد الفقر أن يكون كفرا<sup>(4)</sup>» فمعناه: أي قرب فقر اليد من المال والقلب لطلب الزيادة إذا لم يقارنه صبر أن يكفر العبد بربه عز وجل لما يصحبه في هذا الفقر من التسخط على الله عز وجل والاعتراض والتضجر، فيحمله ذلك على أمور محرمة ليحصل قوت نفسه وعياله فيفضي إلى الكفر، أو لا يشبع من الذي يعطى فيطلب

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (224/3)، رقم 3386

(2) تقدم تخرجه

(3) تقدم تخرجه

(4) أخرجه أبو نعيم (53/3)

الزيادة ويستحل شيئاً من هذه المحرمات فيكفر لحديث صحيح.

وقال الغزالي: فتنة الفقر المراد به: الفقر المدقع الذي لا يصحبه خير ولا ورع حتى يتضرر صاحبه بسببه فيما يليق بأهل الدين والمروءة ولا يبالي بسبب فاقته على أي حرام وثب ولا في أي حالة تورط<sup>(1)</sup>.

وقيل: المراد بالمدقع: فقر النفس الذي لا يرده ملك الدنيا بحذافيرها. قال الراغب<sup>(2)</sup>: هذا هو الذي استعاذ منه النبي ﷺ. وقال: الفقر المستعاذ منه: هو الفقر المدقع الذي يفضي بصاحبه إلى كفران نعم الله تعالى وإلى التكفف والتذلل. والمدقع: الملتصق بالدقعاء وهي التراب ذلاً. قاله العلقمي.

وقال أعرابي: أحسن الأحوال: حال يغطك بها من دونك، ولا يحقرك بها من فوقك. تنمة: قال الغزالي: الضرورة: مطعم وملبس ومسكن والباقي فضول فالضرورة من المطعم ما يقيم صلبك، ويسد رمقك واقصد به التقوى على الطاعة واقتصر في اليوم والليلة بمرة بما لا يزيد على ثلث البطن ولا تطلب اللذائذ. بل اقنع بما اتفق فإن قدرت على هذا وأسقطت عنك مؤنة الشهوات أمكنك ألا تأكل إلا من حله، فإن الحلال يعز، ولا يفي بالشهوات. وأما ملبسك فما يدفع الحر والبرد وستر العورة فكل ما دفع البرد عن رأسك ولو قلنسوة بدائق فطلبك غيره فضول منك يضيع زمانك، ويلزمك الشغل الدائم في تحصيله بالكسب مرة، والطمع أخرى من الحرام. فإن لم تكف بهذا كنت ممن لا يملأ بطنه إلا التراب. وكذلك المسكن إن اكتفيت بمقصوده؛ كفاك السماء سقفا والأرض مستقراً فإن غلبك حر أو برد فالمسجد وإلا فبيت يمنع من الأبصار والأمطار لتفرغ لله والتزود لآخرتك. والاستعداد لخاتمتك وإن جاوزت حد الضرورة إلى أودية الأماني؛ تشعبت همومك ولم يبالي الله في أي واد أهلكك. انتهى<sup>(3)</sup>.

(<sup>1</sup>) انظر الاحياء: (323/1).

(<sup>2</sup>) هو الراغب الاصفهاني الحسين بن محمد بن الفضل أبو القاسم الاصفهاني، المعروف بالراغب، أديب من الحكماء العلماء، سكن بغداد واشتهر حتى كان يقرن بالإمام الغزالي. توفي 502هـ. انظر كشف الظنون: (36/1).

(<sup>3</sup>) انظر الاحياء: (179/4).

وقال صاحب تحفة الملوك: الأكل على ثلاثة أنواع: فرض: وهو ما يدفع به الهلك ويمكن معه الصلاة قائما. ومباح: وهو أدنى الشبع ويحاسب به حسابا يسيرا إن كان من حلال. وحرام: وهو ما زاد على ذلك إلا صوم أو موافقة ضيف، أو كان من أصحاب الأعمال الشاقة؛ كالحراث والحصاد والغراس. والفاعل.

ومن أخلاق السلف: استحيائهم من كثرة تردهم إلى الخلاء لأجل كثرة الأكل. وكان عبد الرحمن بن أبي نعيم لا يأكل إلا بعد خمسة عشر يوما فدعاه الحجاج ووضعه في بيت وأغلق عليه الباب خمسة عشر يوما ثم فتحه فإذا هو قائم يصلي. وكان عبد الله بن الزبير يطوي الأسبوع فلا يأكل إلا يوم السبت. وقال أبو سليمان الداراني<sup>(1)</sup>: أحلى ما تكون العبادة إلسي إذا ألصقت بطني بظهري. فإن الحكمة كالعروس تطلب البيت الخالي تنام فيه لتخلو بصاحبها. وقال الحسن: لا تجمعوا بين إدامين، فإنه طعام المنافقين. وكان أبو عفان المغربي؛ يأكل في كل ستة أشهر مرة.

قال الشعراني: سمعت سيدي عليا المرصفي يقول: وقع لسيدي عيسى بن نجم أنه مكث سبع عشرة سنة لا يأكل ولا يشرب ولا ينام وهو على وضوء واحد<sup>(2)</sup>. وكان سهل التستري يقسم عقله وقوته ومعرفته إلى سبعة أجزاء؛ فلا يأكل حتى يذهب من كل واحد ستة أجزاء. ويقول: لولا أني أخاف الهلاك لكنت لا أأكل حتى تفنى السبعة أجزاء<sup>(3)</sup>.

وكان سيدي علي الخواص لا يجاوز تسع لقم، ويقول: قال رسول الله ﷺ: «حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه<sup>(1)</sup>» واللقيمات من الثلاث إلى التسع فمن آمن به الإيمان الكامل كفته التسع لقم، ومن لم يكتف بها لم يؤمن بقوله ﷺ.

(1) هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي المدحجي، أبو سليمان الداراني، زاهد مشهور من أهل داريا (بغوفة دمشق) رحل إلى بغداد وأقام بها مدة. ثم عاد إلى الشام وتوفي ببلده سنة 215هـ. انظر وفيات الأعيان: (217/1).

(2) انظر الطبقات للشعراني: (335/1).

(3) انظر هذا الكلام من بدايته: "ومن أخلاق السلف..." في كتاب تنبيه المغترين للشعراني: (132).



إن قيل: ما ذكرتم من طي أكثر من ثلاثة أيام لم يفعله ﷺ، وأنتم قیدتم بالجوع الشرعي، فما وجه الزيادة؟ فالجواب: أنه ﷺ كان رحمة على أمته، وكان يقول: «قدروا الناس بأضعفهم، مع أنه ﷺ كان يواصل الصوم. ويحتمل أن هؤلاء الذين جاعوا نصف شهر وأكثر كانوا من الورثة له في ذلك. ويحتمل لهيه عن الوصال على من لم يطلق ذلك، فنهاه أن يعذب نفسه حتى تصير تكره عبادة ربما.

وقال بعض المحققين: إن أحدهم يتناول نحو الزبيبة والرطوبة ونحو القطرة من الماء ليخرج عن الوصال المنهي عنه. وذلك هو الظن. ثم قال: (والغني الشاكر) وشكره أن يفرح بنعمة الله تعالى عليه ويشكر ربه، وأن يمسك قدر الضرورة من ماله ولا يستعمله في المعصية. ولا يستعمل الفاضل في التنعم المباح بل يصرفه إلى الخيرات. (أفضل من الفقير الصابر) لحديث الصحيحين: «ذهب أهل الدثور بالأجور»<sup>(2)</sup>... الحديث. وحديث: «المكثرون هم المقلون إلا من قال بالمال: هكذا وهكذا»<sup>(3)</sup>. وحديث سعد: «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة»<sup>(4)</sup>. وحديث: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»<sup>(5)</sup>.

والحاصل: أنهما محتان يختبر بهما العبد في الشكر والصبر، وأنهما متقابلان لما يعرض لكل منهما من العوارض فيمدح أو يذم.

والفقر عند الصوفية: نفض اليد من الدنيا ضبطا وطلباً مدحاً وذمّاً ولأن في الأول احتمال ألم في صرف الفاضل إلى الفقراء وترك صرفه إلى التنعم المباح. وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين أفضل من شيء واحد وأن الجملة أعلى رتبة من البعض.

(1) أخرجه ابن حبان (2/449 ، رقم 674) ، والبيهقي في شعب الإيمان (5/28 ، رقم 5649)

(2) أخرجه ابن عساكر (53/297)

(3) أخرجه البعاري (5/2366 ، رقم 6078) ، ومسلم (2/688 ، رقم 94) .

(4) أخرجه مالك (2/763 ، رقم 1456) ، والطيالسي (ص 27 ، رقم 195)

(5) تقدم غريبه.

وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية بل يصرفه إلى التمتع المباح؛ فالصبر هنا أفضل من الشكر والفقر الصابر أفضل من الغني المسك ماله الصارف له إلى المباحات، لا من الغني الصارف له إلى الخيرات؛ لأن الفقير الصابر قد جاهد نفسه وكسر لهمته وأحسن الرضى على بلاء الله تعالى. والغني تبع لهمته وأطاع شهوته. ولكنه اقتصر على المباح وفي الحلال مندوحة عن الحرام أيضا وهذا المعنى عنا الجنيد بأن الفقير الصابر أفضل. قال: لأن الغني تصحبه فيما عليه أشياء تلائم نفسه وتمتعها وتلذذها، والفقير تصحبه فيما عليه أشياء تؤلم نفسه وتقضبها وتزعجها فكان الذي ألم نفسه وأزعجها أتم حالا ممن متعها ونعمها. ويقال: كان أبو العباس ابن عطاء الله رحمه الله خالفه في ذلك، وقال: الغني الشاكر أفضل فدعا عليه الجنيد فأصابه بلاء من قتل أولاده وتلف ماله وزوال عقله أربع عشرة سنة فكان يقول: دعوة الجنيد أصابتنى، ورجع إلى تفضيل الفقير الصابر.

وإن احتج على فضل الغني بقوله تعالى: ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾... الآية. أجبت بأن الآية حجة لفضل الفقير لأن بكاءهم ومشاهدتهم تقصيرهم لمشاهدة عظيم الربوبية عليهم حتى كأنهم مسيئون حتى يبشرهم الله بأنهم محسنون ولو كان بكاءهم وحزنهم على الدنيا لزموا. وأيضا: شاركوا رسول الله ﷺ في قوله: ﴿لَا أَجِدُ مَا أُحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ فمن كان برسول الله مقتديا فهو أفضل فإن الفقر شعار الأنبياء.

وقيل لرسول الله ﷺ: أرأيت أشياء نشتيهها ولا نقدر عليها هل لنا فيها أجر؟ قال: فقيم توجرون إذا لم توجروا فيها.

وفي حاشية علي الأجهوري<sup>(1)</sup> على الرسالة: أن الغنى ما زاد على المحتاج إليه وهل المراد: في يوم أو سنة؟ والظاهر الأول أي يعتبر كل يوم على حدته فإذا كان عنده في يوم زيادة على المحتاج في الآخر دونه كان غنيا في اليوم الأول دون الثاني. وهكذا. ومعنى كون الغني أفضل وعكسه: أن ثواب الغني على أعماله الصالحة أكثر من ثواب

(1) تقدمت ترجمته.

الفقر عليها. ويحتمل أن حسنات الغني أكثر من حسات الفقير. ومهما لاحظت ما ذكرنا علمت أن لكل واحد من القولين وجهها في بعض الأحوال فرب فقير صابر أفضل من غني شاكراً كما سبق، ورب غني شاكراً أفضل من فقير صابر. وهو المراد في المتن وهو الغني الذي يرى نفسه مثل الفقير. إذ لا يملك لنفسه من ماله إلا قدر الضرورة والباقي يصرفه إلى الخيرات أو يمسكه على اعتقاده أنه من المحتاجين والمساكين. ثم إذا صرف لم يصرف إلى طلب الجاه والصيت ولا لتقليد منة بل أداء لحق الله تعالى في تفقد عباده فهذا أفضل.

فإن قلت: فهذا لا يثقل على النفس والفقير يثقل عليه الفقر لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذلك يستشعر ألم الصبر وإن كان متألماً بفراق المال فينجبر ذلك بلذته في القدرة. فاعلم أن الذي نراه أن الذي ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس؛ أكمل حالاً ممن ينفقه وهو بخيل به وإنما يقطع عن نفسه قهراً فإيلام النفس ليس مطلوباً لعينه بل لتأديبها، وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد والكلب المؤدب: أكمل من الكلب المحتاج إلى الضرب. وإن كان صابراً على الضرب ولذلك يحتاج إلى الإيلام والمجاهدة في البداية ولا يحتاج إليها في النهاية. بل النهاية أن يكون ما كان مؤلماً في حقه لذياً عنده كما يصير التعلم عند الصبي العاقل لذياً، وقد كان مؤلماً له أولاً. قاله الغزالي<sup>(1)</sup>. بخ.

فائدة: إنما كان الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر؛ لأن الغني هو الذي ختم به أمره ﷺ وهو كان دائم الترقى في الكمالات فلولا أنه أفضل لما ختم له به. قيل: محل الخلاف في غير الفقر مع الرضى، وأما هو فأفضل قطعاً، وفيه نظر؛ لأن النبي ﷺ في ابتداء أمره مع فقره على غاية من الرضى لم يصل إليها غيره. ومع ذلك لم يختم له إلا بالغنى مع الشكر. قاله الهيثمي<sup>(2)</sup>.

(1) انظر الاحياء: (141/4).

(2) انظر شرح ابن حجر الهيتمي على الأربعين النووية: (206).

وإنما كان أفضل لحديث: «الطاعم الشاكر كالصائم الصابر»<sup>(1)</sup> ثم إن الخلاف المشهور بين الفقير الصابر والغني الشاكر محله فيما زاد علي الكفاف، وأما الكفاف فلا ملام على صاحبه كما تقدم. وأما الفقر عن مقدار الضرورة أيضا فإن ذلك يكاد أن يكون كفرا فلا خير فيه بوجه من الوجوه. وأما مثل غني عائشة رضي الله عنها أيضا الذي يستوي عندها الوجود والعدم فيكون الوجود مزيدا له، وتستفيد به أدعية الفقراء ونفعهم فليس من محل الخلاف. قاله الغزالي وغيره.

وقال سيدي محمد الشاذلي: تفاخر الغني والفقر، فقال الغني: أنا وصف الرب الكبير، فمن أنت يا حقير؟ فقال له الفقر: لولا وصفي ما تبين وصفك ولولا تواضعي ما رفع قدرك، وإن وصفي وسم بذل العبودية وأنت وصفك نازع الربوبية. قاله الشعراني في طبقات الأولياء<sup>(2)</sup>.

ومن حجة من يرجح الفقير الصابر حديث: «الفقراء يسبقون الناس إلى الجنة فيخرج إليهم منها ملائكة فيقولون: ارجعوا إلى الحساب، فيقولون: على ماذا نحاسب فوالله ما أفيضت علينا الأموال في الدنيا فنقبض فيها ونغسك وما كنا أمراء فنعدل ونجور ولكننا جاءنا أمر الله فعبدناه حتى أتانا اليقين. وحديث: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمس مائة عام نصف يوم منها مثل عام من أعوام الدنيا».

وبالجملة: فالفقير بالحقيقة العبد وإن كان له مال وإنما يكون غنيا إذا عول على مولاه ولم يتعلق بشيء سواه فإن تعلق بشيء من الدنيا باله ورأى أنه فقير إليه فهو عبده. وفي الحديث: «تعس عبد الدينار»<sup>(3)</sup>... الحديث. وهذا هو الفقير حقيقة، وعادته

<sup>(1)</sup> أخرجه أحمد (343/4 ، رقم 19036) ، والدارمي (130/2 ، رقم 2024) ، وابن ماجه (561/1 ، رقم 1765)  
<sup>(2)</sup> انظر الطبقات الكبرى: (1/288).

<sup>(3)</sup> جزء من حديث: "تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطى رضى وإن لم يعط سخط تعس وانتكس وإذا شيك فلا قش طوي لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشمت رأسه مغبرة قدماه إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن كان في الساقة كان الساقة إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع. أخرجه البخاري (1057/3 ، رقم 2730) ، وابن ماجه (1385/2 ، رقم 413).

الذي يقول: لا أبالي به إنما هو ضرورة العيش فإذا وجدتها فغيرها زيادة تشغل عن الإرادة فهو الغنى حقيقة. ففي الحديث: «ليس الغنى من كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس»<sup>(1)</sup>. قاله الثعالبي<sup>(2)</sup>.

وقال زروق: وللناس في الغنى الشاكر والفقير الصابر طريقان، والحق أن كلا منهما متضمن للآخر فلا تفاضل وقد اختار كلا منهما رسول الله ﷺ حيث قال: أجوع يوما وأشبع يوما وأطعم أيضا ألفا من صاع وشد الحجر على بطنه.

ومن حجة من رجع الفقر قول علي كرم الله وجهه: من رضي بالقليل من الرزق رضي الله منه بالقليل من العمل. وقول عمر رضي الله عنه من نُبل الفقر أنك لا تجد أحدا يعصي الله ليفتقر وأخذه محمود الوراق<sup>(3)</sup> فقال:

يَا عَائِبَ الْفَقْرِ أَلَا تَزْدَجِرُ عَيْبُ الْغِنَى أَكْبَرُ لَوْ تَعْتَبِرُ  
مِنْ شَرَفِ الْفَقْرِ وَمِنْ فَضْلِهِ عَلَى الْغِنَى إِنْ صَحَّ مِنْكَ النَّظَرُ  
أَنْكَ تَعْصِي لِتَنَالِ الْغِنَى وَلَسْتَ تَعْصِي اللَّهَ كَيْ تَفْتَقِرَ  
ثم قال: (وَكُنْ عِنْدَ أَخَذِ الْقُوَّةِ) منها (كَالْمُضْطَرِّ لِلْمَيْتَةِ) وهو لا بد أن يكون كارها غير متنعم بها ولا تكن رغبتك في أخذ القوة أكثر من رغبتك في قضاء الحاجة إذ لا فرق بين إدخال الطعام في البطن وإخراجه منه فهما ضرورتان في الجبلة وكما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي تشغل بها قلبك فلا ينبغي أن يكون الطعام من همتك. واعلم أنه إن كانت همتك إلى ما يدخل بطنك فقيمتك ما يخرج منه. (و) كن (فِيهَا كَالْغَرِيبِ الْمُسَافِرِ) لحديث: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»<sup>(4)</sup>.

وقال علي كرم الله وجهه: الدنيا كمركب يسير بأهله وهم نيام. والحديث: «ليكن

(1) أخرجه أبو يعلى (404/5 ، رقم 3079) ، والطبراني في الأوسط (203/7 ، رقم 7274)

(2) انظر تفسير الثعالبي: (270/4).

(3) تقدمت ترجمته.

(4) أخرجه البغاري (2358/5 ، رقم 6053) . وأخرجه أيضا : ابن حبان (471/2 ، رقم 698)

بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب<sup>(1)</sup>». وقيل للشافعي: ما بالك تمشي على عصا ولست بكبير ولا ضعيف؟ قال: لأعلم أني مسافر، فإن العصا من آلة السفر. قال الشاعر:

حَمَلْتُ الْعَصَا لَا الضُّعْفُ أَوْجَبَ حَمْلَهَا عَلَيَّ وَلَا أَنِّي تَحْتَيْتُ مِنْ كِبَرٍ  
وَلَكِنِّي أَلَزَمْتُ نَفْسِي حَمْلَهَا لِأَعْلَمَهَا أَنِّي مُقِيمٌ عَلَى السَّفَرِ  
وقال الشافعي: من شهد الضعف من نفسه نال الاستقامة. فحق للعبد أن يرى نفسه في الدنيا غريباً فإن الغريب يدور مع السلامة ويعامل بالإنصاف، ويعمل لدار قرار ويأخذ في مرضاة رب المنزل ولا ينازع أحداً في داره هذا وغريبته في السجن كما قال: (الْمَسْجُونُ) لأن الدنيا سجن المؤمن. وأعظم أعماله في السجن: الصبر، وكظم الغيظ كما قاله عبد الله بن المبارك<sup>(2)</sup>. أشار إلى حديث: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر<sup>(3)</sup>».

قال القاضي ابن المطيب<sup>(4)</sup>: هذا بالإضافة إلى ما يصير إليه كل واحد منهما في الآخرة. وقيل: المعنى: إنما سجن المؤمن؛ لأنها موضع تبعه في الطاعات. ولقي القاضي أبو بكر بن فورك<sup>(5)</sup> يوماً يهودياً رث الثياب والقاضي متجمل في اللباس وقال له اليهودي: يا شيخ سمعتكم تروون عن نبيكم: «الدنيا سجن المؤمن وجنة

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) أخرجه أحمد (323/2)، رقم (8272)، ومسلم (2272/4)، رقم (2956)، والترمذي (562/4)، رقم (2324).

(4) هو الصديق بن علي بن محمد بن علي القاضي الفقي العلامة رضي الدين المطيب الزبيدي الحنفي ولد عبد الرحمن ويعرف بابن المطيب. مات في سحر يوم الثلاثاء سادس عشرين رمضان سنة ثلاث وتسعين، وكان بارعاً في العربية والمعاني والبيان والشطرنج والأصناف والتفسير والفقه. ولي قضاء الحنفية بيزيد بل كان ولي بها قضاء الأقضية بحيث كان الشافعية فيها من نوابه في أيام علي بن طاهر ودرس وأقرأ سيما العربية، ومن أخذ عنه حمزة الناشري وبالجملة فكان رئيس الحنفية ورأسهم وإليه مرجعهم. انظر الضوء اللامع: (2/186).

(5) هو محمد بن الحسن بن فورك الانصاري الأصبهاني، أبو بكر: واعظ عالم بالاصول والكلام، من فقهاء الشافعية. سمع بالبصرة وبغداد. وحدث ببغداد، وبنى فيها مدرسة. وتوفي على مقربة منها، فنقل إليها. له كتب كثيرة منها (مشكل الحديث وغيره - ط) و (النظامي - خ) في أصول الدين، ألفه لنظام الملك، و (الحدود - خ) في الأصول، وأسماء الرجال - خ) و (التفسر - خ). توفي 406هـ. انظر الوفيات: (482/1).

الكافر» فكيف تكون الدنيا سجنك وهذا حالك؟ وكيف تكون الدنيا جنتي وهذه حالتي؟ فقال له القاضي: إن الذي أنا فيه بالنظر إلى الجنة سجن لي، وأما ما أنت فيه من الحال بالنظر إلى عذاب النار جنة لك فأسلم اليهودي.

وأتى المؤلف بعبارة بديعة وإشارة لطيفة؛ مشيراً إلى حديثين بقوله: "كالفريب المسافر المسجون"؛ الأول: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل». والثاني: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر».

وشبه في الأول السالك الناسك بالغريب الذي ليس له مسكن يأويه. ثم ترقى وأضرب عنه إلى عابر سبيل؛ لأن الغريب قد يسكن في بلد الغربة بخلاف عابر السبيل القاصد لبلد شاسع، وبينهما أودية مردية، ومفاوز مهلكة وقطاع طريق. فإن من شأنه ألا يقيم لحظة فهو دائم السير إلى بلد الإقامة. والمعنى: لا تركز إلى الدنيا ولا تتخذها وطنًا ولا تحدث نفسك بالبقاء فيها، ولا تتعلق منها بما لا يتعلق به الغريب في غير وطنه. والمرء في الدنيا كعبد أرسله سيده في حاجة إلى غير بلده فشأنه أن يبادر بفعل ما أمر به، ثم يعود إلى وطنه، ولا يعلق قلبه بشيء من بلد الغربة ويترل نفسه في بلد الغربة مترلة المسجون والمسجون لا يري ما يسره، وينتظر أسباب الهلاك ثم لا عزَّ للغريب إلا برب المنزل ولا راحة للمسجون إلا بخروجه، ولا راحة للمؤمن إلا بقاء ربه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ ومثال ذلك أيضا: من دخل دار ملك وعلم أنه يخرج منها لا محلة، فرأى وجها حسنا لا يخرج معه من الدار فذلك بلاء عليه؛ لأنه يورثه الأفس. بمنزل لا يمكنه المقام فيه، ولو أمكنه كان عليه في المقام خطرٌ من أن يطلع عليه الملك فيعذبه فإن أصابه ما يكره حتى نفره من المقام كان ذلك نعمة عليه، والدنيا دار نقمة قد دخلها الناس من باب الرحم، خارجون عنها من باب اللحد فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء وكل ما يزعج قلوبهم ويقطع أنسهم بها فهو نعمة.

## كدر الدنيا والبلاء فيها نعمة

وإلى ذلك أشار بقوله: (وَكَدَّرَهَا) قال في القاموس: كدر مثلثة الدال كدارةً وكدرًا محرّكة وكدورًا وكدورةً وكدرةً بضمهم واكدرًا اكدرارًا وتكدَّرَ: نقيض صفا. وهو أكدرٌ وكديرٌ وكذرٌ كفخذٍ وفخذٌ، وكديرٌ. والمراد به هنا الأنكاد والتغييرات والمحنات<sup>(1)</sup>، وذلك (كَالْبَلَاءِ) قال في النهاية: قال القتيبي: يقال: من الخير بليتته أبلية، ومن الشر بلوته أبلوه بلاء، والمعروف أن الابتلاء يكون في الخير والشر معاً، من غير فرق بين فعليهما<sup>(2)</sup>.

وقال في المصباح: قال أبو زيد: ما باليتُ به مبالاةً والاسم "البلاء" وزن كتاب، وهو الهم الذي تحدث به نفسك<sup>(3)</sup>.

والمراد بالبلاء هنا: كل ما في الجسم كالجذام والبرص والجذري وغيرها، وإن كان هو أعم من أن يكون بدنياً أو مالياً أو غيرهما. كما قاله زروق. (وَالْمَرَضِ وَالْفَقْرِ وَالْمُصِيبَةِ) في الأهل والقربات والإخوان بالموت والفقد والفراق والمرض. وفي المال بالذهاب، وفي النفس بالضرب والجرح والطعن فيه، والازدراء به وفي العرض بالغيبة، والكذب عليه وغير ذلك (نِعْمَةً) باطنة في طي نعمة، وفي معنى قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ قيل: ظاهرة: العوافي، وباطنة: البلايا لأنها نعمة الآخرة. فإن كل ما يصيب المؤمن فهو نعمة، كائناً ما كان فله الحمد على نعمه.

قال عمر بن عبد العزيز<sup>(4)</sup>: لو كانت الدنيا نعيماً بلا كدر لكانت هي الجنة ولم نحتاج إلى الانتقال منها. والنعمة: كل ما أنعم الله عليك به، وكذلك النعيم، والنعمى والنعماء بالمد في الفتح، والقصر في الضم.

(1) انظر القاموس المحيط: (602/1).

(2) انظر النهاية في غريب الأثر: (411/1).

(3) انظر المصباح المنير للمقري: (37/1).

(4) تقدمت ترجمته.



قال القشيري: وليس كل إنعامه تعالى انتظام أسباب الدنيا والتمكن منها، بل أُلطاف الله تعالى فيما زوّى من الدنيا أكثر فإن قرب العبد من الله تعالى على حسب تباعده من الدنيا.

قال في التنوير: وفي البلايا والفاقات من أسرار الألطاف؛ ما لا يفهمه إلا أولوا البصائر<sup>(1)</sup>. منها ما أشار إليه بقوله: (لأنّ من فَقْدَهُ) أي الكدر (سَكَنَ إِلَيْهَا فَتَصِيرُ جَنَّتُهُ) لما ورد أن «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»<sup>(2)</sup>.

وروي: أن فرعون مكث أربعمئة سنة لم يتصدع رأسه حتى سكن إلى الدنيا فادعى الربوبية ولو أخذ مرة لما ادعاها. (فَيَكْرَهُ لِقَاءَ اللَّهِ) بالموت. وفي الحديث: «من كره لقاء الله كره الله لقاءه»<sup>(3)</sup>.

فلا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا محبا لله تعالى ليكون محبا للقائه فمن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه فإن المصير إليه والقدوم عليه بالموت ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته، ومن فارق محبوبه اشتدت محنته وعذابه، فمهما كان الغالب على القلب حب الدنيا فالدنيا جنته، والجنة: عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب، فموته خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهي فلا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهي، وإذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه، فالدنيا وعلائقها شاغلة عن المحبوب، فالدنيا سجنه؛ لأن السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن السراح إلى محابه، فموته قدوم على محبوبه وخلّاص من السجن وتخلية بينه وبين محبوبه بلا مانع ولا مكدر. فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين.

ولا مطمع في إجابة هذا الدعاء إلا باكتساب حب الله تعالى. ولا سبيل إلى الحب إلا بإخراج حب غيره من القلب، وتقطيع العلائق عن كل شيء سوى الله تعالى من جاء

(1) انظر التنوير في إسقاط التدبير: (7).

(2) أخرجه مسلم (4/2272، رقم 2956)، والترمذي (4/562، رقم 2324) وقال: حسن صحيح

(3) أخرجه في كثر العمال 42799

ومال ووطن. والأولى أن يدعو: اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك واجعله أحب إلي من الماء البارد.

فإن غاية السعادة أن يموت العبد محبا لله. وإنما تحصل المحبة بالمعرفة وبإخراج حب الدنيا من القلب، حتى تصبح الدنيا كالسجن المانع من المحبوب.

ومن النعم التي في الكدر أيضا ما أشار إليه بقوله: (و) كدر الدنيا أيضا نعمة. (لأنَّ بِهِ الْإِضْطِرَّارَ وَالرُّجُوعَ إِلَيْهِ تَعَالَى كَرِهًا) وملازمة بابه بصدق اللجأ والافتقار يجد ذلك من نفسه كل من نزلت به بلية. وهذا هو أعظم فوائد البلايا.

قال في الحكم العطائية: من لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان قيد إليه بسلاسل الامتحان<sup>(1)</sup>.

وقال سيدي أبو مدين<sup>(2)</sup>: سنته تعالى استدعاء الخلق لعبادته بسعة الأرزاق ودوام المعافات ليرجعوا إليه بنعمته فإن لم يفعلوا ابتلاهم بالسراء والضراء لعلهم يرجعون. لأن مراده: رجوع العبد إليه طوعا أو كرها. انتهى.

وذلك في حق من أراد به العناية لا في حق من أراد به الغواية فإن ذلك حقه إقامة الحاجة عليه كما أنه صححه لغيره. فافهم! قاله زروق<sup>(3)</sup>.

والحاصل: أن أهل الله حال المحنة والحاجة يفرعون إلى الله ويلجئون إليه بالضراعة بين يديه علما منهم أنه لا ينجيهم إلا هو. ولهذا كان ﷺ إذا ناب عنه أمر فزع إلى الصلاة.

وكان المرسى إذا سأل إنسان في شفاعته يقول: أترى أن أنزل حاجتك بالله فإن قال: نعم قضيت، وإن أبى تركه. وأما غيرهم فيفزع إلى العوائد والأسباب ويقف بذا الباب وذا الباب فلم يزداهم ذلك إلا الحيرة. وإنما كان الاضطرار إلى الله نعمة. (لأنَّ أَفْضَلَ أحوالِ الْعَبْدِ حَالَةُ الدُّلِّ) والذل التباؤس والمسكنة. (وَالْإِضْطِرَّارُ) وهو تأكيد الاحتياج

(1) انظر شرح الحكم للأزهري: (64/1).

(2) تقدمت ترجمته.

(3) انظر شرح زروق على الحكم: (82).

واشتداده لأنها ترد العبد إلى مولاه بلا واسطة، وتقطعه عن الخلق إليه، وتعرفه بجلاله وقهره، وتسلبه عن دعواه ولأنها أيضا إخلاص محض والأعمال لا تخلوا من الشوائب، ولأنها إتيان الأمر من بابه وتوسل له بأسبابه. قال أبو يزيد<sup>(1)</sup>: قيل لي: خزاننا مملوءة بالخدمة، فإن أردتنا فعليك بالذلة والافتقار، ولأن فيها أيضا خاصية إجابة الدعاء قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ والاضطرار أخص أوصاف العبودية ولذا لم يطلب من العبد أجل منه.

وعن ابن وهب قال: كان رجل عبد الله تعالى سبعين عاما وهو صائم يفطر من سبت إلى سبت. فسأل الله حاجة فلم تقض فأقبل على نفسه وقال: من قبلك أوتيت ولو كان عندي خير قضيت حاجتك. فأنزل الله تعالى ملكا قال له: يا ابن آدم ساعتك التي أزريت فيها بنفسك خير من عبادتك التي مضت وقد قضيت حاجتك. وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: أما وعزتي وعظمتي لا ينتصر بي عبد من عبادي دون خلقي - أعلم ذلك من نيته - فتكيده السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهن إلا جعلت له منهن مخرجا.

سُبْحَانَ مَنْ لَا يَخِيبُ مَنْ قَصَدَهُ مَنْ قَصَدَ اللَّهَ صَادِقًا وَجَدَهُ  
قَدْ شَمِلَ الْخَلْقَ فَضْلُ نِعْمَتِهِ كُلُّ إِلَهٍ فَضْلُهُ يَمُدُّ يَدَهُ  
ومع حالة الذل أيضا تكون النصرة قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ قال أبو يزيد: رأيت الباري فقلت: يا رب ما أقرب ما يتقرب به إليك؟ قال: بما ليس من صفتي؛ الذلة والافتقار.

قال الشعراوي: أجمع مشايخ الطريق على أن من فيه صفتا الغنى والعز لا يمكن من دخول حضرة الصلاة أبدا فتقربنا إلى الحق إنما هو بتخلفنا بما ليس من صفته فانظر ما أعجب حضرة القرب! يطرد منها من تخلق بصفات مالکها التي لم يأذن فيها. قاله المناوي. واعلم أن حالة الذل والاضطرار؛ لا تنفع صاحبها إلا بالرضى، والقيام بحقوق الله

(1) تقدمت ترجمته.

المطلوبة في ذلك من عبادة وغيرها. والالتجاء إلى الله وإظهار ما هو فيه من فاقة وتحقيقها.

ومعنى إظهارها: أي من حيث احتياجه وافتقاره، لا من حيث ما يحتاج إليه. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ فذكر فقره لا حاجته، وذكر احتياجه لا مطلبه، فافهم!

ومعنى تحقيقها: تأكيدها في النفس حتى يكون ثبوتها مستشعرا في عموم الأوقات والحالات، وإلا فهي ثابتة لذاته. وقد عتب الله أقواما اضطروا إليه عند وجود أسباب إلجائهم فلما زالت الأسباب زال اضطرارهم. قال تعالى: ﴿إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَغْرَضْتُمُ الْإِنْسَانَ كِفُورًا﴾ الآية. ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ الآيتين. فالعبد لا يزاوله الاضطرار إلى ربه أبدا لا في الدنيا ولا في الآخرة ولو دخل الجنة إلا أنه غمس اضطراره في المنة التي أفرغت عليه ملابسها وهذا حكم الحقائق إذ لا يختلف حكمها في الغيب ولا في الشهادة، ولا في الدنيا ولا في الآخرة.

ولأجل كون حالة الاضطرار ذاتية للعبد كتب إبراهيم من أدهم<sup>(1)</sup> رقعة فيها:

أَنَا حَامِدٌ أَنَا شَاكِرٌ أَنَا ذَاكِرٌ كَر  
أَنَا ضَائِعٌ أَنَا جَائِعٌ أَنَا عَارِي أَرِي  
هِيَ سِتَّةٌ فَأَنَا الضَّمِينُ لِنَصْفِهَا فَهَا  
فَكُنِ الضَّمِينُ لِنَصْفِهَا يَا بَارِي أَرِي  
مَذْحِي لِغَيْرِكَ لَهْبُ نَارٍ خُضَّتْهَا هَا  
فَأَجِرْ عِبِيدَكَ مِنْ لَهَبِ النَّارِ رِي

قال زروق: الذي عندي أن ضمانه إنما وقع على الثلاث الأخيرة لكونها لازمة لوجوده لا للثلاث الأولى، إذ ليست بمقدوره إلا بتوفيق من ربه فضمانه لها دعوى. والله أعلم. ويشهد لذلك حديث: «يا عبادي كلكم جائع... إلخ».

(1) تقدمت ترجمته.

قال في التنوير: إنما خص الله تعالى الحيوان بالافتقار إلى التغذية دون غيره من الموجودات لأنه تعالى وهب الحيوان من صفاته ما لو تركه من غير فاقة لادعى الربوبية أو ادعى فيه ذلك فأراد الله الحق سبحانه وهو الحكيم الخبير أن يحوجه إلى مأكـل ومشرب وملبس وغير ذلك من أسباب الحاجة. لتكون أسباب الحاجة منه سبباً لخمود الدعوى منه أو فيه. ثم فسر الاضطراب المطلوب من العبد فقال: (وَهُوَ أَنْ لَا يَرَى) العبد ولا يتوهم (لِغْيَاثِهِ) مما هو فيه من الفقر والفاقة والحاجة والافتقار والاضطراب (حَوْلًا) ولا قوة (وَلَا سَبَبًا) من الأسباب يستند إليه أو (يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ) الاعتماد على الشيء حصر القوة فيه، بمعنى الاستناد إليه في تحصيل المقصود (إِلَّا مَوْلَاهُ) الكريم المغيث ولا يرى بينه وبين مولاه حسنة يستحق بها شيئاً ولا يقدم طاعته فيدعو على أثرها، بل يقدم افتقاره وعجزه وفاقته وقلة حيلته ثم يدعو فيقول: يا مولاي هب لي بلا شيء ولا علاقة، ويكون في عدم اعتماده على شيء سوى الله تعالى (كَالْقَرِيقِ) في البحر (وَالضَّلَالِ) في التيه والقفر فلا يرى لغياثة إلا مولاه ولا يرجو النجاة من هلكته أحدا سواه.

تبيين: الأول: قال في كتاب البركة: لا بأس أن يتوسل العبد إلى الله تعالى بما عمله من صالح خالص لله تعالى. قاله المناوي وغيره. دليـله حديث الثلاثة. ويتوسل أيضا بالأشخاص كتوسل عمر بالعباس رضي الله عنهما في استسقاؤه. وجاء الترغيب في دعاء المرء لأخيه بظهر الغيب وغيره. وقد روي عن مالك: لا يتوسل بمخلوق أصلا. وقيل: إلا برسول الله. قاله زروق.

قيل: لا يتوسل إلى الله إلا بنفسه لحديث: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك<sup>(1)</sup>»، إذ لا شيء أعظم من جاهه سبحانه. وقيل: يتوسل إلى الله بالمقطوع بفضيلته عند الله كالملائكة والأنبياء والأولياء. وقيل

(1) أخرجه الدارقطني في الأفراد كما في أطراف ابن طاهر (440/5 ، رقم 5986) . وأخرجه أيضا : أبو داود (232/1 ، رقم 879) ، والترمذي (524/5 ، رقم 3493) وقال : حسن . والنسائي (222/2 ، رقم 1130) .

لمالك: أتجوز بصاحب هذا القبر؟ يعني النبي ﷺ فقال للسائل: هل بينك وبين الله إلا هو؟ قلت: والوجهان جائزان عند ابن العربي<sup>(1)</sup>؛ إلا أن ترك التوسل بمخلوق أحسن.

الثاني: قد علمت أن العبد ملازم للافتقار إلى الله تعالى والعجز والنقص والعيب أبدا فوجب عليه أن يطلب ما يحتاج إليه دنيا وأخرى عند الأبواب التي فتحها الله تعالى لذلك بمحض اختياره لها إما عادة كالأطعمة والأشربة ونحوهما. وإما شرعا كالأعمال الصالحة فإذا وقف عند تلك الأبواب بصفة الذلة والمسكنة فلا يعتمد إلا على فضله تعالى لا عليها، ولا على الأبواب. والتزام الذلة والمسكنة: إنما هو لتحقيق الاعتماد على محض فضله تعالى لا لأجل أنهما يصلحان للاعتماد عليهما والإدلاء بهما على نيل غرضه، إذ هما من جملة الأبواب المخلوقة، والممكنات الناقصة التي لا تأثير لها في شيء البتة.

(وَأَدْنَاهَا) أي أحوال العبد: (حَالَةُ النَّظَرِ إِلَى النَّفْسِ، وَالِاسْتِنَادِ إِلَى الْغَيْرِ حَتَّى الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ) فالاعتماد على العمل من صفات الجاهلين لأنهم إذا وقعوا في زلة نقص بذلك رجاءهم كما أنهم إذا عملوا طاعة جعلوها من أقوى معتمد هم فيتعلقوا بالأسباب وحجبوا عن رب الأرباب.

والناس ثلاثة: رجل يزيده رجاءه بعمله، وينقص بزلله لاستشعاره حصول المراد بالعمل وفواته بالزلل فهذا معتمد على عمله ثم إن كان مستمرا فهو من العاملين وإن كان مقصرا فهو من الغافلين، ومقام هذا الإسلام. والثاني: رجل زاد شكره بعمله، وزاد التجاؤه بزلله لاستشعاره منة الله في العمل وفراره لمولاه في الزلل فهذا معتمد على مولاه راجع إليه في السراء بالحمد والشكر وفي الضراء بإظهار الفاقة والفقر، ومقام هذا الإيمان. والثالث: رجل أسلم نفسه لمولاه، فلم يزعجه ما به تولاه، بل شأنه السكون تحت جريان الأحكام، وفقد الاضطراب والالتزام، فلا يزيده رجاءه لعله ولا ينقص

(1) تقدمت ترجمته.

السبب، ولو وزنا لتعادلا في كل حال من أحواله وذلك لعدم اعتباره لأعماله، ومقام هذا الإحسان.

قال بعض المحققين: من بلغ إلى حقيقة الإسلام لم يقدر أن يفتر عن العمل، ومن بلغ إلى حقيقة الإيمان لم يقدر أن ينتفت إلى العمل ومن بلغ إلى حقيقة الإحسان: لم يقدر أن ينتفت إلى أحد سوى الله. ومن الاعتماد على العمل: استحلاء الطاعات (و) حتى الاستناد إلى الكرامة، و(الحال) من أحوال القلب؛ كالزهد والرضى والقناعة والصبر وغيرها أو هو انسكون إلى استحلاء ما يلاقيك به ربك من فنون تقريتك لأنه من القواطع، ومن استحلنى حالا، أو ساكن مقاما فقد استند له.

وقال عبد السلام بن مشيش<sup>(1)</sup>: شُكِرَ إلى الله من يرد الرضى والتسليم أي أخاف أن تشغني حلاؤكما عن الله تعالى.

وقال أبو العباس المرسى<sup>(2)</sup>: نظف حجاب عن نظيف؛ يعني السكون إليه والوقوف عنده وشدة الفرح به ونوّن رجلا خاصه كل ضائر وكل شجر؛ السلام عليك يا ولي الله فسكنت نفسه إلى ذلك كن في يديها أسيرا.

وعن أبي يزيد<sup>(3)</sup> حين وضع على أنواع عجائب، ووجه بسنى الرغائب، وكشف له عن المسكوت الأعشى فقبل له: هل استحسنت شيئا منها؟ فقال: لم أر شيئا استحسنته، فقبل له أنت عبدي حقا.

(ولئلا) أي ولأجل كون فضل أحوال بعد حانة النذل وأدناها حالة الاعتماد على الغير. (كَانَ ذَلِكَ الذُّئْبُ) وهو ما عصي الله تعالى به. أو ما يذم مرتكبه شرعا وترادفه:

(1) قدمت ترجمته.

(2) قدمت ترجمته.

(3) قدمت ترجمته.

المعصية والخطيئة والسيئة والجريمة. (و) ذل (الْبَلَاءِ) أعم من أن يكون بدنيا أو ماليا أو غيرهما، وذل الحرمان (خَيْرٌ مِنْ عِزِّ الطَّاعَةِ) والعافية (وَالْعَطَاءِ) من باب اللف والنشر المرتب إلا أن في كلامه احتباكا وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني وبالعكس فإنه أثبت في الأول البلاء وحذف نظيره وهو العافية في الثاني. وأثبت في الثاني العطاء وحذف نظيره وهو الحرمان في الأول.

قال سعيد بن جبير<sup>(1)</sup>: أعبد الناس: رجل اجترح من الذنوب ثم تاب فكلما ذكر ذنوبه احتقر عمله.

وقال مطرف<sup>(2)</sup>: لأن أبيت نائما وأصبح نادما أحب إلي من أن أبيت قائما وأصبح معجبا أرى نفسي على النائمين.

وقال أبو بكر الوراق: خضوع الفاسقين أفضل من صولة المطيعين.

وقال سيدي أبو جعفر بن حمدان بن سنان<sup>(3)</sup>: تكبر المطيعين على العصاة بطاعتهم شر من معاصيهم، وأضر عليهم منها، كما أن غفلة العبد عن توبة ذنب ارتكبه شر من ارتكابه. وقال: أنت تبغض العاصي بذنب واحد تظنه ولا تبغض نفسك بذنوب كثيرة تتيقنها. قاله الشعراني<sup>(4)</sup>.

وإنما كان كذا لأنه عند الطاعة معرض للنظر للنفس، واستعظام العمل والسكون إليه والعجب به والتصنع والكبر والعز، واحتقار من لم يعملها، وطلب العوض عليها فهذه

<sup>(1)</sup> تقدمت ترجمته.

<sup>(2)</sup> تقدمت ترجمته.

<sup>(3)</sup> هو أبو جعفر أحمد بن حمدان بن علي بن سنان من كبار مشايخ نيسابور صاحب أبا عثمان ولقي أبا حفص، وهو أحد الخائفين الورعين جاور بمكة في آخر عمره وعشرين سنة متوالية نعى بموت أبي بشر سنة سبع، وممانين، وثلاثمائة، وكان بمكة، وكان أوحداً مشايخ الحرم في وقته، ومات أبو جعفر بن حمدان سنة إحدى عشرة، وثلاثمائة. انظر الطبقات للشعراني: (103/1).

<sup>(4)</sup> انظر الطبقات الكبرى: (103/1).



ذنوب أحاطت بهذه الحسنة أحبطتها وأبطلتها، والكبر والعز من أوصاف الربوبية. والذنب يحمله على الاضطرار والافتقار والذل والاستكانة والخضوع والخوف والحدس. فهذه سيئة أحاطت بها حسنات وصفات عبودية تمحوها.

وقال سيدي أبو مدين<sup>(1)</sup>: انكسار العاصي خير من صولة المطيع.

وفي الحديث: «لولا أن الذنب خير من العجب ما خلى الله بين مؤمن وبين ذنب أبدا»... الحديث.

وكان سيدي أبو العباس المرسى<sup>(2)</sup> ربما دخل عليه المطيع فلا يئالي به لكبره بعمله ونظره إليه وإن دخل عليه عاص أكرمه لذلة معاصيه. وقال في إشارته: ﴿يُولِجُ النَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي يولج الطاعة في المعصية والمعصية في الطاعة. والروايات في هذا المعنى كثيرة، وانظر ابن عباد في شرح "معصية أورثت ذلاً".... إلخ<sup>(3)</sup>.

ثم قال: وإنما كان كدر الدنيا نعمة لمن وفقه الله تعالى لأن (فيه ضعف النفس) وذبولها وخروصها عن طلب حظوظها وذهاب قوتها.

ومن فوائد ضعف قوى النفس بتعاقب الأمراض والبلايا عليها: سهولة خروج الروح وخفة الترع والسكرات خلاف موت الفجأة كما يشاهد من اختلاف أحوال الموتى في الشدة واللين.

وفي الحديث: «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح هكذا وهكذا، فإذا سكنت اعتدلت. وكذلك المؤمن يكفأ بالبلايا. ومثل الكافر كمثل الأرزة صماء معتدلة

(1) تقدمت ترجمته.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) انظر شرح الحكم لابن عباد: (76).

حتى يقصمه الله أي لأن الكافر معافى غالبا ممتع بصحة جسمه كالأرززة الصماء حتى إذا أراد الله هلاكه قصمه لحينه على غرة وأخذه بغتة من غير لطف ولا رفق. فكان موته أشد عليه حسرة ومقاساة نزعته مع قوته وصحته أشد ألما وعذاب<sup>(1)</sup>». ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ وذلك عادة الله في أعدائه يفاجئهم بالموت على حال عتو وغفلة على غير استعداد بغتة ولهذا كره السلف موت الفجأة. وقال عليه السلام في رجل مات فجأة: «سبحان الله كأنه على غضب المحروم من حرم وصيته». وقال: «موت الفجأة راحة المؤمن وأخذة أسف للكافر» وذلك لأن الموت يأتي المؤمن مستعدا له غالبا منتظرا لحلوله فهان أمره إليه وأفضى إلى راحته. وهذا أيضا من فوائد البلايا والأمراض، وذلك لأنها نذير الموت فيستعد من أصابته للقاء ربه، ويعرض عن الدنيا الكثيرة الأنكاد، ويتعلق قلبه بالآخرة فيتصل من كل ما يخشى تباعته ويؤدي الحقوق إلى أهلها ويوصي. وقد طلب عليه السلام التنصل ممن كان له عليه حق ومكن من القصاص منه وأوصى بالثقلين: الكتاب والسنة. وبالأنصار. ودعا بكتب كتاب لثلاث تفضل أمته بعده. ثم رأى الإمساك عنه أفضل. صح من الشفا بتلفيق واختصار<sup>(2)</sup>.

وفي الحديث: «إن المؤمن إذا أصابه سقم ثم عوفي منه كان كفارة للماضي من ذنوبه وموعظة له فيما يستقبل. وإن المنافق إذا مرض وعوفي كان كالبعير عقله أهله ثم أرسلوه فلم يدر لم عقلوه ولم أرسلوه. (وَنَحْقِيرَهَا) وإيلاهما فكل ما أضعف النفس وآلها وأجهدا ونقصها، فهو محمود العاقبة. (و) في البلايا أيضا (الْمَنَع) للعبد (مِنَ الْمَعَاصِي) لأن بها تبطل صفاتها التي يقتضي وجودها وقوع العبد في المعاصي الظاهرة والباطنة، ويتأكد منه حب الدنيا والحرص على اتباع الهوى. وقد قيل: لا يخلو المؤمن من علة أو عيلة أو ذلة أو قلة.

(<sup>1</sup>) أخرجه ابن أبي شيبة (89/7، رقم 34412)، ومسلم (2163/4، رقم 2810)، والطبراني (94/19، رقم 185).

(<sup>2</sup>) انظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى لعباس: (210/2).

وفي الخبر عن الله تعالى: "الفقر سجنى والمرض قيدي أحبس بذلك من أحببته من عبادي". (وتكفيرها) لحديث: «ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى، ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله به خطاياها»<sup>(1)</sup>.

قال اللقاني في شرح الجوهرة: التكفير بالمصيبة واقع قطعاً سحقاً أم صبر إلا أنه إن صبر اجتمع له التكفير والأجر وإلا فالتسخط معصية أخرى. ثم قد تكون قدر السيئة التي كفرت بالمصيبة أو أقل أو أعظم بحسب كثرة التسخط وقتله، وعظم المصيبة وقتلها وصفرها. ولا يجوز أن يقال لمصاب: جعل الله لك مصيبتك كفارة؛ لأنها كفارة قطعاً. والدعاء بتحصيل الحاصل حرام لأنه قلة أدب معه تعالى بل يقال: اللهم عظم له الكفارة فإن تعظيمها لم يعلم ثبوته بخلاف أصل التكفير. انتهى.

وقال السنوسي: الصبر على أقسام: صبر على ما هو كسب للعبد؛ كالصبر على الأوامر وعن النواهي. فهذا يحصل فيه نيل المثوبات ورفع الدرجات. والصبر على ما ليس مكتسباً للعبد؛ كالأمراض والأحزان والهموم والمصيبة وغيرها. فهذا إنما يحصل فيه تكفير الذنوب فقط وإطلاق الثواب عليها تسامح باعتبار ما قارنها من الصبر والرضى؛ لأنه حصل عليها الثواب من حيث أنها مصيبة. والفرق: أن نيل المثوبات ورفع الدرجات يشترط فيه أن يكون مكتسباً للمكلف مأموراً به من جهة الشرع. فما ليس مأموراً به وإن كان مكتسباً كالأفعال المباحة فلا ثواب فيه وأحرى إن كان غير مأمور به ولا مكتسب كالأمراض ونحوها. وأما سبب التكفير فلا يشترط فيه شيء من ذلك بل قد يكون مكتسباً من باب الحسنات لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ وقد يكون غير مكتسب كالمصائب المؤلمة لحديث: «لا يصيب المؤمن وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر بها من ذنوبه»<sup>(2)</sup>. ولحديث: «مثل المريض إذا صح وبرئ من

(1) أخرجه ابن حبان (166/7 ، رقم 2905)

(2) أخرجه أيضاً: أحمد (81/3 ، رقم 11787) ، ومسلم (1992/4 ، رقم 2573) ، والبيهقي (373/3 ، رقم 6329)

مرضه كمثل البردة تقع من السماء في صفائها ولونها<sup>(1)</sup>»، ولحديث: «لا تسبن الحمى فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد<sup>(2)</sup>».

وعن عيسى ~~عليه السلام~~ أنه قال: لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله؛ لما يرجوه في ذلك من كفارة خطاياها.

وقيل: إن معنى «يُجِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ» أي من الآثام والذنوب بالأمراض والحمى.

قال ابن مسعود: لا يكتب للمريض أجر إنما الأجر في العمل ولكن تكفر به الخطايا.

قال السمرقندي: يعني: لا يكتب له بالمرض أجر ولكن يكتب له مثل عمله الذي كان يعمل إن كان الرجل محسنا وعجز عن العمل ويعلم الله تعالى أنه لو كان صحيحا لكان يعمل مثل ما كان يعمل وأنه يكتب له مثل ثواب تلك الأعمال ويكون المرض كفارة لذنوبه. يعني إذا تاب وإلا فلا يكفرها إذا نوى أنه إن صح عاد إلى مثل الحالة الخبيثة. انتهى.

ومن ذلك ما في مسلم وغيره: «من مات له ثلاثة من الولد كانوا له حجابا من النار قيل يا رسول الله؛ واثنان قال واثنان<sup>(3)</sup>».

قال القرافي: الحجاب راجع إلى معنى التكفير. أي تكفر المصيبة ذنوبا كان من شأنها أن يدخل بها النار فلما كفرت تلك الذنوب بطل دخول النار بسببها فصارت المصيبة كالحجاب المانع من دخول النار من جهة مجاز التشبيه. قال: واعلم أن التكفير في موت

<sup>(1)</sup> ذكره الحكيم (263/2)، وأخرجه الديلمي (143/4)، رقم (6331)، وابن عساكر (387/11) وأخرجه أيضا: الترمذي (411/4)، رقم (2086).

<sup>(2)</sup> أخرجه الطبراني (405/24)، رقم (984). قال المصنف (307/2): رجاله رجال الصحيح.

<sup>(3)</sup> أخرجه أحمد (306/3)، رقم (14324). والبخاري في الأدب المفرد (63/1)، رقم (146).

الأولاد ونحوهم؛ إنما هو بسبب الألم الداخل على القلب من فقد المحبوب فإن أكثر التكفير. وإن قل قل التكفير.

ولا جرم. يكون التكفير على قدر نفاسة الولد في صفاته ونفاسته في بره، وأحواله، فإن كان الولد مكروها يستبشر بفقده فلا كفارة بفقده البتة. قال: وإنما أطلق رسول الله ﷺ التكفير في موت الأولاد؛ بناء على الغالب أنه يؤلم فظهر لك بهذا الفرق بين المكفرات وأسباب المثوبات. انتهى وبالله تعالى التوفيق.

قال الشعراني من أخلاق السلف: عدم مبادرتهم إلى الدعاء بالشفاء إذا دخلوا على مريض بل يتربص أحدهم حتى يعلم سبب مرضه وانتهأؤه ثم يدعوا بعد ذلك. فإن المرض ربما كان رفع درجات، فلا ينبغي الدعاء برفعه. وكذلك إذا كان كفارة لذنبه فلا ينبغي الدعاء بدفعه. وكذلك القول فيه إذا كان عقوبة فالأولى أن يصبر العبد حتى تبلغ العقوبة حدها أدبا مع الله تعالى. وإن كان أحدهم له حال مع الله تعالى فله أن يسأله الشفاء من باب المنة والفضل. فاعلم ذلك فإنه نفيس! (1).

تمة: ومن ما يكفر الذنوب: الهموم والأحزان بطلب المعيشة وبالمباحات من حاجة الدنيا للفقراء. وأما الحزن على ما يفوت من قربات الآخرة فهو للمؤمنين درجات، وهو على حب الدنيا والجمع لها ولحرص عليها عقوبات.

وقال بعض السلف: كفى به ذنبا لا يستغفر منه حب الدنيا. وقال آخر: لو لم يكن للعبد من الذنوب إلا أنه يغتم بمصائب الدنيا، وما يفوته منها ما لا يغتم بفوت نصيبه من الآخرة والتزود لها.

(1) انظر تنبيه المغترين: (177).

وفي الحديث: «إِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُ الْعَبْدِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يُكَفِّرُهَا مِنَ الْعَمَلِ، ابْتَلَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْحُزْنِ لِيُكَفِّرَهَا عَنْهُ (1)».

ويقال: إن الهم الذي يعرض للقلب في وقت لا يعرف العبد سببه هو كفارة الهم بالخطايا. ويقال: حزن العقل عند تذكر الوقوف والمحاسبة لأجل جنایات الجسد فلزم العقل ذلك الهم وتظهر على العبد منه كآبة لا يعرف سبب همه. وكذلك إزراء العبد على نفسه ومقته لها عن معرفة بها وترك نظره وسكونه إلى خير إن ظهر عليها يكون من كفارات ذنوبه لأنه من تدبر الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾. (و) في كدر الدنيا أيضا (الإقبال) على الله تعالى و (عَلَى الْآخِرَةِ وَتَذَكُّرِهَا) أي تذكر الآخرة وتعرفك بجلال الله تعالى، وحقارة الدنيا ونفسك وتسليك من هواك وتشغلك عما لا يعني وتلجئك إلى الإخلاص في الدعاء (و) في كدر الدنيا أيضا (الْأَجْرُ إِنْ رَضِيَ) أي باعتبار ما قارنه من الرضى والتوكل والصبر والزهد في الدنيا وغيرها، لا أنه يحصل فيه الأجر من حيث أنه بلاء لأن شرط المأجور فيه أن يكون مكتسبا للمكلف وإطلاق الأجر عليه تسامح كما تقدم.

ففي الحديث: «إِنْ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يُوَدُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ جُلُودَهُمْ قَرِضَتْ بِالْمَقَارِيضِ لِمَا يَشَاهِدُونَ مِنْ ثَوَابِ أَهْلِ الْبَلَايَا (2)».

وفيه أيضا: «إِنْ اللَّهُ يَتَعَهَّدُ عَبْدَهُ بِالْبَلَايَا كَمَا يَتَعَهَّدُ الْوَالِدُ وَلَدَهُ».

وفيه: «يُوتَى بِأَهْلِ الْبَلَاءِ فَلَا يَنْصَبُ لَهُمْ مِيزَانٌ وَلَا يَنْشُرُ لَهُمْ دِيْوَانٌ وَيَصَبُ عَلَيْهِمُ الْأَجْرُ صَبَاً بِغَيْرِ حِسَابٍ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حتى يتمنى أهل العافية أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما ذهب به أهل البلايا من الفضل (1)».

(1) أخرجه أحمد (157/6 ، رقم 25275) قال المنذرى (146/4) : رواه ثقات.

(2) أخرجه الترمذى (603/4 ، رقم 2402) وقال : غريب . وأخرجه أيضا : البيهقى فى شعب الإيمان (180/7 ، رقم 9921) ، والطبرانى فى الصغير (156/1 ، رقم 241)

وليه: «إذا أحب الله عبدا ابتلاه فإن صبر اجتباه، وإن رضي اصطفاه»<sup>(2)</sup>.

وعن ابن عباس: حمى يوم تكفر ذنوب ثلاثين سنة.

وقال أبو هريرة: عليه السلام: ما وجع أحب إلي من الحمى؛ لأنها تعطي كل مفصل حقه وقسطه من الأجر بسبب عموم الوجع. وقال: المرض لا يدخله رياء ولا سمعة بل هو محض أجر.

وقد قسم الشيخ عبد القادر الجيلي المرض إلى ثلاثة أقسام: عقوبة: وهو ما صاحبه السخط. وكفارة: وهو ما صاحبه الصبر. ودرجة: وهو ما صاحبه الرضى وانسراح الصدر. قاله الشعراني في طبقات الأولياء<sup>(3)</sup>.

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود: أصبر على المؤنة حتى تأتيك من الله المعونة. ومات له ولد فحزن عليه داود حزنا شديدا فقبل له: ما كان يعدل عندك؟ قال: ملء الأرض ذهباً أنفقته في سبيل الله. قال الله عز وجل: "لك من الأجر مثل ذلك".

وقال محمد بن شقيق<sup>(4)</sup>: اشتريت بطيخة لأمي فسخطت فقلت: يا أماه؛ علام تسخطين؟ على بائعها أم على مشتريها أم على خالقها؟ فو الله إن خالقها لأحسن الخالقين، وإن البائع والمشتري ما أعطياك إلا ما قسم الله لك. فاستغفرت أُمي من ذلك وتابت.

(1) أخرجه الطبراني (182/12 ، رقم 12829) قال المهنسي (305/2) : فيه مجاعة بن الزبير وثقه أحمد وضعفه الدارقطني .

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (145/7 ، رقم 9788)

(3) انظر الطبقات الكبرى: (23/1).

(4) محمد بن شقيق بن ضبارة ابن مسعود بن حميد بن نصر بن الشماخ بن ضبارة بن فهيرة بن شقيق أبو الأسد اللخمي المؤدب ذكره أبو الحسين الرازي في تسمية من كتب عنه بدمشق وكان من أهل اللغة والنحو مات سنة ست وعشرين وثلاث مئة. انظر مختصر تاريخ دمشق: (305/1).

وقيل: لا يصف الله عبدا ولا يثني عليه حتى يتتليه فإن صبر فخرج من البلاء سليما مدحه ووصفه، وإلا بين له كذبه ودعواه.

وفيه: «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له<sup>(1)</sup>».

وفيه: «من يرد الله به خيرا يصب منه<sup>(2)</sup>».

وفيه: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحا<sup>(3)</sup>» كذا في البخاري. وفي رواية هشيم: «إذا كان العبد يعمل صالحا فشغله عن ذلك مرض أو غيره... الحديث.

وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعا «أن العبد إذا كان على طريقة حسنة من العبادة ثم مرض قيل للملك الموكل به: اكتب له مثل عمله إذا كان طلقا حتى أطلقه أو أكفته إلى<sup>(4)</sup>».

وفي رواية: «إن الله يكتب للمريض أفضل ما كان يعمل في صحته ما دام في وثاقه<sup>(5)</sup>».

وفي رواية: «ما من امرئ تكون له صلاة من الليل يغلبه عليها نوم أو وجع إلا كتب له أجر صلاته، وكان نومه عليه صدقة<sup>(6)</sup>».

وهذا كله في حق من كان يعمل طاعته فمنع منها وكانت نيته لولا المانع أن يدوم عليها.

(1) أخرجه أحمد (333/4 ، رقم 18959) ، ومسلم (2295/4 ، رقم 2999)

(2) أخرجه أحمد (237/2 ، رقم 7234) ، والبخاري (2138/5 ، رقم 5321)

(3) أخرجه البخاري (1092/3 ، رقم 2834) وابن حبان (191/7 ، رقم 2929)

(4) أخرجه أحمد (203/2 ، رقم 6895) قال الهيثمي (303/2) : إسناده صحيح

(5) أخرجه الخطيب (191/2)

(6) أخرجه أبو داود (34/2 ، رقم 1314) ، والنسائي (257/3 ، رقم 1784) ، والبيهقي (15/3 ، رقم 4499)



وفي بعض الأخبار: أن يونس قال لجبريل: دلي على أعبد أهل الأرض. فأتى به إلى رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه... إلى أن قال: قال جبريل: يا يونس: إن هذا طريق ليس يوصل إلى رضى الله بشيء أفضل منه.

وفيه: أنه ﷺ قال للرجل الذي قال له: أوصني. قال: «لا تتهم الله في شيء قضاه عليك<sup>(1)</sup>».

وعن أنس: أن الله خلق عباده صحيح وسقيم وغني وفقير. ومنهم من لو أسقمه لأفسده ذلك، ومنهم من لو أصححه لأفسده ذلك، ومنهم من لو أغناه لأفسده ذلك والله أعلم بمصالح عباده.

وعن أبي هريرة: «لا يزال البلاء بالمؤمن في نفسه وولده وماله حتى يلقي الله وما عليه خطيئة<sup>(2)</sup>».

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة<sup>(3)</sup>».

وفي حديث آخر: «إذا أحب الله عبدا ابتلاه ليعلم تضرعه<sup>(4)</sup>».

وعن لقمان: يا بني الذهب والفضة يختبران بالنار، والمؤمن يختبر بالبلاء.

وورد: أن من سعى لمريض في حاجته فقضاها غفر له. قيل له: يا رسول الله إن كان المريض من أهله؟ فقال: «ومن أعظم أجرا ممن سعى في حاجة أهل بيته؟». وأخبار الصالحين في البلاء ورضاهم بها، والتذاذهم بها كثيرة لا تحصى.

(1) أخرجه أحمد (318/5)، رقم (22769)

(2) أخرجه أحمد (450/2)، رقم (9810)، وهناد (238/1)، رقم (402)، وابن حبان (176/7)، رقم (2913)

(3) أخرجه الترمذي (601/4)، رقم (2396)، وقال: حسن غريب. والحاكم (651/4)، رقم (8799)

(4) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (145/7)، رقم (9788)، والديلمي (251/1)، رقم (970)

وعن بعض الصالحين أنه قال: لقد مرضت مرضة فأحببت أن لا تزول وبكى مطرف عند عمران بن حصين وهو مريض لما رأى من حاله. فقال له: لا تبك فإنه أحبه إلي حبه إلى الله تعالى. ثم قال: أحدثك بشيء لعل الله تعالى أن ينفعك به واكنتم علي حتى أموت إن الملائكة تزورني فأنس بها وتسلم علي فأسمع تسليمها.

وبلغ سويد بن شعبة<sup>(1)</sup> غاية في المرض فقال: ما يسرني أني نقصت من هذا قلامة ظفر.

وعن عبد الرحمن بن زيد<sup>(2)</sup>: أنه مر بعبد مقطوع بالجدام يسيل قيحا وصديدا، فقال له يا هذا: لو تعالجت؟ فرفع رأسه إلى السماء فقال: يا سيدي بأي ذنب سلطت علي هؤلاء ليسخطوني عليك ويكرهوك إلي. سيدي لك العتبي من ذلك الذنب وأستغفرك منه لا أعود فيه أبدا. ثم أعرض بوجهه فانصرفنا.

وعن بشر بن الحارث<sup>(3)</sup>: قال: رأيت رجلا قد قطعه البلاء فدعوت الله أن يكشف ما به فسمع دعائي فقال: من هذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربي ويعترض عليه في نعمته علي؟ قال بشر: فاعتقدت ألا أعترض على عبد في نعمة أراها عليه من البلاء.

وكان السلف يستوحشون إذا خرج عنهم عام لم يصابوا فيه بنقص من نفس أو مال. ويقال: لا يخلوا المؤمن في كل أربعين يوما أن يراع بروعة، أو يصاب بنكبة، وكانوا يكرهون فقد ذلك في هذا العدد أن يصابوا فيه بشيء. فهؤلاء شاهدوا في بلاياهم عاطاياهم وفي محنة منته، وفي عنفه لطفه، فوجب لهم ذلك من الرضى بما هم فيه والتنعم به والإلتذاذ ما حملهم على أن يحبوا زوال ذلك عنهم ولا نقصانه ووجود الألفاف والمنن

---

(1) سويد بن شعبة البزيعي من بني ثميم وكان من الذين اختطروا بالكوفة أيام عمر بن الخطاب. للمزيد من أخباره انظر صفوة الصفوة: (42/3).

(2) عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب العدوي القرشي: وال. كان من أم الرجال خلفة. روى الحديث عن أبيه وغيره، وروى عنه ابنه عبد الحميد وآخرون. وزوجه عمر بن الخطاب ابنته فاطمة. وولاه يزيد بن معاوية مكة سنة 63 هـ. انظر للزيادة في ترجمته: تهذيب التهذيب: (176/6).

(3) تقدمت ترجمته.

في البلاء لا تحصى.

وعن عطاء السلمي<sup>(1)</sup>: أنه بقي سبعا لم يذق طعاما فسر قلبه بذلك غاية السرور فقال: يا رب إن لم تطعمني ثلاثة أيام أخرى لأصلين لك ألف ركعة.

وعثرت امرأة فتح الموصلي فطار ظفرها فضحكت، فقيل لها: ألم تجدي ألم الظفر؟ فقالت بلي؛ ولكن ثواب ذلك ألهاني عن وجود الاشتغال بالألم.

وقال الفضيل<sup>(2)</sup>: إن الله ليوصل البلاء بعبد المومن فيترل عليه بلاء بعد بلاء حتى يمشي وليس عليه خطيئة.

وقال أبو سليمان الداراني<sup>(3)</sup>: مر موسى عليه السلام برجل قد مزقت السباع لحمه ونمشت بطنه فوقف موسى عليه السلام متعجبا فقال: يا رب إنه لمطيع لك فما الذي أرى؟ فأوحى الله تعالى إلى موسى إنه سألتني درجة لم يبلغها بعمله فابتليته لأبلغه تلك الدرجة، فقال أبو سليمان: سبحان الله؛ لو شاء الله لبلغه تلك الدرجة بلا بلوى ولكن سبحان الله الحليم العليم.

وقال الجنيد<sup>(4)</sup>: كنت نائما عند سري الشقطي فنبهني فقال لي: يا جنيد؛ رأيت كأني وقفت بين يديه فقال لي يا سري: خلقت الخلق فكلهم ادعوا محبتي فخلقت الدنيا فهرب مني تسعة أعشارهم وبقي معي العشر وخلقت الجنة فهرب مني تسعة أعشار العشر، وبقي معي عشر العشر فسلطت عليهم ذرة من البلاء فهرب مني تسعة أعشار عشر العشر فقلت للباقيين معي: لا الدنيا أردتم، ولا الجنة أردتم ولا من النار هربتم فما تريدون؟ قالوا إنك تعلم ما نريد فقلت: إني مسلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم مالا

(1) تقدمت ترجمته.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) تقدمت ترجمته.

(4) تقدمت ترجمته.

تقوم به الجبال أتصبرون؟ قالوا إذا كنت أنت المبتلي فافعل ما بدا لك فهو لاء عبادي حقا. انتهى.

قال في التنوير: إنما يُعينهم على حمل أقداره شهود حسن اختياره. وأنشدوا:  
وَحَفَفَ عَنِّي مَا أَلَاقِي مِنَ الْعَنَاءِ لِأَنَّكَ أَنْتَ الْمُبْتَلِي وَالْمُقَدَّرُ  
وَمَا لِأَمْرِي عَمَّا قَضَى اللَّهُ مَعْدُلٌ <sup>(1)</sup> وَلَيْسَ لَهُ مِنْهُ الَّذِي يَتَخَيَّرُ

وقال الأستاذ أبو علي: جربت مرة وكنت في صورة وحشة من ذلك ففتح علي قلبي شيء من الرضى فكنت ألتزم تلك القروح فخرجت ولم يبق منها أثر.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري <sup>(2)</sup>: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول في آخر عمره: وقد اشتدت به العلة: من أمارات التأييد حفظ التوحيد في أوقات الحكم ثم قال: كالمفسر لقوله مشيرا على ما كان فيه من حاله: هو أن يقرضك بمقاريض القدرة في إمضاء الأحكام قطعة قطعة وأنت ساكن جامد.

وفي الحديث: «إن الرجل لتكون له الدرجة في الجنة فلا يبلغها بشيء من عمله فيبتليه الله فيبلغ درجة لا يبلغها بعمله» <sup>(3)</sup>.

وفيه: «داء الأنبياء الفالج واللقوة» <sup>(4)</sup> ومن المفاليج - كما قال الجاحظ - سيدنا إدريس عليه السلام، وأكثر ما يعترى الفالج المتوسطين من الناس لأن الشباب كثير الحركة والشيخ كثير اليبس. رزقنا الله العافية في جميع الأمور ولطف بنا في جميع الأحوال وأعاننا على

<sup>(1)</sup> انظر التنوير في إسقاط التدبير: (6) والبيتان لابن عطاء الله.

<sup>(2)</sup> عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد. الإمام أبو القاسم القشيري، النيسابوري، الزاهد، الصوفي، شيخ خراسان، وأستاذ الجماعة، ومقدم الطائفة. قال الخطيب: كتبنا عنه وهو ثقة، وكان يعرف الأصول على مذهب الأشعري، والفروع على مذهب الشافعي. صنف التفسير، وهو من أجود التفاسير، والرسالة المشهورة في رجال الطريقة. وحج مع البيهقي، وأبي محمد الجويني. وكان له في الفروسة واستعمال السلاح يد بيضاء. وله عدة أولاد أئمة. عبد الله، وعبد الواحد، وعبد الرحيم، وعبد المنعم وغيرهم

<sup>(3)</sup> أخرجه الطبراني (323/22 ، رقم 813)

<sup>(4)</sup> أخرجه في فيض الباري في شرح صحيح البخاري: (215/3).

ما فيه رضاه بمنه وكرمه.

ولبعضهم سائلا العفو والعافية من الرب اللطيف:

يَا رَبِّ إِنْ كَانَ تَمْرِيطِي يُقَرِّبُنِي بِنِي إِلَيْكَ زُلْفَى فَبَابُ الْعَفْوِ أَوْسَعُ لِي ع  
أَوْ كَانَ مِنْ أَجْلِ تَكْفِيرِ الذُّنُوبِ فَلَا لِي  
فَلا يَحْتَاجُ عَفْوُكَ لِلْأَسْقَامِ وَالْعَلَلِ لَل

ومن دعاء سلام بن مطيع: اللهم إن كنت قد بلغت أحدا من عبادك الصالحين درجة  
بلاء، فبلغنيها بالعافية. قاله في المستطرف<sup>(1)</sup>.

قال الشعرائي: وإياك أن تقول كما قال بعض المحبين حين ابتلي: اللهم إن كان في هذا  
رضاك فزدني، فإن رجال البلاء هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وكان الشافعي به البواسير تنضح دما ليلا ونهارا حتى كان يجلس للحديث والطست  
تحت يقطر فيه الدم فقال يوما: اللهم إن كان في هذا رضاك فزدني منه فسمعه شيخه  
مسلم بن خالد الزنجي<sup>(2)</sup> فقال: مه يا محمد فتنسأل الله العافية، فأنا وأنت لسنا من  
رجال البلاء. واعتل علة شديدة فكان يقول: اللهم إن كان في هذا رضاك فزدني منه.  
فكتب إليه المعافري من سواد مصر: يا أبا عبد الله لست وإياك من أهل البلاء، فسل الله  
الرضى، والأولى بنا أن نسأل الرفق والعافية. فرجع الشافعي عن قوله هذا وقال: أستغفر  
الله وأتوب إليه. وكان بعد ذلك يقول اللهم اجعل لي خيرتي فيما أحببت.

وقال الثوري: أدركنا الناس وهم يخافون من الأمراض والبلايا خوف أن يقعوا في كراهة

(1) انظر المستطرف في كل فن مستظرف: (533/2).

(2) هو مسلم بن خالد بن مسلم بن سعيد القرشي المخزومي، مولاهم، المعروف بالزنجي: تابعي، من كبار الفقهاء. كان إمام أهل مكة. أصله من الشام. لقب بالزنجي لحرته، أو على الضد، لبياضه. وبه تفقه الإمام الشافعي قبل أن يلقى مالكا. وهو الذي أذن للشافعي بالافتاء. انظر تذكرة الحفاظ: (235/1).

قضاء الله تعالى عليهم. قال: فو الله لا أدري ماذا يقع مني فلعلي أكفر ولا ..

وقال الصديق عليه السلام: سلوا الله العافية فإن المؤمن لم يعط بعد الإيمان أفضل من العفو والعافية. وأيضاً سؤال البلاء فيه دعوى لمقام الصبر وكل مدع ممتحن.

ولما قال سمنون المحب<sup>(1)</sup>:

وَلَيْسَ لِي فِي سِرَاكَ حَظٌّ فَكَيْفَ مَا شِئْتُ فَاخْتَبِرْنِي

ابتلي بعسر البول؛ فصاح وصار يقول: أدعو لعمكم الكذاب<sup>(2)</sup>.

وقال أبو العباس المرسى<sup>(3)</sup>: لو قال عوض ما قال: فكيف ما شئت فاعف عني. لكان أولى من طلب الاختبار.

قال الشعرائي: إنما وقع الامتحان لسمنون لغفلته عن التبري من الدعوى، فلو قال: مدني بالقوة ثم اختبرني بما شئت.

وكان شيخنا يقول: إذا قيل لك أتخاف من الله، فقل: نعم. لكن بقدر ما خلقه الله في من الخوف وبقدر ما خلق عندي من الرجاء. وكذلك القول في الحب لله تعالى. فمن سلك ذلك لا يقع له امتحان لتعويله على الله؛ لا على قوة نفسه وقد قالوا كل مدع ممتحن. وهذا ميزانه. والله أعلم. انتهى<sup>(4)</sup>.

وقال ابن دريد<sup>(5)</sup> في قصيدته المعروفة:

(1) هو سمنون بن حمزة الخواص، أبو الحسن، أو أبو بكر: صوفي ناسك، من الشعراء. له مقطوعات في غاية الجودة. وهو من أهل البصرة. سكن بغداد وتوفي بها نحو 290هـ. انظر حلية الأولياء: (309/10).

(2) انظر التنوير لابن عطاء الله: (55).

(3) تقدمت ترجمته.

(4) انظر الطبقات الكبرى للشعرائي: (230/1).

(5) هو محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، من أزد عمان من قحطان، أبو بكر: من أئمة اللغة والأدب. كانوا يقولون: ابن دريد أشعر العلماء وأعلم الشعراء. وهو صاحب (المقصورة الدريدية - ط). ولد في البصرة، وانتقل إلى عمان فأقام اثني عشر عاماً، وعاد إلى

مارستُ مَنْ لَوْ هَوَتْ الْأَفلاكُ مِنْ (1) جَوَانِبِ الْجَوِّ عَلَيْهِ مَا شَكَ

قال تلميذه ابن البغدادى (2): إن الله عاقبه بقوله ذلك بفالج أبطل من مخرجه إلى قدميه فكان يصيح لذلك ويضج.

وفي البلايا أيضاً: يقع له خلف ما يفوته من الطاعات فيكتب له في مرضه مثل ما كان يعمل من ذلك في صحته، وذلك أبلغ في الوصول إلى غرضه، لأنه من اختيار الله تعالى وهو خير من اختياره لنفسه؛ لأن ما كان يفعله من الطاعات من له بتخليصه عن الشوائب وتصفيته من الآفات والمعائب؟ فليحسن العبد ظنه بمولاه وليعلم أن ما يختاره له خير مما يختاره لنفسه.

وفي الخبر: «يقول الله تعالى لملائكته: اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمل في صحته، فإنه في وثاقي إن أطلقته أبدلته لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه، وإن توفيته توفيته إلى رحمتي» (3).

قيل: أوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام: إني مبتليكَ، قال: يا رب: أين يكون القلب؟ قال: عندي، قال: يا رب فصب علي البلاء صبا، فلما بلغ البلاء منتهاه أوحى الله إليه؛ إني معافيك فقال: يا رب فأين يكون قلبي؟ قال عندك. قال: "مسي الضر وأنت أرحم الراحمين".

---

البصرة. ثم رحل إلى نواحي فارس، فقلده (آل ميكال) ديوان فارس، ومدحهم بقصيدته (المقصورة) ثم رجع إلى بغداد، واتصل بالمقتدر العباسي فأجرى عليه في كل شهر خمسين ديناراً، فأقام إلى أن توفى سنة 321هـ. انظر للزيادة: وفیات الاعيان: (497/1).

(1) من قصيدة له 256 بيتاً مطلعها:

يا ظبية أشبه شيءاً بآلها      نرعى الخزامى بين أشجار النقا

انظر ديوانه.

(2) عبد الله بن محمد من أهل قفصة، كان أبوه ظريفاً فلقب بالبغدادى؛ قال ابن رشي في الأئمة: وطريق ابن البغدادى في الشعر عارضة عن طرقات أهل العصر، لأنه كان جاهلي الرمي، ملوكي المنتمى، يخاله السامع فحلاً يهدر، أو أسداً (2) يزار، وله أمثال واستعارات على حدة من الكلام وفي جهة من البلاغة، وكانت له من عبد الله بن حسن مكانة (3)، ثم تغير عليه فداجاه إلى أن تخلص منه إلى مدينة صقلية، ثم ورد الحضرة، ثم انتقل إلى طرابلس الغرب، ثم انتقل إلى مصر سنة أربعمائة. وكانت له بمصر وقعات، فخرج منها متربحاً ثم عاد إلى الحضرة، ومات توفى سنة عشرين وأربعمائة، وقد قارب الستين. انظر فوات الوفيات: (227/2).

(3) أخرجه الخطيب (191/2)

وقال بعضهم: إذا أردت أن تعرف رضى الله عنك فانظر إلى رضاك عنه في البلوى وموافقتك لإرادته في لمصائب، فإن كنت راضيا عنه في البلوى وموافقا لإرادته فهو عنك راض لحديث: «من رضى فله الرضى ومن سخط فله السخط». (و) في كدر الدنيا أيضا (صَفَاءُ الْبَاطِنِ) من عيوبه؛ كحب الدنيا والكبر والرياء وقمع الهوى وغير ذلك. (و) فيه أيضا تحصل (طَاعَتُهُ) أي طاعة القلب وأعماله التي ذرة منها خير من أمثال الجبال وأعمال الجوارح وذلك مثل الصبر والرضى والزهد والتوكل. وفي الحديث: «ركعتان من رجل زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمد<sup>(1)</sup>».

وإلى ذلك أشار بقوله: (وَهِيَ أَفْضَلُ مِنْ طَاعَةِ الظَّاهِرِ لِأَنَّهَا) أي طاعة الباطن (أَشَقُّ عَلَى النَّفْسِ) قال في التتوير: وليس يدل على فهم العبد كثرة عمله، ولا مداومته على ورده، إنما يدل على فهمه، ونوره غناه بربه، وانحياشه إليه بقلبه، وتحرره من رق الطمع، وتحليه بحلية الورع.

وقال عبد الواحد بن زيد<sup>(2)</sup> لرجل تعبد خمسين سنة: حبيبي؛ أخبرني عنك هل قنعت به أم لا؟ قال: لا، قال: فهل آنست به؟ قال: لا. قال: فهل رضيت عنه؟ قال: لا؟ قال: فإنما مزيدك منه الصلاة والصوم؟ قال نعم. قال: لولا أنني استحيي منك لأخبرتكَ أن أعمالك خمسين سنة مدخولة.

قال أبو طالب المكي<sup>(3)</sup>: أراد بذلك: إنه لم يرفعك بأعمالك إلى مقامات المقربين فيوجدك مواجد العارفين فيكون مزيدك أعمال القلوب التي يستعمل بها كل محبوب مطلوب، لأن القناعة به حال الموقن والأنس به مقام المحب. والرضى: وصف المتوكل

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) تقدمت ترجمته.



إنما أنت عنده في طبقة أصحاب اليمين فمزيدك منه مزيد العموم من أعمال الجسوارح، فمن وفقه الله تعالى إلى منازل هذه المقامات وتوفية حقوقها في البلايا النازلة فقد حصل على كنوز البر. رزقنا الله العافية في جميع الأمور ولطف بنا في جميع الأحوال بمهنة. ومن مولانا اللطيف الخبير نسأل اللطف بنا في أحكام المقادير فإن لطف الجليل جل جلاله يصحب عباده بحسب الحاجة وعونه يأتيهم على قدر نزول الشدة، وغوثه يسرع إليهم على مراتبهم في الاضطراب ولما كان الروح يتقوت بالهواء ولا يصبر عنه ساعة كان الهواء أكثر الموجودات إمكانا، ولما كانت الحاجة إلى الماء شديدة والصبر عنه قليل؛ كان قريبا منه في الإمكان. فتأمل؛ لو كانا لا يؤخذان إلا بالثمن كالطعام؛ ما الحيلة؟ ولما كانت الحاجة إلى النار دون ذلك والقليل منها يكفي والكثير منها يضر كانت أقل إمكانا حتى أنما قل ما تكون إلا بالمعالجة، ومن تصفح ديدن الموجودات وجد هذا الفن من علومها كثيرا فالفواكه قليلة بالنسبة إلى القوت للاستضرار بعدم القوت. وأقل الجواهر وجودا ما لا تمس الحاجة إليه.

ولما كان المشي على الأقدام؛ كانت بشرتها أغلظ، والكف تحتاج إلى مباشرة الخشن فغلظت بشرتها بحسب الحاجة، ثم تدرج الغلظ في جميع البشرة على نحو ذلك حتى صارت بشرة الشفة أرقها إذ لا يياشرها إلا اللين.

ولما احتيج إلى كشف الوجه للمواجهة أعين على ألم الحر والبرد أكثر من سائر البدن. ومن العجب: أنه يتألم بأقل الخجل حتى يتصبب عرقا ثم يحتمل شدة البرد.

ولما كان المظلوم إلى النصر أحوج؛ كانت الإجابة إلى دعائه أسرع «اتقوا دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب»<sup>(1)</sup>.

(1) أخرجه أحمد (153/3)، رقم (12571)

ولما كان الصغير من الحيوان غير مستقل بنفسه استخدمت له الأم بقهر الشفقة بخلاف الكبير. فسبحان من عجزت العقول عن إدراك بعض لطائفه وقصرت الألسن عن شكر أقل عوارفه.

تمة: ومن فوائد المرض أيضا: أن القلم يرفع عن المريض، ويكتب له ما كان يعمل صحيحا، ويحمد الله لعوده فيكتب شاكرا ويغفر له إن شفي وإن مات دخل الجنة، وإن المرض يتبع كل خطيئة في المفاصل حتى يستخرجها وإن أئنه تسبيح وصياحه تهلل ونفسه صدقة ونومه عبادة وتقلبه من جنب إلى جنب جهاد، ثم إن احتسب مرضه مصيبة وصبر كتب في ديوان الصابرين، وإن احتسبه نعمة وشكر كتب في ديوان الشاكرين.

ومن آداب المرض: كتمه وإخفاؤه لما ورد: أن من كنوز الجنة كتمان الأمراض والمصائب والصدقة والرضى به والصبر ولا يتسخط ولا يضجر، وأداء الفرائض في أوقاتها ما استطاع ولا يشكو لأحد إلا الطبيب يطبه ولا يحدث به إلا أن يرى ذلك نعمة فيتحدث بنعمة الله، وأن يرى ذلك نعمة ليظهره من الذنوب وتذكرة من الله ووعظا، ويوصي لقربته لئلا يختم عمله بالمعصية.

يتحرون برا وبحرا والقذوة بهم أولى. قال تعالى: ﴿رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا تَبِعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ سَمَاءُهُمْ رجالا لما قاموا بالأسباب ولم يشتغلوا بها عن الذكر.

وفي الحديث: إنهم أثنوا عند النبي ﷺ على رجل بالعبادة فقال ﷺ: «فمن كان يطعمه ويسقيه ويعلف دابته ويكفيه ضيعته؟ قالوا: نحن يا رسول الله. قال: كلكم خير منه (1)». وقال أبو سليمان الداراني (2): ليس الشأن أن تصف قدميك للعبادة وغيرك يقوت لك، إنما الشأن أن تحرز رغيفك في بيتك ثم تُغْلِقَهُ وتصلي فلا تبالي بعد ذلك بأي داقٍ دقٍ عليك الباب، بخلاف من قام في بيته يصلي وليس عنده شيء يأكله فيصير كل داقٍ دقٍ الباب يقول إن معه رغيفا.

وقال الثوري: عليكم بالحرفة فإن عامة من أتى أبواب الأمراء إنما أتاها من الحاجة (3). وقال الفضيل: إذا افتقر أحدكم فلا يجعل فقره فيما بينه وبين الناس وليجعله فيما بينه وبين الله لئلا يهون في أعين الناس يحزن ويسوء بذلك الصديق ويسر بذلك العدو. وقال بعض السلف: وجدت خير الدنيا والآخرة في التقوى والغنى، وشر الدنيا والآخرة في الكفر والفقر. ول بعضهم:

وَلَمْ أَرْ بَعْدَ الدِّينِ خَيْرًا مِنَ الْغَنَى وَلَمْ أَرْ بَعْدَ الْكُفْرِ شَرًّا مِنَ الْفَقْرِ  
وقيل: إن كان شيء فوق الحياة فالصحة. وإن كان شيء مثلها فالغنى، وإن كان شيء فوق الموت فالمرض، وإن كان شيء مثله فالفقر. وقيل: القبر خير من الفقر. وأنشدوا:  
أَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ بَطَرِ الْغَنَى وَمِنْ نَهْكَةِ الْبُلُوَى وَمِنْ ذِلَّةِ الْفَقْرِ  
وقال مجاهد (4): الخير كله في القرآن: المال.

وقال السدي (1) وابن زيد (2): إن الحسنة في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ المال. وفي الآخرة حسنة: الجنة.

(1) رواه أبو داود في المراسيل: (306) عن أبي قلابة.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) انظر كلام الشعراني بكامله في تنبيه المغترين: (303).

(4) تقدمت ترجمته.

والحاصل: أن المال كالحية التي فيها سم نافع وترياق نافع فإن أصابها المعزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن سمها، وطريق استخراج ترياقها النافع، كانت نعمة وإلا فهي عليه هلاك وبلاء، وإن الجاه كالبحر الذي تحته أصناف الجواهر والآلي. فمن ظفر بها فهي نعمة، وإن خاضه جاهل هلك. وأكثر الناس جاهل بطريق الرقية لحية المال وبطريق الغوص في بحر الجاه فوجب تحذيرهم لئلا يهلكوا بسم المال قبل الوصول إلى ترياقه وبتمساح الجاه قبل العثور على جواهره فمن وفق ببصيرته وكمال معرفته فله أن يقرب منها متقيا داءها ومستخرجاً دواءها. ومن لا: فالبعد البعد والفرار الفرار عن مظان الأخصار ولا تعدل بالسلامة شيئاً.

## الكفّاف أفضل من الفقر والغنى

ثم قال: (وَالْكَفَّافُ فِيهَا) أي في الدنيا أي قدر الحاجة لا يفضل عنها.

قال النووي: هو الكفاية بلا زيادة ولا نقص. وقال أيضاً: هو ما يسد الرمق.

وقال القرطبي<sup>(3)</sup>: هو ما يكف عن الحاجات، ويدفع الضرورات والفاقات. ولا يلحق بأهل الترفهات. وقال أيضاً: هو ما يقوّمهم ويكفيهم بحيث لا يشوشهم الجهد، ولا ترهقهم الفاقة، ولا تذلهم المسالة والحاجة. ولا يكون في ذلك فضول يخرج إلى الترفه والتبسط في الدنيا والركون إليها.

وفي بعض الأخبار: أن علياً كرم الله وجهه قال: أربعة آلاف درهم فما دونها نفقة فما زاد عليها فهو كثر، وإن أدّيت زكاته.

وقال أبو ذر<sup>(4)</sup> وجماعة معه: ما فضل من مال الرجل عن حاجة نفسه فهو كثر.

(1) تقدمت ترجمته.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) تقدمت ترجمته.

(4) تقدمت ترجمته.

وقال الشعراي: الكفاف هو الذي يفضل عن الغداء والعشاء منه شيء. وصاحب الكفاف معدود من الفقراء؛ لأنه لا يترفه في طيبات الدنيا بل يجاهد نفسه في الصبر عن القدر الزائد على الكفاف فلم يفته من حال الفقراء إلا السلامة من قهر الحاجة وذل المسألة.

وفي الحديث: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما رزقه<sup>(1)</sup>».

معناه: من اتصف بتلك الصفات حصل على مطلوبه، وظفر بمغوبه في الدنيا والآخرة. وفيه: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا<sup>(2)</sup>». أي اكفهم من القوت مالا يرهقهم إلى ذل المسألة ولا يكون فيه فضول يبعث على الترفه والتبسط في الدنيا.

وذكر ابن رشد في البيان: أن الفقر أفضل من الكفاف لأن الفقير يؤجر من وجهين:  
-الصبر على الفقر مع الرضى والشكر.

والثاني: تصرفه فيما لا بد منه من نفقة نفسه، ومن تلزمه نفقته، فصاحب الكفاف إنما يؤجر على الشكر على الكفاف، وإن الغنى أفضل من الفقر؛ لأن الغنى يؤجر من وجوه؛ وهي الشكر والصبر على إعطاء الزكاة الواجبة والإنفاق على عياله<sup>(3)</sup>. (أَفْضَلُ مِنَ الْفَقْرِ وَالْغِنَى) لحديث: «اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا<sup>(4)</sup>» في هذا الحديث دليل على فضل الكفاف وأخذ البلغة من الدنيا والزهد فيما فوق ذلك رغبة في توفير نعيم الآخرة وإشارا لما يبقى على ما يفنى فينبغي أن تقتدي به أمته في ذلك. ومعلوم أنه ﷺ لا يسأل إلا أفضل الأحوال وأسنى المقامات والأعمال. ولحديث: «قد أفلح من أسلم وكان رزقه كفافا وقنعه الله بما رزقه<sup>(5)</sup>». ولحديث: «يا بن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن

(1) أخرجه أحمد (2/168 ، رقم 6572) ، ومسلم (2/730 ، رقم 1054)

(2) أخرجه البخاري (5/2372 ، رقم 6095) ، ومسلم (4/2281 ، رقم 1055)

(3) انظر البيان والتحصيل لابن رشد: ((109/17)).

(4) تقدم تخريجه.

(5) تقدم تخريجه.

تمسك شر لك ولا تلام على كفاف<sup>(1)</sup>». وحديث: «إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من الصلاة أحسن عبادة ربه، وأطاعه في السر والعلانية وكان غامضا في الناس لا يشار إليه بالأصابع وكان رزقه كفافا فصير على ذلك<sup>(2)</sup>»... الحديث. ولأن الكفاف أيضا حالة متوسطة.

وفي الحديث: «خير الأمور أوسطها<sup>(3)</sup>» ولأن حالة صاحبه أيضا حالة الفقير إذ لا يترفه في الطيبات. وكانت حاله إلى الفقر أقرب فقد حصل له ما حصل للفقير من الثواب على الصبر وكفي مرارته وآفاته. وعلى هذا فأهل الكفاف هم إن شاء الله صدر كتيبة الفقراء الداخلين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام. لأنهم وسطهم والوسط العدل. وليسوا من الأغنياء كما ذكرنا. وإذا تأملت هذا وجدت حالة الكفاف هي حالة أكثر الناس اليوم سيما أهل البادية. قاله الشعراي. ولأن في الكفاف أيضا السلامة من آفات الغنى والفقر. وفتنتيهما اللتين كان يتعوذ منهما النبي ﷺ.

أما آفات الغنى فقال الغزالي: هي الحرص على جمع المال حتى يكسبه من غير حله، ويمتنعه من واجبات إنفاقه. وقال البيضاوي: هي البطر والطغيان والتفاخر وصرف المال في المعاصي وما أشبهه كأخذه من الحرام وأن لا يؤدي حقه وأن يتكبر به.

وأما آفات الفقر فقال بعضهم: هي حسد الأغنياء والطمع في ما لهم والتذلل لهم بما يدنس به عرضه ويثلم به دينه وعدم الرضى بما قسم الله له إلى غير ذلك مما لا تحمد عاقبته. وأما قوله ﷺ: «كاد الفقر أن يكون كفرا<sup>(4)</sup>» فمعناه: أي قرب فقر اليد من المال والقلب لطلب الزيادة إذا لم يقارنه صبر أن يكفر العبد بربه عز وجل لما يصحبه في هذا الفقر من التسخط على الله عز وجل والاعتراض والتضجر، فيحمله ذلك على أمور محرمة ليحصل قوت نفسه وعياله فيفضي إلى الكفر، أو لا يشبع من الذي يعطى فيطلب

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (224/3)، رقم (3386)

(2) تقدم تخريجه

(3) تقدم تخريجه

(4) أخرجه أبو نعيم (53/3)

الزيادة ويستحل شيئاً من هذه المحرمات فيكفر لحديث صحيح.

وقال الغزالي: فتنة الفقر المراد به: الفقر المدقع الذي لا يصحبه خير ولا ورع حتى يتضرر صاحبه بسببه فيما يليق بأهل الدين والمروءة ولا يبالي بسبب فاقته على أي حرام وثب ولا في أي حالة تورط<sup>(1)</sup>.

وقيل: المراد بالمدقع: فقر النفس الذي لا يرده ملك الدنيا بحذافيرها. قال الراغب<sup>(2)</sup>: هذا هو الذي استعاذ منه النبي ﷺ. وقال: الفقر المستعاذ منه: هو الفقر المدقع الذي يفضي بصاحبه إلى كفران نعم الله تعالى وإلى التكفف والتذلل. والمدقع: الملتصق بالدقعاء وهي التراب ذلاً. قاله العلقمي.

وقال أعرابي: أحسن الأحوال: حال يغطك بها من دونك، ولا يحقرك بها من فوقك. تمة: قال الغزالي: الضرورة: مطعم وملبس ومسكن والباقي فضول فالضرورة من المطعم ما يقيم صلبك، ويسد رمقك واقصد به التقوى على الطاعة واقتصر في اليوم والليلة بمرة بما لا يزيد على ثلث البطن ولا تطلب اللذائذ. بل اقنع بما اتفق فإن قدرت على هذا وأسقطت عنك مؤنة الشهوات أمكنك ألا تأكل إلا من حله، فإن الحلال يعز، ولا يفي بالشهوات. وأما ملبسك فما يدفع الحر والبرد وستر العورة فكل ما دفع البرد عن رأسك ولو قلنسوة بدائق فطلبك غيره فضول منك يضيع زمانك، ويلزمك الشغل الدائم في تحصيله بالكسب مرة، والطمع أخرى من الحرام. فإن لم تكفف بهذا كنت ممن لا يملأ بطنه إلا التراب. وكذلك المسكن إن اكتفيت بمقصوده؛ كفاك السماء سقفا والأرض مستقراً فإن غلبك حر أو برد فالمسجد وإلا فبيت يمنع من الأبصار والأمطار لتفرغ لله والتزود لآخرتك. والاستعداد لخاتمتك وإن جاوزت حد الضرورة إلى أودية الأمان؛ تشعبت همومك ولم يبالي الله في أي واد أهلكك. انتهى<sup>(3)</sup>.

(1) انظر الاحياء: (323/1).

(2) هو الراغب الاصفهاني الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم الاصفهاني، المعروف بالراغب، أديب من الحكماء العلماء، سكن بغداد واشتهر حتى كان يقرن بالإمام الغزالي. توفي 502 هـ. انظر كشف الظنون: (36/1).

(3) انظر الاحياء: (179/4).

وقال صاحب تحفة الملوك: الأكل على ثلاثة أنواع: فرض: وهو ما يدفع به الهلك ويمكن معه الصلاة قائما. ومباح: وهو أدنى الشبع ويحاسب به حسابا يسيرا إن كان من حلال. وحرام: وهو ما زاد على ذلك إلا صوم أو موافقة ضيف، أو كان من أصحاب الأعمال الشاقة؛ كالحرّاث والحصّاد والغراس. والفاعل.

ومن أخلاق السلف: استحيائهم من كثرة تردهم إلى الخلاء لأجل كثرة الأكل. وكان عبد الرحمن بن أبي نعيم لا يأكل إلا بعد خمسة عشر يوما فدعاه الحجاج ووضعه في بيت وأغلق عليه الباب خمسة عشر يوما ثم فتحه فإذا هو قائم يصلي. وكان عبد الله بن الزبير يطوي الأسبوع فلا يأكل إلا يوم السبت. وقال أبو سليمان الداراني<sup>(1)</sup>: أحلى ما تكون العبادة إلسي إذا ألصقت بطني بظهري. فإن الحكمة كالعروس تطلب البيت الخالي تنام فيه لتخلو بصاحبها. وقال الحسن: لا تجمعوا بين إدامين، فإنه طعام المنافقين. وكان أبو عفان المغربي؛ يأكل في كل ستة أشهر مرة.

قال الشعرائي: سمعت سيدي عليا المرصفي يقول: وقع لسيدي عيسى بن نجم أنه مكث سبع عشرة سنة لا يأكل ولا يشرب ولا ينام وهو على وضوء واحد<sup>(2)</sup>. وكان سهل التستري يقسم عقله وقوته ومعرفته إلى سبعة أجزاء؛ فلا يأكل حتى يذهب من كل واحد ستة أجزاء. ويقول: لولا أي أخاف الهلاك لكنت لا أأكل حتى تفنى السبعة أجزاء<sup>(3)</sup>.

وكان سيدي علي الخواص لا يجاوز تسع لقم، ويقول: قال رسول الله ﷺ: «حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه<sup>(1)</sup>» واللقيمات من الثلاث إلى التسع فمن آمن به الإيمان الكامل كفته التسع لقم، ومن لم يكتف بها لم يؤمن بقوله ﷺ.

(1) هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي المدحجي، أبو سليمان الداراني، زاهد مشهور من أهل داريا (بغطة دمشق) رحل إلى بغداد وأقام بها مدة. ثم عاد إلى الشام وتوفي ببلده سنة 215هـ. انظر وفيات الأعيان: (217/1).

(2) انظر الطبقات للشعرائي: (335/1).

(3) انظر هذا الكلام من بدايته: "ومن أخلاق السلف..." في كتاب تنبيه المختبرين للشعرائي: (132).



إن قيل: ما ذكرتم من طي أكثر من ثلاثة أيام لم يفعله ﷺ، وأنتم قيستم بالجوع الشرعي، فما وجه الزيادة؟ فالجواب: أنه ﷺ كان رحمة على أمته، وكان يقول: «قدروا الناس بأضعفهم، مع أنه ﷺ كان يواصل الصوم. ويحتمل أن هؤلاء الذين جاعوا نصف شهر وأكثر كانوا من الورثة له في ذلك. ويحتمل نفيه عن الوصال على من لم يطق ذلك، فنهاه أن يعذب نفسه حتى يصير تكره عبادة ربها.

وقال بعض المحققين: إن أحدهم يتناول نحو الزبيبة والرطبة ونحو القطرة من الماء ليخرج عن الوصال المنهي عنه. وذلك هو الظن. ثم قال: (والغني الشاكر) وشكره أن يفرح بنعمة الله تعالى عليه ويشكر ربه، وأن يمسك قدر الضرورة من ماله ولا يستعمله في المعصية. ولا يستعمل الفاضل في التنعم المباح بل يصرفه إلى الخيرات. (أفضل من الفقير الصابر) لحديث الصحيحين: «ذهب أهل الدثور بالأجور»<sup>(2)</sup>... الحديث. وحديث: «المكثرون هم المقلون إلا من قال بالمال: هكذا وهكذا»<sup>(3)</sup>. وحديث سعد: «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة»<sup>(4)</sup>. وحديث: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»<sup>(5)</sup>.

والحاصل: أنهما محتان يختبر بهما العبد في الشكر والصبر، وأنهما متقابلان لما يعرض لكل منهما من العوارض فيمدح أو يذم.

والفقر عند الصوفية: نفذ اليد من الدنيا ضبطا وطلباً مدحاً وذماً ولأن في الأول احتمال ألم في صرف الفاضل إلى الفقراء وترك صرفه إلى التنعم المباح. وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين أفضل من شيء واحد وأن الجملة أعلى رتبة من البعض.

(1) أخرجه ابن حبان (2/449 ، رقم 674) ، والبيهقي في شعب الإيمان (5/28 ، رقم 5649)

(2) أخرجه ابن عساكر (53/297)

(3) أخرجه البخاري (5/2366 ، رقم 6078) ، ومسلم (2/688 ، رقم 94) .

(4) أخرجه مالك (2/763 ، رقم 1456) ، والطبراني (ص 27 ، رقم 195)

(5) تقدم تخرجه.

وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية بل يصرفه إلى التمتع المباح؛ فالصبر هنا أفضل من الشكر والفقر الصابر أفضل من الغني المسك ماله الصارف له إلى المباحات، لا من الغني الصارف له إلى الخيرات؛ لأن الفقير الصابر قد جاهد نفسه وكسر همته وأحسن الرضى على بلاء الله تعالى. والغني تبع همته وأطاع شهوته. ولكنه اقتصر على المباح وفي الحلال مندوحة عن الحرام أيضا وهذا المعنى عنا الجنيد بأن الفقير الصابر أفضل. قال: لأن الغني تصحبه فيما عليه أشياء تلائم نفسه وتمتعها وتلذذها، والفقير تصحبه فيما عليه أشياء تؤلم نفسه وتقبضها وتزعجها فكان الذي ألم نفسه وأزعجها أتم حالا ممن متعها ونعمها. ويقال: كان أبو العباس ابن عطاء الله رحمه الله خالفه في ذلك، وقال: الغني الشاكر أفضل فدعا عليه الجنيد فأصابه بلاء من قتل أولاده وتلف ماله وزوال عقله أربع عشرة سنة فكان يقول: دعوة الجنيد أصابتني، ورجع إلى تفضيل الفقير الصابر.

وإن احتج على فضل الغني بقوله تعالى: ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾... الآية. أجبت بأن الآية حجة لفضل الفقير لأن بكاءهم ومشاهدتهم تقصيرهم لمشاهدة عظيم الربوبية عليهم حتى كأنهم مسيئون حتى يبشرهم الله بأنهم محسنون ولو كان بكاءهم وحزنهم على الدنيا لدموا. وأيضا: شاركوا رسول الله ﷺ في قوله: ﴿لَا أَجِدُ مَا أُحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ فمن كان برسول الله مقتديا فهو أفضل فإن الفقر شعار الأنبياء.

وقيل لرسول الله ﷺ: أرأيت أشياء نشتهيها ولا نقدر عليها هل لنا فيها أجر؟ قال: ففيم توجرون إذا لم توجروا فيها.

وفي حاشية علي الأجهوري<sup>(1)</sup> على الرسالة: أن الغنى ما زاد على المحتاج إليه وهل المراد: في يوم أو سنة؟ والظاهر الأول أي يعتبر كل يوم على حدته فإذا كان عنده في يوم زيادة على المحتاج في الآخر دونه كان غنيا في اليوم الأول دون الثاني. وهكذا. ومعنى كون الغني أفضل وعكسه: أن ثواب الغني على أعماله الصالحة أكثر من ثواب

(1) تقدمت ترجمته.

الفقر عليها. ويحتمل أن حسنات الغني أكثر من حسات الفقير. ومهما لاحظت ما ذكرنا علمت أن لكل واحد من القولين وجهها في بعض الأحوال فرب فقير صابر أفضل من غني شاكراً كما سبق، ورب غني شاكراً أفضل من فقير صابر. وهو المراد في المتن وهو الغني الذي يرى نفسه مثل الفقير. إذ لا يملك لنفسه من ماله إلا قدر الضرورة والباقي يصرفه إلى الخيرات أو يمسكه على اعتقاده أنه من المحتاجين والمساكين. ثم إذا صرف لم يصرف إلى طلب الجاه والصيت ولا لتقليد منة بل أداء لحق الله تعالى في تفقد عباده فهذا أفضل.

فإن قلت: فهذا لا يثقل على النفس والفقير يثقل عليه الفقر لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذلك يستشعر ألم الصبر وإن كان متألماً بفراق المال فينجبر ذلك بلذته في القدرة. فاعلم أن الذي نراه أن الذي ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس؛ أكمل حالاً ممن ينفقه وهو بخيل به وإنما يقطع عنه نفسه قهراً فإيلام النفس ليس مطلوباً لعينه بل لتأديبها، وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد والكلب المؤدب: أكمل من الكلب المحتاج إلى الضرب. وإن كان صابراً على الضرب ولذلك يحتاج إلى الإيلام والمجاهدة في البداية ولا يحتاج إليها في النهاية. بل النهاية أن يكون ما كان مؤلماً في حقه لذذا عنده كما يصير التعلم عند الصبي العاقل لذذا، وقد كان مؤلماً له أولاً. قاله الغزالي<sup>(1)</sup>. بخ.

فائدة: إنما كان الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر؛ لأن الغني هو الذي ختم به أمره ﷺ وهو كان دائم الترقى في الكمالات فلولا أنه أفضل لما ختم له به. قيل: محل الخلاف في غير الفقر مع الرضى، وأما هو فأفضل قطعاً، وفيه نظر؛ لأن النبي ﷺ في ابتداء أمره مع فقره على غاية من الرضى لم يصل إليها غيره. ومع ذلك لم يختم له إلا بالغنى مع الشكر. قاله الهيثمي<sup>(2)</sup>.

(1) انظر الاحياء: (141/4).

(2) انظر شرح ابن حجر الهيتمي على الأربعين النووية: (206).

وإنما كان أفضل لحديث: «الطاعم الشاكر كالصائم الصابر»<sup>(1)</sup> ثم إن الخلاف المشهور بين الفقير الصابر والغني الشاكر محله فيما زاد علي الكفاف، وأما الكفاف فلا ملام علي صاحبه كما تقدم. وأما الفقر عن مقدار الضرورة أيضا فإن ذلك يكاد أن يكون كفرا فلا خير فيه بوجه من الوجوه. وأما مثل غني عائشة رضي الله عنها أيضا الذي يستوي عندها الوجود والعدم فيكون الوجود مزيدا له، وتستفيد به أدعية الفقراء ونفعهم فليس من محل الخلاف. قاله الغزالي وغيره.

وقال سيدي محمد الشاذلي: تفاخر الغني والفقر، فقال الغني: أنا وصف الرب الكبير، فمن أنت يا حقير؟ فقال له الفقر: لولا وصفي ما تبين وصفك ولولا تواضعي ما رفع قدرك، وإن وصفي وسم بذل العبودية وأنت وصفك نازع الربوبية. قاله الشعراني في طبقات الأولياء<sup>(2)</sup>.

ومن حجة من يرجح الفقير الصابر حديث: «الفقراء يسبقون الناس إلى الجنة فيخرج إليهم منها ملائكة فيقولون: ارجعوا إلى الحساب، فيقولون: على ماذا نحاسب فو الله ما أفيضت علينا الأموال في الدنيا فنقبض فيها ونمسك وما كنا أمراء فنعدل ونجور ولكننا جاءنا أمر الله فعبدناه حتى أتانا اليقين. وحديث: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمس مائة عام نصف يوم منها مثل عام من أعوام الدنيا».

وبالجملة: فالفقير بالحقيقة العبد وإن كان له مال وإنما يكون غنيا إذا عول علي مولاه ولم يتعلق بشيء سواه فإن تعلق بشيء من الدنيا باله ورأى أنه فقير إليه فهو عبده. وفي الحديث: «تعس عبد الدينار»<sup>(3)</sup>... الحديث. وهذا هو الفقير حقيقة، وعادمه

(1) أخرجه أحمد (4/343 ، رقم 19036) ، والدارمي (2/130 ، رقم 2024) ، وابن ماجه (1/561 ، رقم 1765)

(2) انظر الطبقات الكبرى: (1/288).

(3) جزء من حديث: "تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطى رضي وإن لم يعط سخط تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش طوي لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماء إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن كان في الساقة كان في الساقة إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع. أخرجه البخاري (3/1057 ، رقم 2730) ، وابن ماجه (2/1385 ، رقم 4135).

الذي يقول: لا أبالي به إنما هو ضرورة العيش فإذا وجدتها فغيرها زيادة تشغل عن الإرادة فهو الغنى حقيقة. ففي الحديث: «ليس الغنى من كثرة العرض إنما الغنى غنى النفس»<sup>(1)</sup>. قاله الثعالبي<sup>(2)</sup>.

وقال زروق: وللناس في الغنى الشاكر والفقير الصابر طريقان، والحق أن كلا منهما متضمن للآخر فلا تفاضل وقد اختار كلا منهما رسول الله ﷺ حيث قال: أجوع يوما وأشبع يوما وأطعم أيضا ألفا من صاع وشد الحجر على بطنه.

ومن حجة من رجع الفقر قول علي كرم الله وجهه: من رضي بالقليل من الرزق رضي الله منه بالقليل من العمل. وقول عمر رضي الله عنه من نُبل الفقر أنك لا تجد أحدا يعصي الله ليفتقر وأخذه محمود الوراق<sup>(3)</sup> فقال:

يَا عَائِبَ الْفَقْرِ أَلَا تَزْدَجِرُ عَيْبُ الْغِنَى أَكْبَرُ لَوْ تَعْتَبِرُ  
مِنْ شَرَفِ الْفَقْرِ وَمِنْ فَضْلِهِ عَلَى الْغِنَى إِنْ صَحَّ مِنْكَ النَّظَرُ  
أَنْتَ تَعْصِي لِتَنَالَ الْغِنَى وَلَسْتَ تَعْصِي اللَّهَ كَيْ تَفْتَقِرُ  
ثم قال: (وَكُنْ عِنْدَ أَخَذِ الْقُوَّةِ) منها (كَالْمُضْطَرِّ لِلْمَيْتَةِ) وهو لابد أن يكون كارها غير متنعم بها ولا تكن رغبتك في أخذ القوة أكثر من رغبتك في قضاء الحاجة إذ لا فرق بين إدخال الطعام في البطن وإخراجه منه فهما ضرورتان في الجبلة وكما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي تشغل بها قلبك فلا ينبغي أن يكون الطعام من همتك. واعلم أنه إن كانت همتك إلى ما يدخل بطنك فقيمتك ما يخرج منه. (و) كن (لِهَا كَالْغَرِيبِ الْمُسَافِرِ) لحديث: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»<sup>(4)</sup>.

وقال علي كرم الله وجهه: الدنيا كمركب يسر بأهله وهم نيام. ولحديث: «ليكن

(1) أخرجه أبو يعلى (404/5 ، رقم 3079) ، والطبراني في الأوسط (203/7 ، رقم 7274)

(2) انظر تفسير الثعالبي: (270/4).

(3) تقدمت ترجمته.

(4) أخرجه البخاري (2358/5 ، رقم 6053) . وأخرجه أيضا : ابن حبان (471/2 ، رقم 698)

بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب<sup>(1)</sup>». وقيل للشافعي: ما بالك تمشي على عصا ولست بكبير ولا ضعيف؟ قال: لأعلم أني مسافر، فإن العصا من آلة السفر. قال الشاعر:

حَمَلْتُ الْعَصَا لَا الضُّعْفُ أَوْجَبَ حَمْلَهَا عَلَيَّ وَلَا أَنِّي تَحَنَّيْتُ مِنْ كِبَرٍ  
وَلَكِنِّي أَلْزَمْتُ نَفْسِي حَمْلَهَا لِأَعْلَمَهَا أَنِّي مُقِيمٌ عَلَى السَّفَرِ  
وقال الشافعي: من شهد الضعف من نفسه نال الاستقامة. فحق للعبد أن يرى نفسه في الدنيا غريباً فإن الغريب يدور مع السلامة ويعامل بالإنصاف، ويعمل لدار قرار ويأخذ في مرضاة رب المنزل ولا ينازع أحداً في داره هذا وغريته في السجن كما قال: (الْمَسْجُونُ) لأن الدنيا سجن المؤمن. وأعظم أعماله في السجن: الصبر، وكظم الغيظ كما قاله عبد الله بن المبارك<sup>(2)</sup>. أشار إلى حديث: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر<sup>(3)</sup>».

قال القاضي ابن المطيب<sup>(4)</sup>: هذا بالإضافة إلى ما يصير إليه كل واحد منهما في الآخرة. وقيل: المعنى: إنها سجن المؤمن؛ لأنها موضع تبعه في الطاعات. ولقي القاضي أبو بكر بن فورك<sup>(5)</sup> يوماً يهودياً رث الثياب والقاضي متجمل في اللباس وقال له اليهودي: يا شيخ سمعتكم تروون عن نبيكم: «الدنيا سجن المؤمن وجنة

(1) تقدم تخريجه.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) أخرجه أحمد (323/2 ، رقم 8272) ، ومسلم (2272/4 ، رقم 2956) ، والترمذي (562/4 ، رقم 2324)

(4) هو الصديق بن علي بن محمد بن علي القاضي الفقي العلامة رضي الدين المطيب الزبيدي الحنفي والد عبد الرحمن ويعرف بابن المطيب. مات في سحر يوم الثلاثاء سادس عشرين رمضان سنة ثلاث وتسعين، وكان بارعاً في العربية والمعاني والبيان والمنطق والأصول والتفسير والفقه. ولي قضاء الحنفية بزييد بل كان ولي بها قضاء الأقضية بحيث كان الشافعية فيها من نوابه في أيام علي بن طاهر ودرس وأقرأ سيما العربية، ومن أخذ عنه حمزة الناشري وبالجملة فكان رئيس الحنفية ورأسهم وإليه مرجعهم. انظر الضوء اللامع: (2/186).

(5) هو محمد بن الحسن بن فورك الانصاري الأصبهاني، أبو بكر: واعظ عالم بالاصول والكلام، من فقهاء الشافعية. سمع بالبصرة وبغداد. وحدث ببغداد، وبنى فيها مدرسة. وتوفي على مقربة منها، فنقل إليها. له كتب كثيرة منها (مشكل الحديث وغريبه - ط) و (النظامي - خ) في أصول الدين، ألفه لنظام الملك، و (الحدود - خ) في الاصول، وأسماء الرجال - خ) و (التفسير - خ). توفي 406هـ. انظر الوفيات: (482/1).

الكافر» فكيف تكون الدنيا سجنك وهذا حالك؟ وكيف تكون الدنيا جنتي وهذه حالتي؟ فقال له القاضي: إن الذي أنا فيه بالنظر إلى الجنة سجن لي، وأما ما أنت فيه من الحال بالنظر إلى عذاب النار جنة لك فأسلم اليهودي.

وأتى المؤلف بعبارة بديعة وإشارة لطيفة؛ مشيراً إلى حديثين بقوله: "كالغريب المسافر المسجون"؛ الأول: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل». والثاني: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر».

وشبه في الأول السالك الناسك بالغريب الذي ليس له مسكن يأويه. ثم ترقى وأضرب عنه إلى عابر سبيل؛ لأن الغريب قد يسكن في بلد الغربة بخلاف عابر السبيل القاصد لبلد شاسع، وبينهما أودية مردية، ومفاوز مهلكة وقطاع طريق. فإن من شأنه ألا يقيم لحظة فهو دائم السير إلى بلد الإقامة. والمعنى: لا تركز إلى الدنيا ولا تتخذها وطنًا ولا تحدث نفسك بالبقاء فيها، ولا تتعلق منها بما لا يتعلق به الغريب في غير وطنه. والمرء في الدنيا كعبد أرسله سيده في حاجة إلى غير بلده فشأنه أن يبادر بفعل ما أمر به، ثم يعود إلى وطنه، ولا يعلق قلبه بشيء من بلد الغربة ويترل نفسه في بلد الغربة مترلة المسجون والمسجون لا يري ما يسره، وينتظر أسباب الهلاك ثم لا عز للغريب إلا برب المنزل ولا راحة للمسجون إلا بخروجه، ولا راحة للمؤمن إلا بقاء ربه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ ومثال ذلك أيضا: من دخل دار ملك وعلم أنه يخرج منها لا محلة، فرأى وجهها حسنا لا يخرج معه من الدار فذلك بلاء عليه؛ لأنه يورثه الأُنس بمنزل لا يمكنه المقام فيه، ولو أمكنه كان عليه في المقام خطرٌ من أن يطلع عليه الملك فيعذبه فإن أصابه ما يكره حتى نفره من المقام كان ذلك نعمة عليه، والدنيا دار نقمة قد دخلها الناس من باب الرحم، خارجون عنها من باب اللحد فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء وكل ما يزعج قلوبهم ويقطع أنسهم بها فهو نعمة.

## كدر الدنيا والبلاء فيها نعمة

وإلى ذلك أشار بقوله: (وَكَدَّرَهَا) قال في القاموس: كدر مثلثة الدال كدارةً وكدرًا محرّكة وكدورًا وكدورةً وكدرَةً بضمهم واكدرًا اكدرارًا وتكدَّرَ: نقيض صفا. وهو أكدرُ وكديرُ وكذر كفخذٍ وفخذ، وكديرٌ. والمراد به هنا الأنكاد والتغييرات والمخزّنات<sup>(1)</sup>، وذلك (كَآبِلَاءٍ) قال في النهاية: قال القتيبي: يقال: من الخير بليتة أبلية، ومن الشر بلوته أبلوه بلاء، والمعروف أن الابتلاء يكون في الخير والشر معاً، من غير فرق بين فعليهما<sup>(2)</sup>.

وقال في المصباح: قال أبو زيد: ما باليتُ به مبالاةً والاسم "البلاء" وزن كتاب، وهو الهم الذي تحدث به نفسك<sup>(3)</sup>.

والمراد بالبلاء هنا: كل ما في الجسم كالجذام والبرص والجذري وغيرها، وإن كان هو أعم من أن يكون بدنياً أو مالياً أو غيرهما. كما قاله زروق. (وَالْمَرَضُ وَالْفَقْرُ وَالْمُصِيبَةُ) في الأهل والقربات والإخوان بالموت والفقد والفراق والمرض. وفي المال بالذهاب، وفي النفس بالضرب والجرح والطعن فيه، والازدراء به وفي العرض بالغيبة، والكذب عليه وغير ذلك (نِعْمَةٌ) باطنة في طي نعمة، وفي معنى قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ قيل: ظاهرة: العوافي، وباطنة: البلايا لأنها نعمة الآخرة. فإن كل ما يصيب المؤمن فهو نعمة، كائناً ما كان فله الحمد على نعمه.

قال عمر بن عبد العزيز<sup>(4)</sup>: لو كانت الدنيا نعيماً بلا كدر لكانت هي الجنة ولم نحتاج إلى الانتقال منها. والنعمة: كل ما أنعم الله عليك به، وكذلك النعيم، والنعمى والنعماء بالمد في الفتح، والقصر في الضم.

(1) انظر القاموس المحيط: (602/1).

(2) انظر النهاية في غريب الأثر: (411/1).

(3) انظر المصباح المنير للمقري: (37/1).

(4) تقدمت ترجمته.



قال القشيري: وليس كل إنعامه تعالى انتظام أسباب الدنيا والتمكن منها، بل اللطاف الله تعالى فيما زوّى من الدنيا أكثر فإن قرب العبد من الله تعالى على حسب تباعده من الدنيا.

قال في التنوير: وفي البلايا والفاقات من أسرار الألطاف؛ ما لا يفهمه إلا أولوا البصائر<sup>(1)</sup>. منها ما أشار إليه بقوله: (لَأَنَّ مِنْ فَقْدِهِ) أي الكدر (سَكَنَ إِلَيْهَا فَتَصِيرُ جَنَّتُهُ) لما ورد أن «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»<sup>(2)</sup>.

وروي: أن فرعون مكث أربعمئة سنة لم يتصدع رأسه حتى سكن إلى الدنيا فادعى الربوبية ولو أخذ مرة لما ادعاها. (فَيَكْرَهُ لِقَاءَ اللَّهِ) بالموت. وفي الحديث: «من كره لقاء الله كره الله لقاءه»<sup>(3)</sup>.

فلا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا محبا لله تعالى ليكون محبا للقاءه فمن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه فإن المصير إليه والقُدوم عليه بالموت ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته، ومن فارق محبوبه اشتدت محنته وعذابه، فمهما كان الغالب على القلب حب الدنيا فالدنيا جنته، والجنة: عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب، فموته خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهي فلا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهي، وإذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه، فالدنيا وعلائقها شاغلة عن المحبوب، فالدنيا سجنه؛ لأن السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن السراح إلى محابه، فموته قدوم على محبوبه وخلّاص من السجن وتخليّة بينه وبين محبوبه بلا مانع ولا مكدر. فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين.

ولا مطمع في إجابة هذا الدعاء إلا باكتساب حب الله تعالى. ولا سبيل إلى الحب إلا بإخراج حب غيره من القلب، وتقطيع العلائق عن كل شيء سوى الله تعالى من جاءه

(1) انظر التنوير في إسقاط التدبير: (7).

(2) أخرجه مسلم (4/2272، رقم 2956)، والترمذي (4/562، رقم 2324) وقال: حسن صحيح

(3) أخرجه في كثر العمال 42799

ومال ووطن. والأولى أن يدعو: اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك واجعله أحب إلي من الماء البارد.

فإن غاية السعادة أن يموت العبد محبا لله. وإنما تحصل المحبة بالمعرفة وبإخراج حب الدنيا من القلب، حتى تصير الدنيا كالسجن المانع من المحبوب.

ومن النعم التي في الكدر أيضا ما أشار إليه بقوله: (و) كدر الدنيا أيضا نعمة. (لأنَّ بِهِ الْإِضْطِرَّارَ وَالرُّجُوعَ إِلَيْهِ تَعَالَى كَرِهًا) وملازمة بابه بصدق اللجأ والافتقار يجد ذلك من نفسه كل من نزلت به بلية. وهذا هو أعظم فوائد البلايا.

قال في الحكم العطائية: من لم يقبل على الله بملاطفات الإحسان قيد إليه بسلاسل الامتحان<sup>(1)</sup>.

وقال سيدي أبو مدين<sup>(2)</sup>: سنته تعالى استدعاء الخلق لعبادته بسعة الأرزاق ودوام المعافات ليرجعوا إليه بنعمته فإن لم يفعلوا ابتلاهم بالسراء والضراء لعلهم يرجعون. لأن مراده: رجوع العبد إليه طوعا أو كرها. انتهى.

وذلك في حق من أراد به العناية لا في حق من أراد به الغواية فإن ذلك حقه إقامة الحجة عليه كما أنه صححه لغيره. فافهم! قاله زروق<sup>(3)</sup>.

والحاصل: أن أهل الله حال المحنة والحاجة يفرعون إلى الله ويلجئون إليه بالضراعة بين يديه علما منهم أنه لا ينجيهم إلا هو. ولهذا كان ﷺ إذا ناب عنه أمر فزع إلى الصلاة.

وكان المرسى إذا سأله إنسان في شفاعته يقول: أترى أن أنزل حاجتك بالله فإن قال: نعم قضيت، وإن أبى تركه. وأما غيرهم فيفزع إلى العوائد والأسباب ويقف بذا الباب وذا الباب فلم يزداهم ذلك إلا الحيرة. وإنما كان الاضطرار إلى الله نعمة. (لأنَّ أَفْضَلَ أحوالِ الْعَبْدِ حَالَةَ الدُّلِّ) والذل التباؤس والمسكنة. (وَالْإِضْطِرَّارُ) وهو تأكيد الاحتياج

<sup>(1)</sup> انظر شرح الحكم للأزمهرى: (64/1).

<sup>(2)</sup> تقدمت ترجمته.

<sup>(3)</sup> انظر شرح زروق على الحكم: (82).

واشتداده لأنها ترد العبد إلى مولاه بلا واسطة، وتقطعه عن الخلق إليه، وتعرفه بجلاله وقهره، وتسلبه عن دعواه ولأنها أيضا إخلاص محض والأعمال لا تخلوا من الشوائب، ولأنها إتيان الأمر من بابه وتوسل له بأسبابه. قال أبو يزيد<sup>(1)</sup>: قيل لي: خزائننا مملوءة بالخدمة، فإن أردتنا فعليك بالذلة والافتقار، ولأن فيها أيضا خاصية إجابة الدعاء قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ والاضطرار أخص أوصاف العبودية ولذا لم يطلب من العبد أجل منه.

وعن ابن وهب قال: كان رجل عبد الله تعالى سبعين عاما وهو صائم يفطر من سبت إلى سبت. فسأل الله حاجة فلم تقض فأقبل على نفسه وقال: من قبلك أوتيت ولو كان عندي خير قضيت حاجتك. فأنزل الله تعالى ملكا قال له: يا ابن آدم ساعتك التي أزريت فيها بنفسك خير من عبادتك التي مضت وقد قضيت حاجتك. وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: أما وعزتي وعظمتي لا ينتصر بي عبد من عبادي دون خلقي - أعلم ذلك من نيته - فتكيده السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهن إلا جعلت له منهن مخرجا.

سُبْحَانَ مَنْ لَا يَحِيبُ مَنْ قَصَدَهُ مَنْ قَصَدَ اللَّهَ صَادِقًا وَجَدَهُ  
قَدْ شَمِلَ الْخَلْقَ فَضْلُ نِعْمَتِهِ كُلٌّ إِلَى فَضْلِهِ يُمْدُودُهُ  
ومع حالة الذل أيضا تكون النصرة قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ قال أبو يزيد: رأيت الباري فقلت: يا رب ما أقرب ما يتقرب به إليك؟ قال: بما ليس من صفتي؛ الذلة والافتقار.

قال الشعراوي: أجمع مشايخ الطريق على أن من فيه صفتا الغنى والعز لا يمكن من دخول حضرة الصلاة أبدا فتقربنا إلى الحق إنما هو بتخلفنا بما ليس من صفته فانظر ما أعجب حضرة القرب! يطرد منها من تخلق بصفات مالکها التي لم يأذن فيها. قاله المناوي. واعلم أن حالة الذل والاضطرار؛ لا تنفع صاحبها إلا بالرضى، والقيام بحقوق الله

(1) تقدمت ترجمته.

المطلوبة في ذلك من عبادة وغيرها. والالتجاء إلى الله وإظهار ما هو فيه من فاقة وتحقيقها.

ومعنى إظهارها: أي من حيث احتياجه وافتقاره، لا من حيث ما يحتاج إليه. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ فذكر فقره لا حاجته، وذكر احتياجه لا مطلبه، فافهم!

ومعنى تحقيقها: تأكيدها في النفس حتى يكون ثبوتها مستشعرا في عموم الأوقات والحالات، وإلا فهي ثابتة لذاته. وقد عتب الله أقواما اضطروا إليه عند وجود أسباب الجأهم فلما زالت الأسباب زال اضطرارهم. قال تعالى: ﴿إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ الآية. ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ﴾ الآيتين. فالعبد لا يزاوله الاضطرار إلى ربه أبدا لا في الدنيا ولا في الآخرة ولو دخل الجنة إلا أنه غمس اضطراره في المنة التي أفرغت عليه ملابسها وهذا حكم الحقائق إذ لا يختلف حكمها في الغيب ولا في الشهادة، ولا في الدنيا ولا في الآخرة.

ولأجل كون حالة الاضطرار ذاتية للعبد كتب إبراهيم من أدهم<sup>(1)</sup> رقعة فيها:

أَنَا حَامِدٌ أَنَا شَاكِرٌ أَنَا ذَاكِرٌ كَر  
هِيَ سِتَّةٌ فَأَنَا الضَّمِينُ لِنَصْفِهَا فَهَا  
فَكُنِ الضَّمِينُ لِنَصْفِهَا يَا بَارِي أَرِي  
مَذْحِي لِغَيْرِكَ لَهْبُ نَارٍ خُضَّتْهَا هَا  
فَأَجِرْ عُيْدَكَ مِنْ لَهَبِ النَّارِ رِي

قال زروق: الذي عندي أن ضمانه إنما وقع على الثلاث الأخيرة لكونها لازمة لوجوده لا للثلاث الأولى، إذ ليست بمقدوره إلا بتوفيق من ربه فضمانه لها دعوى. والله أعلم. ويشهد لذلك حديث: «يا عبادي كلكم جائع... إلخ.»

(1) تقدمت ترجمته.

قال في التنوير: إنما خص الله تعالى الحيوان بالافتقار إلى التغذية دون غيره من الموجودات لأنه تعالى وهب الحيوان من صفاته ما لو تركه من غير فاقة لادعى الربوبية أو ادعى فيه ذلك فأراد الله الحق سبحانه وهو الحكيم الخبير أن يوجهه إلى مأكّل ومشرب وملبس وغير ذلك من أسباب الحاجة. لتكون أسباب الحاجة منه سبباً لخمود الدعوى منه أو فيه. ثم فسر الاضطراب المطلوب من العبد فقال: (وَهُوَ أَنْ لَا يَرَى) العبد ولا يتوهم (لغياثه) مما هو فيه من الفقر والفاقة والحاجة والافتقار والاضطراب (حَوْلًا) ولا قوة (وَلَا سَبَبًا) من الأسباب يستند إليه أو (يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ) الاعتماد على الشيء حصر القوة فيه، بمعنى الاستناد إليه في تحصيل المقصود (إِلَّا مَوْلَاهُ) الكريم المغيث ولا يرى بينه وبين مولاه حسنة يستحق بها شيئاً ولا يقدم طاعته فيدعو على أثرها، بل يقدم افتقاره وعجزه وفاقته وقلة حيلته ثم يدعو فيقول: يا مولاي هب لي بلا شيء ولا علاقة، ويكون في عدم اعتماده على شيء سوى الله تعالى (كَالْقَرْيَقِ) في البحر (وَالضَّالِّ) في التيه والقفر فلا يرى لغياثه إلا مولاه ولا يرجو النجاة من هلكته أحدا سواه.

تنبيهان: الأول: قال في كتاب البركة: لا بأس أن يتوسل العبد إلى الله تعالى بما عمله من صالح خالص لله تعالى. قاله المناوي وغيره. دليله حديث الثلاثة. ويتوسل أيضا بالأشخاص كتوسل عمر بالعباس رضي الله عنهما في استسقاؤه. وجاء الترغيب في دعاء المرء لأخيه بظهر الغيب وغيره. وقد روي عن مالك: لا يتوسل بمخلوق أصلا. وقيل: إلا برسول الله. قاله زروق.

قيل: لا يتوسل إلى الله إلا بنفسه لحديث: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك<sup>(1)</sup>»، إذ لا شيء أعظم من جاهه سبحانه. وقيل: يتوسل إلى الله بالمقطوع بفضيلته عند الله كالملائكة والأنبياء والأولياء. وقيل

(1) أخرجه الدارقطني في الأفراد كما في أطراف ابن طاهر (440/5)، رقم (5986). وأخرجه أيضا: أبو داود (232/1)، رآ (879)، والترمذي (524/5)، رقم (3493) وقال: حسن. والنسائي (222/2)، رقم (1130).

لمالك: أتجوز بصاحب هذا القبر؟ يعني النبي ﷺ فقال للسائل: هل بينك وبين الله إلا هو؟ قلت: والوجهان جائزان عند ابن العربي<sup>(1)</sup>؛ إلا أن ترك التوسل بمخلوق أحسن.

الثاني: قد علمت أن العبد ملازم للافتقار إلى الله تعالى والعجز والنقص والعيب أبدا فوجب عليه أن يطلب ما يحتاج إليه دنيا وأخرى عند الأبواب التي فتحها الله تعالى لذلك بمحض اختياره لها إما عادة كالأطعمة والأشربة ونحوهما. وإما شرعا كالأعمال الصالحة فإذا وقف عند تلك الأبواب بصفة الذلة والمسكنة فلا يعتمد إلا على فضله تعالى لا عليها، ولا على الأبواب. والتزام الذلة والمسكنة: إنما هو لتحقيق الاعتماد على محض فضله تعالى لا لأجل أنهما يصلحان للاعتماد عليهما والإدلاء بهما على نيل غرضه، إذ هما من جملة الأبواب المخلوقة، والممكنات الناقصة التي لا تأثير لها في شيء البتة.

(وَأَذْنَاهَا) أي أحوال العبد: (حَالَةُ النَّظَرِ إِلَى النَّفْسِ، وَالِاسْتِنَادِ إِلَى الْغَيْرِ حَتَّى الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ) فالاعتماد على العمل من صفات الجاهلين لأنهم إذا وقعوا في زلة نقص بذلك رجائهم كما أنهم إذا عملوا طاعة جعلوها من أقوى معتمد هم فيتعلقوا بالأسباب وحجبوا عن رب الأرباب.

والناس ثلاثة: رجل يزيده رجاءه بعمله، وينقص بزلله لاستشعاره حصول المراد بالعمل وفواته بالزلل فهذا معتمد على عمله ثم إن كان مستمرا فهو من العاملين وإن كان مقصرا فهو من الغافلين، ومقام هذا الإسلام. والثاني: رجل زاد شكره بعمله، وزاد التجاؤه بزلله لاستشعاره منة الله في العمل وفراره لمولاه في الزلل فهذا معتمد على مولاه راجع إليه في السراء بالحمد والشكر وفي الضراء بإظهار الفاقة والفقر، ومقام هذا الإيمان. والثالث: رجل أسلم نفسه لمولاه، فلم يزعه ما به تولاه، بل شأنه السكون تحت جريان الأحكام، وفقد الاضطراب والاهتمام، فلا يزيده رجاءه لعله ولا ينقص

(1) تقدمت ترجمته.

لسبب، ولو وُزِنَا لتعادلا في كل حال من أحواله وذلك لعدم اعتباره لأعماله، ومقام هذا الإحسان.

قال بعض المحققين: من بلغ إلى حقيقة الإسلام لم يقدر أن يفتر عن العمل، ومن بلغ إلى حقيقة الإيمان؛ لم يقدر أن يلتفت إلى العمل ومن بلغ إلى حقيقة الإحسان؛ لم يقدر أن يلتفت إلى أحد سوى الله. ومن الاعتماد على العمل: استحلاء الطاعات (و) حتى الاستناد إلى الكرامة، و(الْحَالِ) من أحوال القلب؛ كالزهد والرضى والقناعة والصبر وغيرها أو هو السكون إلى استحلاء ما يلاقيك به ربك من فنون تقريتك لأنه من القواطع، ومن استحلى حالا، أو ساكن مقاما فقد استند له.

وقال عبد السلام بن مشيش<sup>(1)</sup>: أشكوا إلى الله من برد الرضى والتسليم أي أخاف أن تشغلني حلاوتهما عن الله تعالى.

وقال أبو العباس المرسى<sup>(2)</sup>: اللطف حجاب عن اللطيف؛ يعني السكون إليه والوقوف عنده وشدة الفرح به ولو أن رجلا خاطبه كل طائر وكل شجر؛ السلام عليك يا ولي الله فسكنت نفسه إلى ذلك كان في يديها أسيرا.

وعن أبي يزيد<sup>(3)</sup> حين اطلع على أنواع العجائب، ووجه بسنى الرغائب، وكشف له عن الملكوت الأعلى فقليل له: هل استحسنت شيئا منها؟ فقال: لم أر شيئا استحسنته، فقليل له أنت عبدي حقا.

(وَلِذَا) أي ولأجل كون أفضل أحوال العبد حالة الذل وأدناها حالة الاعتماد على الغير. (كَانَ ذَلِكَ الذُّبِّ) وهو ما عصي الله تعالى به. أو ما يذم مرتكبه شرعا وترادفه:

(<sup>1</sup>) تقدمت ترجمته.

(<sup>2</sup>) تقدمت ترجمته.

(<sup>3</sup>) تقدمت ترجمته.

المعصية والخطيئة والسيئة والجريمة. (و) ذل (البلاء) أعم من أن يكون بدنيا أو ماليا أو غيرهما، وذل الحرمان (خَيْرٌ مِنْ عِزِّ الطَّاعَةِ) والعافية (وَالْعَطَاءِ) من باب اللف والنشر المرتب إلا أن في كلامه احتباكا وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني وبالعكس فإنه أثبت في الأول البلاء وحذف نظيره وهو العافية في الثاني. وأثبت في الثاني العطاء وحذف نظيره وهو الحرمان في الأول.

قال سعيد بن جبير<sup>(1)</sup>: أعبد الناس: رجل اجترح من الذنوب ثم تاب فكلما ذكر ذنوبه احتقر عمله.

وقال مطرف<sup>(2)</sup>: لأن أبيت نائما وأصبح نادما أحب إلي من أن أبيت قائما وأصبح معجبا أرى نفسي على النائمين.

وقال أبو بكر الوراق: خضوع الفاسقين أفضل من صولة المطيعين.

وقال سيدي أبو جعفر بن حمدان بن سنان<sup>(3)</sup>: تكبر المطيعين على العصاة بطاعتهم شر من معاصيهم، وأضر عليهم منها، كما أن غفلة العبد عن توبة ذنب ارتكبه شر من ارتكابه. وقال: أنت تبغض العاصي بذنب واحد تظنه ولا تبغض نفسك بذنوب كثيرة تتيقنها. قاله الشعراي<sup>(4)</sup>.

وإنما كان كذا لأنه عند الطاعة معرض للنظر للنفس، واستعظام العمل والسكون إليه والعجب به والتصنع والكبر والعز، واحتقار من لم يعملها، وطلب العوض عليها فهذه

---

<sup>(1)</sup> تقدمت ترجمته.

<sup>(2)</sup> تقدمت ترجمته.

<sup>(3)</sup> هو أبو جعفر أحمد بن حمدان بن علي بن سنان من كبار مشايخ نيسابور صاحب أبا عثمان ولقي أبا حفص، وهو أحد الخائفين الورعين جاور بمكة في آخر عمره وعشرين سنة متوالية نعى بموت أبي بشر سنة سبع، وثمانين، وثلاثمائة، وكان بمكة، وكان أوحداً مشايخ الحرم في وقته، ومات أبو جعفر بن حمدان سنة إحدى عشرة، وثلاثمائة. انظر الطبقات للشعراي: (103/1).

<sup>(4)</sup> انظر الطبقات الكبرى: (103/1).



ذنوب أحاطت بهذه الحسنة أحبطتها وأبطلتها، والكبر والعز من أوصاف الربوبية. والذنب يحمله على الاضطراب والافتقار والذل والاستكانة والخضوع والخوف والحذر. فهذه سيئة أحاطت بها حسنات وصفات عبودية تمحوها.

وقال سيدي أبو مدين<sup>(1)</sup>: انكسار العاصي خير من صولة المطيع.

وفي الحديث: «لولا أن الذنب خير من العجب ما خلى الله بين مؤمن وبين ذنب أبدا»... الحديث.

وكان سيدي أبو العباس المرسى<sup>(2)</sup> ربما دخل عليه المطيع فلا يبالي به لكبره بعمله ونظره إليه وإن دخل عليه عاص أكرمه لذلة معاصيه. وقال في إشارته: «يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ» أي يولج الطاعة في المعصية والمعصية في الطاعة. والروايات في هذا المعنى كثيرة، وانظر ابن عباد في شرح "معصية أورثت ذلاً"... إلخ<sup>(3)</sup>.

ثم قال: وإنما كان كدر الدنيا نعمة لمن وفقه الله تعالى لأن (فيه ضعف النفس) وذبولها وخروصها عن طلب حظوظها وذهاب قوتها.

ومن فوائد ضعف قوى النفس بتعاقب الأمراض والبلايا عليها: سهولة خروج الروح وخفة الترع والسكرات خلاف موت الفجأة كما يشاهد من اختلاف أحوال الموتى في الشدة واللين.

وفي الحديث: «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيثها الريح هكذا وهكذا، فإذا سكنت اعتدلت. وكذلك المؤمن يكفأ بالبلايا. ومثل الكافر كمثل الأرزة صماء معتدلة

(1) تقدمت ترجمته.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) انظر شرح الحكم لابن عباد: (76).

حتى يقصمه الله أي لأن الكافر معافى غالبا ممتع بصحة جسمه كالأرزاء الصماء حتى إذا أراد الله هلاكه قصمه لحينه على غرة وأخذه بغتة من غير لطف ولا رفق. فكان موته أشد عليه حسرة ومقاساة نزعته مع قوته وصحته أشد ألما وعذاباً<sup>(1)</sup>. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ وذلك عادة الله في أعدائه يفاجئهم بالموت على حال عتو وغفلة على غير استعداد بغتة ولهذا كره السلف موت الفجأة. وقال عليه السلام في رجل مات فجأة: «سبحان الله كأنه على غضب المحروم من حرم وصيته». وقال: «موت الفجأة راحة المؤمن وأخذة أسف للكافر» وذلك لأن الموت يأتي المؤمن مستعداً له غالباً منتظراً لحلوله فهان أمره إليه وأفضى إلى راحته. وهذا أيضاً من فوائد البلى والأمراض، وذلك لأنها نذير الموت فيستعد من أصابته للقاء ربه، ويعرض عن الدنيا الكثيرة الأنكاد، ويتعلق قلبه بالآخرة فيتصل من كل ما يخشى تباعته ويؤدي الحقوق إلى أهلها ويوصي. وقد طلب عليه السلام التنصل ممن كان له عليه حق ومكن من القصاص منه وأوصى بالثقلين: الكتاب والسنة. وبالأَنْصار. ودعا بكتب كتاب لثلاث تفضل أمته بعده. ثم رأى الإمساك عنه أفضل. صح من الشفا بتلقيق واختصار<sup>(2)</sup>.

وفي الحديث: «إن المؤمن إذا أصابه سقم ثم عوفي منه كان كفارة للماضي من ذنوبه وموعظة له فيما يستقبل. وإن المنافق إذا مرض وعوفي كان كالبعير عقله أهله ثم أرسلوه فلم يدر لم عقلوه ولم أرسلوه. (وَنَحْقِيرَهَا) وإيلاهما فكل ما أضعف النفس وآلها وأجهدا ونقصها، فهو محمود العاقبة. (و) في البلى أيضاً (الْمَنْع) للعبد (مِنَ الْمَعَاصِي) لأن بها تبطل صفاتها التي يقتضي وجودها وقوع العبد في المعاصي الظاهرة والباطنة، ويتأكد منه حب الدنيا والحرص على اتباع الهوى. وقد قيل: لا يخلو المؤمن من علة أو عيلة أو ذلة أو قلة.

(<sup>1</sup>) أخرجه ابن أبي شيبة (89/7، رقم 34412)، ومسلم (2163/4، رقم 2810)، والطبراني (94/19، رقم 185).

(<sup>2</sup>) انظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى لعياض: (210/2).

وفي الخبر عن الله تعالى: "الفقر سحني والمرض قيدي أحبس بذلك من أحببته من عبادي". (وتكفيرها) لحديث: «ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى، ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله به خطاياها»<sup>(1)</sup>.

قال اللقاني في شرح الجوهرة: التكفير بالمصيبة واقع قطعاً سخط أم صبر إلا أنه إن صبر اجتمع له التكفير والأجر وإلا فالتسخط معصية أخرى. ثم قد تكون قدر السيئة التي كفرت بالمصيبة أو أقل أو أعظم بحسب كثرة التسخط وقتله، وعظم المصيبة وقتلها وصغرها. ولا يجوز أن يقال لمصاب: جعل الله لك مصيبتك كفارة؛ لأنها كفارة قطعاً. والدعاء بتحصيل الحاصل حرام لأنه قلة أدب معه تعالى بل يقال: اللهم عظم له الكفارة فإن تعظيمها لم يعلم ثبوته بخلاف أصل التكفير. انتهى.

وقال السنوسي: الصبر على أقسام: صبر على ما هو كسب للعبد؛ كالصبر على الأوامر وعن النواهي. فهذا يحصل فيه نيل المثوبات ورفع الدرجات. والصبر على ما ليس مكتسباً للعبد؛ كالأمراض والأحزان والهموم والمصيبة وغيرها. فهذا إنما يحصل فيه تكفير الذنوب فقط وإطلاق الثواب عليها تسامح باعتبار ما قارنها من الصبر والرضى؛ لأنه حصل عليها الثواب من حيث أنها مصيبة. والفرق: أن نيل المثوبات ورفع الدرجات يشترط فيه أن يكون مكتسباً للمكلف مأموراً به من جهة الشرع. فما ليس مأموراً به وإن كان مكتسباً كالأفعال المباحة فلا ثواب فيه وأحرى إن كان غير مأمور به ولا مكتسب كالأمراض ونحوها. وأما سبب التكفير فلا يشترط فيه شيء من ذلك بل قد يكون مكتسباً من باب الحسنات لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ وقد يكون غير مكتسب كالمصائب المؤلمة لحديث: «لا يصيب المؤمن وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر بها من ذنوبه»<sup>(2)</sup>. ولحديث: «مثل المريض إذا صح وبرئ من

(1) أخرجه ابن حبان (166/7 ، رقم 2905)

(2) أخرجه أيضاً: أحمد (81/3 ، رقم 11787) ، ومسلم (1992/4 ، رقم 2573) ، والبيهقي (373/3 ، رقم 6329)

مرضه كمثل البردة تقع من السماء في صفائها ولونها<sup>(1)</sup>»، ولحديث: «لا تسبن الحمى فلها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكبر خبث الحديد<sup>(2)</sup>».

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله؛ لما يرجوه في ذلك من كفارة خطاياها.

وقيل: إن معنى «يُجِبُونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُجِبُ الْمُطَهَّرِينَ» أي من الآثام والذنوب بالأمراض والحمى.

قال ابن مسعود: لا يكتب للمريض أجر إنما الأجر في العمل ولكن تكفر به الخطايا.

قال السمرقندي: يعني: لا يكتب له بالمرض أجر ولكن يكتب له مثل عمله الذي كان يعمل إن كان الرجل محسنا وعجز عن العمل ويعلم الله تعالى أنه لو كان صحيحا لكان يعمل مثل ما كان يعمل وأنه يكتب له مثل ثواب تلك الأعمال ويكون المرض كفارة لذنوبه. يعني إذا تاب وإلا فلا يكفرها إذا نوى أنه إن صح عاد إلى مثل الحالة الخبيثة. انتهى.

ومن ذلك ما في مسلم وغيره: «من مات له ثلاثة من الولد كانوا له حجابا من النار قيل يا رسول الله؛ واثنان قال واثنان<sup>(3)</sup>».

قال القرافي: الحجاب راجع إلى معنى التكفير. أي تكفر المصيبة ذنوبا كان من شأنها أن يدخل بها النار فلما كفرت تلك الذنوب بطل دخول النار بسببها فصارت المصيبة كالحجاب المانع من دخول النار من جهة مجاز التشبيه. قال: واعلم أن التكفير في موت

<sup>(1)</sup> ذكره الحكيم (263/2)، وأخرجه الديلمي (143/4، رقم 6331)، وابن عساكر (387/11) وأخرجه أيضا: الترمذي (411/4، رقم 2086)

<sup>(2)</sup> أخرجه الطبراني (405/24، رقم 984). قال الهيثمي (307/2): رجاله رجال الصحيح

<sup>(3)</sup> أخرجه أحمد (306/3، رقم 14324). والبخاري في الأدب المفرد (63/1، رقم 146)

الأولاد ونحوهم؛ إنما هو بسبب الألم الداخل على القلب من فقد المحبوب فإن أكثر أكثر التكفير. وإن قل قل التكفير.

ولا جرم. يكون التكفير على قدر نفاسة الولد في صفاته ونفاسته في بره، وأحواله، فإن كان الولد مكروها يستبشر بفقده فلا كفارة بفقده البتة. قال: وإنما أطلق رسول الله ﷺ التكفير في موت الأولاد؛ بناء على الغالب أنه يؤلم فظهر لك بهذا الفرق بين المكفرات وأسباب المثوبات. انتهى وبالله تعالى التوفيق.

قال الشعراي من أخلاق السلف: عدم مبادرتهم إلى الدعاء بالشفاء إذا دخلوا على مريض بل يتربص أحدهم حتى يعلم سبب مرضه وانتهائوه ثم يدعوا بعد ذلك. فإن المرض ربما كان رفع درجات، فلا ينبغي الدعاء برفعه. وكذلك إذا كان كفارة لذنوبه فلا ينبغي الدعاء بدفعه. وكذلك القول فيه إذا كان عقوبة فالأولى أن يصبر العبد حتى تبلغ العقوبة حدها أدبا مع الله تعالى. وإن كان أحدهم له حال مع الله تعالى فله أن يسأله الشفاء من باب المنة والفضل. فاعلم ذلك فإنه نفيس! (1).

تمة: ومن ما يكفر الذنوب: الهموم والأحزان بطلب المعيشة وبالمباحات من حاجة الدنيا للفقراء. وأما الحزن على ما يفوت من قربات الآخرة فهو للمؤمنين درجات، وهو على حب الدنيا والجمع لها ولحرص عليها عقوبات.

وقال بعض السلف: كفى به ذنبا لا يستغفر منه حب الدنيا. وقال آخر: لو لم يكن للعبد من الذنوب إلا أنه يغتم بمصائب الدنيا، وما يفوته منها ما لا يغتم بفوت نصيبه من الآخرة والتزود لها.

(1) انظر تنبيه المغترين: (177).

وفي الحديث: «إِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُ الْعَبْدِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يُكَفِّرُهَا مِنَ الْعَمَلِ، ابْتَلَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْحُزْنِ لِيُكَفِّرَهَا عَنْهُ»<sup>(1)</sup>.

ويقال: إن الهم الذي يعرض للقلب في وقت لا يعرف العبد سببه هو كفارة الهم بالخطايا. ويقال: حزن العقل عند تذكر الوقوف والمحاسبة لأجل جنایات الجسد فلمز العقل ذلك الهم وتظهر على العبد منه كآبة لا يعرف سبب همه. وكذلك إزراء العبد على نفسه ومقته لها عن معرفة بها وترك نظره وسكونه إلى خير إن ظهر عليها يكون من كفارات ذنوبه لأنه من تدبر الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾. (و) في كدر الدنيا أيضا (الإقبال) على الله تعالى و (عَلَى الْآخِرَةِ وَتَذَكُّرُهَا) أي تذكر الآخرة وتعرفك بجلال الله تعالى، وحقارة الدنيا ونفسك وتسليك من هواك وتشغلك عما لا يعني وتلجئك إلى الإخلاص في الدعاء (و) في كدر الدنيا أيضا (الْأَجْرُ إِنْ رَضِيَ) أي باعتبار ما قارنه من الرضى والتوكل والصبر والزهد في الدنيا وغيرها، لا أنه يحصل فيه الأجر من حيث أنه بلاء لأن شرط المأجور فيه أن يكون مكتسبا للمكلف وإطلاق الأجر عليه تسامح كما تقدم.

ففي الحديث: «إِنْ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يُوَدُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ جُلُودَهُمْ قَرَضَتْ بِالْمَقَارِيضِ لِمَا يَشَاهِدُونَ مِنْ ثَوَابِ أَهْلِ الْبَلَايَا»<sup>(2)</sup>.

وفيه أيضا: «إِنْ اللَّهُ يَتَعَهَّدُ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ بِالْبَلَايَا كَمَا يَتَعَهَّدُ الْوَالِدُ وَلَدَهُ».

وفيه: «يُؤْتَى بِأَهْلِ الْبَلَاءِ فَلَا يَنْصَبُ لَهُمْ مِيزَانٌ وَلَا يَنْشُرُ لَهُمْ دِيْوَانٌ وَيَصَبُ عَلَيْهِمُ الْأَجْرُ صَبَاً بَغِيرَ حِسَابٍ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾» حتى يتمنى أهل العافية أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما ذهب به أهل البلايا من الفضل<sup>(1)</sup>.

(1) أخرجه أحمد (157/6 ، رقم 25275) قال المنذرى (146/4) : رواه ثقات.

(2) أخرجه الترمذى (603/4 ، رقم 2402) وقال : غريب . وأخرجه أيضا : البيهقى فى شعب الإيمان (180/7 ، رقم 9921) ، والطبرانى فى الصغير (156/1 ، رقم 241)

وفيه: «إذا أحب الله عبدا ابتلاه فإن صبر اجتباه، وإن رضي اصطفاه»<sup>(2)</sup>.

وعن ابن عباس: حمى يوم تكفر ذنوب ثلاثين سنة.

وقال أبو هريرة: عليه السلام: ما وجع أحب إلي من الحمى؛ لأنها تعطي كل مفصل حقه وقسطه من الأجر بسبب عموم الوجع. وقال: المرض لا يدخله رياء ولا سمعة بل هو محض أجر.

وقد قسم الشيخ عبد القادر الجيلي المرض إلى ثلاثة أقسام: عقوبة: وهو ما صاحبه السخط. وكفارة: وهو ما صاحبه الصبر. ودرجة: وهو ما صاحبه الرضى وانشرح الصدر. قاله الشعراني في طبقات الأولياء<sup>(3)</sup>.

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود: أصبر على المؤنة حتى تأتيك من الله المعونة. ومات له ولد فحزن عليه داود حزنا شديدا ف قيل له: ما كان يعدل عندك؟ قال: ملء الأرض ذهبا أنفقته في سبيل الله. قال الله عز وجل: "لك من الأجر مثل ذلك".

وقال محمد بن شقيق<sup>(4)</sup>: اشتريت بطيخة لأمي فسخطت فقلت: يا أماه؛ علامَ تسخطين؟ على بائعها أم على مشتريها أم على خالقها؟ فو الله إن خالقها لأحسن الخالقين، وإن البائع والمشتري ما أعطياك إلا ما قسم الله لك. فاستغفرت أُمي من ذلك وتابت.

---

(1) أخرجه الطبراني (182/12 ، رقم 12829) قال الميمني (305/2): فيه مجاعة بن الزبير وثقه أحمد وضعفه الدارقطني .

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (145/7 ، رقم 9788)

(3) انظر الطبقات الكبرى: (23/1).

(4) محمد بن شقيق بن ضبارة ابن مسعود بن حميد بن نصر بن الشماخ بن ضبارة بن فهيرة بن شقيق أبو الأسد اللخمي المؤدب ذكره أبو الحسين الرازي في تسمية من كتب عنه بدمشق وكان من أهل اللغة والنحو مات سنة ست وعشرين وثلاث مئة. انظر مختصر تاريخ دمشق: (305/1).

وقيل: لا يصف الله عبدا ولا يثني عليه حتى يتليه فإن صبر فخرج من البلاء سليما مدحه ووصفه، وإلا بين له كذبه ودعواه.

وفيه: «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له<sup>(1)</sup>». وفيه: «من يرد الله به خيرا يصب منه<sup>(2)</sup>».

وفيه: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحا<sup>(3)</sup>» كذا في البخاري. وفي رواية هشيم: «إذا كان العبد يعمل صالحا فشغله عن ذلك مرض أو غيره... الحديث.

وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعا «أن العبد إذا كان على طريقة حسنة من العبادة ثم مرض قيل للملك الموكل به: اكتب له مثل عمله إذا كان طلقا حتى أطلقه أو أكفته إلى<sup>(4)</sup>».

وفي رواية: «إن الله يكتب للمريض أفضل ما كان يعمل في صحته ما دام في وثاقه<sup>(5)</sup>».

وفي رواية: «ما من امرئ تكون له صلاة من الليل يغلبه عليها نوم أو وجع إلا كتب له أجر صلاته، وكان نومه عليه صدقة<sup>(6)</sup>».

وهذا كله في حق من كان يعمل طاعته فمنع منها وكانت نيته لولا المانع أن يدوم عليها.

(1) أخرجه أحمد (333/4 ، رقم 18959) ، ومسلم (2295/4 ، رقم 2999)

(2) أخرجه أحمد (237/2 ، رقم 7234) ، والبخاري (2138/5 ، رقم 5321)

(3) أخرجه البخاري (1092/3 ، رقم 2834) وابن حبان (191/7 ، رقم 2929)

(4) أخرجه أحمد (203/2 ، رقم 6895) قال الهيثمي (303/2) : إسناده صحيح

(5) أخرجه الخطيب (191/2)

(6) أخرجه أبو داود (34/2 ، رقم 1314) ، والنسائي (257/3 ، رقم 1784) ، والبيهقي (15/3 ، رقم 4499)



وفي بعض الأخبار: أن يونس قال لجبريل: دلني على أعبد أهل الأرض. فأتى به إلى رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه... إلى أن قال: قال جبريل: يا يونس: إن هذا طريق ليس يوصل إلى رضى الله بشيء أفضل منه.

وفيه: أنه ﷺ قال للرجل الذي قال له: أوصني. قال: «لا تتهم الله في شيء قضاه عليك»<sup>(1)</sup>.

وعن أنس: أن الله خلق عباده صحيح وسقيم وغني وفقير. ومنهم من لو أسقمه لأفسده ذلك، ومنهم من لو أصححه لأفسده ذلك، ومنهم من لو أغناه لأفسده ذلك والله أعلم بمصالح عباده.

وعن أبي هريرة: «لا يزال البلاء بالمؤمن في نفسه وولده وماله حتى يلقي الله وما عليه خطيئة»<sup>(2)</sup>.

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة»<sup>(3)</sup>.

وفي حديث آخر: «إذا أحب الله عبدا ابتلاه ليسمع تضرعه»<sup>(4)</sup>.

وعن لقمان: يا بني الذهب والفضة يختبران بالنار، والمؤمن يختبر بالبلاء.

وورد: أن من سعى لمريض في حاجته فقضاها غفر له. قيل له: يا رسول الله إن كان المريض من أهله؟ فقال: «ومن أعظم أجرا ممن سعى في حاجة أهل بيته؟». وأخبار الصالحين في البلاء ورضاهم بها، والتذاذهم بها كثيرة لا تحصى.

(1) أخرجه أحمد (318/5)، رقم (22769)

(2) أخرجه أحمد (450/2)، رقم (9810)، وهناد (238/1)، رقم (402)، وابن حبان (176/7)، رقم (2913)

(3) أخرجه الترمذي (601/4)، رقم (2396)، وقال: حسن غريب. والحاكم (651/4)، رقم (8799)

(4) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (145/7)، رقم (9788)، والدبلي (251/1)، رقم (970)

وعن بعض الصالحين أنه قال: لقد مرضت مرضة فأحببت أن لا تزول وبكى مطرف عند عمران بن حصين وهو مريض لما رأى من حاله. فقال له: لا تبك فإنه أحبه إلي حبه إلى الله تعالى. ثم قال: أحدثك بشيء لعل الله تعالى أن ينفعك به واكتم علي حتى أموت إن الملائكة تزورني فأنس بها وتسلم علي فأسمع تسليمها.

وبلغ سويد بن شعبة<sup>(1)</sup> غاية في المرض فقال: ما يسرني أني نقصت من هذا قلامة ظفر.

وعن عبد الرحمن بن زيد<sup>(2)</sup>: أنه مر بعبد مقطوع بالجذام يسيل قيحا وصديدا، فقال له يا هذا: لو تعالجت؟ فرفع رأسه إلى السماء فقال: يا سيدي بأي ذنب سلطت علي هؤلاء ليسخطوني عليك ويكرهوك إلي. سيدي لك العتي من ذلك الذنب وأستغفرك منه لا أعود فيه أبدا. ثم أعرض بوجهه فانصرفنا.

وعن بشر بن الحارث<sup>(3)</sup>: قال: رأيت رجلا قد قطعه البلاء فدعوت الله أن يكشف ما به فسمع دعائي فقال: من هذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربي ويعترض عليه في نعمته علي؟ قال بشر: فاعتقدت ألا أعترض علي عبد في نعمة أراها عليه من البلاء.

وكان السلف يستوحشون إذا خرج عنهم عام لم يصابوا فيه بنقص من نفس أو مال. ويقال: لا يخلوا المؤمن في كل أربعين يوما أن يراع بروعة، أو يصاب بنكبة، وكانوا يكرهون فقد ذلك في هذا العدد أن يصابوا فيه بشيء. فهؤلاء شاهدوا في بلاياهم عطاياهم وفي محنة منته، وفي عنفه لطفه، فوجب لهم ذلك من الرضى بما هم فيه والتنعم به والإلتذاذ ما حملهم على أن يحبوا زوال ذلك عنهم ولا نقصانه ووجود الألفاف والمنن

---

(1) سويد بن شعبة البوعبي من بني نمير وكان من الذين اختطوا بالكوفة أيام عمر بن الخطاب. للمزيد من أخباره انظر صفوة الصفوة: (42/3).

(2) عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب العدوي القرشي: وال. كان من أتم الرجال خلقه. روى الحديث عن أبيه وغيره، وروى عنه ابنه عبد الحميد وآخرون. وزوجه عمر بن الخطاب ابنته فاطمة. وولاه يزيد بن معاوية مكة سنة 63 هـ. انظر للزيادة في ترجمته: لمهذب التهذيب: (176/6).

(3) تقدمت ترجمته.

في البلاء لا تحصي.

وعن عطاء السلمي<sup>(1)</sup>: أنه بقي سبعا لم يذق طعاما فسر قلبه بذلك غاية السرور فقال: يا رب إن لم تطعمني ثلاثة أيام أخرى لأصلين لك ألف ركعة.

وعثرت امرأة فتح الموصلي فطار ظفرها فضحكت، فقيل لها: ألم تجدي ألم الظفر؟ فقالت بلي؛ ولكن ثواب ذلك ألهاني عن وجود الاشتغال بالألم.

وقال الفضيل<sup>(2)</sup>: إن الله ليوصل البلاء بعبده المؤمن فيترل عليه بلاء بعد بلاء حتى يمشي وليس عليه خطيئة.

وقال أبو سليمان الداراني<sup>(3)</sup>: مر موسى عليه السلام برجل قد مزقت السباع لحمه ونهشت بطنه فوقف موسى عليه السلام متعجبا فقال: يا رب إنه لمطيع لك فما الذي أرى؟ فأوحى الله تعالى إلى موسى إنه سألني درجة لم يبلغها بعمله فابتليته لأبلغه تلك الدرجة، فقال أبو سليمان: سبحان الله؛ لو شاء الله لبلغه تلك الدرجة بلا بلوى ولكن سبحان الله الحليم العليم.

وقال الجنيد<sup>(4)</sup>: كنت نائما عند سري الشقطي فنبهني فقال لي: يا جنيد؛ رأيت كأني وقفت بين يديه فقال لي يا سري: خلقت الخلق فكلهم ادعوا محبتي فخلقت الدنيا فهرب مني تسعة أعشارهم وبقي معي العشر وخلقت الجنة فهرب مني تسعة أعشار العشر، وبقي معي عشر العشر فسلطت عليهم ذرة من البلاء فهرب مني تسعة أعشار عشر العشر فقلت للباقيين معي: لا الدنيا أردتم، ولا الجنة أردتم ولا من النار هربتم فما تريدون؟ قالوا إنك تعلم ما نريد فقلت: إني مسلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم مالا

(1) تقدمت ترجمته.

(2) تقدمت ترجمته.

(3) تقدمت ترجمته.

(4) تقدمت ترجمته.

تقوم به الجبال أتصبرون؟ قالوا إذا كنت أنت المبتلي فافعل ما بدا لك فهو لاء عبادي حقا. انتهى.

قال في التنوير: إنما يُعينهم على حمل أقداره شهود حسن اختياره. وأنشدوا:  
وَخَفَّ عَنِّي مَا أَلَايِي مِنَ الْعَنَاءِ لِأَنَّكَ أَنْتَ الْمُبْتَلِي وَالْمُقَدَّرُ  
وَمَا لِأَمْرِي عَمَّا قَضَى اللَّهُ مَعْدُلٌ <sup>(1)</sup> وَلَيْسَ لَهُ مِنْهُ الَّذِي يَتَخَيَّرُ

وقال الأستاذ أبو علي: جربت مرة وكنت في صورة وحشة من ذلك ففتح علي قلبي شيء من الرضى فكنت أثلّم تلك القروح فخرجت ولم يبق منها أثر.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري <sup>(2)</sup>: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول في آخر عمره: وقد اشتدت به العلة: من أمارات التأييد حفظ التوحيد في أوقات الحكم ثم قال: كالمفسر لقوله مشيرا على ما كان فيه من حاله: هو أن يقرضك بمقاريض القدرة في إمضاء الأحكام قطعة قطعة وأنت ساكن جامد.

وفي الحديث: «إن الرجل لتكون له الدرجة في الجنة فلا يبلغها بشيء من عمله فيبتليه الله فيبلغ درجة لا يبلغها بعمله» <sup>(3)</sup>.

وفيه: «داء الأنبياء الفالج واللقوة» <sup>(4)</sup> ومن المفاليج - كما قال الجاحظ - سيدنا إدريس عليه السلام، وأكثر ما يعترى الفالج المتوسطين من الناس لأن الشباب كثير الحركة والشيخ كثير اليبس. رزقنا الله العافية في جميع الأمور ولطف بنا في جميع الأحوال وأعاننا على

<sup>(1)</sup> انظر التنوير في إسقاط التدبير: (6) والبيتان لابن عطاء الله.

<sup>(2)</sup> عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد. الإمام أبو القاسم القشيري، النيسابوري، الزاهد، الصوفي، شيخ خراسان، وأستاذ الجماعة، ومقدم الطائفة. قال الخطيب: كتبنا عنه وهو ثقة، وكان يعرف الأصول على مذهب الأشعري، والفروع على مذهب الشافعي. صنف التفسير، وهو من أجود التفاسير، والرسالة المشهورة في رجال الطريقة. وحج مع البيهقي، وأبي محمد الجويني. وكان له في الفروسية واستعمال السلاح يد بيضاء. وله عدة أولاد أئمة. عبد الله، وعبد الواحد، وعبد الرحيم، وعبد المنعم وغيرهم

<sup>(3)</sup> أخرجه الطبراني (323/22، رقم 813)

<sup>(4)</sup> أخرجه في فيض الباري في شرح صحيح البخاري: (215/3).

ما فيه رضاه بمنه وكرمه.

ولبعضهم سائلا العفو والعافية من الرب اللطيف:

يَا رَبِّ إِنْ كَانَ تَمْرِضُنِي يُقَرِّبُنِي بَنِي  
إِلَيْكَ زُلْفَى فَبَابُ الْعَفْوِ أَوْسَعُ لِي ع  
أَوْ كَانَ مِنْ أَجْلِ تَكْفِيرِ الذُّنُوبِ فَلَا  
لِي

فَلَا  
يَحْتَاجُ عَفْوَكَ لِلْأَسْقَامِ وَالْعَلَلِ لَلْ

ومن دعاء سلام بن مطيع: اللهم إن كنت قد بلغت أحدا من عبادك الصالحين درجة  
ببلاء، فبلغنيها بالعافية. قاله في المستطرف (1).

قال الشعرائي: وإياك أن تقول كما قال بعض المحبين حين ابتلي: اللهم إن كان في هذا  
رضاك فزدني، فإن رجال البلاء هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وكان الشافعي به البواسير تنضح دما ليلا ونهارا حتى كان يجلس للحديث والطست  
تحتة يقطر فيه الدم فقال يوما: اللهم إن كان في هذا رضاك فزدني منه فسمعه شيخه  
مسلم بن خالد الزنجي (2) فقال: مه يا محمد فنسأل الله العافية، فأنا وأنت لسنا من  
رجال البلاء. واعتل علة شديدة فكان يقول: اللهم إن كان في هذا رضاك فزدني منه.  
فكتب إليه المعافري من سواد مصر: يا أبا عبد الله لست وإياك من أهل البلاء، فسل الله  
الرضى، والأولى بنا أن نسأل الرفق والعافية. فرجع الشافعي عن قوله هذا وقال: أستغفر  
الله وأتوب إليه. وكان بعد ذلك يقول اللهم اجعل لي خيري فيما أحببت.

وقال الثوري: أدركنا الناس وهم يخافون من الأمراض والبلايا خوف أن يقعوا في كراهة

(1) انظر المستطرف في كل فن مستظرف: (533/2).

(2) هو مسلم بن خالد بن مسلم بن سعيد القرشي المخزومي، مولاهم، المعروف بالزنجي: تابعي، من كبار الفقهاء. كان إمام أهل  
مكة. أصله من الشام. لقب بالزنجي لحرته، أو على الضد، لياضه. وبه تفقه الإمام الشافعي قبل أن يلقى مالكا. وهو الذي أذن للشافعي  
بالافتاء. انظر تذكرة الحفاظ: (235/1).

قضاء الله تعالى عليهم. قال: فو الله لا أدري ماذا يقع مني فلعلي أكفر ولا .

وقال الصديق عليه السلام: سلوا الله العافية فإن المؤمن لم يعط بعد الإيمان أفضل من العفو والعافية. وأيضاً سؤال البلاء فيه دعوى لمقام الصبر وكل مدع ممتحن.

ولما قال سمنون المحب<sup>(1)</sup>:

وَلَيْسَ لِي فِي سِرِّكَ حَظٌّ فَكَيْفَ مَا شِئْتَ فَاصْتَبِرْ نِي

ابتلي بعسر البول؛ فصاح وصار يقول: أدعو لعمكم الكذاب<sup>(2)</sup>.

وقال أبو العباس المرسى<sup>(3)</sup>: لو قال عوض ما قال: فكيف ما شئت فاعف عني. لكان أولى من طلب الاختبار.

قال الشعراني: إنما وقع الامتحان لسمنون لغفلته عن التبري من الدعوى، فلو قال: مدني بالقوة ثم اختبرني بما شئت.

وكان شيخنا يقول: إذا قيل لك أتخاف من الله، فقل: نعم. لكن بقدر ما خلقه الله في من الخوف وبقدر ما خلق عندي من الرجاء. وكذلك القول في الحب لله تعالى. فمن سلك ذلك لا يقع له امتحان لتعويله على الله؛ لا على قوة نفسه وقد قالوا كل مدع ممتحن. وهذا ميزانه. والله أعلم. انتهى<sup>(4)</sup>.

وقال ابن دريد<sup>(5)</sup> في قصيدته المعروفة:

<sup>(1)</sup> هو سمنون بن حمزة الخواص، أبو الحسن، أو أبو بكر: صوفي ناسك، من الشعراء. له مقطوعات في غاية الجودة. وهو من أهل البصرة. سكن بغداد وتوفي بها نحو 290هـ. انظر حلية الأولياء: (309/10).

<sup>(2)</sup> انظر التنوير لابن عطاء الله: (55).

<sup>(3)</sup> تقدمت ترجمته.

<sup>(4)</sup> انظر الطبقات الكبرى للشعراني: (230/1).

<sup>(5)</sup> هو محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، من أزد عمان من قحطان، أبو بكر: من أئمة اللغة والأدب. كانوا يقولون: ابن دريد أشعر العلماء وأعلم الشعراء. وهو صاحب (المقصورة الدريدية - ط). ولد في البصرة، وانتقل إلى عمان فأقام اثني عشر عاماً، وعاد إلى

مَارَسْتُ مَنْ لَوْ هَوَتْ الْأَفلاكُ مِنْ (1) جَوَانِبِ الْجَوِّ عَلَيْهِ مَا شَكَا

قال تلميذه ابن البغدادي (2): إن الله عاقبه بقوله ذلك بفالج أبطل من مخرجه إلى قدميه فكان يصيح لذلك ويضح.

وفي البلايا أيضاً: يقع له خلف ما يفوته من الطاعات فيكتب له في مرضه مثل ما كان يعمل من ذلك في صحته، وذلك أبلغ في الوصول إلى غرضه، لأنه من اختيار الله تعالى وهو خير من اختياره لنفسه؛ لأن ما كان يفعله من الطاعات من له بتخليصه عن الشوائب وتصفيته من الآفات والمعائب؟ فليحسن العبد ظنه بمولاه وليعلم أن ما يختاره له خير مما يختاره لنفسه.

وفي الخبر: «يقول الله تعالى لملائكته: اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمل في صحته، فإنه في وثاقي إن أطلقته أبدلته لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه، وإن توفيته توفيته إلى رحمتي» (3).

قيل: أوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام: إني مبتليكَ، قال: يا رب: أين يكون القلب؟ قال: عندي، قال: يا رب فصب علي البلاء صباً، فلما بلغ البلاء منتهاه أوحى الله إليه: إني معافيك فقال: يا رب فأين يكون قلبي؟ قال عندك. قال: "مسي الضر وأنت أرحم الراحمين".

---

البصرة. ثم رحل إلى نواحي فارس، فقلده (آل ميكال) ديوان فارس، ومدحهم بقصيدته (المقصورة) ثم رجع إلى بغداد، واتصل بالمقتدر العباسي فأجرى عليه في كل شهر خمسين ديناراً، فأقام إلى أن توفي سنة 321هـ. انظر للزيادة: وفیات الاعيان: (497/1).

(1) من قصيدة له 256 بيتاً مطلعها:

يا ظبية أشبه شيءٍ بآلها      ترعى الخزامى بين أشجار النقا  
انظر ديوانه.

(2) عبد الله بن محمد من أهل قفصة، كان أبوه ظريقاً فلقب بالبغدادي؛ قال ابن رشيقي في الأنموذج: وطريق ابن البغدادي في الشعر خارجة عن طرقات أهل العصر، لأنه كان جاهلي المرمى، ملوكي المتسمى، يخاله السامع فحلاً يهدر، أو أسداً (2) يزأر، وله أمثال واستعارات على حدة من الكلام وفي جهة من البلاغة، وكانت له من عبد الله بن حسن مكانة (3)، ثم تغير عليه فداجاه إلى أن تخلص منه إلى مدينة صقلية، ثم ورد الحضرة، ثم انتقل إلى طرابلس الغرب، ثم انتقل إلى مصر سنة أربعمائة. وكانت له بمصر وقعات، فخرج منها متربحاً ثم عاد إلى الحضرة، وبها توفي سنة عشرين وأربعمائة، وقد قارب الستين. انظر فوات الوفيات: (227/2).

(3) أخرجه الخطيب (191/2)

وقال بعضهم: إذا أردت أن تعرف رضى الله عنك فانظر إلى رضاك عنه في البلوى وموافقتك لإرادته في لمصائب، فإن كنت راضيا عنه في البلوى وموافقا لإرادته فهو عنك راض لحديث: «من رضى فله الرضى ومن سخط فله السخط». (و) في كدر الدنيا أيضا (صَفَاءُ الْبَاطِنِ) من عيوبه؛ كحب الدنيا والكبر والرياء وقمع الهوى وغير ذلك. (و) فيه أيضا تحصل (طَاعَتُهُ) أي طاعة القلب وأعماله التي ذرة منها خير من أمثال الجبال وأعمال الجوارح وذلك مثل الصبر والرضى والزهد والتوكل. وفي الحديث: «ركعتان من رجل زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمد<sup>(1)</sup>».

وإلى ذلك أشار بقوله: (وَهِيَ أَفْضَلُ مِنْ طَاعَةِ الظَّاهِرِ لِأَنَّهَا) أي طاعة الباطن (أَشَقُّ عَلَى النَّفْسِ) قال في التنوير: وليس يدل على فهم العبد كثرة عمله، ولا مداومته على ورده، إنما يدل على فهمه، ونوره غناه بربه، وانحياشه إليه بقلبه، وتحرره من رق الطمع، وتحليه بحلية الورع.

وقال عبد الواحد بن زيد<sup>(2)</sup> لرجل تعبد خمسين سنة: حبيبي؛ أخبرني عنك هل قنعت به أم لا؟ قال: لا، قال: فهل آنست به؟ قال: لا. قال: فهل رضيت عنه؟ قال: لا؟ قال: فإنما مزيدك منه الصلاة والصوم؟ قال نعم. قال: لولا أني استحيي منك لأخبرتكَ أن أعمالك خمسين سنة مدخولة.

قال أبو طالب المكي<sup>(3)</sup>: أراد بذلك: إنه لم يرفعك بأعمالك إلى مقامات المقربين فيوجدك مواجد العارفين فيكون مزيدك أعمال القلوب التي يستعمل بها كل محبوب مطلوب، لأن القناعة به حال الموقن والأنس به مقام المحب. والرضى: وصف المتوكل

(<sup>1</sup>) تقدم نخرجه.

(<sup>2</sup>) تقدمت ترجمته.

(<sup>3</sup>) تقدمت ترجمته.



إنما أنت عنده في طبقة أصحاب اليمين فمزيدك منه مزيد العموم من أعمال الجوارح، فمن وفقه الله تعالى إلى منزلة هذه المقامات وتوفية حقوقها في البلايا النازلة فقد حصل على كنوز البر. رزقنا الله العافية في جميع الأمور ولطف بنا في جميع الأحوال بمنه. ومن مولانا اللطيف الخبير نسأل اللطف بنا في أحكام المقادير فإن لطف الجليل جل جلاله يصحب عباده بحسب الحاجة وعونه يأتيهم على قدر نزول الشدة، وغوثه يسرع إليهم على مراتبهم في الاضطرار ولما كان الروح يتقوت بالهواء ولا يصبر عنه ساعة كان الهواء أكثر الموجودات إمكانا، ولما كانت الحاجة إلى الماء شديدة والصبر عنه قليل؛ كان قريبا منه في الإمكان. فتأمل؛ لو كانا لا يؤخذان إلا بالثمن كالطعام؛ ما الحيلة؟ ولما كانت الحاجة إلى النار دون ذلك والقليل منها يكفي والكثير منها يضر كانت أقل إمكانا حتى أنها قل ما تكون إلا بالمعالجة، ومن تصفح ديدن الموجودات وجد هذا الفن من علومها كثيرا فالفواكه قليلة بالنسبة إلى القوت للاستضرار بعدم القوت. وأقل الجواهر وجودا ما لا تمس الحاجة إليه.

ولما كان المشي على الأقدام؛ كانت بشرتها أغلظ، والكف تحتاج إلى مباشرة الخشن فغلظت بشرتها بحسب الحاجة، ثم تدرج الغلظ في جميع البشرة على نحو ذلك حتى صارت بشرة الشفة أرقها إذ لا يياشرها إلا اللين.

ولما احتيج إلى كشف الوجه للمواجهة أعين على ألم الحر والبرد أكثر من سائر البدن. ومن العجب: أنه يتألم بأقل الخجل حتى يتصبب عرقا ثم يحتمل شدة البرد.

ولما كان المظلوم إلى النصر أحوج؛ كانت الإجابة إلى دعائه أسرع «اتقوا دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب»<sup>(1)</sup>.

(1) أخرجه أحمد (153/3 ، رقم 12571)

ولما كان الصغير من الحيوان غير مستقل بنفسه استخدمت له الأم بقهر الشفقة بخلاف الكبير. فسبحان من عجزت العقول عن إدراك بعض لطائفه وقصرت الألسن عن شكر أقل عوارفه.

تتمة: ومن فوائد المرض أيضا: أن القلم يرفع عن المريض، ويكتب له ما كان يعمل صحيحا، ويحمد الله لعوده فيكتب شاكرا ويغفر له إن شفي وإن مات دخل الجنة، وإن المرض يتبع كل خطيئة في المفاصل حتى يستخرجها وإن أنينه تسبيح وصياحه تهليل ونفسه صدقة ونومه عبادة وتقلبه من جنب إلى جنب جهاد، ثم إن احتسب مرضه مصيبة وصبر كتب في ديوان الصابرين، وإن احتسبه نعمة وشكر كتب في ديوان الشاكرين.

ومن آداب المرض: كتمه وإخفاؤه لما ورد: أن من كنوز الجنة كتمان الأمراض والمصائب والصدقة والرضى به والصبر ولا يتسخط ولا يضجر، وأداء الفرائض في أوقاتها ما استطاع ولا يشكو لأحد إلا الطبيب يطبه ولا يحدث به إلا أن يرى ذلك نعمة فيتحدث بنعمة الله، وأن يرى ذلك نعمة ليطهره من الذنوب وتذكرة من الله ووعظا، ويوصي لقرابته لئلا يختم عمله بالمعصية.

## (4) الناس

ولما أنهى كلامه على ثلاثة من العوائق أخذ في الكلام على الرابع فقال: (فَصَلِّ وَمِنْهُ) أي ومن الخلق الذي هو من حجب الوصول: (النَّاسُ فَارْفَعْ هِمَّتَكَ) وسيأتي معنى الهممة إن شاء الله تعالى (عَنْهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَشَكْوَى فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ) ولا تلتفت إليهم بل التفت إلى نظر الله إليك وإقباله عليك لأن الالتفات إليهم يوجب أنواعا من الكبائر مع الانحطاط في أهوائهم، وتحسين مواقع نظرهم منه بالتصنع والترين لهم وتريية الجاه والحشمة لديهم تكبرا وتعظيما عليهم ومعاشرتهم بالنفاق والدهاء وتخالف الاسرار والإعلان وهذا عذاب أليم استعجله في الدنيا إذ تفوته بذلك راحة قلبه مع الطمع والذلة فتقل قيمته. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ قال:

مَنْ رَأَى النَّاسَ مَاتَ غَمًّا <sup>(1)</sup> وَقَازَ بِالرَّاحَةِ الْجَسُورَ

ثم بعد ذلك لا يحصل ما أراده منهم فإن أغراضهم مختلفة وطباعهم متباينة فرما استحسن من نفسه شيئا لم يستحسنه غيره، وربما أرضى شخصا ما لا يرضى آخر، فهو يعمل بزعمه فيما ينفعه عند الناس وهو ساع فيما يضره عندهم وعند الله تعالى مع مقاساة التعب في نفسه. وانظر قصة لقمان المشهورة مع ابنه وحمارة، فوضى الناس غاية لاتدرك، وأحق الناس من طلب ما لا يدرك. والعاقل من يميل إلى الحق ونظره تعالى من غير اكتراث بعيب عائب، ويقول بلسان حاله:

إِنَّ الَّذِي تَكَرَّهُونَ مِنِّي ذَاكَ الَّذِي يَشْتَهِيهِ قَلْبِي

(1) البيت لسلم بن عمرو البصري، وبعده:  
لَوْلَا مَنُ الْعَاشِقِينَ مَاتُوا غَمًّا وَبَعْضُ الْمُنَى غُرُورٌ  
وما من مخلص البسيط. انظر ديوانه (حرف الراء).

ويعرض عن الخلق (إقبالاً) أي إن أقبلوا عليك وتوجهوا إليك بالتعظيم والمدح والعطاء فلا تركز إليهم في ذلك لأنه تعالى هو الفاعل لذلك حقيقة ولا تفرح بمدحهم وكن أنت ذاماً لنفسك لما تعلم منها من العيوب وعدم تشميرك لما مدحت به وظهور أثر الصلاح عليك دون حقيقته فإذا قاموا بحق ما يجب عليهم من مدحك وحسن الظن بك فقم أنت بما يجب عليك من اتهام نفسك. قال بعضهم: من فرح بمدح فقد مكن الشيطان يدخل في بطنه. وقال آخر: إذا قيل نعم الرجل أنت فكان أحب إليك من أن يقال: بيس الرجل فأنت والله بيس الرجل.

وقال الأصمعي<sup>(1)</sup>: كان أبو بكر إذا مدح يقول: اللهم أنت أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون. قاله العلقمي.

وقال بعضهم: لا تزال بخير ما لم تر أن فيك خيراً. وقال آخر: علامة المنافق الذي إذا مدح بما ليس فيه ارتاح لذلك قلبه. وقال آخر: إذا رأيت الرجل يحب أن يحمده الناس كلهم ويكره أن يذكره أحد بسوء فاعلم أنه منافق.

وقال المناوي: قال ابن العريف<sup>(2)</sup>: الفتنة الباطنة قد عمت وهي جهل كل أحد بمقداره فلزم اعتبار العبد العاقبة في نفسه حتى لا تناله الفتن وإلا هلك دنيا وديننا فتأمل هذه الفائدة فإنها من واجبات الوقت. انتهى.

وإنما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق، وهم ممقوتون عند الخالق، فالممدوح حقيقة هو المقرب إلى الله تعالى. والمذموم هو المبعد عنه الملقى في النار. فمن مدحه الناس إن كان من أهل النار؛ فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره وإن كان من أهل الجنة فلا

(1) تقدمت ترجمته.

(2) هو أحمد بن محمد بن موسى الصنهاجي الأندلسي المري، أبو العباس: فاضل شهير بالصلاح. له شعر ومشاركة في العلوم. وصنف كتاب (محاسن المجالس - ط) على طريق القوم. نسبته إلى المرية ووفاته بمراكش. انظر وفيات الأعيان: (54/1).

ينبغي أن يفرح إلا بفضل الله تعالى وثنائه عليه إذ ليس أمره بيدهم، وإذا علم أن الخير بيده تعالى أعرض عن مدحهم واشتغل بما أهمه من أمر دينه. ثم إن مدحك أحد أو ذمك فلا تخرج عن الحق بحيث لو مدحك من شأنه الذم لاقتصرت على مقدار ما واجهك به وما عملته من أوصافه الحمودة. ولو ذمك من شأنه المدح لم يخرجك ذلك عن إقامة حقه بمدحه وهذا جار في العطاء والمنع فلا تمدحن أحدا ولا تذميه إلا من حيث مدحه الله أو ذمه.

وقال حاتم الأصم: مذمة الناس للإنسان في هذا الزمان مدحة له لأنهم لا يذمون إلا لمخالفته لما قهواه نفوسهم (و) أعرض عنهم (إِدْبَارًا) أي إن أدبروا وأعرضوا عنك. وقابلوك بالإهانة والذم والمنع لعلمك بأن إحسانهم إليك وإساءتهم عليك كل ذلك مخلوق لله تعالى. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ فلا إساءة لهم حتى تذمهم عليها إلا إذا أمر الشرع بذمهم أو معاقبتهم فيفعل حينئذ ما أمره الشرع به تعبداً فمتى أملك ذم الناس فارجع على ما بينك وبين ربك. (وَأَقْنَعْ بِعِلْمِهِ تَعَالَى فِيكَ) بأن تنظر إلى ما أعرضوا عنك بسببه أو ذممت به من أجله أو أهنت فإن كان تعالى يعلم منك وجوده فارجع إليه بالتوبة والاستغفار؛ نظرا إلى أن السنة الخلق أقلام الحق وإن لم تجده في نفسك فارجع إليه بالكفاية به عن علم غيره. وقل بلسان الحال والمقال: أنت تعلم براءتي وكفى بك وكيلًا. وارجع إليه بالدفع عنك عبودية وتضرعا. وعلامة الاكتفاء بعلم الله التحفظ من الوقعة فيمن آذاك والقصد في العمل بأسباب الرفع حيث توجهت والقيام لله بالعبودية افتقارا فيما أنت فيه ثم إن قنعت بعلم الله فيك ورضيت به فكان لك في ذلك أعظم سلوان عما يفوتك من جهة المخلوقين بل لا تجد لذلك وقعا في نفسك فإن لم ترض بذلك ولم تقنع به؛ فمصيبتك بذلك أعظم من مصيبتك بأذى الناس لك بل لا مصيبة في أذى الناس البتة. وقال إبراهيم التيمي لبعض أصحابه: ما يقول الناس في؟ فقال: يقولون: إنك مرء. فقال: الآن طاب العمل. قال بشر: اكتفى - والله - بعلم الله

فلا يحب أن يدخل مع الله علم غيره. وقال: سكون النفس إلى قبول المدح لها اشد عليها من المعاصي.

**تنبيهات: الأول: الناس في قبول المدح على ثلاثة أقسام:**

قسم قبله من حيث الطبع والملاءمة وهم العوام.

وقسم رده لما ورد من ذمه؛ وهم العباد والزهاد لحديث: «إن المدح هو الذبح<sup>(1)</sup>»، وحديث: «احثوا التراب في وجوه المداحين<sup>(2)</sup>». وقال عليه الصلاة والسلام للذي مدح عنده رجلا: قطعتم عنق صاحبكم.

ومعنى حديث: «ربا الإيمان في قلبه<sup>(3)</sup>» في حق هؤلاء أي ربا بزيادة الخوف والإشفاق من المكر به والاستدراج. ومعناه في حق العارف: أنه يفرح بالمدح ويضيفه إلى مولاه الذي به تولاه فيرد الصنعة إلى صانعها ويشهد في الفطرة فاطرها فيكون ذلك مدحا للصانع ووصفا للفاطر لا ينظر به إلى نفسه ولا يعجب بوصفه.

ومر بشر الخافي بالناس فقالوا: هذا لا ينام الليل ولا يفطر النهار، فبكى وقال: لا أذكر أني سهرت ليلة كاملة لكن الله يلقي في القلوب أكثر مما يفعله العبد لطفًا به.

وقسم: قبلوه وهم العارفون من حيث أن السنة الخلق أقلام الحق. فالعارف يحمده الله على ما أجرى من المدح فيقبض عند الذم ويسقط عند المدح لشهوده المدح من ربه فلا ينظر إلى وصفه ولا يعجب بنفسه فيكون ذلك مزيدا في حاله ومقامه لغيبته عن نفسه. ففي الحديث: «إذا مدح المؤمن ربا الإيمان في قلبه<sup>(4)</sup>». وقد مدح ﷺ جماعة؛ كأي بكر

(1) أخرجه ابن عبد البر في الاستذكار: (98/7).

(2) أخرجه الطبراني (239/20 ، رقم 566).

(3) أخرجه الطبراني (170/1 ، رقم 424) بلفظ: "إذا مدح المؤمن في وجهه ربا الإيمان في قلبه".

(4) أخرجه الطبراني (170/1 ، رقم 424).

وعمر وعثمان وعلي، وابن عمر، وجعفر وأبي هريرة، وأبي ذر وغيرهم كأبي عبيدة وأشج عبد القيس، وزيد بن ثابت.

ومدح ابن عطاء الله شيخه أبا العباس المرسى بقصائد وقعت منه موقعا. وقال: أيـدك الله بروح القدس نحو ما كان يقول رسول الله ﷺ لشاعره حسان بن ثابت. وبهذا النظر والشهود الجمعى استقام لهم من مدحهم لأنفسهم ما لم يستقم لغيرهم كما وقع لسيدى عبد القادر وسيدى أبي الحسن الشاذلى، وسيدى أبي العباس المرسى وغيرهم. مع أن حب المدح عندهم من الرذائل والصدق القبيح.

وبالجملة: فشرط المدح الاقتصار على الحق في محله من غير زيادة مضرة ولا نقصان مغل، وأن يكون المدح حقا وإلا فلا يجوز ذكره ولا قبوله وأن يزيد المدوح خيرا فإن زاده شرا أو جهل حاله حرم لأنه ظلم له، ولأن غالب النفوس على التضمر به فيحمل عليه عند الجهل.

الثاني: إذا أطلق الله ألسنة الخلق بالثناء عليك ولا أهلية فيك لذلك فاعرف الحق لأهله واثن على الله تعالى بما هو أهله شكرا لنعمة إطلاق الألسنة بمدحك من غير استحقاق لذلك ولا ثبوت أهلية.

قال المناوي: ولما اختفى الإمام مالك زمن الفتنة قال لمطرف: ما يقول الناس فيّ قال: الصديق يثني والعدو يقع. قال: ما زال الناس هكذا بهم عدو وصديق لكن نعوذ بالله من تنابح الألسنة بالذم. انتهى.

الثالث: قال الخواص وغيره: أحذر إذا مدحت أن تقول: نحن أقل الناس أو نحن تراب نعال الناس لأنك تريد بذلك التبري مما توهمت أن الناس ظنوه فيك من الفرح بالمدح فذلك يزيدك عندهم رفعة، بل الزم السكوت موها أنك تحب المدح فإنه أقوى في رياضة النفس وتهذيبها. قال: وهذا أمر يجب عندنا فعله على كل من كان تحت سلطان نفسه.

وأما من غلب نفسه فهو بالخيار بين أن يجيب عن نفسه وبين أن يسكت. ولقد بلغنا أن شخصا كان يسب الإمام عليا بن أبي طالب كرم الله وجهه فجمعهما يوما محفل فمدح عليا على خلاف عادته، فقال له الإمام علي: أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك.

وقال الشيخ محي الدين بن عربي: ينبغي لمن مدحه أحد أن يشكر ويستغفر معا وأن يحثو التراب في وجه المادح لحديث: «احثوا التراب في وجوه المداحين»<sup>(1)</sup>. وصورة ذلك أن يأخذ أحدهما كفا من تراب ويرمي به بين يدي المادح برفق ثم يقول سرا: وماذا عسى أن تمدح من خلق من هذا التراب الذي تطأه الأقدام. انتهى من شرح شهية السماع والمناوي<sup>(2)</sup>.

تتمة: قوله: واقنع بعلمه فيك إلى آخره: قال المناوي: علامة القنوع بعلمه تعالى؛ والاكتفاء به: التحفظ من الوقعة فيمن آذاك والقصد في العمل بأسباب الدفع حيث توجهت والقيام لله بالعبودية افتقارا فيما أنت فيه.

ثم قال: (وَأَنْظُرْ إِلَيْهِمْ بِعَيْنَيْنِ) لأن من نظر إليهم بعين الشريعة وحدها يقع في مقتهم واحتقارهم وفي الشماتة بهم إذا أقيمت عليهم الحدود والتعزيرات ولا يخفى ما في ذلك. ومن نظرهم بعين الحقيقة وحدها أيضا عذرهم حتى لا ينهاتهم عن المنكر فيكون شريكا لهم في معصيتهم.

(1) تقدم تخريجه.

(2) انظر شرح شهية السماع: (41) مخطوط في الزاوية.



## الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وقال سيدي علي الخواص: من نظر إلى العصاة بعين الشريعة فقط؛ فمن لازمه أن يزدري بهم والازدراء بشيء من العالم يرجع في الحقيقة إلى صنع الله والازدراء بالصنع كفر، فالسلامة أن ينظر إليهم بعينين (عَيْنِ الشَّرِيعَةِ) المطهرة (بِالْأَمْرِ) والأمر اقتضاء فعل غير كف أو اقتضاء كف لكن بلفظ كف (بِالْمَعْرُوفِ) والمعروف اسم لما أمر به الشرع (وَالنَّهْيِ) والنهي اقتضاء الكف عن الفعل بغير لفظ كف (عَنِ الْمُنْكَرِ) والمنكر اسم لما نهي عنه. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيان من جهة الصورة وإن كانا في المعنى واحدا، فمن أمر بالمعروف فقد نهي عن المنكر، ومن نهي عن المنكر فقد أمر بالمعروف؛ لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده كما إذا قيل له اسكن فكأنه قال: لا تتحرك أيضا إذ لا يتحقق السكون بدون الكف عن التحرك.

قال النووي في شرح مسلم: هذا الباب — أي باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر — قد ضيع أكثره في أزمان متطاولة ولم يبق منه إلا رسوم قليلة وهو باب عظيم به قوام الأمر وملاكه. وإذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح، وينبغي للعاقل أن يعتني بهذا الباب؛ فإن نفعه عظيم لاسيما وقد ذهب معظمه، ويخلص نيته ولا يهابن أحدا لارتفاع مرتبته، وعلو منزلته فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ ﴿وَمَن يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ واعلم أن الأجر على قدر النصب، ولا يترك أحدا لصداقته، ومودته ومداهنته، وطلب الوجاهة عنده، ودوام المتزلة لديه، فإن صداقته ومودته له توجب له حرمة وحقا، ومن حقه أن ينصحه ويهديه إلى مصالح آخرته وينقذه من مضارها، وصديق الإنسان ومجبه من سعى في عمارة آخرته وإن أدى ذلك إلى نقص في دنياه. وعدوه: من سعى في ذهاب آخرته، وإن حصل بسبب ذلك صورة نفع في دنياه. وإنما كان إبليس عدوا لنا لهذا وكانت الأنبياء

عليهم الصلاة والسلام أولياء للمؤمنين للسعي بهم في مصالح آخرتهم وهدايتهم إليها<sup>(1)</sup>.  
انتهى.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية إذا تعدد من يقوم به إن قام به من فيه غناء في كل موضع: سقط عن الباقيين فإن لم يوجد لذلك إلا واحدا كان فرض عين في حقه اتفاقا. وهكذا كل فرض كفاية. ويتعين أيضا إذا كان في موضع لا يعلم فيه إلا هو. وكذلك من يرى زوجته أو ولده على منكر أو تقصير في المعروف.

ويشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: معرفة كل وأن لا يؤدي ذلك إلى ما هو أعظم منه مفسدة وأن يظن الإفادة لئلا يكون ذلك عبثا واشتغالا بما لا يعني. فإن قيل يجب وإن لم يفد إعزازا للدين؛ قلنا ربما يكون ذلك إذلالا له. فالأولان: شرطان للجواز فيحرم عند فقدهما. والثالث: للوجوب فيسقط عند عدم ظن الإفادة، ويبقى الجواز. وهل الأفضل حينئذ التغيير؛ وهو مذهب مالك وابن حنبل وابن المسيب أو السكوت؟ وأما من يحمل وحده على المشركين وهو يظن أنه يقتل؛ فإنه إنما يجوز إذا غلب على ظنه أنه ينكئ فيهم بقتل أو جرح أو هزيمة. ونظم بعضهم هذه الشروط بقوله:

مَعْرِفَةُ الْمُنْكَرِ وَالْمَعْرُوفِ      ف      وَالظَّنُّ فِي إِفَادَةِ الْمَوْصُوفِ      وَف  
وَالْأَمْنُ فِيهِ مِنْ أَشَدِّ النَّكَرِ      ر      كَقَتْلِ شَخْصٍ فِي قِيَامِ الْخَمْرِ      ر

ويشترط أيضا: أن يكون المنكر مما أجمع على تحريمه أو ضعف مدرك القائل بجوازه، فعلى حنفي عن شرب النبيذ.

وذكر في محيط الحنفية: أن للحنفي أن يحتسب على الشافعي في أكل الضبع، وفي متروك التسمية عمدا. وللشافعي أن يحتسب على الحنفي في شرب المثلث والنكاح بلا

(<sup>1</sup>) انظر شرح النووي على مسلم: (24/2).

ولي. وأما ما اختلف فيه فلا ينكر على مرتكبه إن علم أنه يعتقد تحليله بتقليد القائل به: كصلاة مالكي. ينسى في ثوبه مقلدا للشافعي في طهارته بشرط طهارة فرجه قبله عنده، فإن علم أنه يرتكبه مع اعتقاد تحريمه نهي لانتهاكه الحرمة.

زروق: وإن لم يعتقد التحريم ولا التحليل والمدرک فيهما متواتر: أرشد للترك برفق من غير إنكار ولا توبيخ لأنه من باب الورع، ولا تشتط عدالة الأمر والناهي على المشهور بل قال الإمام: وعلى شارب الخمر أن ينكر على الجلاس.

وقال الغزالي: يجب على من غصب امرأة للزنى أن يأمرها بستر وجهها عنه، وذلك لأن ترك المنكر والنهي فرضان متميزان ليس لمن ترك أحدهما أن يترك الآخر **لخير**: «مر بالمعروف وإن لم تأته، وانه عن المنكر وإن لم تحتبه».

ولا يشترط أيضا: إذن الإمام فيهما ولا يختصان بالولاية لأن المسلمين في الصدر الأول؛ كانوا يأمرؤن الولاية أنفسهم وينهؤنهم من غير نكير لأحد ولا توقف على إذن. ويشترط ظهور المنكر في الوجود من غير تجسس ولا استنشاق ريح ليتوصل لذلك المنكر ولا يبحث عما أخفي بيد أو ثوب، أو حانوت، أو دار فإنه حرام. والظاهر أن حرمة الإقدام على ذلك لا تمنع وجوب النهي عنه بعد ذلك. وأما عفو عمر رضي الله عنه عن شارب خمر اطلع عليه ليلة فإنه نظر إليه من خلال باب فإن ذلك ليس مذهبنا.

وأقوى مراتبه: اليد، ثم اللسان برفق ولين، ثم الإنكار بقلبه وهو أضعف الإيمان. وصورة تغييره بالقلب أن يقول في نفسه: لو كنت أقدر على الأمر والنهي لفعلت ويغض ذلك الفعل. ولا يداهن فاعل المنكر وتارك المعروف بمجالسته أو مخالطته، أو مضاحكته، أو مواكلته، أو بموافقته، ويتركه على ذلك كله إلا أن يخافه فلينتقل إلى المداواة.

وفي الأثر: «إذا رأى أحدكم منكرا لا يستطيع النكير عليه فليقل ثلاث مرات: اللهم إن هذا منكر فأنكرناه، فيكون له ثواب من أمر ونهي».

وإذا نصب للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحد تعين عليه وهو المسمى بالمحتسب في عرف الناس يحتسب في حق الله تعالى وفي حقوق العباد الخاصة. كمطل المديان الموسر وتعدي الجار في جوار الجار إذا استدعاه صاحب الحق. وفي حقوق العامة كتعطل سوق البلد، وانهدام سوره، وترك أهله رعاية أبناء السبيل المحتاجين مع عدم بيت المال، وينكر على من يغير هيئات العبادات كالجهر في الصلاة السرية وبالعكس، وعلى من يزيد في الأذان، وعلى من يتصدر للإفتاء والتدريس أو الوعظ وهو ليس من أهله، وعلى القضاة إذا احتجبوا عن الخصوم أو قصروا في النظر في الخصومات. وعلى أئمة المساجد المطروقة إذا طولوا في الصلاة. وبهذا يعلم أن الأمر والنهي لا يقتصران على الواجب والحرام. وينبغي أن يحسب برفق وسكون متدرجا إلى الأغلظ فالأغلظ بحسب حال المنكر.

وفي المحيط للحنفية: أن من رأى غيره مكشوف الركبة ينكر عليه برفق ولا ينازعه إن لج. وفي الفخذ ينكر عليه بعنف ولا يضر به إن لج. وفي السوء أدبه وإن لج قتله. والمحتسب عليه: كل إنسان ولو صبيا أو مجنونا، فمن رآهما على زنى أو شرب خمر؛ وجب عليه المنع، ولا يلزم على ترك الصلاة إذ لم يخاطبا بها وهما مخاطبان بالامتناع من الفساد. وفي وجوب الاحتساب على البهائم إذا أخذت في الإفساد وعدمه، أو يفرق بين مالا مشقة فيه فيجب، وما فيه مشقة فلا يجب.

وينبغي للأمر والنهي أن يقصد وجه الله تعالى وإعزاز دينه ونصره وإعلاء كلمته وإظهار طاعته، وأمره دون الرياء والسمعة، والحماية لنفسه، فإنه إن قصد ذلك نصره الله تعالى ووقفه، وإن قصد حماية نفسه؛ خذله الله وأذله. فإنه بلغنا عن عكرمة أن رجلا مر بشجرة تعبد من دون الله فغضب وقصدها ليقطعها فلقى إبليس في صورة إنسان فنهاه عن قطعها فأبى وقال له: ارجع وأنا أعطيك عن كل يوم أربعة دراهم تجدها تحت فراشك فرجع ووجد ذلك أياما فانقطع ذلك عنه. ثم قصد الشجرة ثانية ليقطعها فعرض

له إبليس أيضا في صورة إنسان فقال له: لا تطيق قطعها؛ أما أول مرة فكان خروجك غضبا لله فلو اجتمع الخلق لم يقدرُوا على ردك. وأما الآن فإنما خرجت حيث لم تجد الدراهم فإن تقدمت إليها لأدقن عنقك فرجع وترك الشجرة.

وفي شرح شهية السماع: إن من ضعف الإيمان أن يسكت المرء عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوفا من الخلق.

وروى أبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن عبد العزيز العمري قال: من ترك الأمر والنهي من أجل مخافة المخلوقين نزلت منه هيبة الله فلو أمر ولده أو بعض مواليه لاستخف به<sup>(1)</sup>. فقد ورد: أن اللعنة تنزل على من حضر رجلا يضرب أو يقتل ظلما ولم يدفع عنه.

وفي الحديث: «إن الله ليسأل العبد يوم القيامة حتى يقول له: ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره، فإذا لقن الله عبدا حجته قال: يا رب رجوتك وفررت من الناس».

وفيه: «لا يحقرن أحدكم نفسه إذا رأى أمرا لله عليه فيه مقال فلا يقول فيه فيقال له يوم القيامة: ما منعك إذا رأيت منكرا أن تقول فيه؟ فيقول: أي رب خفت الناس فيقول: إياي كنت أحق أن تخاف<sup>(2)</sup>».

وقال أنس بن مالك: من سمع أحدا يفعل منكرا ولم ينهه جاء يوم القيامة أصم مقطوع الأذنين.

وقال عمر رضي الله تعالى عنه: سيأتي على الناس زمان يكون صالحهم فيه؛ من لا يأمر ولا ينهى. فيقول الناس: ما رأينا منه إلا خيرا لكونه؛ لم يغضب الله.

(1) انظر الحلية لأبو نعيم: (284/2).

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: (7168).

وقال ابن مسعود: إذا مات الرجل ولم يذمه أحد من جيرانه فاعلموا أنه مDAHن والمداهن: من يرضى الناس بما ينقص دينه كما أن المداراة إرضاء الناس بما ينقص ديناه فالأولى حرام والثانية مستحبة.

وقال الثوري: يأمر الرجل من يعلم أنه لا يقبل منه ليكون له ذلك معذرة عند الله. وقال سيدي علي الخواص: عليك بالأمر والنهي فإن ذلك من زكاة العلم. فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود؛ إذا ترك العلماء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذهبت الهيبة منهم، وصارت في السفهاء والأشرار.

وقال الثوري: إذا رأيت القارئ محبباً في جيرانه محموداً عند إخوانه فاعلم أنه مDAHن.

وفي الحديث: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطاناً ظالماً لا يجل كبركم ولا يرحم صغيركم، ويدعو خياركم فلا يستجاب لهم، ويستنصرون فلا ينصرون ويستغفرون فلا يغفر لهم<sup>(1)</sup>».

وفيه: «إذا هابت أمتي أن يقولوا للظالم: أنت ظالم فتودع منهم<sup>(2)</sup>».

وفيه: «ما من قوم يكون فيهم رجل يعمل بالمعاصي وقدروا أن يغيروا عليه فلم يغيروا عليه إلا عمهم الله بعذاب قبل أن يتوبوا<sup>(3)</sup>». واحترز في الحديث مما إذا كان الإنكار تغريراً بالنفس ولحوق ضرر بها فلا يجب لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ ولحديث: «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه أي يتعرض لما لا يمكنه. وفي الأحاديث تحذير عظيم لمن سكت عن النهي فكيف بمن داهن، فكيف بمن رضي، فكيف بمن أعان، نسأل الله العافية والسلامة.

(1) أخرجه أبو داود (121/4 ، رقم 4336) ، والبيهقي (93/10 ، رقم 19983)

(2) أخرجه ابن بطال في شرح البعاري: (51/10).

(3) أخرجه الطبراني (203/10 ، رقم 10467)

وعن ابن أبي الدنيا في كتاب "الأمر بالمعروف": إن الله أوحى إلى يوشع بن نون؛ إنني مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم، وستين ألفاً من شرارهم. فقال: فكيف يا رب؟ هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فقال لهم لم يغضبوا لغضبي وكانوا يواكلونهم ويشاركونهم (1).

وقال مالك بن دينار (2): أوحى الله تعالى إلى ملك من الملائكة أن أقلب مدينة كذا وكذا على أهلها. قال: يا رب؛ إن فيهم عبدك فلانا ولم يعصك طرفة عين. فقال: قلبها عليهم وعليه، فإن وجهه لم يتغير لي ساعة قط.

قال البيهقي: ذكر أنه يقوم كثرة رؤية المنكرات مقام ارتكابها في سلب القلوب نور التمييز والانكار؛ لأن المنكرات إذا كثر على القلب ورودها وتكرر بالعين شهودها ذهبت عظمتها من القلوب شيئاً فشيئاً إلى أن يراها الإنسان فلا يخطر بباله أنها منكرات ولا يمر بفكره أنها معاصٍ لما أحدث من تكرارها من تألف القلوب لها.

وفي القوت لأبي طالب المكي عن بعضهم: أنه مر يوماً بالسوق فرأى بدعة فبال الدم من شدة إنكاره لها بقلبه، وتغير مزاجه لرؤيتها، فلما كان اليوم الثاني مر فرآها فبال دماً صافياً، فلما كان اليوم الثالث مر فرآها فبال البول المعتاد؛ لأن حرارة الإنكار التي أثرت في بدنه ذلك الأثر ذهبت فعاد المزاج إلى حاله الأول. وصارت البدعة كأنها مألوفة عنده معروفة. هذا أمر مستقر لا يمكن جحوده. انتهى من القسطلاني في باب إذا انزل الله بقوم عذاباً.

وعن علي كرم الله وجهه: من نهى عن المنكر وشأن الفاسقين، وغضب إذا انتهكت حرمة الله غضب الله له.

وقد مثل في الحديث المداهن في حقوق الله والواقع فيها، والقائم عليها بثلاثة نفر كانوا في سفينة فاقتسموا منازلهم، فصار لأحدهم أسفلها، فأراد أن يخرق السفينة من

(1) انظر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن أبي الدنيا: (76/1).

(2) تقدمت ترجمته.

أسفل ليقرب منه الماء فيصنع مهراقا للماء. فقال بعضهم اتركوه أبعد الله من جهته ما شاء.

وقال بعضهم: لا تدعوه يخرقها فيهلكنا ويهلك نفسه، فإن هم أخذوا على يده نجما ونجوا وإلا هلك وهلكوا.

وقال علي كرم الله وجهه: أفضل الأعمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وشأن الفاسق بغضه لأهل المعروف، فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن ومن نهى عن المنكر رغم انف المنافق.

وجاء في الحديث «إن أفضل الأعمال الإيمان بالله، ثم صلة الرحم، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن أبغض الأعمال إلى إلهي الله أضداد هذه<sup>(1)</sup>».

وقال كعب الأحبار: جنة الفردوس خاصة لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وفي الحديث: «من قيل له اتق الله فغضب أوقف يوم القيامة، فلم يبق ملك إلا مر به وعاتبه، وقال له قيل لك اتق الله فغضبت»، يعني يوبخه بذلك.

وقال عبد الله بن مسعود: إن من أكبر الذنوب عند الله تعالى أن يقال للعبد اتق الله فيقول عليك بنفسك.

وفي الحديث: «إن من الناس مفاتيح للخير، مغاليق للشر، وهو الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومنهم مفاتيح للشر مغاليق للخير: وهو من يامر بالمنكر وينهى عن المعروف. فطوبى للأول وويل للثاني<sup>(2)</sup>». نسأل الله السلامة والعافية.

(وَأَقَامَةُ الْحَدِّ) والتعزيرات ليترجروا وذلك رحمة لهم من حيث تطهيرهم، فقد رجعت الشريعة إلى الرحمة بالعصاة كالحقيقة، قال تعالى ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله. الآية. وروى الشيخان حديث: «إنما أهل الدين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق

(<sup>1</sup>) أخرجه في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ الميثم رقم: (13454)، ومسنند أبي يعلى: (6839).

(<sup>2</sup>) أخرجه ابن ماجه رقم (237) عن أنس بن مالك.



فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد<sup>(1)</sup>».

وروى ابن ماجه حديث: «إقامة حد خير من مطر أربعين ليلة في بلاد الله<sup>(2)</sup>». وحديث: «أقيموا حدود الله في القريب والبعيد، ولا تأخذكم في الله لومة لائم<sup>(3)</sup>» فإذا تقرر هذا فلا ترأف لمحدود، أو مقتول، بل أفرح له من التطهير رحمة به. ولا تقل: مسكين هذا ما كان يستحق ذلك، فإن ذلك ادعاء مقام في الرحمة فوق رحمة من قدر عليه ذلك. ولا تقل: يستحق هذا ما جرى له لأن في ذلك رائحة شماتة بالمسلمين، بل اسأل الله التفريج عنه، فإنه تعالى ما يترل بعبد عقوبة إلا جزاء لعمل أحصاه الله ونسيه العبد.

فرع: قال سيدي زروق: ثبوت المزية لا يقضي برفع الأحكام الشرعية وإجراء الأحكام الشرعية لا يرفع خصوصية المزية، فمن ثبت عليه حق، أو لزمه حد، أو وقع عليه مع حفظ حرمة الإيمانية أصل، فلا يمتنع عرضه إلا على قدر الحق المسوغ له، وإن أثبتت حرمة مزية دينية لم ترتفع إلا بموجب رفعها. فالولي ولي وإن أتى حداً أو أقيم عليه، ما لم يخرج لحد الفسق بإصرار وإدمان ينفي ظاهر الحكم عنه بالولاية «لا تلغنه فإنه يحب الله ورسوله»، «ولو سرقت فاطمة لقطعت يدها» وقد أعادها الله من ذلك «ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله». فمن ثم أفق الشبلي<sup>(4)</sup> بقتل الحلاج<sup>(5)</sup>

(1) أخرجه مسلم في كتاب الحدود: (441)، والبخاري: (6788) عن عائشة.

(2) أخرجه ابن ماجه: (2537) عن ابن عمر.

(3) أخرجه ابن ماجه: (2540).

(4) تقدمت ترجمته.

(5) هو الحسين بن منصور الحلاج، أبو مغيث: فيلسوف، يعد تارة في كبار المتعبدين والزهاد، وتارة من الملحدين. أصله من بيضاء فارس، ونشأ بواسط العراق (أو بتستر) وانتقل إلى البصرة، وحج، ودخل بغداد وعاد إلى تستر. وظهر أمره سنة 299هـ فاتبع بعض الناس طريقته في التوحيد والامان. ثم كان ينتقل في البلدان وينشر طريقته سرا، وقالوا: إنه كان يأكل يسيراً ويصلي كثيراً ويصوم الدهر، وأنه كان يظهر مذهب الشيعة للملوك (العباسيين) ومذهب الصوفية للعامة، وكثرت الوشايات به إلى المقتدر العباسي فأمر بالقبض عليه، فسجن وعذب وضرب وهو صابر لا يتأوه ولا يستغيث. قال ابن خلكان: وقطعت أطرافه الأربعة ثم حُز رأسه وأحرقت جثته ولما صارت رمادا أُلقيت في دجلة ونصب الرأس على جسر بغداد. وادعى أصحابه أنه لم يقتل وإنما أُلقي شبهه على عدو له. انظر طبقات الصوفية: (307).

والحريري<sup>(1)</sup> بضربه وإطالة سجنه. وقال هو نفسه: ما على المسلمين أهم من قتلي نصحا للدين من دعاوى الزنادقة، لا إقرارا على نفسه وإعانة على قتله لما علم من براءته. والله تعالى أعلم. (وشكر إحسانهم) إن أحسنوا إليك، لأنهم واسطة والواسطة يجب شكرها شرعا، وشكرها أن تدعو لمن أو صل الله تعالى إليك نعمة على يده، وتثنى عليه امتثالا لأمر الله تعالى وعملا بما جاءت به الشريعة. قال تعالى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا دَيْكَ﴾.

وفي الحديث: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله<sup>(2)</sup>» رواه النعمان بن بشير.

وفيه: «أشكر الناس لله أشكرهم للناس<sup>(3)</sup>» رواه أسامة بن زيد.

ويجب أيضا شكر من أحسن إليك لأن الله تعالى اختصه بأن أقامه بذلك، وأهله له. ومن أسمائه تعالى الشكور فليخلق العبد بذلك، وهذا هو حق الشرع.

وفي الحديث أيضا: «من صنع إليكم معروفا فكافئوه فإن لم تكافئوه فادعوا له له حتى تظنوا أنكم كافئتموه».

وأكل ﷺ عند قوم وقال: «أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة».

وأكل هو وأصحابه عند أبي الهيثم بن التيهان<sup>(1)</sup> فقال لهم: «أثيبوا أحاكم. فقالوا ما إثابته؟ قال الدعاء فجعلوا يدعون له». وقيل: كان هو الداعي وهم يؤمنون على دعائه.

(1) هو القاسم بن علي بن محمد بن عثمان أبو محمد الحريري البصري الأديب الكبير صاحب المقامات المشهورة. ومن مؤلفاته درة الفواص في أوهام الخواص، وحلة الاعراب، وله ديوان شعر. كان دميم الصورة غزير العلم، ترجمت مقاماته إلى اللاتينية وغيرها من اللغات. توفي 516هـ. انظر وفيات الأعيان: (1/419).

(2) أخرجه أحمد في مسنده وابن ماجه رقم: (4008) مع اختلاف بسيط في اللفظ والمعنى متفق.

(3) أخرجه أحمد والترمذي رقم: (1955) عن أسامة بن زيد.

## إعطاء الحقوق وكف الأذى والصبر

(و) انظر إليهم أيضا (بِعَيْنِ الْحَقِيقَةِ بِالْعُذْرِ إِنْ عَصَوْا) أي أعذرهم في معصيتهم وزللهم (فَإِنَّهُمْ مَجْبُورُونَ) حقيقة على ذلك. وذلك بأن تشهد أن الله تعالى مادام يخلق المعصية للعبد فلا تمكنه التوبة النصوح التي ما بعدها ذنب أبدا. فإذا انتهى خلق المعصية فيه تاب لا محالة، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ بل لو قدر أنه أراد المعصية لم يجد ما يعصي به (أَوْ) أعذرهم أيضا (إِنْ مَنَعُوكَ) كان محمد بن واسع إذا سأل أحدا حاجة يقول: قد رفعنا أمرها إلى الله فإن أذن لك في قضائها حمدناك وإن لم يأذن لك في قضائها أعذرناك. (أَوْ آذُوكَ فَإِنَّ الْمَانِعَ الضَّارَّ) حقيقة (هو الله تعالى) فإنك إن تأثرت بمنعهم، أو إذايتهم لك فذلك ينافي التوحيد، قال ابن عطاء الله:

لَا تَشْتَغِلْ بِالْعُتْبِ يَوْمًا لِلْوَرَى فَيُضِيعَ وَقْتُكَ وَالزَّمَانُ قَصِيرٌ  
وَعَلَامَ تَعْتَبُهُمْ وَأَنْتَ مُصَدِّقٌ أَنَّ الْأُمُورَ جَرَى بِهَا الْمَقْدُورُ  
هُمْ لَمْ يُوقُوا لِلْإِلَهِ بِحَقِّهِ أَتَرِيدُ تَوْفِيقَهُ وَأَنْتَ حَقِيرٌ  
وَأَشْهَدُ حُقُوقَهُمْ عَلَيْكَ وَوَفَّيْهَا وَاسْتَوْفِ مِنْكَ لَهُمْ وَأَنْتَ صَبُورٌ  
فَإِذَا فَعَلْتَ فَأَنْتَ أَنْتَ بِعَيْنٍ مَنْ هُوَ بِاللَّحَائِقِ عَالِمٌ وَبَصِيرٌ  
وَعَامِلُهُمْ بِإِعْطَاءِ الْحُقُوقِ) ومنه تزيل الناس منازلهم (وَكُفَّ الْأَذَى عَنْهُمْ وَاصْبِرْ)  
أي الأذى (مِنْهُمْ) هذا من باب الاستخدام؛ لأن الأذى الذي يكف عنهم ليس هو الذي  
يصبره منهم. في هذا حث على صبر الأذى من الخلق والحلم عنه بما في ذلك من الفضل.  
وحكي: أنه كان في زمن عيسى عليه السلام امرأة صالحة فجعلت يوما العجين في التنور  
وصلت، وجعل إبليس ولدها في التنور فلم تلتفت إليه فدخل زوجها فوجد الولد في

(١) مالك بن النبهان الانصاري الاوسي، أبو الهيثم: صحابي. كان يكره الاصنام في الجاهلية، ويقول بالتوحيد، هو وأسعد بن زرارة. وكانا أول من أسلم من الانصار بمكة. وهو أحد النقباء الاثني عشر. شهد بدرًا وأحدا والمشاهد كلها. وتوفي في خلافة عمر، وقيل: شهد صفين مع علي، وقتل بها سنة 37 هـ. انظر الإصابة: (الترجمة 7603).

التنور يلعب بالجمر، وقد جعله الله عقيقا أحمر فأخبر عيسى بذلك، فسألها عن عملها فقالت: يا روح الله؛ ما أحدثت إلا توضأت، ولا طلب مني أحد حاجة إلا قضيتها وأحتملُ الأذى من الأحياء كما يحتمله الأموات منه.

وقال كعب الأحبار: لا يوصف بالصبر إلا من صبر على أذى الناس ولم يقابلهم بنظير ذلك: يعني لا سرا ولا جهرا حتى بالدعاء عليهم والتوجه إلى الله فيهم لحديث: «دعى على ظالم فقد انتصر منه».

وقال عمر بن عبد العزيز: إياك أن تقابل من ظلمك فرما تكون أظلم ممن ظلمك بمقابلتك له وذلك أنه يظلمك مرة فتصير تلغنه وتشتمه كلما تذكرت فعله حتى تستوفي بذلك حقك وتكون عليك بعد ذلك التبعة.

وقال عيسى ~~عليه السلام~~: من احتمل كلمة سفه فأعرض عنها فإن لها عند قائلها أخوات يجيبك بها.

وقال مالك بن دينار<sup>(1)</sup>: أشد ما على السفيه الإعراض عن جوابه، وإظهار عدم التأثر به. وقال: ليس بحليم من نفذ غضبه في حمار أو هرة.

وقال بعض العارفين: لا يثبت لعبد مقام في التوكل حتى يؤذى ويصبر على الأذى. قال تعالى: ﴿ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾ وقال: ﴿ودع أذيتهم وتوكل على الله﴾ وقال: ﴿فاتخذه وكيلا واصبر على ما يقولون﴾. وفي الحديث: «وجبت محبة الله لمن أغضب فحلم<sup>(2)</sup>».

وأغلظ رجل لمعاوية فحلم عنه، فقيل له أتحملم عن هذا؟ فقال: إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا.

وقال الأحنف بن قيس: وجدت الحلم أنصر لي من الرجال صدق؛ لأن من حلم كان الناس أنصاره. وسبه رجل وأكثر عليه فلم يحفل به. فقال له الرجل إياك أعني.

(1) تقدمت ترجمته.

(2) أخرجه ابن عساكر عن عائشة والقضاعي في مسند الشهاب: (333/1).

وقال له: وعنك أحلم وكمل ما تريده من السب قبل أن تصل سفهاء قومي فيؤذونك. وبعض من لا يعلم يحسب الحلم مهانة، والعاقل يراه من كمال العزة.

وقال بعض الحكماء: أحلم الناس من قدر على الكلام وهو كثير صمته، ومن قدر على العقوبة وهو كثير عفو، وقدر على الحركة وهو كثير وقاره.

وقال معاوية: إني لأجد للعفو عن الذم لذة وأريحية ما أجدها لشيء من لذات الدنيا.

ومن تمام الحلم: قبول العذر من كل معتمر صادقاً كان أو كاذباً، فإن الاعتذار دليل على الندم. والندم توبة، وقد يكون الاعتذار حياءً والحياء من الإيمان.

وفي الحديث «من لم يقبل من متصل عذراً صادقاً كان أو كاذباً لم يرد علي الحوض<sup>(1)</sup>». وفيه: «المعترف بالذنب كمن لا ذنب له»، وقالوا: الاعتراف يهدم الاقتراف. واعتذر رجل إلى إبراهيم بن المهدي فقال: قد أغناك الله بالعذر عن الاعتذار وأغنانا بحسن النية عن سوء الظن.

وقال الحسين عليه السلام: لو أن رجلاً شتمني في أذني هذه، وأعتذر إليّ في الأخرى لقبلت عذره. وقال الحسن بن وهب<sup>(2)</sup>:

مَا أَحْسَنَ الْعَفْوَ مِنَ الْقَادِرِ لَا سِيَّماً مِنْ غَيْرِ ذِي نَاصِرٍ  
إِنْ كَانَ لِي ذَنْبٌ وَلَا ذَنْبَ لِي فَمَالَهُ غَيْرُكَ مِنْ غَافِرٍ  
بِحُرْمَةِ الْوَدِّ الَّذِي بَيْنَنَا<sup>(3)</sup> لَا تُفْسِدَ الْأَوَّلُ بِالْآخِرِ

قال الشاذلي: آذاني إنسان فضقت به ذرعاً، فنمت، فقبل: من علامات الصديقية كثرة الأعداء، وعدم المبالاة بهم.

(1) أخرجه ابن عساكر في معجمه وضعفه.

(2) الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين الحارثي، أبو علي: كاتب، من الشعراء. كان معاصراً ل أبي تمام، وله معه أخبار. وكان وجهها، استكبه الخلفاء، ومدحه أبو تمام. وهو أخو سليمان (وزير المعتز والمهتدي) ولما مات رثاه البحرني. توفي 250هـ. انظر فوات الوفيات: (36/1).

(3) الأبيات الثلاثة يخاطب الحسن بهم المأمون.

وقال مسلم بن قتيبة: من أعظم المروءة الصبر على أذى الناس. وقال يحيى بن الحسين: من طلب السلامة احتمل الملامة. وقال الفضيل: بلغنا أن الله تعالى إذا أراد أن يتحرف عبده سلط عليه من يظلمه.

وفي الحديث: «إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا لقدرتك عليه».

وقال علي كرم الله وجهه: ما ظلم أحد أحدا، ولا أساء أحد على أحد حقيقة لأن الله تعالى: ﴿من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها﴾.

وقال يحيى بن معاذ: لو ظلمني أحد ولم أكافئه كان أحب إلي من ترك زنية.

وقال كعب الأحبار: من صبر على أذى امرأته أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيوب عليه السلام، ومن صبرت على أذى زوجها لها أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى آسية بنت مزاحم.

وقال أيوب بن خلف: من لم يصبر على أذى زوجته فكيف يدعي أن له درجة عليها.

وقال المدائني<sup>(1)</sup>: شكى نبي من الأنبياء إلى ربه سوء خلق امرأته، فأوحى الله تعالى إليه إني جعلت ذلك حظك من العقاب. وكان السلف يصبرون على أذى أزواجهم لهم لشهودهم أن ذلك من سوء معاملتهم لربهم. فكما خالف أحدهم ربه كذلك خالفته زوجته. وهي قاعدة أكثرية لا كلية، ليخرج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لعصمتهم. قاله الشعراي.

وكانوا يؤدون إلى المرأة حقها على الكمال، ولا يمنعهم مخالفتها لهم من ذلك عملا بحديث: «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك»<sup>(2)</sup>، وفي الحديث: «استوصوا

(1) هو علي بن محمد بن عبد الله، أبو الحسن المدائني: رواية مؤرخ، كثير التصانيف، من أهل البصرة. سكن المدائن، ثم انتقل إلى بغداد فلم يزل بها إلى أن توفي. أورد ابن النديم أسماء نيف ومئتي كتاب من مصنفاته في المغازي، والسيرة النبوية، وأخبار النساء، وتاريخ الخلفاء، وتاريخ الوقائع والفتوح، والجاهليين، والشعراء، والبلدان. قال ابن تغري بردي: "وتاريخه أحسن التواريخ وعنه أخذ الناس تواريخهم". بقي من كتبه "المردقات من قريش - ط" "رسالة، و" التمازي - خ". انظر الاعلام: (323/4).

(2) أخرجه البعاري في التاريخ (360/4) وأبو داود (290/3)، رقم 3535

بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان لا يملكن أنفسهن، وإنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله<sup>(1)</sup>». «

وفيه: «من تزوج امرأة بصداق وهو ينوي أن لا يؤديه فهو زان، ومن استدان ديناً وهو ينوي أن لا يقضيه فهو سارق».

وقال عمر رضي الله عنه: أتجاوز عن زوجتي لحقوق لها علي، فإنها مدة يسيرة لأنها ستره بيني وبين النار، وخازنة لمالي وحافظة له، وتغسل ثيابي وظهر لولدي وبشارة لي وخبازة وطباخة.

وفي الحديث: «إذا هربت المرأة من بيت زوجها لم تقبل لها صلاة حتى ترجع وتضع يدها في يديه، وتقول: اصنع ما شئت<sup>(2)</sup>». ويقال: إن المرأة إذا صلت ولم تدع لزوجها ردت عليها صلاتها حتى تدعو لزوجها. قاله السمرقندي.

وتزوج بعضهم امرأة فلم يزل يخدمها حتى استحييت المرأة وشكت ذلك لأبيها، وقالت: قد تحيرت في هذا الرجل أنا في منزلي منذ سنين فما ذهبت قط لخلاء إلا وحمل الماء قبلي إليه. وتزوج رجل امرأة جميلة فأصابها الجدري حين زفافها، فحزن أهلها لذلك خوف أن يستقبحها فأراهم الرجل أن به رمداً، فأظهر أنه عمي حتى زفت إليه المرأة فبقيت عنده عشرين سنة، ثم ماتت ففتح عينيه فقبل له في ذلك، فقال: فعلت ذلك لأجل أهلها حتى لا يحزنوا، فقبل له: سبقت أصحابك بهذا الخلق. وتزوج بعض الصوفية امرأة سيئة الخلق فكان يصبر عليها فقبل له: لم لا تطلقها؟ فقال: أخشى أن يتزوجها من لا يصبر على خلقها فيتأذى بها.

قال الشعرائي: ومن أخالق السلف: كثرة الصدقة، فإن لم يجد أحدهم ما يتصدق به تصدق بكف أذاه عن الناس وتحمل أذاهم<sup>(3)</sup>.

(1) أخرجه البخاري: (4787)، ومسلم: (2671) عن أبي هريرة.

(2) أخرجه في الفوائد المعلقة لعبد الرحمن بن عمرو النصري: (14/1).

(3) انظر تنبيه المفترين للشعرائي: (237).

وقال محمد بن كرام<sup>(1)</sup>: لا تعادوا أحدا حتى تنظروا إلى عمله، فإن كان عمله حسنا فإن الله لا يسلمه إليكم وإن كان عمله سيئا فخفاياه تكفيه<sup>(2)</sup>.  
وقد أوحى الله إلى داود يا داود: اتل على بني إسرائيل نبأ المرأتين وقع بينهما شر، فقالت احدهما للأخرى: عليك بابنك الأجدم، فأولدها الهل مجذوما حين عابت على صاحبته. يا داود من التفت إلى حرم المؤمنين سلطت على حرمة من يكثر الالتفات إلى حرمة.

فائدة: قال السري السقطي: الحلم على خمسة أقسام:

الأول: حلم غريزي وذلك هبة من الله تعالى للعبد به يعفو عن من ظلمه ويعطي من حرمة، ويصل به رحمه وإن قطعه.

الثاني: حلم تحالم بكظم غيظك رجاء الثواب وفي القلب كراهة.

الثالث: حلم مذموم رياء وسمعة وصاحبه حاقذ ساكت، يرائي جلساءه.

الرابع: حلم كبر لا يراه أهلا بأن يجاوبه

الحلم: حلم مهانة ومذلة. انتهى من تنبيه المغترين.

وقال بعض الصحابة: ما كانا نعد إيمان الرجل إيمانا حتى يصبر على الأذى. وقال

تعالى: ﴿ولنصبرن على ما آذيتموننا﴾ فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر لأنه يتعاون فيه على باعث الدين باعث الشهوة والغضب معا.

وقال المرصفي<sup>(1)</sup>: لا يبلغ عبد الكمال حتى يتخلق بالستر والحلم عن جميع العالم،

فيستر فضائحهم، ولا يعاقبهم إلا بطريق الشرع كالشمس، قاله المناوي. (و) عاملهم

(1) محمد بن كرام بن عراق بن حزابة، أبو عبد الله، السجزي: إمام الكرامية، من فرق الابتداع في الإسلام كان يقول بأن الله تعالى مستقر على العرش، وأنه جوهر. ولد ابن كرام في محستان وجاور بمكة خمس سنين، وورد نيسابور، فحبسه طاهر بن عبد الله. ثم انصرف إلى الشام وعاد إلى نيسابور فحبسه محمد بن طاهر، وخرج منها (سنة 251 هـ إلى القدس، فمات فيها. انظر تذكرة الحفاظ: (106/2).

(2) انظر تنبيه المغترين للشمراني: (308).



أيضا (بِسياسة النصيحة) مأخوذة من نصيح الرجل ثوبه إذا خاطه، فشبها فعل الناصح فيما يتحراه من صلاح المنصوح لما يسده من خلل الثوب. وقيل: من نصحت العسل إذا صفيته من الشمع لأن الناصح يصفى قوله من الغش.

عياض: حد الصيرفي النصيحة بأنها فعل الشيء الذي به الصلاح، وحدها الخطابي بأنها كلام يراد به الخير بالمنصوح، وهو إظهار ما خفي من المراشد والمحامد في أسباب الدين والدنيا.

وفي الحديث: «الدين النصيحة»<sup>(2)</sup> رواه مسلم؛ أي معظم الدين النصيحة، كـ: «الحج عرفات».

قال أبو محمد: إذا رأيت من يفسد صلاته أو وضوءه أو غير ذلك، ولم تعلمه فإنك مأثوم. وقيل: إلا أن تعلم أنه لا يسمع فيسقط عند ذلك. انتهى.

فإذا كان هناك من يشاركك في النصيحة فهل يجب عليك سواء طلب منك أم لا؟ كمن رأيت يفسد عبادته. فقال ابن عربي: لا تجب. وقال الغزالي: تجب. وسياسة النصيحة أن تكون سرا، وبتحرير النية، وبرفق، وأن تكون بعد استشارة المنصوح وبعد تمهيد البساط له، وأن يرى نفسه دون المنصوح، وأن يوطن نفسه على تحمل أذى المنصوح ولا يندم على نصحه إذا أذاه.

وربما قال بعضهم: أنا الظالم الذي نصحته فيجعل النصيح الذي هو واجب ظلما. وإنما حصل له الأذى من جهله بطريق السياسة في النصيح ونصح الكفار المحاريين بسؤال الهداية لهم والقتال حتى يتوبوا وإن كانوا هم لا يشعرون.

(1) هو علي بن خليل المصنفي الشافعي المديني، نور الدين: صوفي مصري. له تأليف، منها "منهج السالك إلى أشرف المسالك - خ" اختصر به مقاصد السلوك من الرسالة القشيرية و "أحسن التطلاب" في آداب المريد، و "كشف غوامض النقول من مشكل الآيات والآثار وأخبار الرسول" توفي بالقاهرة، وهو شيخ الشعرايين. انظر شذرات الذهب: (8) 174.

(2) أخرجه مسلم رقم: (196). ولفظه: عن عليم الداري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

ومن نصحنأ لأولادنا وأرقائنا وأقاربنا وتلامذتنا تأديهم حتى بالضرب والمهجر. قاله في شرح شهية السماع<sup>(1)</sup>.

ومن أفضل النصيحة: الإصلاح بين الناس. وعن أبي أمامة قال: امش ميلا وعد مريضا، وامش ميلين وزر أخا، وامش ثلاثة أميال وأصلح بين الناس. وعن أنس: من أصلح بين اثنين أعطاه الله بكل كلمة عتق رقبة.

وفي الحديث: «أفضل الناس عند الله يوم القيامة المصلحون بين الناس». والإصلاح بين الناس شعبة من شعب النبوة والتصرم بين الناس شعبة من شعب السحر.

وقال في سراج الملوك: إذا نصحك أحد فلم تحمد عاقبته فلا تلمه؛ بان تقول: أنت فعلت، وأنت أمرتني، ولولا أنت... الخ. فهذا ضجر وندم وخفة. قيل: من بذل نصحه لمن لا يشكره فهو كمن بذر في السباح، وإذا استشارك أحد فجرد له النصيحة، لأنه بالاستشارة خرج من عداوتك إلى موالاةك، وأعلم أن جرعة النصيحة لا يقبلها إلا أولو العزم.

وقال عمر بن عبد العزيز لميمون بن مهران: قل لي في وجهي ما أكره، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره.

وفي منشور الحكم: ودك من نصحك، وقلاك من مشي في هواك.

وقال الأسنوي<sup>(2)</sup>: إذا أراد الله بالعبد خيرا ساق إليه من يذكره إذا غفل، وإذا أراد الله به شرا ساق إليه جليس السوء، ينهاه عن الأخذ بالموعظة، وكان ﷺ ينصح أصحابه بما نفعهم ونفع من بعدهم.

(1) انظر شرح شهية السماع: (64) مخطوط في الزاوية.

(2) هو إبراهيم بن هبة الله بن علي الحميري، نور الدين الأسنوي: قاض، شافعي، من أهل إسنا (بصعيد مصر) ويقال له (الاسناني) أيضا، نسبة إليها. تنقل في القضاء، وتوفي بالقاهرة معزولا. له (شرح المنتخب) في أصول الفقه، و (نثر ألفية ابن مالك) في النحو، و (شرحها) واختصر (الوسيط) و (الوجيز) في الفقه. انظر: طبقات الشافعية: (86/6).

قال الشعراي: من أخلاق السلف أنهم لا ينصحون إلا ممن عرفوا منه بالقرائن قبول ذلك منهم، وإلا أعرضوا عنه<sup>(1)</sup>.

قلت: وهذا مذهب مرجوح والجمهور على أنه يجب النصح وإن لم يؤثر.  
وقال أبو الدرداء<sup>(2)</sup>: إن شئتم لأنصحن لكم، إن أحب عباد الله إليه الذين يحبون عبادة الله إلى عبادته ويعملون في الأرض نصحا، ويقال من اصفر وجهه من النصيحة اسود لونه من الفضيحة.

### الشفقة والإحسان وحسن الخلق

(و) عاملهم (بالشفقة) عليهم بالرفقة (وَالرَّحْمَةَ) على الصغير منهم والحرمة للكبير، والشفقة على العصي، والتواضع للمطيع والاحسان لمن أساء، والدعاء له بالصلاح من حقد عليه ولا ذلة لأحد.

ففي الحديث: «من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا فليس منا»<sup>(3)</sup>. رواه البخاري وأبو داود والترمذي.

وقد سأل شيعي سنيا فقال له: الرحيم: من حقيقته أن لا يعذب أحدا من عبيده، فكيف يعذب عبادته بالنار وهو الرحمن الرحيم؟ فجأوبه السني بأن قال: أسماء الله عديدة منها: المنتقم وكل أسمائه تعالى حقيقية لا مجاز فيها، ولا بد لكل اسم أن يظهر ما يدل عليه في عالم الوجود والخلق، فمن خصه الله بالرحمة فلا يعذبه، ومن خصه بالانتقام فلا يرحمه، فبهت الشيعي وكأنه القم حجرا، أو كما جرى. قاله ابن أبي جمرة.  
وفي الحديث: «لن تؤمنوا حتى تتراحموا»، قالوا كلنا رحيم يا رسول الله قال: «إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة الناس عامة.

(1) انظر تنبيه المقربين للشعراي: (79).

(2) تقدمت ترجمته.

(3) أخرجه الترمذي بلفظ: "ليس منا من لم يرحم صغيرنا" رقم: (1919) وأخرجه أبو داود: (4943).

قال بعضهم: علم اتساع الرحمة الإلهية من تحقق به رحم جميع العالمين، وليس في العلوم أكثر نفعا منه، فإنه تعالى يرحم صاحبه بعدد من رحمه من جميع العالم ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾. قاله المناوي.

قيل: أوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السلام: أن أهبط إلى بلدة كذا، فاجعل عاليها سافلها، فإنه قد اشتد غضبي عليهم، إذ ركب منهم في هذه الليلة سبعون ألف ذكر سبعين ألف فرج زنا. قال: فذهب إليها وكانت سبع مدائن فرفعها على خافقة من جناحه حتى وصل بها إلى عنان السماء، وأراد أن يقلبها، وكان لامرأة منهم عجين فقامت إليه ولها طفل نائم في المهد، فلما أن وضعت يدها في العجين استيقظ الطفل وصاح، فحارت المرأة في أمرها، يدها في العجين وولدها يصيح. فقالت: من عظم رحمتها وشفقتها تخاطب ولدها: يا ولدي إن ربي تعالى من كرمه حلیم لا يعجل بالعقوبة على من عصاه، فسكن غضب الرب من كلام الرب وشفقتها. وقال لجبريل: ضع القرى مكافأ فقد سكن غضبي. بمناجاة هذه المرأة لولدها وإني حلیم لا أعجل بالعقوبة على من عصاني فكانت شفقتها سببا للشفاعة في من استحق العذاب وهم لا يعلمون.

وفي الحديث: «أنا وكافل اليتامى كهاتين وأشار بأصبعيه<sup>(1)</sup>». وقال ابن عطاء الله: حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة ولا منزلة في الجنة أفضل من ذلك.

وفي طبقات الأولياء: قال سيدي إبراهيم الدسوقي: من لم يكن عنده شفقة على الخلق لا يرقى مراقي أهل الله. وقد ورد: أن موسى عليه السلام لما رعى الغنم لم يضرب واحدة منها بعصاه ولا جوعها ولا آذاها، فلما علم الله تعالى قوة شفقه على غنمه بعثه الله نبيا وجعله كليما، راعيا لبني إسرائيل وناجاه، فمن أعز الخلق وأشفق عليهم ترقى إلى مراتب الرجال. اهـ<sup>(2)</sup>.

(1) أخرجه البخاري: (6005)، والترمذي: (1918).

(2) انظر الطبقات الكبرى للشمراي: (179/1).

ولي الحديث: «خير أمتي علماؤها، وخير علمائها رحماؤها»... إلى أن قال: «ألا وإن العالم الرحيم يحییء يوم القيامة وإن نوره قد أضاء»<sup>(1)</sup>... الحديث. وفيه: «لا تترع الرحمة إلا من شقي»<sup>(2)</sup>. رواه البخاري. وفيه: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله»<sup>(3)</sup>. رواه الشيخان. وفيه: «لا يدخل الجنة إلا رحيم، قيل يا رسول الله كلنا يرحم. قال: ليس أن يرحم أحدكم صاحبه، إنما الرحمة أن يرحم الناس»<sup>(4)</sup>. رواه البزار.

ورد شريك ثملة فارسية رآها في سفرته بمقدار أربعة فراسخ رحمة بها. وكان يفت الخبز للنمل، ويذر لهم الدقيق على بيوتهم، وكان أبو الدرداء يشتري العصفير التي يمسكها الأطفال ويرسلها إلى عشها. وكذلك الأمهات يرسلها إلى أولادها إذا صيدت، وليس هذا من باب تسييب السوائب، إنما كان رحمة للأم والولد.

وكان ثابت البناني إذا سأله أحد حاجة دعا له فيها بسجود صلاته حتى تقضى. وقال أبو سليمان الداراني: الرضا عن الله تعالى والرحمة للخلق من أخلاق المرسلين.

وقال الفشني في شرح الأربعين: روى ابن عساكر عن بعض أصحاب الشبلي، قال: رأيت الشبلي في النوم بعد موته فقال: أوقفني تعالى بين يديه. وقال يا أبا بكر أتدري بم غفرت لك: قلت بإخلاصي في عبوديتي؟ أم بحجي وصومي وصلاتي؟ أم بهجري إلى الصالحين؟ أو بإدامة أسفاري في طلب العلوم؟ قال: لا. قلت: يا رب هذه المنجيات التي كنت أعقد عليها حسن ظني. قال أتذكر حين تمس على درب بغداد فوجدت هرة صغيرة قد أضعفها البرد، وهي تنزوي إلى جدار من شدة [البرد]<sup>(5)</sup>. فأدخلتها في الفرو رحمة بها وكان ذلك وقاية لها من ألم البرد؟ فقلت: نعم. قال: برحمتك

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس.

(2) أخرجه أبو داود: (4942)، والترمذي: (1923).

(3) أخرجه البخاري: (5997).

(4) أخرجه البزار والبيهقي في شعب الإيمان.

(5) في نسخة "الثلج".

لذلك الهرة رحمتك (1).

قال الشاذلي: اعلم يا أخي إن كان لك تشوفٌ إلى تلك الدرجات العظيمة أن تكون رحيمًا لنفسك ولغيرك، بل ترحم الجاهل بعلمك، والذليل بجاهك والبهايم بعطفك ورفع غضبك، وأقرب الناس من رحمة الله أرحمهم لخلقهم.

وفي مسلم: أنه ﷺ قال: «إن الله تعالى خلق مائة رحمة أنزل منها رحمة بين الجن والإنس والبهايم». وفي رواية لمسلم: «كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة فيها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة، وأخر الله تسعة وتسعين رحمة يرحم بها عباده في الآخر (2). انتهى.

وقال أيوب السخيتاني: إن رحمة قسمها في دار الدنيا، وأصابني منها الإسلام. إني لأرجو من تسع وتسعين رحمة ما هو أكثر من ذلك.

قال ابن أبي جمرة: وهذا كما جاء في الحديث: «إن نار الآخرة فضلت على جميع نار الدنيا بتسعة وتسعين جزءا».

(1) انظر الفشي على الأربعين حاشية الشيرخيتي: (104).

(2) الحديث أخرجه مسلم بخمس روايات متفاوتة طولًا وقصرًا، وكلها تختلف ألفاظها عن ما في النص، وإن كان المعنى واحدًا في بعضها، ومتقاربًا في بعضها:

الأولى: حديث رقم: 6972، عن أبي هريرة قال: جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل بالأرض جزء واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلاق حتى ترفع الدابة حافرًا عن ولدها خشية أن تصيبه.

الثانية: رقم: 6973، خلق الله مائة رحمة، فوضع واحدة بين خلقه، وعبأ عنده مائة إلا واحدة. عن أبي هريرة.

الثالثة: رقم 6974، إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهايم والهوام، فيها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعًا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة. عن أبي هريرة.

الرابعة: إن لله مائة رحمة، فمنها رحمة بما يتراحم الخلق بينهم، وتسعة وتسعون ليوم القيامة. عن سلمان الفارسي.

الخامسة: إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماوات والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة؛ فيها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة. الحديث 4، رقم 6975

والخامس: 6976 كلاهما عن سلمان الفارسي.

وفي الحديث الصحيح: «إن الله تعالى غفر لبغي بسقاية كلب، وعذب امرأة بهرة حبستها حتى ماتت جوعا وعطشا. قيل إن رجلا إسرائيليا كان مسرفا على نفسه، فمر على كلب يلهث عطشا فرق له ورثي، فترل في بئر، ونزع خفه وسقاه فيه، فشكر الله له ذلك وغفر له. وأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان: قل لذلك المسرف: غفرت له جميع ما اقترف برحمته على خلقي<sup>(1)</sup>».

وروي: أن سبب ابتلاء يعقوب بفرقة يوسف عليهما السلام: أنه ذبح عجلا بين يدي أمه وهي تخور، فلم يرحمها.

وفي الحديث: «من قتل عصفورا عبثا عج إلى الله يوم القيامة»، ويقول: يا رب سل هذا لم يقتلني عبثا ولم يقتلني لمنفعة<sup>(2)</sup>».

قال الشعرائي في كتاب تنبيه المغترين: قال ابن عون: أول ما يرفع من هذه الأمة الشفقة والألفة. وكان حبيب الأعجمي إذا قرأ آية فيها: إن الله غضب على قوم ييكي، ويقول: يا رب قد أدخلت قلبي رحمتهم، فإن شئت فاغفر لهم، وإن شئت فعذبني عنهم. قلت: ولعل مراده بالرحمة التي دخلت قلبه فتح باب سؤاله ربه أن يرضى عنه، لا التحجير على الله في غضبه عليه، فإن الكامل من شأنه أن يغضب لغضب الحق، ويرضى برضاه. وقد كان حبيب هذا معدودا عند التابعين فيمن غلبت عليه الشفقة والرأفة والتسليم، ولكن غلب عليه الحال. وأهل الأحوال لا يقتدى بأفعالهم عند أهل الطريق، فإن الله تعالى أرحم بعباده من حبيب، فرحمته دون رحمة الحق بيقين. والله أعلم. انتهى<sup>(3)</sup>.

وفي الحديث عن أنس: «والذي نفسي بيده لا يضع الله الرحمة إلا على رحيم»، قلنا يا رسول الله: كلنا رحيم، قال: ليس الرحيم الذي يرحم نفسه وأهله خاصة، ولكن الذي يرحم المسلمين».

(1) تقدم ترجمته.

(2) أخرجه أحمد في مسنده وابن حبان والنسائي رقم: (4451).

(3) انظر تنبيه المغترين: (120).

وفيه عن أبي بكر رضي الله عنه: «قال الله عز وجل: إن كنتم تريدون رحمتي فارحموا خلقي».

وكان أبو مسلم الخولاني<sup>(1)</sup> من المبالغين في التخلق بالرحمة حتى أنه ربما مر على القوم فيخاف أن لا يردوا عليه السلام فلا يسلم عليهم، ويقول: أخاف أن يحرقوني فلا يردوا على السلام فتلعنهم الملائكة بسبي.

وكان أبو عبد الله الأنطاكي يقول: إذا علمت من الناس الوقوع في عرضك إذا رأوك فلا تجتمع بهم رحمة بهم إلا في أوقات الصلاة والخيرات.

وقال أبو عبد الله المغاري<sup>(2)</sup>: من لم ينظر إلى العصاة بعين الرحمة فقد خرج عن طريق القوم.

وكان معروف الكرخي إذا رأى عاصيا دعا له بالمعروف، ورجا له الرحمة، ويقول: إن رسول الله ﷺ بعث بالرحمة، ولنجاة الناس والرحمة لهم، والشيطان بعث بإهلاكهم والشماتة فيهم. ومر على قوم بين أيديهم الطرب والشراب، فقيل له: ألا تدعو عليهم؟ فقال: اللهم كما فرحتهم في الدنيا ففرحهم في الآخرة. فقالوا: إنما سألناك أن تدعو عليهم. فقال: معاذ الله أن أدعو على مسلم، وإن الله تعالى لا يفلحهم في الآخرة إلا أن تاب عليهم في الدنيا وغفر لهم.

وقال الله تعالى لموسى: يا موسى أحب الخلق إلي من إذا سمع أن أخاه المؤمن شاكته شوكه حزن لها كأنها شاكته هو.

وقال الحسن البصري: من علامة الأبدال كثرة الشفقة والرحمة لعامة المسلمين.

وقال معروف الكرخي<sup>(1)</sup>: من قال كل يوم: اللهم ارحم أمة محمد ﷺ، اللهم أصلح أمة محمد ﷺ، اللهم فرج عن أمة محمد ﷺ كتبه الله من الأبدال.

(1) عبد الله بن ثوب (بضم ففتح) الخولاني: تابعي، فقيه عابد زاهد، نعمة الذهبي بريجانة الشام. أصله من اليمن. أدرك الجاهلية، وأسلم قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره، فقدم المدينة في خلافة أبي بكر، وهاجر إلى الشام، وفي أكثر المصادر: وفاته بدمشق، وقعه بداريا. وكان يقال: أبو مسلم حكيم هذه الأمة. انظر تذكرة الحفاظ: (46/1).

(2) أبو عبد الله المغاري لم أحد ترجمته.



وقال زهير بن نعيم: وددت أن جلدي يقرض بالمقاريض، ولا يعصي أحد ربه.  
وقال شقيق البلخي: من لم يرحم الرجل السوء فهو أسوأ حالا منه. ومن ذكر عنده  
رجل بسوء فوجد لذكره حلاوة فهو رجل سوء.

وكان ميمون بن مهران إذا سمع يقوم ظلّموا مرض من أجلهم أياما حتى يصير يعاد،  
فإذا أخبر بشفائهم زال مرضه.

قلت: ومن له صح هذا المقام فلا يطلب أحدا من الأطباء إذ لا يد لهم إلا فيما تولد  
من الطعام<sup>(2)</sup>. (و) عاملهم (بالإحسان) عليهم ولو منعوك بقضاء حوائجهم. واصطناع  
المعروف والإحسان إلى مسيئهم، وتنفيس كربتهم، وإشباع جوعتهم، وستر عورتهم،  
وغير ذلك. وفي الحديث: «كل معروف صدقة»<sup>(3)</sup>. والمعروف يقي سبعين نوعا من  
البلاء، ويقي ميتة السوء. والمعروف والمنكر خلقتان منصوبتان للناس يوم القيامة، فالمعروف  
لازم لأهله يقودهم ويسوقهم إلى الجنة والمنكر لازم لأهله يقودهم ويسوقهم إلى النار.

وروى الشعبي: عن ابن عباس قال: يأتي أصحاب المعروف في الدنيا يوم القيامة،  
فيغفر لهم بمعروفهم، وتبقى حسناتهم جامعة فيعطونها لمن زادت سيئاته.

وروى ابن وهب عن أبي زيد عن أبي حازم قال: كانت امرأة من بني إسرائيل  
وزوجها صالح، قالت لزوجها: اسأل ربك أن يرزقنا ولدا صالحا، فسأل الله تعالى فأتاه  
آت من الله فقال: إن الله يخبرك بين أن يهب لك ولدا ويجعل موته ليلة بنائه بأهله،  
فشاور زوجته فقالت: اقبل عطية الله، يكون قرّة أعيننا في حياته وأجرا لنا إن مات  
فيكون لنا خيران: دنيوي وآخروي. قال: نعم ثم وطئها فأتت بغلام فعلمناه القرآن، فلما  
بلغ زوّجناه، فليلة بنائه بأهله بات أهله يجمعون حنوطه وكفنه، وابوه يقول: نغدو عليه

(1) معروف بن فربوز الكرخي، أبو محفوظ: أحد أعلام الزهاد والمتصوفين. كان من موالى الإمام علي الرضى بن موسى الكاظم. ولد  
في كرخ بغداد، ونشأ وتوفي ببغداد. اشتهر بالصالح وقصده الناس للتبرك به حتى كان الإمام أحمد ابن حنبل في حجة من يختلف إليه.  
ولابن الجوزي كتاب في (أخباره وآدابه). انظر وفيات الاعيان: (104/2).

(2) انظر تنبيه المغترين للشعراني: (120).

(3) أخرجه أحمد في مسنده وابن حبان والنسائي عن الشريد بن سويد.

ميتا، فلما أصبح غدا عليه، فقال له من هذا؟ فقال: أنا يا أبت، فاعتنقه وقال: يا بني أخبرني ما ذا أحدثت في ليلتك هذه من العمل؟ قال أتاني شيخ يتوكأ على عصاه فصرع، فقممت عن وسادتي حتى أخذت بيده فرفعته ثم أجلسته على الوسادة، ثم جعلت أتخير له من اللحم حتى شبع فقام على عصاه ثم قال: أحييتن أحياءك الله ثلاث مرات. فقال: من هنا جاءت النعمة، فعمره الله معهما عمرا طويلا. قال ابن زيد: أظنه ملكا في صورة ذلك الشيخ.

وروي: أن عبد الله بن المبارك دخل الكوفة حاجا؛ فإذا بامرأة تنتف بطة ميتة فقال: لم تنتفينها؟ قالت: لاكلها أنا وعيالي، ثم انصرف عنها فسأل عن دارها، ثم أدخل بغلا فقال للمرأة: هذا البغل وما عليه من النفقة والزاد والكسوة فهو لكم. ثم قعد ابن المبارك عن الحج، فلما رجع الناس من الحج جاءه قوم من أهل مرو، فجعلوا يهتثونه بالحج فقال لهم: إني لم أحج في هذا العام لعله، فقال بعضهم: سبحان الله ألم تُودِعْكَ نفقتي ونحن ذاهبون إلى عرفات، وآخر يقول ألم تسقني في موضع كذا وكذا؟ وآخر يقول: ألم تستنزلني كذا وكذا؟ قال لهم: ما أدري ما تقولون أما أنا فلم أحج في هذا العام، قال فلما كان في الليل قيل له في المنام: يا عبد الله بن المبارك إن الله عز وجل قبل صدقتك، وإنه بعث ملكا على صورتك فحج عنك. ثم إنه اجتمع عنده مال فقال: أحج بهذا المال، فخرج حتى وصل الكوفة قال: فوجدت في دار رائحة طعام طيب فقلت: أطعموني من طعامكم، فإني شممت رائحته فاشتهيته فبكت صبية فقالت: يا عم هو علينا حلال وعليك حرام. فقلت: وكيف ذلك؟ قالت: أنا صبية هاشمية ولي ثلاث أخوات وأُمُّ قعد بنا الزمان ولنا ثلاثة أيام ما طعمنا شيئا، فرأت أمنا حمارا مية وأتتنا بشيء من لحمه فنظفناه بالأبزار وطييناه بها، فما شممت فمن تلك الأبزار، فقلت في نفسي: هؤلاء أفضل من الحج، فقلت: اتوني بأمكم. فإذا العجوز؛ فعرفتني بالقصة بعينها فسلمت إليها الدنانير ورجعت إلى بلدي، فرأيت البارئ تعالى في النوم فقال: يا ابن المبارك لأقيم لك ملكا يحج عنك إلى يوم القيامة.

وفي حديث: «إن أسرع صدقة تصعد إلى السماء أن يصنع الرجل طعاما طيبا، ثم يجمع عليه أناسا من إخوانه وكان يقال: البخل جلباب المسكنة<sup>(1)</sup>». وفيه: «أحد مروجبات الجنة إطعام الأخ السغبان<sup>(2)</sup>». وفيه: «من أكرم أخاه المؤمن فإنما يكرم الله». وفيه: «ما من أحد ألقى تحت أخيه المسلم شيئا ليقية من التراب إلا غفر الله له ذنوبه ذلك اليوم؛ ما تقدم من ذنبه وما تأخر».

فها أنا أريد أن أتبع الأحاديث التي فيها الخس على الإحسان إلى المسلمين، وفضل اصطناع المعروف إليهم، وقضاء حوائجهم ليظهر ما في ذلك من الأجر والثواب. وقد خرج بعضهم في هذا الباب أربعين حديثا؛ كالإمام زكي الدين بن عبد القوي المنذري<sup>(3)</sup>، فهناك ما تيسر منه محذوفة الأسانيد طلبا للاختصار:

ففي الحديث: «إن الله عبادا خلقهم لقضاء حوائج الناس، آلى بنفسه أن لا يعذبهم بالنار، فإذا كان يوم القيام وضعت لهم منابر يحدثون الله تعالى عليها والناس في الحساب<sup>(4)</sup>». رواه كثير بن عبد الله بن عمر المزني عن أبيه عن جده.

وفيه: «الخلق كلهم عيال الله، فأحب خلقه إليه أنفعهم لعياله<sup>(5)</sup>». رواه أنس.

وفيه: «إن الله عز وجل خلقا خلقهم لحوائج الناس يفرع إليهم الناس لحوائجهم، أولئك الآمنون غدا من عذاب الله<sup>(6)</sup>». رواه ابن عمر.

وفيه: «من قضى لأخيه حاجة كنت واقفا عند ميزانه، فإن رجح وإلا شفعت<sup>(7)</sup>». رواه أنس.

(1) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان عن حبان بن أبي جبلة.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرک بلفظ قريب من هذا عن جابر بن عبد الله: (3896).

(3) ينظر حل هذه الأحاديث في الترغيب والترهيب للمنذري: (261/3).

(4) أخرجه الطبراني عن ابن عمر / انظر الجامع الصغير 379/1.

(5) أخرجه أبو يعلى في مستدركه و البزار عن أنس والطبراني في الكبير عن ابن مسعود 100/2.

(6) أخرجه الطبراني عن ابن عمر / انظر الجامع الصغير (379/1).

(7) انظر الجامع الصغير: (12183) وعزاه لأبي نعيم في الحلية عن أنس وعبد بن حميد عن جابر.

ولا شك في صلاح من سعى في مصالح المؤمنين، وذنم من خذلهم وترك نصرهم؛  
لحديث: «ما من عبد يدع معونة أخيه بالسعي في حاجة قضيت أو لم تقض إلا ابتلي  
بمعونة من يأثم فيه ولا يؤجر عليه». ومعنى: "قضيت له أو لم تقض": أن العبد إذا ترك  
معونة أخيه حصل له هذا الوعيد وإن قضيت حاجة ذلك العبد.

وفيه: «ما من امرئ مسلم يخذل امرءاً مسلماً في موضع ينقص فيه من عرضه  
وتنتهك فيه حرمة، إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر مسلماً  
في موضع ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمة، إلا نصره الله في موضع يحب فيه  
نصرته<sup>(1)</sup>».

وفيه: «من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو  
في جوف رحله».

وفيه: «من مشى في عون أخيه ومنفعته فله ثواب المجاهدين في سبيل الله». رواه علي  
رضي الله عنه.

وفيه: «من كان وصلة إلى ذي سلطان في منفعة بر أو تيسير عسير أعين على إجازة  
الصراط يوم دحض الأقدام». رواه ابن عمر.

وفيه: «من قضى لأخيه المسلم حاجة كان كمن خدم الله عمره<sup>(2)</sup>». رواه أنس.

وفيه: «لا يرى امرؤ من أخيه زلة فسترها عليه إلا دخل الجنة». رواه أبو سعيد  
الخدري.

وفيه: «من فرج عن مؤمن كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر  
على مؤمن ستر الله عورته، ولا يزال تعالى في عونه ما دام في عون أخيه<sup>(3)</sup>». رواه أبو  
هريرة.

(1) أورده في الجامع الصغير وعزاه لابن حبان عن علي انظر: 99/2

(2) أورده في الجامع الصغير: 218/3 وعزاه لأبي نعيم في الحلية عن أنس

(3) أخرجه مسلم رقم (6853) عن أبي هريرة وأبو داود رقم 4946 عن أبي هريرة والترمذي رقم  
1425/1930/2945 كلهم عن أبي هريرة

وفيه: «من فرج عن مؤمن كربة جعل الله له شعلتين من نور على الصراط يستضيء بضوئهما عالم لا يحصيه إلا رب العزة<sup>(1)</sup>». رواه أبو هريرة.

وفيه: «من مشى مع أخيه في حاجة فناصحه فيها جعل الله بينه وبين النار سبع خنادق ما بين الخندق والخندق ما بين السماء والأرض». رواه ابن عباس.

وفيه: «من ستر مسلماً ستره الله عز وجل في الدنيا والآخرة. ومن فك عن مكروب فك الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته<sup>(2)</sup>». رواه مسلمة بن مخلد.

وفيه: «إن لله عبادة اختصهم بالنعم لمنافع العباد يقرها فيهم ما بذلوها، فإذا منعوها حولها الله عنهم وجعلها في غيرهم<sup>(3)</sup>». رواه ابن عمر.

وفيه: «من أضاف مؤمناً أو حق له في شيء من حوائجه كان حقاً على الله أن يخدمه وصيفاً في الجنة». رواه أنس.

وفيه: «إذا جاءني طالب حاجة فاشفعوا له لكي تؤجروا. ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء». رواه أبو موسى.

وينبغي لمن تولى أمر المسلمين أن يأمر أهل الخير والصالح أن يشفعوا عنده ويظهر لهم السرور بذلك اقتداء به عليه الصلاة والسلام لأنه شرع لنا ذلك لتستنّ ولألة الأمر بذلك. ولأن الأمر بالمعروف مأجور. ولا يأخذ شيئاً في مقابلة شفاعته، لأن ذلك سحت.

وفيه: «من رفع حاجة ضعيف إلى ذي سلطان لا يستطيع رفعها ثبت الله قدميه يوم القيامة».

(1) أخرجه مسلم رقم: (6853) عن أبي هريرة، وأبو داود رقم: (4946).

(2) هذا الحديث والحديث السابق يدخلان في لفظ ومعنى حديث: "من فرج عن مؤمن" وقد تقدم تخريجه.

(3) أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عمر. انظر الجامع الصغير: (379/1).

وفيه: «من أغاث ملهوفاً كتب الله له ثلاثاً وسبعين حسنة واحدة يصلح بها آخرته وديناه والباقي في الدرجات<sup>(1)</sup>». رواه أنس.

وفيه: «إن الله يحب إغاثة اللهفان<sup>(2)</sup>». رواه أنس.

وفيه: «إن من موجبات المغفرة إدخالك السرور على قلب أخيك المسلم وإشباع جوعته وتنفيس كربته<sup>(3)</sup>». رواه جابر.

وفيه: «من مشى في حاجة أخيه المسلم كتب الله له في كل خطوة سبعين حسنة وكفر عنه سبعين سيئة فإن قضيت حاجته على يديه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وإن مات في خلال ذلك دخل الجنة بغير حساب<sup>(4)</sup>». رواه أنس.

وفيه: «من أنعش حقاً بلسانه أجرى الله له أجره حتى يأتي يوم القيامة فيوفيه حسابه». رواه أنس.

وفيه: «من سقى مسلماً شربة ماء بعده الله من النار شوط فرس، يعني خُضِرَ فرس<sup>(5)</sup>». رواه عبد الله بن عمرو بن العاص.

وفيه: «من أطعم أخاه حتى يشبعه أو سقاه حتى يرويه بعده الله من النار سبع خنازق ما بين حندين مسيرة خمسمائة عام<sup>(6)</sup>». رواه ابن عمر.

وفيه: «أيا مسلم كسا مسلماً ثوباً كان في حفظ الله ما بقيت عليه منه رقعة<sup>(7)</sup>».

وفيه: «من سر مؤمناً فإنما يسر الله عز وجل، ومن عظم مؤمناً فإنما يعظم الله عز وجل، ومن يكرم مؤمناً فإنما يكرم الله عز وجل<sup>(8)</sup>».

(1) أخرجه البخاري التاريخ والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس انظر الجامع الصغير: (157)

(2) أخرجه ابن عساكر عن أبي هريرة / انظر الجامع الصغير (329/1)

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن جابر انظر الجامع الصغير (391/1)

(4) سبق تخريجه.

(5) جزء من حديث أخرجه أبو داود رقم: (1682) عن أبي سعيد / وأخرجه الترمذي (2449)

(6) أخرجه النسائي والحاكم في المستدرک عن ابن عمر انظر الجامع الصغير (155/3)

(7) أخرجه أحمد في مسنده وأبو داود (1682) والترمذي (2449) عن أبي سعيد والطبراني عن ابن عباس

(8) تقدم تخريجه.

وفيه: «لما أهل عرصة ظل فيهم امرأ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله».

وفيه: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه لمن يظلمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته. ومن فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة»<sup>(1)</sup>. رواه ابن عمر.

وفيه: «من أغاث ملهوفاً كتب الله له ثلاثاً وسبعين مغفرة واحدة منها صلاح أمره كله واثنان وسبعون له درجات يوم القيامة»<sup>(2)</sup>. رواه أنس.

وفيه: «أفضل الصدقة صدقة اللسان. قيل: يا رسول الله وما صدقة اللسان؟ قال: الشفاعة تفك بها الأسير، وتحقن بها الدم وتجرب بها المعروف إلى أخيك وتدفع عنه الكريهة»<sup>(3)</sup>. رواه سمرة بن جندب.

وفيه: «إذا عاد المسلم أخاه أو زاره في الله يقول الله عز وجل طبت وطاب ممشاك وتبأت في الجنة منزلاً»<sup>(4)</sup>. رواه أبو هريرة.

وفيه: «المؤمن مرآة المؤمن حيث لقيه، ويكف عنه صنيعة، ويحوطه من ورائه». رواه أبو هريرة.

وفيه: «أتدرون ما يقول الأسد في زئيره؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال يقول: اللهم لا تسلطني على أحد من أهل المعروف»<sup>(5)</sup>. رواه أبو هريرة.

وفيه: «من عاد مريضاً لا يزال يخوض في الرحمة حتى إذا قعد استنقع فيها ثم إذا رجع لا يزال يخوض فيها حتى يرجع من حيث جاء»<sup>(6)</sup>. رواه أبو بكر بن حزم عن أبيه عن جده.

(1) أخرجه البخاري (6951) عن ابن عمر ومسلم (6578).

(2) أخرجه البخاري في التاريخ والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس. انظر الجامع الصغير: (157/1).

(3) أخرجه أحمد في مسنده والطبراني في الكبير عن أبي أيوب. انظر الجامع الصغير: (198/1).

(4) أخرجه أحمد في مسنده والبيهقي في سننه عن علي.

(5) أخرجه الديلمي (59/2 ، رقم 2337).

(6) أخرجه أبو داود رقم: (3106) والحاكم عن ابن عباس.

وفيه: «من أقال مسلماً عشرته أقاله الله يوم القيامة»<sup>(1)</sup>. رواه أبو هريرة.

وفيه: «يقول الله عز وجل: أنا الله قدرت الخير والشر، فطوبى لمن جعلت مفاتيح

الخير على يديه، وويل لمن جعلت مفاتيح الشر على يديه». رواه ابن عباس.

وفيه: «مثل المؤمنين فيما بينهم كمثل البنيان يمسك أو يشد بعضه بعضاً». رواه أبو

بردة عن أبيه عن جده.

وفيه: «ما من مسلم يعزي أخاه المسلم بمصيبته إلا كساه الله من حلل الكرامة يوم

القيامة». رواه عبد الله بن أبي بكر بن حزم عن أبيه عن جده.

وفيه: «ألا أخبركم بأفضل من درجات الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى. قال:

إصلاح ذات البين وإفساد ذات البين هي الحالقة». رواه أبو الدرداء.

وفيه: «ينادي مناد يوم القيامة: لا يقوم اليوم أحد إلا أحد له عند الله يد. فتقول

الخلائق سبحانك. بل لك اليد. فيقول ذلك مراراً، بلى. من عفى في الدنيا بعد القدرة

بقدرته». رواه أبو داود.

وفيه: عن ابن عمر: «قيل يا رسول الله أي الناس أحب إليك؟ قال: أنفع الناس

للناس. قيل: فأبي العمل أفضل؟ قال: إدخالك السرور على المؤمن. قيل: وما سرور

المؤمن قال: إشباع جوعته، وتنفيس كربته، وقضاء دينه. ومن مشى مع أخيه في حاجة

كان كصيام شهر رمضان واعتكافه».

وفي رواية ابن عباس: «مشى الرجل مع أخيه في حاجة خير له من اعتكاف شهرين

في المسجد الحرام. ومن مشى مع مظلوم يعينه ثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام، ومن كف

غضبه ستر الله عورته. وإن الخلق السيئ يفسد العمل كما يفسد الخل العسل».

وفيه: «لا تزال الملائكة تصلي على أحدكم ما دامت مائتته منصوبة».

وفيه: «من مشى إلى غريمه بحقه صلت عليه دواب الأرض ونون الماء ونبتت له في

(1) أخرجه أبو داود رقم (3460) وابن ماجه رقم (2199) كلاهما عن أبي هريرة ورواه الحاكم



كل خطوة شجرة تغرس في الجنة، وذنبه يغفر».

وفيه: «من قاد أعمى أربعين خطوة وجبت له الجنة»<sup>(1)</sup>.

وفيه: «من مشى في حاجة أخيه المسلم حتى يشبها أظله الله بخمس وسبعين ألف ملك يدعون له ويصلون عليه إن كان صباحا حتى يمسي وإن كان مساء حتى يصبح ولا يرفع قدما إلا كتبت له حسنة، ولا يضع قدما إلا محيت عنه سيئة».

وفيه: «من رأى عورة أخيه فسترها كان كمن أحيا موءودة في قبرها»<sup>(2)</sup>.

وفيه: «إن أبدال أمتي لم يدخلوا الجنة بالأعمال، ولكن دخلوها برحمة الله وسخاوة النفس، وسلامة الصدر والرحمة لجميع المسلمين»<sup>(3)</sup>.

وفيه: «أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة».

وفيه: «إن لله عبادا خلقهم لحوائج المسلمين أولئك هم الآمنون يوم القيامة»<sup>(4)</sup>.

وفيه: «أحب عباد الله إلى الله أنفعهم لعباد الله».

وفيه: «أحب العباد إلى الله أنفعهم لعياله»<sup>(5)</sup>.

وفيه: «تجافوا عن ذنب السخي فإن الله يأخذ بيده كلما عثر»<sup>(6)</sup>.

وعوتب عبد الله بن جعفر على كثرة عطائه فقال: إن الله عز وجل عودني أن

يتفضل علي وعودته أن أتفضل على عباده، فأخاف إن قطعت أن يقطع.

وفيه: «لن يتقرب العبد إلى الله بأفضل من ريّ كبدٍ جائعة».

وفيه: «أطلب الخير والحوائج عند حسان الوجوه»<sup>(7)</sup>.

<sup>(1)</sup> أخرجه أبو يعلى في مسنده والطبراني في الكبير وابن عدي في الكامل وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر

<sup>(2)</sup> أخرجه أبو داود رقم (4891) والحاكم والبخاري في الأدب عن عقبة بن عامر

<sup>(3)</sup> أخرجه البيهقي في شعب الإيمان

<sup>(4)</sup> أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عمر

<sup>(5)</sup> أخرجه في الجامع الصغير: (45/1) وأسنده إلى عبد الله في زوائد الزهد عن الحسن مرسلا.

<sup>(6)</sup> أخرجه الدارقطني في الأفراد والطبراني في الكبير والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس

<sup>(7)</sup> أخرجه ابن عساكر عن عائشة

وفيه: «ما أعطي الرجل قلب سوء في صورة حسنة». قال الزهري: والله ما عني رسول الله ﷺ الصباغة، ولكن عني التهلُّل عند طلب الحاجة.

وجاء في الحديث: «إن الله تعالى ضمن دين العبد في ثلاثة أشياء: إذا استدان في النكاح مخافة الزنا، أو استدان لإغاثة المسلمين ممن يخرج إلى الغزو، أو لكفن، فإن الله تعالى يرضي خصماء هؤلاء إذا ماتوا قبل قضاء الدين». رواه أنس.

وقال الحسن: قد كبر أنس وضعف ونسي أفضل من ذلك وهو من استدان لنفقته على عياله فاجتهد في القضاء وعجز عنه حتى مات.

ومن أعظم الإحسان ما روي أن محمد بن المنكدر حج 33 حجة، فقال في آخرها وهو بعرفات: اللهم إن واحدة منها عن فرضي، والثانية: عن أبي، والثالثة عن أمي، والباقي لمن وقف موقفي هذا ولم تقبل منه. فلما دفع من عرفات نودي: يا ابن المنكدر أتتكرم على من خلق الكرم والجود؟ وعزتي وجلالي لقد غفرت لمن يقف بعرفات قبل أن أخلق عرفات بألف عام.

ومنه ما ذكره ابن خلكان في ترجمة الواقدي<sup>(1)</sup> أن الواقدي قال: كان لي صديقان أحدهما هاشمي، فنالتني شدة فأرسلت إلى صديقي الهاشمي يواسيني؛ فوجه إليّ كيساً محتوماً فيه ألف درهم فما لبثت أن جاءني رسول صديقي الآخر يشكوا إلي مثل ما شكوت إلى صديقي الهاشمي، فوجهت إليه الكيس بحاله، فلم أمكث أن جاءني صديقي الهاشمي ومعه الكيس كهيئته. فقال: أصدقني عن ما فعلته فيما وجهت به إليك. فعرفته الخبر على وجهه وقال: إنك وجهت إلي وما أملك إلا ما بعثت به إليك، وكتبت إلى صديقنا أسأله المواساة فوجه إلي كيسي بخاتمي. قال الواقدي: فتواسينا الألف درهم فيما بيننا وأخرجنا لزوجتي مائة درهم لكونها هي الحاملة لي أولاً على الرسالة. فتممي الخبر إلى

(1) هو محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، أبو عبد الله الواقدي. من أقدم المؤرخين في الإسلام ومن أشهرهم، حافظ لنحديث. قدم بغداد واتصل بيحيى بن خالد البرمكي في أيام الرشيد. فولاه الرشيد قضاء بغداد واستمر إلى أن تولى. ومؤلفاته عديدة وشهيرة منها: المعاري النبوية، وفتح إفريقية، وفتح مصر والاسكندرية، وتفسير القرآن. وأخباره لا تسعها الهوامش. توفي 207هـ. انظر وفيات الأعيان: (1 506).

المأمون فدعاني فشرحت له الخبر فأمر لنا بسبعة آلاف دينار لكل واحد ألفا دينار  
وللمرأة ألف دينار<sup>(1)</sup>.

وقال: يحب الله تعالى من خلقه إحسان بعضهم إلى بعض حتى أن الطائر في حبسك  
والسنور في دارك لا ينبغي أن تقصر في تعهده بإحسانك.

وقال بعض السلف: لا يتم المعروف إلا بثلاثة: تعجيله، وتصغيره، وكتمه.

وحكى القرطبي في تفسيره: أن جماعة رفعت عاملا إلى أبي جعفر المنصور فحاجها  
العامل وغلبها لأنهم لم يثبتوا عليه كبير ظلم ولا جور. فقام فتى من القوم فقال: يا أمير  
المؤمنين؛ إن الله أمر بالعدل والإحسان وإن هذا عدل ولم يحسن فتعجب أبو جعفر من  
إصابته وعزل العامل<sup>(2)</sup>.

وقيل: اصطناع المعروف لا يضيع ولو مع غير أهله، واصطناع المعروف يقي  
مصارع السوء؛ كما وقع لمحمد بن حمير مع الحية في قصة طويلة.

حاصلها: أنه أتته حية ذات يوم تستجير به من عدوها وقالت: إن أردت اصطناع  
المعروف فافتح لي فاك أدخل فيه فعهدت له أن لا تضره، ففتح لها فاه فانسابت فيه،  
وجاءه رجل فسأله هل لقيها؟ فقال: لا. قال: فاستغفرت من قول لا مائة مرة، وقد  
علمت أين هي، فلما انصرف الرجل وأمنت قالت لي: يا محمد اختر لنفسك إما أن  
أفتك كبذك وإما أن أثقب فؤادك. فخانت ونقضت العهد، فلما يئست من الحياة رفعت  
رأسي إلى السماء وقلت: يا لطيف الطف بي بلطفك الخفي، يا لطيف يا قدير بالقدرة  
التي استويت بها على العرش، ولم يعلم العرش أين مستقرك منه، يا حلیم يا عليم يا علي  
يا عظيم يا حي يا قيوم يا الله إلا ما كفيتني أمر هذه الحية. فلم ألبث أن جاءني ملك على  
صورة رجل قال لي: افتح فمك ففتحت فمي فوضع فيه مثل ورق الزيتون أخضر قال:  
امضغ وابلع فمضغت وبلعت، فرميت بالحية من أسفل قطعة قطعة، فقلت: من أنت

(1) انظر وفيات الأعيان: (506/1).

(2) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: (168/10).

الذي من الله علي بك؟ قال: أنا ملك في السماء الرابعة يقال لي: اصطناع المعروف؛ أمرني تعالى: أن انطلق إلى الجنة فخذ ورقة خضراء فألحق بها عبدي محمد بن حمير. يا محمد عليك باصطناع المعروف فإنه يقي مصارع السوء وإن صنعته لمن يضيع عنده فلا يضيع عند الله.

ومن ذلك ما روي أن بعض الملوك صلب رجلاً قبل قتله، ثم بعث إليه رجلاً يسأله هل مر عليه شيء قط مثل ما هو فيه الآن؟ فسأله فقال: نعم؛ نزل علينا قوم فلم أجد ما أقدمه لهم، فكان ذلك أشد علي مما أنا فيه، فعاد الرجل فأخبره بمقالته، فقال الملك: خلوا سبيله ليس الكريم لعقوبة الملك بموضع، فهذا بلغ به سخاؤه إلى شفاعة الأمير عليه بعد صلبه فكيف بمالك الملوك الذي لا ينقص العطاء خزانة فضله؟.

(و) عامل من يستحقه منهم بـ(حُسْنِ الْخُلُقِ ظَاهِرًا) وأما أهل الكفر والظلم والإصرار على الكبائر فأغْلَظَ عَلَيْهِمْ (مَعَ الْإِنْقِبَاضِ) عنهم (بَاطِنًا) ومن صفة العالم الانقباض في بسط خلق .

وقال الشافعي: الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم، فكن بين المنقبض والمنبسط. قال شقيق: اصحب الناس كما تصحب النار، خذ منها منفعتها واحذر أن تحرقك. وقال: العبادة عشرة أجزاء: تسعة منها في الهرب من الناس، وواحد في السكوت.

فوائد: الأولى: حقيقة حسن الخلق: ملكة يسهل على ذويها تجنب القبيح وفعل الجميل كالصبر عند المكاره والحلم عند الجفاء وحمل الأذى والإحسان للناس، والتودد إليهم، والمصارعة في قضاء حوائجهم، والرحمة بهم، والشفقة عليهم، واللين في القول، والتثبت في الأمور.

وقال أبو القاسم اللجائي: وأن تخاطب الناس بقدر عقولهم، وأن تعامل كل إنسان بما يؤنسه ولا يوحشه، وأن لا يشتكي منك أحد، ولا تشتكي من أحد، والإيثار والكرم والتواضع والأدب، وأن تجازي من أساء إليك بالإحسان. وعلامة ذلك أن لا تريد لمخلوق إلا ما تريد لنفسك.

وقال الحسن البصري: حقيقة حسن الخلق: بذل المعروف وكف الأذى وطلاقة

الوجه.

وقال العلقمي: وحقيقته: أنه صورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنية أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة.

ويدخل في حسن الخلق: الإنصاف في المعاملة، والرفق في المجادلة، والعدل في الأحكام، والإحسان في اليسر، والإيثار في العسر، وحسن الصحبة، ولين الجانب. قاله الفشني<sup>(1)</sup>.

ومن حسن الخلق: الوفاء بالعهد. ومن أحسن ما قيل في حسن الوفاء بالعهد ما أنشده ابن هانئ عن شيخه أبي العلاء:

يَبْنِي وَيَبْنِيكَ ذِمَّةً مَرْغِيَّةً بَدَتْ هُنَالِكُمْ وَأُخْرَى هَاهُنَا  
فَلَقَدْ يَحُولُ الْمَاءُ بَعْدَ صَفَائِهِ وَالْجَوْثُ بَعْدَ ضِيَائِهِ وَأَنَا أَنَا

ومنه: الفتوة وهي غاية الكرم، والإيثار في اصطلاح الصوفية في ألفاظهم. قيل: إن هذا الخلق لا يكون إلا لنبينا ﷺ فإن كل واحد في القيامة يقول: نفسي نفسي، وهو ﷺ يقول أمتي أمتي.

الثانية: ورد في حسن الخلق أحاديث كثيرة:

ففي الحديث: «من سعادة المرء حسن خلقه»<sup>(2)</sup>.

وفيه: «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق». رواه أبو سعيد الخدري<sup>(3)</sup>.

وفيه: «أول ما يوضع في الميزان حسن الخلق»<sup>(1)</sup>.

<sup>(1)</sup> انظر المجالس السنية في الكلام على الأربعين النووية: (175).

<sup>(2)</sup> أخرجه البيهقي في الشعب

<sup>(3)</sup> أخرجه الترمذي رقم: (1962) عن أبي سعيد.

وفيه: «إن العبد ليدرك بحسن خلقه درجة القائم بالليل الصائم بالنهار الظامئ بالهواجر».

وفيه: «من يرد الله به خيرا يجعل خلقه حسنا<sup>(2)</sup>». رواه قبيصة بن ذؤيب.

وفيه: «إن الإنسان إذا كثّر حسن خلقه كثّر بره للناس».

وفيه: «أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق».

وفيه: «إن الله كريم يحب مكارم الأخلاق»<sup>(3)</sup>.

وفيه: «حسن الخلق يمن وسعادة، وسوء الخلق شؤم ورداءة».

وفيه: «إن أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله»<sup>(4)</sup>.

وفي رواية: زيادة: «وإن حسن الخلق ليلبغ درجة الصوم والصلاة». أخرجه البزار

عن أنس.

وفيه: «الخلق الحسن طوق من رضوان الله في عنق صاحبه». والطوق مشدود إلى

سلسلة من الرحمة، والسلسلة مشدودة إلى حلقة من أبواب الجنة، حيثما ذهب الخلق

الحسن جذبته إلى نفسها فتدخله من ذلك الباب الجنة، والخلق السوء طوق من سخط

الله والطوق مشدود إلى سلسلة من عذاب الله. والسلسلة مشدودة إلى حلقة من أبواب

النار. وحيث ما ذهب الخلق السيئ جذبته السلسلة إلى نفسها فتدخله من ذلك الباب إلى

النار<sup>(5)</sup>.

وقيل لرسول الله ﷺ: فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق تؤذي جيرانها

بلسانها، قال: «لا خير فيها هي من أهل النار».

(1) أخرجه الطبراني في الأوسط عن أم الدرداء بلفظ: "أول ما يوضع في الميزان الخلق الحسن"

(2) أخرجه في الشهاب للقضاعي: (255).

(3) أخرجه في الجامع الصغير (317/1)

(4) أخرجه أبو يعلى (237/7 ، رقم 4240) ، والضياء (331/6 ، رقم 2353) . وأخرجه أيضا : البزار كما في كشف الأستار

(27/1 ، رقم 35) . قال الهيثمي (58/1) : رجاله ثقات

(5) وجدت عدة أحاديث في معناه دون لفظه

ولما خلق الله الإيمان قال: اللهم قومي فقواه بحسن الخلق والسخاء، ولما خلق الله الكفر قال: اللهم قوني فقواه بالبخل وسوء الخلق.  
وكان رسول الله ﷺ يكثر في دعائه: «اللهم إني أسألك الصبر والعافية وحسن الخلق».

ومن دعائه عليه الصلاة والسلام في افتتاح الصلاة: «اللهم اهدي لأحسن الأخلاق ولا يهدي لأحسنها إلا أنت وأصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت<sup>(1)</sup>».

وفيه: «إن الخلق الحسن زمام رحمة الله، والزمام في يدي ملك، والملك يجره إلى الخير، والخير يجره إلى الجنة، وإن الخلق السيئ زمام من عذاب الله تعالى في أنف صاحبه، والزمام بيد شيطان والشيطان يجره إلى الشر، والشر يجره إلى النار»<sup>(2)</sup>.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الخلق الحسن يذيب الخطايا كما تذيب الشمس الجليد. وإن الخلق السيئ ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل.

وعن علي عليه السلام أنه قال: من كان فيه أربع خصال بدل الله سيئاته حسنات يوم القيامة: الصدق والحياء والشكر وحسن الخلق. وقيل: عنوان صحيفة المرء حسن خلق، وقيل: مجامع الخير محصورة في أمرين: صدق مع الحق، وخلق مع الخلق. فينبغي للعاقل أن يتأدب بآداب الشريعة، وأن يحسن العشرة مع عباد الله.

وقال وهب بن منبه: مثل سيئ الخلق مثل الفخار المكسور لا يرقع ولا يعاد طينا. وقال الحسن: من ساء خلقه عذب نفسه، ومن كثر ماله كثرت ذنوبه، ومن كثر كلامه كثر سقطه.

وقال أنس: إن العبد ليلبغ بحسن الخلق أعلا درجة في الجنة وهو غير عابد وإن العبد ليلبغ أسفل درك جهنم بسوء خلقه<sup>(1)</sup>. وقيل: حسن الأخلاق كثر الأرزاق.

(1) أخرجه مسلم (534/1)، رقم 771، وأبو داود (201/1)، رقم 760، والترمذي (485/5)، رقم 3421.

(2) أخرجه أبو الشيخ في الثواب عن أبي موسى.

وقيل: جمع الله حسن الخلق في ثلاث كلمات: ﴿خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين﴾. وقيل: سبعة من أخلاق المؤمنين: مجالسة الفقراء، ومساءلة العلماء ومخالطة الحكماء، وموانسة الأبرار، ومجانبة الأشرار، ومواظبة العبادات، ومكارم الأخلاق.

وقيل: كانت لشقيق امرأة سيئة الخلق فقيل له: لم لا تفارقها؟ فقال إن كانت سيئة الخلق فأنا حسنه، لو فارقتها صرت مثلها، ومع ذلك أخاف ألا يمسكها أحد غيري لسوء خلقها. وقال غيره في زوجة سيئة الخلق: أخاف أن تضر مسلما بعدي، وأنشدوا:

بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ كُنْ مُتَخَلِّقًا لِيَفُوحَ مِنْكَ ثَنَائِكَ الْعَطِيرِ الشَّدِيدِ  
وَأَنْفَعُ صَدِيقِكَ إِنْ أَرَدْتَ صَدَاقَةً وَادْفَعْ عَدُوَّكَ بِأَلْتِي فَإِذَا الَّذِي  
يُرِيدُ بَقِيَةَ الْآيَةِ: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ الآية.

وفي الخبر: «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم وجه طليق وخلق حسن<sup>(2)</sup>». وفي لفظ آخر: «وبشر وبشاشة». وفيه: «رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس<sup>(3)</sup>».

وقيل: أتى رجل عليا كرم الله وجهه برجل آخر فقال: إن هذا زعم أنه احتلم بأمي، فقال علي: أقمه للشمس واضرب ظله ثم تبسم وقال: لا بأس بالفكاهة حتى يخرج الرجل عن حد العبوس.

ومن كلامهم: الانبساط يوجب المؤانسة والانتقباض يوجب الوحشة. صح من الشهب اللامعة.

(1) - أخرجه الطبراني في الأوسط والضماء عن أنس بلفظ: إن العبد ليبلغ بحسن خلقه العظيم درجات الآخرة وشرف المنازل، وإنه لضعيف العبادة. وإنه ليبلغ بسوء أسفل درك جهنم، وإنه لعابد.

(2) أخرجه أبو نعيم في الحلية (25/10)، والحاكم (212/1)، رقم (427)، والبيهقي في شعب الإيمان (253/6)، رقم (8054).

(3) أخرجه: الطبراني في الأوسط (120/5)، رقم (4847)، قال الهيثمي (24/8): فيه جماعة لم أعرفهم. وأبو نعيم في الحلية (203/3) وقال: غريب.



وفي الحديث: «ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا بلى يا رسول الله قال: من لا يقل عشرة ولا يقل معذرة، ألا أنبئكم بشر من ذلكم؟ قالوا: بلى. قال: من ييغض الناس وييغضونه<sup>(1)</sup>».

قال المناوي: وفي الآثار: إن بعضهم يوقف بين يدي الله يوم القيامة فيقول: إنه عمل من الخير ما لم يعمله وهو كاذب فيتجاهل له ربه فيأمر به إلى الجنة فتقول الملائكة إنه كذب فيقول: علمت واستحييت أن أكذب نسبته.

قال ابن عربي: في هذا أصل عظيم من مكارم الأخلاق، ويلزم أهل الله التخلق به. انتهى.

وحكي: أن الحسن والحسين أقبلا على شيخ يفسد وضوءه وقالا له: إنا نريد أن نتوضأ بين يديك حتى تعلم من يحسن منا الوضوء ومن لا، ففعلا ذلك فلما فرغا قال: أنا والله الذي لا يحسن الوضوء وأنتما أحسنتماه فانتفع بذلك من غير تعنت ولا توبيخ. وهكذا ينبغي للعالم قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾.

وذلك أنه خرج رسول الله ﷺ يوما من المدينة ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، فأهديت له شاة فذكاها أبو بكر، وجرداها عن جلدها عمر، وقطعها عثمان، وأنضحها علي. فقال ﷺ: أما أنتم فقد عملتم؛ وأما أنا فأسوق الحطب بما تطبخ. فقالوا: كفييناك يا رسول الله. فقال: لا بد. فأخذ الحبل وصار يحتطب، وأتى بحزمة على عنقه ﷺ فترل الأمين جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾.

وعن أنس رضي الله عنه أنه قال: قالت أم حبيبة: يا رسول الله أريت المرأة منا ربما كان لها زوجان لأيهما في الجنة قال: لأحسنهما أخلاقا كان عندها في الدنيا والآخرة. قالت أم حبيبة: ذهب حسن الخلق بخيري الدنيا والآخرة.

وأول ما يمتحن به: حسن الخلق الصبر على الأذى واحتمال الجفاء. ولما كثرت قريش ضرر رسول الله ﷺ قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». ولذلك قال تعالى

(1) أخرجه الطبراني (318/10)، رقم (10775)

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. قاله في الإحياء<sup>(1)</sup>.

الثالثة: كثير من خُلُقِ أهل هذا الزمان نفاق والعياذ بالله؛ لأنهم يبدؤون الشخص بالسلام ويلقونه بالترحيب والتعظيم والتواضع والبشر والبشاشة وجميع أنواع حسن الخلق، فإذا قام عنهم اغتابوه ورموه بجميع أنواع السوء. وكان السلف يعدون هذا من النفاق، وكانوا إذا مدحوا أحدا بقول لم يذموه بفعل، وإذا ذموا أحدا بفعل لم يمدحوه بقول، وإذا تكلموا في أحد ببذعة لم يكلموه، وإذا سلموا على أحد سلمت قلوبهم وسلم منهم. وكانوا يقولون: معنى "السلام عليكم": أي سلمت مني أن أغتابك أو أذمك، فمن سلم على غيره فقد أمنه فقد أمنه من شره، وعاهده على ذلك فليس له نقض عهده، وإن كان كافرا. فذلك أمان لا يجوز خفزه، وإلا كان في ذلك صاحب لسانين واختلاف وجهين واختلاف السر والعلانية.

وفي الحديث: «شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»<sup>(2)</sup>. وفي حديث آخر: «من كان ذا لسانين في الدنيا جعل الله عز وجل له يوم القيامة لسانين من نار»<sup>(3)</sup>. وفي آخر: «لا ينبغي لذي وجهين أن يكون وجهها عند الله»، قال: إِذَا السِّرُّ وَالْإِعْلَانُ فِي الْمُؤْمِنِ اسْتَوَى فَقَدْ فَازَ فِي الدَّارَيْنِ وَاسْتَوْجَبَ الثَّنَا وَإِنْ خَالَفَ الْإِعْلَانُ سِرًّا فَمَالَهُ عَلَى سَعْيِهِ شَيْءٌ سِوَى الْكَدِّ وَالْعَنَاءِ وفي الحديث: «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت له به كاذب»<sup>(4)</sup>.

وذو اللسانين هو: أن يتردد بين المتعادين ويكلم كل واحد بما يوافقه لغير غرض الإصلاح. قاله في كتاب البركة.

(1) انظر إحياء علوم الدين: (70/3).

(2) أخرجه الطبراني في الأوسط (116/2).

(3) أخرجه أبو داود رقم: (4873) عن عمار بن ياسر.

(4) أخرجه أحمد في مسنده انظر الجامع الصغير (296/1).

وما يشبه ذا اللسانين: من يمدح رجلا في وجهه خوف أن يظهر خلاف ما يضره فيقنع في المجازفة، أو يبالغ فيقنع في الكذب، أو يدخل السرور على قلب الممدوح الفاسق، أو يفرح الممدوح فيقصر في العمل، أو يدخله الكبر والعجب.

وقال النووي: ذو الوجهين: من يأتي كل طائفة بما يرضيها، فيظهر لها أنه منها ومخالف لخصمها وقصده نفاق محض وكذب وخداع، وتحيل إلى الاطلاع على أسرار الطائفتين وهي مدهانة محرمة.

وأما إن قصد الإصلاح بينهما فهو محمود؛ كأن يأتي كل طائفة بما فيه صلاح الأخرى، ويعتذر لكل واحدة عن الأخرى، وينقل إليها ما أمكن من الجميل وستر القبيح. وأما من يُزَيِّنُ لكل طائفة عملها ويقبحه عند الأخرى، ويذم كل طائفة عند الأخرى فذلك مذموم.

وقال بعضهم: ما ذكر عندي إنسان قط إلا مثلته جالسا فأقول في غيبته ما أحب أن يسمع. وقال آخر: ما ذكر عندي رجل إلا تصورت نفسي في مثاله، وكل ما أحب أن يقال لي قلته له، وكان أحدهم إذا ذكر عنده غيره بسوء وقف في شأنه، فإن كان فيه هو مثل ذلك السوء قطعه الحياء عن الكلام في أخيه، وإن لم يكن فيه حمد الله ورحم أخاه. فشغله الشكر لمولاه إذ عافاه. فاحذر يا أخي أصلحك الله من حسن خلق أهل العصر.

## بعض أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم

فها أنا أذكر بعض أخلاق النبي ﷺ وسيرته تبركا بها واقتداء به ﷺ فإن من أراد اتباعه ﷺ واقتفاء آثاره فليبحث عن سيرته وخلقه في كتب الحديث والتفسير. قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾:

فمن ذلك: أن أزواجه عليه الصلاة والسلام اجتمعن عنده ذات يوم وقلن له: أينا أحب إليك يا رسول الله؟ فوعدهن أن يخبرهن بالغداة، فلما كان تلك العشية أعطى لكل واحدة منهن خاتما، من غير أن تعلم واحدة بالأخرى، فلما اجتمعن عنده بالغداة قلن له: أينا أحب إليك؟ قال لهن: صاحبة الخاتم أحب إليّ؛ فظنت كل واحدة منهن أنها أحب إليه، وأنه ما أعطى الخاتم إلا لها.

ومن خلقه عليه الصلاة والسلام: أنه ما استضافه أحد، أو جالسه، إلا ظن أنه أكرم الناس عليه.

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن؛ يغضب لغضبه ويرضى لرضاه.

ومن خلقه: حسن المعاشرة، وكرم الصنيعة، ولين الجانب، وبذل المعروف، وإطعام الطعام، وإفشاء السلام، وعيادة المريض المسلم برا كان أو فاجرا، ويعود المرضى في أقصى المدينة، ولو من وجع العين ماشيا، ويعود الأعراب والصبيان، وتشيع جناز المسلمين، وحسن الجوار لمن جاوره مسلما كان أو كافرا، وتوقير ذي الشيب المسلم، وإجابة الطعام، والدعاء إليه، والعفو، والإصلاح، والجود، والكرم، والسماحة، وكظم الغيظ، وحسن الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الجار، ورحمة اليتيم، ولين الجانب، وحسن العمل، وقصر الأمل، ولزوم الإيمان، والتفقه بالقرآن، وحب الآخرة، وخفض الجناح، هين، لين، سمح، يعقل البعير، ويخفف النعل، ويرقع الثوب، ويخدم في مهنة أهله، وَيَقُمُ البيتَ، ويحلب الشاة، ويأكل مع الخادم، ويطحن ويعجن معها إذا عييت، ويصافح الغني والفقير، طلق الوجه، بسام من غير

ضحك، محزون من غير عبس، متواضع من غير ذلة، جواد من غير سرف، يركب الحمار، وكان يوم بني قريظة والنضير على حمار مخطوم بجبل من ليف عليه إكاف من ليف، وما لعن أحدا قط، وما ضرب بيده قط إلا في سبيل الله، وما انتقم من أحد قط إلا أن يكون انتقم لله، ولا يغضب لنفسه إلا أن تُنتَهَكَ حرمة الله، فإذا غضب لله لم يقم لغضبه أحد، وتوفي ﷺ وعليه دين، ودرعه مرهونة في طعام لأهله، لم يترك دينارا، ولا درهما، ولا شيد قصرا، ولا غرس نخلا، ولا شق نhra، وما خير بين أمرين إلا واختار أيسرهما، إلا أن يكون فيه إثم، أو قطيعة رحم، وإلا كان أبعد الناس منه، وما كان يأتيه أحد؛ حرًا أو عبد إلا قام معه في حاجته، وكانت الأمة من إيماء المدينة تأخذ بيده فتذهب به حيث شاءت، ولم يقل لخدمه قط: لم فعلت؟ وهل لا فعلت؟. وقال خديجة أنس ابن مالك: والذي بعثه بالحق ما قال لي في شيء قط كرهه: لم فعلت، ولا لمني أحد إلا قال: إنما هذا بكتاب وقدر. إن فرش له اضجع، وإلا اضجع على الأرض، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب، ولا فحاش، ولا عياب، ولا مداح، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو، ويصفح، ويبدأ من لقيه بالسلام، ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر، وكان إذا لقي أحدا من أصحابه صافحه ثم شابكه ويشد قبضته. وقال: «من صافحني أو صافح من صافحني إلى يوم القيامة دخل الجنة، ومن شابكني دخل الجنة، ومن شابك من شابكني إلى يوم القيامة دخل الجنة».

قال جامعه عفى الله عنه: وقد أخذت المصافحة والمشابكة والحمد لله بسند متصل إلى رسول الله على السند العالي القريب من رسول الله ﷺ، فبيني وبين رسول الله ﷺ ثلاث وعشرون رجلا.

وكان ﷺ لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله تعالى، ولا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وأقبل عليه فيسأله عن حاله، فإذا فرغ عاد إلى الصلاة. وكان يكثر الذكر، ويقل اللغو، ويطول الصلاة، ويقصر الخطبة، ولا يستكف أن يقعد مع الأرملة

والعبد، ومحِب الطيب، ويكره الرائحة الخبيثة، يَأْلَفُ أهل الشرف، ويكرم أهل الفضل،  
ويأكل على الأرض، ويجلس عليها، ويلبس العباءة، ويجالس المساكين، ويمشي في  
الأسواق، ويتوسد يده، ويلق أصابعه، ويقتص من نفسه، ولا يُرى ضاحكا ملء فيه، لا  
يأكل وحده، ولا يضرب عبده، ولا يمنع رفته. وقام لله حتى تورمت قدماه؛ فقل له:  
أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبدا  
شكورا؟ وكان يسمع لجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء إذا قام بالليل، لم يكن يُعرف  
بجلسه من مجلس الصحابة، وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة، ويؤثر من يدخل عليه  
بالوسادة التي تحته، فإن أبي أن يقبلها عزم عليه. ويقول: «ما من مسلم يدخل على أخيه  
المسلم فيُلقي إليه وسادة إكراما له إلا غفر الله له». ويعطي كل من يدخل عليه نصيبه  
من وجهه وسمعه وحديثه. ومجلسه مع ذلك مجلسُ حياء وتواضع وأمانة، ولهذا يدعو  
الصحابة بكُنَّاهم إكراما لهم، ويُكْنَى من لم تكن له كنية، ويدعوهم بأحب أسمائهم  
إليهم، وكان يكني النساء ذوات الأولاد، وكان أبعد الناس غضبا، وأيسرهم رضا،  
وأرف الناس بالناس، وأنفعهم للناس، لا ترفع الأصوات في مجلسه. وكان إذا قام من  
مجلسه قال: «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك،  
قال: علمنيهن جبريل عليه الصلاة والسلام». وكان ﷺ أحلم الناس، وأجودهم،  
وأكثرهم حياء، وعن العورات إغضاء. كان أشد حياء من العذراء في خدرها، لا يثبت  
بصره في وجه أحد، وكان أوسع الناس صدرا، وأصدقهم بهجة، وألينهم عريكة،  
وأكرمهم عشرة، وكان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، يجيب من دعاه، ويجيب  
بـ: "لَبَّيْكَ"، ويجيب دعوة الحر، والعبد، والأمة، والمسكين، ويقبل الهدية ولو كانت  
قراعا، أو جرعة لبن، أو فخذ أرنب، ويأكلها، ويكافئ عليها، يغضب لربه. وكان يمازح  
أصحابه، ويخالطهم، ويَحْنُكُ أطفالهم، ويضعهم في حجره، ويداعبهم، ويقبل عذر  
المعتذر، ويكثر مشاورة أصحابه، ولا يقطع حديثا حتى يستأمر عائشة؛ لأنها كانت رجلة  
الرأي. وقال لوفد عبد القيس: مرحبا بالقوم، وقال لعمار: مرحبا بالطيب المُطِيب.

وقال: مرحبا بأمانى، وقال لفاطمة: مرحبا بابنتي، وكان إذا دخلت عليه قام إليها، وأخذ بيدها وقبلها وأجلسها في مجلسه، وكذا كانت تفعل إذا دخل عليها، وارتحله أحد بني ابنته وهو ساجد يصلي بالقوم فطول سجوده مخافة أن يعجله حتى يقضي حاجته، وكان يدلح لسانه للحسن. وقال له يرقصه: حُرقة، حُرقة، تَرَقُّ عَيْنَ بَقَّة.

الحُرقة: القصير؛ أي يا صغير الجثة كأنه عين بقرة، اصعد علي فترق، حتى وضع قدميه على صدره. وكان يكرم كريمة كل قوم، ويؤليه عليهم، ويقول: «إذا أتاكم كريم القوم فأكرموا، وإذا أكرم الرجل أخاه فإنما يكرم ربه، فأنزلوا الناس منازلهم»، وكان يحذر الناس، ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد بشره ولا خلقه، وكان يؤلفهم ولا يُنفّرهم، يتفقد أصحابه، ويسأل الناس عن ما بالناس، من أتاه لحاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول، وقد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبا، وصاروا عنده في الحق سواء، ولا يرى مقدما ركبتيه، ولا مادا رجله بين جليس عنده حتى لا يضيق بهما على أحد، يكرم من يدخل عليه، وربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولا رضاع يجلس عليه. ورمى لجرير بثوب يجلس عليه، فوضع جرير عليه وجهه وقبله، وعمم عبد الرحمن بن عوف بيده، ولا يقطع عن أحد حديثه إلا أن يقطع صاحبه بانتهاء أو قيام. ويسر الرجل من أصحابه إذا رآه مغموما بالمداعبة، ولا يلتفت إلى أصحابه مخافة أن يراهم يمرحون فيستزؤون. وكانوا يتناشدون الشعر، ويتذكرون أمر الجاهلية، وهو عندهم ساكت، وربما تبسم معهم، وكان يضحك مما يضحكون منه، ويعجب مما يعجبون منه، ويرى اللعب المباح فلا يكرهه، ولا يطوي بشره عن أحد، ويصبر للغريب عن الفجوة في نطقه ومسأله، وكان يمشي في السوق مرة بعد أخرى، فيأمر فيه وينهى، وكان أكثر الناس تبسما، وأطيبهم نفسا، ما لم يترل عليه قرآن، أو يعظ، أو يخطب، وكان يجالس الفقراء، ويؤاكل المساكين، ويأكل ما سقط من المائدة، وسابق عائشة وهما في سفر فسبقت، ثم سابقتها مرة أخرى فسبقتها، وقال: هذه بتلك. وكان يخطب كل بما يفهمونه من لغتهم؛ كقوله: «لَيْسَ مِنْ أَمِيرٍ امْصُومٌ فِي امْسَقَر». وقوله لرجل: «أنط»

أي اسكت؛ لغة حميرية. وقال لعمر: «لا تنسانا يا أخي من دعائك»، فقال عمر: كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا. وقال لهلal غلام المغيرة: «ادع لنا واستغفر لنا». وقبّل عثمان بن مظعون وهو ميت وهو يكي، واعتق زيد بن حارثة وقبّله، والترم جعفرًا وقبّل ما بين عينيه، وقال للزبير: «فداك أبي وأمي»، وكذا قال لسعد بن أبي وقاص. وكان يطعم القوم، ويسقيهم اللبن والماء، ثم يأكل سؤرهم ويشرب آخره، ويقول: «ساقى القوم آخرهم شرباً». لا يترفع على عبيده وإمائه بمأكل ولا مشرب ولا ملبس، وكان يحتضن أولاده، ويحملهم على ظهره، وحمل أمانة -وهي ابنة بنته زينب- في صلاته، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها، وأراد أن ينحي مُحَاطَ أسامة فقالت عائشة: دعني حتى أكون أنا الذي أفعله. وكان إذا أتته هدية أطعم من حضر، وخبأ نصيب من غاب، وكان يجلس في الأرض، ويأكل الطعام، ويقول: «أنا عبد أكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد، وأنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد». ولا تُغلقُ دونه الأبواب، ولا يقوم دونه الحُجَّابُ، ولم يُغَدَّ عليه بالحِجَّان، ولم يُرَخَّ عليه بها. حيث ما انتهى به المجلس جلس، لا يجلس بين اثنين إلا بإذنهما، ويقول: «لا يحل لأحد أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما»، ولا يُقيم الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه، ولكن يقول: «تفسحوا وتوسعوا». وكان لا يتقي الأرض بشيء، وهو أشجع الناس، وأشدّهم تواضعاً، وأقلهم كبراً، وهو أرحم الناس، وأشدّهم خوفاً من ربه تعالى. وهو أرحم الناس بالناس. لم تمس يده يد امرأة لا يملك رقبته أو نكاحها حتى في البيعة، وكن يلمسن ثوبه. وسئل أن يدعو على قوم من الكفار فقال: «إنما بعثت رحمة ولم أبعث عذاباً». ولما كُسرت رباعيته، وشج وجهه يوم أحد قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». وإذا تكلم بكلمة كررها ثلاثاً حتى تفهم عنه، وإذا سلم على قوم سلم ثلاثاً. قال زيد: كنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا، وإذا ذكرنا الله ذكره معنا، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا. قد ترك نفسه من ثلاث: الرياء، والإكثار، وما لا يعنيه. كان لا يذم أحداً، ولا يطلب عورته، ولا يواجهه بشيء يكرهه، ولا يتلکم إلا فيما رجي



ثوابه. وقال لملوك امرأة من مزيّنة: «بلغها سلامي». ومر على غلمان يلعبون فقال: «السلام عليكم يا صبيان». ومرّ على نسوة قعود فألوى بيده بالتسليم. وكان الحبشة يلعبون بالمسجد فقام ينظر إليهم وعائشة تنظر خلفه حتى سئمت فانصرفت وانصرف، وكان قيامه لأجلها. وأخذ بيد حذيفة فستر عليه حتى اغتسل. وكان يصغي الإناء للهرة لتشرب منه. وكان إذا قدم من سفر يلتقى بصبيان أهل بيته. وكان يواسي الشعراء وأمثالهم، ويسمع الشعر، ويرق له ويهش، وكسا كعبا بردة لما أنشده:

بَآئْتُ سَعَادُ..... مَي.....

وكان يركب حيناً الحمار عريانا، وحيناً البغلة، وحيناً الجمل، وحيناً الناقة، وحيناً الفرس، وحيناً راجلا، وحافيا، بلا رداء وعمامة ولا قلنسوة، ويُرْدِفُ خلفه وأمامه بعض نسائه وعبيده. ووضع ركبته عند بعيره فوضعت صفية رجلها عليها فركبت. وركب جابر الجمل وهو ﷺ يسوقه ويضرب بالعصا. وكان يدعى إلى خبز الشعير والإهابة السَّنَخَةِ فيجيب. وكانت عائشة تشرب وهي حائض ثم يتناوله فيضع فاه على موضع فمها فيأكل أو يشرب، وتُرْجَلُ رأسه وهي حائض. واغتسل هو وميمونة في قصعة فيها أثر العجين، واغتسل هو وعائشة في إناء واحد وهي تقول: دع لي ﷺ. وكان يحب المساكين، ويشهد جنازتهم، ويعود مرضاهم، ولا يحقر فقيرا لفقره، ولا يهاب ملكا لملكه، وكان لا يدع أحدا يمشي خلفه، ويقول: «خَلُّوا ظهري للملائكة». يلبس الصوف، ويتعلل المخصوف، أحب اللباس إليه الحَبِيرَةُ. وأصابه في الخندق جَهْدٌ فَعَصَّبَ بأعلى بطنه حجرا من الجوع مع ما آتاه الله من خزائن الأرض. خيره الله بين أن يكون ملكا نبيا وبين أن يكون نبيا عبدا، وأعطاه الله الجبال أن تتحول له ذهباً فلم يقبل. وَخَرَجَ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير هو وأهل بيته. وكان يأتي عليه الشهر والشهران لا يوقد في بيت من بيوته نار. وكان قوته الماء والتمر. قالت عائشة رضي الله عنها: إلا أن حولنا أهل دور من الأنصار يبعثون إلينا شياهم فنصيب من ذلك اللبن. وما عاب طعاما قط؛ إن اشتهاه أكله وإلا تركه. ولا يأكل متكئا، ولا على خِوَانٍ، ولا

سَكْرُجَّةً، ولا خبزًا مرققا، أكل البطيخ بالرطب، والقثاء بالرطب وقال: «يُسَكَّنُ حَرُّ هذا بردَ هذا وبردُ هذا حرُّ هذا». وكان يحب الحلواء والعسل، وأحب الشراب إليه الحلو البارد.

وهذه الأخلاق كثيرة المنافع عظيمة البركة. ومن وقف عليها فليتحلق بها تبركا بموصوفها عليه الصلاة والسلام وليصنها وهي من أعظم المهمات، وأعظم ما يتبرك به لأنها أخلاق النبي ﷺ الكريمة الحسنة الباهرة.

وعن بعض الشيوخ: أن من كانت معه هذه الأخلاق مع خصائصه ﷺ وحلف أن معه النبي ﷺ لم يحنث في يمينه. وفوائدها لا يشك فيها إلا منافق، والظن أن من قرأها نال مقصده وسلم من كل مكروه، ولا يستغرب ذلك في بركته ﷺ. (1)

## الرفق بجميع المخلوقات

(وَالرَّفْقُ) بجميع الحيوانات عاقلة وغيرها وهي المداراة والأناة.

قال ابن المبارك في رقائقه: أخبرني حبيب بن حجر القيسي قال: كان يقال: ما أحسن الإيمان بزينة العلم، وما أحسن العلم بزينة العمل، وما أحسن العمل بزينة الرفق، وما أضيف شيء إلى شيء مثل حلم إلى علم.

وقال بعضهم: اعلم أن من كان وجهه إلى الدنيا كان معاديا لأكثر الخلق، ومن كان وجهه إلى خدمة الله تعالى لم يكن معاديا لأحد؛ لأنه يرى الكل أسيرا لقبضة القضاء والقدر. ولهذا قيل: إن العارف إذا أمر أمر برفق، ونصح لا بعنف وعسر، وكيف وهو مستنهض بالله في القدر.

(1) استورد المؤلف في باب الخلق بحثا عن خلقه ولم يتعرض لتخريج احاديثها لكثرة شهرتها عند العامة لأن كتب السير والمدائح النبوية مشحونة منها ومتداولة بين الخاصة والعامة وقد ألف فيها الكثير. نفعنا الله بها ورزقنا التحلق بها إن شاء الله آمين.

قال الفخرو: كان الأنصار قبل الإسلام أعداء فلما أكرمهم الله بالإسلام كانوا إخوانا في الله متراحمين.

وفي الحديث: «إذا أراد الله بقوم خيرا أدخل عليهم الرفق برفق بعضهم ببعض». وقال ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «عليك بالرفق ما كان الرفق في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه»<sup>(1)</sup>.

تتمة: يدخل في هذه الرفق بالبهايم لحديث: «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، واركبوها صالحة». قال العلقمي: أي خافوا الله في هذه البهائم التي لا تتكلم فتسأل ما بها من الجوع والعطش والنصب والمشقة. وفي هذا الحديث الأمر بالقيام بحقوقها الواجبة والمندوبة من العلف والسقي الذي يكفيها، أو تمكينها من الرعي ولا يكلفها من العمل ما لا تطيق، ولا تركب إلا إذا كانت صالحة للركوب قادرة عليه، فإذا أعيت فلا تركبوها وكذا إذا كانت صغيرة أو مريضة. وفي الحديث أيضا: «هي ﷺ أن [تُصبر]<sup>(2)</sup>» بهيمة أو غيرها للقتل». وفيه: «من قتل عصفورا عبثا جاء يوم القيام العصفور مستجيرا يقول: يا رب سل هذا لِمَ قتلني عبثا».

وفيه: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، لا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت».

وفيه: مر رسول الله ﷺ ببعير معقول في صدر النهار، فقضى حاجته والبعير على حاله فقال لصاحبه: «هل علفت هذا البعير هذا اليوم؟ فقال: لا فقال أما إنه يحاجك يوم القيامة». يعني: يخاصمك إلى الله تعالى.

وفي الحديث: «من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي خير الدنيا والآخرة ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من الدنيا والآخرة»<sup>(3)</sup>.

(1) أورده في الجامع الصغير (70/1) وعزاه للدبلي في مسند الفردوس عن أبي هريرة.

(2) أن تصبر: أي تحبس حتى يموت.

(3) أخرجه أحمد في مسنده وأبي داود (4808).

وفيه: «إن الله يحب الرفق يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف ويدخل فيه أيضا الرفق بالمملوك خاصة»<sup>(1)</sup>.

روى الشيخان حديث: «إخوانكم حولكم، جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان تحته أخوه، تحت يده فليطعمه من طعامه، وليلبسه من لباسه، ولا يكلفه ما يغلبه فإن كلفه ما يغلبه فليعنه»<sup>(2)</sup>.

وروى الترمذي وغيره: «لا يدخل الجنة سيئ المملكة. وسأله رجل كم أعفوا عن الخادم؟ كل يوم سبعين مرة»<sup>(3)</sup>.

. وروى البخاري عن علي: كان آخر كلام النبي ﷺ: «الصلاة الصلاة واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم».

وروى الحاكم وغيره: «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا والطفهم بأهله»<sup>(4)</sup>.

وفي الحديث: «أيها الناس الله الله فيما ملكت أيمانكم، أطعموهم مما تطعمون وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما لا يطيقون فإنهم لحم ودم وخلق أمثالكم. ألا من ظلمهم فأنا خصيمه يوم القيامة، والله حاكمهم». وإنما قال: "مما تطعمون ومما تلبسون": فإذا أطعته وألبسته بالمعروف من بعض ذلك فقد شاركته في مطعمك وملبسك، ولا يلزم تسوية ممالكك في المطعم والملبس، إذ ليس العبد الأسود الذي للخدمة كالفارح التاجر.

وفي الحديث: «لا يجلد أحدكم زوجته جلد العبد». يؤخذ منه جواز ضربه فوق جلد الحر والمرأة، ولكن لا يمثل به، فإذا ضربته فاتق الوجه بنية التأديب، وأرج من الله أدبه، فإنه منه لا من الضرب، وتذكر قدرة الله عليك، وغضبه عند قدرتك وغضبك.

<sup>(1)</sup> في مسلم يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق (رقم 6601)

<sup>(2)</sup> أخرجه مسلم (رقم 1945) قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح

<sup>(3)</sup> أخرجه الترمذي رقم: (1946)

<sup>(4)</sup> أخرجه أحمد في مسنده والحاكم في المستدرک وأبو داود (رقم 4682) عن أبي هريرة وأخرجه الترمذي بزيادة: وخياركم بخياركم لنسألهم رقم (1162) عن أبي هريرة .

وكان عون ابن عبد الله إذا عصاه غلامه يقول: ما أشبهك بمولاي يعصي مولاه وتعصي مولاي.

وفي الحديث: «شر الناس من منع رفته، وجلد عبده، وأكل وحده».

وفيه: «الإحسان إلى الخادم مما يكبت به العدو».

وفيه: «من أحسن إلى ما ملكت يمينه نصره الله على عدوه».

وفيه: لا يجلد أحدكم فوق عشرة أسواط إلا في حد من حدود الله عز وجل<sup>(1)</sup>.

وسئل الحسن البصري عن المملوك يرسله مولاه في حاجته وتحضره صلاة الجماعة بأي شيء من ذلك يبدأ، قال: بحاجة مولاه. قال السمرقندي: هذا مُقَيَّدُ بسعة الوقت، وأما إن ضاق فإنه يقدم الصلاة لحديث: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»<sup>(2)</sup>.

وينبغي للسيد أن يتعاهد مملوكه بحسن المعاشرة، وجميل التكليف وأيسره، لأنه تعالى لا يكلف عبده بما لا يطيق.

ورأى ابن عمر كسرة خبز فقال لغلامه: ارفعها وأمط عنها الأذى، فرفعها العبد وأكلها. فقال له ابن عمر: اذهب فأنت حر؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من وجد كسرة خبز فرفعها عن الأرض ثم أكلها لم تصل إلى جوفه حتى يغفر الله له، فإني أكره أن أستعبد من غفر الله له».

وفي الحديث: «حسن المملكة نماء - ويروى: يمن - وسوء المملكة شؤم»<sup>(3)</sup>. والمملكة حالة يكون عليها المملوك عند مالكة، فإن كانت حسنةً اغتبط بها المملوك ولم يرد الخروج ولا يرى لسيدته بدلا، وكانت يمنا وبركة، وإن كانت بضد ذلك كانت شؤما على المالك إذ لا يرضى المملوك البقاء عليها؛ إذ قيل: لا يُملِكُ الإنسان إلا بالإحسان.

(1) أخرجه البخاري: (2512/6)، رقم (6456).

(2) أخرجه أحمد في مسنده والحاكم في المستدرک انظر الجامع الصغير (331/3).

(3) أخرجه أحمد في مسنده انظر الجامع الصغير (68/2).

وفي الحديث: «إذا اشترى أحدكم الخادم فليكن أول ما يطعمه الحلوى فإنه أطيب لنفسه»<sup>(1)</sup>. وفي الحديث: «أنه يعفى عن الخادم سبعين مرة».

وفيه: «لا يقولن أحدكم: عبدي ولا أمتي. وكلكم عباد الله ونساؤكم إماء الله، لكن ليقل: غلامي وفتاتي وجاريتي، ولا يقل العبد ربي، ولكن سيدي ومولاي، وليس منا من خَبَّبَ امرأة على زوجها ولا عبدا على سيده»<sup>(2)</sup>. أي أفسده.

فائدة: أصل الرق الكفر؛ إذ يجوز قتل الكافر وسبيه واسترقاقه، أبيض كان أو أسود، فإنه إذا مُلِكَ لم يرتفع عنه الملك إلا بالعتق، لا بالإسلام. والفقهاء يقولون: الحرية أصل والرق طارئ. وإنما كثر تملك السودان في المغرب لقرب أهلها من بعض بلاد السود وكانوا كفارا، فهم يُغنمون على التأييد، وكثرت البيض في المشرق لقرب أهلها من الروم والقبط والصقالبة.

ومن يؤتى أجره مرتين: عبد أحسن عبادة ربه ونصح لسيده. ونظمهم السيوطي فقال:

وَجَمْعُ أَتَى فِيمَا رَوَيْنَاهُ أَنَّهُمْ يُشْنَى لَهُمْ أَجْرٌ حَوَّهَ مُحَقَّقًا  
فَأَزْوَاجُ خَيْرِ الْخَلْقِ أَوْلَهُمْ وَمَنْ يَخْصُ ذَوِي أَرْحَامِهِ إِنْ تَصَدَّقَا  
وَقَارَ بِجُهِدِ ذُو اجْتِهَادٍ أَصَابَ وَالْمَوْضُوءُ اثْنَتَيْنِ وَالْكِتَابِيُّ صَدَقَا  
وَمَنْ أَمَةً يَشْرِي وَأَدَبَ مُحْسِنًا وَيَنْكِحُهَا مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ أَعْتَقَا  
وَعَبْدٌ أَتَى حَقَّ الْإِلَهِ وَسَيِّدٍ وَعَابَرُ يَسْرِي مَعَ غَنِيِّ بِهِ تُقَى  
(وَسَلَامَةُ الصَّدْرِ) وطهارته من الحقد؛ وهو: بَغْضَةٌ ثابتةٌ يجدها العبد في نفسه لأحد من المسلمين بغير موجب شرعي. ومن العداوة وهي: نتيجة الحقد؛ وهي: المهاجرة والمشاركة بلا استحقاق لذلك من جهة، ومن الكبر على الناس والغش والحسد.

(1) أخرجه ابن ماجه رقم (2252)

(2) أخرجه مسلم رقم (5874)

وَلَشَرَفٍ سَلَامَةُ الصَّدْرِ وَعِزَّةٌ وَجُودُهَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «سَلَامَةُ  
الصَّدْرِ لَا تَلْحَقُ بِعَمَلٍ» فَأَعْظَمَ بِخَصْلَةٍ تَزِيدُ -بِنَصِّ الْحَدِيثِ- عَلَى عِبَادَةِ الصِّيَامِ،  
وَالْجِهَادِ، وَقِيَامِ اللَّيْلِ، وَسَائِرِ النَّوَافِلِ، وَالصَّدَقَاتِ، وَلَوْ بِطَوِيلِ السَّنِينَ.  
وَشَهِدَ ﷺ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ بِالْجَنَّةِ، فَقِيلَ لَهُ: وَأَيُّ شَيْءٍ زَدَتْ بِهِ عَلَى النَّاسِ؟  
فَقَالَ: لَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنِّي أَرْجُوا ذَلِكَ بِسَلَامَةِ الصَّدْرِ وَتَرَكْتُ مَا لَا يَعْنِي.  
وَقَالَ سَيِّدِي عَلِيُّ الْخَوَاصِّ: مَنْ أَرَادَ هَذَا السَّرُورَ فِي الْقَبْرِ فَلَا يَجْعَلُ لَهُ سَرِيرَةً  
يَفْتَضِحُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَا دَامَ لَهُ سَرِيرَةٌ سَيِّئَةٌ فَالْعَرَبُ مِنْ شَأْنِهِ إِلَى أَنْ يَبْعَثَ مِنْ قَبْرِهِ  
مَرْعُوبًا.

وَلِذَلِكَ قَالَ لِقَمَانِ لِابْنِهِ: يَا بَنِي كَمَا تَنَامُ كَذَلِكَ تَمُوتُ، وَكَمَا تَسْتَيْقِظُ كَذَلِكَ  
تَبْعَثُ، فَاعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا تَنَمْ وَتَسْتَيْقِظُ كَالْعُرُوسِ، وَلَا تَعْمَلْ شَرًّا فَتَنَمْ وَتَسْتَيْقِظُ  
كَالْمُجْرِمِ الَّذِي طَلَبَهُ السُّلْطَانُ لِيَسْفِكَ دَمَهُ.

وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنْ بَدَلَاءُ أُمَّتِي لَمْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِصَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ، وَلَكِنْ دَخَلُوهَا  
بِسَخَاءِ الْأَنْفُسِ وَسَلَامَةِ الصَّدْرِ<sup>(1)</sup>».

(وَأِرَادَةُ الْخَيْرِ لَهُمْ) حَدِيثٌ: «لَا يَبْلُغُ أَحَدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَحِبَّ لِأَخِيهِ الْمُؤْمِنِ  
مَا يَحِبُّ لِنَفْسِهِ»<sup>(2)</sup>. وَإِرَادَةُ الْقَلْبِ يُثَابُّ الْعَبْدُ عَلَيْهَا وَيُعَاقَبُ بِحَسَبِ نِيَّتِهِ.

وَقَسَمُوا الْخَوَاطِرَ أَرْبَعَةً: أَوَّلُهَا: الْهَاجِسُ؛ وَهُوَ أَنْ يَهْجِسَ الشَّيْءُ فِي الْقَلْبِ مَرَّةً أَوْ  
مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُوحَ وَلَمْ يَفْعَلْهُ. الثَّانِي: الْوَارِدُ: وَهُوَ أَنْ يَتَرَدَّدَ الشَّيْءُ فِي الْقَلْبِ تَرَدُّدًا مَرْجُوحًا.  
الثَّالِثُ: حَدِيثُ النَّفْسِ: وَهُوَ أَنْ يَتَرَدَّدَ الشَّيْءُ فِي الْقَلْبِ تَرَدُّدًا مُسْتَوِيًّا، فَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ لَا  
ثَوَابَ فِيهَا وَلَا إِثْمَ. الرَّابِعُ: الْهَمُّ: وَهُوَ أَنْ يَتَرَدَّدَ الشَّيْءُ فِي الْقَلْبِ تَرَدُّدًا رَاجِحًا، فَإِنْ كَانَ  
خَيْرًا أَثِيبَ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا فَلَا عِقَابَ فِيهِ. الْحَدِيثُ: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا

(<sup>1</sup>) تقدم تخرجه

(<sup>2</sup>) أخرجه مسلم في صحيحه رقم (170) والبيهقي رقم (13) كلاهما عن أنس

كتبت له حسنة ومن هم بسيئة ولم يعملها لم تُكْتَبْ عليه<sup>(1)</sup>». الخامس: العزم: وهو أن يعزم القلب على الشيء عزمًا لا تردُّدًا، وهو المراد عند أهل السنة بإرادة العبد. ففيه الثواب والعقاب وإن لم يعمل أو يتكلم. صح من المزيد العائد في شرح دلائل العقائد. (والأمانة) قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ وروى أحمد حديث: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»<sup>(2)</sup>.

وصحح الحاكم حديث: «المؤمن من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم»<sup>(3)</sup>. وروى الطبراني حديث: «تناصحوا في العلم فإن خيانة أحدكم في علمه أشد من خيانتة في ماله». وفي الحديث أيضا: «يُطِيعُ الْمُؤْمِنُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا الْخِيَانَةَ»<sup>(4)</sup>.

قال ابن العربي: فالأمانة عظيمة القدر عند الله في الدين. ومن عظيم قدرها أنها تقف جنبتي الصراط لا يُمكنُ من الجواز إلا من حفظها، ولهذا وجب أن تؤديها إلى من إيمانك، ولا تخن من خانك، فتقابل المعصية بالمعصية، وكذلك لا يجوز أن تغدر من غدرك. قال البخاري: بابُ إثمِ الغادر للبر والفاجر. (وَإِذَا يَتُهِمُ) لك (نِعْمَةٌ) عظيمة ولا سيما ممن اعتدَّتْ منه الملاطفة والإكرام والمبرَّة والاحترام (إِذْ يَرُدُّكَ بِهَا إِلَيْهِ) فيفيدك ذلك عدم السكون إليهم، وترك الاعتماد عليهم، وفقد الأنس بهم، فتتحقق بذلك عبوديته لربه تعالى.

ومن دعاء أبي محمد عبد السلام: اللهم إن قوما سألوك أن تسخر لهم خلقك فرضوا بذلك منك. اللهم إني أسألك اعوجاج الخلق حتى لا يكون لي ملجأ إلا إليك. وقيل: الصيحة من العدو سوط الله يرد بها القلوب إذا شردت عنه، وإلا رقد القلب في ظل العز والجاه، وهو حجاب عن الله عظيم.

(1) أخرجه أحمد (234/2 ، رقم 7195) . وأخرجه الطبراني في الأوسط (260/4 رقم 4140) ، ومسلم (118/1 رقم 130)

(2) أخرجه أحمد في مسنده انظر الجامع الصغير (297/3)

(3) أخرجه الحاكم في المستدرک

(4) أخرجه البيهقي انظر الجامع الصغير: (400/3).



قال في لطائف المنن: اعلم أن أولياء الله عز وجل حكمهم في بدايتهم أن يسلط الخلق عليهم ليظهروا من البقايا، وَلِتَّكْمَلَ فِيهِمُ الْمَزَايَا، وكى لا يساكنوا هذا الخلق باعتماد، أو يميلوا إليه باستناد، مَنْ آذَاكَ فَقَدْ أَعْتَقَكَ مِنْ رِقِّ إِحْسَانِهِ؛ ومن أحسن إليك فقد اسْتَرْقَكَ بوجود امتنانه، فَلَذَلِكَ قَالَ ﷺ: «جُبِلَتْ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا». وقال: «من أسدى إليكم معروفا فكافئوه»... الحديث<sup>(1)</sup>. كل ذلك ليتخلص القلب من رِقِّ إحسان الخلق ويتعلق بالملك الحق<sup>(2)</sup>. ومن دليل ذلك: أنك لا تجد على الإنسان أشد من أقاربه الذين يتأكد السكون إليهم لو وقع الإحسان منهم، وإنما جعلهم كذلك ليمتدحوا أنبياءهم. والله اعلم.

## عدم الاعتماد على العمل

(فَصْلٌ وَمِنْهُ) أي من الخلق الذي هو من حجب الوصول: (الْعَمَلُ فَلَا تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ) لما في الاعتماد عليه من سوء الأدب. مَنْ اعْتَمَدَ عَلَى شَيْءٍ دُونَ اللَّهِ تَخْلَى عَنْهُ فِي الْآخِرَةِ. وقالوا: الاعتماد على العمل أول عائق يعرض لأرباب السلوك في بدايتهم، وذلك من غلبة الوهم على وجودهم، وتراكم الخيال على مرايا عقولهم، فلا يخرجون من ذلك إلا بنور الكشف بأن الله خالق لأعمالهم. وقالوا: من علامة من تحقق بمعارف الحضرة الإلهية: امْتَحَاقُ وَصْفِهِ بِوَصْفِهَا، وخروجه من الاعتماد على عمله.

فائدة: قال المصنف: عملت مرة عملا صالحا فظننت أني من ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَهُ يَمْهَدُونَ﴾ فرأيت تلك الليلة أني متٌ ودفنت وصُورت لي أعمالِي خَشْنَةً مَحْشُوءَةً شَوْكٌ أَمْ غِيلَانٌ وَأَنَا أَتَقَلَّبُ عَلَيْهَا عَرِيَانًا، فما رأيت أشد من ذلك، فانتبهت مستغفرا واعتمدت على فضله لا على عملي. انتهى من المناوي.

(1) رَوَاهُ الزَّيْلَعِيُّ فِي انْحَافِ السَّادَةِ الْمُتَّقِينَ (554/9)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ (11/ص58)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي حَلِيِّ الْأَوْلِيَاءِ

(121/4)، وَغَيْرِهِمْ.

(2) انظر لطائف المنن ص: 93.

(وَلَا تَطْلُبْ عَلَيْهِ ثَوَابًا) إذ لا يليق بأحد من أمثالنا أن يسأل الله ثوابا على عبادته، وإنما اللائق به أن يسأل العفو عما جناه في تلك العبادة من سوء الأدب، وعدم الخشوع، لا طلب الأجر عليها لما ورد: «أن الصلاة إذا لم يكن فيها خشوع تُلْفُ كما يُلْفُ الثوب الخلق ثم يضرب بها وجه صاحبها». مع أن طلب الثواب على العبادة لا يصدر إلا ممن يراها فعله. وقد صرحوا بعدم قبول كل عمل أشرك صاحبه نفسه فيه.

قال الشاذلي: علامة صدق المرید: عدم طلب العوض على عبادته فإن عبد الأجر لا قيمة له، ولا يمكنه المؤجر من الدخول إلى حرمة، وبمجرد أخذ الأجرة يفارق سيده. وقال: إن الله تعالى لا يعطي الكرامات لمن طلب أو حدد بها نفسه. ولو أن القوم أحبوا أن يعرفوا ما عرفوا.

وقال الخواص: من طلب الثواب على طاعته طولب بما عليه فيها، وكأنه طلب ما هو حاصل وليس ذلك مقصود الرجال، إنما يطلبون منه ما يخاف منه الفوات وهو الحضور مع الله تعالى، فإن كل وقت ذهب والعبد فيه غير حاضر بقلبه لا يحسب من عمره، بل هو خسران في الدارين مع أن الثواب حاصل في كل عبادة حصل بها الإخلاص والحضور. لكن الأكابر لهم طلب الثواب على طاعتهم بشرطه؛ لأنهم لا يشهدون أعمالهم خلقا لله تعالى، ولا يصح لمريد أن يطلب ثوابا على طاعته كالأكابر. إلا أن حكم مقام التوحيد لله في الفعل، وإلا فمن لزمه طلب الثواب في مقابلة طاعته كما عليه من لم تَرَبُّهُمْ الصوفية. فيقول الحق تعالى لأحدهم: ادخل الجنة برحمتي. فيقول بل بعملتي. ولو أن أحدكم ذاق مقام التوحيد لربه بالفعل لم يقم لربه مثل ذلك؛ لأنه جهل وخروج عن أدب العبيد، فإن من شأن العبد أن يخدم سيده قياما بواجب حق السيادة، لا لعله أخرى من علل النفوس.

فوالله لو عَبَدَ أحد الله من افتتاح الوجود إلى انتهائه، لم يَفِرْ بشكر ما أهَّله للوقوف بين يديه تعالى ولم يطرد كما طرد تاركوا الصلاة، فلم يكن أحد منهم يقف بين يدي الله تعالى. ومن تأمله وجد وقوف أمثالنا بين يدي الله تعالى، حكم العبد المجرم الذي



والثاني لقوله: (وَلَا تُهْ) أي العمل (لَيْسَ لَكَ) بل هو لربك خلقا واختراعاً، وإن نسب إليك كسباً. فكيف تطلب الثواب على عمل لا مدخل لك فيه على الحقيقة، وإنما خلقه فيك ونسبه إليك فضلاً منه. وقال: يا عبدي أنت مطيع ومُتَّقٍ ومجتهد وعامل سائيتك على ذلك. وعلى هذا إذا قال العبد: يا رب كما تفضلت علي بخلق الطاعة لي، ووصفتني بصفات حميدة، أنا خَلِيٌّ منها في الحقيقة، ووعدتني مع ذلك جزيل الثواب، والنجاة من العقاب، فتقبل مني عملي، وأنجز لي ما وعدتني؛ كان في ذلك مصيباً، وإلا فلا. فحقُّ العبد أن لا ينسب لنفسه جيلاً حقيقة ولا أدباً. وأيضاً: لا يطلب العوض إلا على عم كامل. والكامل ما تمت شروطه الثلاثة: قيام صورته الظاهرة على موافقة السنة، والإخلاص فيه، والصدق؛ وهو التبري من الحول والقوة، وذلك متعذر لنقص البشرية، وإلى ذلك أشار بقوله: (وَصَحَّحْهُ بِالصَّدَقِ) وهو الإخلاص في العمل، ثم الغيبة عن الإخلاص، بشهود التقصير في العمل، والتبري من الحول والقوة، وهو أخص من الإخلاص.

والحاصل: أن الذي يصح طلب الثواب عليه: ما عملته لينتفع به غيرك، ولم تحصل لك به منفعة، ولم تندفع به عنك مضرة. والأعمال الدينية المطلوبة منك ظاهراً وباطناً بخلاف هذا كله.

قيل: مطالبة الأعواض على الطاعات من نسيان الفضل. وقيل: الكَيْسُ في عمله من أعرض عن طلب العوض أدباً وتورعاً. وقيل: طلب العوض على فعل غيرك قبيح ﴿بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان﴾.

قال المناوي: قال بعضهم: عبد الثواب معدود عند العارفين من النساء وإن كان له لحية كبيرة. وقد أجمع أهل الله على أنه من ادعى أنه يحب الله، واختار معه أو طلب

---

بن إسماعيل، وكان أسود، وحج فلما أتى الكوفة أخذته رجل وقال: أنت عبدي ١ واسمك خير، فانقاد معه، فاستعمله سنين في نسج الخنز، ثم أطلقه. واحتفظ باسمه الجديد (خير) إلى أن توفي. انظر الاعلام: (2/326).

العوض على عمله، فهو مفتر كذاب. فالمخلص من عبده ليعطي الربوبية حقها وأنه عبده. اهـ.

وقد تقدم من الحض على اتباع السنة والمحافظة على الشريعة ما فيه مقنع عند قوله: "واتباع السنة وتجنب البدعة".

وقد كان السلف يحثون على اتباع السنة، وتجنب البدعة، ويشددون في ذلك؛ حتى أن عمر رضي الله عنه ربما يهْمُ بالأمر ويعزم عليه، فيقول له شخص: إن رسول الله ﷺ لم يفعل ذلك فيرجع عن عزمه. وهَمَّ مرة أن يأمر الناس بترع ثياب كانت عليهم لَمَّا بلغه أنها تُصبغُ ببول العجائز، فقال له شخص: إن رسول الله ﷺ قد لبس منها، ولبسها الناس في عصره. فاستغفر ورجع.

وقيل: إن زين العابدين قال لولده: اتخذ لي ثوبا ألبسه عند قضاء الحاجة، وأنزعه عند الشروع في الصلاة؛ فإني رأيت الذباب يجلس على النجاسة ثم يقع على ثوبي، فقال له ولده: إن رسول الله ﷺ لم يكن له إلا ثوب واحد لخلائه ولصلاته فرجع عن ذلك. قال الشعراي: المنقول أن رسول الله ﷺ لم يكن الذباب يتزل على ثوبه ولا بدنه، فلا يصح ما ذكر دليلاً؛ إلا لو قال له ولده: إن رسول الله ﷺ لم يأمر أحداً بذلك. فليَتَأَمَّلْ. اهـ (1).

(وَقُلْ إِذَا دَخَلْتَ جَنَّتَهُ) أي جنة عملك وعلمك، وما أُعطي من نور وفتح: (مَا شَاءَ اللَّهُ) كان (لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ) ولا تقل ما قال من ﴿دخل الجنة وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبید هذه أبداً﴾ فافهم قوله ﷺ: «لا حول ولا قوة إلا بالله أكثر من كنوز العرش» فترجمة ظاهر الكنوز والمكنوز فيها صدق التبري من الحول والقوة والرجوع إلى حول الله وقوته.

وقال أشهب (1) عن مالك: ينبغي لمن دخل منزله أن يقول: ﴿ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾.

(1) انظر تنبيه المفتين للشعراني: (23).

ابن العربي: وكذا مسجده. قيل: كان مالك يكتبها على باب داره.  
قال ابن وهب<sup>(2)</sup> لابن ميسرة<sup>(3)</sup>: رأيت على باب وهب بن منبه مكتوباً: ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

وفي الحديث: «ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله فيرى فيه آفة دون الموت». ذكره النووي في الأذكار<sup>(4)</sup>.

وقال السيوطي: والسنة أن يدعو بالبركة ويقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله. وهذه الكلمة ورد في الحديث أنها تقال عند دخول المنزل.  
الزناقي: وكذا غيره مما ينصف بالحصول فيه من بيت ومخزن وفدان وجنان ودكان وحانوت.

ورود في صفة التوحيد وتحقيق التفويض في الأمور إلى الله تعالى بصورة الندب والإثبات: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.  
قال أبو هريرة: من قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ولا منجى من الله إلا إليه كشف الله عنه سبعين باباً من الضر.

وفي المستطرف: أن موسى عليه السلام قال: يا رب إنك تعطيني أكثر من أمني. فقال: بكثرة قولك: ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

(1) هو أشهب بن عبد العزيز بن داود القيسي العامري الجعدي أبو عمرو: فقيه الديار المصرية في عصره. كان صاحب الإمام مالك. قال الشافعي: ما أخرجت مصر أفعه من أشهب لولا طيش فيه. قيل: اسمه مسكين، وأشهب لقب له. توفي 204 هـ. عصر. للمزيد من أخباره انظر الوفيات: (78/1).

(2) هو عبد الله بن وهب بن مسلم الفهري بالولاء المصري أبو محمد، فقيه من الأئمة. من أصحاب الإمام مالك. جمع بين الفقه والحديث والعبادة. له كتب منها: "الجامع" في الحديث مجلدان، "الموطأ" في الحديث كتابان كبير وصغير. وكان حافظاً ثقة مجتهداً. عرض عليه القضاء فخباً نفسه ولزم منزله. للمزيد من أخباره انظر الوفيات: (297/1).

(3) هو عطاء بن مسلم بن ميسرة الخراساني، نزيل بيت المقدس: مفسر. كان يفر، ويكثر من التهجد في الليل. من تصانيفه: التفسير، والناسخ والمنسوخ" توفي 135 هـ. انظر الشذرات: (192/1).

(4) انظر الأذكار للنووي: (505/1).

وقال الشاذلي: إذا استحسننت شيئا من أحوالك الظاهرة والباطنة فخفت زواله  
فقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

تنمة: قال بعض العارفين: من نظر في توحيدهِ إلى عقله لم ينحه توحيدهِ من النار،  
حتى يكون نظره في توحيدهِ إليه عز وجل. هذا هو شكر هذه النعمة العظيمة، إذ لو  
قَلَبَ قلوبنا عن التوحيد كما يُقَلَّبُ جوارحنا في الذنوب، أو قَلَبَ قلوبنا في الشك  
والضلال، كما يُقَلَّبُ نياتنا في الأعمال، أي شيء كنا نصنع؟ وعلى أي شيء كنا نعول؟  
وبأي شيء كنا نطمئن ونرجوا؟ فهذا من كبائر النعم، ومعرفة هو شكر نعمة الإيمان،  
والجهل بهذا غفلة عن تلك النعمة توجب المقت، ومن ادَّعى أنه عن كسب معقول، أو  
استطاعة بقوة أو حول، فهو كفر نعمة الإيمان وأخاف على من توهم ذلك أن يسلب  
الإيمان؛ لأنه بدَّل شكر نعمة الله كفرا. قاله الشيخ أبو طالب<sup>(1)</sup>.

وقال الشيخ داود ابن باخلا: لا تجعل دينك وإيمانك من نتائج العقول والأفكار،  
مستندا إلى أدلة النظر؛ بل عرج إلى المحل الأعلى واستمد البركات والأنوار من رسول الله  
ﷺ، وسل الله تعالى أن يمن عليك بمدد من عنده يعينك على كل شيء سواه، يهديك  
بنوره إليك حتى لا تشهد في ذلك إلا إياه. وقل: إنني أعوذ بك أن يكون إيماني بك  
وبما أنزلت وبما أرسلت مستفادا من فكرة مشوبة بالأوصاف النفسية، أو مستندا إلى  
عقل ممزوج بأشباح الطينة البشرية، بل من نورك المبين، ومددك الأعلى، ونور نبيك  
المصطفى. قاله الشعراني في طبقات الأولياء<sup>(2)</sup>.

وفيه أيضا: قال سيدي محمد الشاذلي: ذكر أهل الحضرة: الحمد لله، وأستغفر الله،  
ولا حول ولا قوة إلا بالله. وزدت أنا عليهم: آية من كتاب الله لتكون حرزا لأن كل  
أحد يجب دوام النعمة عليه وهي قوله تعالى: ﴿ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾. وهي كانت

(1) هو محمد بن علي الحارثي، أبو طالب، واعظ زاهد فقيه، من أهل الجبل (بين بغداد وواسط) نشأ واشتهر بمكة. ورحل إلى البصرة  
فانضم بالاعتزال. وسكن بغداد فوعظ فيها، فحفظ عنه الناس أقوالا مبرورة من أهلها. وتوفي ببغداد. "له قوت القلوب" في التصوف.  
توفي 386هـ. انظر: الرغبات: (498/1).

(2) انظر: الطبقات الكبرى للشعراني: (199/1).

هَجَرِي الإمام مالك<sup>(1)</sup> فكان لا يقوم ولا يقص إلا قالها، حتى أنه كتبها على باب داره وقال: جنة الرجل داره، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ لو قالها الرجل سلمت داره من الآفات.

وفي الحديث: «احتجت الجنة والنار فقالت هذه: يدخلني الجبارون والمتكبرون. وقالت هذه: يدخلني الضعفاء والمساكين<sup>(2)</sup>».. الحديث.

قال محمد بن إسحاق بن خزيمة<sup>(3)</sup>: الضعيف المذكور في هذا الحديث الذي يُرَى نفسه من الحول والقوة يعني في اليوم عشرين مرة أو خمسين مرة.

قال القرطبي: ومثل هذا لا يقال من جهة الرأي . فهو - والله أعلم - مرفوع.



# الفهرس

5	مقدمة التحقيق
11	الفصل الأول : منهجية التحقيق
13	التعريف بالمؤلف
21	الفصل الثاني : الجانب الصوفي من حياة الشيخ محمد اليدالي
28	لمحة عن كتاب خاتمة التصوف وشرحها
32	المراحل التي مر بها عمل التحقيق ثم وصف النسخ ثم الصعوبات التي تكمن في عمل التصحيح
43	نص خاتمة التصوف
45	التحقيق
55	الفصل الأول : البسملة
59	الفصل الثاني : فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم
67	القسم الأول : فائدة أثر الصلاة على النبي ﷺ
71	القسم الثاني : صلوات فيها فضل كثير تسمى بـ: —: "كيمياء السعادة لمن أراد الحسنى والزيادة"
75	القسم الثالث : صلاة الكنز الأعظم
77	الفصل الثالث : التصوف
80	القسم الأول : فوائد في التصوف
94	القسم الثاني : المتكلمون في التصوف من المعتزلة والخوارج
101	الفصل الرابع : المعرفة

109	الفصل الخامس: الآداب والأخلاق المحمودة
117	الفصل الأول: الفقه والعلم
118	القسم الأول: علم ما يصلح به القلب
129	القسم الثاني: جمع الفقه والتصوف
131	القسم الثالث: العلم والعبادة سبب السعادة
133	القسم الرابع: الاجتهاد في أعمال العبادة
133	القسم الخامس: روايات بعض الصالحين في الاجتهاد في العمل وبذل غاية الجهد
141	القسم السادس: تصفية العمل والإخلاص
143	الفصل الثاني: التباع السنة
147	الفصل الثالث: العلم والعمل
155	القسم الأول: العلم أفضل من العمل
166	القسم الثاني: فضل التعلم
170	القسم الثالث: العلم النافع
197	القسم الرابع: العلم غير النافع
201	القسم الخامس: وظيفة العالم
209	القسم السادس: التفاوة في أفضلية العلم
215	الفصل الرابع: أفضل الأعمال
216	القسم الأول: أفضل الذكر القرآن
257	الفصل الخامس: الحث على الأعمال الصالحة
257	القسم الأول: عدم ضياع العمر
261	القسم الثاني: إعمار الوقت وعدم الغفلة
264	القسم الثالث: أداء النوافل بعد أداء الفرائض

272	القسم الرابع: الصدقة
284	القسم الخامس: الصوم
285	القسم السادس: قيام الليل
295	القسم السابع: كثرة الأوراد والذكر
306	القسم الثامن: فوائد في الذكر:
322	القسم التاسع: إعمار الوقت بالفكر
323	القسم العاشر: إيصال الخير وإدخال السرور إلى المسلم
324	القسم الحادي عشر: إخفاء الأعمال الصالحة
329	الفصل السادس: التصوف وأركانه
330	القسم الأول: العزلة
348	القسم الثاني: التوبة ورد المظالم وفوائدهم
366	القسم الثالث: الجوع وفوائده
369	القسم الرابع: السهر والصمت
372	القسم الخامس: الاستقامة على السنة
376	القسم السادس: تجنب البدع وإنكارها
400	القسم السابع: تقوى الله ظاهرا وباطنا
405	الباب الأول: في الخلق فقط
407	الفصل الأول: الهوى
409	الفصل الثاني: الشيطان
415	القسم الأول: النفس
427	القسم الثاني: لزوم ذكر الموت

441	الفصل الثالث: الدنيا
442	القسم الأول: الزهد في الدنيا
471	القسم الثاني: الشبهات
493	القسم الثالث: الكفاف
505	القسم الرابع: كدر الدنيا والبلاء
533	الفصل الرابع: الناس
539	القسم الأول: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
549	القسم الثاني: إعطاء الحقوق وكف الأذى والصبر
557	القسم الثالث: الشفقة والإحسان وحسن الخلق
582	القسم الرابع: بعض أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم
588	القسم الخامس: الرفق بجميع المخلوقات
595	القسم السادس: عدم الاعتماد على العمل وحده